M.35
HUC.K

كشف المحجوب
للهجويري

دراسة وترجمة وتعليق
دكتورة إسعاد عبدالهادي قنديل

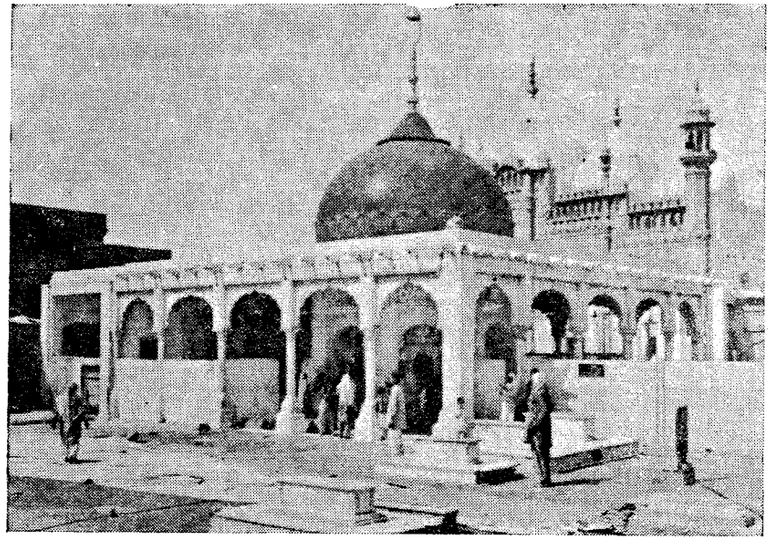
راجع الترجمة
دكتور أمين عبدالمجيد بدوي

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

١٩٨٠

« مزار الهجويرى فى مدينة لاهور بالباكستان »

مزار حضرت داتا كنج بخش هجويرى



منظـر خارجى للمـزار يظهـر فيه المسـجد
والضريح وبعض قبـور المريدين فى الفنـاء

كلمة وفاء

بدأت معرفتى بالهجويرى وكتابه « كشف المحجوب » فى عام ١٩٥٧ ، حين كنت ادرس التصوف فى ايران على أستاذى الجليل المغفور له الأستاذ الدكتور ابراهيم أمين الشواربى أستاذ اللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة عين شمس.وكان أستاذى رحمه الله كثير الاشارة الى الكتب الفارسية فى التصوف الاسلامى ، وكان يألم ويأمل من أجلها : يألم لأن المستشرقين سبقوا الى نشر بعضها ، وترجمة البعض الى لغاتهم ، ويأمل فى أن يقوم تلاميذه يوما بنقل هذا الجزء الهام من التراث الاسلامى الى اللغة العربية واثراء المكتبة العربية بهذا النتاج القيم للفكر الاسلامى .

وكان من بين الكتب التى عنى أستاذى بالحديث عنها كتابان طالما نبه الى قيمتهما فى دراسة التصوف ، وهما : كتاب « أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد » لمحمد بن المنور ، وكتاب « كشف المحجوب » لعلى بن عثمان الجلابى الهجويرى .

وعندما تهيأت للدراسات العليا وقع اختيارى على الكتاب الأول ليكون موضوع دراستى للماجستير ، وأتممت فى عام ١٩٦٤ اعداد بحث عن أبى سعيد بن أبى الخير مع ترجمة كتاب أسرار التوحيد . وفى نفس العام اخترت الكتاب الثانى ليكون موضوع دراستى للدكتوراه ، وعلى مدى خمس سنوات تمكنت بعون الله فى عام ١٩٦٩ من اعداد بحث عن « الهجويرى ومذهبه فى التصوف كما يبدو من كتابه كشف المحجوب » تحت اشراف الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين .

غير أن صحبتى لكشف المحجوب لم تنقطع بعد الدكتوراه ، فقد كنت أشعر فى قرار نفسى بأهمية نقل هذا الكتاب النفيس الى اللغة العربية حتى يفيد منه الدارسون للتصوف الاسلامى ممن لا يعرفون اللغة الفارسية ، فعكفت على ترجمة الكتاب ، واعداد حواش وافية وتعليقات على

الترجمة ، وتحقيق ما ورد فى الكتاب من اقوال وروايات وردها الى أصولها العربية .

وتم هذا العمل بعون الله ، وانى أرجو به أن أكون قد وفقت الى تحقيق شىء مما كان يأمل فيه أستاذى ، وأن يعمل غيرى لاكمال المسيرة ، فيتم نقل جميع الكتب الصوفية الفارسية الى لغتنا العربية الحبيبة .

والله ولى التوفيق ..

جمادى الأولى ١٣٩٣
يونيه ١٩٧٣

د. اسعاد عبدالهادى قنديل

تقديم

مؤلف كشف المحجوب هو : أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى،كان عالما من علماء الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ، ومعاصرا للدولة الغزنوية (٣٨٧ — ٥٨٢ هـ) ، وتوفى فى عهد السلطان ابراهيم الغزنوى (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) .

والهجويرى ولد فى مدينة «غزنه» بالهضبة الأفغانية ، ومنها استمد لقبه « الغزنوى » ، كما يلقب بالجلابى والهجويرى نسبة الى « جلاب » و « هجوير » وهما محلتان من توابع غزنة . وتاريخ ميلاد الهجويرى غير معروف ، وان كان من المرجح انه ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ولا نعرف عن حياة الهجويرى الخاصة الا القليل مما يشير اليه فى كتابه كشف المحجوب ، ونتبين منه انه تتلمذ على أبى العباس الشقانى ، وسلك طريق الصوفية بارشاد أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى ، وتلقى بعض التعاليم الصوفية على أبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ) و (خواجه) المظفر أحمد بن حمدان ، والتقى بمعاصره أبى القاسم القشيرى (٤٦٥هـ) .

ويبدو أن الهجويرى تلقى علومه الأولى فى موطنه غزنة،ولما بلغ مبلغ الشباب سلك مسلك علماء عصره فى السفر والتجول ، وقام برحلات واسعة النطاق ، تنقل خلالها فى أرجاء العالم الاسلامى : من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهند ، فزار: العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان وفارس وآذربيجان وجرجان والهند ، وأمضى فى هذه المناطق فترات كانت تقصر حينا وتطول أحيانا ، واختلف خلالها الى عدد من شيوخ الصوفية المعروفين ، فكان يلازم بعضهم وينخرط فى سلك مريديهم ، ويتردد على البعض الآخر ويتلقى منهم تعاليمهم .

وقد امتدت رحلات الهجويرى حتى سنة ٤٣١ هـ ، وهى السنة التى زار فيها مدينة لاهور بالهند للمرة الأولى ، وكان لا يزال فى هذه المدينة

عندما وقعت بها الفتنة سنة ٤٣٥ هـ فى عهد السلطان مودود الغزنوى (٤٣٢ ــ ٤٤١ هـ) وأسر بين الأسرى . ومن المرجح أن الهجويرى ترك لاهور عائدا الى غزنه وخراسان فى الفترة ما بين ٤٣٥ ، ٤٤١ هـ ، غير أنه رجع الى الهند مرة أخرى ، واستقر به المقام نهائيا فى مدينة لاهور ، وظل بهـا الى أن توفى .

وقد هيأت هذه الرحلات الطويلة للهجويرى سبل الاتصال بعدد كبير من شيوخ الصوفية ، وأئمة المذاهب الدينية ، ورؤساء الفرق الاسلامية المختلفة ، ومكنته من الوقوف على جميع التيارات الدينية التى كانت تسود العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى . ويسرت له فرص الاطلاع على العديد من المؤلفات الدينية والصوفية ، فاكتسب عن طريق هذا وذاك خبرات علمية واسعة ، ومارس التجربة الصوفية علما وعملا . كما أمدته هذه الرحلات بحصيلة وفيرة من المعلومات القيمة التى ضمنها كتابه واستخدمها فى مناقشاته للموضوعات التى تناولها .

وكان الهجويرى من أوائل الدعاة الى الاسلام فى شبه القارة الهندية ، وقد أسهم فى تحول عدد كبير من سكان لاهور الى الاسلام ، وكان فى مقدمتهم « راى راجو » نائب لاهور فى عهد السلطان مودود . وظل الهجويرى يعمل على نشر الدين الاسلامى والتعاليم الروحية فى مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها حوالى سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بهذه المدينة ، ولا يزال قبره بها داخل مزاره المعروف بمزار « داتا كنج بخش » وهو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهند وباكستان .

والهجويرى الف كتبا كثيرة اشير الى أسمائها فى كشف المحجوب ، وبعض هذه الكتب فقد فى حياة المؤلف ، وبعضها فقد بعد وفاته . ولم يبق من مؤلفات الهجويرى سوى كتابه كشف المحجوب الذى يرتبط اسمه دائما باسم مؤلفه .

وكتاب كشف المحجوب يعتبر أقدم مؤلف فى التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم فى الأصول النظرية والعملية للتصوف . وقد نوه بقيمة هذا الكتاب الشرقيون والمستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامى ، سواء منهم من بحثوا فى هذا الموضوع ، أو من قصروا جهودهم على نشر كتب التصوف وترجمتها .

وتاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، وان كان من المرجح أن مؤلفه بداه حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، وأتمه حوالى سنة ٤٤٢ هـ.

ويشتمل كشف المحجوب على خمسة وعشرين قسما تكلم فيها المؤلف فى الأصول النظرية والعملية للتصوف ، وتراجم الأئمة وشيوخ الصوفية ، وأقوال الصوفية ورموزهم ، والفرق الصوفية ، والعقائد الدينية والعبادات ، والمعاملات ، ورسوم الصوفية وتقاليدهم .

وموضوع كتاب كشف المحجوب جاء ردا على السؤال الذى وجهه الى الهجويرى أحد رفاقه فى غزنة وطلب اليه أن يبين له طريق الصوفية ومقاماتهم ومذاهبهم وأقوالهم ورموزهم ومعاملاتهم . وقد أجاب الهجويرى على هذا السؤال اجابة مطولة ، ذلك أنه وضع فى اعتباره أن يوضح لعامة الناس الطريقة والشريعة ، وأن يوائم بين تعاليم الصوفية والدين الاسلامى ، وهو ما حاوله قبله مؤلفو الصوفية كأبى نصر السراج الطوسى فى اللمع ، وأبى القاسم القشيرى فى الرسالة ، وما فعله بعده الامام الغزالى فى احياء علوم الدين .

وكتاب كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء فى المنهج العام ، أو المواد التى تناولها كل من مؤلفيهما ، مما يوضح أن الهجويرى اعتمد على اللمع . كما يتضمن كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من الرسالة القشيرية ، مما يؤكد ان مؤلفه اطلع عليها وأفاد منها .

وبالاضافة الى اللمع والرسالة ، فقد اعتمد الهجويرى اعتمادا كبيرا على كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ونقل عنه كثيرا ، لاسيما فى الجزء الخاص بتراجم شيوخ الصوفية .

وقد أفاد مؤلفو الصوفية الفرس من كشف المحجوب ، وعلى الأخص « فريد الدين العطار » فى كتابه «تذكرة الأولياء» ، و «عبد الرحمن الجامى» فى كتابه « نفحات الأنس » . كما أفاد من كشف المحجوب ، على نطاق واسع ، اثنان ممن كتبوا فى التصوف فى العصر الحديث وهما : قاسم غنى ، وأبو العلا عفيفى ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسى لكشف المحجوب ، والثانى كتب باللغة العربية ونقل عن الترجمة الانجليزية للكتاب .

وكشف المحجوب طبع لأول مرة فى ليننجراد سنة ١٩٢٦ م ، وطبع للمرة الثانية فى طهران سنة ١٣٣٦ هـ ش (ويقابلها ١٣٧٧ هـ ق — ١٩٥٧م) ، وقام بترجمته الى الانجليزية المستشرق الانجليزى نيكولسون ، ونشرت الترجمة فى لندن سنة ١٩١١ م .

ولما كان موضوع هذه الدراسة هو : كتاب كشف المحجوب ، فقد قسمتها الى بابين :

الباب الأول : فى التعريف بمؤلف الكتاب

ويشمل الحديث عن عصر الهجويرى من النواحى السياسية والثقافية والدينية والصوفية ، والتعريف بمدينة « غزنه » باعتبارها موطن الهجويرى ومسقط رأسه ، ومدينة « لاهـــور » باعتبارها الموطن الثـــانى للهجويرى ومثواه الأخير .

ويتبع ذلك التعريف بالهجويرى من حيث اسمه وألقابه ومولده ونشأته وزواجه والعـــلوم التى حصلها وأســـاتذته وشـــيوخه ورحـــلاته ووفاته ومؤلفاته .

والباب الثانى : فى التعريف بكتاب كشف المحجوب

ويشمل الحديث عن الكتاب وموضوعه واقسامه ومصادره ومنزلته بين كتب التصوف العربية والفارسية السابقة عليه والمؤلفة بعده ، والقيمـــة العلمية للكتاب .

ويتبع ذلك تعريف بمخطوطات الكتاب وطبعاته والترجمة الانجليزية .

القسم الأول

دراسة حول

الهجويرى وكتابه كشف المحجوب

الباب الأول

التعريف بالجويري

الفصل الأول

عصر الهجويرى

من النواحى السياسية والثقافية والدينية

أولا : الناحية السياسية :

« على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى » مواطن غزنوى ينسب الى مدينة « غزنه » موطن الأسرة الغزنوية التى أسست فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى دولة كبيرة ، عرفت فى التاريخ الاسلامى باسم الدولة الغزنوية .

والهجويرى عاش حياته كلها فى ظل الدولة الغزنوية . وعلى الرغم من أننا لانعرف تاريخى ميلاده ووفاته على وجه التحديد ، الا أنه من المرجح أنه عاش فى الفترة ما بين العقدين التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى والعقد السابع من القرن الخامس الهجرى ، وهذه الفترة تعاصر فى نصفها الأول فترة المجد الحقيقى للدولة الغزنوية التى حكم فيها أشهر سلاطينها الثلاثة الأول : « سبكتكين » وابنه « محمود » و « مسعود بن محمود » ، وتعاصر فى نصفها الثانى فترة أقل قوة فى تاريخ الدولة الغزنوية، حكم فيها سلاطين ثلاثة آخرون هم : « مودود بن مسعود » و « عبد الرشيد بن محمود » و « فرخزاد بن مسعود » . وتوفى الهجويرى فى عهد « ابراهيم بن مسعود » .

ويعتبر « سبكتكين » المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية التى قامت أول الأمر فى مدينة غزنة عندما أسسها مولى من الموالى الأتراك يدعى « البتكين » — وكان يلى قيادة الجيش السامانى من قبل عبد الملك السامانى ، فلما توفى عبد الملك انسحب البتكين الى غزنة — وكان أبوه حاكما عليها من قبل السامانيين ، فتولى حكمها بعده .

وكان لألبتكين عبد مملوك يدعى سبكتكين ، لم يلبث أن أصبح صهرا له ، ثم خلفه فى حكم غزنة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وضم اليها قصدار

والباميان وطخارستان(١) ، وشن حملتين موفقتين على ملك البنجاب « جيبال » وهزمه وأكرهه على أن يتخلى له عن اقليم كابل الذى يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندى الخصيب(٢) .

وعندما استنجد نوح بن منصور السامانى بسبكتكين على قواده ، أسرع اليه ومعه ابنه محمود ، وأحرزا له النصر ، فكافأ سبكتكين بولاية خراسان، وولى ابنه محمودا قيادة الجيش . وهكذا سيطر سبكتكين على خراسان وصفت له(٣) .

وبعد وفاة سبكتكين فى بلخ سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، خلفه فى الحكم ابنه الأصغر اسماعيل ، غير أن أخاه محمودا لم يلبث أن انتزع العرش منه .

ويعتبر « محمود الغزنوى » (٣٨٨ — ٤٢١ هـ / ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) أشهر حكام الغزنويين على الاطلاق ، وواحدا من الشخصيات العظيمة التى لعبت دورا كبيرا فى آسيا الوسطى(٤) . وهو أول شخص فى الاسلام خوطب بلقب السلطان من قبل الخليفة(٥) العباسى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م) .

وقد بلغت الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود أوج مجدها واتسعت ممتلكاتها حتى ضمت جميع بلاد العجم : من خراسان وخوارزم وطبرستان والعراق وفارس وجبال الغور وطخارستان،وانقاد لهملوك التركستان(٦) . وما لبث هذا الأمير المحارب ان ولى وجهه شطر الهند ، فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبعة وعشرين عاما(٧) فيما بين عامى ٣٩١ ، ٤١٧هـ (١٠٠٠، ١٠٢٦ م) فخضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ، ومن الهملايا الى الدكن ، وأكسبته هذه الغزوات وحبه للاسلام لقب«محطم الأصنام » . وتوفى السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ(٨) .

واذا كان السلطان محمود قد استطاع عن طريق غزواته أن يرفع راية الاسلام فوق قلاع الهند ومعابدها ، وأن يخطط بأسنة سهامه وسيوفه تربة

---

(١) « طبقات ناصرى » منهاج السراج : كابل ١٣٤٢ هـ ش ص ٢٢٦
(٢) « تاريخ الشعوب الاسلامية » بروكلمان : ترجمة نبيه امين : بيروت ١٩٥٣ جـ ٢ ص١١٩
(٣) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٧ .
(٤) «Sykes» : A History of Persia, London, 1961, V. 2, p. 26.
(٥) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٨ .
(٦) « السابق » ص ٢٣٠
(٧) « الكامل » ابن الاثير : القاهرة ١٣٤٨ هـ . (انظر حوادث سنة ٣٩١ — ٤١٧ .
(٨) « الكامل » أنظر حوادث ٤٢١ هـ .

تلك الديار ويمهدها لبذر بذور الدين الاسلامى ، فانه لم تمض وقت طويل حتى ذهب الى تلك البلاد غزنوى آخر ، فبذر تلك البذور بالخرقة والسجادة بدلا من السهام والسيوف ، وكان ذلك الرجل هو « على بن عثمان بن أبى على الهجويرى الغزنوى » (١) .

وقد تميز أواخر عهد السلطان محمود بظهور قوة ناشئة هى قوة السلاجقة التى بدأت تمارس نشاطها فى اقليم خراسان ، واكن محمودا أوقفهم عند حدهم ، فلزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياته ، غير أن خطرهم لم يلبث ان تفاقم بعد وفاته ، فسيطرو على الولايات الغربية من الدولة الغزنوية ، واستطاعوا فى أقل من عشر سنوات أن ينتزعوا خراسان جميعها من ابنه مسعود .

وكان « مسعود » (٤٢١ — ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ — ١٠٤٠ م) قد استخلص الملك من أخيه الأصغر « محمد » — الذى أجلسه رجال الحاشية والأمراء على العرش فى غزنة بعد وفاة أبيه — وسجنه بقلعة « كوهتيز » وأرسل الى الخليفة القادر فى طلب اللواء والعهد ، فأقره الخليفة على ما دخل فى حوزته من ولايات : « الرى » و « الجبال » و « اصفهان » ، وأمره بأن يعجل بالسير الى خراسان كيلا يقع اضطراب فى ذلك الثغر العظيم(٢) .

غير أن ما كان يخشاه الخليفة قد حدث بالفعل ، فقد كانت قوة السلاجقة آخذة فى الازدياد ، وبدأوا يغيرون غارات منظمة على خراسان منذ عام ٤٢٥ هـ ، مما جعل مسعودا يذهب بنفسه الى نيسابور لقتالهم ، وتمكنت جيوشه من هزيمتهم بالقرب من « نسا » عام ٤٢٦ هـ . وعندما بلغ هذا الخبر مسامع داود السلجوقى استعان بجيش كبير وقاتل الغزنويين ، وتغلب عليهم (٣) وكانت هذه أول هزيمة جدية وقعت لمسعود ، واضطر معها الى أن يعقد صلحا مع السلاجقة لكى يتفرغ للذهاب الى الهند ، ولم يلبث أن سار اليها وفتح قلعة « هانسى » سنة ٤٢٨ هـ (٤) .

وعند عودة مسعود من الهند علم بارتفاع شأن السلاجقة فى خراسان وحاول أن يجليهم عنها ، وهاجمهم بالقرب من « سرخس » عام ٤٢٩ هـ ،

---

(١) مجلة « هلال » جلد بنجم شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ هـ ش : مقال بقلم «غلام سرور»
(٢) « تاريخ البيهقى » أبو الفضل البيهقى : ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م : ص ٤٧ .
(٣) « زين الأخبار » الكرديزى : طهران ١٣١٥ هـ ش . ص ٨١
(٤) « السابق » ص ٨٣ ، « تاريخ البيهقى » ص ٥٨٠ .

غير أن السلاجقة تمكنوا من هزيمته ولم يلبث « طغرلبك » السلجوقى أن دخل نيسابور ، وجلس على عرش مسعود ، وأعلن نفسه سلطانا للسلاجقة(١) .

وازداد مسعود غضبا على السلاجقة ، وخرج من غزنة الى خراسان قاصدا الثأر ، ولكن جهوده باءت بالفشل ، فقد هزمه السلاجقة هزيمة نكراء عند « داندانقان » بالقرب من « مرو » عام ٤٣١هـ(٢) ، وكانت هذه الموقعة حدا فاصلا فى تاريخ الدولتين الغزنوية والسلجوقية ، فقد قضت نهائيا على نفوذ الغزنويين فى خراسان ، وأكدت نفوذ السلاجقة بها .

ورجع السلطان مسعود الى غزنة التى كان يسودها الاضطراب والمذابح والمعارك ، فقد حاصرها السلاجقة وسدوا الطريق اليها ، وقبض مسعود على بعض الفارين من رجاله وأرسلهم الى الهند ليسجنوا بها .

وخلال تلك الاضطرابات رحل الهجويرى عن غزنة على عجل ، بحيث لم يستطع أن يحمل معه كتبه ، فتركها هناك(٣) ، وتوجه الى بلاد الهند . وكان ذهابه اليها حوالى سنة ٤٣١ هـ(٤) .

ويبدو أن الهجويرى كان مرتبطا فى حياته بالدولة الغزنوية ، يعيش فى المناطق الخاضعة لنفوذها ، ويتنقل بينها . وقد عرفنا من كشف المحجوب انه قضى فترة كبيرة من حياته فى السفر والتجول ، ومن خلال تتبعنا لرحلاته نعرف أنه قضى الجزء الأكبر من فترة التجول فى اقليم خراسان ، وزار عددا كبيرا من مدنه ، وأقام ببعضها فترات كانت تقصر حينا وتطول أحيانا(٥) . ومن الواضح أن الفترة التى قضاها متنقلا بين مدن خراسان تقابل الفترة التى كان فيها نفوذ الغزنويين يسيطر على هذه المنطقة فلما انحسر نفوذهم عنها رجع الى غزنة ، وواجه فيها تلك الاضطرابات . وربما أحس الهجويرى

---

(١) « تاريخ البيهقى » ص ٣٠٦ ، « الكامل » حوادث ٤٢٩ ، « راحة الصدور » الراوندى : ترجمة ابراهيم الشواربى وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد : القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٨ .

(٢) « تاريخ البيهقى » ص ٦٨٤ ، « راحة الصدور » ص ١٦٣ ، « طبقات ناصرى » ص ٢٣٣ .

(٣) « كشف المحجوب » لابى الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى : طهران ١٣٣٦ هـ ش (انظر : ص ١١٠) .

(٤) « تذكرة حضرت على هجويرى » حكيم سيد أمين الدين دهلوى : لاهور ١٩٦٢ ص ٢٠ The Life and Teachings of Hazrat Data — Ganjbakhsh : Lahore 1967, p. 23.

(٥) « كشف المحجوب » أنظر ص ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ .

عقب هزيمة مسعود أن الأمر على وشك أن يخرج من أيدى الغزنويين فى غزنة ، كما خرج من أيديهم فى خراسان ، فترك غزنة الى الهند حيث بدأ يمارس نشاطه الدينى والروحى فى تلك البلاد تحت رعاية الغزنويين ، وقام بنشر تعاليم الدين الاسلامى ، وهداية الناس وارشادهم .

أما السلطان مسعود فقد فكر ، بعد هزيمته على أيدى السلاجقة ، فى أن يذهب الى الهند ليجمع جيشا يحارب به السلاجقة من جديد ، وخرج من غزنة حاملا معه خزائنه . وعند « ماريكله » خرج عليه غلمانه ، وقبضوا عليه ، وأرسلوه الى قلعة كسرى(١) ، وأجلسوا أخاه محمدا على العرش . ثم لم يلبث مسعود ان قتل على أيدى أبناء محمد سنة ٤٣٢ هـ(٢) .

وتولى مودود بن مسعود أمر الغزنويين فى غزنة عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م.) ، وكان أول عمل قام به أن اتجه لقتال عمه محمد ، انتقاما لمقتل أبيه ، فقبض على محمد وابنه والقواد وقتلهم(٣) .

وفى سنة ٤٣٥ هـ ، أراد مودود أن يسترد نفوذ الغزنويين فى خراسان ، فسير اليها حاجبه . وعلم بذلك داود السلجوقى فأرسل ابنه « ألب أرسلان » والتقى الطرفان واقتتلا ، وكان الظفر لألب أرسلان ، وعاد عسكر غزنة منهزما(٤) ، واستولى السلاجقة على « بست » و « سيستان » ، وبذلك انتهى حكم الغزنويين فى ايران ، واقتصر نفوذهم على غزنة وممتلكاتهم بالهند .

ومن أبرز الأحداث التى وقعت فى الهند فى عصر مودود : فتنة الراجات ، فقد اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وحاصروا لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وعلم السلطان مودود بذلك ، فأرسل جيشا تمكن بالتعاون مع مقدم العساكر الاسلامية فى تلك الديار من هزيمتهم(٥) وتسلم قواد مودود جميع القلاع ، وغنم المسلمون الأموال ، وأطلقوا ما فى الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا خمسة آلاف رجل(٦) . ومن المرجح أن الهجويرى كان بين الأسرى ، فقد أشار فى كشف المحجوب الى أنه وقع أسيرا فى لاهور حيث شغل بتأليف كتابه (٧) .

---

(١) « زين الأخبار » ص ٨٧ .

(٢) الكامل : حوادث سنة ٤٣٢ ، « زين الأخبار » ص ٨٧ ، « طبقات ناصرى » ص ٢٣٤

(٣) « زين الأخبار » ص ٨٨ — ٨٩ ، « الكامل » حوادث ٤٣٢ .

(٤) « الكامل » : حوادث ٤٣٥ .

(٥) « جامع التواريخ » رشيد الدين فضل الله : أنقره ١٩٥٧ ، المجلد الثانى ج ٤ ص ٢١٧

(٦) « الكامل » أنظر حوادث ٤٣٥ .

(٧) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

وتوفى السلطان مودود سنة ٤٤١ هـ(١) .

وتوالى على عرش غزنة بعد مودود : « محمود بن مودود » ، و « على ابن مسعود » . ولما لم تكن لهما دراية بأمور الحكم فقد خلعا وسجنا ، وجلس على العرش بعدهما عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين (٤٤١ — ٤٤٤ هـ)(١) .

ثم تولى عرش غزنة من بعده : « فرخزاد بن مسعود » (٤٤٤—٤٥١هـ ١٠٥٢ — ١٠٥٩ م) الذى استطاع هزيمة السلاجقة وأسر قائدهم فى احدى المعارك التى دارت بين الدولتين ، فلم يفكر السلاجقة فى مهاجمة غزنة طوال فترة حكم فرخزاد . وتوفى فرخزاد عام ٤٥١ هـ(٢) ، وتولى بعده : « ابراهيم بن مسعود » (٤٥١ — ٤٩٢ هـ / ١٠٥٩ — ١٠٩٨ م) ، فأحسن السيرة واستعد لجهاد الهند ، وفتح حصونا امتنعت على أبيه وجده ، منها قلعة آجود(٤) . وقلعة يقال لها روبال(٥) .

وتميز عصر ابراهيم بالمهادنة مع السلاجقة ، وسعى « داود » السلجوقى لعقد صلح معه ، ووقع بذلك عهدا ، وثبت عليه ابنه ألب أرسلان الذى تولى بعده(٦) . وزوج ابراهيم ابنه من ابنة ملكشاه السلجوقى ، وبهذه المصاهرة أمن جانب السلاجقة . وطالت مدة حكمه ، وأعاد لدولة محمود رونقها ، وعمر كثيرا من الأماكن ، وحكم ٤٢ سنة .

وفى خلال فترة حكم السلطان ابراهيم توفى الهجويرى حوالى سنة ٤٦٥ هـ ، وقام السلطان ببناء ضريح له(٧) .

وتوالى على عرش غزنة بعد وفاة السلطان ابراهيم سنة ٤٩٢ هـ : « مسعود بن ابراهيم » و « أرسلان نشاه بن مسعود » و « بهرامشاه ابن مسعود » الذى دعا للسلاجقة على منابر غزنة ، ولذلك يعتبر يوم جلوس بهرامشاه تاريخا لسقوط غزنة فى أيدى السلاجقة(٨) .

---

(١) « الكامل » أنظر حوادث ٤٤١ .
(٢) « طبقات ناصرى » ص ٢٣٥ .
(٣) « الكامل » أنظر حوادث سنة ٤٥١ .
(٤) « جامع التواريخ » ج ٤ ص ٢١٨
(٥) « الكامل » أنظر حوادث سنة ٤٧٢ ، سلطنت غزنويان : خليلى : كابل ١٣٣٣ ص ٢٤٨
(٦) طبقات ناصرى ص : ٢٣٩ .
(٧) تذكرة على هجويرى ص ٤٩ .
(٨) سلطنت غزنويان . ص ٢٥٤ .

ويتميز عصر بهرامشاه بالنزاع مع ملوك الغور الذين ازداد خطرهم ، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على غزنة واقليم كابل ، بل انهم تعقبوا خسروشاه بن بهرامشاه الغزنوى وابنه بهرامشاه الثانى آخر سلاطين الدولة الغزنوية وطاردوهما حتى قتلوهما ، وبذلك انتهت سيرة دولة الغزنويين التى عمرت قرنين من الزمان ، ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند .

ثانيا : الناحية الثقافية :

يعتبر العصر الغزنوى من أزهى العصور التى ازدهرت فيها الحضارة الشرقية الاسلامية . وقد أجمع المؤرخون والنقاد على أن النهضة العلمية والأدبية برزت فى ذلك العصر على نحو لم يسبق له مثيل ، وتركزت هذه النهضة بصفة خاصة فى بلاط السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١هـ) الذى استطاع أن يجعل من قصره فى غزنة مركزا للنشاط العلمى والأدبى، كانت ترنوا اليه الأنظار ، وتشخص اليه الأبصار(١) .

وكانت هناك فى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى مراكز أربعة تجتذب اليها رجال العلم والأدب وهى :

قصر « الصاحب بن عباد(٢) » فى اصفهان والرى .
قصر « السامانيين » فى بخارى .
قصر « قابوس بن وشمكير » فى طبرستان .
قصر « المأمونيين » فى خيوه .

ولكن حدث فى الفترة ما بين ٣٨٧ : ٤٠٨ هـ،أن توفى الصاحب بن عباد ، وزالت الدولة السامانية من الوجود ، وقتل قابوس بن وشمكير ومأمون الثانى ، واستطاع السلطان محمود بواسطة ذلك ، وبواسطة الفتح والغزو أن يضم اليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون هؤلاء الأمراء(٣) .

---

(١) تاريخ الادب فى ايران : ادوارد براون . ترجمة ابراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ ص ١١٠ — ١١١ .
(٢) « الصاحب اسماعيل بن عباد » وزير البويهيين المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ، يرد عنه أنه كان يملك من كتب العلم ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر وكان فهرس كتبه يقع فى عشر مجلدات (انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » أدم ميتز : ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤٧ ج ١ ص ٣) .
(٣) « تاريخ الادب فى ايران » براون ص ١١٧ — ١١٨ .

ومن المشهور عن بلاط السلطان محمود فى غزنة أنه كان يجتمع فيه من اهل الأدب زهاء أربعمائة(١) ، من بينهم مجموعة من الشعراء الكبار ، أمثال « عنصرى » و « فردوسى » و « أسدى » و « عسجدى » وغضائرى ، وفرخى(٢) . وكان السلطان محمود يصطحب معه فى غزواته بعض هؤلاء الشعراء فكانوا يصفون المعارك والأحداث ، ويسجلون الوقائع والغزوات .

وقد خلف هؤلاء الشعراء والأدباء دواوين رائعة تزخر بالمدائح لهذا السلطان ، والفوا المؤلفات العديدة فى محامده ومآثره ، نظما ونثرا ، باللغتين العربية والفارسية ، فألف أبو منصور محمد بن عبد الجبار العتبى تاريخه المعروف بتاريخ العتبى(٣) وأتم الفردوسي شاهنامته التى تعد أروع دليل على روح الأسلوب الملحمى الفارسى فى قمة اكتماله .

لم تكن عناية السلطان محمود بالعلوم أقل من عنايته بالأدب ، فكان يحرص على أن يضم الى بلاطه فى غزنة النابهين من العلماء ، ولم يدخر وسعا فى استقدامهم اليه حتى أنه كا يلجأ الى الترغيب تارة والترهيب تارة(٤) . وقد نجح فى أن يضم اليه «العراق» و « الخمار » و «البيرونى» وكان كل من هؤلاء اماما فى فنه ، فقد كان أبو نصر العراق الثانى لبطليموس فى العلوم الرياضية ، وأبو الخير الخمار الثالث لبقراط وجالينوس فى الطب(٥) ، وأما أبو ريحان البيرونى فكان عالم عصره العظيم وأحد كبار العلماء فى العالم الاسلامى كله . وقد التحق ببلاط السلطان محمود بعد مقتل مأمون الثانى ، ومن غزنة قام البيرونى بعدة رحلات علمية فى الديار الهندية وتعلم اللغة السنسكريتية ، والف كتابه الشهير عن الهند(٦) الفريد فى الأدب العربى ، والذى أدى للدراسات الأوروبية خدمة جليلة أيضا(٧) .

وكان السلطان محمود يطمع فى أن يضم الى بلاطه « ابن سينا » ولكنه فر(٨) وظل محمود يأسف لفراره طويلا .

---

(١) « شعر العجم » شبلى نعمانى ترجمة : محمد تقى فخرداعى گيلانى طهران ١٣١٦ أنظر ج : ١ ص ٣٦
(٢) السابق « ص ٣٨ » .
(٣) تاريخ العتبى : قام بشرحه أحمد المنينى ويعرف بتاريخ يمينى .
(٤) جهار مقاله « نظامى عروضى سمرقندى ليدن » ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م ص : ٧٧
(٥) نفس المرجع السابق ص ٧٦
(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى القول أو مرذولة » أنظر « سبك شناسى » بهار : طهران ١٣٢١ هـ ش ج ٢ ص ٢٨ حاشية ٢١
(٧) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢١
(٨) جهار مقاله ، ص ٧٧

ومما يدل أيضا على عناية السلطان محمود بالعلوم والآداب ، تلك المدرسة التى ألحقها بجامع غزنة وكانت تعرف بدار العلم ، وأسس فيها مكتبة جمع فيها جميع المؤلفات القديمة والنادرة التى لم يتوفر وجودها الا فى غزنة(١) .

ولم تكن العناية بالعلوم والآداب مقصورة على السلطان محمود وحده ، فقد كان ابنه السلطان مسعود يهتم بالشعراء والأدباء ، ويصلهم بصلات كبيرة ، قال عنه ابن الأثير انه كان محبا للعلماء ، كثير الاحسان اليهم والتقرب لهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة فى فنون العلم ، وأجاز الشعراء جوائز عظيمة ، أعطى شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر لكل بيت الف درهم(٢) .

ثالثا : الناحية الدينية :

كان المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى مقسما من الناحية الدينية الى كتلتين : أهل السنة ، والشيعة ، فالخلفاء العباسيون فى بغداد ومن تبعهم من الملوك والحكام سنيون يتعصبون للسنة ، والفاطميون فى مصر والشام والمغرب ، وبنو بويه فى العراق شيعيون يتعصبون للشيعة ، وكان الخلاف قائما على أشده بين الكتلتين .

وفى القرن الخامس الهجرى كثرت الفرق الاسلامية واشتد النزاع بينها ، ولم يعد الخلاف مقصورا على أهل السنة والشيعة ، بل تعدى ذلك الى أهل السنة فيما بينهم ، فظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة كالشافعية والحنفية ، وتنازع الفقهاء بعضهم مع البعض ، وبلغت الخلافات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة والأشعرية والمعتزلة والاسماعيلية ، وأيضا النزاع والجدل بين المذاهب السنية ، الى حد أن مجادلات العلماء ومناظراتهم كانت تنتهى أحيانا بالعراك والقتل والنهب والحرق(٣) .

ولم تكن الدولة الغزنوية بمعزل عما يجرى فى العالم الاسلامى ، فقد كان الغزنويون يعتنقون مذهب أهل السنة ، ويدينون بالولاء للعباسيين أصحاب هذا المذهب ، ويشاركون فيما يجرى حولهم من أحداث .

---

(١) شعر العجم ج ١ ص : ٣٥
(٢) « الكامل » : حوادث ٤٣٢ .
(٣) « تاريخ تصوف در اسلام » قاسم غنى : طهران ١٣٢٢ هـ ش ، ص ٤٦٨ .

وعلى الرغم من أن الدولة التى سبقت الغزنويين فى ايران ، وهى الدولة السامانية ، كانت أيضا تنتمى الى المذهب السنى ، وتدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، الا أنها كانت تهادن المخالفين لمذهبها ، حتى أن الاسماعيلية بلغوا شيئا من النفوذ فى عهد نصر بن أحمد السامانى . وربما كان هناك أثر للتعصب المذهبى فى بعض نواحى ايران ، مثل نيسابور ، الا أن الحكومات لم تكن تتدخل فى هذه الأمور(١) . غير أن هذا الوضع لم يلبث أن تغير فى القرن الخامس ، وأخذ الملوك والحكام يتدخلون بالتدريج فى هذا الصراع . وكان السلطان محمود الغزنوى أول ملك من ملوك ايران نكل بالمخالفين لمذهبه(٢) . وقد بلغ من تعصبه للمذهب السنى الذى كان يعتنقه ، أن امتثل لأمر الخليفة العباسى « القادر » ، وشن حربا لا هوادة فيها على المعتزلة والفلاسفة والاسماعيلية والقرامطة وأعمل فيهم القتل والصلب ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم . وجعل كثيرا من كتب الحكمة والفلسفة والنجوم ورسائل المعتزلة طعمة للنيران(٣) . واعترف هو نفسه بهذا ، فقال أنه أدخل أصبعه ، من أجل العباسيين ، فى كل جهات العالم يبحث عن القرامطة ويشنق كل من يجده وتثبت عليه القرمطة(٤) .

وفى ذلك الوقت كانت مذاهب أهل السنة بعضها يتجه الى الضعف وبعضها يتجه الى الانتشار والرواج . وكان المقبول من المذاهب الأصلية فى جميع الممالك الاسلامية : « المالكى » و « الحنفى » و « الشافعى » ، وكان رواج المذهبين الشافعى والحنفى أكثر من غيرهما فى ايران . وقد ورد عن السلطان محمود أنه كان يعتنق المذهب الحنفى ، ولم يلبث أن تحول عنه الى المذهب الشافعى ، يقول ابن خلكان : « وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث فوجد أكثرها موافقا لمذهب الشافعى فوقع فى خلده حكمه »(٥) .

وكان الشيوخ والأئمة والحكماء يجتمعون فى بلاط غزنة ويتجادلون حول

---

(١) « تاريخ أدبيات در ايران » ذبيح الله صفا : طهران ١٣٤٢ هـ ش ج ١ ص ٢٠٢ بباب
(٢) « السابق » ص ١٣٧ .
(٣) « لما أغار السلطان محمود على الرى » سنة ٤٢٠ هـ استخراج من بيت كتب « الصاحب » كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه (« ميتز » ج ١ ص ٢٤٦).وخلع « مجد الدولة » وأمر بنفيه فى خراسان ، وأتبع ذلك بصلب جماعة من الباطنية وتشريد المعتزلة وحرق كتبهم وكتب الفلاسفة والمنجمين . أنظر « الكامل » حوادث ٤٢٠
(٤) « تاريخ البيهقى » ص ١٩٤ .
(٥) « وفيات الاعيان » : ابن خلكان ج ٢ ص ٨٦

المذاهب بين يدى السلطان . ويبدو أن الهجويرى كان يشارك فى هذه المجادلات ، فقد ورد فى « رسالة ابداليه » انه تجادل مرة مع واحد من حكماء الهنود فى مجلس السلطان محمود وأفحمه تماما(١) .

وأشار الهجويرى فى كشف المحجوب الى مجادلة وقعت فى بلاط غزنة بينه وبين واحد ممن كانوا يدعون الامامة والعلم فى مسألة تتعلق بالتصوف(٢) .

وعلى الرغم من أن الصوفية كانوا خصوما الداء للفقهاء ، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه تعبيرا قاسيا فكانوا يسمونه علم الدنيا(٣) ، الا أن شيوخ القرنين الرابع والخامس الهجريين ، نظرا لمعاصرتهم للحكام السنيين المتعصبين ، أخذوا يسعون لتحصيل علوم الظاهر(٤) واتجهوا لتأليف الكتب ، فبدأ فى القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فى مقامات الصوفية وشرح أسس التصوف ، بحيث وجدت فى أواخر هذا القرن كتب قيمة مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » ، وجميعها مؤلفة باللغة العربية .

---

(١) «Bulletin of the School of Oriental Studies» London, 1926.
نقلا عن : « رسالة آبدالية » يعقوب بن عثمان جرخى
(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ١١٥ .
(٣) « الحضارة الاسلامية » : ميتز ج ١ ص ٢٦٦
(٤) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٢

الفصل الثـــانى

« التصوف فى عصر الهجويرى »

تمهيـــــد :

اتجه كثير من المستشرقين والباحثين فى أصل التصوف الى رده لعوامل خارجية بعيدة عن البيئة الاسلامية ، فمنهم من أرجعه الى أصل هندى ، ومنهم من رده الى الرهبنة المسيحية ، ومنهم من قال انه رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاه المسلمون على أهل فارس فرضا ، ومنهم من زعم أنه وليد الفلسفة اليونانية . وهناك من خالف هؤلاء وقال ان التصوف الاسلامى نابع من البيئة الاسلامية والدين الاسلامى . والصوفية أنفسهم يعتقدون أن طريقتهم مشيدة بالكتاب والسنة ، وأنها مبنية على سلوك اخلاق الأنبياء والأصفياء(١) .

والتصوف نزعة روحية تميل بالانسان عن العالم المادى وترتفع به الى العالم الروحى ، وهو بهذا المفهوم ظاهرة انسانية تنشأ فى كل بيئة دينية ، وتنمو نتيجة لعوامل داخلية موجودة فى تلك البيئة ، فمما لا شك فيه أن التصوف الاسلامى جزء من الأجزاء التى يتألف منها التراث الدينى والعقلى والنفسى للاسلام ، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الاســـلامية لعوامل النشوء والارتقاء ، وأن تاريخ التصوف فى الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الاسلام نفسه ، ومظهر من مظاهر هذا الدين ، وما أحاط به من ظروف ، وما دخل فيه من شعوب ، وليس شيئا اجتلب من الخارج دون أن تكون له صلة بالدين الاسلامى وروحه وتعاليمه .

على أننا يجب الا ننكر وجود مؤثرات خارجية ساعدت على نموالتصوف الاسلامى وتطوره ، فقد تعاونت العنـــاصر الروحية الوافدة على البيئة الاسلامية مع العوامل الدينية التى كانت موجودة فى تلك البيئة ، وعملت

---

(١) « الطبقات الكبرى » : الشعرانى القاهرة ١٣١٦ هـ ج ١ ص ٣

معها على تطوير التصوف وبلوغه النضج والكمال ، وان كان هذا فيما بعد نشأته الأولى .

(ا) نشأة التصوف الاسلامى والمراحل التى مر بها حتى عصر الهجويرى :

نشأ التصوف الاسلامى نشأة اسلامية ، فقد ظهرت بذوره الأولى فى نزعات الزهد التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى ، وكان قوامه الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والعناية بأمور الدين ، ومراعاة أوامر الشريعة ، وكانت غايته التى يتطلع اليها العباد والزهاد هى الظفر برضوان الله والنجاة من عقابه .

وكان زهد الزهاد والعباد فى صدر الاسلام معتدلا ، بمعنى أنهم كانوا يشاركون فى الحياة الاجتماعية ، ويسعون لكسب معاشهم ، ويرعون أوامر الدين والشرع بكل طاقتهم ، ويحافظون عليها بأرواحهم .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ظهر من بين الزهاد أفراد يحيون حياة تخالف حياة الآخرين ، من حيث المبالغة فى الزهد ، وترك متاع الدنيا، ورياضة النفس ، فكان لا بد أن يتسموا باسم خاص ، فأطلق عليهم اسم الصوفية . وكان تصوف هؤلاء امتدادا لزهد ومسلك زهاد القرن الأول مع شىء من المبالغة ، فقد قطعوا فى طريق الزهد مراحل أبعد من زهاد القرن الأول ، الا أن المتأمل فى أقوالهم لا يجد فيها شيئا من العناصر الأساسية للتصوف مثل المحبة والفناء ووحدة الوجود ، والشخص الوحيد الذى تحدث من بينهم عن المحبة الالهية هو « رابعة العدوية »(١) المتوفاه سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وبظهور رابعة تطور مفهوم التصوف ، فقد أصبح الزهد وسيلة من الوسائل التى يستعان بها على مطالعة وجه الله ومشاهدة جماله الأزلى .

وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين وصل التصوف الى مرحلة النضج ، واخذت المسائل الصوفية التى ظهرت أول الأمر غامضة ساذجة تتضح وتدق ، ذلك أن العناصر الغريبة التى بدأت تتسرب الى الاسلام منذ القرن الثالث الهجرى أخذت تنفذ الى التصوف وتتفاعل معه . وكان من نتيجة هذا التفاعل أن تطور مفهوم التصوف وأصبح شيئا جديدا لا يقف عند حد الرياضة والمجاهدة ، ولا يقنع فيه الانسان بالمشاهدة ، وانما تجاوز هذا

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٣١

كله الى غاية أسمى هى فناء الانسان عن نفسه ، وبقاؤه بربه ، واتحاده به .

والمتأمل فى أقوال صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين يلمس تحولا فكريا طرأ على مفهوم التصوف ، فقد ظهرت فى أقوالهم أفكار جديدة ، واصطلاحات وتعبيرات خاصة ، بعضها يتعلق **بالجانب النظرى للتصوف** : من تحديد لمعالم الطريق ، وترتيب للمقامات والأحوال . وكان من الرواد الأوائل فى هذا المجال « ذو النون المصرى » (٢٤٥ هـ) و « سرى السقطى » (٢٥١ هـ) ، فيعزى الى ذى النون أنه أول من تكلم فى مصر فى الأحوال والمقامات(١) ، والى سرى أنه أول من تكلم فى بغداد فى ترتيب المقامات وبسط الأحوال(٢) . وبعضها يتعلق **بالجانب النفسى والوجدانى** الذى يرمى الى الفناء فى الله ، واتحاد المحب والمحبوب ، ومحو الوجود المجازى فى الوجود المطلق الحقيقى . ونشأ عن هذا ، القول بوحدة الوجود ، وأن الموجود الحقيقى هو الله ، وأن ما سواه عدم محض .

وكما كان الحب طابعا للزهد الذى عرف عند رابعة فى القرن الثانى الهجرى فقد أصبح هذا الحب من أخص خصائص التصوف عند صوفية القرن الثالث ، فأقوال « معروف » و « الجنيد » و « ذى النون » تشتمل على هذه الكلمة ، وظهر فى القرنين الثالث والرابع رجال عرفوا بنظريات فى المحبة ، منهم « المحاسبى » و « التسترى » و« سمنون » و« الشبلى » وغيرهم ، وبلغت فكرة الحب الالهى ذروتها عند أصحاب وحدة الوجود أمثال أبى يزيد البسطامى والحسين بن منصور الحلاج .

ومن الموضوعات التى تطرقت الى التصوف فى هذه الفترة أن روح أحكام الشريعة وباطنها أهم من شكلها وصورتها الظاهرية ، وأن النية مقدمة على العمل ، وان السنة خير من الفرض ، وأن الطاعة خير من العبادة . وقد اثارت هذه الأقوال انتباه الناس فى ذلك الوقت واسترعت أنظارهم ، وخصوصا طبقةالفقهاء الذين عدوا هذه الأقوالخطرا على المجتمع الاسلامى ، واتهموا الصوفية باختلاق البدع تارة ، وبالكفر والالحاد تارة(٣) . كما جرت عليهم أقوالهم فى المحبة والاتحاد والحلول سخط الفرق الاسلامية الأخرى .

(١) « فى التصوف وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبو العلا عفيفى ص ٧
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٣٧
(٣) « تاريخ تصوف » ص ٥٣

وبالنسبة للفقهاء ومواقفهم من الصوفية،قد شهد القرن الثالث الهجرى بداية الصراع بين هاتين الطائفتين . ويرجع النزاع بينهما الى أن أحكام الشريعة فى أول عهد الاسلام كانت تؤخذ بالرواية ، لا فرق بين عبادات واعتقادات أو معاملات ، ثم لم يلبث المسلمون أن بدأوا يناقشون مسائل الدين ويتدارسونها ، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمى ، ويدونون ما يتناقشون فيه . وهنا نشأ علم الفقه وأقبل الناس عليه يتناقشون فى تدارسه والعمل بأحكامه ، حتى أن كثيرا من المسلمين كانوا يظنون الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين(١) .

ثم ظهر أمر الصوفية ، وكان لهم رأيهم الخاص فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأحكام الشرعية ، فقد كانوا يرون أن الدين أصبح فى عرف الفقهاء جملة من رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها ، وأن الكمال الدينى يكمن فى البحث فى المعانى الباطنية للأحكام بالاضافة الى معانيها الظاهرية : ومن هنا ظهر علم التصوف ، أو بمعنى آخر ، انقسم علم الشريعة الى قسمين : ظاهر وباطن ، واختص الفقهاء بالاهتمام بالظاهر ، وعنى الصوفية بالباطن ، وأصبح لكل من الطائفتين وجهة نظرهم الخاصة فى ماهية الدين(٢) .

وكان من الطبيعى أن يقع الصدام بين الطائفتين لاختلاف وجهتى نظرهما وما لبث الفقهاء أن أعلنوا عن عدائهم للصوفية،فتصدوا لبعضهم بالمعارضة، واتهموا البعض الآخر بالكفر والزندقة . وقد حفظت لنا الكتب المتقدمة أخبار سلسلة من الاضطهادات التى لاقاها الصوفية على أيدى الفقهاء ، حتى أن مجموعات كبيرة من شيوخ الصوفية سيقوا الى المحاكمات وحكم عليهم بالموت ، واستطاع بعضهم أن يفلت من العقوبة ، وراح البعض الآخر ضحية لهذا التعصب .

وقد ظهر اضطهاد الفقهاء للصوفية على أشده فيما عرف بمحنة الصوفية ببغداد ، أو محنة غلام الخليل(٣) ، وهى المحنة التى فر على أثرها أبو سعيد الخراز الى مصر ، واتهم فيها نحو سبعين صوفيا

---

(١) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١١ — ١١٢
(٢) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١٣
(٣) « هو أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس » . ولد بالبصرة وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ولكنه كان مكروها من اهل عصره الذين رموه بالرياء . وقد وصفه الهجويرى بالمكر والشعوذة والحقد على الصوفية (أنظر كشف المحجوب ص ١٧٢ وما بعدها)

بالزندقة ، من بينهم الجنيد والنورى ، وحكم عليهم بالموت ، وكاد الحكم ينفذ فى بعضهم ، ثم أفرج عنهم(١) . الا أن هذا الاضطهاد بلغ ذروته فى المأساة التى ذهب ضحيتها الحسين بن منصور الحلاج ، فسجن وعذب وقتل ، وكان مقتله بافتاء من الفقهاء وان بدا بأمر الخليفة .

وبالنسبة للفرق الاسلامية الأخرى التى أظهرت عداءها للصوفية ، فمنها : « الامامية » فى القرن الثالث ، الذين أنكروا كل نزوع الى التصوف لأنه يستحدث بين المؤمنين ضربا من الحياة الشاذة . ومنها « الحشوية » ، الذين أخذوا على التصوف أنه يغذى الفكر ، ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة ، ويحملهم على طلب الخلة مع الله ، فيستبيحون اغفال الفرائض . و « المعتزلة » ، الذين كانوا يستنكرون العشق الالهى لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والحلول(٢) .

وقد كان من نتيجة هذا التعصب أن أخذ كبار الصوفية يتشبثون أكثر من ذى قبل بالقرآن والحديث والأدلة العقلية ، وانشغلوا بالتأليف والتصنيف ، ونهضوا للدفاع عن أنفسهم بسلاح الكتاب(٣) . ولعل علم التصوف أصبح علما مدونا فى هذه الفترة ، فقد بدأ فى القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فى مقامات الصوفية ، وبيان أنواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الأذواق والمواجيد ، والفت فى هذه الفترة كتب قيمة مثل « اللمع » لأبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) ، « والتعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذى (٣٨٠ هـ) ، « وقوت القلوب » لأبى طالب المكى (٣٨٦ هـ) .

وقد انتشر الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وأخذوا ينظمون أنفسهم فى جماعات وفرق لهاطرقها الخاصة وشيوخها وسالكوها . وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف(٤) فى هذه الفترة ، لكل منها طابع معين . وقد عدد لنا الهجويرى الفرق الصوفية أو — المدارس الصوفية بالتعبير الحديث — التى وجدت فى هذه الفترة باثنى عشرة فرقة ونسب كل واحدة منها الى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين .

---

(١) (أنظر : الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٠٣)
(٢) « دائرة المعارف الاسلامية » مادة : « تصوف » .
(٣) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٥٤
(٤) « التصوف الثورة الروحية » : أنظر ص ٩٤ وما بعدها .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع قد حفلا بكثير من الشخصيات الصوفية الفذة والمذاهب الروحية النظرية والعملية التى سوف نتعرف عليها من خلال الباب الممتع الذى أفرده الهجويرى فى كشف المحجوب للحديث عن الفرق الصوفية(١) .

وقصارى القول ، أن الصرح المتكامل للتصوف الاسلامى الذى خلد على مر الزمان وبدا متين الأساس شامخ البنيان ، قد أرسى أسسه وقواعده رجال عاشوا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ووضع كل منهم لبنة فى هيكله حتى اكتمل البناء . واذا كانت هناك تغييرات طرأت على التصوف بعد ذلك فان أكثر هذه التغييرات يرجع الى التعبيرات والاصطلاحات والظواهر والأشكال ، أما الأسس فقد ظلت ثابتة حتى الآن .

(ب) التصوف فى عهد الهجويرى (التصوف فى القرن الخامس الهجرى) :

كان العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى تسوده الاضطرابات والمنازعات فى النواحى السياسية والدينية والعلمية ، ففى الناحية السياسية كانت الخلافات مستمرة بين الخلفاء العباسيين فى بغداد ومن يوالونهم من الحكام السنيين كالغزنويين والسلاجقة فى ايران ، وبين الفاطميين فى مصر وأتباعهم من الشيعة والباطنية الذين انتشروا فى أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى ، وخصوصا فى ايران . وفى الناحية الدينية كانت الخلافات المذهبية على أشدها ، وكثر النزاع المذهبى بين الفرق الاسلامية ولم يكن هذا النزاع مقصورا على السنة والشيعة بل تعدى ذلك الى المذاهب السنية فيما بينها . أما الناحية العلمية فلم تكن أحسن حالا ، فقد سرت العداوة والبغضاء بين أهل العلم ، واستحكم الخلاف بين الفقهاء والفلاسفة بحيث انقرض البحث الحر ، وركد كل ما كان مخالفا للدين والسياسة(٢) .

وعلى الرغم مما أوجدته هذه الاضطرابات والقلاقل والمنازعات من أثر سيىء فى شتى المجالات ، الا أنها أحدثت نتائج عكسية فى مجالين ، هما : المجال الصوفى ، والمجال العلمى .

ففى المجال الصوفى ، ساعدت هذه الاضطرابات على انتشار التصوف انتشارا كبيرا ، وليس تعليل ذلك بالأمر الصعب ، فان اضطراب الحياة السياسية ، وتفرق الناس فى مذاهبهم شيعا وأحزابا ، وجنوح كل فريق

(١) « أنظر : الباب الرابع عشر من كشف المحجوب » .
(٢) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٤٧٠

الى التعصب ، أشاع فى الناس اليأس والقنوط ، وملأ نفوسهم بالخوف والقلق ، فلم يجدوا لهم ملجأ غير التصوف .

ومن ناحية أخرى فان الانشغال بالاضطرابات السياسية والمنازعات الدينية هيأ الفرصة للصوفية لترويج مبادئهم ونشر تعاليمهم . وكان لبعدهم عن المجادلات المذهبية أثر كبير فى احترام الناس والامراء والسلاطين لهم ، مما أدى الى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة(١) . وقد ظهرت فى هذا القرن جماعة من كبار شيوخ الصوفية فى العالم الاسلامى عامة ، وفى ايران خاصة ، فكان هناك فى النصف الأول من القرن الخامس أمثال السلمى والخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى القاسم الجرجانى والقشيرى وغيرهم ممن يرجع اليهم الفضل فى تربية جيل من التلاميذ والمريدين الذين صاروا أعلاما فى تاريخ الحياة الروحية فى القرون التالية .

على أن انتشار التصوف فى هذه الفترة ساعد على أن اندس بين الصوفية كثير من الأدعياء والصوفية المزيفين الذين انضموا الى صفوف الصوفية اما لحماية أنفسهم ، واما طمعا فيما كان يتمتع به هؤلاء من احترام وتقدير . وقد قام هؤلاء الأدعياء بترويج البدع والخرافات ، ودعا بعضهم الى التحرر من التقاليد الاسلامية ، واسقاط التكاليف الشرعية ، وروج بعضهم العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية ، الأمر الذى اساء الى الصوفية وألقى ظلالا قاتمة على التصوف .

أما المجال العلمى ، فانه بالرغم مما أحدثته هذه الاضطرابات من ظهور الفرقة بين الطوائف المختلفة ، قد كان لها أثر كبير فى ايجاد نهضة علمية واسعة ، اذ نشطت كل فرقة للدفاع عن نفسها بسلاح القلم ، وظهرت كثير من المؤلفات التى ألفها المعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة(٢) .

وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا ، فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك الوقت ، وتركزت هذه الحركة بصفة خاصة فى خراسان التى أصبحت أكبر مركز للتصوف فى العالم الاسلامى .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى أن اقليم خراسان الفارسى كان مهد الكتابات الصوفية ، وموطن كبار العلماء الذين ألفوا فى التصوف الاسلامى مثل أبى

(١) « سلاجقة ايران والعراق » عبد النعيم حسنين : القاهرة ١٩٥٩ ص ١٨١
(٢) « سلاجقة ايران » ص ١٩٢

نصر السراج الطوسى ، وأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، وأبى القاسم القشيرى النيسابورى ، وحجة الاسلام الامام الغزالى الطوسى .

ومن أهم الكتب الصوفية التى ألفت فى القرن الخامس الهجرى كتابان ألفا فى النصف الأول منه ، وهما : « الرسالة » و « كشف المحجوب » .

والرسالة ألفها بالعربية « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى » وشرح فيها الأسس الصوفية وأحوال المتصوفة . وآراؤه فيها مثل للتوسط والاعتدال(١) .

وكشف المحجوب ألفه بالفارسية «أبوالحسن على بن عثمان الهجويرى» وسلك فيه مسلك معاصره القشيرى فى الاعتدال ، فهو يربط فى كتابه بين الشريعة والحقيقة ، ويبين أن الشريعة بدون الحقيقة ليست الا رياء ، وأن الحقيقة بدون الشريعة ليست الا نفاقا(٢) .

والواقع أن القشيرى والهجويرى كانا من الرواد الأوائل وكانت لهما جهودها التى لا تنكر فى سبيل اعادة التصوف الى سيرته الأولى وتنقيته مما علق به من شوائب ، فقد ألفا كتابيهما فى وقت كان التصوف فيه قد بلغ حدا جعل الكثيرين يأخذون أنفسهم بالازورار عنه ، والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن اليه ، والقاء الشبهات على تعاليمه ، فقد كان ينظر الى التصوف وقتئذ على أنه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو اليه بعض الصوفية من التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد ، واسقاط التكاليف فحسب، وانما كانت ناشئة أيضا عما كان هنالك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين بعض العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية(٣) .

وقد كان لهذه الحال أثرها العميق فى نفوس المخلصين من مفكرى الصوفية أمثال القشيرى والهجويرى ، وان من يقرأ مقدمتى « الرسالة » و « كشف المحجوب » يقف على مدى أسف مؤلفيهما لانهيار التصوف فى عصرهما ، ولهفتهما على العودة به الى سابق عهده ، ويلمس الحرارة والاخلاص فيما كتبه كل منهما،والأمل الذى راودهما فى زوال النكسة التى حلت بالتصوف ، هذا الأمل الذى دعاهما الى تأليف كتابيهما . كما يقف فى نفس الوقت على مدى العلاقة الوثيقة بين هاتين المقدمتين ، فقد عالج المؤلفان بعمق ،

(١) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٦
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٩٩
(٣) « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٤٥ : أنظر ص ١٢١

نفس الموضوع ، واتفقا على التفاصيل ، بل وفى استخدام نفس التعبيرات ، وان كانت المعالجة على أساس مختلف :

فالقشيرى يعالج الموضوع على أساس انقراض الممثلين الحقيقيين للتصوف ، وان كان لا ينكر وجود التصوف ، فهو يقول :

« اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء »(١) .

ويذكر القشيرى أن هذا هو السبب الذى دعاه لأن يؤلف رسالته ويضمنها سير الشيوخ السابقين ، مبينا آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم ومواجيدهم ، لتكون نبراسا لجيل جديد من المريدين الصادقين .

يقول : « فعلقت هذه الرسالة اليكم ، أكرمكم الله ، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم ، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة »(٢) .

وأما الهجويرى ، فيعالج نفس الموضوع على أساس الاختفاء التام لعلم التصوف فى زمنه ، وخصوصا فى المنطقة التى يعيش فيها ، وأنه لم يبق منه الا صورة مشوهة مخالفة للأصل .

يقول : « اعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زمننا ، وبخاصة فى هذه الديار حيث انشغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وادعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على خلاف أصلها ، فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدى أهل هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد أهل الارادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة

(١) « الرسالة » ج ١ ص ٢٠
(٢) « السابق » ص ٢٢

الحق ، ورضى خاصة الخلق وعامتهم من ذلك بالعبارة ، واشتروا حجابهم عنه بالروح والقلب ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد »(١) .

فهذه الصورة المشوهة للتصوف هى التى دفعت الهجويرى لأن يرسم فى كتابه صورة واضحة للتصوف يبين فيها أصوله النظرية والعملية ، ويؤيد كل أصل منها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويقرن فيها بين الشريعة والحقيقة ، ويوائم بين التكاليف الشرعية والمعانى الصوفية التى تنطوى عليها ، ويتصدى لآراء المنحرفين والأدعياء الذين أساءوا الى التصوف والصوفية .

وقد كان لهاتين المحاولتين من القشيرى والهجويرى أثرهما فى تنبيه الأذهان الى الخطر الذى حاق بالتصوف ، والدعوى الى تنقيته وتصفيته مما لحق به من شوائب . وقد قيض لهاتين المحاولتين الصادقتين أن تؤتيا أكلهما على يد الامام الغزالى الذى جاء بعدهما وبذل جهده لادخال التصوف فى صلب الاسلام السنى ، وأصبح كتابه « احياء علوم الدين » الذى ألفه فى أواخر القرن الخامس مصدرا للتصوف السنى بغير جدال(٢) .

واذا كان الفضل يرجع للغزالى فى اقامة التصوف الذى يعتبر أبلغ تعبير وأوضح تحديد للمذهب السنى(٣) ، فقد كانت للقشيرى والهجويرى جهودهما التى لا تنكر فى الدعوة الى هذا الاصلاح وتهيئة الجو له .

ومن المميزات التى تميز بها التصوف فى هذه الفترة أن نفوذ التصوف بدأ يظهر فى الشعر الفارسى وأخذ هذا النفوذ يزداد قوة على مر الأيام ، وأصبح للشعراء الصوفية فى القرن الخامس لسان مرموز ، فعلى الرغم من أنهم استعملوا نفس ألفاظ ومصطلحات القرن الرابع ، الا أنهم استعملوها على سبيل الكنايات والاستعارات ، فالله عندهم هو « الحبيب » و « المعشوق » و « المحبوب » ، والوجد الحاصل من التفكير فيه : هو « الخمر » و « الخمار » ، والظاهر والباطن منه عبارة عن « طلعته المنيرة » أو « طرته السوداء القاتمة » ، وما الى ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة(٤) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٧
(٢) « تاريخ الفلسفة العربية » حنا الفاخورى : بيروت ١٩٥٧ . ص ٣٤٨
(٣) « تاريخ الادب فى ايران » ج ٢ ص ٣٦٨
(٤) « تاريخ الادب فى ايران » براون ج ٢ ص ٣٣٤

وكان أبو سعيد بن أبى الخير أول من استعمل هذا اللسان المرموز من شعراء الصوفية فى ايران . ويعزى اليه أنه أول ما ابتدع الشعر الصوفى ، ويعتبر فى ذلك اماما لمن جاء بعده من شعراء الصوفية الكبار فى ايران أمثال « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى » .

وقد استقر صوفية القرن الخامس فى الخانقاهات التى بدأت فى الانتشار منذ القرن الرابع الهجرى ، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ فى أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أنحاء العالم الاسلامى . وكان هناك عدد كبير من هذه الخانقاهات فى خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من ايران(١) ، ووضعوا نظاما معينا للحياة فيها ، وكان يقوم بادارة كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين فى هذه الفترة . ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبى الخير الذى يعتبر أول من شرع نظام الحياة فى الخانقاهات ، وأدار عددا منها ، واعتلى المنبر فى نيسابور ، وعقد المجالس ، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمة المذاهب وجادلهم وحاورهم مما عرض حياته للخطر فى بعض الأحيان(٢) . وقد ظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية فى خراسان ، مستقرا فى نيسابور وموطنه « ميهنه » تارة ، ومتنقلا ما بين « طوس » و « خرقان » و « مرو » تارة أخرى ، وتجمع حوله المريدون من كل مكان ، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة .

والواقع أن أبا سعيد قاد حركة صوفية واسعة النطاق فى أقليم خراسان فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وخصوصا بعد انقضاء فترة الغزنويين الكبار وظهور أمر السلاجقة فى ايران ، فقد فتح الميدان أمام المتصوفة فى هذه الفترة وراجت سوقهم فى العصر السلجوقى.

ونجد فى « راحة الصدور » و « أسرار التوحيد » اشارات الى زيارات(٣) ولقاءات(٤) بين أمراء السلاجقة وشيوخ الصوفية فى عصرهم .

وقد تعاصر مع أبى سعيد عدد من شيوخ الصوفية المعروفين أمثال أبى عبد الرحمن السلمى (٤١٢ هـ) ، وأبى حسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) ، وأبى العباس الشقانى ، وأبى الفضل الختلى ، وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠هـ) ، وأبى القاسم القشيرى (٤٦٥ هـ) . وقام كل من هؤلاء بنشاط

---

(١) « أسرار التوحيد » تأليف محمد بن المنور : ترجمة اسعاد عبد الهادى ، القاهرة ١٩٦٦ : أنظر ص ٤١ ، ٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٢ وغيرها .
(٢) « السابق » أنظر ص ٨٩ — ٩٥ .
(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة : أنظر ص ١٤٠ ، ١٨٢
(٤) « راحة الصدور » الترجمة : أنظر ص ١٦٠ — ١٦١

كبير فى نشر التعاليم الصوفية فى خراسان وأجـزاء أخرى من ايران ، وانشغل كل منهم بتربية عدد من المريدين الذين برزت منهـم مجمـوعة بلغوا بدورهم مرتبة الشيوخ ، وقاموا بتربية جيـل آخر من المريدين ، وأداروا الخانقاهات ، وقاموا برحـلات واسـعة النطاق لنشر التعـاليم الصوفية . ومن هؤلاء :

« أبو على الفارمدى » (٤٧٧ هـ) شيخ حجة الاسلام الغزالى ، فقد كان تلميذا ومريدا لكل من أبى القاسم القشيرى وأبى القاسم الجرجانى ، وتلقى الخرقة على يد هذا الأخير وخلفه بعـد وفاته ، وأصبح شـيخ شيوخ خراسان(١) .

و « أبو الفتح بن سالبة » (٤٧٣ هـ) ابن شيخ الشيوخ أبى الحسن ابن سالبة البيضاوى ، وكان تلميذا ومريدا لأبى مسلم الفارسى وخواجه على بن حسن الكرمانى ، وصحب الشيخ أبا على الداستانى ، واتخـذ بباب كوار خانقاها خـدم فيها ثلاثين سنة ، وجاور عنـده كثير من العلماء والصالحين . وتوفى سنة ٤٧٣ هـ ودفن فى خانقاهه(٢) .

و « أبو الحسن على بن عثمان الهجويرى » (٤٦٥ هـ) الذى تتلمذ على يد أبى العباس الشقانى ، وكان مريدا لكل من أبى الفضـل الختلى وأبى القاسم الجرجانى ، والتقى بمعاصره القشيرى ، وقام برحلات واسعة النطاق فى أنحاء العالم الاسلامى التقى خلالها بعـدد كبير من شـيوخ الصوفية الكبار والأئمة ورؤساء المذاهب ، وجمـع معلومات قيمة ضمنها كتابه كشف المحجوب ..

---

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .
(٢) « شد الازار » ص ١٨٠ — ١٨١

الفصل الثالث

التعريف بالهجويرى

موطنه - أسرته - اسمه وألقابه - مولده - زواجه

موطنه :

الحديث عن موطن الهجويرى لا يقتصر على التعريف بمنطقة واحدة ، فحياته مقسمة الى ثلاث فترات ، أمضى كل فترة منها فى بقعة ، فقد ولد فى مدينة « غزنه » وأمضى بها الفترة الأولى من حياته ، ولمـا بلغ مبلغ الشباب تجول فى أرجاء العالم الاسلامى وزار عددا كبيرا من مدنه وأقاليمه ، ثم استقر به المقام فى مدينة « لاهور » بالهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته . ومن هنا يشمل حديثنا عن موطن الهجويرى :

١ — التعريف بمدينة غزنه باعتبارها مسقط رأس الهجويرى ، والمدينة التى أمضى بها فترة طفولته وصباه .

٢ — التعريف بمدينة لاهور باعتبارها المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته ، ومثواه الأخير .

أما الفترة التى تتوسط هاتين فيصعب أن نحدد له فيها موطنا ، لأنه لم يكن مستقرا فى بقعة معينة .

التعريف بغزنة :

عرفت « غزنه » فى التاريخ الاسلامى بأنها موطن سلاطين الغزنويين وعاصمتهم الأولى التى أصبحت فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من أشهر المدن الاسلامية والمدينة الثانية بعد بغداد ، التى ترنو اليها أنظار المسلمين فى جميع العالم الاسلامى وتهفو اليها أفئدتهم ، وتحتل من تاريخهم مركزا مرموقا ، فمنها خرجت جيوشهم الى حيث لم تبلغه فى الاسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية(١) .

---

(١) « وفيات الاعيان » ج ٢ ص ٨٥

و « غزنه »(١) التى تعرف بهذا الاسم تارة ، وعرفت باسم « غزني » و « غزنين »(٢) تارة أخرى : هى مدينة تقع فى وسط الهضبات الأفغانية المرتفعة . وهذه المدينة توجد الآن على الطريق بين كابل وقندهار(٣) فى أفغانستان .

وغزنة مدينة قديمة ، ورد ذكرها فى كتب التاريخ والجغرافيا قبل الغزنويين . وقد ذهب اليها السائح الصينى « هيوان تسانج » حوالى سنة ٦٤٤ م ، وسماها عاصمة « تساوكيوتو » أى « زابلستان » ، وسجل اسمها على هذا النحو : « هوسى نا » أى « غزنه »(٤) .

وقد ضبط ياقوت اسمها فقال : « غزنه » بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون ، هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء « غزنين » ويعربونها فيقولون « جزنه » ويقال لمجموع بلادها زابلستان ، وغزنه قصبتها ، وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحد بين خراسان والهند(٥) .

وكان الجغرافيون العرب يسمون الاقليم الجبلى فى أعالى نهر هيلمند ونهر قندهار « زابلستان » وهى البلاد التى حول غزنه ، أما المنطقة التى بين غزنه وكابل فكانت تعرف بكابلستان(٦) .

ويعرف ياقوت زابلستان بأنها كورة واسعة قايمة برأسها جنوبى بلخ وطخارستان وهى منسوبة الى زابل جد رستم بن دستان ، ويقول ان العجم يزيدون السين وما بعدها فى أسماء البلدين(٧) .

وكانت غزنه تضم فى أطرافها عددا من المحلات والقرى من توابعها ، من بينها محلتين باسم « جلاب »(٨) و « هجوير »(٩) ، استوطنتهما أسرة الهجويرى فانتقلت من احداهما الى الأخرى(١٠) ، **ومنهما استمد لقبه ، فهو**

(١) هكذا يسميها « ابن الاثير » و « النسوى » و « رشيد الدين فضل الله »
(٢) تسمى غزنين فى : « زين الاخبار » و « تاريخ بيهقى » و « راحة الصدور » و « طبقات ناصرى » .
(٣) « سلطنت غزنويان » : أنظر مقدمة المؤلف :
(٤) « السابق » .
(٥) « معجم البلدان » ياقوت الحموى : طهران ١٩٦٥ جـ ٦ ص ٢٨٩
(٦) « بلدان الخلافة الشرقية » ص ٣٨٨
(٧) معجم البلدان جـ ٢ ص ٩٠٤
(٨) « جلاب » ضاحية من ضواحى غزنة اشتهرت بنوع من المرمر النفيس
(٩) « هجوير » بضم الهاء وسكون الجيم : من مضافات غزنين (انظر « هدية العارفين » اسماعيل البغدادى استانبول ١٩٥١ جـ ١ عمود ٦٩١
(١٠) « سفينة الاولياء » : دارا شكوه : لكهنو ١٢٩٥ هـ — ١٨٧٨ م ص ١٦٤

يلقب بالجلابى تارة ، وبالهجويرى تارة أخرى ، وكثيرا ما يضاف كلاهما الى اسمه فيقال له : الجلابى الهجويرى(١) .

ولا يوجد فى مدينة غزنه حاليا أو على مقربة منها موضع باسم جلاب أو هجوير ، وقد قام السيد « حبيبى » منذ سنوات بزيارة ضريح الشيخ عثمان والد الهجويرى ، وذكر أن هذا الضريح يوجد الآن فى قرية تسمى « أربابها » على بعد ميل من غزنه ، وأنه ربما كانت واحدة من المحلتين السابقتين تقع فى موضع أربابها غير أن دورة الأيام محت اسمها أو بدلته(٢) .

ويبدو أن الهجويرى كان يحب موطنه غزنه حبا جما ، وظل برغم رحلاته العديدة مرتبطا بمسقط رأسه يحمل له الاعزاز والتقدير ، فهو لا يذكر اسم غزنين الا بقوله : « غزنين حرسها الله »(٣) . وقد أبدى أسفه لأنه عندما كان يؤلف كتاب كشف المحجوب ، فى مدينة لاهور ، لم يكن فى متناول يده كتبه ومراجعه التى كان قد تركها فى غزنين(٤) .

التعريف بلاهور :

تعتبر « لاهور » الموطن الثانى للهجويرى ، فهى المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته وتوفى بها ، ولا يزال قبره فيها .

و « لاهور » مدينة هندية قديمة يرجع تاريخها الى ألفى عام ، وتدخل الآن ضمن نطاق الأراضى الباكستانية .

ويرد اسم لاهور فى التفاسير الهندية القديمة على أنه مأخوذ من الكلمة السنسكريتية « لوه أور » التى تعنى : قلعة « لوه » أحد توأمى الاله الهندى العظيم « راما » بطل الملحمة الهندية الشهيرة « رامايانا » . وقد أشار السائح الصينى « هيوان تسانج » الى لاهور فى سجله عام ٦٣٠ م .

وتذكر لاهور فى بعض المصادر على أنها : « لهاوور »(٥) أو « لوهور » أو « لهانور »(٦) أو « لاهوور » . وضبط ياقوت اسمها فقال : « لوهور » بفتح أوله وسكون ثانيه والهاء وآخره راء ، والمشهور من اسم هذا البلد « لهاوور » وهى مدينة عظيمة ومشهورة فى بلاد الهند(٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١
(٢) « هلال » جلد پنجم شماره ١ — خرداد ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ ، ١١٥
(٤) « السابق » ص ١١٠
(٥) أنظر : « الكامل » حوادث ٤٣٥ ، جامع التواريخ المجلد الثانى جـ ٤ ص ٢١٧
(٦) « كشف المحجوب » ص ١١٠ حاشية ٣٥
(٧) « معجم البلدان » جـ ٤ ص ٣٧١

ولاهور عاصمة اقليم البنجاب ، وهو واحد من الأقاليم الأربعة التى يشتمل عليهـا وادى السـند ، وهى : « البنجاب » و « راجبوتانا » و « والكجرات » و « والسند » ، ويسمى هذا الوادى بالهند الاسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ، ولمـا احتواه من المبانى التى أسفرت عنها الحضارة الاسلامية(١) .

ويقع اقليم البنجاب فى أسفل جبال الهملايا . وكلمة البنجاب مكونة من كلمتين « بنج » و « آب » ومعناهما بالفارسية : الأنهار الخمسة ، اذ تجرى فى البنجاب الأنهار « ستلج » و « جنـاب » و « بياس » (الاندوس) و « جهلم » و « راوى » وجميعها روافد لنهر السند ، تنبع من جبـال هماليا الغربية ، وتجرى حاليا فى أرض الباكستان وتتخلل البنجاب سلسلة من التلال ، وبها منطقتان من الغابات فى مقاطعتى : مولتان ولاهور(٢) .

ويرد ذكر لاهور فى كشف المحجوب على انها من توابع المولتان(٣) ، بينما يذكرها القزوينى على أنها من المدن الكبرى فى السند شأنها فى ذلك شأن المولتان ، يقول : « السند مملكة كبيرة من الاقليم الثانى ، ومدنها الكبرى هى : المنصورة ، ملتان ، لهاور ، هياطيه (بهاطيه) ، فرشاور (بشاور) ... والأهالى هناك يتحدثون ، غالبا بالفارسية »(٤) .

و « لاهور » تقع قرب الشاطىء الأيسر لنهر راوى ، وتشغل موقعها منذ أزمنة مبكرة ، ومعظم مناطقها أكثر علوا من المناطق المحيطة بها ، وقد أقيمت المدينة الحالية على بقايا المساكن القديمة التى كانت فى تلك المنطقة(٥) ، ولا تزال بعض المناطق القديمة باقية على حالها حيث كانت تقوم المدينة القديمة ، ويوجد بها مزار الهجويرى(٦) .

وتمتاز لاهور بأنها أكبر مركز للثقافة الاسلامية فى شبه القارة الهندية ، وهى مقر جامعة البنجاب أقدم أكاديمية للآداب والعلوم فى الهند .

نسب الهجويرى وأسرته :

لا نكاد نعرف شيئا عن أسرة الهجويرى ، فهو لم يشر قط فى كتابه الى أسرته أو أبويه . وكل ما لدينا من معلومات فى هذا الصدد هو مجرد اشارة

---

(١) « حضارة الهند » جوستاف لوبون : ترجمة عادل زعيتر ـ القـاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م ص ٦٩ .
(٢) السابق « باكستان المعاصرة » حافظ حمدى ومحمود الشرقاوى : القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠
(٤) « نزهة القلوب » ص ٢٥٩ .
(٥) Encyclopaedia - Britannica : Vol. 13 : «Lahore» p. 595.
(٦) « تذكرة حضرت على هجويرى » أنظر : ص ٨٧ .

طفيفة وردت فى سفينة الأولياء ، لا تتعدى أنه كان من أسرة تتصف بالتقوى والزهد ، استوطنت مدينة غزنه(١) .

وهنـاك شجرة لنسب الهجويرى ، لم يرد ذكرها الا فى « خـزينة الأصفياء » ، وهذه الشجرة توصل نسبه الى الامام على بن أبى طالب . وذكر مؤلف الخزينة أن هذه الشجرة مدرجة فى تواريخ السابقين ، ولكنه لم يذكر أسماء هذه التوايرخ .

يقول : « شجره نسبى حضرت ممدوح بدين نوع درج تواريخ متقدمين است كه حضرت مخدوم على بن عثمان بن سيد على بن عبد الرحمن بن شاه شجاع بن أبو الحسن على بن حسين أصغر بن سيد زيد شهيد بن حضرت امام حسن رضى الله عنه بن على كرم الله وجهه »(٢) .

وترجمته : « شجرة نسب حضرة الممدوح مدرجة فى تواريخ المتقدمين على هذا النحو : أن حضرة المخدوم على بن عثمان بن السيد على بن عبد الرحمن ، بن شاه شجاع بن أبى الحسن على بن الحسين الأصغر ، ابن السيد الشهيد زيد ، ابن حضرة الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، ابن على كرم الله وجهه » .

وقد أشير الى هذا النسب فى هدية العارفين ، فأضاف البغدادى لقب « الحسينى » الى اسم الهجويرى(٣) . وورد ذكره ايضا فى مقالين فى مجلة (هلال) ، فذكر الكاتب فى المقال الأول أن نسب الهجويرى يتصل من ناحية أبيه بالامام الحسن(٤) ، وذكر فى الثانى أن الشيخ عثمان والد الهجويرى يتصل نسبه فى الظهر الثامن بالامام على المرتضى(٥) . ويبدو من هذه العبارات أن الهجويرى كان من أصل عربى .

والـده :

والد الهجويرى هو الشيخ عثمان بن أبى على ، وكان ـ كما وصفه غلام سرور ـ رجلا متدينا جدا ، على قدر كاف من التصوف والعرفان .

---

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .
(٢) « خزينة الاصفياء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر : ج ٢ ص ٢٣٣) .
(٣) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
(٤) « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .
(٥) « هلال » جلد بنجم ـ شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

ويبدو أن الشيخ عثمان كان على قيد الحياة حتى عصر السلطان محمود الغزنوى ، وأدرك فترة ازدهار غزنه فى ذلك العصر . يقول غلام سرور ما ترجمته :

« وفى تلك الفترة كان العلماء والفضلاء وأرباب المعرفة والشعراء والصوفية يتوجهون الى مدينة غزنه من جميع أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث أصبحت تلك المدينة والقرى التابعة لها مركزا للعلوم الدينية والآداب الاسلامية . وكان الشيخ عثمان من بين الوافدين على غزنه ، فاتخذ مسكنه فى ضواحيها ، وصار موضع احترام الأهالى ، ومحل ثقتهم واعتقادهم » .

وتوفى الشيخ عثمان فى غزنه ، ولا يزال قبره بها ، فى قرية تسمى « اربابها » على بعد ميل من غزنه الحالية(١) .

والدته :

أما عن والدة الهجويرى ، فقد كانت هى أيضا من بيت متدين . وقد أشار « داراشكوه » الى واحد من اخوتهاباسم الشيخ « تاج الأولياء » ، ويبدو أنه كان من الرجال الصالحين المعروفين فىغزنه وتوفى ودفن بها ، ولا يزال ضريحه معروفا باسمه هناك . وقد زار « دارا شكوه » هذا الضريح الذى يقع بالقرب من ضريح والد الهجويرى ، ويتصل به قبر والدته(٢) .

اسمه وألقابه :

« الهجويرى » اسمه : « على بن عثمان » . وقد أثبت هذا الاسم فى مقدمة كشف المحجوب(٣) ، وكرره كثيرا فى ثنايا الكتاب ، فقد كان فى كل مرة يتحدث فيها عن نفسه ، يصر على أن يقول :

« ومن كه على بن عثمان الجلابى ام » .

أى : « وأنا على بن عثمان الجلابى » .

حتى أن هذه العبارة وردت ثمان وعشرين مرة فى كتاب كشف المحجوب(٤)

---

(١) « هلال » جلد بنجم ــ شماره ١ ، خرداد ماه ١٣٣٦

(٢) « سفينة الاوياء » ص ١٦٥

(٣) « كشف المحجوب » ص ١

(٤) « السابق » (انظر الصفحات رقم : ١ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٣٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦) .

والاسم الكامل الذى يرد للهجويرى ، مضافا اليه كنيته والقابه ، هو :

« أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى » ، ويعرف فى بعض المصادر باسم : « داتا كنج بخش لا هورى »(١) . كما أنه يسمى أحيانا فى اختصار : « الغزنوى » أو « الهجويرى » أو « الجلابى »

واذا تأملنا هذا الاسم الطويل ، نجد أنه ينقسم الى ثلاثة أقسام :

كنية ، اسم ثلاثى ، القاب .

فالكنية : أبو الحسن(٢) .

والاسم : على بن عثمان بن أبى على(٣) .

والألقاب : الجلابى والهجويرى والغزنوى .

ولا يوجد فى أى من المصادر التى تحدثت عن الهجويرى خلاف حول كنيته ، أو اسمه أو اسم أبيه ، وان كان هناك خلاف يسير حول اسم جده ، فقد ذكرته بعض المصادر على أنه « على »(٤) وذكرته بعضها الآخر على أنه « أبو على » . ويبدو أن الأخير هو الأصح لأنه المذكور فى مقدمة كشف المحجوب .

أما عن الألقاب التى يلقب بها الهجويرى ، فقد ارتبطت كلها بموطنه والأماكن التى عاش فيها :

فهو يلقب بالجلابى نسبة الى « جلاب » .

ويلقب بالهجويرى نسبة الى « هجوير »(٥) .

---

(١) « خزينة الاصفياء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر ج ٢ ص ٢٣٤) ، « سلطنت غزنويان » ص ٣٣٨ ، « فهرست كتابهاى جابى فارسى » خنبابا مشار : تهران ١٣٣٧ (أنظر ج ١ عمود ١٢٦٥) ، تذكره حضرت على هجويرى » ص ١٧ ، وكلمة « داتا » تطلق على رجل الدين فى مقابل الكلمة العربية ، و « كنج بخش » بمعنى : واهب الكنز ،

(٢) « نفحات الانس » عبد الرحمن بن أحمد جامى : طهران ١٣٣٦ هـ ش ــ ص ٣١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « هدية العارفين » ج ١ ص ٦٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١ ، « نفحات الانس » ص ٣١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤

(٤) أنظر : « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب ، : «Ethe» Catalogue of persian Manuscripts (Endia office Library) Vol. I.

(٥) يخطىء البعض فى ترجمة لقب الهجويرى عن الانجليزية فيترجمونه : « الحجويرى » أنظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » آدام ميتز : ج ٢ ص ١٧ وغيرها ، « مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى » فرانتز روزنتال : ترجمة أنيس فريحة : بيروت ١٩٦١ ص ١٢٨ » .

ويلقب بالغزنوى نسبة الى « غزنه » .

وجلاب وهجوير محلتان من محلات مدينة غزنه مسقط رأس الهجويرى .

يبقى بعد ذلك لقب : داتا كنج بخش لاهورى ، الدى تطلقه بعض المصادر على الهجويرى . وقد ذكر صاحب « خزينة الأصفياء » أن « معين الدين حسن السنجرى »(١) هو الذى أطلق عليه هذا الاسم ، ذلك انه عندما تقلد خلعة قطب لاهور ، ذهب الى ضريح الهجويرى واختلى هناك ، وعندما هم بمغادرة المكان وقف فى مواجهة القبر وقال هذا البيت :

كنج بخش هردو عالم مظهر نور خدا
كاملان رابير كامل ناقصان را راهنما

وترجمته :

انه واهب كنز كلا العالمين ومظهر نور الله ،
وشيخ كامل للكاملين ، وهـاد للناقصين .

ومنذ ذلك اليوم اشتهر باسم : « كنج بخش »(٢) .

غير أنه ورد فى مقال فى مجلة « هلال » ان هذه الرواية موضة شك ، وذكر الكاتب أن هذا اللقب ورد على لسان الهجويرى فى كتابه « كشف الأسرار » حيث يقول ما ترجمته :

« يا على ، ان الناس يسمونك بالوهاب ، وأنت لا تملك فلسا واحدا . فلا تدع لهذا الادعاء سبيل الى قلبك ، والا كان هـذا محض غرور . فالوهاب هو الله وحده ، فلا تكن شريكا له والا هلكت . وهو بلا شك اله واحد ، وليس له شريك »(٣) .

ويبدو من هذه العبارة أن الهجويرى كان يلقب بداتا كنج بخش أثناء حياته ، وأنه لم يكن يستحسن هذا اللقب .

« وداتا كنج بخش » هو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهنـد وباكستان ، منذ قرون طويلة . وقد لا يعرف عامة الناس هناك اسم « على الغزنوى » ، ولكن لا يوجد من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا كنج بخش » .

---

(١) « معين الدين حسن السنجرى ، من سلسلة شيوخ الجشتية . كان مريدا للشيخ عثمان الهارونى وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (أنظر ترجمته فى : « سفينة الاولياء » ص ٩٣ — ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها » .
ص ٩٣ — ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها) » ..

(٢) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤

(٣) انظر : مجلة « هلال » شمارة سوم : اردیبهشت ١٣٣٢ .

أما لقب « لاهورى »(١) فقـد اكتسبه الهجويرى من اقامته فى مدينة لاهور خلال الفترة الأخيرة من حياته .

مولده ونشـأته :

تاريخ ميلاد الهجويرى مجهول تماما ، فكتاب كشف المحجوب خال من الاشارة الى هذا الأمر ، كما أنه لم يرد ذكر هذا التاريخ فى أى من المصادر التى تحدثت عن الهجويرى ، حتى أقربها اليه عهدا .

والواقع أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة تاريخ ميلاده ، على وجه التقريب الا بالرجوع الى بعض الاشارات ، غير المباشرة ، التى وردت فى كشف المحجوب ، والتى يشير فيها الهجويرى الى معاصريه من الصوفية .

ومن المعروف ، فى كثير من المصـادر ، أن الهجويرى عاصر كلا من أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ — ٤٤٠ هـ) ، وأبى القـاسم القشيرى (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) .

وبالنسبة لأبى سعيد ، فقد ذكرت بعض المصادر أنه والهجويرى كانا مريدين لشيخ واحد هو « أبو الفـضل حسن السرخسى »(٢) ومن هنا أطلقت عليه لقب « شقيق أبى سعيد »(٣) . ولكننا بالرجوع الى كشف المحجـوب نضع أيدينا على الحقائق التالية :

أولا : أن الهجويرى كان مريدا لأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى(٤) ، لا ابى الفضـل حسن السرخسى ، وهو لم ير هذا الأخير وانما حدثه عنه (خواجه) الامام الحزامى(٥) .

---

(١) أنظر : « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٢
« سلطنت غزنوبان » ص ٣٣٨
« بزم شوق » نشريه ماهيانه أدبى وفرهنكى : أكادمى فارسى كراچى نوفمبر ١٩٦٣ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٢) أنظر :
مقدمة مخطوطة كشف المحجوب التابعة لمكتبة فينا ، والمحفوظة تحت رقم ٣٤٤ من مجموعة « هامر » ، « فصل الخطاب » محمد بارسا (نقلا عن « كشف المحجوب » مقدمة المصحح ص ٦١ — ٦٢) ، « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٧ .
« هلال » جلد سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « رسالة آبدالية » يعقوب بن عثمان الجرخى نقلا عن :
«Ethe», Cat. Vol. I.

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٥) « السابق » ص ٢٨٧ .

ثانيا : لم يلتق الهجويرى بأبى سعيد بن أبى الخير أثناء حياته ، وانما قام بزيارة قبره فى ميهنه(١) بعد وفاته ، والتقى بابنه « المظفر » ، وخادم أبى سعيد الخاص « حسن بن المؤدب » . وسمع من هذا الأخير بعض أخبار أبى سعيد(٢) ، وسمع بعضها الآخر من أبى مسلم الفارسى أحد معاصرى أبى سعيد(٣) .

ثالثا : ترجم الهجويرى لأبى سعيد ضمن عدد من شيوخ الصوفية من معاصريه ، وذلك فى الباب الثانى عشر من كشف المحجوب المسمى « باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين »(٤) :

والمجموعة الأولى من هؤلاء الشيوخ لم يدركهم الهجويرى ، وهم بالنسبة لأبى سعيد أما شيوخه مثل : أبى العباس القصاب (٣٩٧ هـ)(٥) وأبى على الدقاق (٤٠٥ هـ)(٦) ، وأما رفاقه مثل : أبى عبد الله الداستانى (٤١٧ هـ) وأبى الحسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) .

والمجموعة الثانية : وان كانوا أيضا من طبقة أبى سعيد ، الا أن الهجويرى أدركهم وتتلمذ عليهم ، وهم يمثلون أساتذته وشيوخه ، مثل : أبى العباس الشقانى(٧) ، وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ)(٨) وأبى الفضل الختلى وخواجه مظفر بن حمدان(٩) .

ويتضح من هذا الموضع الذى ترجم فيه الهجويرى لأبى سعيد ، ومن لهجة التقدير والاحترام الكبير التى ترجم له بها ، أنه كان يعده فى مرتبة شيوخه وأساتذته الذين كانوا جميعا ينتمون الى جيله ، وبالتالى فان الهجويرى يمثل الجيل الذى تلا هؤلاء الشيوخ وهو جيل تلاميذهم ومريديهم .

وبالنسبة للقشيرى : فمن الواضح من كشف المحجوب أن الهجويرى التقى به وسمع منه بعض آرائه(٩) . ولكننا فى الوقت نفسه نستشف من الموضع الذى ترجم له فيه — وهو نفس الباب الذى ترجم فيه لأبى سعيد

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٠١
(٢) « السابق » ص ٢٠٥
(٣) السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١
(٤) السابق ص ٢٠٢ — ٢١٤
(٥) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٥٦ ، ٦٣
(٦) « السابق » أنظر ص ٧٠ — ٧١
(٧) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٢٤٦ — ٢٤٧
(٨) « السابق » أنظر ص ٨١
(٩) « السابق » ص ٢٢٠ — ٢٢١
(١٠) « كشف المحجوب » ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧

ولأساتذته وشيوخه — ومن اللهجة التى تحدث بها عنه ؛ أنه كان يعده هو الآخر فى عداد أساتذته . وليس هذا غريبا ، فالقشيرى كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير ، وقد تلازما مدة طويلة فى نيسابور(١) ، كما عاصر القشيرى أيضا أساتذة الهجويرى وشيوخه(٢) ، وكان على اتصال وثيق بهم .

وكان يوجد الى جوار هذه المجموعة من الشيوخ ، التى تضم أبا سعيد والقشيرى وأساتذة الهجويرى وشيوخه ، عدد من التلاميذ والمريدين الذين كانوا يتتلمذون على بعض هؤلاء الشيوخ ويلازمون بعضهم ، وهؤلاء التلاميذ عرفوا فيما بعد ، وبلغوا هم أيضا مرتبة الشيوخ ، ونذكر منهم « أبا الفتح ابن سالبه »(٣) و « أبا على الفارمدى » .

أما « **أبو الفتح** » فهو ابن شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبة البيضاوى(٤) ، كان تلميذا لعدد من الشيوخ من طبقة أبى سعيد(٥) ، وتوفى سنة ٤٧٣ هـ . وقد أشار اليه الهجويرى ، فى كشف المحجوب ، بما يدل على أنه كان من طبقته ، وصرح بأنه لم ير شيخ الشيوخ ولكنه رأى ابنه ، وذكر اسم أبى الفتح بين أسماء الصوفية المعاصرين له ، وقال انه سوف يصبح خلفا طيبا لأبيه ، ومرجوا فيه(٦) ..

وأما « **أبو على الفارمدى** »(٧) المتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، فقد كان مريدا

(١) « أسرار التوحيد » انظر : الفصل الاول من الباب الثانى .
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ .
(٣) « أبو الفتح بن سالبة : عبد السلام بن أحمد ، « أبو الفتح الصوفى ويعرف بابن سالبة ، من أهل فارس . سافر الكثير ، وجال فى البلاد وسمع بها الحديث . ورد بغداد فى سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، فسمع بها من أبى القاسم بن بشران ، وأبى على ابن شاذان . وتوفى ببيضاء فارس سنة ٤٧٣ هـ « انظر: « المنتظم فى تاريخ الملوك والامم » ابن الجوزى : حيدر أباد ١٣٥٨ هـ — ج ٢ ص ٣٢٨ .
(٤) « شيخ الشيوخ أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر البيضاوى المعروف بابن سالبة ، وكان من كبار مشايخ الصوفية فى فارس فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس . من معاصرى أبى اسحاق بن شهريار الكازرونى (٤٢٦ هـ) وأبى حيان التوحيدى (٤٠١ هـ) . توفى سنة ٤١٥ هـ ، ودفن فى بيضاء فارس » . « شد الازار فى حط الاوزار عن زوار المزار » معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى . تصحيح : محمد قزوينى وعباس اقبال : طهران ١٣٢٨ هـ — انظر حواشى ص ٤٧٦ » .
(٥) تادب « أبو الفتح » بالشيخ أبى مسلم الفارسى ، ولقى الشيخ أبا الحسن على بن خواجه الكرمانى ، وصحب الشيخ أبا عبد الله الداستانى — وثلاثتهم من معاصرى أبى سعيد وزملائه » .
(انظر : « شد الازار » ص ١٨٠ — ١٨١) .
(٦) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .
(٧) « أبو على الفارمدى » : شيخ حجة الاسلام الغزالى (انظر : نفحات الانس ص ٣٧٠) ، اسمه الفضل بن محمد بن على الفارمد ، وفارمد من قرى طوس (انظر : « معجم البلدان » ج ٣ ص ٨٣٩) ، وكان شيخ شيوخ خراسان وتلميذا للامام القشيرى ، ومريدا للشيخ أبى القاسم الجرجانى ، والتقى بالشيخ أبى سعيد بن أبى الخير . وتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، وقبره فى طوس (انظر : « سفينة الاولياء » ص ٧٥) .

لأبى الحسن الخرقانى(١) ، وتلميـــذا ومريدا لأبى القاسم القشيرى ، ثم انضم الى حلقة مريدى أبى القاسم الجرجانى(٢) . وفى خلال فترة تلمذته على الجرجانى ، بعث به الى أبى سعيد بن أبى الخير ، فأقام عنده فترة فى ميهنة (٣) ، ثم رجع الى الجرجانى وتسلم منه الخرقة ، وأصبح خليفة له بعد وفاته .

وقد أشار الهجويرى الى الفارمدى خلال ترجمته لشيخه أبى القاسم الجرجانى ، ووصفه بأنه لسان الوقت ، وتنبأ له بأنه سوف يكون خير خلف للشـــيخ وخير قدوه للصوفية . ثم أشار الى نفســـه فى الترجمة ذاتهـــا بما يفيد أنه ، عند اتصـــاله بأبى القاسم الجرجـــانى وتعرفه على مريده الفارمدى ، كان لا يزال فى سن الشباب(٤) .

ويتضح من هاتين الاشارتين أن الهجويرى والفارمدى كانا مريدين لشيخ واحد ، هو « أبو القاسم الجرجانى » ، وكانا كلاهمـــا ينتميـــان الى جيل التلامذة والمريدين ، مما يدل على أنهما متقاربان فى السن ، ومن طبقـــة واحـــــدة ..

وبالاضافة الى هؤلاء ، أشار الهجويرى فى الباب الثالث عشر من كشف المحجوب (باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على حسب البلدان)(٥) الى عدد من الصوفية من بينهم مجموعة من الشبان من أبناء الشيوخ من طبقة أبى سعيد ، وهم :

المظفر بن أبى سعيد (٤٤٠ هـ) .

أحمد بن أبى الحسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) .

أبو الحسن على بن أبى على الأسود (سياه) (٤٢٤ هـ) .

وربما كان هؤلاء يمثلون الطبقة التالية لطبقة الهجويرى ..

وبعد هذا العرض لطبقات ثلاث من معاصرى الهجويرى ، نستنتج أنه كان يمثل طبقة تتوسط طبقة الشيوخ من أقران أبى سعيد بى أبى الخير ، وطبقة أبناء هؤلاء الشيوخ . وبناء عليه يمكن أن نرجح أنه ولد فيما بين العقدين

---

(١) « نفحات الانس » ص ٤٦٨ .
(٢) « أسرار التوحيد » انظر ص ١٤٢ — ١٤٤ .
(٣) « السابق » ص ٢٠٧
(٤) « كشف المحجوب » ص ٢١١ — ٢١٢ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ — ٢١٨ .

التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى . واذا افترضنا أنه ولد حوالى منتصف هذه الفترة ، فان ذلك لا يتعارض مع ما ورد فى بعض المصادر من أنه عاصر السلطان « محمود العزنوى »(١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وابنه السلطان مسعود(٢) (٤٣٢ هـ) .

أما عن نشأة الهجويرى ، فمن الواضح أنها كانت نشأة دينية خالصة ، فقد ولد فى بيئة متدينة عرفت بالزهد والتقوى(٣) ، بين أب على قدر كاف من التصو فوالعرفان(٤) وأم من بيت متدين عرف أفراده بالصلاح والتقوى فتلقى التعاليم الأولية للدين الاســـلامى على أفراد أسرته ، وصحب أباه خلال فترة طفولته ، فتعرف على مبادىء التصوف فى سن مبكرة ، وتشرب روحه منذ الصغر ، وكان لذلك أثره الكبير فى اتجاهه الى التصوف ، وسلوكه طريق الصـــوفية .

زواجـــه :

وردت فى كشف المحجوب اشارة عابرة أشار فيها الهجويرى الى زواجه، ويبدو منها أن تجربته فى الحياة الزوجية كانت قصيرة وغير سارة ، ذلك أن القدر أراد له أن يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها ، وأفسدت عليه هذه المرأة حياته لمدة عام ، انتقلت بعده الى رحمة الله .

يقول ما ترجمته : « وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق من آفة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصـــار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هناك رؤية . وقد استغرقت فى ذلك عاما بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته . والحمد لله على جزيل نعمائه »(٥) .

وقد اختلف « زوكوفسكى » و « نيكولسون » فيما اذا كان الهجويرى قد مر بتجربة عاطفية خلال هذا العـــام ، أم أنه تزوج فعلا . ويبدو أن

---

(١) « سلطنت غزنويان » ص ٣٣٨ ، « رسالة آبدالية » (نقلا عن مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .
(٢) « تصوف » عباس مهرين : كابل ص ٣٢ .
(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .
(٤) « هلال » جلد بنجم — شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٤٧٦ .

زوكوفسكى فهم من العبارة السابقة أن الهجويرى لم يكن متزوجا(١) ، وأن التجربة التى مر بها كانت تجربة عاطفية(٢) ، بينما يرى نيكولسون أنه قد تزوج فعلا(٣) .

ولا شك أن الصواب فى جانب نيكولسون ، لأننا اذا رجعنا الى النص نجد الهجويرى يقول :

« من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاما ، فقد قدر أن وقعت فى الفتنة » ومعنى هذا أن تغييرا قد حدث من حالة الى حالة مغايرة ، أى من عدم الزواج الى الزواج ، واستمر هذا التغيير لمدة عام ..

وقد ذكر « محمد الدين » مؤلف كتاب : « حيات حضرت داتا كنج بخش » فى فصل من الكتاب عنوانه : « الزواج الأول والثانى لحضرة دانا كنج بخش » أن الهجويرى تزوج مرتين ، واستند فى ذلك الى النص الذى ورد فى كشف المحجوب .

وبدأ الكاتب هـذا الفصل بقوله أن حضرة داتا كنج بخش آثار الى زواجه الثـانى ولم يذكر شـيئا عن زواجه الأول ، عندما قال فى كشف المحجوب .

« وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاما ، فقد قدر أن وقعت فى الفتنة » .

واستنتج الكاتب من هذه العبارة أن الهجويرى تزوج مرتين :

المرة الأولى : عندما كان لا يزال صغيرا ، فتزوج بناء على رغبة والديه ، غير أن هذا الزواج لم يدم طويلا ، اذ توفيت الزوجة الأولى .

وظل الهجويرى بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، كما هو واضح من عبـارته .

والمرة الثانية : عندما قدر له أن يقع فى حب الأسرة والأولاد ، وكانت تسيطر عليه عندئذ عاطفة قوية جعلته يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها من

---

(١) « يشترك » ميتز مع زوكوفسكى فى هذا الرأى ، انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Bulletin of : Oriental Studies : A Translation of Zhukovsky's Intro duction.

(٣) أنظر : نيكولسون : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب .

قبل ، فتزوج بها ، ولم يقدر له التوفيق فى زواجه الثانى ، ذلك أن المرأة التى تزوجها كادت أن تفسد عليه دينه . واستمرت هذه التجربة القـاسية لمدة عام ، كما يدل عليه قوله :

« واستغرقت فى ذلك عاما ، حتى كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه ، عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته » .

فهذه العبارة تدل ، فى رأى الكاتب ، على أن الزوجة الثانية توفيت أيضا بعد عام من الزواج . ويضيف الكاتب أن الزواج الثانى للهجويرى تم أيضا استجابة لرغبة والديه ، ذلك أنه على الرغم من كراهيته للزواج — كما يتبين من أقواله فى كتـابيه : كشف المحجوب وكشف الأسرار — اضـطر امتثالا لأوامرهمـا أن يتزوج مرتين ، اذ لم تكن لديه المقـدرة على رفض طلبهما ، احتراما لهما(١) .

والواقع أن الكاتب حلل النص الوارد فى كشف المحجوب تحليلا لا بأس به ، توصل عن طريقه الى ترجيح أن الهجويرى تزوج مرتين ، وهو ما نؤيده فيه ، الا أننا نأخذ عليه بعض التضـارب فى أقواله ، فهو تارة يقول ان الهجويرى تزوج فى المرة الثانية استجابة للرغبة القوية التى تملكته حبا فى تكوين الأسرة والأولاد ، وتارة أخرى يقول انه كان كارها للزواج عازفـا عنه ، وانما اضطر اليه ارضاء لوالديه .

وفى رأينا أن الهجويرى تزوج للمرة الأولى فى حياة أبويه ، وكان لا يزال شـابا حديث السن . وربما كان زواجه استجابة لرغبة والديه ، كما يقول « محمد الدين » .

أما المرة الثانية فيبدو أنها كانت بعد وفاة أبويه . ومن المرجح أن زواجه الثانى تم خلال فترة الرحلات ، ذلك أن العبارة الواردة فى النص تشير الى أنه ظل بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، ومعنى هـذا أنه كان قد تخطى الثلاثين من عمره . ومما لا شك فيه أن هذه الفترة من عمره تقابل فترة الرحـلات .

وقد انعكست مرارة التجربة الثانية الفاشلة للهجويرى فى الزواج على أقواله ورأيه فى الزواج فى كتابه كشف المحجوب ، وجعلته يقسو على النساء فى حكمه ، حتى أنه صرح بأن المرأة سبب البلاء فى الدنيا والآخرة ، وأنهـا كانت كذلك منذ البداية ، وبقيت هكذا الى يومه(٢) .

---

(١) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

الفصل الرابع

ثقافته - أساتذته وشيوخه
الشخصيات التى تأثر بها

١ ــ ثقافته ونوع العلوم التى حصلها :

من الواضح من كشف المحجوب أن الهجويرى كان على درجة كبيرة من ثقافة عصره ، فكتابه مرآة لثقافة دينية واسعة النطاق ، ودرايةكاملة باللغتين الفارسية والعربية . ويبدو انه بدأ دراسته فى موطنه غزنه فى سن مبكرة ، فاشتغل بما كان يشتغل به أترابه فى ذلك الوقت من دراسة العلوم المتعارفة على عهده : كقراءة القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب ، وكرس جهدا كبيرا لدراسة العلوم الدينية والشرعية كالتفسير والحديث والروايات والفقه . وقد توفرت له فى شبابه فرصة طيبة لتنمية معارفه عن طريق الرحلات المتعددة التى تجول خلالها فى أرجاء العالم الاسلامى(١) ، فتزود من أنواع الثقافة الاسلامية التى كانت منتشرة فى كل بقعة من العالم الاسلامى .

وبالاضافة الى هذا ، فقد أفادته تلك الرحلات فى الاطلاع على العديد من الكتب والمؤلفات الدينية عامة ، والصوفية خاصة ، مما وسع أفقه ، وعمق مفهومه للناحيتين الدينية والروحية .

واذا استعرضنا بعض الشواهد البارزة والواضحة فى كتاب كشف المحجوب ، فانه يمكننا عن طريق ذلك أن نتعرف فى وضوح على العلوم التى حصلها الهجويرى أثناء دراسته ، والمعارف التى اكتسبها من اطلاعاته وقراءاته .

وأول ما يستلفت نظرنا فى الكتاب ، كثرة الآيات القرآنية التى وردت فيه ، فالهجويرى استعمل ٢٣٦ آية قرآنية(٢) استعمالا دل على معرفته الكاملة بالقرآن الكريم ، واستيعابه للمعانى التى تهدف اليها آياته الكريمة ، والمغزى

---

(١) انظر تفصيل هذه الرحلات فى الفصل الخامس من هذا الباب .
(٢) « كشف المحجوب » انظر فهرست الآيات القرآنية ص ٥٧٦ ــ ٥٨٠ .

العميق الذى تنطوى عليه كل آية ، فكان يستشهد ببعض هذه الآيات لاثبات الآراء التى يذهب اليها ، ويرجع الى بعضها ليجلو معنى أساء البعض فهمه ، ويشرح بعضها ليطلع القارىء على المغزى الذى تنطوى عليه ، ويؤكد عن طريق عدد منها بعض الأسس والأصول الصوفية .

ولا شك أن هذا ان دل على شىء فانما يدل على أنه تعلم القرآن قراءة ، وتعمقه فهما وتفسيرا .

والى جوار الآيات القرآنية ، استعمل الهجويرى ١٣٨ حديثا(١) ، وشرح كثيرا منها شرحا وافيا ، ونقل معظمها الى اللغة الفارسية . وفى هذا أيضا ما يدل على المسامه الكبير بعلم الحديث ، مما يؤكد أنه درس هذا العلم دراسة وافية . وقد صرح هو نفسه بأنه تتلمذ على بعض الشيوخ ممن كانوا أساتذة فى علوم الحديث(٢) والتفسير(٣) .

وبالاضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث ، فقد روى الهجويرى ما يقرب من خمسمائة قول لشيوخ الصوفية ، بعضها للسابقين عليه ، ابتداء من الرواد الأوائل للصوفية ، وبعضها لشيوخه والمعاصرين له .

وفى هذا دلالة على معرفته بالروايات التى كان شيخه الختلى من المبرزين فيها ، وكانت له مجموعة منها أشار الهجويرى اليها فى كتابه(٤) .

أما عن دراسة الهجويرى للفقه ، فقد بدا أثر تلك الدراسة واضحا فى الجزء الأخير من كشف المحجوب ، الذى تحدث فيه عن الأحكام الشرعية للطهارة(٥) والصلاة(٦) والزكاة(٧) والصيام(٨) والحج(٩) ، فالهجويرى فى هذه الأقسام يبين فى دقة الأحكام الشرعية لهذه العبادات من الناحية الفقهية — أى من ناحية ظاهرها وأحكامها التى تجرى على الجوارح — ثم يوائم بين هذه الأحكام الظاهرية وبين المعانى الباطنية التى تنطوى عليها ، والتى هى من أعمال القلوب لا الجوارح ، مما يدخل فى نطاق المفهوم الصوفى لهذه العبادات . كما تكلم فى المعاملات كالزواج والصحبة وغيرها .

---

(١) « كشف المحجوب » انظر فهرست الأحاديث ص ٥٨١ — ٥٨٨ .
(٢) « انظر : ترجمة خواجه » المظفر بن حمدان ضمن التعريف بأساتذة الهجويرى »
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٤) « السابق » ص ١١٠ .
(٥) « السابق » ص ٣٧٤ — ٣٨٦ .
(٦) السابق ص ٣٨٦ — ٤٠٤ .
(٧) « السابق » ص ٤٠٤ — ٤١٣ .
(٨) السابق ص ٤١٣ — ٤٢٢ .
(٩) السابق ص ٤٢٢ — ٤٣٢ .

ويبدو أن الهجويرى درس الفقه على مذهب أبى حنيفة ، فقد صرح فى ترجمته له بأنه كان يميل اليه ويعتنق مذهبه(١) .

والى جوار العلوم الدينية ، فقد درس الهجويرى اللغتين الفارسية والعربية ، وأجادهما اجادة مكنته من أن يمسك بزمام اللغتين ، فينقل من احداهما الى الأخرى فى سهولة ويسر . وقد حرص دائما على ترجمة الأحاديث والأقوال المأثورة وأقوال شيوخ الصوفية ، فهو يثبت أصل الحديث أو القول باللغة العربية ، ثم يتبعه بترجمة له بالفارسية . وكثيرا ما يشرح هذه الأحاديث والأقوال بالفارسية بما يبين المعانى الواسعة لها أو النواحى الغامضة فيها . والحق أن هذه الترجمات والشروح فيها الدليل الكافى على مدى اجادته للغتين ، والمسامه بدقائق كل منهما ..

وفى الكتاب أيضا كثير من الأشعار والاشارات الأدبية الفارسية والعربية، التى استعملها الهجويرى فى مواضعها الصحيحة مما ينبىء عن فهم عميق وذوق أدبى سليم مدعم بدراسة واعية للأدب واطلاع على الآثار الأدبية ، حقيقة أن الذوق الأدبى موهبة فطرية فى الانسان ، الا أن الدراسة تصقل هذه الموهبة وتبرزها وتنميها . يضاف الى ذلك ما صرح به الهجويرى من أنه كان شاعرا ، وله ديوان من الشعر ، وان كان هذا الديوان مفقودا(٢) .

٢ — أساتذته وشيوخه :

ذكر الهجويرى فى كتابه عددا من الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأفاد منهم واقتدى بهم . وقد أدرك صحبة بعض هؤلاء الشيوخ ورافقهم لمدة طويلة ، وكان يتردد على البعض الآخر وينخرط فى سلك مريديهم ، ويتلقى عنهم تعاليمهم الصوفية . وجميع هؤلاء الشيوخ كانوا من الأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين الذين عاشوا فى الفترة ما بين النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، وهى الفترة التى تعد من أزهى الفترات فى تاريخ التصوف ، فقد برزت فيها معالم الحياة الصوفية فى أجلى صورها ، واتخذت شكل الفرق المنظمة ، وكان لكل فرقة منها نظمها وتقاليدها ورسومها الخاصة بها ، وان التقت جميعها حول هدف واحد ينشده كل صوفى .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١١٦ .
(٢) « السابق » ص ٢ .

وكانت كل فرقة من هذه الفرق تقوم على مجموعة من التلاميذ والمريدين يلتفون حول شيخ يشرف على تربيتهم واعدادهم ، ويلقنهم تعاليمه ومبادئه ، فانتشرت الزوايا والخانقاهات فى كل مكان ، وكانت كل واحدة منها يديرها شيخ من الشيوخ الكبار له نظامه الخاص فى تربية تلاميذه ومريديه ، ويخلفه فى رئاستها أشهر هؤلاء التلاميذ والمريدين .

ونعرف من المعلومات الواردة فى كشف المحجوب أن الهجويرى تتلمذ فى بعض العلوم على « **أبى العباس أحمد بن محمد الشقانى** » ، **وقد** وصفه بأنه كان اماما فى فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا فى جميع المعانى ، رأى كثيرا من الشيوخ ، وكان من كبار أهل التصوف وأجلهم .

والشقانى كان من شيوخ الصوفية الذين يتمسكون بالشريعة ، فقد ذكر الهجويرى أنه لم ير طيلة حياته رجلا من أى صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

ويبدو أنه كانت هناك روابط من المودة والعطف المتبادل تربط بين الهجويرى وأستاذه ، على نحو ما يظهر من قوله عنه : « وكان لى معه أنس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقه »(١) .

ولا ندرى متى توفى أبو العباس الشقانى على وجه التحديد ، وان كنا نعرف من كتابى « كشف المحجوب » و « أسرار التوحيد »(٢) أنه كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

وكان الشقانى من القائلين بالفناء ، وله فيه عبارات غامضة اختص بها . وكان يصيح قائلا : « أشتهى عدما لا عود فيه »(٣) .

***

أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى :

صرح الهجويرى بأنه سلك الطريق بارشاد أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى ، وترجم له فى كتابه فقال :

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .
(٢) انظر : كشف المحجوب ص ١٨٩ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٢٤٧ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .

« ومنهم زين الأوتاد وشيخ العباد : أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى رضى الله عنه ، وبه قدوتى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب مذهب الجنيد فى التصوف ، وكان مريدا للحصرى »(١)

ونتبين من هذه العبارة أن الختلى كان جنيدى المذهب ، فهو مريد أبى الحسن الحصرى (٣٧١ هـ) . وكان الحصرى مريدا للشبلى (٣٣٤ هـ)، والشبلى مريدا للجنيد البغدادى (٢٩٧ هـ) .

وطريق الجنيد مبنى على الصحو على عكس أبى يزيد البسطامى فطريقه مبنى على السكر ، ومن ثم قال الختلى : « السكر ملعب الصغار ، والصحو مفنى الرجال »(٢) .

وعن الختلى اعتنق الهجويرى مذهب الجنيد وأشاد به .

وقد خلطت بعض المصادر بين أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى مرشد الهجويرى وقدوته ، وبين أبى الفضل حسن السرخسى مرشد أبى سعيد ابن أبى الخير ، وذكرت أن الهجويرى وأبا سعيد كانا مريدين لشيخواحد(٣). وعلى الرغم من أن سلسلة شيوخ أبى الفضل حسن السرخسى تنتهى أيضا الى الجنيد(٤) ، الا أنه — كما يدل عليه اسمه — سرخسى — منسوب الى مدينة « سرخس » فى اقليم خراسان ، وقد عاش فى هذه المدينة وتوفى بها فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقبره هناك(٥) . أما أبو الفضل الختلى فقد عاش معظم حياته فى سوريا ، وتوفى فى قرية تسمى « بيت الجن » تقع بين « بانيار » و « دمشق » (٦) .

ولا نعرف متى توفى الختلى ، فلم يرد ذكر تاريخ وفاته فى « نفحات الأنس » أو « سفينة الأولياء » ، وان كان صاحب « خزينة الأصفياء » يحدد لوفاته سنة ٤٥٣ هـ ويذكر أنه حصل على هذا التاريخ من حاشية لنفحات الأنس(٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٢) « السابق ص ٢٣٢ .
(٣) سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « فصل الخطاب » (نقلا عن « كشف المحجوب » ص ٦١ ، ٦٢ من مقدمة زوكوفسكى) ، « هلال شمارة سوم — اردیبهشت ١٣٣٢ انظر : مقال بقلم غلام سرور .
(٤) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٤٣ .
(٥) « السابق » ص ٦٠ ، « نفحات الانس » ص ٢٨٤ ، « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسى : طهران ١٣٣٤ هـ ش (انظر ص ٣ من المقدمة) .
(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٧) « خزينة الاصفيا » ج ٢ ص ٢٣١ .

ولكن يبدو أن هذا التاريخ ليس صحيحا تماما ، ومن المرجح أنه توفى قبل هذا التاريخ وذلك للأسباب التالية :

أولا : أن الهجويرى ذكر أنه رافق شيخه الختلى لفترة طويلة ، وظل على صلة به الى أن توفى فى بيت الجن ، واستمع الى آخر كلماته ، وهى الوصية التى أوصاه بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة(١) .

ثانيا : وردت فى كشف المحجوب فقرة تفيد أن الهجويرى بدأ تأليف الكتاب فى بلاد الهند حيث كان أسيرا فى مدينة لاهور بين أناس ليسوا من جنسه . وتضمنت الفقرة نفسها اشارة من الهجويرى الى مجموعة الروايات التى جمعها الختلى ، وأبدى الهجويرى أسفه لأنه ترك هذه المجموعة فى موطنه غزنين(٢) .

ثالثا : بالنسبة لفترة الأسر المذكورة ، فقد كانت فى عام ٤٣٥ هـ ، وهو العام الذى وقعت فيه فتنة الراجات الهنود فى لاهور ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين(٣) . ومن المرجح أن الهجويرى كان من بين الأسرى .

رابعا : ذكر صاحب « تذكرة على هجويرى » أن الهجويرى ذهب الى لاهور بعد هزيمة السلطان مسعود الغزنوى على أيدى السلاجقة ووقوع الاضطرابات والقلاقل فى غزنه وكان ذلك حوالى سنة ٤٣١ هـ(٤) .

واستنادا الى ما تقدم نستنتج أن الختلى توفى قبل عام ٤٣١ هـ . وهذا لا يتعارض مع ماذكره الهجويرى من أن شيخه الختلى كان من أقران شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبه(٥) المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وأبى عمر القزوينى ،(٦) المتوفى سنة ٤٤٢ هـ(٧) .

***

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٢) « السابق » ص ١١٠ .
(٣) « الكامل » حوادث سنة ٤٣٥ ، « سلطنيت غزنويان » ص ٢٣٧ .
(٤) « تذكرة على هجويرى » ص ٢٠ .
(٥) « خلط جامى بين شيخ الشيوخ ابى الحسن بن سالبة المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وبين ابنه أبى الفتح المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، فالترجمة التى وردت فى النفحات لشيخ الشيوخ هى ترجمة ابنه أبىالفتح التى وردت فى شد الازار (قابل بين « شد الازار » ص ١٢٨ — ١٢٩ ، و « نفحات الانس » ص ٢٧٩) .
(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٧) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، «صفو الصفوة» أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجويرى وأفاد منهم :

« أبو القاسم على الجرجانى الطوسى » : من شيوخ الصوفية المعروفين من طبقة أبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠هـ) ، ومريد أبى عثمان المغربى (٣٧٣ هـ) .

تحدث الهجويرى عن الجرجانى فوصفه بأنه : « لا نظير له فى عصره ، ولا بديل منه فى زمانه ، وقام بأسفار شاقة فى المعاملة »(١) .

وقد لجأ الهجويرى الى الجرجانى لحل مشاكله ، ووضع فيه ثقته ، ومنحه أسراره ، ففى الوقت الذى كان لا يزال فيه الهجويرى شابا مغرورا ، كان الجرجانى يمثل القطب الذى يدور حوله أهل زمانه ، وتتجه اليه قلوب الصوفية فى كل مكان ، ويعتمد عليه المريدون ، فقد كان آية فى كشف وقائع المريدين ، وعالما بفنون العلم(٢) .

وكانت للجرجانى كرامات وصف لنا الهجويرى واحدة منها حدثت معه شخصيا(٣) ، ويبدو أنه كان يتردد عليه كثيرا فى طوس ويسأله فى كل ما يعن له من أمور ، فقد سأله عن الشروط التى ينبغى توفرها فى الدرويش لكى يكون جديرا بأن يلقب بالفقير(٤) . كما سأله عن شروط الصحبة(٥) .

وفى حديث للهجويرى عن الأحوال والرؤى التى ظهرت له ، والرياضات التى مارسها : قال له الجرجانى ، عندما رأى نخوة الصبى وجذوة الشباب تقوده الى الزهو والغرور :

« يا بنى ، ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهوه العبارة . والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو »(٦) .

وكان الجرجانى جنيدى المذهب ، ترتبط سلسلة شيوخه بالجنيد بثلاث وسائط(٧) ، فهو مريد أبى عثمان المغربى (٣٧٣ هـ) ، وكان المغربى مريدا لأبى على الكاتب (٣٤٠هـ) ، والكاتب مريدا لأبى على الرودبارى (٣٢٢هـ) ، والرودبارى مريدا للجنيد البغدادى (٢٩٧هـ) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١١ .
(٢) « السابق » ص ٢١١ .
(٣) « السابق » ص ٣٠٠ — ٣٠١ .
(٤) « السابق » ص ٥٥ .
(٥) « السابق » ص ٤٤١ .
(٦) « السابق » ص ٢١٢ .
(٧) « نفحات الانس » ص ٢٠٧ .

ولكن « دارا شـــكوه » خلط بين الجرجـــانى وتلميذه ومريده أبى على الفـــارمدى ، فذكر أن الجرجـــانى كان يجمع بين مذهب الجنيد ، ومذهب أبى يزيد البسطامى عن طريق أبى الحسن الخرقانى(١) . والصحيح أن الفارمدى هو الذى كان مريدا للخرقانى منناحية ، وللجرجانى من ناحية أخرى(٢) . أما الجرجانى فقد كان معاصرا لأبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى العباس الشقانى وأبى القاسم القشيرى .

وكانت هناك علاقات ودية ، تقوم على أســـاس من التقـــدير والاحترام المتبادل ، تربط بين الجرجانى وأبى سعيد والقشيرى ، فقد كان الجرجانى يرسل مريديه الى أبى سعيد ليتم لهم تعليمهم(٣) ، وكان أبو سعيد يعـــد الجرجانى مساويا له فى الدرجة(٤) . أما القشيرى فقد اعترف بأن الجرجانى يتفوق عليه فى مجال التصوف(٥) .

كذلك خلط « العطار » فى تذكرة الأوليـــاء بين أبى القاسم الجرجـــانى وأبى القاسم بشر ياسين ، فنقل عن « أسرار التوحيد » قصة لقاء أبى القاسم بشر ياسين بأبى سعيد بن أبى الخير عندما كان طفلا ونسبها الى أبى القاسم الجرجـــانى(٦) . ومن المعروف أن أبا القاسم بشر ياسين عاش فى ميهنه مواطن أبى سعيد ، وتوفى بها عام ٣٨٠ هـ(٧) .

وكان الجرجانى على قيد الحياة عندما ألف الهجويرى كشف المحجوب ، وتوفى عام ٤٥٠ هـ(٨) ، وان كان « ابن العماد الحنبلى » يذكر لوفاة الجرجانى تاريخا آخر هو عام ٤٦٩هـ(٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأصح ..

وقد تتلمذ على الجرجانى ، بالاضافة الى أبى على الفارمدى ، « أبو بكر

(١) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ .
(٢) « نفحات الانس » ص ٣٦٨ .
(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٢٠٧ .
(٤) « السابق » ص ٨١ .
(٥) « السابق » ص ١٤٤ .
(٦) « تذكرة الاولياء » فريد الدين العطار : نشر نيكلسون ليدن ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٥ م النصف الثانى ص ٢٥٣ .
(٧) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٣٣ — ٣٦ .
(٨) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » معصو معليشاة : طهران ١٣١٨ ، ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .
« شذرات الذهب فى اخبار من ذهب « لابى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى : القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ج ٣ ص ٣٣٤ .

النساج » أستاذ الشيخ أحمد الغزالى(١) شقيق الامام الغزالى . وغيره من المريدين ممن وصفهم الهجويرى بأن كلا منهم زينة لعالم(٢) .

***

والى جوار الشقانى والختلى والجرجانى ، توجد شخصية أخرى طالمـــا تردد عليها الهجويرى وتلقى عنها بعض التعاليم الصوفية ، وهى شخصية : **(خواجه) أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان** (النوقانى)(٣) الملقب بالسيد الامام . كان من كبار الصوفية وائمة أهل الحديث المعروفين(٤) ، ترجم له الهجويرى فقال :

« ومنهم رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء : أبو أحمد المظفر بن أحمد ابن حمدان رضى الله عنه ، كان متربعا فى الرياسة ، وقد فتح الله عز وجل له باب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامه »(٥) .

ولا نعرف متى توفى خواجه المظفر ، ولكن يبدو من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيـــد أنه كان معـــاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠ هـ) وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ) ، ومن المرجح أنه توفى قبل تأليف كتاب كشف المحجوب ، فقد وردت فى الترجمة التى كتبها له الهجويرى عبارة تدل على أنه لم يكن على قيد الحياة فى ذلك الوقت ، وأنه قد بقى منه خلف طيب هو ابنه السيد أحمد(٦) . ومعنى هذا أنه توفى قبل سنة ٤٣٥هـ .

والمظفر كان من الصوفية الذين ينتمون الى أسر عريقة ، قطع فى طريق التصوف مرحلة كبيرة ، وبلغ فيه مكانة مرموقة تبدو من قوله : « ان ما أدركه العظماء بقطع البوادى والمفازات أدركته وأنا جالس على الحشايا فى مكان الصـــدارة » .

وكان المظفر ممن يتكلمون فى الفناء والبقاء ، وله فيه بيان حسن وعبارة عاليـــة(٧) .

وبالرغم من أن المظفر ألف كتابا فى اباحة السماع ، الا أنه حذر الهجويرى من التعود عليه ، وقال له عندما رأى نشوته به :

(١) « نفحات الانس » ص ٣٧٠ ، طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٥١ .
(٢) « كشف المحجوب » : ص ٢١١ .
(٣) « أسرار التوحيد » : الترجمة : ص ٣١٣ .
(٤) « كشف المحجوب » : ص ٥٢٤ .
(٥) « السابق » ص ٢١٢ .
(٦) « السابق » ص ٢١٣ .
(٧) « السابق » ص ٢١٣ .

« سوف يأتى وقت يتساوى فيه لديك هذا السماع ونعيق الغراب ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع »(١) .

٣ ــ الشخصيات التى تأثر بها الهجويرى :

بالاضافة الى الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجويرى ، هناك عالم من علماء الصوفية وشيخ من شيوخهم من المعاصرين للهجويرى ، كان له أثر واضح فى شخصيته وفى كتابه ، وهو :

« **أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى** » من شيوخ خراسان ، وامام نيسابور ، وصاحب الرسالة القشيرية .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم ينص على أنه تتلمذ على القشيرى ، الا أنه من الواضح أنه كان من الشخصيات التى تركت أثرا بارزا فيه ، فقد حذا حذوه فى كتابه(٢) ، ونقل من رسالته كثيرا من رؤوس الموضوعات التى تناولها ، وبعض الآراء المتعلقة بالأصول الصوفية ، بل أن هناك علاقة وثيقة بين مقدمة الرسالة للقشيرى ومقدمة كشف المحجوب ، فالقارىء للمقدمتين يدرك لأول وهلة مدى التشابه بينهما حتى فى استعمال نفس العبارات والألفاظ .

والقشيرى كان مريدا لأبى على الدقاق (م ٤٠٥ هـ)(٣) ، واستاذا لشيخ شيوخ خراسان أبى على الفارمدى (م ٤٧٣ هـ)(٤) .

وقد ترجم الهجويرى للقشيرى فى الباب الذى ترجم فيه لأساتذته وشيوخه(٥) . ، كما نقل عنه بعض الآراء التى سمعها منه شخصيا ، كرأيه فى مسألة الفقر والغنى(٦) ، ، ورأيه فى المحبة(٧) ، وموقفه من الحلاج(٨) ، وقصد زياراته لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان(٩) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ .
(٢) « السابق » ص ١٤١ .
(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ .
(٤) « نفحات الانس » ص ٣١٣ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٦) « السابق » ص ٢٨ .
(٧) « السابق » ص ٤٠١ .
(٨) « السابق » ص ١٠٩ .
(٩) « السابق » ص ٢٠٥ .

وكان القشيرى ينتمى الى حلقة أبى سعيد بن أبى الخير ، وكان أبو سعيد يبدى اعجابه الشديد بالقشيرى ويصفه بأنه أستاذ الأساتذة(١) . كما تحدث القشيرى عن أبى سعيد بعد وفاته فى احترام وتقدير عظيمين ، وقال فى حقه : « عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية ، ولو لم نره لقرأنا التصوف فى الكتب »(٢) .

***

وهناك عدد آخر من شيوخ الصوفية المعروفين تأثر بهم الهجويرى على الرغم من أنه لم يلتق بهم . ومن هؤلاء من كان معاصرا للهجويرى ولم تسنح له الفرصة للقائه مثل أبى سعيد بن أبى الخير ، ومنهم من كان سابقا عليه وتأثر به عن طريق اطلاعه على كتبه ومؤلفاته وجمع أخباره مثل الحسين بن منصور الحلاج ومحمد بن على الترمذى .

أما « **أبو سعيد بن أبى الخير** » فهو « أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير محمد بن أحمد الميهنى » ، من أكبر الشخصيات الصوفية التى عاشت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، والنصف الأول من القرن الخامس.

وقد ترجم الهجويرى لأبى سعيد فوصفه بأنه « سلطان سلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال . كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة وشأن عظيم فى درجة اشرافه على الأسرار ، وكان له آيات وبراهين كثيرة »(٣) .

وأبو سعيد ولد فى مدينة « ميهنه » من أعمال « خاوران » باقليم « خراسان » سنة ٣٥٧ هـ ، وتلقى علومه الأولى فيها ، ثم انتقل الى مدينة « مرو » لدراسة الفقه ، فقرأ على أبى عبد الله الخضرى خمس سنوات ، وبعد وفاته تحول الى أبى بكر القفال المروزى فقرأ عليه خمس سنوات أخرى ،ترك بعدها مرو الى « سرخس » حيث درس التفسير وعلم الأصول وأخبار الرسول على الامام ابى على زاهر بن أحمد(٤) . ثم لم يلبث أبو سعيد أن ترك دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية ، واتخذ أبا الفضل حسن السرخسى مرشدا له وقدوة(٥) .

---

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .
(٢) « السابق » ص ٤١٣ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ .
(٤) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٤٠ .
(٥) « السابق » ص ٤١ ــ ٤٢ .

وقام أبو سعيد برياضات شاقة لمدة خمسة عشر عاما ، قضى سبعة أعوام منها معتكفا فى زاوية داره(١) ، ثم رجع الى سرخس فمارس الرياضة تحت اشراف ابن الفضل عاما(٢) ، بدأ بعده فترة أخرى من الرياضة امتدت لسبع سنوات قضاها متجولا فى صحراء خاوران(٣) . وفى خلال هذه الفترة الأخيرة توفى أبو الفضل ، فاتصل أبو سعيد بأبى عبد الرحمن السلمى فى نيسابور وتلقى منه الخرقة الأولى(٤) ، ثم اتصل بأبى العباس القصاب ونال على يديه الخرقة الثانية(٥) .

وكان أبو سعيد يعتنق مذهب أبى يزيد البسطامى ، الذى يقوم على فكرة وحدة الوجود ، وأصبح هو ومعاصره أبو الحسن الخرقانى من أكبر المروجين لهذه الفكرة(٦) .

ويعتبر أبو سعيد الرائد الأول لشعراء الصوفية من الايرانيين ، فقد كان أول من صاغ عقائده نظما بالفارسية ، فكان مثلا احتذاه فيما بعد شعراء الصوفية الكبار من الايرانيين أمثال « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى »(٧) ، بل أن أغلب المستشرقين اعتمدوا فى دراساتهم لتعاليم أبى سعيد وعلاقتها بالتطور التاريخى للصوفية على الرباعيات التى نسبت اليه(٨) .

وقد احتل أبو سعيد من التصوف الاسلامى مكانة مرموقة عندما اتخذ ، فى مطلع القرن الخامس الهجرى من مدينة نيسابور مركزا لنشاطه (٩) ، وأخذ يعقد المجالس فيها لمدة طالت حتى قاربت الثلاثين عاما ، التف خلالها حوله كثير من المريدين ، وذاع صيته فى اقليم خراسان ، وتهافت الناس على مجالسه(١٠) ، واختلف اليها كثير من شيوخ الصوفية ورجال الدين وأئمة المذاهب المختلفة ، من بينهم « أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » و « أبو محمد الجوينى »(١١) والد امام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، و « أبو القاسم القشيرى »(١٢) .

---

(١) « أسرار التوحيد » ص ٤٤ .
(٢) « السابق ص ٥٤ .
(٣) « السابق » ص ٤٥ ، ٥٦ .
(٤) « السابق » ص ٥٠ .
« السابق » ص ٦٤ .
(٦) Nicholson : Studies in Islamic Mysticism : London, 1921, p. 76.
(٧) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسى انظر ص ٦ من المقدمة .
(٨) Studies in Islamic Mysticism : p. 48.
(٩) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٧٧ .
(١٠) « السابق » ص ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٦ .
(١١) « السابق » ص ١٠٨ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ، ٢٣١ .
(١٢) « السابق » ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ .

ويعزى الى أبى سعيد أنه أول من أسس نظام الخانقاهات فى الاسلام (١)، فقد كان يعيش بين مريديه فى عدد من هذه الخانقاهات ، ووضع لحياتهم بها القواعد والأسس(٢) .

وكان أبو سعيد يتميز بشخصية قوية ، ومقدرة فائقة على قراءة الأفكار ، وقد مكنت له هاتان الميزتان من أن يسيطر على أعدائه والمناوئين له ، فهابوه ، وتخلوا عن معارضتهم له(٣) .

وأثرت عن أبى سعيد كرامات كثيرة تحدث عنها حفيده « محمد بن المنور » باسهاب فى كتاب أسرار التوحيد . وتوفى أبو سعيد فى ميهنه عام ٤٤٠هـ(٤) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم يلتق بأبى سعيد فى حياته ، الا أنه تأثر ببعض أقواله وآرائه التى استمع اليها من معاصريه ، وناقش رأى أبا سعيد فى الفقر والغنى(٥) واستشهد ببعض أشعاره وأقواله فى مواضع من كشف المحجوب . وقام بزيارة قبره بعد وفاته ، وأقام على القبر ثلاثة أيام ، رأى خلالها كرامة من كرامات أبى سعيد (٦) .

وأما « الحلاج »(٧) فيرجع اهتمام الهجويرى به الى بداية شبابه ، وقد خصه فى ذلك الوقت بكتاب مستقل شرح فيه أقواله ، وتحدث عن أحواله فى كتاب آخر له اسمه : « منهاج الدين »(٨) .

وكان الهجويرى قد قرأ معظم مؤلفات الحلاج التى وقعت فى يده ، وجمع أشعاره وأقواله وحكمه من مختلف الشيوخ ، **واستخدمها** فى مناقشاته وجدله فى كشف المحجوب(٩) . كما ضمن الكتاب ترجمة للحلاج ، وبين موقف شيوخ الصوفية منه ، وصرح بأن اثنين من شيوخه ، وهما : « أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » كانا من بين المعتقدين فى الحلاج ، والمعظمين لأمره »(١٠) .

---

(١) « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبى العلا عفيفى القاهرة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م ، ص ٥٨ .
(٢) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٣٦١ — ٣٦٣ .
(٣) « السابق » ص ٨٩ — ٩٤ .
(٤) « السابق » ص ٣٩٨ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٤ ، ٢٦ .
(٦) « السابق » ص ٣٠١ — ٣٠٢ .
(٧) « ترجم له السلمى فى الطبقات فذكر أن اسمه » : أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (انظر : طبقات الصوفية ص ٣٠٨) ويسميه ابن النديم : عبيد الله بن أحمد ابن أبى طاهر الحسين بن منصور الحلاج (انظر : الفهرست ص ٢٦٩) .
(٨) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .
(٩) « السابق » انظر : ص ٢٣٥ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٦١ وغيرها .
(١٠) « السابق » ص ١٨٩ .

وقد اختلف شيوخ الصوفية فى الحلاج ، فمنهم من قبله ، ومنهم من رده ، ومنهم من توقفوا فى أمره :

فالذين ردوه كثيرون . والذين قبلوه منهم : « ابن عطاء » و «ابن خفيف» و « النصرابادى » ، ومن المتأخرين « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد أشاد أبو سعيد بالحلاج ووصفه بأنه كان فريد عصره فى علوم التصوف فى المشرق والمغرب (١) .

وأما الذين توقفوا فى أمره فمنهم : « القشيرى »(٢) والشيخ « عبد الله الأنصارى »(٣) .

والحلاج صلب ببغداد سنة ٣٠٩ هـ ، ويرجع السبب فى قتله الى مقالته المشهورة : « أنا الحق » التى أعلن فيها اتحاده بالذات الالهية ، والى مجموعة أخرى من الأسباب . كما اتهم بالسحر والشعوذة وادعاء الكرامات .

وقد دافع الهجويرى عن الحلاج دفاعا حارا ، وحاول أن ينفى عنه ما نسبوه اليه من الاحتيال والسحر ، ظنا منهم أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الملحد البغدادى ، أستاذ محمد بن زكريا ورفيق أبى سعد القرمطى(٤) .

وكان الهجويرى أول من طرق هذه الفكرة بأنه كان هناك شخصان يدعى كل منهما الحلاج : أحدهما ذلك الملحد الذى ينسب الى بغداد ، والآخر الحلاج الحقيقى الفارسى المنسوب الى بيضاء فارس . وقد نقل كل من « العطار »(٥) و « محمد بارسا »(٦) هذه الفكرة عن الهجويرى .

ويذكر الهجويرى أن الحلاج الحقيقى الذى اختلف المشايخ فى أمره وهجروه ، لم يكن هجرهم له يعنى الطعن فى دينه ومذهبه ، بل فى حال دنياه ، والا لما قال عنه الشبلى : « أنا والحلاج شىء واحد » ، وقال محمد ابن خفيف « هو عالم ربانى » . وانما كان هجرهم له بسبب اغضابه لشيوخه ، فقد كان فى بداية أمره مريد سهل بن عبد الله ، وانصرف عنه دون

(١) « اسرار التوحيد » الترجمة ص ٩٤ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٣) « نفحات الانس » انظر : ص ١٥٠ .
(٤) « كشف المحجوب » ١٩٠ .
(٥) « تذكرة الاولياء » (انظر ج ٢ ص ١٤٦) .
(٦) Bulletin of Oriental Studies : Zhukovsky's Introduction. نقلا عن : فصل الخطاب .

استئذان واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق بالجنيد ، فلم يقبله . ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل(١) .

وساق الهجويرى الدليل على بطلان ما نسب الى الحلاج من السحر فذكر أن السحر فى أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، وأن اظهار السحر فى حال الكمال كفر واظهار الكرامة معرفة ، لأن الأول يكون نتيجة لسخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة على رضائه .

وأضاف الهجويرى أن أهل السنة والجماعة متفقون على أن المسلم لا يكون ساحرا ، وأن الكافر لا يكون مكرما ، لأن الاضداد لا تجتمع . والحسين بن منصور كان طوال عمره فى ثياب الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ، وصيامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونكات لطيفة فى التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . وعلى هذا فان ما نسب اليه كان من الكرامات . والكرامات لا تكون الا لولى محقق(٢) .

كذلك دافع الهجويرى عن الحلاج للمرة الثانية بشأن ما نسب اليه من الأقوال التى تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، فذكر أن ذلك كان مبالغة منه وتهويلا فى العبارة لا فى المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته فى غلبة الحال . وذكر أيضا أنه يجوز أن يكون معنى تلك العبارات صعبا فلا يستطيعون فهم مقصوده منها ، ويصور لهم وهمهم صورة عنها ينكرونها ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى(٣) .

ولا شك أن رأى الهجويرى هذا فى الحلاج يختلف كثيرا عن آراء غيره فيه . ويبدو هذا الاختلاف جليا اذا ما قارنا أقواله بقول واحد من معاصرى الحلاج ، وهو : « الاصطخرى » الذى أشار الى الحلاج وصور نظريته فى الحلول فقال : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ، وكان رجلا حلاجا ينتحل النسك ، فما زال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال الى أن زعم أن من هذب فى الطاعة نفسه ، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه فى منع الشهوات ارتقى به الى مقام المقربين . ثم لا يزال يتنزل فى درج المصافاة حتى يصفو

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ .
(٢) « السابق » ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

عن البشرية طبعه ، فاذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذى كان منه عيسى بن مريم ، فيصير مطاعا فلا يريد شيئا الا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله »(١) .

وعلى الرغم مما رأيناه من الدفاع المستميت للهجويرى عن الحلاج ، الا أنه يصرح بأنه لم يكن يصلح لأن يكون قدوة ، وهو يوضح السبب فى ذلك فيه ذكر أنه كان مغلوبا فى حالة غير متمكن ، وينبغى للقدوة أن يكون متمكنا حتى يمكن الاقتداء به . وكذلك لم يمنعه تصريحه بأن الحلاج يحتل من قلبه مكانا عزيزا ، من أن ينقد طريقه ، فيصفه بأنه لم يكن مستقيما على أى أصل ، وأن حاله غير مستقرة على وجه ، وفى أحواله فتن كثيرة(٢) .

وذكر الهجويرى أنه رأى فى بغداد ونواحيها طائفة من الملاحدة يدعون توليهم للحلاج ، وقد اتخذوا من أقواله حجة لزندقتهم ، وأسموا أنفسهم الحلاجيين .

وتنسب الى الحلاج مؤلفات كثيرة ، رأى منها الهجويرى خمسين مؤلفا ، بعضها فى بغداد ، وبعضها فى خوزستان وفارس وخراسان(٣) . وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين مؤلفا من مؤلفات الحلاج(٤) .

والى جوار الحلاج كانت هناك شخصية أخرى تأثر بها الهجويرى وهى شخصية « أبى عبد الله محمد بن على الترمذى » المعروف بالحكيم . وهو متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقيه حنفى ، توفى عام ٢٨٥هـ(٥) . ذكره السلمى فى طبقات الصوفية على أنه من كبار شيوخ خراسان(٦) ، وترجم له الهجويرى فوصفه بأنه كان كاملا واماما فى فنون العلم ، ومن المشايخ المحتشمين ، له تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة(٧) . وكانوا يطلقون عليه اسم « حكيم الأولياء »(٨) .

---

(١) انظر ص ١١٤ من : « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى حلمى : القاهرة ١٩٤٥ (نقلا عن الاصطخرى) .
(٢) (كشف المحجوب ص ١٩٢) .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩١ .
(٤) « الفهرست » ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
(٥) « التصوف الثورة الروحية » ص ٣٠٨ .
(٦) « طبقات الصوفية » ص ٢١٧ .
(٧) « كشف المحجوب » ص ١٧٧ .
(٨) « تذكرة الاولياء » ج ٢ ص ٩١ .

وكان الترمذى شيخا لأبى على الجوزجانى ، وأبى بكر الوراق الترمذى وروى عنه هذا الأخير أن الخضر عليه السلام كان يحضر اليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع(١) .

وقد حظى الترمذى بتعظيم الهجويرى وحبه عن طريق قراءته لكتبه التى أشار الى عدد منها فى كشف المحجوب ، لا سيما كتابه « ختم الولاية » الذى اعتمد عليه الهجويرى فى مناقشته لموضوع الولاية . كما نسب اليه فرقة الحكيمية(٢) من المتصوفة ، وذكر أن أساس مذهبها يقوم على الولاية .

ويعد الترمذى رائد « ابن عربى » الذى جاء بعده بثلاثة قرون ، فقد درسه وأعجب به ، ولا سيما بكتابه المفقود « ختم الولاية » .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٧٨ .
(٢) « السابق » ص ٢٦٥ وما بعدها .

الفصل الخامس

رحلات الهجويرى

بعد أن أتم الهجويرى دراسته الأولى فى موطنه غزنه ، وحصل قدرا كافيا من العلوم المعروفة على عهده ، سلك مسلك علماء عصره فى السفر والتجول طلبا للعلم والمعرفة ، فرحل الى بلاد متعددة ، وطوف طويلا فى العالم الإسلامى ، من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهنـــد ، فزار العراق وخوزستان وفارس والشام وآذربيجان وجرجان وخراسان وما وراء النهر والتركستان والهند . وقد أفادته هذه الرحلات فأمدته بحصيلة وفيرة من المعلومات والمعارف ، ومكنته من لقاء كثير من رجال العـــلم والأئمة وشيوخ الصوفية المعـــروفين فى عصره ، والممثلين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة . وحادث بعض هؤلاء ، وجادل بعضهم ، واستمع الى آراء كثير من الشيوخ وجمع أقوالهم ، وبهذا حصل على مادة متنوعة وحية استخدمها فى حكاياته عن الشيوخ الذين ترجم لهم ، وفى القائه الأضواء على مختلف الأمور التى عالجها فى كتابه .

ويبدو أن الهجويرى مر بفترة عاصفة من حياته قبل أن يتصوف ، وأنه بدأ رحلاته فى خلال تلك الفترة وهو لا يزال فى سن الشباب ، وكانت أولى رحلاته .

رحلته الى العراق : وقد صور لنا حياته فيها ، وكيف أنه انشغل بجمع الثروة وبعثرتها ، والتف حوله بعض الفضوليين واخوان السوء الذين أرهقوه بمطالبهم حتى عجز عن تحقيق رغباتهم ، وغرق فى الديون .

ويبدو أن الهجويرى كان على صلة ببعض رجال الدين والأئمة المعروفين فى ذلك العصر ، وربما كانوا من طبقة والده أو من أساتذته الذين تتلمذ عليهم ، وكان من بين هؤلاء شخص يتابع أخباره ، وعرف نوع الحيـــاة التى انغمس فيها ، فأشفق عليه منها ، وبعث اليه برسالة ينصحه فيها ويحذره من أن يشغل قلبه عن الله بالاهتمام بتحقيق رغبات أولئك الذين ملأ الهوى قلوبهم ، وطلب منه أن يكف عن ذلك(١) .

---

(١) كشف المحجوب ص ٤٤٩ .

وأحدثت رسالة ذلك السيد أثرها فى نفس الهجويرى فى الحال ، وأحس بالراحة ، ويبدو أنه اتجه بعدها الى التوبة .

وفى العراق زار الهجويرى « بغداد » ونواحيها ، ورأى هناك جماعة من الصوفية المزيفين ، سماهم « الملاحدة » ، وكانوا يدعون كذبا أنهم ينتسبون الى الحلاج ، واتخذوا من بعض أقواله حجة لزندقتهم ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « الحلاجيين »(١) . وكان الشيخ الكبير أبو جعفر محمد ابن المصباح الصيدلانى ومعه أربعة آلاف من أتباع الحلاج الحقيقيين المنتشرين فى العراق يصبون اللعنة على هؤلاء الحلوليين الذين ينسبون أنفسهم زورا الى الحلاج(٢) .

رحلته الى فرغانه : من المرجح أن تكون هذه الرحلة هى الرحلة الثانية من رحلات الهجويرى ، وأنه قام بها بعد أن أقلع عن حياة اللهو والعبث واتجه الى التوبة ، وأخذ يتقرب الى شيوخ الصوفية بزيارة بعض الأحياء منهم ، وزيارة قبور من ودعوا الحياة . ونجد فى مقدمة الأحياء الذين زارهم : « الباب الفرغانى »(٣) .

والباب هذا كان شيخا من الأوتاد يدعى « عمر » ، ويقيم فى قرية من قرى فرغانه اسمها « شلاتك » ، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم جريا على عادة أهل تلك الديار الذين كانوا يطلقون اسم « الباب » على الشيوخ الكبار(٤) .

ولما مثل الهجويرى بين يدى « الباب » سأله : لم جئت ؟ قال : لأرى الشيخ ، وليشملنى بعين رعايته . فقال له الباب : يابنى ؟ اننى أرعاك منذ اليوم (الفلانى) ، فلما أحصى الهجويرى السنين والأيام وجد أن اليوم المشار اليه هو اليوم الذى بدأ فيه توبته . ونصحه الباب أن يقلع عن السفر والتجول ، فالأمر ليس موقوفا على زيارة المشايخ ، وانما عليه بالهمة .

وفى هذه الزيارة رأى الهجويرى كرامة من كرامات الباب(٥) .

---

(١) كشف المحجوب ص ١٩٢ .
(٢) السابق ص ٣٣٤ .
(٣) ترجم له جامى فى نفحات الانس وقال ان شيخ الاسلام عبد الله الانصارى ذكر أن الشيخ « عمو » رآه (انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٢) ، والشيخ « عمو » ؛ كنيته أبو اسماعيل ، واسمه أحمد بن محمد بن حمزة الصوفى ، توفى سنة ٤٤٢ هـ وقبره فى هراة (انظر : « سفينة الاولياء » ص ١٦٣) .
(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

رحلته الى الشام :

يبدو أن نصيحة الباب للهجويرى بالكف عن زيارة المشايخ قد لاقت منه اقتناعا وقبولا . وكان عليه بعد ذلك أن يختار لنفسه موجها روحيا ومرشدا يسلم اليه أمره ، ويسلك الطريق بارشاده .

ورحل الهجويرى الى بلاد الشام ، وهناك التقى بأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى فاتخذ منه مرشدا وقدوة (١) .

وكان الختلى يسكن « بيت الجن » وهى قرية تقع بين « بانيار » و « دمشق » . ولازم الهجويرى شيخه الختلى مدة طويلة ، وظل يصحبه الى أن توفى ، وكان يتردد على دمشق فى رفقته(٢) .

وفى بلاد الشام زار الهجويرى قبر « بلال » مؤذن الرسول عليه السلام ، وبات ليلة على القبر ، ورأى الرسول فى نومه(٣) .

كذلك ذهب الى الرملة لزيارة « ابن المعلا » وكان شيخا من كبار شيوخ الصوفية وسادة أهل زمانه . وقد وجده الهجويرى من المهتمين بالحسين ابن منصور الحلاج(٤) .

رحلته الى آذربيجان :

فى أثناء الفترة التى لازم فيها الهجويرى شيخه الختلى كان يتردد فى رفقته على ديار آذربيجان ، فرأى بضعة أفراد من أصحاب المرتفعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال مرتفعاتهم ليضع فلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرأ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »(٥) فسأل شيخه : بأى خزى ابتلى هؤلاء وفضحوا على هذا النحو ؟ فأجابه الشيخ بأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين وهم يحرصون على جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص(٦) .

وفى جبال آذربيجان رأى الهجويرى درويشا كان يسير وهو يردد أبياتا من الشعر ، وبدا عليه الشحوب ، وجلس مسندا ظهره الى حجر ثم فارق الحياة (٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٢) « السابق » ص ٣٠٠ .
(٣) « السابق » ص ١١٦ .
(٤) « السابق » ص ٤٤٧ .
(٥) « سورة البقرة » آية ١٦ .
(٦) « كشف المحجوب » ص ٦٤ .
(٧) « السابق » ص ٥٣٥ .

رحلته الى خوزستان وفارس :

من بين الأقاليم التى أشـــار الهجويرى الى أنه قام بزيارتهـــا اقليما خوزستان وفارس . وقد رأى فيهما وفى بغداد وخراسان خمسين مؤلفا من مؤلفات الحلاج(١) .

رحلته الى جرجان :

كذلك زار الهجويرى اقليم جرجان ، وتردد كثيرا على « بسطام » حيث يوجد قبر أبى يزيد البسطامى ، فقد اعتاد كلما اعترضته مشكلة فى الطريق أن يذهب الى بسطام ويقيم فيها مجاورا على قبر أبى يزيد حتى تحل مشكلته . وفى احدى المرات امتدت اقامته على القبر لمدة ثلاثة أشهر(٢) .

رحلته الى خراسان :

وذهب الهجويرى الى اقليم خراسان ، ويبدو أنه أقام فيه طويلا ، وزار عددا من ولاياته ومدنه وقراه .

وقد وصف الهجويرى خراسان فى عصره بأنها موضع اقبال الحق ، وذكر أنه رأى فيها وحدها ثلاثمائة من الصوفية لكل منهم مشرب خاص ، ويكفى أن يكون فى العالم واحد منهم ، ذلك أن شمس المحبة واقبال الطريقة فى طالع خراسان(٣) .

ومن بين المناطق التى زارها الهجويرى فى خراسان ولاية « قومس » ، وكان فى ذلك الوقت يعانى مشكلة اعترضته فى الطريق ، وهناك نزل فى خانقاه للدراويش ، وأساء هؤلاء معاملته ، ولكن هذه المعاملة الخشنة أفادته من ناحية أخرى ، فقد أحس بعدها بالراحة ، وحلت واقعته(٤) .

وكان الهجويرى يتردد على « نيســـابور » لزيارة (خواجه) المظفـــر ابن حمدان وهناك سمع منه رأيه فى الفناء والبقاء (٥) .

كذلك التقى الهجويرى فى « نيسابور » بأبى القاسم القشيرى ، وحدثه القشيرى بقصة ذهابه الى خرقان لزيارة أبى الحسن الخرقانى(٦) ، وسمع

(١) « كشف المحجوب » ص ١٠١ .
(٢) « السابق » ص ٧٧ .
(٣) « السابق » ص ٢١٦ .
(٤) « السابق » ص ٧٧ .
(٥) « السابق » ص ٢١٣ .
(٦) « السابق » ص ٢٠٥ .

الهجويرى فى نيسابور أيضا رأى القشيرى فى مسألة الفقر والغنى (١) .

أما مدينة « طوس » فيبدو أن الهجويرى أقام فيها فترة ، كان يتردد خلالها على شيخه أبى القاسم الجرجانى ويتلقى منه تعاليمه الروحية(٢) .

وقد التقى الهجويرى فى مدينة « سرخس » بالسيد الامام الحزامى الذى حدثه بقصة كرامة من كرامات الشيخ أبى الفضل حسن السرخسى(٣) .

وفى مدينة « مرو » رأى الهجويرى الرسائل المتبادلة بين أهل « مرو » وأهل« نسا » من السيارية أتباع أبى العباس السيارى(٤) .

وفى مرو أيضا قال له واحد من أئمة الحديث المعروفين انه ألف كتابا فى اباحة السماع ، فقال له الهجويرى : انها لمصيبة كبرى حلت بالدين أن أحل السيد الامام لهوا هو أصل جميع الفساد(٥) .

كذلك زار الهجويرى مدينة « ميهنه » موطن أبى سعيد بن أبى الخير وأقام على قبره ثلاثة أيام ، ورأى كرامة من كراماته(٦) ، والتقى أثناء هذه الزيارة بالمظفر(٧) ابن الشيخ أبى سعيد . ورأى أيضا خادم أبى سعيد الخاص ومريده « حسن بن المؤدب » ، وقص عليه هذا الأخير قصة زيارة أبى سعيد لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان(٨) .

رحلته الى ما وراء النهر :

ذكر الهجويرى أنه كان لفترة طويلة ، فى ما وراء النهر ، صديقا لأحمد ابن حماد السرخسى(٩) ، ورأى منه عجائب كثيرة(١٠) . ومن الأشياء التى استمع اليها منه قصة توبته(١١) ، ورأيه فى الزواج (١٢) .

وفى ما وراء النهر أيضا رأى الهجويرى رجلا من أهل الملامة كان لا يأكل الا ما يعافه الناس ، كالكرات الذابل والقرع المر والجزر التالف . وكان

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٨ .
(٢) « السابق » ص ٥٥ ، ٣٠١ .
(٣) « السابق » ص ٢٨٧ .
(٤) « السابق » ص ٣٢٢ .
(٥) « السابق » ص ٤٦٧ .
(٦) « السابق » ص ٣٠١ — ٣٠٢ .
(٧) « السابق » ص ٢١٦ .
(٨) « السابق » ص ٢٠٥ .
(٩) « السابق » ص ٤٧٦ .
(١٠) « السابق » ص ٢١٦ .
(١١) « السابق » ص ٢٤٢ .
(١٢) « السابق » ص ٤٧٧ .

يصنع ملابسه من الخرق البالية التى يلقيها الناس فى الطريق ، فيجمعها ويغسلها ويصنع منها مرقعة(١) .

كذلك رأى فى مدينة بخارى الشيخ أحمد السمرقندى ، ولم يكن قد نام الليل لمدة أربعين عاما ، وكان ينام قليلا أثناء النهار(٢) .

رحلته الى التركستان :

وذهب الهجويرى الى التركستان ، وصور لنا مشاهداته فى هذه الرحلة فقال انه رأى النار فى احدى المدن التى تقع على حدود البلاد الاسلامية ، وقد اندلعت فى جبل ، وكان النوشادر يفور من أحجاره ، وفى وسط تلك النار كان يوجد فأر حى فلما خرج من النار هلك(٣) .

رحلته الى الهند :

وفى نهاية المطاف رحل الهجويرى الى بلاد الهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته فى مدينة « لاهور » ، وظل بهذه المدينة الى أن توفى ، ولا يزال قبره بها .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٥٦ .
(٢) « السابق » ص ٤٦٠ .
(٣) « السابق » ص ٥٣١ — ٥٣٢ .

الفصل السادس

المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى

استقرار الهجويرى فى لاهور ووفاته فيها وقبره

ذكرنا من قبل أن الهجويرى أمضى الفترة الأخير من حياته فى بلاد الهند حيث استقر به المقام فى مدينة لاهور . وظل بها الى أن توفى ، ولا يزال قبره هنـــاك .

وقد أشارت بعض المصادر الى أن الهجويرى ذهب الى الهند بناء على أمر صدر اليه من شيخه أبى الفضل الختلى(١) . ورأينا فيما ورد فى كشف المحجـــوب عن الختلى أن الهجويرى لازمه الى أن توفى فى قرية « بيت الجن »(٢) بسوريا . فاذا صح التاريخ الذى أورده صاحب خزينة الأصفياء لوفاة الختلى ، وهو سنة ٤٥٣ هـ(٣) ، فان الهجويرى يكون قد ذهب الى الهند بعد هذا التاريخ ، أى بعد سنة ٤٥٣ هـ .

ومما لا شك فيه أن هذا التاريخ المذكور يبعد عن الصواب ، ذلك أن الهجويرى كان أسيرا فى لاهور أثناء الفتنة التى وقعت بها سنة ٤٣٥ هـ ، وقد أشار هو بنفسه الى انه كان يؤلف أجزاء من كشف المحجوب خلال فترة الأسر(٤) ، وفى هـــذا ما يؤيد أنه رحل الى لاهور قبل سنة ٤٣٥ هـ ، ويرجح فى نفس الوقت ما ذكرته بعض المصادر من أن الهجويرى ذهب الى الهند سنة ٤٣١ هـ ، أثناء الاضطرابات التى وقعت فى غزنه فى أواخر عصر السلطان مسعود الغزنوى(٥) .

غير أن هناك اشارتين وردتا فى كشف المحجوب ، لهما دلالات معينة :
الأولى : أن الهجويرى أشار فى موضع من الكتاب الى أنه اطلع على الرسالة القشيرية واقتدى بنظامها فيما يتعلق بترتيب بعض الأشخاص

---

(١) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٣) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣١ .
(٤) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .
(٥) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٢٠ ، «The Life and Teachings» p. 23

فى القسم الخاص بالتراجم(١) . ومن المعروف أن الرسالة ألفت سنة ٤٣٧ هـ . فلا بد أنه اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

والثانية : صرح الهجويرى بأنه قام بزيارة قبر أبى سعيد بن أبى الخير فى « ميهنه » ، وأقام على القبر ثلاثة أيام(٢) . ومن البديهى أن هذه الزيارة تمت بعد وفاة أبى سعيد سنة ٤٤٠ هـ .

واستنادا الى ما تقدم نرى أنه من المحتمل أن يكون الهجويرى قد ذهب الى بلاد الهند مرتين :

المرة الأولى : ضمن جولاته فى العالم الاسلامى ، فذهب الى بلاد الهند أيضا . وكان ذهابه اليها قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وليس هناك ما يمنع من أنه ذهب فى عام ٤٣١ هـ ، وكان لا يزال فى الهند عندما وقعت فتنة لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وأسر بين الأسرى .

والمرة الثانية : ذهب فيها الهجويرى الى بلاد الهند بعد وفاة أبى سعيد ابن أبى الخير سنة ٤٤٠ هـ . وفى هذه المرة استقر نهائيا فى مدينة لاهور حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته .

ومن المحتمل أن يكون قد أمضى الفترة ما بين الرحلتين ، أو جزءا منها ، فى غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ، واطلع على الرسالة القشيرية ، وقام بزيارة قبر أبى سعيد بعد وفاته سنة ٤٤٠ هـ . ثم رحل الى الهند واستقر بها .

أما عن حياة الهجويرى فى الهند ، وعلى وجه التحديد فى مدينة لاهور ، فيبدو أنها كانت حياة حافلة فى النواحى الدينية عامة والصوفية خاصة ، فقد أم الهجويرى لاهور بعد أن طوف طويلا فى العالم الاسلامى ، والتقى بكثير من رجال الدين والأئمة المعروفين على عهده ، وتتلمذ على عدد من شيوخ الصوفية المشهورين فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى . واطلع فى الوقت نفسه على كثير من المؤلفات الدينية والصوفية ، واستطاع عن طريق هذا وذاك أن يبلغ درجة تؤهله لالقاء الدروس الدينية ، وهداية الناس وارشادهم . فلما آنس من نفسه القدرة على الاسهام فى الدعوة الى الاسلام ، اتجه الى ذلك المجتمع الذى كان قد انضم حديثا الى العالم الاسلامى ، ليمارس نشاطه فى نشر تعاليم الدين ، والدعوة الى الحياة الروحية الخالصة ، داخل حدود الدين الاسلامى .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٢) « السابق » ص ٣٠١ .

وسواء كان انتقال الهجويرى الى الهند تلبية لأمر شيخه « الختلى » ، أو استجابة لرغبته الشخصية فى نشر الدين الاسلامى فى تلك البقاع ، فانه استطاع أن ينال ثقة الأهالى فى لاهور فتعلقوا به وأحاطوه بهالة من الاجلال والتعظيم .

وعندما بلغ الهجويرى لاهور : اختار لاقامته الجهة الغربية من المدينة ، قرب معبد للهندوس على نهر راوى(١) ، حيث يوجد مزاره الآن ، وبنى فى تلك البقعة مسجدا ، وجمع حوله عددا من الطلاب ، وأخذ يقوم بالتدريس لهم . ثم تخلى عن التعليم لأنه فى نظره يبرز نوعا من السمو والتعالى على الآخرين(٢) .

وقد أسهم الهجويرى فى تحول عدد كبير من سكان تلك المنطقة الى الاسلام ، وكان أولهم « راى راجو »(٣) نائب لاهور فى عهد السلطان مودود ، فأسلم على يديه واتخذ لنفسه اسم « الشيخ الهندى »(٤) .

وأقام الهجويرى فى مسجده خانقاها(٥) ، والتف حوله فيها المريدون من لاهور وجميع أنحاء البنجاب . ولم يكن تأثيره مقصورا على المسلمين ، بل كان يحضر مجلسه عدد كبير من غير المسلمين ، وأسلموا على يديه(٦) .

ويقال انه عندما بنى الهجويرى المسجد ، كان محرابه يميل قليلا الى الجنوب عن محاريب المساجد الأخرى ، فاعترض عليه العلماء والأئمة فى ذلك الوقت ، وصمت الهجويرى ، وذات يوم جمعهم وأمهم للصلاة فى المسجد ، ولما قضيت الصلاة قال للحاضرين : انظروا فى أى اتجاه توجد الكعبة ؟ فارتفعت عنهم الحجب ، وظهرت لهم الكعبة محاذية للمسجد(٧) . وقد روت بعض المصادر هذه القصة على أنها كرامة من كرامات الهجويرى .

ويبدو أن الهجويرى لم ينقطع عن التأليف والتصنيف خلال الفترة التى قضاها فى لا هور ، واذا صحت نسبة كتابى : « ثواقب الأخبار » و « كشف الأسرار » اليه ، فانه يكون قد ألفهما فى هذه الفترة .

---

(١) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٧ .
(٢) «The Life and Teachings» p. 24.
(٣) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٨ .
(٤) «The Life and Teachings» p. 24.
(٥) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٦) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٧ .
(٧) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

وقد ظل الهجويرى يمارس نشاطه الروحى والدينى فى مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها ، وقام مريدوه والمعتقدون فيه بدفنه بالقرب من مسجده(١) .

وكان يرافق الهجويرى فى رحلته الى لاهور اثنان من رفاقه وهما « احمد ابن حماد السرخسى »(٢) الذى رافقه لمـدة طويلة فى ما وراء النهـر ، و « أبو سعيد الهجويرى »(٣) الذى كتب كشف المحجوب ردا على سؤاله . وقد بقى هذان الصديقان فى صحبة الهجويرى طيلة اقامته فى مدينة لاهور ، وظلا بها بعد وفاته حتى وافاهما أجلهما فى هذه المدينة ، ودفنا الى جواره . ولا يزال قبراهما داخل ضريح الهجويرى(٤) .

تاريخ وفاته :

تاريخ وفاة الهجويرى مختلف فيه(٥) . وهناك تواريخ ثلاثة لوفاته ، يرد ذكرها أكثر من غيرها فى معظم الكتب.التى تحدثت عن الهجويرى وعن كتابه كشف المحجوب ، وهذه التواريخ هى :

سنة ٤٥٦ هـ ، سنة ٤٦٥ هـ ، الفترة ما بين سنتى ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ .

ومما يؤسف له أن « جامى » ، على الرغم من اعتماده الكبير فى « نفحات الأنس » على كتاب كشف المحجوب ، وما يكنه لمؤلفه من الاعزاز والتقدير ، فانه عندما ترجم له أغفل تاريخ وفاته ، واكتفى بذكر مقتطفات قليـلة من كشف المحجوب .

ولم يقطع « دارا شكوه » برأى فى هذا الموضوع ، وانما أورد تاريخين لوفاة الهجويرى فهو يقول : « وكانت وفاته فى سنة ٤٥٦ فى قول ، وفى سنة ٤٦٤ هـ فى قول آخر »(٦) .

أما صاحب « خزينة الأصفياء » فقد زاد على هذين التاريخين تاريخا

---

(١) « هلال » جلد بنجم — شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .
(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ٤٧٦ .
(٣) « السابق » انظر : ص ٧ .
(٤) «The Life and Teachings» p. 26.
(٥) « لم يحاول » زوكوفسكى فى المقدمة القيمة التى كتبها لكشف المحجوب عندما طبعه لاول مرة أن يبحث هذه المسألة واكتفى بأن قال : « من سوء الحظ أننا لا نملك مصدرا واحدا يقدم لنا معلومات عن حياة الهجويرى بطريقة مفصلة ودقيقة ، بل اننا لا نعرف حتى تاريخ مولده ووفاته » انظر :
Zhukovsky's Introduction : Bulletin of Oriental Studies.
(٦) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ .

آخر هو : سنة ٤٦٥ هـ(١) ، وذكر أنه استقى هذا التاريخ من الأقوال الموثوقة لصاحبى « نفحات الانس »(٢) ، و « أخبار الأصفياء » . وأضاف أنه توجد قطعة من الشعر على بوابة ضريح الهجويرى تحمل تاريخ وفاته ومجموع هذه القطعة يساوى ، فى حساب الجمل : ٤٦٥(٣) . وورد ذكر هذا التاريخ أيضا فى كل من : « كشف الظنون »(٤) ، و « هدية العارفين »(٥) .

وقد تابع كتاب الفهارس الغربيون : « ايته » و « ريو » و « بلوشيه » ، دارا شكوه فى ذكر التاريخين اللذين وردا فى « سفينة الأولياء » وهما : ٤٥٦ ، ٤٦٤ هـ ، ونقلوا هذين التاريخين ، اما عن « رياض الأولياء »(٦) ، واما عن سفينة الأولياء ، وزاد عليهما « ايته » التاريخ : ٤٦٥ هـ ، نقلا عن « مآثر الكرام »(٧) .

غير أن « ريو » يستبعد صحة التاريخين : ٤٥٦ ، ٤٦٤ هـ ، ويستند فى ذلك الى أن الهجويرى كان معاصرا لأبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ ، وأن اسم القشيرى يرد فى بعض مواضع من كشف المحجوب وقد أضيف اليه عبارة (رحمة الله) ، أو (رحمة الله عليه)(٨) ، وبناء على هذه الملاحظة يقول « ريو » ان أيا من هذين التاريخين لا يتفق مع هذه الحقيقة ، ولذا فهو يرجح أن تكون وفاة الهجويرى بعد سنة ٤٦٥ هـ(٩) ، أى بعد وفاة القشيرى .

وفى رأينا أن ملاحظة « ريو » هذه ليست على جانب كبير من الصواب ، ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

أولا : ليس من المستبعد أن تكون هذه الاضافات من فعل الناسخ ، ومما يؤيد هذا أن اسم الهجويرى نفسه ورد فى موضع من كشف المحجوب وقد أضيف اليه عبارة (رحمه الله) (١٠) .

---

(١) « ورد هذا التاريخ فى كتابى » : سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « تاريخ ادبيات ايران » صفا ج ٢ ص ٨٩٢ .
(٢) « لم يرد فى ترجمة الهجويرى فى كتاب نفحات الانس ذكر تاريخ وفاته (انظر : ص ٣١٦ — ٣١٧) . واذا صح ما ذكره صاحب خزينة الاصفياء فربما كان هذا التاريخ فى حاشية من حواشى النفحات وليس فى النص .
(٣) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ .
(٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
(٦) Rieu : Catalogue of the Persian Manuscripts : Vol. I,
(٧) Ethé : Catalogue of Persien Library : Vol. I.
(٨) « كشف المحجوب » انظر ٤٠١ ، ٤٣٩ .
(٩) «Rieu : Cat» Vol. I.
(١٠) « كشف المحجوب » ص ٣٠٠ حاشية ٤٤ ، ص ٣١٦ .

ثانيا : اذا كانت عبارة (رحمه الله) أضيفت الى اسم القشيرى بواسطة الهجويرى ، فمعنى هذا أن كتاب « كشف المحجوب » قد تم تأليفه بعد وفاة القشيرى سنة ٤٦٥ هـ ، وهذا مخالف للحقيقة ، فمما لا شك فيه أن كشف المحجوب ألف قبل هذا التاريخ بفترة طويلة(١) .

ثالثا : ان القشيرى كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، والدليل المادى على هذه الحقيقة موجود فى الكتاب نفسه ، فبالرجوع الى الباب الثانى عشر (باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين) نجد أن الهجوبرى ترجم للقشيرى ضمن عشرة من شيوخ الصوفية ، ومن بين هؤلاء يوجد اثنان فقط من الواضح أنهما كانا على قيد الحياة أثناء تأليف الكتاب ، وهما « أبو القاسم الجرجانى » و « القشيرى » وتتضح هذه الحقيقة من العبارة التى ترجم بها الهجويرى لهما ، فهو يستعمل فى ترجمتيهما الرابطة (است)(٢) وذلك على خلاف الفعل الماضى (بود)(٣) الذى يستعمله فى التراجم الثمانى الأخرى مما يدل على أن أصحابها لم يكونوا على قيد الحياة ، وتواريخ وفاة هؤلاء معروفة ، وترجع كلها الى ما قبل تأليف كشف المحجوب . كما وردت بالكتاب عبارة صريحة تشير الى أن الجرجانى كان حيا عند تأليفه ، وترجمتها : « والشيخ أبو القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه ، أبقاه الله »(٤) .

أما « نيكولسون » فيبدو أن ملاحظة « ريو » قد أثارت انتباهه ، فتقبل — فى مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب — فكرة وفاة الهجويرى بعد سنة ٤٦٥ ، وان كان قد استند الى دليل آخر غير الذى استند اليه ريو وهو : أنه من الواضح من كتاب كشف المحجوب أن أبا القاسم الجرجانى كان حيا عند تأليفه . ومن المعروف أن الجرجانى توفى سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن نيكولسون وجد تاريخا آخر لوفاة الجرجانى فى كتاب « شذرات الذهب » وهو سنة ٤٩٦ هـ(٥) وبناء عليه رجح أن الهجويرى توفى بعد عام ٤٦٩ هـ أو على الأقل فيما بين ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ(٦) .

واذا كنا نتفق مع نيكولسون فى أن الجرجانى كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، الا أننا نختلف معه فى أنه توفى سنة ٤٦٩ هـ ، حقيقة أن هذا

---

(١) (ارجع الى تاريخ تأليف الكتاب فى الباب الثانى : الفصل الاول) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢١١ ، ٢٠٩ « است » = يكون ، كائن .
(٣) « السابق » ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ « بود » = كان .
(٤) « السابق » ص ٢٥٩ .
(٥) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٧٠ .
(٦) « نيكولسون » (انظر : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

التاريخ ورد فى شذرات الذهب ، ولكن من الواضح أن هناك خطأ ما ، فمن الثابت أن الجرجانى توفى سنة ٤٥٠ هـ(١) .

وترد فى بعض الكتب والمقالات اشارات تشير الى تواريخ متأخرة لوفاة الهجويرى ، منها ما يشير الى سنة ٤٧٠ هـ(٢) ، ومنها ما يشير الى أبعد من ذلك فيجعل وفاته فيما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ(٣) .

على أنه يبدو أن أصح هذه التواريخ وأقربها الى الصواب : التاريخ الذى ذكره صاحب خزينة الأصفياء وهو سنة ٤٦٥ هـ ، ذلك أن « مفتى غلام سرور » مؤلف الخزينة ، مواطن لاهورى نشأ وتربى فى البيئة التى توفى بها الهجويرى ، وقام بزيارة قبره عدة مرات ، وهو يصرح بأنه استقى هذا التاريخ من نفحات الأنس وأخبار الأصفياء ، وأن هناك قطعة من الشعر مكتوبة على البوابة الداخلية لضريح الهجويرى تشتمل على هذا التاريخ(٤) .

وقد **توالى** ذكر هذا التاريخ فى ثلاثة من الكتب والمقالات الحديثة ، مضافا اليه الشهر واليوم الذى توفى فيه الهجويرى ، فجاء تاريخ وفاته على هذا النحو :

التاسع من محرم سنة ٤٦٥ هـ(٥) .

التاسع عشر من صفر سنة ٤٦٥ هـ(٦) .

الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ(٧) .

واذا كنا نلاحظ اختلافا بين هذه التواريخ فى الشهر واليوم ، الا أنها جميعا تتفق على سنة ٤٦٥ هـ .

وهناك ثلاث قطع من الشعر الفارسى تنسب الى : (خواجه) معين الدين جشتى (٦٣٣ هـ) ، ومولانا جامى (٨٩٨ هـ) ، والشاعر الباكستانى محمد اقبال (١٩٣٨) ، وهذه القطع الثلاث مكتوبة على جدران مزار الهجويرى ، وتتضمن كل قطعة منها كلمة أو عبارة تشير الى تاريخ وفاة الهجويرى ومجموعها بحساب الجمل يساوى ٤٦٥ .

---

(١) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٤٦ .
(٢) « شد الازار » : انظر : ص ١٨٠ حاشية ٣ .
(٣) The Life and Teachings : p. 24. نقلا عن :
«Oriental College Magazin, Lahore (Volume 36. p. 27 - 43)
(٤) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٥) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٤٩ .
(٦) مجلة « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ هـ ش .
(٧) The Life and Teachings : p. 24.

أما **القطعة الأولى** ، فهى مكتوبة على حائط الباب الى اليسار ، وتحمل اسم خواجه معين الدين ، وهى :

أين روضه كه بانيش شده فيض الست(١)
مخـــدوم على راست كه باحـــق بيوست
در هســـتى نيست شـــد هستى يافت
زان سال وصالش أفضل آمداز (هست)(٢)
سنة ٤٦٥ هـ خواجه معين الدين جشتى

وترجمتها :

١ ــ هذه هى الروضة التى بنيت لفيض « الأزل » ، المخدوم « على » الذى اتصل بالحق .

٢ ــ فنى عن الوجود فأدرك البقاء ، ولذا فالأفضل أن جاءت سنة وصاله من كلمة (هست) .

والقطعة الثانية للجامى(٣) : موجودة على بوابة داخلية فى الطريق الى الضريح ، وهى :

خانقـــاه على هجـــويرى است
خـــاك جـــاروب از درش بردار
طوطيـــاكن به ديـــدة حـــق بين
تاشـــــوى واقـــف بر اسرار
جونكه سردار ملك معنى بود
سال وصلش برآيد ز (سردار)(٤)
سنة ٤٦٥ هـ مولانا جامى

وترجمتها :

ــ انها خانقاه على الهجويرى ، فارفع عن بابها مكنسة الغبار .

---

(١) كلمة « الست » تأتى كثيرا فى الفارسية بمعنى : الازل ، وهى اشارة الى الآية الكريمة : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم » سورة الأعراف الاية ١٧٢ .

(٢) « هست » بمعنى : موجود ، كائن ، و « هست » بحساب الجمل = هـ (٥) + س (٦٠) + ت (٤٠٠) = ٤٦٥ .

(٣) من المرجح أن هذه القطعة المنسوبة الى الجامى هى التى أشار اليها مؤلف خزينة الاصفياء . (انظر ج ٢ ص ٢٣٤) .

(٤) الكلمة « سردار » بمعنى « قائد » كانت مستعملة فى العربية ، ومجموعها بحساب الجمل : س (٦٠) + ر (٢٠٠) + د (٤) + ا (١) + ر (٢٠٠) = ٤٦٥

ــ أيها الببغاء ؟ انظر بعين مبصرة للحق ، لتقف على الأسرار .

ــ ولمـــا كان سردار ملك المعنى ، فان سنة وصله تستخرج من كلمة (سردار) .

والقطعة الثالثة : لمحمد اقبال ، وتوجد على حائط البوابة الشرقية ، وهى :

ســـال بنـــائى حـــرم مومنـــان
خـــواه زجبريل ز هاتف مجـــو
جشـــم (به مسجد أقصى فكن)(١)
« الـــذى باركه » هـــم بكو
سنة ٤٦٥ هـ علامه اقبال(٢)

وترجمتها :

ــ سل جبريل عن تاريخ بناء حرم المؤمنين ، ولا تسل الهاتف عنه .

ــ وألق ببصرك الى المسجد الأقصى ، وقل أيضا : « الذى باركه »(٣) .

وعلى الرغم من أن ضريح الهجويرى ومسجده قد أعيد بناء بعض أجزائهما ، وأدخلت عليهما تعديلات كثيرة ، وزيد فى مساحتهما مما يحتمل معه أن تكون بعض هذه الأشعار قد أعيد كتابتها فى وقت متأخر ، الا أنها تتفق فيما بينها على تاريخ واحد لوفاة الهجويرى وهو سنة ٤٦٥ هـ . وفى هذا ما يجعلنا نرجح هذا التاريخ على غيره من التواريخ الأخرى .

« قبر الهجويرى »

لا يزال قبر الهجويرى قائما فى مدينة لاهور ، داخل ضريحه ، فى المزار المعروف بمزار « داتا كنج بخش » ، ويوجد حاليا فى المنطقة القديمة من لاهور ، خارج بوابة « بهاتى » ، ويقع غربى القلعة(٤) .

---

(١) العبارة : «به مسجد أقصى فكن » بحساب الجمل :
به : ب (٢) + ه (٥) = ٧
مسجد : م (٤٠) + س (٦٠) + ج (٣) + د (٤) = ١٠٧
اقصى : أ (١) + ق (١٠٠) + ص (٩٠) + ى (١٠) = ٢٠١
فكن : ف (٨٠) + ك (٢٠) + ن (٥٠) = ١٥٠
المجموع ٤٦٥

(٢) « تذكرة حضرت على هجويرى » انظر ص ٥٠ ــ ٥١

(٣) اشارة الى الاية الكريمة : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله » سورة « الاسراء » آية ١

(٤) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٧ .

وصف المزار من الخارج :

يتكون المزار من الضريح والمسجد . ويقع المسجد فى الجهة الغربية ، ويوازيه الضريح فى الجهة الشرقية . وجددت أبنيتهما وزيد فى مساحتيهما عدة مرات . وقد وصفه صاحب تذكرة « حضرت على هجويرى » بقوله : « ان أول ما تقع عليه عين الناظر : مبنى عال يقع فى الجهة الغربية منه مسجد فخم »(١) .

والضريح ، كما هو واضح فى الصورة ، يتكون من سياج خارجى يتوسطه المقام حيث يوجد القبر ، وتعلوه قبة كبيرة . وتبدو داخل السياج بعض الحجرات ، كما يفتح على بعض الأفنية الداخلية الصغيرة . أما الفنـــاء الخارجى ، فمتسع وتظهر فيه قبور بعض المريدين والمعتقدين فى الهجويرى(٢)

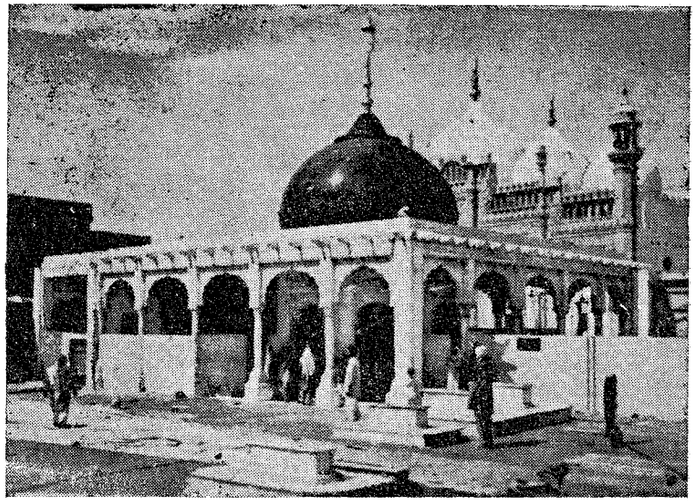
وقد دفن الهجويرى عند وفاته بالقرب من المسجد الذى بناه فى حياته . وكان القبر يتألف أول الأمر من الصفة وبعض المبانى المحيطة بها ، والتى قام ببنائها السلطان ابراهيم الغزنوى (٤٥١ ــ ٤٩٢ هـ) . وفى عهدالسلطان أكبر أضيف اليه بعض الأبنية التى أصلحت أو أعاد بناءها المهراجا « رنجيت سنغ »(٣) . ولم تكن هناك قبة فوق قبر الهجويرى فى البـــداية وفى سنة ١٢٧٨ هـ بنى « حاجى نور محمد سادو » سياجا حول الضريح تتوسطه قبة تعلو القبر(٤) وقام باصلاحها من بعده مولوى « فيروز الدين » وزين الجدران بالرخام وطلى القبة باللون الأخضر(٥) .

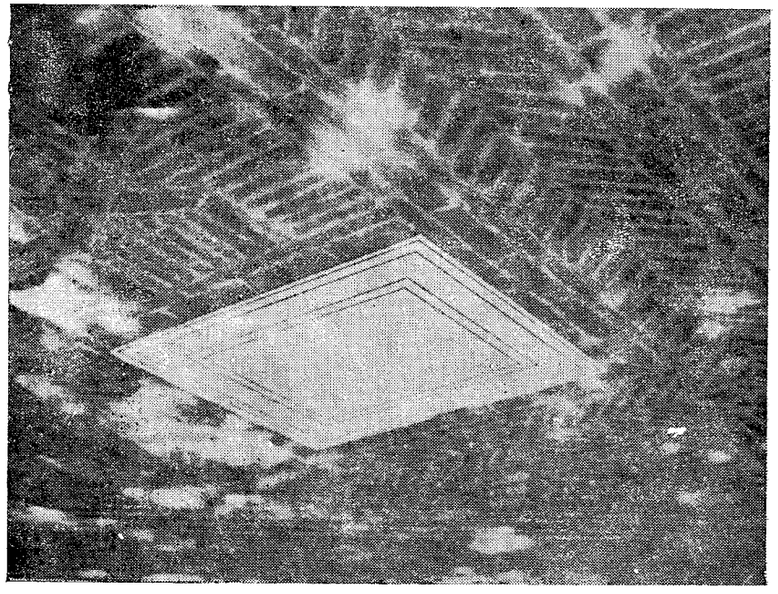
وكان « ميان غلام جيلانى » حنيد « مهرجهندو » قد شيد مسجدا ألحقه بالضريح ، غير أن هذا المسجد هدم عند بناء المسجد الجديد المقام على أرض المسجد الذى كان قد شيده الهجويرى فى حياته ، بعد أن زيد فى مساحته . وقد جدد بناء هذا المسجد مرتين(٦) . ويوجد فى صحن المسجد الجديد لوح من الرخام طوله ثلاثة أقدام وعرضه تسع بوصات علامة على الموضع الذى كان يوجد فيه ضريح « مؤمن خان » نائب والى البنجاب فى عهد محمد شاه امبراطور الهند . ولوح آخر يشير الى محراب مسجد الهجويرى القـــديم(٧) .

---

(١) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٥٠ .
(٢) « السابق » ص ٥٢ .
(٣) «The Life and Teachings» p. 26.
(٤) «The Life and Teachings», p. 27.
« تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٥٢ .
(٥) « تذكرة حضرة على هجويرى » ص ٥٢ .
(٦) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٧) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٥١ .

مزار الهجويرى





اللوح الرخامى فى المسجد الجديد : الذى يشير الى محراب المسجد القديم الذى بناه الهجويرى فى حياته .

وصف الضريح من الداخل :

يقع قبر الهجويرى داخل المقام الذى يتوسط الضريح . وقد بنى القبر على صفة من الرخام الأبيض ، بنى « ايواز خان » سياجها — وايواز خان هو حارس أفيال المهراجا رنجيت سنغ — ويقع قبر الهجويرى فى الوسط ويحيط به قبرا : الشيخ « أحمد السرخسى » والشيخ « أبو سعيد الهجويرى »(١) .

وتوجد عند رأس القبر — كما يبدو فى الصورة — لوحة رخامية كبيرة تسد أحد أبواب المقام نقش عليها آيات من القرآن الكريم ، واسم الهجويرى وألقابه وتاريخ وفاته وبيت من الشعر لـ (خواجه) معين الدين الـ (چشتى) يشير فيه الى لقب داتا كنج بخش . ويبدو فى أسفل اللوحة اسم الشخص الذى أقامها على نفقته ، واسم الخطاط الذى نقشها .

وتفتح البوابة المواجهة للقبر على حجرة صغيرة ، وهى الحجرة التى اعتكف فيها خواجه معين الدين وأمضى بها فترة الجله(٢) ، وعندما هم بالعودة ، وقف أمام القبر ، وقال البيت المنقوش على اللوحة . وهنـاك حجرة أخرى خارج حرم الضريح كان يقضى فيهـا الشيخ « فريد الدين كنج شكر »(٣) مدة الجلة(٤) .

كما توجد داخل الضريح حجرة تسمى حجرة القرآن بها نسخ عديدة من القرآن الكريم من بينها نسخة بخط السعدى الشيرازى ، ونسخة تحمل اسم سلطان الاسلام عالمكير المغولى(٥) . ومن أبرز النسخ المهداه : مصحف أهدته « موران » خليلة المهراجان « رنجيت سنغ » ، ونسخة أهداها الى الضريح « محمد خان » ونسخة ثالثة « لنواب ناصر » كما أهدى رنجيت سنغ نسخة نفيسة الى الضريح عقب حملته المظفرة على الأفغان . وتوجد نسخة مكتوبة بالمسك أهداها متعبد غير معروف(٦) .

---

(١) «The Life and Teachings» p. 26.

(٢) « خزينة الاصفياء » انظر ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

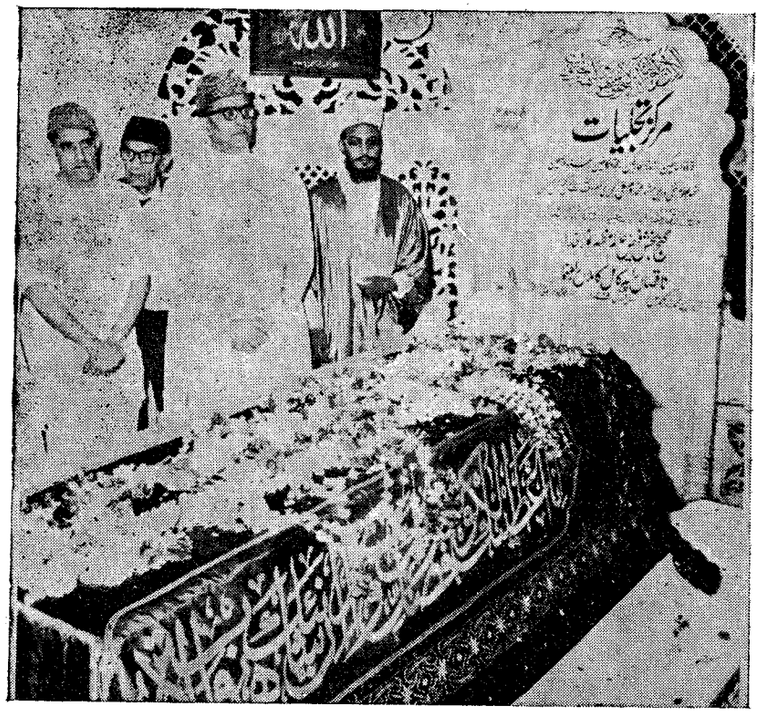
(٣) « مسعود بن عز الدين محمود » ويعرف بفريد الدين كنج شكر . كان مريدا وخليفة لقطب الدين بختيار ، وأدرك صحبة خواجه معين الدين الچشتى . توفى سنة ٦٦٤ هـ وقبره بين مولتان ولاحور (انظر : سفينة الاولياء ص ٩٦) . « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٥) « تذكره على هجويرى » ص ٥٢ .

(٦) «The Life and Teachings», p. 27.

« قبر الهجويرى »
وتبدو اللوحة الرخامية الى اليمين



« العبارات المكتوبة على اللوحة »

بسم الله الرحمن الرحيم

« الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

مركز تجليـات

قدوة السالكين ، زبدة العارفين ، حجة الكاملين ، سند الواصلين ، مظهر العلوم الخفى والجلى المشهور مخدوم على الهجويرى المعروف بحضرت داتاكنج بخش لاهورى قدس الله روحه ولا زالت تجلياته وبركاته دائما أبدا .

كنج بخش فيض عالم مظهر نورخدا
ناقصان رابير كامل كاملان را رهنما

سال وصال ٤٦٥ هـ

بناكننده (البانى) ما شاء الله
جويدرى دين محمد بن جويدرى دين كتبه عبد الحميد
غلام رسـول

ومزار الهجويرى من الأماكن المقدسة التى يعتز بها المسلمون فى شبه القارة الهندية ، ويؤمه جمهور كبير من أبناء الهند وباكستان للزيارة والتبرك . وقد لا يعرف عامة الناس فى تلك البلاد اسم « على بن عثمـــان الجلابى الهجويرى » ، ولكن لا يوجد فى شبه القارة من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا كنج بخش » ، وعلى الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على وفاة صاحبه ، الا أن هذه القرون والأعوام لم تقلل من تعلق الناس به وحبهم له ، واعتقادهم فى ذلك الرجل العظيم الذى كان بسلوكه وأخلاقه وحبه لنشر الاسلام نموذجا للمسلم الحقيقى ، فقد أضاء منذ ذهابه الى الهند مشعل الاسلام ، وروج شرع الرسول فى تلك البقاع المترامية الأرجاء ، وأحكم غرس بذور الدين الاسلامى فى قلوب أهل تلك البلاد(١) .

وقد أثر مريدو **الهجويرى** فى لاهور فى التاريخ الدينى والاجتماعى والسياسى لشبه القارة تأثيرا عميقا ، فلم يكن من نتيجة حركة العلماء المسلمين الذين وفدوا على شبه القارة ، أن حملت معها دينا يدعو الى التوحيد فحسب ، بل حملت معها أيضا الأفكار الديمقراطية التى تنظم المجتمع الاسلامى ، الى الهنود الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة ويخضعون لنظام الطبقات المهين .

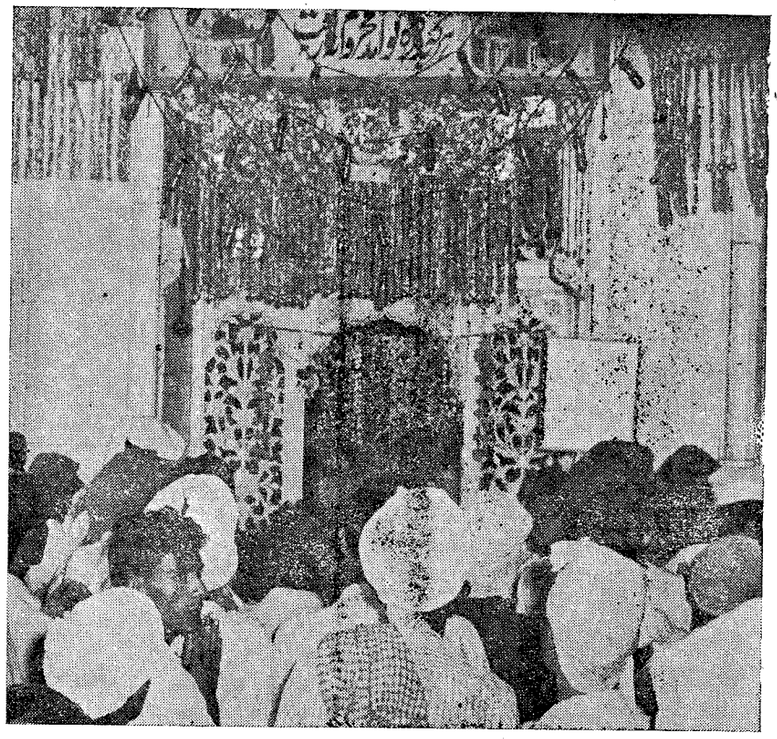
واذا كان مرور الأيام والأحداث ، والانقلابات السياسية والجغرافية قد استطاعت أن ينال من بناء الدولة التى أقامها السلطان محمود الغزنوى فى بلاد الهند على الغزو والفتوحات ، فان بناء العشق والمحبة الذى شيده على الهجويرى الغزنوى على أساس من الايمان العميق والحياة الروحية الخالصة قد ظل صامدا مع الأيام ، بل ان اسم الهجويرى ليطغى على اسم ذلك السلطان الذى طالمـــا حطم معابد الأصنام ومعاقل الشرك والضلال .

يقول الشاعر محمد اقبال :

سـيد « هجوير » مخدوم امم مرقدأوبير « سنجر » را حـرم
بندهاى كوهسار آسان كسيخت در زمين هند تخم سجده ريخت
عهد فاروق از جمالش تازه شد حق زحرف، أو بلند آوازه شد
باسـبان عزت أم الكتـاب از نكاهش خانه باطل خـراب
خاك بنجاب ازدم أو زنده كشت صـبح ما از مهراو تابنده كشت
عاشق وهم قاصد طيار عشـق از جبينش آشكار أسرار عشق(٢)

(١) « هلال » جلد بنجم شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .
(٢) «The Life and Teachings» : p. 3.

« البوابة الرئيسية للمقام »



كتب فى أعلى البوابة العبارة :
هر كه بدروازه أو آمد محروم نه رفت
وترجمتها : من جاء الى بابه لم يذهب محروما

وترجمته :

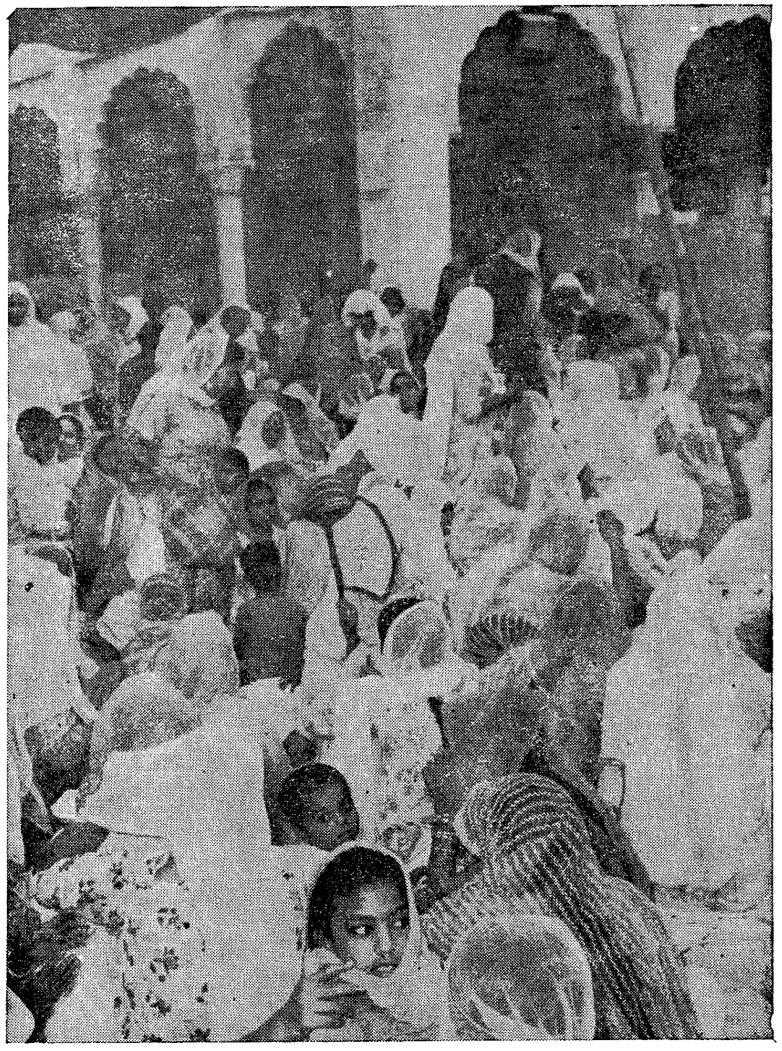
ـ سيد « هجوير » مخدوم الأمم ، مرقـــده للشيخ « ســـنجر » حرم .
ـ حطم سلاسل الجبال فى يسر ، وبذر فى أرض الهند بذور الصـــلاة .
ـ تجدد عهـــد الفاروق بجماله ، وعـــلا صوت الحق وذاع بكلامه .
ـ انه الحارس لعزة أم الكتاب ، وبنظـــرته دار البـــاطل خراب .
ـ حيت أرض البنجاب بأنفاسه ، وأضـــاء صـــبحنا بشمســـه .
ـ هو العاشق ورسول العشق الطيار ، وأسرار العشق تلوح من جبينه .

ولا يزال قبر الهجويرى مطافا لمئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، وموضعا لعبادة الأولياء ، وخلوة ورع للنساك ، يتجهون اليه ليعتكفوا فيه فترة الأربعينية ، ولا تزال به الأماكن التى اختلى فيها قطب الهند « معين الدين حسن السنجرى الجشتى » والشيخ « فريد الدين كنج شكر » .

وقد اشتهر عن قبر الهجويرى تحقيق حاجة كل ذى حاجة ان هو طاف بروضته المنورة أربعين ليلة جمعة ، أو أربعين يوما على التوالى(١) .

ويحتفل أهل الباكستان حكومة وشعبا بمولد داتا كنج بخش هجويرى كل عام ، ويمتد الاحتفال بالعرس سبع ليال .

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « خزينة الاصنياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .



صورة لحشد كبير من السيدات المعتقدات فى داتاكنج بخش وقد تعودن زيارة ضريحه فى أيام الجمعة واصطحبن أولادهن لينالوا بركة صاحب المزار ..

تفضل السيد الدكتور حسين مجيب المصرى باهدائى هذه المجموعة من الصور التى حصل عليها بمساعدة صديقة الباكستانى السيد محمد حسن الاعظمى ، فلهما جزيل الشكر .

الفصل السابع

مؤلفاته

عرف الهجويرى كرائد من الرواد الأوائل الذين ألفوا فى التصوف ، عن طريق كتابه « كشف المحجوب » ، الذى يعد باكورة المؤلفات الصوفية فى اللغة الفارسية ، وواحدا من أمهات الكتب الشرقية المؤلفة فى التصوف الاسلامى .

والدارس للتصوف الاسلامى يستطيع فى يسر أن يلمس المكانة الكبيرة التى يحتلها « كشف المحجوب » ككتاب قيم يقوم على أساس علمى ومنطقى ، ومنهج سليم ، فهو مرجع له أهميته ، وقلما توجد دراسة فى التصوف الاسلامى قام بها المستشرقون ، تخلو من الافادة من هذا الكتاب ، والاشادة به ، فهو لا يقل أهمية وشهرة عن أمهات الكتب الصوفية العربية المعروفة ، ونعنى بها « اللمع » و «طبقات الصوفية» و « الرسالة القشيرية » .

ومن المؤسف حقا أن تكون الافادة من هذا الكتاب ، فى أغلب الأحيان ، عن طريق الترجمة الانجليزية ، التى قام بها المستشرق الانجليزى « نيكولسون » لهذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن شهرة الهجويرى ترجع الى كتاب كشف المحجوب ، الذى يتصل اسمه دائما باسم مؤلفه ، الا أن الهجويرى كان مؤلفا مكثرا ، طرق موضوع التصوف فى عدد من الكتب قبل كشف المحجوب ، وهو فى هذا الأخير يشير الى هذه الكتب ، ويحيل القارىء اليها عندما يتعرض لمسألة سبق أن تناولها بالتفصيل فى واحد من هذه الكتب .

ومن خلال هذه الاشارات نتعرف على مؤلفات الهجويرى السابقة على كشف المحجوب ، والتى لم يقدر لها أن تبقى وتصل الى أيدينا .

والهجويرى كان شاعرا وناثرا ، بدأ نشاطه الأدبى فى فترة مبكرة من حياته ، بل انه ذكر فى كتابه « كشف الأسرار » أنه بدأ التأليف وهو

لا يزال فى الثانية عشر من عمره(١) !!! وقد اجتمع له انتاج وفير ، فالكتب التى ورد ذكرها فى كشف المحجوب تبلغ ثمانية ، واذا أضفنا اليهـا كشف المحجوب يكون انتاجه من النثر تسعة كتب ، علاوة على ديوان من الشعر .

وليس هـذا فحسب ، فهنـاك كتابان آخران ينسبهما البعض الى الهجويرى ، وان لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب ..

وفيما يلى قائمة بأسماء مؤلفات الهجويرى :

١ ــ الديوان .
٢ ــ منهاج الدين .
٣ ــ كتاب الفناء والبقاء .
٤ ــ كتاب فى شرح كلام الحلاج .
٥ ــ البيان لأهل العيان .
٦ ــ بحر القلوب .
٧ ــ أسرار الخرق والملونات .
٨ ــ كتاب الايمان .
٩ ــ الرعاية بحقوق الله تعالى .
١٠ ــ كشف المحجوب .
١١ ــ ثواقب الأخبار .
١٢ ــ كشف الأسرار .

ولا نعرف بأى لغة كتبت هذه المؤلفات ، باستثناء كشف المحجوب ، وكشف الأسرار ، ذلك أن هـذه المؤلفات فقد بعضـها أثناء حيـاة الهجويرى ، والبعض الآخر بعد وفاته . ولم يصل الينا من هذه المجموعة سوى كشف المحجوب الذى يعد آخر مؤلفات الهجويرى ..

يقول زوكوفسكى : « من العسير على المرء أن لا يشعر بالأسى لفقد أوليات كتابات الهجويرى وبخاصة أنه ، على الرغم من ذلك ، يحيـل القارىء اليها دائما(٢) .

ونعرف بهذه المؤلفات ، ونبدأ بالجزء الذى فقد فى حياة المؤلف .

---

(١) نقلا عن : « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٩١ .
(٢) «Bulletin of Oriental Studies» : Zhukovsky's Introduction, p. 487.

أشار الهجويرى فى مقدمة كشف المحجوب الى أن اثنين من مؤلفاته فقدا وشوها أثناء حياته ، وهمـا : « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » .

أما الديوان : فقد روى الهجويرى عن فقده قصة بسيطة مؤداها أن شخصا طلبه منه ، ولم يكن لديه سوى النسخة الأصل لذلك الديوان ، فأعطاها له . وغير ذلك الرجل فيها واسقط اسم الهجويرى من أولها ، وعرض الديوان على الناس على أنه من نظمه(١) .

وهذه القصة على بساطتها تثير تساؤلات عـديدة تدور حول الأمور التالية :

١ ــ متى نظم الهجويرى ذلك الديوان ، وبأى لغة نظمه ؟

٢ ــ اذا كانت للهجويرى المقـدرة على النظم ، فلم لم يطرق هـذا السبيل مرة أخرى ؟

٣ ــ لماذا لم يستشهد الهجويرى فى كشف المحجوب بشواهد من شعره مع أنه استشهد فى مواضع كثيرة من الكتاب بأشعار غيره ؟

بالنسبة للتساؤل الأول : يبدو أن الهجويرى نظم الديوان فى بداية شبابه ، وكانت انطباعاته فيه انطباعات شخصية لشاب حديث السن ، ولم يكن قد اتجه بعد الى التصوف . ومما يرجح هذا أن الشخص الذى استولى على الديوان استغل حداثة سن الهجويرى فسلبه الجهد الذى بذله فى نظم الديوان ونسبه الى نفسه فى اطمئنان ، لأن الهجويرى لم يكن قد عرف كشاعر أو كاتب . أما اللغة التى نظم بها الديوان ، فمن المرجح أنها كانت اللغة الفارسية ، اذ أن الهجويرى على الرغم من ثقافته العربية واجادته للغة العربية ، كتب باللغة الفارسية ، وان كانت اللغة العربية تمثل عنصرا هاما فى كتاباته ..

وبالنسبة للتساؤلين الثانى والثالث ، فمن المحتمل جدا أن الهجويرى كان ينظم الشعر ، وربما باللغتين الفارسية والعربية . وهناك مثل واحد ورد فى كشف المحجوب لشعره العربى ، فقد استشهد ببيت واحد ونص على أنه قائله(٢) . أما شعره الفارسى فهناك أمثلة منه وردت فى كتاب

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢ .
(٢) « السابق » ص ٣١٣ .

« كشف الأسرار » ، وربما كان السبب فى احجام الهجويرى عن الاستشهاد بأمثلة من شعره يرجع الى أن الأشعار التى كانت متداولة فى ذلك الوقت ، كانت فى معظمها أشعارا غزلية يؤولونها تأويلا صوفيا ، والهجويرى وان أباح سماع الشعر الا أنه كان من المعارضين للتأويل ، وقد عاب على الذين يقضون أوقاتهم فى سماع أوصاف المحبوب ومحاسنه، كالعين والطرة والخال وما شابه ذلك ، وتأويلها على أنها للحق جل جلاله(١) .

وأما كتاب « منهاج الدين » : فهو المؤلف الثانى الذى فقد فى حياة الهجويرى . وقد وردت فى كشف المحجوب اشارات تدل على أنه كان من أوائل الكتب التى ألفها ، وان موضوعه كان يرتبط بالتصوف . ويبدو أن منهاج الدين كان على هيئة تذكرة ، فقد ذكر الهجويرى أنه تحدث فيه ، فى شىء من التفصيل ، عن مناقب أهل الصفة وشرح أحوالهم كل على حدة(٢) ، ولذلك فانه عندما تعرض لذكر هؤلاء فى الجزء الخاص بتراجم الحياة من كشف المحجوب اكتفى بذكر أسمائهم ..

وبالاضافة الى أهل الصفة ، فقد تحدث الهجويرى فى الكتاب عن بعض الصوفية ، من بينهم الحلاج ، ذلك أنه فى الترجمة التى كتبها للحلاج فى كشف المحجوب ، أشار الى أنه تعرض فى منهاج الدين لبداية الحلاج ونهايته(٣) .

وقد حدث للهجويرى مع منهاج الدين ما حدث له مع الديوان ، اذ أن مدع ركيك استولى على الكتاب ، ومحا اسم الهجويرى من عنوانه ، وعرضه على الجمهور على أنه من تأليفه ، وأظهر للعوام أنه مؤلفه ، بينما كان الخواص يضحكون منه على هذا القول .

ويبدو أن ظاهرة الانتحال كانت متفشية فى ذلك الوقت ، وعلى وجوه عدة ، فقد أشار « فرانتز روزنتال » الى ثلاثة أنواع من الانتحال :

النوع الأول : وكان يمارسه جماعة من المؤلفين الذين يسعون وراء الشهرة ، فيغفلون ذكر أسمائهم وينتحلون أسماء أدباء مشهورين يوقعون بها مؤلفاتهم(٤) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٥١٩ .
(٢) « السابق » أنظر : ص ٩٦ .
(٣) « السابق » انظر : ص ١٩٢ .
(٤) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٦ .

والنوع الثانى : وهو أن كتبا بجملتها كانت تنتحل ، وذلك بوضع اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقى . وضرب لهذا النوع مثلا بالهجويرى(١) .

والنوع الثالث من السرقات الأدبية : ما كان شائعا عند المسلمين ، ويكاد ينحصر فى السرقات الشعرية ، بعكس كتب الاغريق التى كانت تتناول الأدب جملة(٢) .

وقد كان لهاتين الحادثتين أثرهما على الهجويرى ، وحاول أن يتلافى حدوث ذلك مستقبلا فعمد الى ادخال اسمه في مؤلفاته حتى ان اسمه يتردد في كشف المحجوب ثمان وعشرين مرة ..

أما المجموعة الثانية من مؤلفات الهجويرى ، والتى يبدو أنها فقدت بعد وفاته فتشتمل على الكتب التالية :

١ ــ كتاب الفناء والبقاء :

ناقش الهجويرى ، فى الباب الخامس من كشف المحجوب ، اختلاف الصوفية فى الفقر والصفوة ، وتطرق من ذلك الى مناقشة الفناء والبقاء من حيث المعنى والعبارة ، وأشار الى ترهات أرباب اللسان الذين يعبدون العبارة ، وأومأ الى أنه فى مرحلة طيش الشباب ألف كتابا فى « الفناء والبقاء » وكانت له فيه أقوال من هذا النوع(٣) .

٢ ــ كتاب « فى شرح كلام الحلاج » :

هذا الكتاب أيضا من الكتب التى ألفها الهجويرى فى صدر شبابه ، فقد صرح بأنه كان فى شبابه مفتونا بالحلاج ، وقرأ كثيرا من كتبه . وقد دفعه اعجابه بالحلاج الى تأليف ذلك الكتاب فى شرح كلامه ، وأيد فيه بالدلائل والحجج علو أقوال الحلاج ، وصحة حاله(٤) .

٣ ــ كتاب « البيان لأهل العيان » :

ذكر الهجويرى أنه ألف هذا الكتاب فى بداية تصوفه ، ويبدو أنه تعرض فيه لشرح بعض الرموز الصوفية :

---

(١) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٧ ــ ١٢٨ .
(٢) « السابق » ص ١٢٩ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٦٧ .
(٤) « السابق » ص ١٩٢ .

٤ ــ كتاب « بحر القلوب »(١) :

يبدو أن الهجويرى ألف هذا الكتاب بعد كتاب البيان لأهل العيان وطرق فيه نفس الموضوع فشرح الرموز والمصطلحات الصوفية ، وان كان قد سلك فى ذلك مسلكا أكثر تفصيلا واشباعا من كتاب البيان ..

٥ ــ « أسرار الخرق والملونات » :

أشار الهجويرى فى الباب الرابع من كشف المحجوب ، وهو الباب الخاص بلبس المرقعة ، الى أنه ألف فى هذا الموضوع كتابا مستقلا أسماه « أسرار الخرق والملونات » وذكر أنه يلزم لكل مريد نسخة منه(٢) .

٦ ــ كتاب « الايمان » :

من المسائل التى تناولها الهجويرى فى كشف المحجوب ، موضوع « الايمان » ، وقد أفرد له قسما مستقلا أطلق عليه : « كشف الحجاب الثالث فى الايمان » . وفى هذا القسم أشار الهجويرى اشارة مقتضبة الى مدلول « الايمان » فى الشريعة ، وعند المعتزلة والخوارج وغيرهم ، ثم أحال القارىء الى كتاب مستقل ألفه فى هذا الموضوع(٣) واعتذر بأنه سيقصر حديثه فى هذا الموضع على اثبات رأى الصوفية فى الايمان(٤) .

٧ ــ « الرعاية بحقوق الله تعالى » :

خص الهجويرى « التوحيد » بباب فى كشف المحجوب أطلق عليه « كشف الحجاب الثانى فى التوحيد» ، وشرح للقراء عامة مبدأ التوحيد عند الموحدين ، وأشار الى آراء المخالفين من الثنوية والوثنيين وغيرهم ، ثم أحال القارىء المتخصص فى هذا العلم ، الذى يهتم بدارسة هذه المسالة دراسة وافية ، الى كتاب من تأليفه أكثر تفصيلا ، اسمه : الرعاية بحقوق الله تعالى »(٥) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٣٣ .
(٢) « السابق » ص ٦٣ .
(٣) « السابق » ص ٣٦٨ .
(٤) « السابق » ص ٣٧٤ .
(٥) « السابق » ص ٣٦٠ .

وغنى عن التعريف أن هناك كتابين يحملان هذا الاسم ، وهما :

كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه(١) المتوفى سنة ٢٤٠ هـ(٢) وكتاب « الرعاية لحقوق الله » للحارث بن أسد المحاسبى(٣) المتوفى سنة ٢٤٣ هـ(٤) .

وأما « كشف المحجوب » : فهو الكتاب الوحيد الذى بقى من مؤلفات الهجويرى ، وقدر له أن يصل الى أيدينا . ولما كان كشف المحجوب يمثل الشق الثانى من هذه الدراسة فقد أفردنا للتعريف به بابا مستقلا ، وهو الباب الثانى .

وبالاضافة الى الكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجويرى يوجد كتابان لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب :

أولهما « ثواقب الأخبار » : وقد أشار اليه البغدادى اشارة عابرة عند تأريخه لكشف المحجوب فذكر أن الهجويرى ألف « ثواقب الأخبار » وكشف حجب المحجوب لأرباب القلوب(٥) . ولا ندرى من أين استقى البغدادى اسم هذا الكتاب ، اذ لم يرد ذكره فى أى من المراجع التى رجعنا اليها .

والثانى « كشف الأسرار » : وهو كتيب صغير يحمل اسم الهجويرى ، طبع فى السنوات الأخيرة فى مدينة لاهور .

وقد تيسر لنا الاطلاع على بعض الاشارات التى تشير الى هذا الكتاب . وأولى هذه الاشارات وردت فى كتاب « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فقد نقل مؤلفه « آدم ميتز » رأيا للهجويرى فى طبقة الوعاظ ، وذكر اسم المرجع على أنه « كشف الاسرار » مخطوط بمكتبة فينا تحت رقم ١٥٤(٦) . وهذا يدل على أن الكتاب كان لا يزال مخطوطا عندما اطلع عليه « ميتز »

ووردت الاشارة الثانية فى مقال فى مجلة « هلال » التى تصدر بالفارسية فى « كراتشى » وقد نقل « غلام سرور » كاتب المقال نصا عن كشف الاسرار

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩ .
(٢) « طبقات الصوفية » ص ١٠٣ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١٣٤ .
(٤) « طبقات الصوفية » ص ٥٦ .
(٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
(٦) « الحضارة الاسلامية » ميتز : ج ٢ ص ٨٢ .

يتعلق بلقب « كنج بخش » الذى يطلق على الهجويرى ، وذكر أن هذا النص ورد على لسان الهجويرى فى الكتاب(١) . ويبدو من هذه الاشارة أن كتاب كشف الأسرار يضم بعض المعلومات التى تشير الى حياة الهجويرى الخاصة ، وهو العنصر الذى نفتقده تماما فى كشف المحجوب ..

أما الاشارة الثالثة ، فقد وردت فى كتيب عن الهجويرى كتب باللغة « الاردوية » ، وأطلق عليه مؤلفه اسم « تذكرة حضرت على هجويرى » . وقد نقل المؤلف عن كشف الأسرار نموذجين لشعر الهجويرى(٢) .

على أن هناك صورة أوضح لكشف الأسرار نستطيع أن نتبين ملامحها من خلال كتيب كتبه بالانجليزية أحد الأســـاتذة السابقين فى جامعة عليكرة الاسلامية ، وأطلق عليه اسم :

The Life and Teachings of Hazrat Data Ganjbakhsh.

وذكر فيه أن كشف الأسرار طبع أخيرا فى لاهور ، ويبدو من حديثه عن الكتاب أنه أطلع عليه ..

وقد أشار المؤلف الى أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، فذكر أن الأسس والتعاليم التى يتضمنها هذا الكتيب تسير فى خط واحد مع التعاليم الواردة فى كشف المحجوب ، كما أن الطريقة التى تنقل بها هذه التعاليم مشابهة لتلك التى جاءت فى كشف المحجوب . ويتشابه الكتابان أيضا فى أن اسم المؤلف استخدم مرات عديدة خلال الكتاب(٣) .

ويضـــم كشف الأسرار الى جوار الأسس والتعاليم الصـــوفية بعض المعلومات الاضافية التى تتعلق بتواريخ الحياة . ويبدو أن بالكتاب قسما على هيئة تذكرة ، تحدث فيه الهجويرى عن بعض الأشخاص الذين قابلهم أثناء اقامته بالهند . وتأثر بهم(٤) .

وعلى الرغم من القرائن التى أوردها المؤلف وأيد بها أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، الا أنه يلقى ظلالا من الشك على نسبة كشف الأسرار الى الهجويرى ، فهو يقول انه من المحتمل أن يكون هذا

---

(١) « هلال » اردىبهشت ١٣٣٢ .
(٢) « تذكرة حضرت على هجويرى » انظر ص ٩٣ ، ٩٤ .
(٣) The Life and Teachings : p.29.
(٤) The Life and Teachings : p.25.

الكتاب منتحلا ، كتبه بعض تلاميذ الهجويرى الذين كانوا متعطشين لنشر تعاليم أستاذهم . غير أنه يعود فيقول : وحتى لو صح أن الكتاب ليس من تأليف الهجويرى فانه يعتبر ملخصا جيدا لتعاليمه(١) . وهكذا يتأرجح رأيه بين القبول والرفض .

والواقع أننا لا نستطيع أن نقطع أو نرجح ما اذا كان كشف الأسرار من تأليف الهجويرى أم من تأليف تلاميذه ، اذ لم يتيسر لنا الاطلاع عليه حتى يمكننا أن نصدر حكما سليما مستمدا من دراسة الكتاب . ونرجو أن تتاح لنا هذه الفرصة يوما ما .

والحقيقة الوحيدة التى يمكن أن نستخلصها مما سبق : أنه اذا صحت نسبة كشف الاسرار الى الهجويرى فانه يكون قد ألفه بعد كتاب كشف المحجوب ، وخلال الفترة الأخيرة من حياته التى قضاها فى مدينة لاهور . وهو ما ينطبق أيضا على « ثواقب الأخبار » اذا ثبت أن هناك كتابا بهذا الاسم ينسب الى الهجويرى ..

وبعد هذا العرض الموجز للكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجويرى — بالاضافة الى كشف المحجوب — والتى ورد ذكر الجزء الأكبر منها فى هذا الأخير بما يدل على أن الهجويرى ألفها قبله ، هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو :

هل ألف الهجويرى هذه الكتب فعلا ؟ واذا كان قد ألفها ، فأين هى ؟ ولماذا لم تصل الينا ؟ ..

حقيقة أن هناك اثنين من بينها ذكر الهجويرى أنهما فقدا أثناء حياته ، وهما « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » ، ولكن كيف أختفت الكتب الأخرى التى أشار اليها الهجويرى بما يدل على أنهـــا كانت موجودة فى حيـــاته ، ومتداولة فى الوقت نفسه ، فهو عند الاشارة الى بعضها يحيل القارىء اليها ، ويطلب منه أن يرجع اليها(٢) ، أو يصرح بأنه لابد له من الحصول على نسخة منها(٣) ، كيف اختفت هذه الكتب جميعها بعد وفاته ، ولم يبق منها

---

(١) The Life and Teachings : p.29.
(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٦٠ .
(٣) « السابق » ص ٦٣ .

الا كشف المحجوب فكان الكتاب الوحيد الذى وصل الينا ؟ ولماذا تخلو كتب الفهارس من ذكر أى منها ؟ .

والواقع اننا للاسف لا نجد اجابة لهذا السؤال ، وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد انه اذا كان الهجويرى قد ألف هذه الكتب فعلا ، فهذا لا يخرج عن أمرين : اما أن هذه الكتب قد ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الاسلامى ، واما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ، ولم يقدر لها بعد من يعثر عليها ، ويعنى بنشرها أو دراستها .

الباب الثانى
التعريف بكتاب كشف المحجوب

الفصل الأول

تعريف بالكتاب

اسمه ـ موضوعه ـ تاريخ تأليفه

كتاب كشف المحجوب أقدم مؤلف فى التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم فى الأصول النظرية والعملية للتصوف(١) . ويعد من المؤلفات القيمة فى التصوف الاسلامى ، الأمر الذى جعل الجميع يتحدثون عنه وعن مؤلفه بكثير من التقدير ..

يقول الجامى فى نفحات الأنس :

« على بن عثمان بن أبى على الجلابى الغزنوى ، صاحب كتاب كشف المحجوب ، الذى يعتبر من الكتب القيمة المشهورة فى هذا الفن »(٢) ..

ويقول دارا شكوه فى سفينة الأولياء :

« كشف المحجوب ، كتاب مشهور ، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه ولم يؤلف كتاب فى التصوف باللغة الفارسية كتابا قيما مثله »(٣) .

ويقول بهار فى سبك شناسى :

« كشف المحجوب : تأليف العالم العارف أبى الحسن على بن عثمان الغزنوى ، من الكتب القديمة القيمة »(٤) ..

وقد نوه بقيمة هذا الكتاب أيضا المستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامى ، سواء منهم من بحث فى هذا الموضوع ، أو من قصر جهوده على نشر كتب التصوف وترجمتها .

---

(١) «Ethé : Cat», Vol. I

(٢) « نفحات الانس » ص ٣١٦ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٧ .

« وكشف المحجوب » فى الفارسية بمكانة « اللمع » من العربية ، فكلاهما يعد أقوم المؤلفات الصـــوفية فى لغته ، وأكثرها قيمة وأوفرها مادة فى التصـــوف .

وقد اعتمد صاحب كشف المحجوب على الكتب العربية فى التصوف ، السابقة عليه مثل : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة القشيرية . وأفاد منه من جاء بعده من المؤلفين الفرس ، وكل من له دراية بالتصـــوف الاسلامى ، وصلة بالمراجع الفارسية مثل : تذكرة الأولياء ونفحات الأنس وسفينة الأولياء وتاريخ تصوف در اسلام ، يستطيع أن يدرك الى أى مدى أفاد مؤلفو هذه الكتب من كشف المحجوب ، والى أى حد كان اعتمادهم عليه سواء صرحوا بذلك أو لم يصرحوا .

اسم الكتاب :

أطلق الهجويرى على كتابه اسم « كشف المحجوب(١) » ، وشرح الهدف من هذه التسمية فقال :

« أين كتاب راكشف المحجوب نام كردم مراد آن بودكة تانام كتاب ناطق باشد برآنجه اندر كتابست مر كروهى راكه بصيرت بود جون نام كتاب بشنوند دانند كه مراد ازان جه بودة است » .

وترجمته :

« أسميت هذا الكتاب كشف المحجوب ، والغرض من ذلك أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان الغرض منه » .

ويرى الهجويرى أن اسم كشف المحجوب أنسب الأسماء لكتابه ، لأنه يعبر تعبيرا صادقا عما يحتويه الكتاب .

يقول :

« وجون أين كتاب اندر بيان راه حق بود ، وكشف حجب بشريت جزاين نام ويرا اندرخور نبود »(٢) .

---

(١) « مما هو جدير بالذكر أن هناك كتابا يحمل اسمم « كشف المحجوب » فى المذهب الاسماعيلى ، كتبـــه بالفارسية : « أبو يعقوب السجزى » ، وكان معاصرا للهجويرى (انظر : « سبك شناسى » ج ٢ ص ٥٢) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤ .

وترجمته :

« ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية فانه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وهناك خلاف حول اسم « كشف المحجوب » . وقد ذكر زوكوفسكى أن اسم الكتاب فى النسخة الخطية الخاصة بمكتبة « فينا » ، وهى النسخة التى جعلها متنا لطبعته لكشف المحجوب ، وفى النسخ الأخرى التى اعتمد عليها فى تصحيح المتن ، هو : « كشف المحجوب »(١) .

وكذلك أثبت كتاب الفهارس : « ريو »(٢) و « ايته »(٣) و « بلوشيه » اسم الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » ، ولكن وردت فى كتاب كشف الظنون زيادة فى الاسم هى عبارة (لأرباب القلوب) ، فصار الاسم الكامل لكتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب »(٤) .

ويعتقد زوكوفسكى أن حاجى خليفه مؤلف كشف الظنون ربما التبس عليه الأمر ، بل انه يظن أن حاجى خليفة لم ير متن كتاب كشف المحجوب أصلا ، لأن من عادته عندما يؤرخ للكتب التى يثبتها فى كتابه ، والتى رآها رأى العين ، أن ينقل بداية النسخة ونهايتها ، ولكنه لم يفعل هذا مع كشف المحجوب ، ويبدو أنه نقل العنوان المذكور عن كتب أخرى(٥) .

وقد ذكر « محمد بارسا » فى كتابه « فصل الخطاب لوصل الأحباب » أن كشف المحجوب عنوان مختصر لكتاب الهجويرى ، وأن الاسم الكامل له هو : « كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب »(٦) .

وكذلك أضاف يعقوب بن عثمان بن محمد الجرخى فى رسالته المسماة « رسالة ابدالية » عبارة (لأرباب القلوب) الى عنوان الكتاب . ويقول زوكوفسكى انـــه من المحتمل أن يكون مرجع حاجى خليفة أحـــد هذين الكتابين(٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .
(٢) «Rieu» : Cat, Vol. I.
(٣) «Ethé» : Cat, Vol. I.
(٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ ، « نقل البغدادى الاسم على هذا النحو فى هدية العارفين » أنظر ج ١ عمود ٦٩١ .
(٥) « كشف المحجوب » : انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .
(٦) « السابق » : أنظـــر مقدمة زوكوفســـكى ص ٥٢ ، (ذكـــر محمـــد عباسى أن كلمة (سر) أضيفت الى عنوان كشف المحجوب فى الفهرست المثبت فى أول كتاب « فصل الخطاب »فأصبح عنوان الكتاب : « كشف سر المحجوب لارباب القلوب » : انظر حاشية ٣ ص ٥٢ من مقدمة زوكوفسكى) .
(٧) « كشف المحجوب » انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٣ .

والواقع أننا نرجح مع زوكوفسكى أن الاسم الأصلى للكتاب هو « كشف المحجوب » فقط ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : أن هذا الاسم هو الذى ورد على لسان المؤلف فى النسخ التى أمكننا الاطلاع عليها .

ثانيا : أثبت كتاب الفهارس الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » وهو الاسم الذى ورد فى متون جميع المخطوطات التى اطلعوا عليها وأثبتوها فى فهارسهم .

ثالثا : اعتمد زوكوفسكى فى طبعته لكتاب كشف المحجوب على خمس مخطوطات جعل احداها متنا ، ورجع الى الأربع الأخرى لتصحيح المتن ، وهو يؤكد أن هذا الاسم هو الذى ورد فى جميع النسخ التى اعتمد عليها ، ومن غير المحتمل أن تكون بقية الاسم — اذا صح أن هناك بقية — قد سقطت من هذه النسخ جميعها .

رابعا : جاء هذا الاسم دون زيادة فى « نفحات الانس » ، وقد اعتمد الجامى على كشف المحجوب اعتمادا كبيرا ، ونقل عنه نص عبارته فى كثير من الموضوعات والتراجم ، ومن المستبعد أن يكون مخطئا فى اسم الكتاب .

خامسا : أكبر الظن أن بعض الذين أضافوا الى اسم كشف المحجوب عبارة (لأرباب القلوب) قد تواردت فى أذهانهم بعض المعانى التى رددها الهجويرى فى مقدمة الكتاب ، فهو يقول ان كتابه كشف للحجاب ، ويعرف الحجاب بأن هناك نوعين من الحجاب : أحدهما الحجاب « الرينى » الذى أشار اليه الله تعالى فى قوله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(١) » وهذا الحجاب لا يرتفع أبدا ، والثانى : الحجاب « الغينى » ويجوز أن يرتفع فى بعض الأحيان . ثم يذكر أنه وضع كتابه ليصقل القلوب الأسيرة فى الحجاب الغينى والتى يكمن فيها نور الحق حتى أنها ببركة قراءته يرتفع عنها الحجاب ، وتجد الطريق الى الحقيقة(٢) ، ومن هنا أضافوا عبارة (لأرباب القلوب) الى اسم الكتاب ، ثم نقلها عنهم غيرهم .

موضوع الكتاب :

موضوع كتاب « كشف المحجوب » جاء اجابة على السؤال الذى وجهه الى الهجويرى أحد مواطنيه ، ويدعى « أبو سعيد الهجويرى » ، وسأله فيه أن يبين له أصول الطريقة ومقامات الصوفية وأقوالهم ومعاملاتهم :

(١) سورة « المطففين » آية ١٤ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٥ ــ ٦ .

يقول الهجويرى :

« قال السايل وهو أبو سعيد الهجويرى : بيـــان كن مرا أندر تحقيق طريقت تصوف وكيفيت مقامات ايشان ، وبيان مذاهب ومقالات ايشان . واظهار كن مرا رموز واشارات ايشان وجكونكى محبت خداوند عز وجل ، وكيفيت اظهار آن برد لها ، وسبب حجاب عقول ازكته وماهيت آن ، ونفرت نفس ازحقيقت آن ، وآرام روح باصفوت آن وآنجه بدين تعلق دارد از معاملات آن »(١) .

وترجمته :

قال السائل وهو أبو سعيد الهجويرى : بين لى على التحقيق طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ، وأظهر لى رموزهم واشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية أظهارها على القلوب وما السبب فى حجاب العقول عن كنهها وماهيتها ، ونفرة النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها ، وما يتعلق بهذا من المعاملات .

وقبل الاجابة على هذا السؤال ، يرسم الهجويرى صورة قاتمة لعلم التصوف فى أيامه فيقول ما معناه :

« أعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى هذه الديار حيث انشـــغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على خلاف أصلها . فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدى أهل هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضره الحق ، وانقطع عنه مراد أهل الارادة ، وانعزلت عن وجوه معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق »(٢) .

ويمضى الهجويرى فى هذا الى أن ينتقل الى موضوع الكتاب ، ويبدأ بشرح المنهج الذى سيسير عليه ، فيقول ما ترجمته :

« والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضـــح مقصودك فى المقامات والحجب ، وأبسطها ببيان لطيف ؛ وأشرح عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا من أقوال الشيوخ ، وأمده بغرر الحكايات حتى يتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر فى هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم أن لطريق التصوف أصلا قويا ، وفرعا مثمرا »(٣) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٧ .
(٢) « السابق » ص ٧ .
(٣) « السابق » ص ١٠ .

ويتضح من العبارة السابقة أن الهجويرى أخذ على نفسه أن يقدم للسائل منهجا كاملا لعلم التصوف : أصوله وفروعه وآدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون الصوفية بالجهل أن لعلم التصوف أصولا ثابتة تقوم على أسس علمية سليمة ، الى جانب استنادها الى الناحية الروحية .

وقد بدأ الهجويرى كتابه باثبات فضيلة العلم ، ثم تكلم فى الفقر والتصوف ولبس المرقعة ، والملامة ، وتراجم الشيوخ ، والفرق الصوفية ، والعقائد والعبادات ، والآداب والرموز والمعاملات .

وموضوع الكتاب على هذه الصورة متكامل وواف بالغرض الذى ألف من أجله ..

ويمكن أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى الأقسام الآتية :

أولا : أبواب تتناول الأصول الصوفية ، وهى :

باب الفقر .

باب التصوف .

باب اختلافهم فى الفقر والصفوة .

ثانيا : أبواب تعالج المسائل الفرعية ، وهى :

باب لبس المرقعة .

باب بيان الملامة .

ثالثا : قسم خاص بتراجم الشيوخ .

رابعا : قسم خاص بالفرق الصوفية .

خامسا : قسم خاص بالعقائد الدينية ، ويتحدث فى :

معرفة الله تعالى ــ التوحيد ــ الايمان .

سادسا : قسم خاص بالعبادات ويتكلم فى :

الطهارة ــ الصلاة ــ الزكاة ــ الصوم ــ الحج .

سابعا : أقسام تتحدث فى : آداب الصوفية ورموزهم ورسومهم .

ولنا ملاحظة صغيرة فيما يختص بالتسلسل المنطقى لأبواب الكتاب وترابطها من الناحية الموضوعية ، فالدارس للكتاب يفتقد عنصر الترابط بين بعض الأبواب من الناحية الموضوعية .

مثال ذلك : الأبواب من الثانى الى السادس ، والتى جاءت على هذا النحو :

٢ ــ باب الفقر ، ٣ ــ باب التصوف ، ٤ ــ باب لبس المرقعة

٥ ــ باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ، ٦ ــ باب بيان الملامة .

فلو أن الوضع تغير بالنسبة للبابين الرابع والخامس وتقدم باب الاختلاف فى الفقر والصفوة لكان هناك ترابط تام بينه وبين البابين الثانى والثالث من الناحية الموضوعية .

وكذلك الحال بالنسبة للقسم الرابع والعشرين الخاص بالرموز والمصطلحات الصوفية ، فلو أنه جاء بعد الباب الرابع عشر الخاص بالفرق الصوفية لكان بينهما تناسق كبير من ناحية الموضوع ، اذ أن جزءا كبيرا من الرموز شرح خلال الحديث عن الفرق .

* * *

تاريخ تأليفه :

تاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، فالهجويرى لم يذكر فى الكتاب التاريخ الذى بدأ تأليفه فيه ، أو التاريخ الذى أنهى فيه هذا العمل . ومن الملاحظ أنه ابتعد دائما عن ذكر أى تاريخ مهما كانت أهميته ، وذلك على العكس مما فعله معاصره القشيرى ، فقد ذكر القشيرى اسمه فى مقدمة الرسالة ، ونص على التاريخ الذى ألفها فيه(١) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى اطلع على الرسالة ، واقتفى أثر القشيرى فى بعض الأمور ونقل عنه كثيرا ، كما هو واضح من كشف المحجوب ، وما نلحظه أيضا من التشابه الكبير بين مقدمتى الرسالة وكشف المحجوب ، فانه يبدو أن هذه المسألة لم تستلفت نظره ، ولم يرها جديرة ببعض الاهتمام الذى أولاه لذكر اسمه ، فقد كان حريصا على اثباته فى مقدمة كشف المحجوب وكرر ذلك كثيرا فى ثناياه ، ولم يهتم بالاشارة الى تاريخ تأليفه .

والرأى السائد الذى تردد بالنسبة لكتاب كشف المحجوب والفترة التى ألف فيها ، يتلخص فى ثلاث نقاط :

الأولى : أن الكتاب آخر مؤلفات الهجويرى .

---

(١) « الرسالة » أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى : تحقيق عبد الحليم محمود : القاهرة ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٦ م (انظر مقدمة المؤلف ص ١٨) .

الثانية : أن الهجويرى ألفه فى الفترة الأخيرة من حياته وخلال اقامته فى مدينة لاهور ..

الثالثة : أن الكتاب مؤلف حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى ، أو الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى ، وربمـــا فى الربع الأخير من القرن الخامس ..

وبالنسبة للنقطـــة الأولى ، وهى أن كشـــف المحجوب آخر مؤلفـــات الهجويرى(١) ، فقد أصبحت هذه المسألة موضع شك بعد أن عرف أن هناك مؤلفات تنسب اليه ، لم يرد ذكرها فى كشف المحجـــوب ضمن مؤلفات الهجويرى السابقة على كشف المحجوب ، مما يرجح أنها ألفت بعده(٢) .

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فهناك أمران :

الأول : أن الكتاب ألف فى الهند خلال الفترة التى قضاها الهجويرى أسيرا فى مدينة لاهور . وقد أشار الهجويرى نفسه الى هذا فى موضع من الكتاب ، واعتذر بأنه ليس لديه معلومات أكثر لأنه كان قد ترك كتبه فى غزنه(٣) ..

والثانى : ويدور حول الاجابة على هذا السؤال :

هل كتب الهجويرى كتابه كله فى الهند خلال الفترة المشار اليها ، أم أنه كتب جزءا منه فقط ؟

وفى الاجابة على هذا السؤال يوجد رأيان :

أولهما : رأى من اعتمدوا فقط على اشـــارة الهجويرى ، السابقة ، فأخذوها قضية مسلمة ، وقطعوا بأن الكتاب كله قد ألف فى الهند(٤) ..

وثانيهما : رأى من ترددوا فى قبول هذا الأمر ، ورجحوا أن فصولا من الكتاب فقط هى التى كتبت فى لاهور(٥) . وفسر بعضهم اشارته الى الكتب والمواد التى لم تكن فى متناول يده بأنها مجموعة الأحاديث المنقولة التى جمعها شيخة الختلى(٦) ..

---

(١) «Zhukovsky's Introduction» ، « تصوف » ص ٣٢ ، « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .
(٢) (انظر : مؤلفات الهجويرى) ص ٧٩ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .
(٤) « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) ، « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .
(٥) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ ص ١٣ (مقال بقلم مطيع الامام) .
(٦) «Zhukovsky's Introduction»

والواقع أننا نميل الى الاتفاق مع أصحاب الرأى الثانى وذلك للأسباب الآتية :

١ — فيما يتعلق بتصريح الهجويرى أنه كان يؤلف كتابه فى الهند فى الوقت الذى كانت فيه كتبه فى غزنه ، فمن الواضح أنه كان يشير الى مجموعة الروايات التى جمعها شيخه الختلى — والتى نص عليها فى هذا الموضع — اذ مما لا يرقى اليه شك أنه كان فى متناول يده وهو يكتب أجزاء كثيرة من كتابه مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسميها ، وكثيرا ما ينقل أمثالا وقصصا بحرفيتها ، ويورد استشهادات مقتطفة يصعب على الانسان أن يحفظها عن ظهر قلب . ونظرة فى الفصل الخامس(١) من هذا الباب كافية لاثبات ذلك .

٢ — يتضح من المادة التى وردت فى كشف المحجوب أنه بالرغم من أن كثيرا من المعلومات التى ضمنها المؤلف كتابه قد أمكن له جمعها خلال فترة تجوله التى سبقت وقوعه فى الأسر ، الا أنه توجد معلومات أخرى ترجع الى ما بعد هذه الفترة ، مما يوضح أن بعض أجزاء من الكتاب كتبت بعدها ، مثال ذلك قصة زيارة الهجويرى لقبر أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ(٢) .

٣ — هناك دليل آخر ملموس مرتبط بالدليل السابق ، وهو أنه اذا صح أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور عام ٤٣٥ هـ ، وأن الهجويرى كان يمارس فى هذه الفترة كتابة مؤلفه ، على نحو ما صرح به فى ترجمته لحبيب الراعى(٣) ، فقد ذكر فى ترجمته لمعروف الكرخى أنه اقتفى أثر « السلمى » و « القشيرى » فى اختيار الموضع الذى ترجم له فيه(٤) ، وفى هذا اشارة الى أنه اطلع على رسالة القشيرى قبل أن يكتب هذا الجزء . ومن المعروف أن الرسالة ألفت عام ٤٣٧ هـ ، فلابد اذن أن الهجويرى اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

وخلاصة رأينا ، بالنسبة لهذه النقطة ، أنه يبدو أن الهجويرى بدأ كتابة أجزاء من كتابه خلال فترة الأسر ، أى حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، بعد أن تهيأت له مادة مناسبة لأن يبدأ الكتابة . وبعـــد اطلاق سراحه رجع الى غزنة وخراسان ، حيث استعاد كتبه ومراجعه ، وجمع كمية أخرى من المعلومات

---

(١) « انظر : مظاهر التأثير والتأثر » .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .
(٣) « السابق » ص ١١٠ .
(٤) « السابق » ص ١٤١ .

ضمها الى ما لديه ، وبذلك أتيحت له الفرصة أن يكمل الكتاب . وربما أتم هذا العمل فى غزنة أو خراسان ، وليس هناك ما يمنع أيضا من أن يكون قد أتمه فى الهند عندما رجع اليها فى المرة الثانية ليقيم نهائيا بمدينة لاهور ..

أما بالنسبة للنقطة الثالثة ، التى تتعلق بتاريخ تأليف الكتاب ، فهناك فترات ثلاث يشار اليها على أن الكتاب قد ألف فى احداها :

الأولى : حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى(١) .

والثانية : النصف الثانى من القرن الخامس ، أو بعبارة أخرى : الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى(٢) .

والثالثة : ما بين سنة ٤٨١ وسنة ٥٠٠ هـ(٣) .

وقد اعتمد من رجحوا الفترة الأولى على ما هو واضح فى ترجمة الهجويرى لشيخه ابى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، من أنه كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ..

واستند من رجحوا الفترة الثانية الى أنـــه فى الجزء الأخير من كشف المحجوب ، يضاف الى اسم أبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، عبارة (رحمه الله) مما يدل على أن هذا الجزء كتب بعد وفاة القشيرى(٤) .

أما الفترة الأخيرة فقد أشير اليها فى مقال كتبه « يحيى حبيبى ، وقويل بكثير من المعارضة ، وان وجد من يميل الى تصديقه(٥) .

ونناقش الآن احتمالات هذه الفترات أو التواريخ الثلاثة :

أولا : فيما يتعلق بالتاريخ الأول فان الفتره المذكورة ، اذا أخذت بمعناها الواسع ، لا تبعد عن الحقيقة . والدلل الذى نستند اليه هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه من رجحوا هذه الفترة ـــ من أن الكتاب ألف فى حياة أبى القاسم الجرجانى ـــ وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجويرى(٦) .

---

(١) «Zhukovsky's Introduction»

(٢) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ ص ١٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) Oriental College Magazine (Volume 36 pp. 27-43) by: Mr. Yahya Hobibi.

(٤) Rieu Cat : Vol. I, Ethé Cat : Vol. I.

(٥) «THE LIFE AND TECHINGS», p. 25.

(٦) انظر : ص ٨٤

ثانيا : بالنسبة للتاريخ الثانى ، ففى رأينا أن الفترة المحددة تبعد عن الصواب . والدليل الذى نستند اليه فى رفض تلك الفترة هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه البعض فى ترجيحها ـــ وهو أن اسم القشيرى يعقبه أحيانا عبارة رحمه الله ـــ وقد فسر ذلك أيضا عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجويرى(١) .

ثالثا : فيما يتعلق بالتاريخ الأخير ـــ وهو الفترة ما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ ـــ فربما كانت الفترة المحددة أبعد التواريخ الثلاثة عن الصواب بعد أن عرفنا أن الهجويرى نفسه قد توفى حوالى سنة ٤٦٥ هـ .

أما عن الفترة التى نرجحها لتأليف الكتاب وتاريخ الانتهاء منه ، فقد بات واضحا أن الهجويرى بدأ تأليف كتابه حوالى سنة ٤٣٥ هـ وهى السنة التى وقع فيها أسيرا فى مدينة لاهور ، على نحو ما صرح به الهجويرى نفسه فى الكتاب(٢) ، وما أثبتناه من أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور سنة ٤٣٥ هـ(٣) .

أما عن تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب ، فيبدو أن الهجويرى أتمه فيما بين سنتى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ . ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

١ ـــ من المستبعد أن يكون الهجويرى قد أنهى كتابه قبل سنة ٤٤٠ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو سعيد بن أبى الخير ، لأنه ذكر فى الكتاب أنه زار قبر أبى سعيد(٤) .

٢ ـــ وردت فى كشف المحجوب اشارتان فى الباب الثالث عشر ـــ وهو الباب الذى ذكر فيه الهجويرى رجال الصوفية المتأخرين مرتبة على حسب بلدانهم وقال فى مقدمته انه سيذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا أحياء على عهده ـــ وأولى هاتين الاشارتين أشير بها الى « خواجه على بن الحسين السيركانى » ، ونصها :

« أما ازاهل كرمان خواجه على بن الحسين السيركانى ، سياح وقت بود ، وأسفار نيكوداشت ، ويسرش حكيم مردى عزيز است »(٥) .

---

(١) انظر : ص ٨٣

(٢) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٣) انظر : ص ١٩

(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١

(٥) « السابق » ص ٢١٥ .

وترجمتها :

« أما من أهل كرمان : السيد على بن الحسين السيركانى ، وكان سياح الوقت ، وذا أسفار طيبة . وابنه حكيم رجل عزيز » .

وواضح من هذه الاشارة أن خواجه على لم يكن على قيد الحياة عند كتابتها ، فقد استعمل الهجويرى فى الحديث عنه الفعل الماضى (بود«ا») ، بينما استعمل فى الحديث عن ابنه الرابطة (است) (ب) ، وهذا يبين أن خواجه على وان كان حيا على عهد الهجويرى ، الا أنه كان قد توفى عند كتابة هذه النبذة ، بينما كان ابنه لا يزال على قيد الحياة . وتاريخ وفاة الأب محدد بعام ٤٤١ هـ(١) ، وتوفى الابن عام ٤٧٠ هـ(٢) ..

والاشارة الثانية أشير بها الى أبى جعفر « محمد بن الحسين الحرمى » ، ونصها :

« أما ازاهل ما وراء النهر : خواجه أمام مقبول خاص وعام أبوجعفر محمد بن الحسين الحرمى ، مردى مستمع وكرفتارست ، وهمتى عالى دارد وروزكارى صافى ، وشفقتى تمام بر طالبان دركاه حق »(٣) .

وترجمتها :

« أما من أهل ما وراء النهر : « خواجه » الامام ، مقبول الخاص والعام ، أبو جعفر محمدبن الحسين الحرمى ، وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صاف ، وشفقةكاملة على جميع طلاب حضرة الحق » .

ويتضح من هذه الاشارة أن محمد بن الحسين الحرمى كان على قيد الحياة عند كتابتها ، فالهجويرى يستعمل فى هذه النبذة الرابطة (است) والفعل المضارع (دارد) (جـ) . وقد توفى محمد بن الحسين الحرمى عام ٤٤٢ هـ (٤) ..

---

(١) ذكر « نفيسى » أن خواجه على بن حسن (حسين) الكرمانى السيركانى كان من شيوخ الصوفية فى كرمان ، ومن مريدى الشيخ « عمو » وتوفى سنة ٤٤١ هـ (انظر : شد الازار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٢) « هدية العارفين » جـ ١ عمود ٦٩٢ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٤) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، « صفوة الصفوة » جـ ٢ ص ٢٧٥ .

(أ) « بود » = كان . (ب) « است » = يكون ، كائن . (جـ) « دارد » = يملك .

ويمكن أن نستخلص من هاتين الاشارتين أنه من المرجح أن يكون الهجويرى قد أنهى كتابه فيما بين عامى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ ، أى بعد وفاة خواجه على بن الحسين السيركانى عام ٤٤١ هـ ، وقبيل وفاة محمد بن الحسين الحرمى عام ٤٤٢ هـ .

وبناء على ما تقدم يكون الهجويرى قد بدأ تأليف كتاب كشف المحجوب حوالى عام ٤٣٥ هـ . وأتمه حوالى عام ٤٤٢ هـ . وهذه الفترة التى نرجحها لا تتعارض مع ما ذكر من أن الهجويرى كتب مؤلفه حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وأثناء حياة أبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

* * *

الفصل الثانى
أقسام الكتاب

(تقسيم ايته ، تقسيم من **وجهة نظرنا** ، التعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها)

١ ــ أقسام الكتاب من الناحية الشكلية :

تقسيم ايته : تعرض « ايته » فى فهرسه لذكر خمس نسخ من كشف المحجوب ، أثبتها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، وذكر أن الكتاب ينقسم طبقا لجميع النسخ الى أربعين بابا(١) بينما نسختا « فينا » ، و « بودلين » تتكون كل منهما من أربعة وستين بابا(٢) تتضمن عدة فصول . وفيما يلى قائمة بأقسام الكتاب كما أثبتها « ايته » طبقا للنسخة تحت رقم ١٧٧٣ :

١ ــ باب اثبات العلم .
٢ ــ باب الفقر .
٣ ــ باب التصوف .
٤ ــ باب لبس المرقعة .
٥ ــ باب اختلافهم فى الفقر والتصوف .
٦ ــ باب فى الملامة .
٧ ــ باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة .
٨ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت .
٩ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أهل (أصحاب) الصفة .
١٠ ــ باب فى ذكر أئمتهم من التابعين .

---

(١) ورد هذا أيضا فى : « تاريخ أدبيات فارسى » هرمان آيته : ترجمة رضا زاده شفق ، طهران ١٣٣٧ ــ ١٩٥٨ م (انظر ص ٢٩٤) .

(٢) «Ethé» Cat. Vol. I.

١١ ــ باب فى ذكر ائمتهم من أتباع التابعين .
١٢ ــ باب فى ذكر ائمتهم من المتأخرين .
١٣ ــ باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
١٤ ــ باب فى فرق فرقهم ومذاهبهم .
(ويقول ايته : وفى نهاية هذه القائمة توجد أربعة كشوف) :
كشف الحجاب الأول فى معرفة الله .
كشف الحجاب الثانى فى التوحيد .
كشف الحجاب الثالث فى الايمان .
كشف الحجاب الرابع فى الطهارة .
١٥ ــ باب التوبة وما يتعلق بها .
كشف الحجاب الخامس فى الصلاة .
١٦ ــ باب المحبة وما يتعلق بها .
كشف الحجاب السادس فى الزكاة .
١٧ ــ باب الجود والسخاء .
كشف الحجاب السابع فى الصيام .
١٨ ــ باب الجوع وما يتعلق به .
كشف الحجاب الثامن فى الحج .
١٩ ــ باب المجاهدة .
كشف الحجاب التاسع فى الصحبة وآدابها .
٢٠ ــ باب الصحبة وما يتعلق بها .
٢١ ــ باب آدابهم فى الصحبة .
٢٢ ــ باب فى آداب الصحبة فى الاقامة .
٢٣ ــ باب فى آدابهم فى السفر .
٢٤ ــ باب فى آدابهم فى الأكل .
٢٥ ــ باب فى آدابهم فى المشى .
٢٦ ــ باب فى نومهم فى السفر والحضر .
٢٧ ــ باب فى آدابهم فى الكلام والسكوت .
٢٨ ــ باب فى آدابهم فى السؤال وتركه .

٢٩ ــ باب فى آدابهم فى التزويج والتجريد .
٣٠ ــ كشف الحجاب العاشر فى بيان الفاظهم وحقائق معانيها .
كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع .
٣١ ــ باب فى السماع وما يتعلق به .
٣٢ ــ باب فى سماع الشعر .
٣٣ ــ باب فى سماع الأصوات والألحان .
٣٤ ــ باب فى كلام السماع .
٣٥ ــ باب فى اختلافهم فى السماع .
٣٦ ــ باب فى مراتبهم فى حقيقة السماع .
٣٧ ــ باب فى الوجد والوجود والتواجد ومراتبه .
٣٨ ــ باب فى الرقص وما يتعلق به .
٣٩ ــ باب فى الخرق .
٤٠ ــ باب فى آداب السماع .

ونلاحظ على هذا التقسيم الذى أورده « ايته » أمرين :

الأول : يبدو أن الرقم (٤٠) الذى أشار به الى عدد أبواب الكتاب قد حصل عليه بعد أن أحصى كلمة (باب) التى عنون بها المؤلف لمجموعة من الأمور والمسائل التى ذكرها أو ناقشها فى كتابه ، كأن يقول مثلا : باب اثبات العلم ، باب الفقر ، باب الجوع وهكذا .

وهنا نلاحظ أن الرقم الصحيح هو (٣٩) لا (٤٠) .

والثانى : لم يعط « ايته » رقما لأقسام الكتاب التى عنون لها المؤلف بكلمة (كشف الحجاب) باستثناء الحجاب العاشر الذى أعطاه رقم (٣٠) كما لو كان بابا من الأبواب التى ذكرها المؤلف ، وبذلك حصل على الرقم (٤٠) الذى ذكر أنه مجموع عــدد الأبواب التى ينقسم اليها الكتاب طبقا لهذه النسخة .

تقسيم من وجهة نظرنا :

الواقع أننا اذا أردنا أن نحدد أقسام الكتاب تحديدا أكثر دقة وتناسقا نجد أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما يمكن تقسيمها الى مجموعتين :

المجموعة الأولى : وتشمل أربعة عشر قسما أطلق على كل منها اسم (باب) ، وبعض هذه الأبواب يشتمل على فصول .

المجموعة الثانية : وتشمل أحد عشر قسما أطلق على كل منها اسم (كشف الحجاب) ، وبعض هذه الأقسام يشتمل على أبواب وفصول .

وفيما يلى قائمة بأقسام الكتاب كما نراها من وجهة نظرنا :

مقدمة المؤلف : وتشتمل على ثمانية فصول قصيرة .

أقسام الكتاب :

المجموعة الأولى :

١ ــ باب اثبات العلم : ويشتمل على أربعة فصول .
٢ ــ باب الفقر : ويشتمل على فصلين .
٣ ــ باب التصوف : ويشتمل على فصلين .
٤ ــ باب لبس المرقعة : ويشتمل على فصلين .
٥ ــ باب اختلافهم فى الفقر والصفوة .
٦ ــ باب بيان الملامة : ويشتمل على فصلين .
٧ ــ باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين .
٨ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت .
٩ ــ باب فى ذكر أهل الصفة .
١٠ ــ باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار .
١١ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى يومنا هذا . (أى الى عهد المؤلف) .
١٢ ــ باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين .
١٣ ــ باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
١٤ ــ باب فى فرق فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم .

المجموعة الثانية :

١٥ ــ كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى : ويشتمل على فصلين .
١٦ ــ كشف الحجاب الثانى فى التوحيد : ويشتمل على فصل .

١٧ ــ كشف الحجاب الثالث فى الايمان : ويشتمل على فصل .
١٨ ــ كشف الحجاب الرابع فى الطهارة : ويشتمل على باب وفصلين .
١٩ ــ كشف الحجاب الخامس فى الصلاة : ويشتمل على باب وأربعة فصول .
٢٠ ــ كشف الحجاب السادس فى الزكاة : ويشتمل على فصل وباب .
٢١ ــ كشف الحجاب السابع فى الصوم : ويشتمل على باب .
٢٢ ــ كشف الحجاب الثامن فى الحج : ويشتمل على باب .
٢٣ ــ كشف الحجاب التاسع فى الصحبة مع آدابها وأحكامها : ويشتمل على عشرة أبواب .
٢٤ ــ كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود ألفاظهم وحقائق معانيهم .
٢٥ ــ كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع : ويشتمل على عشرة أبواب .

٢ ــ تعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها :

ذكرنا أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما ونعرف فى اختصار بهذه الأقسام ونبين الموضوعات التى يشتمل عليها كل قسم منها :

مقدمة الكتاب(١)

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة طويلة نوعا استغرقت حوالى عشر صفحات . استهلها باسم الله والحمد له ، والصلاة والسلام على رسوله ، وأثبت فيها اسمه واسم الكتاب ، ثم عقد ثمانية فصول قصيرة :

الفصل الأول : تحدث فيه عن السبب الذى من أجله أثبت اسمه فى بداية الكتاب .

الفصل الثانى : ذكر فيه أنه سلك طريق الاستخارة ، وبين فضائل ذلك .

الفصل الثالث : فى أنه محا عن قلبه الأغراض النفسية قبل أن يبدأ العمل .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١ ــ ١١ . (ملاحظة : هذا التقسيم وأرقام الصفحات وفقا للطبعة الحديثة لكشف المحجوب طهران ١٣٣٦ هـ . ش ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث) .

الفصل الرابع : فى « النية » عملا بقول الرسول عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » .

الفصل الخامس : شرح فيه الغرض من تسمية الكتاب باسم « كشف المحجوب » .

الفصل السادس : صرح فيه بأنه عرف مقصود السائل وأنه يجد فى نفسه القدرة على اجابته على سؤاله اجابة مفصلة .

الفصل السابع : فى طلب التوفيق والعون من الله على اتمام مهمته .

الفصل الثامن : تحدث فيه عن أن هذا العالم موضع لأسرار الله وأن الجواهر والأعراض والطبائع انما هى حجاب لتلك الأسرار ، وأن الانسان محجوب بوجوده عن الأسرار الربانية ، وقد أصبح هذا الحجاب مزاجا له ، فلا جرم أن اكتفى بالجهل واشترى بالروح حجابه عن الحق لأنه يجهل جمال الكشف .

واستطرد من هذا الى أن جميع المشايخ حثوا المريدين على تعلم العلم والمداومة عليه فمهد بذلك للباب الأول من الكتاب .

أقسام الكتاب

القسم الأول :

« باب اثبات العلم » (ص ١١ — ٢١) .

ويقع فى حوالى احدى عشرة صفحة ، ويشتمل على أربعة فصول .

موضوعه :

(ا) تحدث المؤلف فى هذا الباب عن ضرورة العلم ، وذكر أن تعلم جميع العلوم ليس فريضة على كل الناس ، الا بالقدر الذى يتعلق بالشريعة ، وأنه ينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل .

ثم قسم العلم الى علمين :

علم الله تعالى ، وعلم الخلق .

(ب) الفصل الأول : علم الله .

(ج) الفصل الثانى : علم الخلق .

(د) الفصل الثالث : عن السفسطائيين الذين ينكرون العلم ، والملاحدة من الصوفية الذين يقولون بترك العلم .

(هـ) الفصل الرابع : ذكر فيه طائفة من أقوال المشايخ فى العلم .

القسم الثانى :

باب الفقر (ص ٢١ — ٣٤) .

ويقع فى حوالى اثنتى عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين .

موضوعه :

(ا) الفقر من الناحية الروحية ، ويتحدث فيه عن درجة الفقر فى الطريق ، وحقيقته ورسمه .

(ب) الفصل الأول : فى اختلاف المشايخ فى الفقر والغنى وأيهما أفضل .

(ج) الفصل الثانى : فى أقوال شيوخ الصوفية فى الفقر وشرح رموزهم .

القسم الثالث :

باب التصوف (من ٣٤ — ٤٩) .

ويقع فى حوالى خمس عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) يتحدث فى هذا الباب عن لفظ (الصوفى) وهل هو مشتق من الصوف أم الصف أم الصفاء ؟ .. ويرفض هذه الاشتقاقات جميعها ويرجح أنه اسم من أسماء الأعلام لهذه الطائفة . ويقسم أهل التصوف الى : « صوفى » و « متصوف » و « مستصوف » .

(ب) الفصل الأول : فى أقوال المشايخ فى تعريف الصوفى والتصوف .

(ج) الفصل الثانى : فيما قيل فى المعاملات .

القسم الرابع :

باب لبس المرقعة (ص ٤٩ — ٦٥) .

ويقع فى حوالى ست عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) المرقعة شعار للمتصوف ولكن بعض الأدعياء يرتدونها طلبا للجاه ، وهم بذلك يسيئون الى الصوفية الحقيقيين لأن الناس ينسبونهم اليهم ويظنونهم على شاكلتهم .

(ب) الفصل الأول : فى شرط المرقعات ، وحياكة الرقعة ، والشروط التى ينبغى توفرها فيمن يلبس المريد المرقعة .

(ج) الفصل الثانى : فى ترك عادة لبس المرقعة ، والأصل فى تخريق الثياب .

القسم الخامس :

باب اختلافهم فى الفقر والصفوة (٦٥ ــ ٦٨) .
ويقع فى ثلاث صفحات .

موضـــوعه :

اختلاف علماء الصوفية فى تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، والصفوة عند جماعة أتم من الفقر . وهذا الخلاف خلاف فى العبارات لأن الأولياء وصلوا الى حيث فنيت الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى .

القسم السادس :

باب بيان الملامة (ص ٦٨ ــ ٧٨) .
ويقع فى عشر صفحات ، ويشتمل على فصلين :

موضـــوعه :

(ا) الملامة وأثرها فى خلوص المحبة . وقد خص الحق أحباءه بالملامة غيرة عليهم حتى لا تقع عين الغير على جمال حالهم ، وحتى لا يعجبوا هم بأنفسهم فيقعوا فى آفة العجب والتكبر .

(ب) الفصل الأول : الملامة على ثلاثة أوجه :

ملامة استقامة السير .

ملامة القصد .

ملامة الترك .

(ج) الفصل الثانى : فى تعريف أبى حمدون القصار للملامة .

القسم السابع :

بباب فى ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين (ص ٧٨ ــ ٨٥) .
ويضم هذا الباب تراجم للخلفاء الأربعة :

١ ــ أبو بكر الصديق .
٢ ــ عمر بن الخطاب .
٣ ــ عثمان بن عفان .
٤ ــ على بن أبى طالب .

القسم الثامن :

باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت (ص ٨٥ ــ ٩٧) .
ويشتمل على خمس تراجم :

١ ــ الحسن بن على .
٢ ــ الحسين بن على .
٣ ــ على بن الحسين بن على زين العابدين .
٤ ــ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين (الباقر) .
٥ ــ أبو محمد جعفر بن على بن الحسين (الصادق) .

القسم التاسع :

باب فى ذكر أهل الصفة (ص ٩٧ ــ ٩٩) .
عرف المؤلف فى هذا الباب بأهل الصفة وذكر مجموعة من أسمائهم .

القسم العـــاشر :

باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار (ص ٩٩ ــ ١٠٧) .
ترجم فى هذا الباب لأربعة أشخاص هم :

١ ــ أويس القرنى .
٢ ــ هرم بن حيان .
٣ ــ الحسن البصرى .
٤ ــ سعيد بن المسيب .

القسم الحادى عشر :

باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين (ص ١٠٧ ــ ٢٠٢) .
ويشتمل على أربع وستين ترجمة للأشخاص التالية أسماؤهم :

١ ــ حبيب العجمى .
٢ ــ مالك بن دينار .
٣ ــ أبو حليم حبيب بن سليم الراعى .
٤ ــ أبو حازم المدنى .
٥ ــ محمد بن واسع .
٦ ــ أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخراز .
٧ ــ عبد الله بن المبارك المروزى .

٨ — أبو على الفضيل بن عياض .
٩ — أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى .
١٠ — أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور .
١١ — بشر بن الحارث الحافى .
١٢ — أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى .
١٣ — أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى .
١٤ — أبو سليمان داود بن نصير الطائى .
١٥ — أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى .
١٦ — أبو على شقيق بن ابراهيم الأزدى .
١٧ — أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى .
١٨ — أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى .
١٩ — أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم .
٢٠ — أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى .
٢١ — الامام أحمد بن حنبل .
٢٢ — أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى .
٢٣ — أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى .
٢٤ — أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبى .
٢٥ — أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى .
٢٦ — أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى الحداد .
٢٧ — أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار .
٢٨ — أبو سرى منصور بن عمار .
٢٩ — أبو عبد الله أحمد بن عاصم الانطاكى .
٣٠ — أبو محمد عبد الله أحمد بن خبيق الأنطاكى .
٣١ — أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى .
٣٢ — أبو الحسن أحمد بن محمد النورى .
٣٣ — أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى .
٣٤ — أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء .
٣٥ — أبو محمد رويم بن أحمد .
٣٦ — أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى .

٣٧ — أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص .
٣٨ — أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى .
٣٩ — عمرو بن عثمان المكى .
٤٠ — أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى .
٤١ — أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى .
٤٢ — أبو عبد الله محمد بن على الترمذى .
٤٣ — أبو بكر محمد بن عمر الوراق (الترمذى) .
٤٤ — أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .
٤٥ — أبو الحسن على بن محمد الاصفهانى .
٤٦ — أبو الحسن محمد بن اسماعيل (خير النساج) .
٤٧ — أبو حمزة الخراسانى .
٤٨ — أبو العباس أحمد بن مسروق .
٤٩ — أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربى .
٥٠ — أبو على الحسن بن على الجوزجانى .
٥١ — أبو محمد أحمد بن الحسين الجريرى .
٥٢ — أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الأدمى .
٥٣ — أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج .
٥٤ — أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الخواص .
٥٥ — أبو حمزة البغدادى البزاز .
٥٦ — أبو بكر محمد بن موسى الواسطى .
٥٧ — أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى .
٥٨ — أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدى .
٥٩ — أبو على محمد بن القاسم الرودبارى .
٦٠ — أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدى السيارى .
٦١ — أبو عبد الله محمد بن خفيف .
٦٢ — أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى .
٦٣ — أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محمويه النصر ابادى .
٦٤ — أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى .

القسم الثانى عشر :

باب فى ذكر ائمتهم من المتأخرين (ص ٢٠٢ ــ ٢١٤) .

« يقول فى مقدمة هذا الباب : بعض الذين سأذكرهم فى هذا الباب توفوا وبعضهم أحياء » .

ثم يورد تراجم لعشرة من شيوخ الصوفية هم :

١ ــ أبو العباس أحمد بن محمد القصاب .

٢ ــ أبو على الحسن بن محمد الدقاق .

٣ ــ أبو الحسن على بن أحمد الخرقانى .

٤ ــ أبو عبد الله محمد بن على الداستانى .

٥ ــ أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهنى .

٦ ــ أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى .

٧ ــ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى .

٨ ــ أبو العباس أحمد بن محمد الشقانى .

٩ ــ أبو القاسم على الجرجانى الطوسى .

١٠ــ أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان النوقانى .

* * *

القسم الثالث عشر :

باب فى ذكر ائمتهم من المتأخرين من أهل البلدان (ص ٢١٤ ــ ٢١٨) : يذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا لايزالون أحياء على عهده من زهاد الصوفية ومشايخهم من أرباب المعانى ، ويورد أسماءهم مرتبة على حسب البلدان :

١ ــ أهل الشام والعراق .

٢ ــ أهل فارس .

٣ ــ أهل قهستان وآذربايجان وطبرستان وقومس .

٤ ــ أهل كرمان .

٥ ــ أهل خراسان .

٦ ــ أهل ما وراء النهر .

٧ ــ أهل غزنين وسكانها .

* * *

القسم الرابع عشر :

باب فى الفرق بين فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم

(ص ٢١٨ ــ ٣٤١)

تناول المؤلف فى هذا الباب الفرق الصوفية ، وقسمها الى اثنتى عشرة فرقة ، وتحدث عن كل فرقة منها ونسبها الى مؤسسها ، وذكر الأسس الرئيسية فى مذهبها ، وبين أن هذه الفرق تتفق فيما بينها فى أصول الشرع وفروعه والتوحيد ، ولكنها تختلف فى بعض الجزئيات : كالمعاملات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، وفى تفسير بعض المصطلحات حيث يبدو هذا الاختلاف واضحا .

وهذه الفرق هى :

١ ــ المحاسبية :

وتنسب الى أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، وأساس مذهبه يقوم على الرضا .

وقد تكلم المؤلف فى الأمور الآتية :

(أ) الرضا وهل هو من المقامات أم الأحوال .

(ب) فصل : فيما قيل بشأن ذلك .

(ج) الفرق بين المقام والحال .

٢ ــ القصارية :

وتنسب الى أبى صالح حمدون بن أحمد بن عماره القصار ،وأساس مذهبه على الملامة .

تحدث المؤلف فى ايجاز عن الملامة وأحال القارىء الى الباب السادس من الكتاب حيث تناول هذ ه المسألة بالتفصيل .

٣ ــ الطيفورية :

وتنسب الى أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، وأساس مذهبه يقوم على السكر .

وقد تكلم المؤلف عن السكر والصحو .

٤ ــ الجنيدية :

وتنسب الى أبى القاسم الجنيد بن محمد ، وأساس مذهبه يقــوم على الصحو على عكس الطيفورية .

٥ ــ النورية :

وتنسب الى أبى الحسن أحمــد بن محمد النورى ، وأساس مذهبه يقوم على الايثار .

٦ ــ السهلية :

وتنسب الى سهل بن عبد الله التسترى ، وأساس مذهبه يقوم على الرياضة والمجاهدة . وقد تناول المؤلف المسائل التالية :

(أ) الكلام فى حقيقة النفس .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى النفس .

(ج) الكلام فى مجاهدة النفس .

(د) الكلام فى حقيقة الهوى .

٧ ــ الحكيمية :

وتنسب الى أبى عبد الله بن على الحكيم الترمذى ، وأساس مذهبه يقوم على الولاية . وتحدث المؤلف فى :

(أ) اثبات الولاية .

(ب) فصل : فى الرد على المعتزلة والحشوية ممن ينكرون تخصيص الأولياء .

(ج) فصل : فى رموز المشايخ عن الولاية .

(د) الكلام فى اثبات الكرامات .

(هـ) الفرق بين المعجزات والكرامات .

(و) اظهار جنس المعجزة على يد من يدعى الألوهية .

(ز) تفضيل الأنبياء على الأولياء .

(ح) تفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة .

٨ ــ الخرازية :

وتنسب الى أبى سعيد الخراز ، وأساس مذهبه يقــوم على الفناء والبقاء .

(أ) الكلام فى الفناء والبقاء .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ ورموزهم فيمــا يتعلق بالفنــاء والبقاء .

٩ ــ الخفيفية :

وتنسب الى أبى عبد الله محمد بن خفيف ، وأســاس مذهبه يقوم على الغيبة والحضور

١٠ ــ السيارية :

وتنسب الى أبى العباس السيارى ، وأساس مذهبه يقوم على الجمع والتفرقة .

١١ ــ الحلولية :

وهم طائفتان :

الأولى : تنسب الى أبى حلمان الدمشقى .

والثانية : تنسب الى فارس .

(أ) الكلام فى الروح .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى الروح .

* * *

القسم الخامس عشر :

كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى (ص ٣٤١ ــ ٣٥٦) ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(أ) المعرفة نوعان : معرفة علمية ، ومعرفة حالية . وقد سمى العلماء والفقهاء صحة العلم بالله معرفة ، بينما سمى شيوخ الصوفية صحة الحال مع الله معرفة .

(ب) الفصل الأول : المعتزلة يعتقدون أنه يمكن معرفة الحق عن طريق العقل . ويعتقد آخرون أن الاستدلال وسيلة صحيحة لكسب المعرفة .

(ج) الفصل الثانى : فى أقوال المشايخ فى المعرفة .

* * *

القسم السادس عشر :

كشف الحجاب الثانى فى التوحيد (ص ٣٥٦ ــ ٣٦٨)

ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(أ) حقيقة التوحيد الحكم على وحدانية شىء بصحة العلم بواحدانيته . ولما كان الله تعالى واحدا لا يقاسمه أحد فى ذاته وصفاته ، ولا قسيم ولا شريك له فى أفعاله ولما كان الموجدون يعرفونه على هذه الصفة ، فانهم يسمون هذا العلم توحيدا .

والتوحيد على ثلاثة أنواع :

توحيد الحق للحق

توحيد الحق للخلق

توحيد الخلق للحق

(ب) فصل فى أقوال المشايخ فى التوحيد .

* * *

القسم السابع عشر :

كشف الحجاب الثالث فى الايمان (ص ٣٦٨ ــ ٣٧٤)

ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(أ) الايمان من ناحية اللغة هو التصديق . وقد اختلف الناس فى اثبات حكمه ، فالمعتزلة يقولون ان جميع الطاعات العلمية والعملية ايمان ، والايمان عند غيرهم : المعرفة ، وعند المتكلمين من أهل السنة : التصديق المطلق . أما الصوفية فينقسمون فيه الى قسمين :

فريق يقول ان الايمان قول وتصديق وعمل ،

وفريق يقول انه قول وتصديق .

(ب) فصل : فى حقيقة الايمان .

* * *

القسم الثامن عشر :

كشف الحجاب الرابع فى الطهارة (ص ٣٧٤ ــ ٣٨٦)

يشتمل على باب وفصلين .

موضوعه :

(أ) الطهارة على نوعين : طهارة الظاهر ، وطهارة القلب .

وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة .

(ب) باب التوبة وما يتعلق بها : يشترط للتوبة ثلاثة أمور :

الأسف على المخالفة ، ترك الزلة فى الحال ، العزم على عدم العودة الى المعصية . والتائبون على ثلاث درجات : التائب ، والمنيب ، والأواب .

(ج) فصل : فى الرجوع عن التوبة .

(د) فصل : فى أقوال المشايخ فى التوبة .

* * *

القسم التاسع عشر :

كشف الحجاب الخامس فى الصلاة (ص ٣٨٦ ــ ٤٠٤)

ويشتمل على باب وخمسة فصول .

موضوعه :

(أ) الصلاة فى عرف الفقهاء مجموعة من الأحكام الظاهرية ، ولكن الصوفية يربطون بين هذه الأحكام الظاهرية ومعانيها الباطنية ..

(ب) فصل فى رأى الصوفية فى الصلاة : فريق يعدون الصلاة وسيلة للحضور ، وفريق يعدونها وسيلة للغيبة . وطائفة من أرباب الأحوال يقولون انها تتم فى مقام الجمع ، وفريق يقول انها تتم فى مقام التفرقة ..

ومما يتعلق بالصلاة : المحبة .

(ج) باب المحبة :

الفصل الأول : فى أنواع المحبة .

الفصل الثانى : المحبة أساس التصوف .

الفصل الثالث : رأى المشايخ فى العشق .
الفصل الرابع : فى أقوال المشايخ فى حقيقة المحبة .

* * *

القسم العشرون :

كشف الحجاب السادس فى الزكاة (ص ٤٠٤ — ٤١٣) .

ويشتمل على فصل وباب :

موضـــوعه :

(أ) الزكاة فريضة واجبة على تمام النعمة ، ولكل شىء زكاة من جنسه: فالمال نعمة وله زكاة من جنسه ، والأشـــياء العينية نعمة ولها زكاة من جنسها ، والصحة نعمة كبيرة ، ولكل عضو من أعضاء البدن زكاة .

(ب) فصل : فى رأى شيوخ الصوفية فيمن يعطى الزكاة ومن يأخذها.

(ج) باب الجود والسخاء .

* * *

القسم الحادى والعشرون :

كشف الحجاب السابع فى الصوم (ص ٤١٣ — ٤٢٢) .

ويشتمل على باب .

(أ) الصوم عبادة سرية بين المخلوق والخالق وجزاؤها لا نهاية له . وأقل درجة فى الصوم هى الجوع .

(ب) باب الجوع .

* * *

القسم الثانى والعشرون :

كشف الحجاب الثامن فى الحج (ص ٤٢٢ — ٤٣٢)

ويشتمل على باب .

موضـــوعه :

(أ) الحج فريضة على العبد فى حال الصحة والعقل والبلوغ والاسلام وحصول الاستطاعة .

وليس الغرض من الحج مشـــاهدة الكعبة ، وانما كشف المشـــاهدة ، وعندما يكون العبد مكاشفا فان العالم كله يصبح حرما له ، وعندما يكون محجوبا يصبح الحرم بالنسبة له أظلم من أى مكان .

(ب) باب المشاهدة .

* * *

القسم الثالث والعشرون :

كشف الحجاب التاسع فى الصحبة وأدابها وأحكامها (ص ٤٣٢ — ٤٧٩)

ويشتمل على عشرة أبواب :

١ — باب الصحبة وما يتعلق بها .
٢ — باب آدابهم فى الصحبة ، ويشتمل على فصل .
٣ — باب آداب الاقامة فى الصحبة .
٤ — باب الصحبة فى السفر .
٥ — باب آدابهم فى الأكل .
٦ — باب آدابهم فى المشى .
٧ — باب آدابهم فى السفر والحضر .
٨ — باب آدابهم فى الكلام والسكوت .
٩ — باب آدابهم فى السؤال وتركه .
١٠ — باب آدابهم فى التزويج والتجريد .

* * *

القسم الرابع والعشرون :

كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود ألفاظهم وحقائق معانيهم (ص ٤٧٩ — ٥٠٨)

موضـــوعه :

لأهل كل فن ، ولأرباب كل معاملة عبارات يستعملونها بعضهم مع البعض ولا يعرف معناها سواهم ، وللصوفية أيضا ألفاظ خاصة ، منها :

الحال والوقت ، والمقام والتمكين ، والمحاضرة والمكاشفة ، والقبض والبسط ، والأنس والهيبة ، والقهـــر واللطف ، والنفى والاثبات ،

والمسامرة والمحادثة ، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، والعلم والمعرفة ، والشريعة والحقيقة ، وغير ذلك .

* * *

القسم الخامس والعشرون :

كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع (ص ٥٠٨ ــ ٥٤٦)

ويشتمل على عشرة ابواب :

١ ــ باب سماع القرآن .

٢ ــ باب سماع الشعر .

٣ ــ باب سماع الأصوات والالحان .

٤ ــ باب أحكام السماع .

٥ ــ باب اختلافهم فى السماع .

٦ ــ باب مراتبهم فى حقيقة السماع ، ويشتمل على فصل .

٧ ــ باب الوجد والتواجد .

٨ ــ باب الرقص .

٩ ــ باب الخرق .

١٠ــ باب آداب السماع .

* * *

الفصل الثالث
مصادر الكتاب

الروايات الشفوية ، الكتب والرسائل المدونة

اعتمد الهجويرى فى كتابه على مصادر متعددة ، واستقى مادته من منابع مختلفة ، منها الروايات الشفوية ، ومنها الكتب والرسائل المدونة . وقد بدأ من خلال كشف المحجوب أن الهجويرى كان على علم تام بأعمال أسلافه، وهو يعدد مصادره ويذكرها بالاسم تارة ، ويكتفى بأن يشير الى أسماء مؤلفيها تارة أخرى .

ويمكن أن نقسم مصادر كشف المحجوب الى قسمين :

أولا : الروايات الشفوية :

لا شك أن الروايات الشفوية كانت المصدر الأول الذى استمد منه الهجويرى مادة كتابه ، وقد لاحظنا أنه كثيرا مايردد فى الكتاب عبارات :

سمعت فلانا يقول كذا ... (١)

سألت فلانا عن كذا ، فقال (٢)

كنت عند فلان ، فقال واحد كذا ... (٣)

جرت لى مناظرة مع واحد ، فقال كذا ... (٤)

اتفق لى صحبة أحد الأدعياء ، فقال كذا ... (٥)

روى لى فلان عن فلان كذا ... (٦)

---

(١) « كشف المحجوب » انظر ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) السابق » انظر ص ٥٥ .
(٣) السابق » انظر ص ٢١٣ .
(٤) « السابق » انظر ص ٨ ، ١١٥
(٥) « السابق » انظر ص ٧٥ .
(٦) « السابق » انظر ص ٢٠٥ .

وقد تكونت حصيلة الهجويرى من هذه الروايات بالرحلات التى قام بها(١) ، فقد رحل كثيرا ، وزار أماكن متعددة من العالم الاسلامى ، وأمكنه عن طريق هذه الرحلات الاتصال بكثير من كبار رجال الدين والأئمة والصوفية فى عصره ، والممثلين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة ، وتجادل معهم فى المسائل التى كان يهتم بها . وجاهد فى الوقت نفسه لكى يستطلع آراءهم ويقف على مذاهبهم ، ويقدر مدى قربهم أو بعدهم عن أهل السنة ، ومدى تمسكهم بأحكام الشريعة أو مجافاتهم لها ، وبذلك حصل على معلومات قيمة ومتنوعة استخدمها فى حكاياته عمن التقى بهم ، وفى أحكامه الصادقة على آرائهم ومذاهبهم ومختلف المسائل التى أوردها فى كتابه أو تعرض لمناقشتها .

ثانيا : الكتب والرسائل المدونة :

رجع الهجويرى الى كثير من الكتب والرسائل التى كانت معروفة على عهده . ويمكن أن نقسم مصادره من هذا النوع الى ثلاث مجموعات .

المجموعة الأولى : الكتب التى رجع اليها وذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ونقل عنها فى كتابه ونص على ذلك صراحة ، وهى :

أولا : كتاب « اللمع » لأبى نصر السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ .

أشار الهجويرى الى هذا الكتاب فى باب آدابهم فى الصحبة، وذكر أنه ينقل عنه ، وأورد النص الذى نقله باللغة العربية(٢) .

غير أن اعتماد الهجويرى على اللمع لم يكن مقصورا على هذا ، فقد اعتمد عليه كثيرا ونقل عنه فى مواضع أخرى ، وان لم يصرح بهذا . والدارس لكتابى كشف المحجوب واللمع يمكنه فى سهولة ويسر أن يضع يده على المواضع التى ينقل فيها الهجويرى عن اللمع ، وقد أوردنا مثلا واحدا يبين هذه الحقيقة(٣) ، وان كان يوجد على غراره الكثير .

ثانيا : كتاب المحبة : لعمرو بن عثمان المكى المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

(١) ارجع الى تفصيل رحلات الهجويرى ص
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٤٤
(٣) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : (مظاهر التأثير والتأثر : بين اللمع وكشف المحجوب) .

وذكر الهجويرى هذا الكتاب فى باب المحبة ، ونقل عنه نصا ترجمه الى الفارسية وصرح بأنه ينقل عنه(١) .

ثالثا : كتب أبى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ

اعتمد الهجويرى على كتب ثلاثة من مؤلفات أبى عبد الرحمن السلمى ، وهى :

كتاب تاريخ أهل الصفة ، كتاب طبقات الصوفية ، كتاب السماع .

أما « **تاريخ أهل الصفة** » فقد أشار اليه فى قوله ما ترجمته :

« وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوى أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة ، وأورد فيه مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم »(٢) .

وأما « **طبقات الصوفية** » فقد ذكر الهجويرى انه حذا حذوه فى ترتيبه لتراجم الشيوخ(٣) .

وأما « **كتاب السماع** » فقد ورد ذكره فى باب السماع حيث يقول الهجويرى ماترجمته :

« وقد روى الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا ، وجمعه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى كتاب السماع ، وقطع باباحته »(٤) .

رابعا : كتاب « تاريخ المشايخ » لمحمد بن على الترمذى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

أشار الهجويرى الى هذا الكتاب فى باب لبس المرقعة ، وأورد منه خبرا عن الامام أبى حنيفة النعمان(٥) . ويبدو أن الهجويرى اعتمد على هذا الكتاب فى ترجمته للأئمة والشيوخ الأوائل .

خامسا : « الرسالة » لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ .

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٩٩ — ٤٠٠ (٥٥٢ — ...)
(٢) « السابق » ص ٩٨ — ٩٩
(٣) « السابق » ص ١٤١
(٤) « السابق » ص ٥٢٣ — ٥٢٤
(٥) « السابق » ص ٥٠

٢٤٣ صح

أشار الهجويرى الى الرسالة القشيرية اشارة غير مباشرة عند ترجمته لمعروف الكرخى ، حيث يقول ماترجمته :

« وكان من الواجب ذكره قبل هذا ، ولكنى ذكرته فى هذا الموضع موانقة لاثنين من الشيوخ : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : والأول هو الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله الذى كتابه على هذا الترتيب ، والثانى الأستاذ أبو القاسم القشيرى الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة »(١) .

وبالرغم من أن الهجويرى لم يذكر اسم الكتابين ، الا أنه من الواضح من عباراته أنه يعنى طبقات الصوفية والرسالة القشيرية .

غير أن افادة الهجويرى من الرسالة القشيرية لم تكن مقصورة على هذا ، فمن الثابت أنه ينقل عنها فى أماكن كثيرة من كتابه . ومعظم استشهاداته من الأقوال والحكايات مأخوذة عن الرسالة دون زيادة ، وان كان فى بعض الأحيان يضيف عبارة من عنده لتوضيح المعنى .

كما يتضمن كتاب كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من الرسالة القشيرية(٢) .

سادسا : « حكايات عراقيان » (حكايات العراقيين) :

وهى مجموعة من الحكايات عن شيوخ الصوفية من تصنيف بعض شيوخ العراق .

والهجويرى ينقل عن هذه المجموعة ويذكرها مرة باسم « حكايات عراقيان »(٣) ويكتفى مرة أخرى بأن يشير اليها باسم « حكايات »(٤) .

المجموعة الثانية :

وهى الكتب والرسائل التى ذكر الهجويرى أسماءها وأسماء مؤلفيها ، وصرح بأنه اطلع عليها وقراها ، ولا شك أنه أفاد منها ، وان لم يشر الى أنه ينقل عنها ، مثل :

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١
(٢) « انظر على سبيل المثال : باب المحبة فى الرسالة : ج ٢ ص ٦١٠ وما بعدها ، وطابق بينه وبين كشف المحجوب ص ٣٩٢ وما بعدها » .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٥٦ وغيرها .
(٤) « السابق » ص ٧١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ وغيرها .

١ — تصانيف الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ :

وقد أشار الهجويرى الى هذه التصانيف فى ترجمته للحلاج حيث يقول :

« وله تصانيف زاهرة ، ورموز وكلام مهذب فى الأصول والفروع . وأنا على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفا فى بغداد ونواحيها ، وبعضها فى خوزستان وفارس وخراسان »(١) .

٢ — مؤلفات أبى جعفر بن المصباح الصيدلانى :

يقول الهجويرى عنه ماترجمته :

« وكان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان طيب فى التحقيق وميل عظيم الى الحسين بن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه »(٢) .

٣ — رسائل السيارية :

وهى الرسائل المتبادلة بين أهل « نسا » وأهل « مرو » من السيارية أتباع أبى العباس السيارى ، وقد اطلع الهجويرى على بعض منها فى مدينة مرو(٣) .

المجموعة الثالثة :

كتب أشار اليها الهجويرى ، وهى نوعان :

(أ) الكتب التى ذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ، مثل :

١ — **مؤلفات الحكيم الترمذى ، وهى :**

آداب المريدين ، ختم الولاية ، كتاب النهج ، كتاب نوادر الأصول(٤) .

٢ — كتاب « مرآة الحكماء » لشاه بن شجاع الكرمانى(٥) .

٣ — كتاب « غلط الواجدين » لأبى محمد رويم(٦) .

٤ — كتاب « تصحيح الارادة » للجنيد البغدادى(٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ — ١٩١
(٢) « السابق » ص ٢١٤ — ٢١٥
(٣) « السابق » ص ٣٢٣
(٤) « السابق » ص ٤٩٣ ، ١٧٨
(٥) « السابق » ص ١٧٤
(٦) « السابق » ص ١٧٠
(٧) « السابق » ص ٤٣٩

٥ ــ كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه(١) .

٦ ــ كتاب « المرقعة » لأبى معمر الأصفهانى(٢) .

٧ ــ كتاب « الرعاية » لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى(٣) .

٨ ــ كتاب فى « اباحة السماع » لمؤلف مجهول(٤) .

(ب) التصانيف والتآليف التى اكتفى بذكر أسماء مؤلفيها ومصنفيها ، وهى :

١ ــ تصانيف يحيى بن معاذ الرازى(٥) .

٢ ــ تآليف أبى بكر الوراق(٦) .

٣ ــ آثار سهل بن عبد الله(٧) .

٤ ــ تصانيف أحمد بن خضرويه(٨) .

٥ ــ تصانيف أبى سعيد الخراز(٩) .

وبالاضافة الى هذه المصادر ، فقد استند الهجويرى الى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار الصحاح والاقوال المأثورة عن شيوخ الصوفية الأوائل .

وعلى الرغم من تعدد المصادر التى اعتمد عليها الهجويرى ، رأيناه يشكو فى موضع من كشف المحجوب ، من الظروف غير المواتية التى كان عليه أن يعكف فيها على تأليف الكتاب ، فقد كان أسيرا فى بلاد الهند ، بينما كانت كتبه فى موطنه غزنة .

ويقول زوكوفسكى انه فيما يختص بالكتب والمواد التى لم تكن فى متناول يد الهجويرى ربما كان يعنى بذلك بعض المجموعات من الأحاديث المنقولة التى جمعها شيخه الختلى فى « الروايات »(١٠) ، اذ مما لا يرقى اليه أدنى

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩
(٢) « السابق » ص ٦٢
(٣) « السابق » ص ١٤٤
(٤) « السابق » ص ٥٢٤
(٥) « السابق » ص ١٥٣
(٦) « السابق » ص ٤٣٩ ، ١٧٩
(٧) « السابق » ص ٤٣٩
(٨) « السابق » ص ١٥١
(٩) « السابق » ص ٣١١
(١٠) « السابق » ص ١١٠

شك أنه كان فى متناول يده مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسميها ، وكثيرا ما ينقل قصصا بنصها ، ويورد استشهادات يصعب على الانسان أن يحفظها عن ظهر قلب(١) .

على أننا نرى الهجويرى فى بعض الأحيان يبدأ قولا منقولا بالعربية ويكمله بالفارسية(٢) أو يورد تفسيرا أو شرحا ما بالفارسية فى ثنايا تعبيرات عربية مبعثرة . وكذلك يسرد بعض أقوال الشيوخ بالفارسية(٣) على نحو يوحى بغياب أصولها العربية ، تلك الأصول التى كان يمكن أن يورد منها استشهادات مضبوطة .

* * *

(١) (انظر « اللمع » ص ١٩٥ وقابل بينه وبين كشف المحجوب ص ٤٤٤) .
(٢) (انظر : معراج بايزيد فى اللمع ص ٤٦٤ وفى كشف المحجوب ص ٣٠٦) .
(٣) (انظر : الترجمة الفارسية لقول الحسين البصرى فى كشف المحجوب ص ٥٠ والاصل العربى فى « التعرف » ص ٢٣ ، حكاية الرسالة المتبادلة بين يحيى بن معاذ وأبى يزيد فى كشف المحجوب ص ٢٢٣ والاصل العربى فى الرسالة ج ٢ ص ٦٢٠) .

الفصل الرابع
مكانة الكتاب بين كتب التصوف

(كتب التصوف قبل كشف المحجوب ، والكتب المؤلفة بعده

يحتل كتاب كشف المحجوب مكانة مرموقة فى تاريخ التصوف الاسلامى ، فهو يمثل واسطة العقد بالنسبة لأمهات الكتب العربية فى التصوف ، والكتب الفارسية فى هذا الموضوع ..

وكشف المحجوب يعتبر باكورة المؤلفات الفارسية فى التصوف ، ولم تسبقه كتب فى موضوعه ، باستثناء الترجمة الفارسية لكتاب : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، وهى الترجمة التى قام بها « المستملى البخارى (٤٣٤ هـ) للأصل العربى لكتاب التعرف للكلاباذى « ٣٨٠ هـ »(١) ، وكل ما سبقه كان من الكتب العربية التى كانت ولا تزال تعتبرمن أهم المراجعفى التصوف الاسلامى ، مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وواضح من كتاب كشف المحجوب أن مؤلفه اعتمد على عدد غير قليل من الكتب العربية : ومن أهمها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة »، فقد رجع الى هذه الكتب واهتدى بمناهجها ، ونقل عنها كثيرا من مواد كتابه ، وصار هو أيضا مرجعا لمن جاء بعده ، ذلك أن مؤلفو الصوفية من الفرس الذين جاءوا بعد الهجويرى أفادوا من كشف المحجوب واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا فى مؤلفاتهم ، مثل : « تذكرة لأولياء » و « نفحات الأنس » و « سفينة الأولياء » و « طرائق الحقائق » و « تاريخ تصوف در اسلام » وغيرها .

ويجدر بنا قبل أن نقيم كتاب كشف المحجوب ، أن نعرف بالكتب التى سبقته وأفاد منها ، والكتب التى ألفت بعده وأفادت بدورها منه ..

---

(١) « كشف المحجوب » انظر مقدمة المصحح ص ١٩

كتب التصوف قبل كشف المحجوب :

ذكرنا أن الكتب الصوفية التى سبقت كشف المحجوب كانت كلها باللغة العربية ، مثل : اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة . وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك كتب أخرى ، فمن الواضح أنه كانت هناك محاولات كثيرة سابقة على هذه الكتب ولكنها لم تصل الينا ، وهى اما أن تكون فى عداد ما ضاع من التراث الاسلامى ، واما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ولم يقدر لها بعد من ينشرها أو يتوفر على دراستها .

ويؤيد هذا القول ما نقرأه فى الكتب التى تحت أيدينا من أسماء لكتب ورسائل ليس لنا من العلم بها الا معرفة أسمائها أو أسماء مؤلفيها . وان نظرة واحدة فى أبواب ثلاثة من كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » الكلاباذى ، وهى الأبواب : الثانى والثالث والرابع(١) ، لدليل مادى على صحة هذا القول ، قد ذكر المؤلف فى هذه الأبواب أسماء من تعرضوا للتصوف وعلومه ، سواء عن طريق الكلمة المنطوقة أو المكتوبة . ويؤكد ذلك أيضا ما ورد فى كشف المحجوب من اشارات الى الكتب التى رجع اليها الهجويرى أو قرأها ، والتى رآها رأى العين(٢) .

وقد كانت هناك مدرستان صوفيتان عبرتا عن التصوف ، وبينتا أسسه وقواعده وآدابه ومعاملاته :

أما المدرسة الأولى : فهى مدرسة أبى القاسم الجنيد (٢٠٧ هـ) ببغداد : وقد اعتمدت هذه المدرسة على الكلمة المنطوقة واتخذت من المساجد منابر لدعوتها ..

وأما المدرسة الثانية : فهى مدرسة أبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) فى نيسابور : واعتمدت على الكلمة المكتوبة ، واتخذت من الكتب ميدانا لبيان دعوتها ، وشرح رسالتها ، ونشر علومها وأذواقها . كما حفظت لنا أيضا تراث المدرسة الأولى .

ونعرف الآن ببعض الكتب العربية التى لها ارتباط وثيق بكشف المحجوب والتى تعد من أهم المراجع التى اعتمد عليها مؤلفه .

---

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » أبو بكر محمد الكلاباذى : القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠ (انظر : ص : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢) .
(٢) انظر : الفصل الثالث من هذا الباب .

أولا : « اللمع »(١) :

مؤلف اللمع هو : « أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى » المتوفى فى رجب عام ٣٧٨هـ(٢) ، والملقب بطاووس الفقراء(٣) ، كان مريدا لأبى محمد المرتعش ، ورأى : « سرى السقطى » و « سهل التسترى »(٤) .

والسراج تجول فى أنحاء العالم الاسلامى ، واجتمع بأعلام التصوف فى عصره . ويروى عنه الهجويرى أنه لما بلغ بغداد ، كان ذلك فى شهر رمضان ، فأفردوا له خلوة فى مسجد « الشونيزيه » ، وأعطى رئاسة الدراويش ، فأمهم حتى يوم العيد ، وكان يختم القرآن فى صلاة التراويح خمس مرات . وكان الخادم يضع فى غرفته رغيفا كل ليلة ، وفى يوم العيد — وكان رضى الله عنه قد رحل — نظر الخادم فوجد الثلاثين رغيفا فى مكانها(٥) .

و « اللمع » يعد من أكبر المراجع وأوثقها وأغزرها مادة فى التصوف ، وهو بمثابة الكتاب الأم فى اللغة العربية ، منه اقتبس جميع من ألفوا فى التصوف ، واهتدوا بأبوابه ومنهجه ..

وممن أفادوا من هذا الكتاب الهجويرى ، فكتابه كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء فى المنهج العام ، أو المواد التى تناولها ، مما يوضح أن بعض تفاصيل كشف المحجوب مستمدة من اللمع ..

وقد استهدف **السراج** فى كتابه غاية قصد اليها ، وهى رسم المبادىء الصوفية التى تعبر عن روح القرآن وجوهر السنة ، وبيان الأخطار التى وقع فيها السالكون للطريق اما عن سوء نية أو عن حسن قصد ..

يقول : « قد استخرت الله تعالى ، وجمعت أبوابا فى معنى ما ذهب اليه أهل التصوف وتكلم مشايخهم المتقدمون ، فى معانى علومهم وعمدة أصولهم وأساس مذهبهم ، وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم ، وما انفردوا به من الاشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة ، والألفاظ المشكلة الصحيحة على أصولهم ، وحقائق مواجيدهم وفصولهم »(٦)

---

(١) يسمى الجامى هذا الكتاب : « لمعة » انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .
(٢) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٩١ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ ، « أسرار التوحيد » ص ٢٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٨٢ .
(٤) « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ .
(٦) « اللمع » ص ١٨ .

وقد قسم السراج كتابه الى قسمين :

القسم الأول : عدد من الأبواب القصيرة تحدث فيها عن علم التصوف ومذهب الصوفية ومنزلتهم ، وطبقات أهل الحديث والفقهاء وما ترسموا به من أنواع العلوم ، والكشف عن اسم الصوفية وصفتهم ، والتوحيد والموحد والعارف ، والفرق بين المؤمن والعـــارف ..

والقسم الثانى : مجموعة من الأقسام أطلق على كل قسم اسم « كتاب » ويشتمل كل كتاب منها على عدد من الأبواب القصيرة . وهذه الكتب هى :

كتاب الأحوال والمقامات .
كتاب أهل الصفوة فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل .
كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .
كتاب المستنبطات .
كتاب الصحابة .
كتاب آداب المتصوفة .
كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل .
كتاب السماع .
كتاب الوجـــد .
كتاب اثبات الكرامات .
كتاب البيان عن المشكلات .
كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التى ظاهرها مستبشـــع وباطنهـــا صحيح مستقيم .

ومما لا شك فيه أن كتاب اللمع كتاب قيم ، واف ، متكامل الموضوع ، سليم المنهج الا ن شخصية المؤلف تبدو فيه باهتة ، فهو يعتمد ، فى معالجته للمواد التى يقدمها ، على أقوال من سبقه من الشيوخ والزعماء الأوائل للصوفية . وقلما يدلى برأيه الخـــاص فى الموضوع الذى يتناوله ..

ويلاحظ على الكتاب أيضا أنه تعبير عن التصوف من وجهة نظر أهل السنة ، فالسراج يحيل كل أصل من الأصول التى يتعرض لها فى كتابه الى القرآن والسنة ويدعمه بالآيات القرآنية والأحـــاديث ، ولذلك فان تحليله لمـــادة الموضوع يفتقر الى العنصر الفكرى ، والنظرة الفلسفية ..

ثانيا : « طبقات الصوفية » :

كتاب طبقات الصـــوفية يذكر على أنه من مؤلفات أوائل القرن الخامس الهجرى ، ولكن يبدو أنه مؤلف فى أواخر القرن الرابع الهجرى(١) ..

ومؤلف طبقات الصوفية هو : « محمد بن الحسين بن موسى بن خالد ابن سالم بن راوية بن سعد بن قبيصة بن سراقة »(٢) العربى الأصل ، المعروف بأبى عبد الرحمن السلمى ، والمتوفى سنة ٤١٢ هـ(٣) .

وقد اشتهر أبو عبد الرحمن بنسبه الى السلميين ، وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد لأبى عمرو بن نجيد السلمى (٣٦٦ هـ) .

وأبو عبد الرحمن تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقطنى ، وأبو نصر السراج الطوسى(٤) . وكان السلمى مريدا لأبى القاسم النصرابادى وتسلم منه الخرقـــة(٥) ..

وعلى السلمى تتلمذ عدد كبير من الصوفية المعروفين ، من بينهم الصوفى الفارسى المعروف « أبو سعيد بن أبى الخير » الذى نال على يديه الخرقة الأولى(٦) . ومنهم أيضا أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة .

وللسلمى مؤلفات كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، ولكن الذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف ، وهو الكتاب الذى نتحدث عنه ..

والسلمى لم يكن أول من ألف فى الطبقات ، فقد سبقه الى ذلك غيره واعتمد هو على تأليفهم ، وان كانت الأصول التى اعتمد عليها قد ضاعت كلها ، ولم يصل الى أيدينا سوى كتابه(٧) : طبقات الصوفية .

---

(١) « جاء فى ترجمة أبى العباس القصاب فى نفحات الانس أنهم قالوا لأبى العبـــاس ان السلمى ألف كتابا فى الطبقات . فسألهم : هل ذكر فيه اسمى ؟ فقالوا : لا فقال : لم يفعل شيئا (انظـــر : نفحات ص ٢٦٦) وطبقا لاسرار التوحيـــد فان أبا العباس القصاب توفى حوالى سنة ٣٩٧ هـ (انظر : أسرار التوحيد ص ٣٦) وعلى هذا يكون الطبقات قد ألف فى أواخر القرن الرابع » .
(٢) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٦ .
(٣) « المنتظم » جـ ٨ ص ٦ .
(٤) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٩ .
(٥) « نفحات الانس » ص ٣١١ .
(٦) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٥٠
(٧) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ٥٠ .

وكما أفاد السلمى من كتب السابقين عليه ، فقد أفاد من كتابه من ألفوا بعده فى الطبقات سواء منهم من كتب بالعربية(١) أو بالفارسية . ومن هؤلاء الهجويرى ، فقد صرح فى كشف المحجوب بأنه حذا حذو السلمى فى ترتيبه للشيوخ الذين ترجم لهم(٢) .

وكتاب طبقات الصوفية هو الأصل لكتاب « نفحات الأنس » للجامى ، فقد ترجم الشيخ عبد الله الأنصارى الهروى (٤٨١ هـ) طبقات الصوفية الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة ، وزاد عليه ما أملاه فى مجالس الصحبة ومجامع الوعظ والتذكير ، وأقوالا أخرى لبعض الشيوخ الذين لم يرد ذكرهم فى الكتاب ، وبعض أذواقه ومواجيده التى جمعها وكتبها واحد من مريديه(٣) . ثم جاء « جامى » فنقل هذه الترجمة من اللهجة الهروية بعبارة بسيطة متعارف عليها بين أهل عصره ، وأضاف الى ذلك ذكر عبد الله الأنصارى ومعاصريه والمتأخرين عنه(٤) . وأطلق على هذه المجموعة اسم : « نفحات الأنس » .

ويشتمل كتاب طبقات الصوفية على تراجم لخمس طبقات من الشيوخ ، كل طبقة تتكون من عشرين فردا .

و « طبقات الصوفية » ليس أول كتاب للسلمى فى التراجم فقد ذكر أنه ترجم قبله للصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، فى كتاب له اسمه كتاب : « الزهد »(٥) .

وكتاب طبقات الصوفية مطبوع فى القاهرة ، فقد حققه ونشره « نورالدين شريبه » سنة ١٩٥٣ م ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها ..

ثالثا : « الرسالة » :

« الرسالة من مؤلفات القرن الخامس الهجرى . ومؤلفها : « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى »(٦) ، ولد فى بلدة « استو » ، وكان

---

(١) أفاد من الطبقات : « القشيرى » فى الرسالة ، « الاصفهانى » فى الحلية ، « البغدادى » فى تاريخ بغداد ، « الشعرانى » فى لواقح الانوار (انظر : مقدمة الطبقات ص ٥١) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٣) « نفحات الانس » ص ١ .
(٤) « السابق » ص ٢ .
(٥) « طبقات الصوفية » ص ٣ .
(٦) « فى كشف المحجوب » عبد الكريم أبو القاسم انظر : ص ٢٠٩ .

سكانها من العرب الذين قدموا خراسان ، فهو عربى من قبيلة قشير بن كعب(١) ..

وكان القشيرى تلميذا لأبى على الدقاق (٤٠٥ هـ) فى نيسابور . وزوجا لابنته(٢) . وتتلمذ أيضا على أبى عبد الرحمن السلمى «٤١٢هـ» ، وعاصر تلميذا من تلاميذ السلمى المشهورين هو « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد التقى كل منهما بالآخر فى نيسابور ، وتلازما فترة طويلة ، وكان أبو سعيد يعقد مجلسا فى زاوية القشيرى مرة كل أسبوع(٣) .

وقد عاصر الهجويرى القشيرى وترجم له فى كشف المحجوب ووصفه بأنه كان رفيع القدر فى زمانه ، عظيم المنزلة ، وله تصانيف نفيسة محققة(٤) .

والقشيرى كان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، فكان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى ، والفروع على مذهب الشافعى ، وانتهى به الامر الى أن صار أمام نيسابور الشهيرة(٥) .

وتوفى القشيرى فى نيسابور سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بها الى جوار شيخه أبى على الدقاق .

وللقشيرى مؤلفات كثيرة الا أن أشهرها رسالته هذه المعروفة بالرسالة القشيرية ، والتى كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام سنة سبع وثلاثين وأربعمائة(٦) ، وبين فيها جانبين :

الأول : سيرة رجال الصوفية وبعض أقوالهم .

والثانى : مبادىء السلوك ومناهجه .

يقول :

« وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم

---

(١) « الرسالة » (انظر مقدمة الناشر ص ١٣) .
(٢) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .
(٣) « السابق » ص ١٠٦ .
(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٥) « السابق » (انظر : مقدمة زوكوفسكى) .
(٦) « الرسالة » ج ١ ص ١٨ .

ومعاملاتهم . وعقائدهم بقلوبهم ،.وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم »(١) .

وقد أفاد القشيرى من كتابى « اللمع » و « طبقات الصوفية » وجمع فى رسالته بين موضوعيهما ، وتعد الرسالة من المراجع العربية المهمة فى التصـــوف . وهى تعتبر قيمة جدا كمجموعة من الأمثلة والحـــكايات والتعريفات ، ولكنها تتبع طريقة شكلية(٢) ، فالمؤلف لا يكاد يظهر رأيه فيها الا فى القليل النادر ع وتلك ظاهرة تتسم بها مدرسة نيسابور التى تنتمى اليها الكتب الثلاثة : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة .

والرسالة ترجمت الى الفارسية مرتين :

المرة الأولى : ترجمها فى زمن قريب من وفاة مؤلفها ، واحد من تلاميذه يدعى : « خواجه امام أبو على بن أحمـــد العثمانى ، وهى ترجمة سقيمة اذا قورنت بالأصل ، وفيها كثير من الأخطاء ، كما أن المترجم حذف منها أشياء كثيرة ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة فى مكتبة : « أيا صوفية » تحت رقم ٢٠٧٧ ، ونسخة أخرى فى المتحف البريطانى(٣) ..

والمرة الثانية : نظرا للأخطاء المشار اليها فى الترجمة الأولى ، فقد كانت الحاجة تستدعى اصلاح هذه الترجمة ، وتم هذا العمل على يد « أبى الفتوح عبد الرحمن بن محمد النيسابورى » بمدينة كرمان بعد عام ٥٥٠ هـ ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة المصححة فى مكتبة : « لالا اسماعيل » تحت رقم ١٢٠(٤) ..

وقد طبعت الرسالة فى القاهرة عدة مرات ، كان آخرها الطبعة المحققة والمفهرسة التى قام بها « عبد الحليم محمود » و « محمود بن الشريف »

---

(١) « الرسالة » ص ٢٢ .
(٢) « نيكولسون » (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .
(٣) « تاريخ أدبيات » صفا ج ٢ ص ٨٨٩ .
(٤) « جاء فى مقدمة هذه النسخة أن القشيرى كان يريد أن يعيد كتابة الرسالةبالفارسية ولكنه لم يفعل ، وقام بهذا العمل تلميذه أبو على العثمانى ، ولكن هذه الترجمة سقيمة ولذا قام باصلاحها أبو الفتوح النيسابورى تلبية لطلب شيخ الشيوخ أحمد ابن ابراهيم باريا » .
(انظر : صفا ج ٢ ص ٨٨٩) .

ونشرت فى القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م وتقع فى جزئين . وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

كتب التصوف بعد كشف المحجوب :

بالنسبة للكتب الصوفية المؤلفة بعد كشف المحجوب ، سنقصر حديثنا على الكتب الفارسية القريبة الى عهده ، والكتب التى تأثرت به ونقلت عنه ، مثل أسرار التوحيد وتذكرة الأولياء ونفحات الانس .

ويجدر بنا فى هذا الموضع أن نشير الى أنه توجد عشرات المؤلفات الصوفية المنظومة بعد كشـــف المحجوب ، مثل منظومات : « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى » وغيرهم ، الا أنه من العسير أن نقارن بين هذه المنظومات وبين كشف المحجوب لاختلاف وسيلتى التعبير ، من ناحية ، ولان للشعراء منهجهم الخاص فى تناول المسائل الصوفية .

ونعرف الآن بهذه الكتب .

أولا : كتاب « أسرار التوحيد » .

أسرار التوحيد هو أقرب الكتب الصوفية عهدا الى كشف المحجوب ، فهو من مؤلفات القرن السادس الهجرى . ومؤلفه واحد من أحفاد الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير يدعى : محمد بن المنور بن أبى سعيد بن ابى طاهر ابن أبى سعيد بن أبى الخير(١) .

وتاريخ تأليف أسرار التوحيد مختلف فيه ، الا أنه من المرجح أنه مؤلف حوالى سنة ٥٧٤ هـ(٢) .

وأسرار التوحيد مقسم الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول: فى بداية حياة الشيخ أبىسعيد ، ويشتمل على ذكر أحواله فى طفولته وشبابه ، والعلوم التى حصلها ، والرياضـــات التى قام بها ، وتفاصيل حياته حتى بلوغه سن الأربعين .

---

(١) « أسرار التوحيد » (انظر مقدمة ذبيح الله صفا) .
« ديوان أبو سعيد أبو الخير » .
(٢) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » ص ١ ، « أسرار التوحيد » الترجمة العـربية : انظر : مقدمة المترجم ص ٥ — ٦ .

الباب الثانى : فى أواسط حياة الشيخ أبى سعيد ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ .

الفصل الثانى : فى الحكايات المتضمنة للفوائد ، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والأقوال .

الفصل الثالث : فى بعض فوائد انفاس الشيخ ، وبعض الرسائل والأشعار التى جرت على لسانه .

الباب الثالث : فى انتهاء حياة الشيخ ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى وصاياه عند وفاته .

الفصل الثانى : فى وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : فى كراماته التى جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار اليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة .

و « أسرار التوحيد » أول كتاب مفصل ألف فى شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار ، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية لمؤلف قائم بذاته،موضوعه حياة واحد من الصوفية . وقد أعطيت فى الكتاب صورة لأبى سعيد وسط دائرة الصوفية والدراويش الذين عاش معهم فى تفاصيل واسعة ، ولذا يعد أسرار التوحيد من أوضح الكتب التى صورت لنا حياة الدراويش فى القرن الخامس الهجرى .

ويشتمل أسرار التوحيد على معلومات قيمة عن الرسوم والعادات والتقاليد الصوفية ، الى جانب كثير من المفاهيم الحقيقية لبعض مصطلحات تلك الفئة ، كما أنه يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته ، والشروط التى ينبغى توفرها فى الشيخ والمريد(١) . وطريقة تأديب الشيخ لمريديه ، ونوع العلاقة بينهما ، ونظام الحياة فى الخانقاهات(٢) .

---

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : ص ٣٦٠ — ٣٦١ .
(٢) « السابق » انظر ص ٣٦١ — ٣٦٣ .

وكتاب أسرار التوحيد طبع أكثر من مرة ، ومن بين طبعاته الطبعة التى نشرها ذبيح الله صفا فى طهران عام ١٣٣٢ هـ. ش. ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها .

وقد ترجمت أسرار التوحيد الى العربية ونشرت الترجمة فى القاهرة عام ١٩٦٦ م .

ثانيا : « تذكرة الاولياء » :

مؤلف هذا الكتاب هو « أبو طالب » محمد بن أبى بكر ابراهيم الملقب بفريد الدين ، والمعروف بالعطار : من رجال القرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع ، والمتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

والعطار واحد من ثلاثة من كبار الشعراء الصوفية فى ايران وهم : السنائى والعطار وجلال الدين الرومى .

وكان العطار يشتغل بالطب ويملك صيدلية يطب فيها الناس ، ويعمل فى الوقت نفسه فى تأليف الكتب ونظم الأشعار . وله مؤلفات كثيرة ، ذكر بعضهم أن عددها مساو لعدد سور القرآن(١) ، وان كان المعروف منها يقرب من ثلاثين مؤلفا ، كلها منظومة باستثناء تذكرة الأولياء .

وتذكرة الأولياء ، كما يدل عليه اسمه : كتاب فى تراجم الأولياء والصوفية وشيوخ الطريقة . ومعظم نسخه تشتمل على اثنتين وسبعين ترجمة(٢) ، وان كان هناك من يرفع هذا الرقم الى سبع وتسعين(٣) .

ويعتبر كتاب تذكرة الأولياء أقدم مؤلف فى التراجم باللغة الفارسية ؛ فبالرغم من وجود عدد كبير من الكتب العربية المؤلفة فى هذا الموضوع ، مثل : طبقات الصوفية ، وحلية الأولياء ، ومناقب الأبرار ، وصفوة الصفوة ، الا أنه لم تكن هناك مؤلفاتمن هذا النوعقبل تذكرة الأولياء ، باستثناء الجزء الخاص بالتراجم فى كشف المحجوب ، والترجمة الفارسية لطبقات الصوفية .

---

(١) « تذكرة الاولياء » ج ١ (انظر مقدمة القزوينى ص أ) .
(٢) « السابق » (انظر مقدمة نيكولسون ص ٧) .
(٣) « فريد الدين وكتابه منطق الغير » أحمد ناجى القيسى ص ٢٨٥ .

وقد اعتمد العطار فى تذكرة الأوليـــاء على كثير من الأصـــول العربية السابقة عليه ، وصرح هو نفسه بأنها تمثل الجزء الأكبر من المؤلف الذى عمله ، وان كان لايذكر أسماء هذه الكتب فى المواضع التى ينقل فيها عنها.

وأفاد العطار أيضا من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد ، فهو ينقل عنهما كثيرا دون أن يشير اليهما(١) .

وتذكرة الأولياء طبع فى الهند ، وطبعه المستشرق الانجليزى نيكولسون فى ليدن ســـنة ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٥ م ، فى مجلدين ، وهى الطبعـــة التى اعتمدنا عليها .

ثالثا : نفحات الأنس :

كتاب نفحات **الانس** مؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، فقد ذكر مؤلفه انه أتمه سنة ٨٨٣هـ(٢) . ومؤلف هذا الكتاب هو: « نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين أحمد بن محمـــد **الجشتي** » : كان من الأدباء والشـــعراء والعلماء والصوفية ، وزعيما لطائفة النقشبندية ، فهو مريد الشيخ سعد الدين الكاشغرى تلميذ الشيخ بهاء الدين النقشبندى(٣) . وتنتهى سلسلة شيوخ الجامى الى «خواجه» عبيدالله أحرار منكبار شيوخ النقشبندية .

وللجامى انتاج ضخم من الشعر والنثر ، ومؤلفاته تبلغ أربعة وأربعين مؤلفـــا ، بعـــدد لفظ « جـــام »(٤) . وقـــد ألف جامى باللغتين العـــربية والفارسية(٥) .

ويعتبر نفحات الانس أهم مؤلفات الجامى ، بل أن دارا شـــكوه يعده بمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات(٦) .

ونفحات الأنس : كما يبدو من مقدمة مؤلفه ، يعتمد أساسا على طبقات الصوفية للسلمى المؤلف باللغة العربية ، والذى نقله شيخ الاسلام عبدالله

---

(١) « سبك شناس » ج ٢ ص ٢٠٩ وما بعدها . (انظر المقارنة التى عقدها « بهار » بين تذكرة الاولياء وكل من أسرار التوحيد وكشف المحجوب) .
(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .
(٣) « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ١٥٨ .
(٤) « سفينة الاولياء » ص ٨٣ .
(٥) بلغ عدد مؤلفات الجامى الموجودة بدار الكتب المصرية ٤٥ كتابا ورسالة فارسية، وسبع كتب عربية (انظـــر فهرست مؤلفات نـــور الدين عبد الرحمن الجامى : اعداد نصر الله الطرازى) .
(٦) « سفينة الاولياء » ص ٨٣ .

الأنصارى الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة . وقد راودت الجامى فكرة نقل هذا الكتاب ، من اللهجة الهروية الى الفارسية البسيطة المتعارف عليها فى عصره ، عدة مرات ، الا أن بعض الموانع كانت تعوقه عن اتمام هذه الرغبة . وفى سنة ٨٨١ هـ طلب منه الأمير « عليشير » القيام بهذا العمل(١) ، فشرع فيه وأتمه سنة ٨٨٣ هـ(٢) .

ويشتمل نفحات الانس على مقدمة قصيرة للمؤلف ، وتســـع مقولات فى الأصول الصوفية ، وتراجم لشيوخ الصوفية تتجاوز الستمائة ترجمة..

ومع ما يحتله كتاب نفحات الانس من مكانة كبيرة بين كتب التصوف الفارسية ، الا أن مؤلفه اعتمد على مجهودات غيره . فبالاضافة الى ترجمة الأنصارى لطبقات الصوفية ، نقل الجامى عن كشـــف المحجوب وأسرار التوحيد جزءا كبيرا من مادته،ويبدو ذلك جليا فى تراجم معاصرى الهجويرى وأبى سعيد بن أبى الخير . وقد صرح الجامى نفسه فى مقدمة النفحات أنه أحيا فى كتابه معلومات السابقين ..

فهو يقول ماترجمته : « وانى آمل من مكارم أخلاق القراء عندما تطيب أوقاتهم بين الأنفاس الطيبة لأولياء الله ، وفيض أرواحهم المقدسة ، أن لا ينسوا باعث هذه المجموعة ومؤلفها ، وان يدعو له بالخير(٣) .

وكتاب « نفحات الأنس » طبع فى الهند على الحجر عدة مرات ، وتم طبعه حديثا لأول مرة فى طهران عام ١٣٣٦ هـ ش . وهى الطبعة التى قام بها « مهدى توحيدى بور » وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

---

(١) « نفحات الانس » ص ٤ .
(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .
(٣) « السابق » ص ٥ .

الفصل الخامس

مظاهر التأثير والتأثر

اولا : بين اللمع وكشف المحجوب :

ذكرنا من قبل أن كشف المحجوب واللمع متشابهان فى الخطة العامة ، مما يدل على أن بعض تفاصيل الكتاب الأول مستمدة من الثانى .

ومن الغريب انه على الرغم من تصريح الهجويرى فى موضع من كتابه بأنه ينقل عن السراج ، وذكره لاسمه واسم كتابه ، واستشهاده برأيه ، ونقله لنص عبارته(١) ، وايراده أيضا حكاية عن السراج فى كشف المحجوب(٢) الا أنه اغفله تماما فى الجزء الخاص بالتراجم ، فلا توجد للسراج ترجمة ضمن تراجم الشيوخ التى أوردها الهجويرى فى كتابه ، فى الوقت الذى أفرد فيه كل من « العطار »(٣) و « الجامى »(٤) مكانا للسراج فى كتابيهما ، وان كان ما ذكراه عنه لا يتعدى تلك الاشارات الواردة فى كشف المحجوب .

ويبدو من الدراسة الواسعة لكتابى اللمع وكشف المحجوب أن الهجويرى اعتمد على اللمع اعتمادا واضحا ، ونقل عن السراج كثيرا من مواده ، وان كان لا يصرح بأنه ينقل عنه .

ونضرب لذلك مثلا موضوع السماع ، فقد أفرد له كل منهما جزءا كبيرا من كتابه ، وأطلق السراج على هذا الجـزء اسم : « كتاب السماع »(٥) ، وسماه الهجويرى : « كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع »(٦) .

ويبدو من الجدول التالى التشابه الكبير فى المـادة التى وردت فى الكتابين ، مما يوضح أن الهجويرى نقل عن السراج .

---

(١) كشف المحجوب : أنظر ص ٤٤٤ .
(٢) « السابق » أنظر ص ٤١٧ .
(٣) « تذكرة الاولياء » جـ ٢ ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٤) « نفحات الانس » أنظر ص ٢٨٣ .
(٥) « اللمع » أنظر ص ٣٣٨ وما بعدها .
(٦) « كشف المحجوب » أنظر ص ٥٠٨ وما بعدها .

أولا — من حيث التقسيم :

قسم السراج « كتاب السماع » الى الأبواب التالية :

١ — باب فى حسن الصوت والسماع وتفاوت المستمعين

٢ — باب فى السماع واختلاف أقاويلهم فى معناه .

٣ — باب فى وصف سماع العامة

٤ — باب فى وصف سماع الخاصة

٥ — باب فى ذكر طبقات المستمعين

٦ — باب فى ذكر من اختار سماع القصائد والأبيات من الشعر

٧ — باب فى وصف سماع المريدين والمبتدئين .

٨ — باب فى وصف المشايخ فى السماع

٩ — باب فى وصف خواص الخواص فى السماع .

١٠ — باب فى سماع الذكر والمواعظ والحكمة .

١١ — باب فيمن كره السماع والذى كره الحضور فى المواضع التى يقرءون فيها القرآن بالألحان ويقولون القصائد ويتواجدون ويرقصون .

وقسم الهجويرى « كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع » الى الأبواب التالية :

١ — باب سماع القرآن .

٢ — باب سماع الشعر .

٣ — باب سماع الأصوات والألحان .

٤ — باب أحكام السماع .

٥ — باب اختلافهم فى السماع .

٦ — باب مراتبهم فى حقيقة السماع

٧ — باب الوجد والتواجد .

٨ — باب الرقص .

٩ — باب الخرق .

١٠ — باب آداب السماع .

ثانيا : من حيث الآراء والعبارات وأقوال المشايخ والقصص والاستشهادات :

١ — يبدو تأثر الهجويرى بالسراج ونقله عنه فيما يلى :

« اللمع »

ص ٣٥٢ : واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقول النبى صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضى الله عنه : اقرأ ، فقال : أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال : أنا أحب أن أسمع من غيرى .
وقوله عليه السلام : شيبتنى سورة هود وأخواتها .

ص ٣٥٣ وأن النبى صلى الله عليه وسلم مر على عصابة من أهل الصفة يستر بعضهم بعضا من العرى وقارىء يقرأ لهم .

ص ٣٤٢ :

قال الشيخ رحمه الله : بلغنى أنه سئل ذو النون ، رحمه الله ، عن السماع ، فقال : وارد حق يزعج القلوب الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بنفس تزندق .

« كشف المحجوب »

ص ٥٢٠ : قوله عليه السلام : « زينوا أصواتكم بالقرآن .

ص ٥١٥ : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود اقرأ : فقال أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحب أن أسمع من غيرى .. ونيز كفت بيغمبر عم شيبتنى سورة هود . روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وان بعضهم يستر بعضا من العرى وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا فلما رآه القارىء سكت . قال : فسلم ، وقال : ماذا كنتم تصنعون .. الخ .

ص ٥٢٧ :

ذو النون كويد رح: السماع وارد الحق ، مزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفس تزندق . سماع وارد حقست كى دلها بدو بر انكيزد وبر طلب وى حريص كند . هركه آنرا بحق شنود بحق راه يابد ، وهركه بنفس شنود اندر زندقة افتد .

وسئل الشبلى رحمه الله ، كما بلغنى ، عن السماع فقال : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية .

ص ٣٤٣ :

وسمعت الحصرى ، رحمه الله ، يقول فى بعض كلامه : ايش أعمل بالسماع ؟ ينقطع اذا انقطع من يسمع منه ، ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع .

ص ٣٤٠ :

ومن اللطيفة التى جعل الله فى الأصوات الطيبة أن الطفل فى المهد يبكى لوجود ألم ، فيسمع الصوت الطيب فيسكت وينام .

ص ٣٥٨ :

سمعت الدقى يقول : سمعت الدراج يقول : كنت أنا وابن الفوطى مارين على الدجلة بين البصرة والأبله واذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

ص ٥٢٨ :

وشبلى كويد رض : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية ، ظاهر سماع فتنه است وباطنش عبرتست آنكه أهل اشارتست مراورا سماع عبرت حلال باشد والا آن ديكر طلب فتنه است وتعلق ببلا .

ص ٥٢٩ :

وحصرى كويد رح : ايش اعمل بالسماع ينقطع اذا انقطع من نسمع منه . ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع . جكنم سماع راكى جون قارى خاموش شود آن منقطع شود . بايد كه سماع بسماع متصل باشد بيوسته كه هركز بريده نكردد .

ص ٥٢٣ :

واندر كودكان خرد اين حكم ظاهرست كى جون بكريند اندر كاهواره كسى نوائى بزند خاموش شوند ومر آنرا بشنوند .

ص ٥٣٣ :

دقى روايت كند ازدراج كه أوكفت : من با ابن الفوطى بر لب دجله ميرفتيم ، ميان بصره وابله بكوشكى فرا رسيديم ، نيك مردى بر آن در نشسته بود وكينزكى بدان در نشسته كه ويرامى غنا كرد وميكفت :

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل
فى سبيل الله ود
كان منى لك يبذل

قال : واذا شاب تحت المنظر بيده ركوة وعليه مرقعة يتسمع ، فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك الا أعدت على هذا البيت . قال : فأقبلت الجارية عليه وهى تقول :

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وكان الشاب يقول : هذا والله تلونى مع الحق فى حالى ، قال فشهق شهقة وحمد ، فتأملناه فاذا هو ميت ، قال : فقلنا : قد استقبلنا فرض ، نوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى ، قال ثم خرج أهل البصرة وصلوا عليه ، فلما فرغوا من دفنه قام صاحب القصر وقال : أليس تعرفونى ؟ أنا فلان ابن فلان أشهدكم أن كل شىء لى فى سبيل الله تعالى ، وكل جوارى أحرار ، وهذا القصر للسبيل ، قال : ثم رمى بثيابه واتزر بازار ، وارتدى بالآخر ، ومر على وجهه والناس ينظرون اليه حتى غاب عن أعينهم وهم يبكون ، فما رآه أحد بعد ذلك ولا سمع له خبر .

ص ٣٥٨ :

قال الشيخ رحمه الله : سمعت أبا عمرو وعبد الواحد بن علوان بالرحبة ، رحبة مالك بن طوق ، قال : كان شاب يصحب الجنيد رحمه الله فكان اذا سمع شيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى ،

فى سبيل الله ود
كان منى لك يبذل
كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وجوانى را ديدم اندر زير ديوار كوشك ايستاده بامرقعه وركوه ، كفت : اى كنيزك بخداى تو برتوكه اين بيت بازكوى كى از زندكانى من يك نفس بيش نمانده است تا بارى جان باستماع اين بيت برآيد . كنيزك ديكرباره بازكفت ، آن جوان نعره بزد ، جان ازوى جدا شد ، خداوند كوشك مر كنيزك راكفت كى تو آزادى وخود فرود آمد وبجهاز وى مشغول شد ، وهمه أهل بصره بروى نماز كردند . بس آن مرد بر باى خاست وكفت : يا أهل بصره من كه فلان بن فلانم همه املاك خود سبيل كردم ومماليك آزاد كردم . هم از آنجا برفت وكسى خبر آن مرد نيافت .

ص ٥٣٢ :

معروفست كه جنيد را مريدى بوده است كى اندر سماع اضطراب بسيار كردى ، ودرويشان بدان مشغول شدندى ، بيش شيخ رض شكايت كردند ، ويراكفت : بعد ازين اكراندر سماع اضطراب كنى نيز من باتو صحبت نكنم . أبو محمد جريرى

قال : فربما كان الجنيد يتكلم رحمه الله فى شىء من العلم ، فيتغير ، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرة من الماء . وحكى لى أبو عمرو أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه .

باب فيمن كره السماع ص ٣٧٢ :

فقد كره ذلك من جهات شتى .

* فقوم كرهوا ذلك لأخبار رويت عن بعض الأئمة المتقدمين والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك ، فكره من كره ذلك اقتداء بهم ومتابعة لهم ، اذ كانوا هم الأئمة فى أحكام الدين والمقدمين فى عصرهم على جماعة المسلمين .

* وقوم كرهوا ذلك للمريدين والقاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر ان استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحل عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنوا الى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة ويقعوا فى البلية .

* وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذى يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من أحد وجهين : اما هم قوم متلهون من أهل

كويد : در سماعى من اندروى نكاه ميكردم لب برهم نهاده بود وخاموش مى بود تا ازهر موئى از اندام مى جشمه بكشاد تاهوش از وى بشد ويك روز بيهوش بود . بس من ندانم تا وى اندر سماع درستر بود يا حرمت بير بر دلش قويتر .

« باب فى مراتبهم فى حقيقة السماع » ص ٥٣٥ :

كروهى از مشايخ خواندن قرآن بالحان وشنيدن قصايد واشعار را جنانك حروف از حد آن تجاوز كرده است كراهيت داشته اند . وخود برهيز كرده واندر آن غلو نمود ، وايشان جند كروهند ، وهريكى را اندر آن علتى ديكرست .

* كروهى از آن آنند كه اندر تحريم آن روايات يافته اند واندر آن متابع سلف صالح شده ، وبدان تقليد كرده .

* ص ٥٣٧ :

وكروهى ديكرند كه از خوف وخطر مريدان كه اندر بلا وبطالت نيفتند ، وبديشان تقليد نكنند ، واز سر توبه باسر معصيت بازنيايند ، وهوا اندرايشان قوت نكيرد،وهوس مر عزيمت صلاح ايشان را فسخ نكند كه معرض بلا ومايه فتنة است سماع بردو فرقت اند يكى لاهى وديكر نه نشستند .

* كروهى ديكر كفتند كه أهل سماع بردو فرقت انديكى لاهى وديكر الهى، لاهى درعين فتنه باشد وازان نترسد ، والهى برياضات ومجاهدات

الدعابة والفتنة أو هم قوم وصلوا الى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم وانقطعوا الى الله عز وجل فى جميع معانيهم ، قالوا : ولسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لاشتغالنا بذلك وترك ذلك أولى بنا .

ص ٣٧٣ :

* وكرهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف مقاصد القوم فيما يسمعون فربما غلطوا فى مقاصدهم وزلقوا ، فكرهوا ذلك شفقة على العامة وصيانة للخاصة وغيرة على الوقت الذى اذا فات لا يدرك .

ص ٣٧٣ :

وطائفة أخرى كرهت ذلك لقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أنه قال : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » فقالوا : هذا مالا يعنينا ، لأنا ما أمرنا بذلك ، وليس هو من زاد القبر ، ولا مما يطلب به النجاة فى الآخرة .

وبانقطاع دل از مخلوقات واعراض سر از مكنونات فتنة از خود دور كرده باشد ، واز ان ايمن شده . جون ما نه ازين كروه باشيمنه ازان ترك آن مارا بهتر ومشغول شدن بجيزى كه موافق ماست أوليتر .

ص ٥٣٨ :

وكروهى ديكر كفتند : جون عوام اندر سماع فتنة است واز شنيدن ما اعتقاد مردمان مشوش ميشود واز درجت ما اندر ان محجوبند وبما مى بزه كار شوند بس برعامه شفقت كنيم ، ومر خاص را نصيحت كنيم ، وبر وقت غيرت دست ازان بداريم .

ص ٥٣٨ :

وكروهى كفته اند كه بيغمبر عم كفت : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » . دست از جيزى بداريم كه ازان كريز از انج بما لا يعنى مشغول شدن تضييع وقت باشد ، ووقت دوستان بادوستان عزيز باشد ، ضايع نبايد كرد .

* * *

ثانيا ــ بين الرسالة وكشف المحجوب :

صرح الهجويرى فى ترجمته لمعــروف الكرخى بأنه اقتفى أثر السلمى والقشيرى فى اثباته لترجمة معروف فى مكانها(١) . ولا شك أن هذه الاشارة تبين لنا أن الهجويرى اطلع على الرسالة القشيرية ، واهتدى بترتيبها فى هذا الموضع .

وقد ترجم الهجويرى للقشيرى فى كتابه ضمن عشرة من شيوخ الصوفية المتأخرين المعروفين على عهده من بينهم أساتذته وشيوخه . ويبدو من هذه الترجمة مدى التقدير والاحترام الذى كان يكنه الهجويرى للقشيرى(٢) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم يصرح بأنه نقل بعض مواده عن الرسالة، الا أن المتفحص لكتابى كشف المحجوب والرســالة يلمس مدى ما افاده الهجويرى من رسالة القشــيرى ، فهو فى بعض المواضع ينقل عنه عين عباراته ، وهو فى مواضع أخرى يهتدى بأمثلته وينقل عنه قصصا بعينها استشهد القشيرى بها فى موضعها . كما ينقل عنه أيضا كثيرا من أقوال الشيوخ ورموزهم بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، وان كان يزيد على هذه الأقوال ، فى كثير من الأحيان ، شرحا من عنده ، أو يبدى رأيه فيها .

كذلك بدا تأثر الهجويرى بالرسالة واضحا من المنهج العام للكتاب ، فقد ضمت الرسالة ، الى جانب الأصول الصوفية ، مجموعة كبيرة من تراجم شيوخ الصوفية جاءت على هيئة تذكرة داخل الكتاب ، وقد حذا الهجويرى حذو القشيرى فضمن كشف المحجوب سبعة أبواب فى تراجم الأئمة من الصحابة والتــابعين وأتباع التابعين وشيوخ الصوفية السابقين لعصره والمعاصرين له . ونورد هنا مثلا من أمثلة كثيرة يبين مدى افادة الهجويرى من الرسالة :

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

الرسالة (ج ٢)	« كشف المحجوب »
ص ٥٨١ :	ص ٣٥٦ :
« باب التوحيد »	« كشف الحجاب الثانى فى التوحيد »
قال الله عز وجل : « والهكم اله واحــد » .	قوله تعالى : « والهكم اله واحد » وقوله تعالى : « قل هو الله أحد » الخ ..
أخبرنا الامام أبو بكر بن الحسن ابن فورك ، قال : حدثنا أحمد بن محمود ... الخ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لأهله : اذا مت فاحــرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذروا نصفى فى البر ونصفى فى البحــر فى يوم ريح . ففعلوا .. فقال الله عز وجل للريح أدى ما أخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : استحياء منك . فغفر له » .	قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيــد فقال لأهله اذا مت فاحــرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى نصفى فى البر ونصفى فى البحــر فى يوم رايح ففعلوا ، فقال الله عز وجل للريح اجمعى ما أخذت فاذا هو بين يديه فقال له ما حملك على ما صنعت فقال استحياء منك فغفر له » .
التوحيــد : هو الحكم بأن الله واحد ، والعلم بأن الشىء واحد أيضا توحيــد .	ص ٣٥٧ :
ص ٥٨٢ : والتوحيد ثلاثة :	وحقيقت توحيــد حكم كردن بود بريكانكى جيزى بصحت علم بيكانكى آن ، وجــون حق تعالى يكيست بى قسيم اندر ذات وصفات خــود ، وبى دليل وشريك اندر افعال خود، وموحدان ويرا بدين صفت دانند ، دانش ايشــانرا بيكانكى توحيــد خوانند . وتوحيد سه است يكى : توحيد حق مر حق را وآن علم أو بود بيكانكى خود . وديكر : توحيد حق مر خلق را وآن حكم وى بود بتوحيد بنده وآفرينش توحيد اندر دل وى . وسديكر : توحيد خلق باشد مر حق را وآن علم ايشان بوحدانية خداى عز وجل .
توحيد الحق للحق : وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد .	
والثانى : توحيد الحق ، سبحانه، للخلق : وهو حكمه ، سبحانه ، بأن العبد موحد ، وخلقه توحيد العبد .	
والثالث : توحيد الخلق للحق ، سبحانه ، وهو علم العبد بأن الله ، عز وجل ، واحد وحكمه واخباره عنه بأنه واحد .	

وقد أورد القشيرى مجموعة من أقوال الشيوخ فى معنى التوحيد(١) فنقل الهجويرى معظمها فى فصل خصصه لرموز المشايخ فى التوحيد ، واتبع كل قول بشرح من عنده .

ثالثا : بين طبقات الصوفية وكشف المحجوب :

اعتمد الهجويرى فى القسم الحادى عشر من كشف المحجوب على كتاب طبقات الصوفية وصرح هو نفسه بذلك عند ترجمته لمعروف الكرخى ، فذكر أنه ترجم له فى الموضع الذى أورد ذكره فيه ، موافقة لما فعله أبو عبد الرحمن السلمى فى كتابه(٢) .

والهجويرى أورد فى القسم الحادى عشر أربعا وستين ترجمة(٣) ،منهما : ثلاث تراجم للأئمة : « أبو حنيفة النعمان » و « ومحمد بن ادريس الشافعى » و « أحمد بن حنبل » .

وسبع تراجم لشيوخ من الصوفية هم : حبيب العجمى ، مالك بن دينار ، حبيب بن سليم الراعى ، أبو حازم المدنى ، محمد بن واسع ، عبد الله ابن المبارك المروزى ، داود بن نصير الطائى . وهؤلاء لم يترجم لهم السلمى فى طبقات الصوفية .

أما التراجم الأربع والخمسون فهى لشيوخ وردت لهم تراجم فى كتاب طبقات الصوفية ، منهم :

عشرون : من شيوخ الطبقة الأولى .

ثمانية عشر : من شيوخ الطبقة الثانية .

ثمانية : من شيوخ الطبقة الثالثة .

شيخان : من شيوخ الطبقة الرابعة .

ستة : من شيوخ الطبقة الخامسة(٤) .

وقد اعتمد الهجويرى فى تعريفه بهذه المجموعة من الشيوخ على بعض ما ورد عنهم فى كتاب طبقات الصوفية ، فهو يضبط أسماءهم وكنياتهم كما

(١) قابل بين « الرسالة » ج ٢ ص ٥٨٢ — ٥٨٨ وكشف المحجوب ص ٣٦٠ — ٣٦٧ .
(٢) كشف المحجوب ص ١٤١ : الاصل الفارسى ، ص ١١٧ من الدراسة .
(٣) أنظر : ص ١٣١
(٤) طابق بين فهرس أسماء شيوخ الطبقات الخمس فى طبقات الصوفية وأسماء الشيوخ فى الباب الحادى عشر من كشف المحجوب ص

جاءت فى هذا الكتاب ، ويذكر فى التعريف بهم نبذا مما ورد عنهم فيه . ويضيف فى تراجم بعض الشيوخ رواية أو حكاية تواترت عنهم ، وهو غالبا ما ينقلها عن مجموعة الروايات التى جمعها شيخه أبو الفضل الختلى ، أو مجموعة الحكايات التى يشير اليها باسم : الحكايات أو حكايات العراقيين . ثم يذكر قولا باللغة العربية من الأقوال التى وردت عن صاحب الترجمة فى كتاب طبقات الصوفية ، ويتبعه بترجمة فارسية ، وشرح للمعنى الصوفى الذى ينطوى عليه .

كذلك يستخدم الهجويرى كثيرا من الأقوال التى وردت عن الشيوخ فى طبقات الصوفية عند مناقشته للموضوعات التى يتعرض لها فى كتابه ، فهو يلحق بكل باب فصلا فى أقوال الشيوخ ورموزهم فى الموضوع الذى يتحدث عنه . ومعظم هذه الأقوال مما أثر عن هؤلاء الشيوخ وورد ذكره فى كتاب طبقات الصوفية .

وفيما يلى مثل للتطابق بين كشف المحجوب وطبقات الصوفية(١) ، اخترته عفوا .

(١) أثبت فى حواشى الترجمة الاقوال التى ورد ذكرها فى طبقات الصوفية .

طبقات الصوفية

ص ٩١ :

ومنهم حاتم الأصم ، وهو حاتم ابن عنوان ويقال : حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن .

وهو من قدماء مشايخ خراسان ، ومن أهل بلخ .

صحب شقيق بن ابراهيم . وكان استاذ أحمد بن خضرويه .

ص ٩٦ :

قال حاتم : الشهوة ثلاثة :

شهوة فى الأكل ، وشهوة فى الكلام وشهوة فى النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة .

ص ١٩٢ :

شاه الكرمانى : ومنهم شاه الكرمانى ، وهو شاه بن شجاع ، أبو الفوارس . كان من أولاد الملوك

صحب أبا تراب النخشبى . وكان من أجلة الفتيان وعلماء هذه الطريقة وله رسالات مشهورة والمثلثة التى سماها مرآة الحكماء .

سمعت أبا الحسن الفارسى يقول ... سمعت ... يقول : سمعت شاه بن شجاع يقول : « لأهل الفضل فضل ما لم يروه ، فاذا رأوه فلا فضل لهم . ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم .

كشف المحجوب

ص ١٤٢ :

ومنهم زين عباد وجمال أوتاد أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم رض .

از محتشمان بلخ بود ، واز قدماء مشايخ خراسان .

مريد شقيق بود ، واستاد أحمد خضرويه .

از وى مى آيد كه كفت : الشهوات ثلاث شهوة فى الأكل وشهوة فى الكلام وشهوة فى النظر فاحفظ الأكل بالثقة واللسان بالصدق والنظر بالعبرة .

ص ١٧٤ :

ومنهم شاه شيوخ ، وتغير از روزكار او منسوخ أبو الفوارس شاه ابن شجاع الكرمانى از ابناء ملوك بود .

صحبت أبو تراب نخشبى يافته بود . ويرا رسالات مشهور اندر تصوف وكتابى كردست كه انرا مرآة الحكما خوانند .

اورا كلام عاليست . از وى مى آيد كه كفت : « لأهل الفضل فضل ما لم يروه فاذا رأوه فلا فضل لهم . ولأهل الولاية ولاية مالم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم » .

رابعا : بين كشف المحجوب وتذكرة الأولياء :

أفاد العطار على نطاق واسع من كتاب كشف المحجوب ، وهو كثيرا ما ينقل عنه عين عباراته ، أو يذكرها مع قليل من التصرف ينحصر فى استبدال بعض الكلمات والأفعال القديمة بأخرى حديثة ، وان كان لايشير الى الكتاب أو مؤلفه فى المواضع التى ينقل فيها عن كشف المحجوب ، باستثناء موضعين ذكر فيهما اسم الهجويرى(١) .

ومما لاشك فيه أن العطار فى تراجمه لشيوخ الصوفية يسلك مسلك التفصيل ، حتى أن كثيرا من تراجمه تستغرق الواحدة منها عددا غير قليل من الصفحات ، وهو يعتمد فى هذا على ما ورد فى كتب التراجم العربية ، الا انه يعتمد أيضا على كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد .

وبالرجوع الى الموازنة التى عقدها بهار(٢) بين تذكرة الأولياء وكشف المحجوب ، وما أورده أيضا « محمد عباسى » فى مقدمته لكتاب كشف المحجوب(٣) . يمكن الاطلاع على نموذجين لاعتماد العطار على كشف المحجوب ، وان كان يوجد على غرارهما نماذج كثيرة ، يستطيع الدارس للكتابين أن يلمسهما فى يسر .

خامسا : بين كشف المحجوب ونفحات الانس :

ذكرنا من قبل أن نفحات الأنس يقوم أساسا على الترجمة الفارسية لكتاب طبقات الصوفية التى قام بها الشيخ عبد الله الأنصارى ، وأن الجامى قدم لكتابه بمقدمة تشتمل على تسع مقولات فى الأصول الصوفية .

وقد اعتمد الجامى فى هذه المقولات على مجموعة من كتب التصوف المعروفة العربية والفارسية ، مثل الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، وكشف المحجوب ، والتفسير الكبير ، ودلائل النبوة ، وصرح بأنه ينقل عن هذه الكتب ، وأشار الى كل منها فى الموضع الذى ينقل فيه .

وقد نقل الجامى عن كشف المحجوب مرتين :

الأولى : فى القول فى أصناف الولاية(٤) .

---

(١) « تذكرة الاولياء » أنظر : ج ١ ص ٢٠٨ ، ج ٢ ص ٦٨

(٢) « سبك شناس » أنظر : ج ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٩

(٣) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة محمد عباسى : ص بيست ودو .

(٤) « نفحات الانس » أنظر : ص ١٩

والثانية : فى القول فى اثبات كرامات الأولياء(١) .

كما اعتمد الجامى على كشف المحجوب فى تراجم شيوخ الهجويرى ومعاصريه وبعض السابقين عليه ، مثل أبى القاسم الجرجانى(٢) ، وأبى العباس الشقانى(٣) ، وأبى الفضل الختلى(٤) ، و « خواجه » مظفر الكرمانى(٥) ، وأبى القاسم القشيرى(٦) ، وأحمد بن حماد السرخسى(٧) ، وغيرهم ، بل ان ما ورد فى نفحات الأنس عن بعض هؤلاء لايتعدى نبذا مما ورد عنهم فى كشف المحجوب ، ويمكن التحقق من هذا بالرجوع الى تراجمهم فى كتابى كشف المحجوب ونفحات الأنس ، فى الصفحات المشار اليها فى الحاشية .

غير أن الجامى سلك مسلك العالم الأمين ، فهو يصرح فى كل مرة ينقل فيها عن كشف المحجوب بأنه ينقل عنه ، فيقول :

« صاحب كشف المحجوب كويد » .

اى : يقول صاحب كشف المحجوب :

* * *

وقد أفاد أيضا من كشف المحجوب اثنان ممن كتبوا فى التصوف فى العصر الحديث ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسى لكشف المحجوب ، والثانى كتب باللغة العربية واعتمد على الترجمة الانجليزية للكتاب .

اما الأول فهو : « قاسم غنى » الذى اعتمد اعتمادا كبيرا فى كتابه « تاريخ تصوف در اسلام » على كشف المحجوب ، فهو ينقل عنه بمعدل صفحة من كل عشر صفحات من كتابه ، بل انه فيما يختص بفرق الصوفية ، قدم ملخصا لما ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب بخصوص هذه الفرق ، وصرح بأنه ينقل عنه .

---

(١) « نفحات الأنس » انظر : ص ٢٢
(٢) أنظر « كشف المحجوب » ص ٢١١ ونفحات الانس ص ٣٠٧
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ ونفحات الانس ص ٣١٤
(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ ونفحات الانس ص ٣١٥
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٢ ونفحات الانس ص ٣٠٨
(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ ونفحات الانس ص ٣١٣
(٧) « كشف المحجوب » ص ٢١٦ ونفحات الانس ص ٣١٧

يقول :

« هجويرى كه در أواسط قرن بنجم كتاب معروف كشف المحجوب را تأليف كرده باب مخصوص راجع بفرق صوفية نوشته ، كه ذيلا خلاصة آن براى مزيد فايده نقل ميشود(١) .

وترجمته :

« وقد كتب الهجويرى الذى الف كتابه المعروف كشف المحجوب فى أواسط القرن الخامس ، بابا خاصا بالفرق الصوفية ننقل فيما يلى خلاصة له من أجل مزيد الفائدة » .

كما أفاد قاسم غنى من كشف المحجوب فى الجزء الأخير من كتابه ، والذى جعله على هيئة قاموس للمصطلحات الصوفية(١) ، فهو فى هذا الجزء يعتمد على تعريف الهجويرى لهذه المصطلحات .

واما الثانى فهو : « أبو العلا عفيفى » الذى اعتمد فى كتابه : « التصوف الثورة الروحية فى الاسلام » على ترجمة نيكولسون الانجليزية لكشف المحجوب ، ونقل عنها كثيرا .

---

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٤٣٨
(٢) « تاريخ تصوف در اسلام » أنظر : ص ٤٣٨ — ٤٥٩

الفصل السادس

القيمة العلمية للكتاب

تعرضنا فى الفصل الرابع للتعريف بمجموعة من كتب التصـــوف التى سبقت كشف المحجوب والكتب التى جاءت بعده . وبينا فى الفصل الخامس مظاهر التأثير والتأثر بينه وبين هذه الكتب . وسنحاول فى هذا الفصل أن نقيم الكتاب فى ضوء ما توفر لنا من المعلومات نتيجة لتلك الدراسة المقارنة التى عقدناها فى الفصلين السابقين ..

بالنسبة للكتب السابقة على كشف المحجوب :

رأينا أن الكتاب لم يسبق بكتب مؤلفه فى موضوعه باللغة الفارسية ، وكل ما تقدم عليه من مؤلفات صوفية كان مكتوبا باللغة العربية . ووجدنا على رأس هـــذه المؤلفات ثلاثة كتب كانت ولا تزال تعتبر من أهم الكتب المؤلفة فى التصـــوف وهى : « اللمـــع » و « طبقـــات الصـــوفية » و « الرسالة » ..

واذا أردنا أن نتعرف على قيمة كتاب كشف المحجوب ومنزلته بين هذه الكتب نراه يتميز عليها بمميزات نلخصها فيما يلى :

* **أولا :** من حيث المنهج العام والطريقة التى عالج بها المؤلف مواده :

(أ) اقتصر الكتاب الأول ، أى اللمع ، على التعرض لبحث الأصول والعقائد الصوفية . ولكن المؤلف اعتمد فى معالجته لهذه الأمور على ايراد أقوال الشيوخ المتقدمين فى الموضوع الذى يبحثه ، ولم يضف الى ذلك خبراته الشخصية ودراساته ، ولم يكن يدلى بآرائه الشخصية الا فى القليل النادر ..

(ب) اختص الكتاب الثانى ، أى طبقات الصـــوفية ، بتراجم شـــيوخ الصوفية السابقين فذكر المؤلف فيه تواريخ حياة هؤلاء الشيوخ وما ورد عنهم من حكايات ، وما أثر عنهم من أقوال وأفعـــال ،

وما سمعه بنفسه ممن عاصروه . ودوره فى هذا كله مقصور على جمع هذه المعلومات وعرضها ..

(ج) جمع الكتاب الثالث ، أى « الرسالة » بين منهجى الكتابين السابقين ، فعالج الأصول المتعلقة بالتصوف فى قسم منه ، وتعرض فى القسم الثانى لتراجم الشيوخ ، ولكن المؤلف سلك فى معظم الأحيان مسلك الايجاز ، وكان يكتفى بذكر الحكايات والأقوال والتعريفات ، ولم يكن يشارك برأيه فى كثير من الموضوعات أو يناقش الآراء التى ينقلها عن غيره ..

ومن ناحية أخرى فان المادة التى وردت فى الرسالة تعتمد الى حد كبير على ما ورد فى كتابى اللمع وطبقات الصوفية مما يوضح لنا مدى افادة مؤلفها من سابقيه ..

واذا أتينا بعد ذلك الى كشف المحجوب ، نجد أنه من حيث المنهج العام ، يجمع بين الأصول الصوفية وتراجم الشيوخ ، فقد حذا فيه الهجويرى حذو معاصره القشيرى ، الا أنه زاد على ذلك بأنه سلك مسلك المعلم فتناول كل شىء بالايضاح والتفسير ، فحتى الجزء الخاص بالتراجم يشارك فيه الهجويرى برأيه فى المسائل التى تعرض عندما يترجم لأولئك الشيوخ .

وعلى الرغم من أن الهجويرى استقى مادة كتابه من الكتب السابقة عليه ، ونقل كثيرا من الموضوعات التى ناقشها عن اللمع والرسالة ، الا أنه لميقف قط موقف الرواية ، فقد بدت شخصيته واضحة فى كتابه نتيجة للمنهج العلمى السليم الذى اختطه لنفسه ، والذى التزمه فى الكتاب من أوله الى آخره ، فهو عندما يتعرض لمادة من المواد يدرس عموما الآراء السائدة بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، ويفند هذه الاراء اذا اقتضى الأمر ، ثم يدلى برأيه الخاص الذى توصل اليه من خلال خبرته العلمية وتجاربه الشخصية ، فهو فى هذا معلم أكثر منه مؤرخ أو راوية . وكان من نتيجة هذا المسلك أن رأينا كثيرا من المشكل الصوفية والموضوعات الجدلية قد أضحت أقرب فهما نتيجة للايضاحات التى أضفاها الهجويرى عليها ، والتى توصل اليها عن طريق تجربته الخاصة ..

ومن هنا نرى أن كشف المحجوب يعد أكثر أهمية من رسالة القشيرى التى ترجع أهميتها الى أنها مجموعة قيمة من الأمثلة والحكايات والأقوال والتعريفات ، كما أنه يتفوق على اللمع والطبقات للسبب الذى أشرنا اليه ..

*** ثانيا :** من حيث الميزات التى انفرد بها كشف المحجوب :

انفرد كشف المحجوب بميزة ضخمة لم يسبقه اليها كتاب آخر ، وهذه الميزة تتمثل فى القسم الرابع عشر منه ، وهو الباب الخاص بفرق الصوفية، والتى قسمها مؤلفه الى اثنتى عشرة فرقة ، نسب كلا منها الى مؤسسها، وشرح المذهب الخاص بها .

يقول نيكولسون :

« ان أبرز باب فى كشف المحجوب ، هو الباب الرابع عشر الذى يتعلق بالمذاهب التى تتبعها مختلف الفرق الصوفية ، والتى عددها المؤلف باثنتى عشرة مدرسة صوفية . وبقدر ما أعلم ، فانه أول كاتب فعل ذلك(١) » .

والواقع أن الهجويرى أول من قسم الصوفية الى هذه الفرق أو المدارس ، فلم يرد فى أى من كتب التصوف السابقة على كشف المحجوب مثل اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة ، اشارة الى هذا التقسيم ، والفرقة الوحيدة التى ذكرت كفرقة متميزة لها تعاليم خاصة تزيد على ما للصوفية عامة هى فرقة « الملامتية » التى ألف عنها أبو عبد الرحمن السلمى رسالته المسماة بهذا الاسم(٢) . وقد أطلق الهجويرى على هذه الفرقة اسم : « القصارية » نسبة الى أبى حمدون القصار الزعيم الأول للملامتية .

والهجويرى فى الباب الذى خصصه فى كتابه للفرق الصوفية ، ينظر الى المجال الصوفى العام ويحاول أن يتبين المعالم البارزة فيه ، ويركز هذه المعالم حول كبار الشيوخ الذين كان لهم أتباع وتعاليم روحية اصطبغ بها تصوفهم ، وخلفت أثرها فى مجرى التصوف العام ، لذلك أفرد كل واحد من هؤلاء الشيوخ بكلمة خاصة عالج فيها أخص ما يمتاز به تصوفه وتصوف فرقته ، تاركا مختلف التفاصيل التى يشترك فيها مع غيره .

كما أنه يعرج أحيانا على المسائل التى هى موضع خلاف بين صوفى وآخر ليعرضها عرضا موضوعيا مفصلا ، ويورد أقوال الصوفية الآخرين فيها ، ويسجل رأيه الخاص فى أغلب الأحيان .

---

(١) أنظر « مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب » .
(٢) حقق أبو العلا عفيفى هذه الرسالة ونشرها فى كتابه : « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » القاهرة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

وقد وضح الهجويرى بهذا الباب تاريخ المذاهب الصوفية واتجاهاتها منذ ظهور التصوف حتى عصره . وأخذ عنه كل من جاء بعده وكتب عن الفرق والمدارس الصوفية .

وبالنسبة لكتب التصوف الفارسية التى جاءت بعد كشف المحجوب :

فقد تعرضنا فى هذا البحث لثلاثة من هذه الكتب ، تأثرت أكثر من غيرها بكشف المحجوب ، وهى : « أسرار التوحيد » و « تذكرة الأولياء » و « نفحات الأنس » .

أما الكتاب الأول ، أى أسرار التوحيد ، فقد اختص بشرح حال شيخ من شيوخ الصوفية ولا شك أنه من هذه الناحية يعد نموذجا رائعا من حيث تصويره لحياة ذلك الشيخ . وهو وان مس فى سياقه كثيرا من الأصول الصوفية ، والمسائل التى تتعلق بالتصوف ، الا أن هدفه الأساسى هو تسجيل حياة الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، وليس وضع نظام كامل للصوفية يقوم على أساس علمى وترتيب منطقى على نحو ما ورد فى كشف المحجوب .

وأما الكتابان الآخران ، أى « تذكرة الأولياء » و « نفحات الانس » ، فهما لايخرجان عن كونهما كتابين من كتب التذاكر التى تهتم فى الدرجة الأولى بسير الشخصيات التى تتحدث عنها ، وان كان هذا لا يمنع من انها مفيدة من حيث المعلومات التى تمدنا من خلال تصويرها للحياة الروحية لشخصياتها ، والطريقة التى كانوا يسلكونها فى سيرهم وسلوكهم ، وتنقل لنا ما أثر عنهم من أقوال وتعريفات صوفية مهمة .

واذا كان الجامى قد تعرض فى مقدمة « نفحات الأنس » لبعض الأصول الصوفية ، الا أنه نقل كل أصل منها عن كتاب بعينه ، وذكر اسم كل كتاب فى الموضع الذى ينقل عنه فيه ، فدوره فى هذا مقصور على النقل . ومن بين الكتب التى نقل عنها نجد اسم كتاب كشف المحجوب(١) .

ونستخلص من ذلك كله أن كشف المحجوب يتميز على الكتب التى سبقته ، والتى جاءت بعده بأن مؤلفه صاحب منهج خاص فى دراسة التصوف ، فهو لا يكتفى كغيره برواية أقوال المتصوفة ، أو الترجمة لحياتهم ، أو ايراد الأصول الصوفية دون نقاش فيما يدور حولها من آراء ، وانما يتناول هذه المسائل بالجدل والنقاش حينا ، وبالايضاح والتفسير أحيانا ، وتبدو شخصيته واضحة فى كل ما يتعرض له .

---

(١) « نفحات الانس » انظر ص ١٩ — ٢٠ .

الفصل السابع
مخطوطات الكتاب، طبعاته
الترجمة الانجليزية

مخطوطات « كشف المحجوب » :

توجد مخطوطات كشف المحجوب فى مكتبات متفرقة فى جميع أنحاء العالم ومن بينها عدة مكتبات أوربية . وان من يرجع الى فهارس «ايته»(١) و « ريو »(٢) و « بلوشيه »(٣) يجد وصفا لبعض هذه المخطوطات التى تنتمى من حيث كتابتها الى تواريخ مختلفة .

وقد اعتمد « زوكوفسكى » عند طبعه كتاب كشف المحجوب ، لأول مرة، على خمس نسخ خطية أشار اليها فى مقدمة هذه الطبعة ، وهى :

١ — مخطوطة «فينا» التابعة للمكتبة الملكية فى فينا ، والمحفوظة تحت رقم ٣٣٤ من مجموعة هامر ، وترجع هذه النسخة الى القرن التاسع الهجرى .

٢ — مخطوطة « طشقند » المحفوظة فى المكتبة العمومية فى طشقند ويرجع تاريخ كتابتها الى سنة ١٠٤٦ هـ .

٣ — مخطوطة « سمرقند » ويبدو أنها لا تحمل تاريخا .

٤ — مخطوطة « بطرسبرج » التابعة لجامعة سن ، وتحمل تاريخ ١٠١١ هـ .

٥ — مخطوطة « مؤسسة اللغات الشرقية » بوزارة الخارجية(٤) .

كما أشار « ايته » فى فهرسه للمخطوطات الفارسية الذى أعده للمكتبة

---

(١) «Ethé» : Gat Vol. I.
(٢) «Rieu» : Gat Vol. I.
(٣) «Blechet» : Catalogue des Manuscrits Persians, Vol. 2.
(٤) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٦٢ .

الهندية الى خمس مخطوطات قدم وصفا شاملا لها وقيدها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ..

وتوجد نسخة خطية لكشف المحجوب محفوظة فى دار الكتب المصرية ورد ذكرها فى فهرس المخطوطات الفارسية تحت رقم ١٧٩٣ (٤ تصوف فارسى طلعت) وهى نسخة بدون تاريخ وتقع فى ٣٨٥ ورقة مكتوبة بقلم فارسى عادى ، وضم اليها فهرس بخط مخالف(١) .

طبعات كشف المحجوب :

طبع كتاب « كشف المحجوب » عدة مرات نذكر منها :

(ا) الطبعة الأولى : طبعة « زوكوفسكى » :

وهى الطبعة التى قام بهـا المستشرق الروسى « زوكوفسكى » فحقق وصحح النص الفارسى لكشف المحجوب ، وكتب له مقدمة قيمة ، وضم اليه فهارس وافية ، غير أن الأجل لم يمهله ، فطبع الكتاب بعد وفاته ونشر فى «ليننجراد» عام ١٩٢٦م — ١٣٤٤هـ(٢) فى مائتى وخمسين نسخة فقط(٣) .

(ب) طبعات لاهور :

طبع كشف المحجوب ثلاث مرات على الحجر فى « لاهور » .

الأولى : الطبعة التى اعتمد عليها « نيكولسـون » فى ترجمته للكتاب وطبعت فى لاهور عام ١٩٠٣ م(٤)

الثانية : طبعة « أحمد عليشـاه » بروفسر اسـلامية كالج ، لاهور ، ١٩٣٣ م — ١٣٤٢ هـ ، وتقع فى ٣٢٩ صفحة .

(١) خلط المفهرس فى النسخة رقم ١٧٩٢ بين كتابى « كشف المحجوب » للهجويرى فى التصوف و « كشف المحجوب » لابى يعقوب السجزى فى المذهب الاسماعيلى فأضاف الكتابين الى الهجويرى . وقد بدا الخطأ واضحا عندما نقل العبارة الاولى من الكتاب فهو يقول : وأوله « آگاه باش كه عقايد علم در حجاب است » فهذه العبارة بداية كتاب السجزى لا الهجويرى . أنظـر : فهرس المخطوطات الفارسـية . دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٧ ج ٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) فهرست كتابهاى جابى فارسى ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٣) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة محمد عباسى ص ٣١ .

(٤) Bulletin of the School of Oriental Studies : London, 1929, p. 475.

الثالثة : طبعة بتصحيح « محمد حسين فاضـل ديوبندى » لاهور ١٩٣١ م وتقع فى ٣٢٨ صفحة .

(جـ) طبعة « سمرقند » عام ١٣٣٠ هـ .

(د) طبعات ايران :

الأولى : فى طهران ١٣٢٧ هـ ش(١) .

الثانية : طبعة « مؤسسة مطبوعات أمير كبير » المأخـوذة عن طبعة زوكوفسكى . تهران ١٣٣٦ هـ ش .

الثالثة : طبعة به تصحيح على قويم ، تهران ١٣٣٧ هـ ش (٢) .

الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب :

فى الوقت الذى كان فيه « زوكوفسكى » يعمل فى أعداد نص دقيق لكشف المحجوب تمهيدا لطبعه كان المستشرق الانجليزى « نيكولسون » يعمل فى ترجمة الكتاب نفسـه .

وقد اعتمد نيكولسون فى ترجمته على طبعة لاهور ١٩٠٣ م(٣) ، وذكر أن هذه الطبعة غير دقيقة ، وخاصـة فى هجاء الأسماء ، ولكن النص فيها يتفق الى حد كبير مع مخطوطتين فى المكتبة الهندية . كما رجع أيضا الى المخطوط الموجود فى المتحف البريطانى .

ويقول نيكولسون ان النسخة الأوربية تعتبر كاملة تقريبا ، ولم يحذف منها شىء هام ، وان كان لم يتردد فى الاختصار كلما سنحت له الفرصة لذلك (٤) .

وقد قدم نيكولسون لترجمته بمقدمة طيبة فى ثمـان صفحات ، ونشرت الترجمة فى لندن سنة ١٩١١ م ضمن سلسلة جب التذكارية .

(١) « فهرست كتابهاى جابى فارسى » ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٢) « فهرست كتابهاى جابى فارسى » خانبابامشار تهران ١٣٤٢ ش ، ج ٢ عمود ٢٦٢٣

(٣) Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475.

(٤) «E.I.W. GIBB MEMORIAL» A Translation of : «The Hashaf Al-Mahjub» : Reynold A. Nicholson, London 1911, (Preface p. XXIV).

كذلك قام نيكولسون بنشر ترجمة انجليزية للمقدمة الروسية التى كتبها زوكوفسكى لطبعته لكشف المحجوب ، وقام بترجمتها عن الروسية ، « سيدنى جيرولد » ، ونشرت هذه الترجمة فى دوريات معهد اللغات الشرقية فى لندن عام ١٩٢٩ م تحت عنوان : « الصوفية الفارسية »(١) .

* * *

(١) Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475 — 482.

القسم الثانى
ترجمة كتاب كشف المحجوب

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وتمم

« الحمد لله الذى كشف لأوليائه بواطن ملكوته ، وقشع لأصفيائه سرابر جبروته ، وأراق دم المحبين بسيف جلاله ، وأذاق سر المشتاقين روح وصاله، هو المحيى لموات القلوب بأنوار ادراكه ، والمنفس لها براحة روح المعرفة بنشر أسمائه . والصلاة على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه من بعده(١) » .

قال الشيخ أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى ثم الهجويرى رضى الله عنه :

سلكت طريق الاستخارة ، ومحوت من قلبى الأغراض التى كانت ترجع الى النفس ، وقمت بحكم ما دعوتنى اليه ــ اسعدك الله ــ وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، وأسميت هذا الكتا ب« كشف المحجوب » . وقد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب وانى أطلب من الله تعالى العون والتوفيق فى اتمام هذا الكتاب ، وأبرأ من حولى وقوتى فى القول والعمل ، وبالله التوفيق .

فصل : قد كان مرادى من اثبات اسمى فى بداية الكتاب شيئين : أولهما نصيب الخاصة ، والثانى نصيب العامة .

أما ما هو نصيب العامة : فهو أن جهلة هذا العلم عندما يرون كتابا جديدا لا يكون اسم مصنفه مثبتا فى أماكن عدة منه ، فانهم ينسبونه الى أنفسهم ، وبذلك لا يتحقق مقصود المصنف ، لأن المراد من الجمع والتأليف والتصنيف ليس الا احياء اسم المصنف بذلك الكتاب ، فيدعو له القراء والمتعلمون بالخير .

وقد وقعت لى هذه الحادثة مرتين :

الأولى : أن رجلا طلب ديوان شعرى واخذه ، ولم يكن يوجد منه سوى

---

(١) هذا الجزء من مقدمة المؤلف باللغة العربية . ويلاحظ أن ما يرد بعد هذا بين علامات التنصيص انما هو فى الاصل الفارسى باللغة العربية .

النسخة الأصل . فغيرها جملة ، وأسقط اسمى من أولهـا ، وأضاع — تاب الله عليه — تعبى .

والثانية : انى عملت كاتبا فى طريقة التصوف اسمه « منهاج الدين » ، فمحا اسمى من عنوانه مدع ركيك لايزن قوله ، وأظهر للعوام انه عمله ، ولو أن الخواص كانوا يضحكون منه على هذا القول . ولم يبارك الله له فى ذلك ، ومحا اسمه من ديوان طلاب حضرته .

وأما ما هو نصيب الخاصبة : فهو أنهم عندما يرون كتابا ، ويعرفون أن مؤلفه كان عالما بذلك العلم أو الفن ، ومحققا ، فانهم يرعون حقه على نحو أفضل ، ويكونون أكثر جدا فى قراءته ودراسته ، فيتأتى بذلك مراد القارىء وصاحب الكتاب بصورة أفضل ، والله أعلم بالصواب .

فصل : وأما ما قلته من أنى سلكت طريق الاستخارة ، فالمراد منه حفظ آداب الله عز وجل ، فقد أمر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والتابعين بهذا ، وقال : «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم(١) » . والاستعاذة والاستخارة والاستعانة كلها بمعنى الطلب ، وتسليم الأمور لله سبحانه وتعالى ، والنجاة من الآفات المختلفة . وقد روى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم ، أن النبى كان يعلمهم الاستخارة كما كان يعلمهم القرآن . فحينما يعلم العبد أن خيرة الأمور ليست منوطة بكسبة وتدبيره ، لأن الله تعالى يأعلم بصلاح العباد ، وما يصيب العبد من خير أو شر مقدر ، فأى وجه غير التسليم للقضاء وطلب العون منه ، يدفع عن العبد تأثير النفس وتأمرها فى كل أحواله ، ويمن عليه بخيره وصلاحه .

وعلى هذا : ينبغى على العبد أن يستخير فى بداية جميع الأعمال ، عسى الله تعالى أن يحفظه من الخطر والخلل والآفة ، وبالله التوفيق .

فصـــل : وأما ما قلته من انى محوت من قلبى الأهـــواء التى ترجع الى النفس ، فالمراد منه أن كل عمل يدخل فيه الغرض النفسانى تزول منه البركة ، وينحرف القلب عن الطريق المستقيم الى محل الأعوجاج والانشغال وهذا لا يخرج عن أمرين : اما أن يتحقق غرضه ، واما لا يتحقق ، فاذا تحقق غرضه يكون فى ذلك هلاكه ، وليس لباب الجحيم مفتاح غير حصول هوى النفس . واذا لم يتحقق غرضه ، فالأغلب أن يكون قد محاه من قلبه لأن فى ذلك نجاته ، ومفتاح باب الجنة ليس سوى منع النفس عن أغراضها ،

(١) سورة « النحل » آية ٩٨

كما قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى(١) » .

والأغراض النفسية فى الأمور هى أن العبد فى العمل **الذي** يعمله يكون على غير رضا الله تعالى ، ولا يطلب نجاة النفس من العقوبة .

وفى الجملة : ان رعونات النفس لا حد لها ، ومراميها فى ذلك خفية . وسوف يرد فى الكتاب باب فى هذا المعنى فى موضعه ان شاء الله تعالى .

فصل : وأما ما قلته من أنى قمت بحق ما دعوتنى اليـــه ، وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب، فقد كان المراد من هذا القول انك رأيتنى أهلا للسؤال وسألتنى واقعتك ، وطلبت هذا الكتاب ، وكان مرادك منه الفائدة ، فوجب على لا محالة أداء حق سؤالك . ولمـــا لم أصل الى اتمام حق سؤالك فى حينه ، وكان يلزم لى تمام العزم والنية ، لأكون فى حال ابتداء الكتاب وعقد النية على اتمامه قد أديت حكم السؤال وجوابه . وحين يكون قصد العبد فى ابتداء عمله مقرونا بالنية ، فانه ان يظهر منه خلل فى ذلك العمل يكن معذورا فيه . ومن ذلكأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نية المؤمن خير من عمله »(٢) . والنية فى ابتداء العمل خير من ابتداء العمل بلا نية.

وللنية فى الأمور سلطان عظيم وبرهان صادق ، لأن العبد بالنية يتحول من حكم الى آخر بدون أن يبدو على ظاهره أثر لهذا التحول ، كما لو أن شخصا جاع مدة دون أن ينوى الصيام فهو لايثاب علىذلك ، وحين ينوى بقلبه الصيام يصير من المقربين ، بدون أن يبـــدو على ظاهره أثر . ومثل المسافر الذى يرد مدينة ويبقى مدة ، فانه لا يصير مقيما مالم ينو الاقامة ، واذا نوى صار مقيما . وأمثال هذا كثير ، فالنية عند بدء العمل تكون قياما بحقه والله أعلم .

فصل : وأما ما قلته من أنى أسميت هذا الكتاب « كشف المحجوب » ، فان الغرض منه أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان المراد منه .

وأعلم أن أهل العالم كلهم محجوبون عن لطيفة التحقيق الالهية باستثناء أولياء الله تعالى وجل ، وأعزاء حضرته . ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق الحق ، وشرح الأقوال ، وكشف حجب البشرية ، فانه لا يناسبه غير هذا الاسم .

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ ، ٤١

(٢) رواه البيهقى فى شعب الايمان عن أنس (مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى : طبع القاهرة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م ، ج ٢ ص ٣٣١) .

والكشف فى الحقيقة هو هلاك للمحجوب، كما أن الحجاب هلاك المكاشف، لأنه لا طاقة للقريب بالبعد ، ولا للبعيد بالقرب ، كالحيوان الذى يتولد من الخل فهو يموت فى كل ما عداه ، وما يتولد من سواه يهلك فى الخل .

وسلوك طريق المعانى صعب جدا الا لمن خلق من أجله . والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل ميسر لما خلق له(١) » . وقد خلق الله عز وجل كلا لعمل ، وجعل طريقه سهلا عليه .

أما الحجاب فحجابان : حجاب رينى — نعوذ بالله منه — وهو لاينكشف أبدا . وحجاب غينى ، وهذا سرعان ما ينكشف .

ولتوضيح ذلك : أن عبدا قد تكون ذاته حجابا للحق فيستوى لديه الحق والباطل ، وعبدا تكون صفته حجابا للحق ، وطبعه وسره يطلبان الحق دائما ، ويفران من الباطل .

فالحجاب الذاتى ، وهو الرينى ، لا ينكشف أبدا . ومعنى الرين والختم والطبع واحد ، كما قال الله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(٢) » . وقد أظهر حكم ذلك فقال : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون(٣) » ، ثم بين علته — فقال — « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم(٤) » . وقال أيضا : « طبع الله على قلوبهم(٥) » .

وحجاب الصفة ، وهو الغينى ، يجوز أن ينكشف وقتا دون وقت ، فتبديل الذات غريب وعجيب فى الحكم ، وغير ممكن فى الغين . أما تبديل الصفة فجائز .

ولشيوخ هذه الطريقة فى معنى الرين والغين اشارات لطيفة ، كقول الجنيد(٦) رحمه الله : « الرين من جملة الوطنات ، والغين من جملة الخطرات » . والوطن باق ، والخطر طارىء .

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى السنن عن أبى حميد الساعدى : « أجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧) ورواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء : « كل امرىء مهيأ لما خلق له » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٥٣) .

(٢) سورة « المطففين » آية ١٤

(٣) سورة « البقرة » آية ٦

(٤) سورة « البقرة » آية ٧

(٥) سورة « النحل » آية ١٠٨

(٦) أبو القاسم الخزاز : أصله من نهاوند ، ومولده ومنشأه بالعراق . كان فقيها تفقه على أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته . صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى وغيرهم.وهو من أئمة المتصوفة وسادتهم ، ومن العلماء ، وكانوا على عهده يلقبونه=

مثال ذلك : أنه لا يمكن عمل مرآة من أى حجر ، ولو اجتمع كثير من الصقالين . وعندما تصدأ المرآة فانها تصفو بالمصقلة ، لأن الظلام أصلى فى الحجر ، والضياء أصلى فى المرآة . والأصل باق ، ولا بقاء لتلك الصفة العارية .

وقد عملت هذا الكتاب ليكون صقالا للقلوب الأسيرة فى حجاب الغين ويكمن فيها جوهر ونور الحق ، فينكشف عنهـا الحجاب ببركة قراءة هذا الكتاب ، وتجد الطريق الى حقيقة المعنى . أما أولئك الذين عجن وجودهم من انكار الحق وارتكاب الباطل ، فانهم لا يجدون الطريق قط الى شواهد الحق ، ولا يكون لهم من هذا الكتاب فائدة .

فصل : وأما ما قلته من أنه قد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب ، فان المراد من هـذا القول أنه مالم يعلم مقصـود السائل للمسئول فانه لا يتحقق مراد السائل ، لأن السؤال يكون عن اشكال ، واذا لم يحل الاشكال بالجواب ، فانه لا يفيد . ولا يمكن حل الاشكال الا بالعلم بالاشـكال .

وأما قولى ان الكلام استقام فى غرضك ، فيعنى أن للسؤال على الجملة جواب على الجملة ، حين يكون السائل عليما بجملة وأخوات سؤاله . ثم ان للمبتدىء حاجة الى التفصيل ، وتحديد الأقسام وبيانها ، وبخاصة ان غرضك — أسعدك الله — كان أن أضع كتابا مفصلا فى الاجابة عن سؤالك ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من أنى أطلب التوفيق والعون من الله تعالى : فان الغرض منه أنه ليس للعبد ناصر غير الله ، لأنه هوالذى ينصره على الخيرات ، ويزيده توفيقا .

وحقيقة التوفيق هى موافقة تأييد الله لفعل العبد فى أعمال الصواب . والكتاب والسنة ناطقان على وجود صحة التوفيق ، والأمة مجتمعة على

= « طاووس العلماء ».توفى سنة سبع وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٠٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٥ ، نفحات الانس ص ٨٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨١).

ذلك ، باستثناء طائفة من المعتزله(١) والقدرية(٢) الذين يقولون ان لفظ التوفيق خال من كل المعانى .

وقد قال فريق من مشايخ الصوفية ان التوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال . فحين يكون العبد مطيعا لله ، يكون له من الله المزيد أيضا ، وتكون قوته أكثر مما كانت عليه من قبل ، وفى جملة الحالات من بعد — ذلك أن ما يكون من سكون العبد وحركته جملة هو فعل الله تعالى وخلقه — فيسمون تلك القوة التى يطيع بها العبد بالتوفيق . وليس هذا الكتاب موضعا لشرح هذه المسألة ، لأن المراد منه شىء آخر .

---

(١) « المعتزلة » يسمون : أهل العدل والتوحيد (الملل والنحل على هامش الفصل : جـ ١ ص ٥٤) . ويذهب كثيرون الى أن اسم المعتزلة يرجع تاريخه الى انفصال واصل بن عطاء (م : ١٨١ هـ) عن حلقة الحسن البصرى (م : ١١٠ هـ) بعد اختلافهما فى مرتكب الكبيرة : هل يبقى مؤمنا ، أم يصير كافرا ؟ وذهب واصل الى أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، منزلته بين المنزلتين . فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد (م : ١٤٤ هـ) فقيل لهما ولاتباعهما معتزلون (وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٤٧ ، جـ ٢ ص ١٧٠) كان أكثر كلام المعتزلة فى القدر ولذلك كانوا يسمون فى بادىء الامر بالقدرية .

والمعتزلة كانوا فرقا مختلفة : عاش بعضهم فى البصرة وبعضهم فى بغداد . وكان الغالب عليهم حب المناظرة والاختلاف ، فنجد كل شيخ منهم يعارض سائر الشيوخ ويناقضهم حتى لنجد بين المتأخرين منهم الشيخ أبا هاشم الجبائى (م : ٣٢١ هـ) يعارض أباه الشيخ أبا على الجبائى (م : ٣٠٣ هـ) ويختلف معه فى مسائل كثيرة . غير أن المعتزلة بالرغم من كثرة ما بينهم من خلاف يتفقون بوجه عام على أصول خمسة من اعتقدها كان معتزليا ، وهى : القول بالتوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٠ — ١٩١) .

على أن أسوأ ما تورط فيه المعتزلة : القول بخلق القرآن ، فى أيام الخليفة المعتصم (م : ٢٢٧ هـ) والخليفة الواثق (م : ٢٣٢ هـ) وتنكيلهم بخصومهم ، فأذاقوا الناس العذاب اذا هم لم يقولوا بذلك ، وأقاموا المحاكم يعرض فيها على العلماء والقضاة القول بخلق القرآن فمن لم يقل عذب وأهين ، حتى أن المؤرخين يسمون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن . ثم جاء الخليفة المتوكل (م : ٢٤٧ هـ) فأبطل هذا القول (تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨).وفى القرن الثالث الهجرى كان أهل السنة ينظرون الى المعتزلة نظرة كراهية واحتقار . وفى أواخر هذا القرن خرج عليهم الاشعرى (م : ٣٢٤ هـ) بعد أن كان منهم ، وحاول التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل ، وانتشر مذهبه فى العراق فى أواخر القرن الرابع الهجرى (وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٢٧) .

والهجويرى كصوفى من أهل السنة وقف موقفا مشددا من المعتزلة وتصدى لاقوالهم وعارض آراءهم ووصفهم فى كتابه بالخروج على الدين ، بل ان الامر بلغ به الى درجة أن كفرهم وأخرجهم من دائرة الموحدين . .

(٢) « القدرية » : هم الذين يبحثون فى مسألة الاختيار والقدرة الانسانية . وقد اختلفوا فيهم ، فالشهرستانى لقب المعتزلة بالقدرية وقال ان هذا اللفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى . (الملل والنحل على هامش الفصل جـ ١ ص ٥٤). وقال آخرون انهم كانوا يقولون بأن الله يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة : مختلف الحديث . طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥) . وقد حاول القاضى عبد الجبار (م : ٤١٥ هـ) أكبر شيوخ المعتزلة فى « الرى » فى عصره أن يثبت أن اسم القدرية لا ينبغى أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله (ظهر الاسلام جـ ٤ ص ٤٣ ، ٤٤) .

والآن : أعود بمشيئة الله عز وجل الى مقصودك . وقبل ان أبدأ الكلام أذكر أولا أصل سؤالك ، ومن هنا بدأ الكتاب ، وبالله التوفيق .

صورة السؤال :

قال السائل ، وهو أبو سعيد الهجويرى(١) : بين لى على التحقيق طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ، وأظهر لى رموزهم واشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية اظهارها على القلوب ، وما السبب فى حجاب العقول عن كنهها وما هيتها ، ونفرة النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها . وما يتعلق بهذا من المعاملات .

قال المسئول وهو على بن عثمان الجلابى ، رحمه الله(٢) :

أعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى هذه الديار ، حيث انشغل الخلق بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على خلاف أصلها . فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدى أهل هذا الزمان وأسرارهم ، باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد كل أهل الارادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق ، واكتفى خاصة الخلق وعامتهم منه بالعبارة ، واشتروا حجابه بأرواحهم وقلوبهم ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد ، واخفى التحقيق وجهه عن أحوالهم ، ورضى العوام بذلك قائلين اننا نعرف الحق ، وفرح الخواص بأن يحسوا التمنى فى قلوبهم ، والهواجس فى نفوسهم ، والميل الى الدار الآخرة فى صدورهم . وهم ، لانشغالهم ، يقولون ان هذا شوق الرؤية ، وحرقة المحبة . وعجز الأدعياء بدعواهم عن كل المعانى ، وكف المريدون عن المجاهدة ، وسموا ظنهم المعلول مشاهدة . وقد عملت قبل هذا كتبا فى هذا المعنى ضاعت كلها . وقد اقتبس الأدعياء الكاذبون بعض أقوال منها لصيد الخلق ، وغسلوا البعض الآخر ولم يبقوا عليه ، لأن لصاحب الطبع رأس مال من الحسد وانكار نعمة الله . وفريق آخر لم يغسلوها ولكن لم يقرأوها . وفريق قرأوها ولم يدركوا معناها ، واكتفوا بعباراتها ليكتبوها ويحفظوها ويقولوا اننا نتكلم فى علم التصوف والمعرفة ، وهم له منكرون . والسبب فى هذا كله أن هذه المعانى كبريت أحمر ، وهو شىء عزيز ، وحين

---

(١) سبق الاشارة اليه . فى القسم الاول .

(٢) عبارة « رحمه الله » اضافة من الناسخ .

يوجد يكون كيمياء(١) . ووزن دانق منه يحيل كثيرا من النحاس والقصدير ذهبا أحمر .

وفى الجملة : كل يطلب الدواء الذى يوافق علته ، ولا يلزمه غيره . كما يقول واحد من الكبار :

(شـــعر عربى)

فكل من فى فـــؤاده وجـــع يطلب شـــيئا يوافق الوجعا

فمن يكون دواء علته أحقر الأشـــياء لا يلزمه الدر والمرجان ليخلطوهما بالبلسان(٢) ودواء المسك . وهذا المعنى أعز من أن يكون لكل نصيب منه .

وقد فعل جهال هذا العلم عين هذا من قبل بكتب المشايخ ، حين وقعت تلك الخزائن الملأى بالأسرار الالهية فى أيديهم ، فلم يعرفوا معناها ، وألقوا بها الى أيدى صـــناع القلانس الجهـــلة ، وأعطوها للمجلدين الأدناس ، فصيروها بطانة للقلانس ، وجلدا لدواوين شـــعر أبى نواس(٣) ، وهزل الجاحظ(٤) . وحين يحط بازى الملك على جـــدار بيت عجوز فانهم يقصون ريشه وجناحه لا محالة .

---

(١) « كيمياء » : الكيمياء فى اصطلاح القدماء المـــادة التى تضاف الى المعادن الخسيسة كالنحاس والرصاص فتحيلها ذهبا ، وتسمى أحيانا « الاكسير » ، وتطلق أيضا على علم تحويل هذه المعادن الى ذهب .

(٢) نوع من الزيت يستخرج من نبات يعرف بالبلسم ، ورد ذكره فى كتاب « الابنية عن حقائق الادوية » لموفق بن على الهروى . وهو كتاب فارسى من مؤلفات القرن الرابع الهجرى (أنظر : سبك شناسى ج ٢ ص ٢٤) .

(٣) أبو على الحسن بن هانىء المعروف بأبى نواس الحكمى . الشاعر المعروف . كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكمى والى خرسان ، ونسبته اليه . قيل أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سأله عن نسبه ، فقال : أغنانى أدبى عن نسبى فأمسك عنه . من الطبقة الاولى من المولدين ، وشعره عشرة أنواع ، وهو مجيد فى العشرة . كان المأمون يقول : لو وصفت الدنيا نفسها لمـــا وصفت بمثل قول أبى نواس :

ألا كـــل حى هـــالك وابن هـــالك وذو نســـب فى الهالـــكين عـــريق
اذا امتحن الدنيـــا لبيب تـــكشفت لـــه عن عـــدو فى ثيـــاب صـــديق

توفى أبو نواس سنة خمس وقيل ست وقيل ثمان وتسعين ومائة ببغداد ، ودفن فى مقابر الشونيزى . قيل له أبو نواس لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقيه (وفيـــات الاعيان ج ١ ص ١٣٥ — ١٣٦) .

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى المعروف بالجاحظ البصرى : العالم المشهور صاحب التصانيف فى كل فن ، له مقالة فى أصول الدين ، واليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة . كان تلميذا لابى اسحاق بن سيار البلخى المعروف « بالنظام » المتكلم المشهور . من أحسن تصانيفه وأمتعها : كتـــاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » . توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٨٨) .
=

وقد أوجدنا الله عز وجل فى زمان أسمى أهله الهوى شريعة ، وطلب الجاه والرياسة والتكبر عزا وعلما ، ورياء الخلق خشية ، واخفاء الحفيظة فى القلوب حلما ، والمجادلة مناظرة ، والمحاربة والسفاهة عظمة ، والنفاق زهدا ، والتمنى ارادة ، وهذيان الطبع معرفة ، وحركات القلب وحديث النفس محبة ، والالحاد فقرا ، والجحود صفوة ، والزندقة فناء ، وترك شريعة النبى صـــلى الله عليه وســـلم طريقة ، وأسموا آفة أهل الزمان معاملة ، حتى احتجب أرباب المعانى بينهم ، على حين صارت الغلبة لهم ، كما حدث فى الفترة الأولى لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع آل مروان . وما أجمل ما قاله سلطان أهل الحقائق وبرهان التحقيق والدقائق أبو بكر الواسطى(١) رحمة الله : « ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الاســـلام ولا أخلاق الجاهلية ولا أحكام ذوى المروءة(٢) » .

ويقول الشبلى(٣) وفقا لهذا :

(شـــعر عربى)

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيـــد الهم فيها معذب

فصل : أعلم — قواك الله — أنى وجدت هذا العالم محلا لبعض الأسرار الالهية ، والمكونات موضعا لودائعه ، والمثبتات مكانا للطائفة فى حق أحبائه .

= وكان الجاحظ لسان المعتزلة فى عصره ، رد على المشبهة وتكلم فى اعجاز القرآن وألف فى الاحتجاج للنبوة ونصرة الرسالة ، وفى الطبائع . وتكلم فى الخلود فى الاخرة .

من أقواله أن أفعال العباد تنسب الى العباد مجازا وانما هى أفعال الطبيعة تظهر فيهم ، الا الارادة فانها فعل الانسان (ظهر الاسلام ج ٤ ص ١١) . وللجاحظ كتاب « نظم القرآن » (الفهرست ص ٥٧) .

(١) اسمه : محمد بن موسى . من قدماء أصحاب الجنيد وأبى الحسين النورى . أصله من فرغانه ، ويعرف بابن الفرغانى . كان عالمـــا بالاصول وعلوم الظاهر . خرج من العراق وهو شاب ومشايخه فى الاحياء ، فتكلم بخراسان بأبيورد ومرو ، وأكثر كلامه بمرو ، ومات بها بعد العشرين وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٦٥ ، نفحات الانس ص ١٧٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٠٣) .

(٣) أبو بكر الشبلى : اسمه « دلف » ويقال : ابن جحدر . خرسانى الاصل ، بغدادى المولد والمنشأ . تاب فى مجلس خير النساج ، وصحب الجنيد ، وصار أوحد عصره حالا وعلما . كان عالمـــا فقيها على مذهب مالك . مات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٦٠ ، نفحات الانس ص ١٨٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨٦) .

والجواهر والأعراض والعناصر والأجرام والأشباح كلها حجاب تلك الاسرار واثبات كل من هذه فى محل التوحيد شرك ، فالله تعالى قد جعل هذا العالم فى محل الحجاب ، حتى اطمأنت الطبايع كل منها فى عالمه بأمره ، واحتجبت بوجودها عن توحيد الحق،وانشغلت الأرواح فى العالم بمزاجها ، وابتعدت بالمقارنة عن محل الخلاص ، حتى صعب على العقول فهم الأسرار الربانية . واحتجبت لطائف القرب عن الأرواح ، حتى احتجب الانسان بوجوده فى مظلة الغفلة ، وصار معيوبا بحجابه فى محل الخصوصية ، كقول الله تعالى : « والعصر ان الانسان لفى خسر(١) » وقال أيضا « انه كان ظلوما جهولا(٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الخلق فى ظلمة ثم القى عليه نورا(٣) » .

وقد وقع هذا الحجاب مزاجا له (للانسان) فى العالم ، لتعلق الطباع به ، ولتصرف العقل فيه ، حتى صار مكتفيا بجهله ، واشترى بروحه حجابه عن الحق ، لأنه غافل عن جمال الكشف . وأعرض عن تحقيق السريرة الربانية ، واستقر فى محل الدواب ، وجفل من محل نجاته . ولم يشم رائحة التوحيد ، ولم ير جمال الأحدية ، ولم يذق ذوق التوحيد ، وعجز بالتقليد عن تحقيق المشاهدة ، ورجع بحرص الدنيا عن ارادة الله ، وقهر النفس الناطقة(٤) بالنفس الحيوانية(٥) المجردة من الحياة الربانية . وأقر حركاته وطباعه جملة فى نصيب الحيوانية ، ولا يعرف غير الأكل والنوم ومتابعة الشهوات . وقد أمر الله عز وجل أحباءه بالأعراض عن هذا كله ، وقال : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون(٦) » . لأن سلطان طبعهم أخفى عليهم سر الحق ، وحل بهم الخزلان والحرمان مكان العناية والتوفيق ، وأصبحوا جميعا متابعين للنفس الأمارة — وهى الحجاب الأعظم ومنبع السوء والشر — كما قال الله تعالى : « ان النفس لأمارة بالسوء(٧) » .

والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضح مقصودك فى المقامات والحجب ،

---

(١) سورة « العصر » آية ١ ، ٢
(٢) سورة « الاحزاب » آية ٧٢
(٣) لم أجد له سندا .
(٤) النفس الناطقة : هى الجوهر المجرد عن المادة فى ذواتها ، مقارنة لها فى افعالها . (تعريفات الجرجانى ص ١٤٢) .
(٥) النفس الحيوانية : هو كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة . (المصدر السابق) .
(٦) سورة « الحجر » آية ٣
(٧) سورة « يوسف » آية ٥٣

وابسطها ببيان لطيف ، وأشرط عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا من أقوال المشايخ ، وأمده بغرر الحكايات ، ليتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر فى هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم : أن لطريق التصوف أصلا قويا وفرعا مثمرا .

وقد حث جميع المشايخ من أهل العلم كل المريدين على تعلم العلم ، والمداومة عليه ، حتى صاروا حريصين عليه ، ولم يتابعوا اللهو والهزل أبدا ، ولم يسلكو طريق اللغو ، بعد أن صنف كثير من مشايخ الصوفية وعلمائهم فى هذه المعانى ، وأظهروا بالعبارات اللطيفة براهين من الخواطر الربانية ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

الباب الأول

باب إثبات العلم

قوله تعالى فى وصف العلماء : « انما يخشى الله من عباده العلماء(١) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم(٢) » . وقال ايضا : « أطلبوا العلم ولو بالصين(٣) » .

واعلم أن العلم كثير ، والعمر قصير . وليس تعلم كل العلوم ، مثل علم النجوم والطب وعلم الحساب والصناعات البديعية وما يشبه هذا ، فريضة على الناس ، الا بالقدر الذى يتعلق بالشريعة من كل من هذه العلوم ، فالنجوم لمعرفة الوقت فى الليل ، والطب للاحتماء ، والحساب للفرائض ومدة الحيض ، وما يشبه هذا ، ففرائض العلم بقدر ما يصح به العمل .

وقد ذم الله عز وجل أولئك الذين يتعلمون العلوم غير النافعة فى قوله تعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم(٤) » . والرسول عليه السلام استعاذ وقال : « أعوذ بك من علم لا ينفع(٥) » .

واعلم أنه يمكن عمل الكثير من علم قليل . وينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل كما قال عليه السلام: «المتعبد بلا فقه كالحمار فى الطاحونة(٦)».

---

(١) سورة « فاطر » آية ٢٨

(٢و٣) رواه البيهقى فى شعب الايمان وابن عبد البر فى العلم عن أنس بن مالك : « اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » (شرح المناوى للجامع الصغير جـ ١ ص ٧٢) .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٠٢

(٥) رواه أحمد فى مسنده وابن حيان فى صحيحه عن أنس : اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع (شرح المناوى للجامع الصغير جـ ١ ص ٧٣) .
وقد عرف الغزالى العلم الذى لا ينفع بأنه العلم المذموم ، وان كان العلم لا يذم لعينه وانما يذم فى حق العباد لاحد هذه الاسباب الثلاثة :
١ — أن يكون العلم مؤذيا لضرر ما لصاحبه أو غيره .
٢ — أن يكون مضرا بصاحبه فى غالب الامر كعلم النجوم .
٣ — الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم . (احياء علوم الدين : أنظر جـ ١ ص ٢٦) .

(٦) رواه أحمد فى مسنده عن واثلة (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٢٥) .

فشبه المتعبدين بلا فقه بحمار الطاحونة ، لأنه مهما يدور يظل فى مكانه ولا يقطع أى طريق .

ورأيت طائفة من العوام فضلت العلم على العمل ، وطائفة أخرى فضلت العمل على العلم ، وكلاهما باطل ، لأن العمل بلا علم لا يكون عملا ، فالعمل يصير عملا حين يكون موصولا بالعلم ، ليكون العبد بذلك متجها لثواب الحق(١) . مثال ذلك : الصلاة ، فانه ما لم يكن العلم أولا بأركان الطهارة ، ومعرفة الماء والقبلة وكيفية النية وأركان الصلاة ، فالصلاة لا تكون صلاة . ومادام العمل يصير عملا بعين العلم ، فكيف يقول جاهل بفضله عنه ؟

وأولئك الذين فضلوا العلم على العمل ، على باطل أيضا ، لأن العلم بلا عمل لا يكون علما ، فالتعلم والحفظ والاستيعاب كلها عمل ، لأن العبد مثاب بذلك . ولو لم يكن علم العالم بفعله وكسبه ، لما كان له بذلك أى ثواب .

وهذا كلام طائفتين(٢) ، احداهما : أولئك الذين ينسبون جاه الخلق الى العلم ولا طاقة لهم بمعاملته ، ولم يصلوا الى تحقيق العلم ، فيفضلون العمل عن العلم لأنهم لا يعرفون علما ولا عملا ، حتى ليقول جاهل : لا يلزم القال ويلزم الحال(٣) ، ويقول آخر : يلزم العلم ولا يلزم العمل .

---

(١) يتفق رأى الهجويرى فى ضرورة ارتباط العلم بالعمل وانابة العبد بهما مع رأى أبى طالب المكى حيث يقول : اعلم ان من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران : أجرالتوفيق ، وأجر العمل . وهذا مقام العارفين . (قوت القلوب : أنظر ج ١ ص ٢٨٠) .

(٢) أورد المؤلف قول الطائفة الاولى فقط .

(٣) يقسم الصوفية العلوم تقسيمات مختلفة ، منها تقسيمهم العلم الى ظاهر وباطن ، وتقسيمهم العلوم الى علوم الدنيا وعلوم الآخرة ، وتقسيمهم العلم الى علم القال وعلم الحال .
أما علم القال فيطلقونه على بعض العلوم الدينية كالفقه وعلم الكلام والجدل ، وأما علم الحال فهو علم التصوف الذى يتعلق بالمقامات والاحوال : كالمحبة ، واليقين ، والمعرفة وغيرها . وهم ينظرون الى العلوم من النوع الاول على أنها من الامور الكسبية التى يكتسبها الانسان بالتعلم . أما العلوم من النوع الثانى فهى من الامور الذوقية والمواهب الالهية التى يمنحها الله للمقربين من الصوفية ويختصهم بها . يقول الجنيد :

علم التصوف ليس يعرفه ... الا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

(قوت القلوب : أنظر ج ١ ص ٣٢٤) .

ويرد عن ابراهيم بن أدهم(١) رحمه الله أنه قال : رأيت حجرا ملقى فى الطريق ، وقد كتب عليه : أدرنى واقرأ . قال : فأدرته ، ورأيت أنه قد كتب عليه : « أنت لا تعمل بما تعلم ، فكيف تطلب ما لاتعلم ؟ » .

أى : اعمل بما تعلم حتى تعلم أيضا ببركات ذلك ما لم تعلم .

ويقول أنس بن مالك(٢) رضى الله عنه : « همة العلماء الدراية ، وهمة السفهاء الرواية » ، لأن أخوات الجهل منتقية عن العلماء ، فمن يطلب بالعلم جاه الدنيا وعزها لا يكون عالما ، لأن طلب الجاه والعز من أخوات الجهل . ولا درجة قط فى المرتبة مثل العلم ، لأنه حين لا يكون لا يعلم — العبد — أى لطيفة لله تعالى ، وحين يوجد يكون لائقا لجميع المقامات والشواهد والمراتب .

فصل : اعلم أن العلم علمان : أحدهما علم الله تعالى ، والآخر علم الخلق . وعلم العبد يتلاشى فى جنب علم الله تعالى ، لأن علمه صفته وقائم به(٣) ، ولا نهاية لأوصافه . وعلمنا صفتنا وقائم بنا ، وأوصافنا منتهية ، لقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا(٤) » .

وفى الجملة : العلم من صفات المدح ، وحده الاحاطة بالمعلوم وتبين المعلوم ، وأفضل حدوده هو أن « العلم صفة يصير الحى بها عالما » . والله عز وجل قال : « والله محيط بالكافرين(٥) » . وقال أيضا : « والله بكل شىء عليم(٦) » .

وعلم الله: هو علم يعلم به جملة الموجودات والمعدومات ، ولا مشاركة للخلق معه ، وهو غير متجزىء وغير منفصل عنه . والدليل على علمه

---

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم : من أهل بلخ . كان من أبناء الملوك فهتف به هاتف أيقظه من غفلته . صحب سفيان الثورى والفضيل بن عياض بمكة . ودخل الشام فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده . مات بالشام سنة احدى أو اثنتين وستين ومائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ٥١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٥ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٤١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٣٦) .

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام ، الانصارى البخارى . خدم النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وشهد بدرا . مات سنة تسعين أو بعدها . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٥) .

(٣) يعارض الهجويرى هنا رأى المعتزلة الذى يقول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته . ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته لا يعلم وقدرة وحياة هى صفات قديمة ومعان قائمة به (الملل والنحل على هامش الفصل : أنظر ج ١ ص ٥٥) .

(٤) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .

(٥) سورة « البقرة » آية ١٦ .

(٦) سورة « البقرة » آية ٢٨٢

ترتيب فعله ، لأن الفعل المحكم يقتضى علم الفاعل ، فعلمه لاحق بالأسرار ومحيط بالظواهر .

وينبغى للطالب أن يعمل الأعمال فى مشاهدته ، بحيث يعلم أن — الله — بصير به وبأفعاله .

ترد حكاية ، أنه كان بالبصرة(١) رئيس ذهب الى حديقة له ، فوقعت عينه على جمال امرأة فلاح ، فأرسل الرجل لشغل ، وقال للمرأة : غلقى الأبواب . قالت : غلقت كل الأبوابالا بابا لا أستطيع اعـلاقه ! قال : أى باب ذاك ؟ قالت : الباب الذى بيننا وبين الله جل جلاله ! فندم الرجل واستغفر .

حكاية : قال حاتم الأصم(٢) رضى الله عنه : اخترت أربعة من العـلوم فنجوت من كل العالم . قيل : ما هى ؟ قال :

أولها : انى عرفت أن لله تعالى حقـا لا يستطيع غيرى أن يؤديه ، فانشغلت بأدائه .

وثانيهما : أنى عرفت أن لى رزقا مقسوما لا يزيد بحرصى ، فاسترحت من طلب الزيادة .

وثالثها : أنى عرفت أن لى طالبا — أى الموت — لا أستطيع الفرار منه فتهيأت له .

ورابعها : أنى عرفت أن لى الها جل جلاله مطلع على فخجلت منه ، وامتنعت عما لا يليق عمله ، لأنه حين يكون العبد عالما بأن الله تعالى ناظر اليه ، لا يعمل عملا يخجل منه يوم القيامة .

فصل : أما علم العبد ، فينبى أن يكون فى أمور الله تعالى ومعرفته . وعلم الوقت وما يفيد بموجبه ظاهرا وباطنا فريضة على العبد ، وهو على قسمين :

---

(١) « البصرة » : اختطها عتبة بن غزوان المازنى عامل عمر بن الخطاب . وكانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها فى وقت افتتاحها فى ولاية عمر بن الخطاب فى سنة سبع عشرة (البلدان ص ٨٥) .

(٢) حاتم بن عنوان الاصم : ويقال حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن . من قدماء مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . صحب شقيق بن ابراهيم ، وكان أستاذ أحمد بن خضروية . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة ج ١ ص ٨٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .

أحدهما : الأصول ، والآخر : الفروع . وكل واحد منهما له ظاهر وباطن فظاهر الأصول : قول الشهادة ، وباطن الأصول : تحقيق المعرفة .

وظاهر الفروع : ممارسة المعاملة ، وباطن الفروع : تصحيح النية .

وقيام كل هذين بدون الآخر محـال ، فظاهر الحقيقة بلا باطن : نفاق ، وباطن الحقيقة بلا ظاهر : زندقة . وظاهر الشريعة بلا باطن : نفس ، وباطن الشريعة بلا ظاهر : هوس .

ولعلم الحقيقة أركان ثلاثة :

الأول : العلم بذات الله عز وجل ووجدانيته ، ونفى التشبيه عن ذاته المنزهة جل جلاله .

والثانى : العلم بصفات الله وأحكامها .

والثالث : العلم بأفعال (الله) وحكمته .

ولعلم الشريعة أركان ثلاثة :

الأول : الكتاب .

والثانى : السنة .

والثالث اجماع الأمة .

والدليل على العلم يكون باثبات ذات الله تعالى وصفاته المنزهة وأفعاله، لقوله تعالى : « فاعلم انه لا اله الا الله(١) » . وقال أيضا : « فاعلموا أن الله مولاكم(٢) » . وقال أيضا : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل(٣) » . وقال أيضـا : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت(٤) » . ومثل هـذه الآيات كثيرة ، وهى كلها دلائل على النظر فى أفعال الله تعـالى وتقدس ، ليعرف بتلك الأفعال الفاعل بصفاته .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من علم أن الله تعالى ربه وأنى نبيه حرم الله تعالى لحمه ودمه على النار(٥) » .

أما العلم بذات الله تعالى فهو : أن يعلم العاقل والبالغ أن الله تعـالى

---

(١) سورة « محمد » آية ١٩

(٢) سورة « الانفال » آية ٤٠

(٣) سورة « الفرقان » آية ٤٥

(٤) سورة « الغاشية » آية ١٧

(٥) رواه البزاز عن عمران : « من علم ان الله ربه وأنى نبيه موقنا من قلبه حرمه الله على النار » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٠٦) .

موجود فى قدم ذاته ، ولا حد ولا حدود له . وأنه ليس فى مكان أو جهة ، وليست ذاته موجب آفة ، ولا شبيه له من خلقه،ولا صاحبة له ولا ولد. وكل ما يتصور فى الوهم ويقاس فى العقل فهو جل جلاله خالقه ، وما لكه ، وربه ، لقوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير(١) » .

وأما العلم بصفات الله فهو : أن تعلم بأن صفاته تعالى موجودة به ، فهى ليست هو ، ولا جزءا منه ، هى قائمة به ، وهو قائم بذاته ، ودائم : مثل العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والبقاء ، لقوله تعالى : « أنه عليم بذات الصدور(٢) » . وقال أيضا : « والله على كل شىء قدير »(٣) . وقال أيضا : « هو الحى لا اله الا هو »(٤) . وقال أيضا : « وهو السميع البصير »(٥) . وقال أيضا : « فعال لما يريد »(٦) . وقال أيضا : « قوله الحق »(٧) .

وأما العلم بأفعال الله فهو : أن تعلم أنه تعالى وتقدس خالق الخلق وخالق أفعالهم ، وأن العالم لم يكن موجودا وصار موجودا بفعله ، وهو مقدر الخير والشر ، وخالق النفع والضر ، لقوله تعالى : « خالق كل شىء »(٨) .

والدليل على اثبات أحكام الشريعة هو : أن تعلم أنه قد جاءنا رسل من الله تعالى بمعجزات ناقضة للعادة ، وأن رسولنا محمدا المصطفى صلى الله عليه وسلم حق ، وله معجزات كثيرة . وأن ما أخبرنا به من غيب وعيان كله حق .

والركن الأول من الشريعة : الكتاب ، لقوله تعالى : « منه آيات محكمات »(٩) .

والثانى : السنة ، لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(١٠) .

---

(١) سورة « الشورى » آية ١١ .
(٢) سورة « الشورى » آية ٢٤ .
(٣) سورة « البقرة » آية ٢٨٤
(٤) سورة « غافر » آية ٦٥ .
(٥) سورة « الشورى » آية ١١
(٦) سورة « هود » آية ١٠٧
(٧) سورة « الانعام » آية ٧٣
(٨) سورة « الرعد » آية ١٦
(٩) سورة « آل عمران » آية ٧
(١٠) سورة « الحشر » آية ٧

والثالث : اجماع الأمة ، لقوله عليه السلام : « لا تجتمع أمتى على الضلالة ، عليكم بالسواد الأعظم »(١) .

وفى الجملة : ان أحكام الحقيقة كثيرة ، واذا أراد أحد أن يجمعها كلها لا يستطيع ، لأنه لا نهاية للطائف الحق تعالى .

فصل : اعلم أنه توجد جماعة من الملحدة — لعنهم الله — يسمونهم السوفسطائية(٢) ، يذهبون الى أنه لا يصح العلم بأى شىء ، وأن العلم ذاته غير موجود .

ونقول لهم : هذا العلم الذى تعرفون أنه لا يصح به العلم بأى شىء : صحيح أم لا ؟ فاذا قالوا : نعم ، فقد أثبتوا العلم ، واذا قالوا : لا ، فالشىء الذى لا يصح ، تكون معارضته محالا . والكلام مع قائل ذلك لا يكون من العقل .

وهناك فريق من الملاحدة(٣) الذين ينتمون الى هذه الطريقة يقولون أن علمنا لا يصح بشىء ، فترك العلم أتم لنا من اثباته . وهذا من حمقهم وضلالتهم وجهلهم ، لأن ترك العلم لا يخرج عن اثنتين : اما أن يكون بعلم ، أو بجهل . والعلم لا ينفى العلم ، ولا يكون ضده . وترك العلم بالعلم محال . ويبقى هنا الجهل ، فاذا صح أن نفى العلم يكون جهلا ، وأن تركه يكون بالجهل ، والجاهل مذموم ، والجهل قرين الكفر ، فان — قولهم هذا — يكون باطلا ، اذ لا تعلق للحق بالجهل . وهذا مخالف لجميع المشايخ .

ولما سمع الناس هذا القول وعملوا به ، قالوا : ان مذهب جملة أهل التصوف هو هذا ، ومسلكهم هكذا ، حتى تشوش اعتقادهم ، وعجزوا عن تميز الحق من الباطل . وقد سلمنا الأمور كلها لله تعالى ليظلوا فى ضلالهم ،

---

(١) رواه ابن ماجه عن أنس : « ان أمتى لن تجتمع على ضلالة فاذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الاعظم » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٥١) .
(٢) « السوفسطائية » : ذكرهم ابن حزم على أنهم مبطلو الحقائق . أنظر « الفصل » ج ١ ص ٨ . وفى « التعريفات » و « أقرب الموارد » : السفسطه والسفسطه — بفتح وكسر السين — (يونانية) قياس مركب من الوهميات ، والغرض من افحام الخصم واسكاته ج سفسطات . السفسطى من يأتى بالسفسطة . السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات وغيرها . (أنظر تعريفات الجرجانى ص ٦٨) .
(٣) « الملاحدة » : حيثما ذكر الهجويرى اسم الملاحدة فانه يقصد به الصوفية الادعياء الذين أحدثوا فى التصوف أمورا تتنافى مع ما يراه المحققون من الصوفية : من ذلك قولهم بالتحلل من الشرائع وسقوط التكاليف من عبادات وطاعات عمن بلغوا مرتبة الولاية ، وغير ذلك مما يتنافى مع الدين والشرع ، ويشير اليه الهجويرى فى موضعه.

فان يتمكن الدين منهم ، فانهم يتصوفون تصوفا خيرا من هذا ، ولا يتجنبون حكم الرعاية ، ولا ينظرون الى أحباء الله عز وجل بهذه النظرة ، ويحتاطون فى أحوالهم أفضل من هذا .

واذا تعلق قوم من الملاحدة بهؤلاء الأحرار ليخلصوا أنفسهم من الآفات بجمالهم ، وليعيشوا فى ظل عزهم ، فلماذا يقيسون الكل عليهم ، ويختارون فى معاملتهم المكابرة العيانية ، ويدوسون قدرهم — فى هذا الباب — بأقدامهم ؟

وقد جرت لى مناظرة مع دعى منتسب الى العلم ، اسمى تاج الرعونة عز العلم ، ومتابعة الهوى سنة الرسول عليه السلام ، وموافقة الشيطان سيرة الأئمة ، وقال فى مناظرته : ان الملاحدة اثنتا عشر طائفة ، واحدة منها بين المتصوفة . فقلت له : اذا كان بين المتصوفة طائفة واحدة من هؤلاء ، فان الاحدى عشرة الأخرى بينكم ! وهم يستطيعون أن يحموا أنفسهم من طائفة ، أفضل مما تستطيعون أنتم حماية أنفسكم من الاحدى عشرة .

وكان هذا كله نتيجة لفتور الزمن ، والآفات التى ظهرت . وقد حفظ الله تعالى أولياءه دائما بين قوم ، وجعل أولئك القوم مهجورين بين الخلق من أجلهم . وما أجمل ما قال شيخ المشايخ وشمس المريدين « على بن بندار الصيرفى »(١) رحمة الله عليه : « فساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله »(٢) .

والآن : أورد فصلا فى أقاولهم ليكون تنبيها لمن للحق فى أمره عناية صادقة من منكرى هذه الطائفة ، وبالله التوفيق .

فصل : يقول محمد بن الفضل البلخى(٣) رحمه الله : « العلوم ثلاثة : علم من الله ، وعلم مع الله ، وعلم بالله »(٤) .

---

(١) أبو الحسن على بن بندار الصيرفى : كان من أجله شيوخ نيسابور . صحب كثيرا من الشيوخ ، وكتب الحديث الكثير ورواه . مات سنة تسع وخمسين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٥٠١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ١١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٠٣) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس . مريد أحمد بن خضروية . كان من أجلة مشايخ خراسان . أصله من بلخ وأخرج منها بسبب المذهب فنزل سمرقند ومات بها سنة تسع عشرة وثلثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٢ ، الرسالة ج ١ ص ١١٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٧ ، نفحات الانس ص ١١٦) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية مع شرح آخر (انظر : ص ٢١٥) .

فالعلم بالله : هو علم المعرفة الذى عرفه به جميع أوليائه . ولو لم يكن تعريفه وتعرفه لما عرفوه ، لأن كل أسباب الاكتساب المطلق منقطعة عن الحق تعالى . ولا يصير علم العبد علة لمعرفة الحق ، لأن علة معرفته تعالى وتقدس انما هى أيضا هدايته واعلامه .

والعلم من الله : هو علم الشريعة ، وهو أمر وتكليف منه لنا .

والعلم مع الله : هو علم مقامات طريق الحق ، وبيان درجات الأولياء . فالمعرفة اذن لا تصح بدون قبول الشريعة ، وممارسة الشريعة لا تستقيم بغير اظهار المقامات .

ويقول أبو على الثقفى(١) رحمه الله : « العلم حياة القلب من الجهل ، ونور العين من الظلمة »(٢) .

اى أن العلم حياة القلب من موت الجهل ، ونور لعين اليقين من ظلمة الكفر . وكل من يجهل علم المعرفة قلبه ميت بالجهل ، وكل من يجهل علم الشريعة قلبه مريض بالجهل ، فقلوب الكفار ميتة لأنها جاهلة بالله تعالى ، وقلوب أهل الغفلة عليلة لأنها جاهلة بأوامره .

ويقول أبو بكر الوراق الترمذى(٣) رحمه الله : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد تزندق ، ومن اكتفى بالفقه دون الورع تفسق »(٤) .

والمراد بهذا القول أن تجريد التوحيد بلا معاملة ومجاهدة يكون جبرا ، والموحد يكون جبرى القول وقدرى الفعل ، ليصح مسلكه بين الجبر والقدر .

---

(١) اسمه محمد عبد الوهاب . لقى أبا حفص الحداد وحمدونا القصار ، كان أماما فى أكثر علوم الشرع ، مقدما فى كل فن منه . عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية وتكلم فيه أحسن الكلام . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٦١ ، الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨١ ، نفحات الانس ص ٢٠٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٢) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٦٤) .

(٣) هو محمد بن عمر الحكيم . أصله من ترمذ وأقام ببلخ . لقى أحمد بن خضرويه وصحبه . وصحب محمد بن سعد بن ابراهيم الزاهد ، ومحمد بن عمر بن خشنام البلخى ، له الكتب المشهورة فى أنواع الرياضات والمعاملات والآداب . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٢١ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٠٢ ، نفحات الانس ص ١٢٣) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية على هذا النحو : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تذندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق ، ومن تفنن فى هذه الامور كلها تخلص » . (انظر طبقات الصوفية ص ٢٢٤) .

وهذا حقيقة ما قاله ذلك الشيخ — رحمة الله عليه : « التوحيد دون الجبر وفوق القدر » ، فكل من يكتفى من التوحيد بالعبارة دون المعاملة يصير زنديقا . أما الفقه فيشترط له الاحتياط والتقوى ، وكل من ينشغل بالرخص والتأويلات والتعلق بالشبهات ويحوم حول المجتهدين بلا مذهب ، للترخص ، سرعان ما يقع فى الفسق . وهذا كله يتأتى من الغفلة .

وحسنا قال شيخ المشايخ بن معاذ الرازى(١) رحمه الله : « اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والفقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين »(٢) .

أما العلماء الغافلون ، فهم أولئك الذين جعلوا الدنيا قبلة قلوبهم ، واختاروا السهولة من الشرع ، واتخذوا عبادة السلاطين وصيروا بلاطهم مطافهم ، وجعلوا جاه الخلق محرابهم ، وانخدعوا بغرور مهارتهم ، وشغلوا قلوبهم برقة كلامهم ، وأطلقوا لسان طعنهم فى الأئمة والأساتذة ، وانشغلوا بقهر علماء الدين بكلام مزيد عليه ، واذا وضعوا الكونين فى كفة ميزانهم لا يظهران ، ومن ثم صيروا الحقد والحسد مذهبا . وجملة القول : ان هذا كله لا يكون علما ، لأن العلم صفة تنتفى بها كل أنواع الجهل عن الموصـــوف .

وأما الفقراء المداهنون ، فهم أولئك الذين حين يكون فعل شخص موافقا لهواهم ، وان يكن باطلا ، فانهم يمدحونه به ، وحين يعمل عمـــلا على خلاف هواهم ، وان يكن حقا ، فانهم يذمونه به . وهم بمعاملتهم يطمعون فى الجاه من الخلق ، ويداهنونهم على الباطل .

وأما المتصوف الجاهل ، فهو الذى لم يصحب شيخا ، ولم يتلق الأدب عن كبير ، ولم يذق عرك الزمان له ، ويرتدى الأزرق بلا بصيرة ، ويلقى بنفسه بين (الصوفية) ، ويسلك فى الخزى طريق الانبساط فى صبتحهم ، وقد حمله حمقه على أن يظن الجميع مثله ، ومن ثم يشكل عليه طريق الحق والباطل .

وكان المراد من هذه الطوائف الثلاث التى ذكرها ذلك الموفق ، وأمر المريد

---

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى الواعظ . تكلم فى علم الرجاء . وله كلام فى المعرفة . خرج الى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع الى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين . وروى الحديث (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٧ ، الرسالة جـ ١ ص ٩١ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٦٤ ، تذكرة الاولياء جـ ١ ص ٢٩٨ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء جـ ١ ص ١١٠)

(٢) ورد فى طبقات الصوفية مع تحريف فى كلمة « الفقراء » حيث وردت « القـــراء » (انظر : ص ١١٣) .

بالاعراض عن صحبتهم هو أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم ، وناقصين فى سلوكهم .

يقول أبو يزيد البسطامى(١) رحمه الله : « عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته »(٢) .

وفى الجملة : ان السير على النار أيسر على الطبع من السير على موافقة العلم ، وعبور الصراط ألف مرة يكون أسهل على قلب الجاهل من تعلم مسألة واحدة من العلم ، وضرب خيمة فى الجحيم أحب الى الفاسق من العمل بمسألة من العلم ، فليكن لزاما عليك تعلم العلم ، وطلب الكمال فيـــه .

وكمال علم العبد يكون جهلا الى جنب علم الله عز اسمه . ويجب أن تعلم كثيرا حتى تعلم انك لا تعلم(٣) . ومعنى هذا أن العبد لا يستطيع أن يعلم الا علم العبودية ، والعبودية حجاب أعظم عن الألوهية .

ويقول واحد فى هذا المعنى :

(شـــعر عربى)

العجـــز عن درك الادراك ادراك والوقف فى طـــرق الأخيار اشراك

فمن لا يتعلم ويصر على الجهل يكون مشركا ، ومن يتعلم ويظهر له معنى فى كمال علمه ، ويزول غرور علمه ويعلم أنه لا عاقبة لعلمه سوى العجز فى طلب العلم — لأنه لا تأثير للتسميات فى حق المعانى — فعجزه هذا عن ادراك العلم ، ادراك للعلم ، والله أعلم .

---

(١) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان . كان جده سروشان مجوسيا فأسلم . فارسى الاصل من أهل بسطام ، ومن أوائل القائلين بالفناء والمروجين لوحدة الوجود ، ومذهبه يقوم على السكر . مات سنة احدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وستين ومائتين . (انظر ترجمتـــه فى الباب الحادى عشر ، طبقـــات الصوفية ص ٦٧ ، الرسالة جـ ١ ص ٨٠ ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٤٠ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٦١ ، تذكر الاولياء جـ ١ ص ١٣٤ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء جـ ١ ص ٥١٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية ، وزيد عليه : « ولولا اختلاف العـــلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا فى تجريد التوحيد » . (انظر : ص ٧٠) .

(٣) فى هذا المعنى يقول الشاعر الفارسى أبو شكور البلخى من شعراء العصر السامانى مباهيا بسعة علمه ومزريا بقصور علم البشر :

تا بـــدانجا رســـيد دانش من كه بـــــدانم همى كه نادانم

والمعنى :

لقد بلغ علمى أن أعلم أنى جاهـــل .

ويعزى مثل هذا القول الى حكماء اليونان ، وكان يردده سقراط .

الباب الثانى

باب الفقر

اعلم أن للفقر ، فى طريق الله عز وجل ، مرتبة عظمى . وللفقراء خطر كبير ، كما قال الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف »(١) . وقال أيضا : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء »(٢) . وقال أيضا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا »(٣) .

واختار الرسول صلى الله عليه وسلم الفقر ، وقال : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين »(٤) . وقال أيضا : يقول الله تعالى فى يوم القيامة : « أدنوا منى أحبائى . فيقول الملائكة : من أحباؤك ؟ فيقول فقراء المسلمين » .

ومثل هذه الآيات والروايات كثير ، الى حد أنها لشهرتها لا يحتاج لاثباتها لصحة الدلائل .

وكان الفقراء والمهاجرون فى وقت النبى عليه السلام هم أولئك الذين أقاموا فى مسجده فى حكم أداء العبودية ، وصحبة النبى عليه السلام ، وأعرضوا عن الأشغال كلية ، وقالوا بترك المعارضة ، واعتمدوا على الله تعالى فى رزقهم ، وتوكلوا عليه ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبتهم والقيام بحقهم ، قال عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »(٥) . وقال أيضا : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا »(٦) الى حد أن

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .
(٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .
(٣) سورة « السجدة » آية ١٦ .
(٤) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى سعيد (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٣) .
(٥) سورة « الأنعام » آية ٥٢ .
(٦) سورة « الكهف » آية ٢٨ .

كان الرسول عليه السلام حيثما يرى واحدا منهم يقول : بأبى وأمى أولئك الذين عاتبنى الله تعالى من أجلهم .

فالله تعالى قد أعطى للفقر مرتبة ودرجة عظمى ، وخص الفقراء بها ، حتى قالوا بترك الأسباب الظاهرة والباطنة ، ورجعوا الى المسبب كلية ، وصار فقرهم فخرا لهم ، الى حد أنهم بكوا لزواله ، وفرحوا لقدومه ، واعتنقوه ، واحتقروا كل شيء عدا أخواته(١) .

أما الفقر فله حقيقة ورسم(٢) : ورسمه الافلاس الاضطرارى ، وحقيقته الاقبال الاختيارى فمن رأى الرسم ركن الى الاسم ، فلما لم يدرك المراد جفل عن الحقيقة . ومن أدرك الحقيقة أعرض عن الموجودات ، وأسرع الى فناء الكل فى رؤية الكل ببقاء الكل : « من لم يعرف سوى رسمه ، لم يسمع سوى اسمه » .

فالفقير هو الذى لا يملك شيئا قط ، وليس له خلل فى شيء ، وهو لا يصير غنيا بوجود الأسباب ، ولامحتاجا الى سبب بعدمها ، فوجود الأسباب وعدمها لدى فقره سواء وان يكن فى العدم أكثر سعادة ، فجائز أيضا ، لأن المشايخ قالوا : كلما يكون الفقير أضيق يدا يكون الحال أكثر فتحا عليه . فوجود المعلوم شؤم للفقير ، الى حد أنه لا يجعل أى شيء فى قيده الا ويكون هو أيضا فى القيد بذلك القدر . فحياة أحباب الحق مع الحق تكون بالألطاف الخفية ، والأسرار البهية ، لا بآلات الدنيا الغدارة ، والدار الفجارة ، فالمتاع مناع عن طريق الرضا .

ويرد أنه اتفق لفقير لقاء ملك ، فقال الملك : سلنى حاجة . قال الفقير : أنا لا أسأل عبدا لعبيدى حاجة ! قال الملك : كيف ؟ قال : لى عبدان كلاهما سيد لك : أحدهما الحرص ، والآخر طول الأمل .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الفقر عز لأهله » ، فالشيء الذى يكون عزا للأهل ، يكون ذلا لغير الأهل . وعزه هو أن الفقير يكون محفوظ

---

(١) قيل أن رجلا أتى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه ، وقال له: تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل . (الرسالة ج ٢ ص ٥٣٨) .

(٢) يشير بالرسم الى الفقر المادى ، وبالحقيقة الى الفقر المعنوى . والفقر المادى هو التخلى عن الاسباب ، والفقر المعنوى هو الافتقار الى الله . والفقير الحقيقى هو الذى يفتقر فى وجوده الى الله ، وهو لا يصبح غنيا بوجود الاسباب ، ولا يصير محتاجا بانعدامها ، لان من طبيعة المخلوق الافتقار الى الخالق سواء ملك شيئا او لم يملك ، وكل من يدرك هذه الحقيقة يسرع بالتخلى عن جميع الاسباب ، ويتجه الى مسبب الاسباب ، الغنى الحقيقى ، ليبقى له الغنى به .

الجوارح من الزلل ، ومحفوظ الحال من الخلل ، فلا المعصية والزلل تجرى على جسده ، ولا الخلل والآفة على حاله ، لأن ظاهره مستغرق فى النعم الظاهرة ، وباطنه منبع للنعم الباطنة . وطالما كانت نفسه روحانية وقلبه ربانيا فليس للخلق اليه حوالة ، ولا لآدم اليه نسبة ، حتى يكون فقيرا من حوالة الخلق ونسبة آدم . وهو لا يصير غنيا بملك هذا العالم فى الدنيا ، أو بملك ذلك العالم فى الأخرى . والكونان فى كفة ميزان فقره لا يزنان جناح بعوضة ، وكلا العالمين لا يتسعان لنفس واحد من أنفاسه .

فصل : وقد اختلف شيوخ الصوفية رحمهم الله فى الفقر والغنى ، وأيهما أفضل فى صفات الخلق ، لأن الله تعالى غنى على الحقيقة ، وله الكمال جل جلاله فى جميع أوصافه .

ويحيى بن معاذ الرازى ، وأحمد بن أبى الحوارى(١) ، والحارث المحاسبى(٢) ، وأبو العباس بن عطاء(٣) ، ورويم(٤) ، وأبو الحسن بن شمعون(٥) ، ومن المتأخرين شيخ المشايخ أبو سعيد فضل الله بن محمد

---

(١) أحمد بن أبى الحوارى : من أهل دمشق . كان له أخ يقال له محمد بن أبى الحوارى يجرى مجراه فى الزهد والورع ، وابنه عبد الله بن أحمد من الزهاد ، وأبوه أبو الحوارى كان من العارفين الورعين ، فبيتهم بيت الورع والزهد . توفى سنة ثلاثين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩٨ ، الرسالة ج ١ ص ٩٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٦ ، نفحات الانس ص ٦٥) .

(٢) كنيته : أبو عبد الله ، كان من علماء مشايخ القوم ، عالما بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والاشارات ، عديم النظير فى زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا . بصرى الاصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال عنه الغزالى : المحاسبى خير الامة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٥٦ ، الرسالة ج ١ ص ٧٢ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٢٥ ، نفحات الانس ص ٥١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٢).

(٣) اسمه : سهل بن محمد . من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم . له لسان فى فهم القرآن يختص به . كان من أقران الجنيد ، صحب ابراهيم المارستانى . مات سنة تسع وثلثمائة (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٦٥ ، الرسالة ص ١٣٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٧ ، نفحات الانس ص ١٤١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٥) .

(٤) رويم بن أحمد بن يزيد . كنيته : أبو محمد . من أهل بغداد . كان مقرئا وفقيها على مذهب داود . مات سنة ثلاث وثلثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٨٠ ، الرسالة ج ١ ص ١١٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٤ ، نفحات الانس ص ٩٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

(٥) ورد اسمه فى نفحات الانس : « أبو الحسين بن سمعون » . ترجم له الجامى فذكر أن اسمه محمد بن أحمد بن اسماعيل بن سمعون ، كان يلقب بالناطق بالحكمة . من مشايخ بغداد . توفى سنة ست أو سبع وثمانين وثلثمائة (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٣٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

الميهنى(١) ، رحمة الله عليهم أجمعين ، على أن الغنى أفضل من الفقر ، ويستدلون بأن الغنى صفة للحق تعالى ولا يجوز عليه الفقر ، فالصفة التى تكون مشتركة — فى المحبة — بين العبد والله تعالى ، أتم من الصفة التى لا تجوز عليه تعالى وتقدس .

ونقول : ان هذه المشاركة فى الاسم لا فى المعنى ، لأنه يلزم المماثلة للمشاركة فى المعنى ، ولما كانت صفاته قديمة وصفات الخلق محدثة ، فهذا الدليل يكون باطلا .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله بالخير — أقول : ان الغنى اسم لائق بالحق ، ولا يستحق الخلق هذا الاسم . والفقر اسم لائق بالخلق ، ولا يجوز على الحق . ومن يسمونه غنيا على المجاز لا يكون كالغنى على الحقيقة .

والدليل الأوضح هو : أن غنانا يكون بوجود الأسباب ، ونكون نحن مسببين فى حال قبول الأسباب ، وهو مسبب الأسباب ، وليس لغناه سبب ، فالمشاركة فى هذه الصفة باطلة .

وأيضا : لما كانت المشاركة فى العين لا تجوز لأحد معه ، فهى أيضا لا تجوز فى الصفة ، وبما أنها لا تجوز فى الصفة ، فهى لا تجوز فى الاسم . وتبقى بعد ذلك : التسمية ، والتسمية علامة بين الخلق ، ولها حد .

فالغنى لله تعالى هو أنه لا حاجة له بأى أحد أو شىء ، ويفعل ما يريد ، وليس لمراده دافع ، ولا لقدرته مانع ، وهو قادر على قلب الأعيان ، وخلق الضدين ، وكان ولا يزال دائما بهذه الصفة .

وغنى الخلق : منال معيشة ، أو وجود مسرة ، أو نجاة من آفة ، أو راحة بمشاهدة ، وهذا كله محدث ومتغير ، وأصل الطلب والحسرة ، وموضع العجز والتذلل .

اذن : فهذا الاسم للعبد مجاز(٢) ، وللحق تعالى حقيقة ، لقوله تعالى :

(١) سبق ذكره فى القسم الاول ، ترجمته فى الباب الثانى عشر ، تذكرة الاولياء ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٣٠٠ ، رياض العارفين ص ٤٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٢٨) .

(٢) يتفق الامام الغزالى مع الهجويرى فى رفض اسم الغنى للانسان ويسميه : المستغنى، ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شىء ، ويقول ان المستغنى ان سمى غنيا ، لم يكن هذا الغنى مطلقا عليه الا مجازا . (احياء علوم الدين ج ٤ : انظر ص ١٦٥).

« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله »(١) . وقال أيضا : « والله الغنى وأنتم الفقراء »(٢) .

وتقول طائفة من العوام أيضا : أننا نفضل الغنى على الفقير لأن الله تعالى خلقه سعيدا فى الدارين ، ومن عليه بالغنى . وهذه الطائفة تريد هنا بالغنى كثرة المتاع ، وادراك الغايات ، ومتابعة الشهوات . ويدللون على هذا بأن الله أمر بالشكر على الغنى ، والصبر فى الفقر ، فالصبر يكون فى البلاء ، والشكر يكون فى النعماء ، والنعماء فى الحقيقة أفضل من البلاء .

ونحن نقول : ان (الله) أمر بالشكر على النعمة ، وجعل الشكر علة لزيادة النعمة . وأمر بالصبر على الفقر ، وصير الصبر علة لزيادة القربة ، لقوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم »(٣) . وقال أيضا : « ان الله مع الصابرين »(٤) ، فكل من يشكر فى نعمة أصلها الغفلة ، نزيده غفلة على غفلة ، وكل من يصبر فى فقر أصله البلية ، نزيده قربة على قربة .

أما الغنى الذى يفضله المشايخ على الفقر ، فليس مرادهم ما يسميه العوام بالغنى ، لأن هذا الغنى ادراك للنعم ، وذاك ادراك للمنعم ، فادراك الوصل شىء ، وادراك الغفلة شىء آخر .

ويقول الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير رحمه الله : « الفقر هو الغنى بالله » ، والمراد بهذا : الكشف الأبدى بمشاهدة الحق(٥) .

ونقول : ان المكاشف ممكن الحجاب ، فاذا حجب (الله) صاحب المشاهدة عن المشاهدة ، فهو : اما أن يحتاج اليها ، أو لا يحتاج . فاذا قال : لا يحتاج ، يكون هذا محالا ، واذا قال : يحتاج ، نقول : اذا جاء الاحتياج سقط الغنى .

وأيضا : الغنى بالله قائم الصفة وثابت المراد ، وباقامة المراد واثبات أوصاف الآدمية لا يصح الغنى ، لأن عين هذا نفسه غير قابل للغنى ، لأن وجود البشرية عين الحاجة ، وعلامة الحدث عين الاحتياج ، فالباقى الصفة

(١) سورة « فاطر » آية ١٥ .
(٢) سورة « محمد » آية ٣٨ .
(٣) سورة « ابراهيم » آية ٧ .
(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٣ .
(٥) فى هذا اشارة الى ما حدث بين أبى سعيد بن أبى الخير وأبى مسلم الفارس عندما دخل على أبى سعيد فوجده جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية فاخرة ، فقال أبو مسلم فى نفسه : هذا الرجل يدعى الفقر ؟ فأدرك أبو سعيد ما يجول بخاطره وقال له : « يا أبا مسلم ، فى أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما فى مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ » انظر ترجمة أبى سعيد فى الباب الثانى عشر) .

هو الغنى ، والفانى الصفة لا يليق لأى اسم . فالغنى بالله : فاعل ، ومن أغناه الله ، مفعول ، والفاعل يقوم بنفسه ، والمفعول يقوم بالفاعل ، والقيام بالنفس صفة البشرية ، والقيام بالحق محو الصفة .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — هكذا أقول : لما صح أن الغنى على الحقيقة لا يصح على بقاء الصفة ، لأن بقاء الصفة — بالأدلة المذكورة — محل العلة وموجب الآفة ، وبما أن فناء الصفة نفسه لا يكون غنى ، لأن كل مالا يبقى بنفسه لا يسمى ، وبما أنه يلزم للغنى فناء الصفة ، فاذا فنيت الصفة سقط محل الاسم ، فانه لا يقع على هذا الشخص أسم الفقر ولا اسم الغنى .

وأيضا : يفضل كل المشايخ وكثير من العوام الفقر على الغنى ، لأن الكتاب والسنة ناطقان بفضله ، وكثرة من الأمة مجتمعة على ذلك .

وقد وجدت فى الحكايات(١) أنه ذات يوم ، كان يجرى للجنيد وابن عطاء — رحمة الله عليهما — حديث فى هذه المسألة ، فقدم ابن عطاء الدليل على أن الأغنياء أفضل ، لأنهم يحاسبون فى القيامة ، واسماع الحساب يكون كلام الله بلا واسطة فى محل العتاب ، والعتاب يكون من الحبيب للحبيب . فقال الجنيد : اذا كانوا يحاسبون الأغنياء ، فانهم يعتذرون للفقراء ، والعذر أفضل من عتاب الحساب . وهنا لطيفة عجيبة !

ونقول انه فى تحقيق المحبة يكون العذر غربة ، والعتاب مخالفة ، والأحبة فى محل يبدو فيه هذان آفة فى أحوالهم ، لأن العذر يكون عن موجب تقصير صدر من الحبيب فى حق الحبيب ، وعندما يطلب منه الحبيب حقه يعتذر اليه . والعتاب يكون على موجب تقصير جرى من الحبيب فى أمر الحبيب ، وعندئذ يعاتبه الحبيب على ذلك التقصير . وكلاهما محال .

وفى الجملة : الفقراء مطالبون بالصبر ، والأغنياء بالشكر . وفى تحقيق المحبة لا الحبيب يطلب شيئا من الحبيب ، ولا الحبيب يضيع أمر الحبيب .

اذن : « ظلم من سمى ابن آدم أميرا وقد سماه ربه فقيرا » ، فمن أسماه الحق فقيرا فهو فقير ، وان يكن أميرا ، وهلك من يخال أنه غير أسير ، وان يكن مكانه التخت والسرير ، لأن الأغنياء أصحاب صدقة ، والفقراء أصحاب صدق ، ولا يكون الصدق أبدا كالصدقة . ففقر سليمان

(١) مجموعة من الحكايات من تصنيف بعض شيوخ العراق . والهجويرى ينقل عنها ، ويذكرها مرة باسم : الحكايات ، ومرة باسم : حكايات العراقيين .

فى الحقيقة مثل غنى سليمان ، لأن (الله) قال لأيوب فى شدة صبره : « نعم العبد »(١) ، وقال لسليمان فى استقامة ملكه : « نعم العبد »(٢) ، فلما حصل رضا الرحمن جعل فقر سليمان مثل غنى سليمان .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيرى(٣) رضى الله عنه يقول : تكلم كل من الناس فى الفقر والغنى ، واختار لنفسه شيئا ، وأنا أختار ما يختاره لى الحق ، ويجعلنى فيه ، فاذا جعلنى غنيا لا أكون غافلا ولا تاركا ، واذا جعلنى فقيرا لا أكون حريصا ولا معرضا .

فالغنى نعمة ، والاعراض فيه آفة . والفقر نعمة ، والحرص فيه آفة . والمعانى كلها طيبة ، والمذاهب فيها مختلفة .

والفقر فراغ القلب من الغير ، والغنى انشغال القلب بالغير ، وعندما يتأتى الفراغ ، فلا الفقر أولى من الغنى ، ولا الغنى أولى من الفقر .

والغنى كثرة المتاع ، والفقر قلة المتاع ، والمتاع كله لله ، فاذا قال الطالب بترك الملكية ، زالت المشاركة من البينية ، وفرغ من كلا الاسمين .

فصل : ولكل من مشايخ الطريقة رمز فى هذا المعنى ، وأورد بقدر الامكان أقاويلهم فى هذا الكتاب ، ان شاء الله عز وجل .

يقول واحد من المتأخرين : « ليس الفقير من خلا من الزاد ، أنما الفقير من خلا من المراد » .

أى أن يعطيه الله تعالى مالا ، فاذا كان مراده حفظ المال ، يكون غنيا ، واذا كان مراده ترك المال ، يكون غنيا أيضا ، لأن كلا الأمرين تصرف فى ملك الغير ، والفقر ترك التصرف .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « علامة الفقر خوف زوال الفقر(٤) » .

أى أن علامة صحة الفقر ، أن العبد فى كمال الولاية ، وقيام المشاهدة

(١) سورة « ص » آية ٤٤ .
(٢) سورة « ص » آية ٣٠ .
(٣) سبق ذكره فى القسم الأول (انظر : ص ٦٤ ، انظر ترجمته فى الباب الثانى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩٩ ؛ نفحات الانس ص ٣١٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٣٥) .
(٤) ورد فى الرسالة : « قيل لحيى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .

وفناء الصفة ، يخشى الزوال والقطيعة ، ثم يصل به كمال الحال الى حد أنه لا يخشى القطيعة .

ويقول رويم رحمه الله : « من نعت الفقير حفظ سره ، وصيانة نفسه ، وأداء فرائضه(١) » .

أى أن سره يكون محفوظا من الأغراض ، وجسده مصونا من الآفات ، وتكون أحكام الفرائض جارية عليه، بحيث أن ما يجرى على الأسرار لايشغل الأظهار ، وما يجرى على الأظهار لا يشغل الأسرار ، ولا تمنعه غلبة ذلك عليه من انفاذ الأمر .

وهذا علامة زوال البشرية ، لأن كل العبد يصير موافقا للحق ، وهذا أيضا يصير بالحق .

ويقول بشر الحافى(٢) رضى الله عنه : « أفضل المقامات : اعتقاد الصبر على الفقر(٣) » .

وهذا الصبر والاعتقاد من جملة مقامات العبد ، والفقر فناء مقامات العبد . فاعتقاد الصبر على الفقر علامة رؤية آفات الأعمال ، وسمة فناء الأوصاف .

أما معنى ظاهر هذا القول ، فهو تفضيل الفقر على الغنى ، والاعتقاد بعدم الاعراض أبدا عن الفقر .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقير لا يستغنى بشىء دون الله(٤) » ، لأنه لا يكون له مراد غيره .

وظاهر اللفظ هو أنك لا تدرك الغنى الا به ، فاذا أدركته صرت غنيا ، ووجودك دونه ، ولن تدرك الغنى الا بترك دونه ، واذا وجدت أنت ، صرت حجابا للغنى ، واذا زلت من الطريق ، كيف تكون غنيا ؟ .

---

(١) ورد فى الرسالة : « نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره ، وأداء فرائضه ، وصيانة فقره » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .
(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان . كنيته : أبو نصر . أصله من مرو وسكن بغداد . من الطبقة الاولى من الصوفية . مات سنة سبع وعشرين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٨ ، طبقات الصوفية ص ٣٩ ، الرسالة ج ١ ص ٦٨ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٩٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٠٦ ، نفحات الانس ص ٤٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٣٧) .
(٣) ورد بنصه فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٤١) .
(٤) ورد فى الرسالة : « سئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى العبد بشىء دون الحق » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

وهذا المعنى — فى الحقيقة — غامض جدا ، ولطيف عند أهل المعنى . وحقيقة معنى أن « الفقير لا يستغنى عنه » : ان الفقير هو من لا يكون له غنى أبدا .

وهو نفس المعنى الذى ذكره ذلك الشيخ(١) حيث قال : همنا أبدى ، فلا همتنا تدرك المقصود أبدا ، ولا كليتنا تصير عدما فى الدنيا والآخرة ، لأنه يلزم لادراك الشىء ، المجانسة ، ولا مجانس للحق . ويلزم للاعراض عن حديثه الغفلة ، والفقير ليس غافلا .

اذن : قد وقع بلاء دائم ، وعرض طريق مشكل ، وذلك هو محبة من لا سبيل لأحد الى رؤيته ، ووصاله ليس من جنس مقدور الخلق .

والفناء لا يجرى عليه التبديل ، والبقاء لا يجوز عليه التغيير ، فلا الفانى يصير باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقى يصير فانيا حتى يكون القرب . وأمر احبائه من أوله الى آخره هو أنهم صاغوا عبارات مزخرفة لتسلى قلوبهم ، وبينوا المقامات والمنازل والطريق ، لراحة أرواحهم ، فعباراتهم منهم واليهم ، ومقاماتهم من جنسهم لجنسهم ، والحق تعالى منزه عن أوصاف الخلق وأحوالهم .

ويقول أبو الحسن النورى(٢) رحمه الله : « نعت الفقير ، السكون عند العدم ، والبذل عند الوجود(٣) » .

فمن مراده لقمة حين يعجز عن مراده يسكن قلبه ، وحين تظهر اللقمة يعطيها لمن يراه أولى منه .

وفى هذا القول معنيان : فسكونه فى حال العدم : رضا ، وبذله فى حال الوجود : محبة ، لأن الراضى يكون قابلا للخلعة ، وفى الخلعة علامة القرب . والمحب تارك للخلعة ، لأن فى الخلعة علامة الفراق ، فسكونه فى العدم

---

(١) ورد فى الهامش أن المقصود بذلك الشيخ : « خواجه » عبد الله الانصارى .
(٢) اسمه : أحمد بن محمد . خرسانى الاصل ، بغدادى المنشأ والمولد . يعرف بابن البغوى . كان من أقران الجنيد . صحب سريا السقطى ، ورأى أحمد بن أبى الحوارى . توفى سنة خمس وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٦٤ ، الرسالة ج ١ ص ١١٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٤٦ ، نفحات الانس ص ٧٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٩) .
(٣) ورد فى « التعرف » : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والايثار عند الوجود (أنظر : ص ٩٦) ، وورد فى « الرسالة » : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والايثار عند الوجود (أنظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

انتظار للوجود ، فاذا وجد كان غيره ، وهو لا يستريح مع الغير ، فيقول بتركه .

وهذا هو معنى قول شيخ المشايخ أبى القاسم الجنيد بن محمد : « الفقر : خلو القلب عن الأشكال » ، فحين يخلو القلب عن الانشغال بالشكل والشكل موجود ، فما الوجه سوى طرحه ؟ .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كل عز (١) » .

والعز نصيب الغير ، والمبتلى فى عين البلاء . وأى خبر للمبتلى عن العز الى أن ينظر من البلاء الى المبلى ، وعندئذ يصير بلاؤه كله عزا ، وعزه كله وقتا ، ووقته كله محبة ، ومحبته كلها مشاهدة ، حتى أن دماغ الطالب يصبح — بسبب غلبة الخيال — محلا للرؤية ، فيصير مبصرا بلا عين ، وسامعا بلا أذن .

وما أعز العبد الذى يتحمل عبء بلاء الحبيب ، لأن البلاء عز على الحقيقة والنعماء ذل . والعز هو أن يكون — الفقير — حاضرا بالحق ، والذل أن يكون غائبا عنه .

وبلاء الفقر علامة الحضور ، وراحة الغنى علامة الغيبة ، فالحاضر بالحق عزيز ، والغائب عن الحق ذليل ، لأن الأمر الذى يكون بلاؤه المشاهدة ، ورؤيته الأنس يكون التعلق به ، بأى صفة ، غنيمة .

ويقول الجنيد رحمه الله : « يا معشر الفقراء : انكم انما تعرفون بالله ، وتكرمون لله ، فانظروا كيف تكونون مع الله اذا خلوتم به » .

أى أنه حين يسميكم الخلق فقراء فانهم يوفونكم حقكم ، فكيف تؤدون أنتم حق طريقة الفقر ؟ واذا دعاكم الخلق باسم آخر على خلاف دعواكم ، فلا تروا ذلك منهم ، لأنكم أيضا لا تنصفون دعواكم ، لأنه لا أسوأ ممن يعرف الخلق أنه للحق ولا يكون له ، ولا أسعد ممن يعرف الخلق أنه للحق وهو له ، والأعز (من ذلك) من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو له .

ومثل من يعرف الخلق أنه للحق ولا يكون له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يلزمه طبيب آخر .

ومثل من يعرف الخلق أنه للحق وهو له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يعرف دواء نفسه ويفعله .

---

(١) ورد فى اللمع (أنظر ص ٢٩٢) .

ومثل من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو للحق ، كمثل من يكون طبيبا ولا علم للخلق به ، وهو فارغ من الانشغال بالخلق ، ويحفظ نفسه جيدا بالأغذية الموافقة ، والأشربة الطيبة ، والمفرحات(١) الملائمة ، والأهوية المعتدلة حتى لا يمرض ، وتكون أعين الخلق كلهم مغمضة عن أحواله .

ويقول بعض المتأخرين : « الفقر عدم بلا وجود » . والعبارة منقطعة عن هذا القول ، لأن المعدوم لا يكون شيئا ، ولا يمكن التعبير الا عن شىء . والصورة هنا أن الفقر ليس بشىء ، ولا تكون عبارات كل أولياء الله تعالى واجماعهم على أصل يكون فى عين ذاته فانيا ومعدوما .

ولا يريدون هنا ، من هذه العبارات عدم العين ، بل عدم الآفة من العين . وكل أوصاف الآدمى آفة ، وعندما تنتفى الآفة ، يكون ذلك فناء الصفة . وفناء الصفة يرفع من أمامهم آلة الوصول وعدم الوصول ، فيظهر لهم عدم السلوك بالعين نفيا للعين ، ويهلكون فى ذلك .

ورأيت جماعة من المتكلمين لم يفقهوا صورة هذا المعنى ، وكانوا يضحكون منه ويقولون : ان هذا الكلام غير معقول . ورأيت جماعة من المدعين كانوا قد اعتقدوا شيئا غير معقول — ولم يكن أصل الطريقة معلوما لهم — وكانوا يقولون : الفقر عدم بلا وجود . وكان كلا الفريقين على خطأ: أنكر أحدهما الحق جهلا ، وجعل الآخر الجهل حالا ، وظهر به .

والمراد بالعدم والفناء فى عبارات هذه الطائفة — أى الصوفية — فناء الآلة المذمومة والصفة المرذولة فى طلب الصفة المحمودة ، لا عدم المعنى بوجود آلة الطلب .

وفى الجملة : الفقير فى كل معانى الفقر عارية ، وفى كل الأسباب أصل غريب ، ولكنه طريق الأسرار الربانية ، لتكون أموره من كسبه ، ويكون للفعل نسبة له ، وللمعانى اضافة اليه . واذا تخلصت أموره من قيد

---

(١) مفرحات ج مفرح : اسم دواء كان يطلق عليه (مفرح ياقوت) لعلاج القلب .
يقول الحافظ الشيرازى :

علاج ضعف دل ما بلب حوالت كن — كه اين مفرح ياقوت در خزانه تست

والمعنى :
أحيلى علاج ضعف قلوبنا على شفتيك ، لأن هذا الـ(مفرح ياقوت) فى خزانتك .
وفى هذا البيت اشارة لطيفة الى ما بين اسم الدواء (مفرح ياقوت) ولون الشفتين المشبهتين بالياقوت ، من المشاركة .
غزليات حافظ شيرازى : تحقيق القزوينى وقاسم غنى ص ٢٥ .

كسبه ، تنقطع عنه نسبة الفعل ، وعندئذ يكون هو طريق الشيء الذى يمر عليه ، لا سالك ذلك الطريق ، فهو لا يجلب لنفسه شيئا ، ولا يدفع عن نفسه شيئا ، وما يدل عليه كله للغير .

ورأيت فريقا من المدعين أرباب اللسان ، كان يبدو نفى ظنهم عن ادراك تلك الطريقة نفيا للوجود ، وهذا نفسه عزيز جدا . ورأيت أن نفى مرادهم عن حقيقة الفقر كان يبدو نفيا للصفة فى عين الفقر . ورأيت أنهم كانوا يسمون نفى الحق والحقيقة ، فقرا وصفوة . ورأيت أن اثبات هواهم كان يبدو نفيا للكل . وقد تخلف كل منهم فى درجة من حجب الفقر ، لأنه ظن هذا الحديث علامة كمال الولاية للرجل ، ورائحة هذا الحديث غاية الغايات ، والتولى لعين هذا محل الكمال .

اذن : فلا مناص لطالب هذه الطريقة من سلوك طريقهم ، وطى مقاماتهم ، ومعرفة عباراتهم ، حتى لا يكون عاميا فى محل الخصوصية ، لأن عوام الأصول عن الأصول معرضون ، وعوام الفروع عن الفروع عاجزون ، وكيف ينسب للأصول من قعد عن الفروع ؟ انه عندما يعجز عن الأصول لا تبقى له نسبة لأى مكان . وقد قلت هذا كله لتسلك طريق هذه المعانى ، وتنشغل برعاية حق هذا .

والآن أورد طرفا من أصول هذه الطائفة فى باب التصوف ، ثم أجىء بأسامى الرجال ، ثم أبين أحكام الحقائق والمعارف والشرائع ، ثم آتى باختلاف المذاهب ومشايخ المتصوفة ، ثم أشرح بقدر الامكان آدابهم ورموزهم ومقاماتهم ، لينكشف لك وللقراء حقيقة هذا ، وبالله التوفيق .

الباب الثالث
باب التصوف

قال الله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين(٢) » .

وقد تكلم الناس فى تحقيق هذا الاسم كثيرا ، وألفوا كتبا فى ذلك . وقالت جماعة ان الصوفى يسمى بالصوفى لأنه يلبس ثياب الصوف ، وقالت جماعة انهم سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول ، وقالت طائفة انهم سموا كذلك لأنهم يتولون أهل الصفة ، وقال آخرون ان هذا الاسم مشتق من الصفاء . ولكن هذا الاسم — على مقتضى اللغة — بعيد عن هذه المعانى(٣) .

والصفاء فى الجملة محمود ، وضده الكدر . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها(٤) » .

واسم لطائف الأشياء : صفوها ، واسم أوضارها : كدرها ، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فانهم سموا صوفية ، وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام ، لأن خطر أهله أجل من أن يمكن اخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم اشتقاق .

وقد حجب الله عز وجل — فى عصرنا هذا — أكثر الخلق عن هذه الطريقة وأهلها ، وأخفى لطائفها عن قلوبهم ، حتى ليظن جماعة أن هذه الرياضة

---

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .

(٢) لم أجد له سندا .

(٣) يقول الكلاباذى ان معانى هذه الاسماء كلها فى أسامى القوم ، وان كانت الالفاظ متغيرة ، لأنها ان أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وان أضيفت الى الصف والصفة ، كانت صفية وصفية . ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصفية والصفية من تناول الألسن ، وان جعل مأخذه من الصوف : استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة (التعرف : أنظر ص ٢٤ ، ٢٥) .

(٤) ورد فى الرسالة عن أبى جحيفة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال : « ذهب صفو الدنيا وبقى الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » (الرسالة : أنظر ج ٢ ص ٥٥٠) .

هى مجرد صلاح الظاهر دون مشاهدة الباطن ، وتظن جماعة اخرى أن هذا الأمر حيلة ورسم بلا حقيقة وأصل ، الى حد أنهم ارتكبوا المنكر أمام أهل الهزل وعلماء الظاهر ، وفرحوا باخفاء الأمر ، حتى قلدهم العوام ومحوا عن قلوبهم طلب صفاء الباطن ، ووضعوا مذهب السلف والصحابة على الرف .

(شعر عربى)

ان الصفاء صفة الصديق ان أردت صوفيا على التحقيق

لأن للصفاء أصلا وفرعا ، وأصله : انقطاع القلب عن الأغيار ، وفرعه : خلو اليد من الدنيا الغادرة . وهاتان صفتا الصديق الأكبر أبى بكر عبد الله ابن أبى قحافة رضى الله عنه ، لأنه كان امام أهل هذه الطريقة ، فكان من انقطاع قلبه عن الأغيار ، أن كل الصحابة انكسرت قلوبهم برحلة النبى عليه السلام الى الحضرة الأعلى والمكان المصفى ، وسل عمر رضي الله عنه سيفه قائلا : كل من يقول ان محمدا قد مات أقطع رأسه . فخرج الصديق الأكبر وصاح قائلا : ألا من عبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن عبد رب محمد فانه حى لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »(١) .

ذلك أن من يتعلق بفان يفنى ويصير كل تعبه هباء ، ومن يطلق روحه الى حضرة الباقى فانه حين تفنى النفس ، يبقى قائما بالبقاء .

فمن نظر الى محمد بعين الآدمية ، فانه حين رحل محمد عن الدنيا ، ذهب من قلبه تعظيم العبودية ورحل معه ، ومن نظر اليه بعين الحقيقة استوى لديه ذهابه ووجوده ، لأنه فى حال البقاء رأى بقاءه بالحق ، وفى حال الفناء رأى فناءه بالحق — فأعرض عن المحول وأقبل على المجول — فعظمه بمقدار اكرام الحق له ، ولم يربط سويداء قلبه بأحد ، ولم يفتح سواد عينه على الخلق ، فقد قيل : « من نظر الى الخلق هلك ، ومن رجع الى الحق ملك » ، لأن النظر الى الخلق علامة الهلك ، والرجوع الى الحق علامة الملك .

أما خلو يده من الدنيا الغدارة ، فهو أنه أعطى كل ما كان يملك من مال ومنال ومآل ، وارتدى الكليم ، وجاء الى النبى عليه السلام فقال له النبى

سورة « آل عمران » آية ١٤٤

عليه السلام : « ما خلفت لعيالك ؟ فقال الله ورسوله(١) » فلما تحرر قلبه من التعلق بصفو الدنيا ، أخلى يده من كدرها .

وهذا كله صفة الصوفى الصادق ، وانكار هذا كله انكار للحق ، ومكابرة فى العيان .

وقد قلت ان الصفاء ضد الكدر ، والكدر من صفات البشر . والصوفى حقا من اجتاز الكدر ، كما حدث فى حال الاستغراق فى مشاهدة يوسف عليه السلام ولطف جماله ، فغلبت البشرية على نساء مصر ، وارتدت الغلبة الى العكس ، فلما وصلت غايتها بلغت نهايتها ، ولما بلغت نهايتها تجاوزتها ، ونظرن بفناء بشريتهن فقلن : « ما هذا بشر »(٢) فأشرن اليه ، وعبرن عن حالهن . وكان من ذلك أن قال مشايخ هذه الطريقة رحمهم الله : « ليس الصفاء من صفات البشر ، لأن البشر مدر لا يخلو من كدر » .

فمثال الصفاء لا يكون بالأفعال ، وزوال البشرية لا يكون عن طريق المجاهدة ، ولا نسبة لصفة الصفاء بالأفعال والأحوال ، ولا تعلق لاسمه بالأسماء والألقاب « فالصفاء صفة الأحباب ، وهم شموس بلا سحاب » ، وكل من يفنى عن صفته ويبقى بصفة الحبيب ، فهو الحبيب . وأحوالهم لدى أرباب المعانى عيان كالشمس ، كما سئل حبيب الله محمد المصطفى صلوات الله عليه عن حال حارثة(٣) ، فقال : « عبد نور الله قلبه بالايمان(٤) » .

كما قيل : « ضياء الشمس والقمر اذا اشتركا ، أنموذج من صفاء الحب والتوحيد اذا اشتبكا » .

وأى شأن لنور القمر والشمس حيثما يكون نور محبة الجبار وتوحيده حتى يضاف هذا الى ذاك ... ؟ . أما فى الدنيا ، فليس هنالك أظهر من هذين ، لأن العين ترى السماء بنور الشمس والقمر ، والقلب يرى العرش بنور التوحيد والمحبة ، ويطلع على العقبى فى الدنيا .

وكل مشايخ الطريقة — رحمهم الله — مجمعون على أنه حين يتخلص العبد من قيد المقامات ، ويخلو من كدر الأحوال ، وينفصل عن جميع الأوصاف

(١) رواه الترمذى عن عمر : « ما تركت لأهلك يا أبا بكر » وقال عنه : حسن وصحيح .
(٢) سورة « يوسف » آية ٣١
(٣) « حارثة بن سراقة » : أحد شهداء بدر من الانصار . (السيرة الحلبية حـ ٢ ص ١٨٠) .
(٤) رواه الحارث بن مالك : « من أراد أن ينظر الى عبد نور الله تعالى الايمان فى قلبه فلينظر الى حارثة » .

— أى أنه لا يتقيد بصفة من صفاته الحميدة ، ولا يراها ويعجب بها — يغيب حاله عن ادراك العقول ، ويتنزه وقته عن تصرف الظنون ، فلا يكون لحضوره ذهاب ، ولا لوجوده أسباب ، « لأن الصفاء حضور بلا ذهاب ووجود بلا أسباب » ، ويكون حاضرا بلا غيبة ، وواجدا بلا سبب وعلة — لأن من تتأتى عليه الغيبة لا يكن حاضرا ، ومن يصير السبب علة وجده لا يكون واجدا — وحين يصل الى هذه الدرجة يصير فانيا فى الدنيا والعقبى ، وربانيا فى جوشن الانسانية ، ويستوى لديه الذهب والمدر ، ويسهل عليه ما يصعب على الخلق من حفظ أحكام التكليف ، كحال حارثة عندما جاء الرسول عليه السلام فسأله : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ! فقال عليه السلام : انظر ما تقول يا حارثة ، ان لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها، وفضتها ومدرها ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى، حتى صرت كأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتصارعون فيها »(١) . وفى رواية : « يتغامزون فيها » . الحديث . فقال — الرسول — « عرفت فالزم . قالها ثلاثا » .

و « الصوفى » أسم يطلقونه على كامل الولاية ومحققى الأولياء ، ويقول أحد المشايخ رحمهم الله : « من صافاه الحب فهو صاف ، ومن صافاه الحبيب فهو صوفى » .

واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أى معنى ، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس يشتق منه ، وهم يشتقون الشىء من شىء مجانس له ، وكل ما هو كائن ضد الصفاء ، ولا يشتق الشىء من ضده . وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله ، ولا يحتاج الى العبارة ، « لأن الصوفى ممنوع عن العبارة والاشارة » . وحين يكون الصوفى ممنوعا عن كل العبارات فان العالم كلهم معبرون عنه ، عرفوا أو لم يعرفوا ، وأى خطر يكون للاسم فى حال حصول المعنى ؟

(١) ورد فى اللمع قول السراج : ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم حيث سأل حارثة فقال : « لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة كيف يتزاورون ، والى أهل النار فى النار كيف يتعادون . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم » (اللمع : أنظر ص ٣٠) . وورد فى التعرف : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر الى عبد نور الله قلبه فلينظر الى حارثة » (التعرف : أنظر ص ٢٣) .

وهم يسمون أهل الكمال منهم بالصوفى ، ويسمون المتعلقين بهم وطلابهم بالمتصوف . والتصوف تفعل وتكلف ، والصفاء هو الفرع الأصلى ، والفرق بينهما ظاهر من حكم اللغة والمعنى ، « فالصفاء ولاية لها آية ، والتصوف حكاية للصفاء بلا شكاية » . والصفاء معنى متلألىء ، وظاهر التصوف حكاية عن ذلك المعنى . وأهله فى هذه الدرجة على ثلاثة أقسام ، الأول : الصوفى ، والثانى : المتصوف ، والثالث : المستصوف .

فالصوفى : هو الفانى عن نفسه ، والباقى بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق(١) .

والمتصوف ، هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة ، ويقوم نفسه فى الطلب على معاملاتهم .

والمستصوف ، هو من تشبه بهم من أجل المنال والجاه وحظ الدنيا ، وهو غافل عن هذين ، وعن كل معنى ، الى حد أن قيل : « المستصوف عند الصوفية كالذباب ، وعند غيرهم كالذئاب » .

فالصوفى هو صاحب الوصول ، والمتصوف هو صاحب الأصول ، والمستصوف هو صاحب الفضول .

فمن كان نصيبه الوصل يكون بادراكه المقصود ، وبلوغه المراد ، بلا مراد من المراد ، وبلا مقصود من المقصود .

ومن كان نصيبه الأصل صار على أحوال الطريقة متمكنا ، وفى لطائفها ساكنا ومستحكما .

ومن كان نصيبه الفضول تخلف عن الكل ، وقعد على عتبة الرسم ، وحجب بالرسم عن المعنى ، وعجز بالحجاب عن وصل الواصل .

وللمشايخ فى هذا الأمر رموز كثيرة ، الى حد أنه لا يمكن احصاؤها كلها، غير أنى أذكر طرفا منها فى هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ان شاء الله عز وجل.

فصل : يقول ذو النون المصرى(٢) رحمه الله : « الصوفى اذا نطق أبان

(١) أى أن الصوفى الحقيقى هو من تخلى عن صفاته البشرية ، وتجرد من علائقه الدنيوية ، فلما فنى عن ذلك : تهيأ له الاتصال بالحقيقة الالهية ، ووجد البقاء بالله.

(٢) أبو الفيض : ثوبان بن ابراهيم ، وذو النون : لقب . نوبى الاصل ، من شيوخ الصوفية من الطبقة الاولى . كان أوحد وقته علما وحالا وورعا وأدبا ، توفى سنة خمس وأربعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥ ، الرسالة ج ١ ص ٥٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٤٤ ، نفحات الانس ص ٣٢ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٣) .

نطقه عن الحقائق ، وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق(١) » .

أى أن قوله كله يكون على أصل صحيح ، وفعله كله تجريدا صرفا ، فحين يتكلم يكون قوله كله حقا ، وحين يصمت يكون فعله كله فقرا .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف نعت أقيم العبد فيه . قيل : نعت للعبد ؟ أم نعت للحق ؟ فقال : نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسما(٢) » .

أى أن حقيقة (التصوف) تقتضى فناء صفة العبد ، وفناء صفة العبد يكون ببقاء صفة الحق ، وهذا نعت الحق . ورسمه يقتضى دوام مجاهدة العبد ، والمجاهدة صفة العبد .

واذا أجريته على معنى آخر ، فهو : أنه لايصح للعبد أى نعت فى حقيقة التوحيد ، لأن نعوت الخلق غير دائمة لهم ، وليس نعت العبد سوى الرسم ، لأن نعته غير باق ، وهو ملك وفعل الحق ، فهو فى الحقيقة للحق .

ومعنى هذا هو أن الله عز وجل أمر العبد بالصيام ، وسمى العبد صائما بصيامه ، وهذا الصوم يكون للعبد من وجه الرسم ، ولله من وجه الحقيقة ، كما قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجزى به(٣) » .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف ترك كل حظ النفس(٤) » .

وهذا يكون على نوعين : أحدهما رسم ، والآخر حقيقة . بمعنى انه اذا كان تاركا للحظ ، فان تركه الحظ يكون حظا أيضا ، وهذا هو الرسم . واذا كان الحظ تاركا له ، فهذا هو فناء الحظ . وهذا يتعلق بحقيقة المشاهدة ، فترك الحظ فعل للعبد ، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله . وفعل العبد رسم ومجاز ، وفعل الحق حقيقة .

وبهذا القول وضح قول الجنيد — رحمه الله — السابق لهذا القول .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « الصوفية هم الذين صفت أرواحهم فصاروا فى الصف الأول بين يدى الحق » .

أى أن الصوفية هم أولئك الذين تحررت أرواحهم من كدورة البشرية ، وصفوا من الآفات النفسية ، وخلصوا من الهوى ، حتى استقروا فى الصف الأول والدرجة الأعلى مع الحق ، ونفروا من الغير .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٩) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٥٨) .
(٣) حديث قدسى رواه الشيخان والترمذى ومالك عن أبى هريرة (الموطأ ص ١٣٣) .
(٤) ورد بنصه فى التعرف (أنظر ص ٢٥) ، طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

ويقول أيضا رحمه الله : « الصوفى : الذى لا يملك ولا يملك » . وهذا عبارة عن عين الفناء ، ففانى الصفة لا يكون مالكا ولا مملوكا ، لأن صحة الملك تصح على الموجودات .

والمراد من هذا القول أن الصوفى لا يملك أى شىء من متاع الدنيا وزينة العقبى ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان ارادته عن الغير ، ليقطع الغير عنه طمع العبودية . وهذا قول لطيف لمن يقولون بالفناء الكلى . وسنورد موضع الخطأ فى أقوالهم فى هذا الكتاب ، ليصير معلوما لك ان شاء الله عز وجل .

ويقول ابن الجلاء(١) رحمه الله : « التصوف حقيقة لا رسم له » .

وما هو رسم من المعاملات نصيب الخلق ، والحقيقة خاصة بالحق ، لأن التصوف هو الاعراض عن الخلق ، فلا يكون له رسم لا محالة .

ويقول أبو عمرو الدمشقى(٢) رحمه الله : التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غض الطرف عن الكون(٣) » .

يقول : التصوف هو أن لاتنظر الى الكون الا بعين النقص ، وهذا هو دليل بقاء الصفة . وان تغض الطرف عن الكون ، وهذا هو دليل فناء الصفة ، لأن النظر من الكون ، وحين لا يبقى الكون لا يبقى النظر أيضا . وغض الطرف عن الكون هو بقاء البصيرة الالهية ، أى أن من لا يصير مبصرا بنفسه يصير مبصرا بالحق ، لأن كون الطالب يكون طالبا أيضا ، وأمره منه اليه ، ولا مخرج له عن نفسه ، فواحد يرى نفسه ولكن يراها ناقصة ، وواحد يغض الطرف عن نفسه ولا يراها . ومن يرها ، وان يرها ناقصة ، فرؤيته حجاب ، ومن لا يراها فانه لا يحجب بعدم الرؤية(٤) . وهذا أصل قوى فى طريق الصوفية وأرباب المعانى ، ولكن ليس هنا مكان شرح هذا .

---

(١) ابو عبد الله بن الجلاء : اسمه أحمد بن يحيى . أصله من بغداد وأقام بالرملة ودمشق . كان من أجلة مشايخ الشام . صحب أبا تراب النخشبى وذا النون المصرى وأباه يحيى الجلاء . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٧٦ ، الرسالة جـ ١ ص ١١٤ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء جـ ٢ ص ٦٣ ، نفحات الانس ص ١١٠) .
(٢) من مشايخ الشام . كان عالما بعلوم الحقائق . صحب أبا عبد الله بن الجلاء واصحاب ذى النون المصرى . له كتاب فى الرد على من قال بقدم الارواح . مات سنة عشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٧٧ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٨٠ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية ونفحات الانس هكذا : « التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزه عن كل نقص » (أنظر طبقات الصوفية ص ٢٧٨ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .
(٤) خلاصة هذا القول : ان يغض السالك طرفه عن الكون حتى لا تكون رؤيته للكون حجابا له عن الحق .

ويقول أبو بكر الشبلى رحمه الله : « التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ، ولا غير » .

أى أن رؤية الغير شرك فى اثبات التوحيد . وحين لا يكون للغير قيمة فى القلب ، تكون صيانته عن ذكر الغير محال .

ويقول الحصرى(١) رحمه الله : « التصـــوف صفاء السر من كدورة المخالفة » .

ومعنى هذا أنه يحفظ السر عن مخالفة الحق ، لأن المحبة هى الموافقة ، والموافقة ضد المخالفة . وليس للحبيب فى العالم كله سوى الحفاظ على أمر المحبوب . وحين يكون المراد واحدا ، فمن أين تكون المخالفة ؟

ويقول محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب(٢) رضى الله عنه: « التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف(٣) » .

وحسن الخلق نوعان : أحدهما مع الخلق ، والآخر مع الحق . وحسن الخلق مع الحق هو الرضا بقضائه ، وحسن الخلق مع الخلق هو حمل ثقل صحبتهم لأجل الحق . وكل من هذين يعود على الطالب ، وللحق صفة الاستغناء عن رضاء الطالب وسخطه ، وهاتان الصـــفتان متعلقتان بنظر وحدانيته .

ويقول المرتعش(٤) رحمه الله : « الصوفى لا يسبق همته خطوته البتة »

---

(١) أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى : بصرى الأصل . سكن بغداد . كان شيخ العراق فى وقته ، له لسان فى التوحيد يختص به ، ومقام فى التجريد مسلم له . صحب أبا بكر الشبلى وغيره . مات ببغداد سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص١٨٣، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

(٢) أبو جعفر محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب . قيل أنه سمى بالباقر لانه بقر العلم ، أى شقه فعرف أصله وعرف خفيه . الامام الخامس من الأئمة الاثنى عشر . كان عالمـــا سيدا كبيرا ، يحب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويقول : من لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيـــا والآخرة . توفى سنة ثلاث عشرة وقيل سبع عشرة ومائة ، ودفن بالبقيع فى القبر الذى فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن على رضى الله عنه . أوصى بأن يكفن فى قميصه الذى كان يصلى فيه . (أنظر ترجمته فى الباب الثامن ، تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٣٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٥) .

(٣) ورد هذا القول فى الرسالة منسوبا الى الكتانى (أنظر ج ٢ ص ٥٥٤) .

(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش النيسابورى . صحب أبا حفص الحداد ، ولقى الجنيد وصحبه . أقام ببغداد حتى صار أحد مشايخ العراق . كان يقيم فى مسجد الشونيزيه . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية =

أى أن يكون كله حاضرا ، فيكون الجسد حيث يكون القلب ، ويكون القلب حيث يكون الجسد . ويكون القول حيث تكون القدم ، والقدم حيث يكون القول . هذه علامة الحضور بلا غيبة ، على خلاف ما يقال من أنه يكون غائبا عن نفسه وحاضرا بالحق ، فنقول : لا ، بل هو حاضر بالحق وحاضر بنفسه .

وهذه العبارة من جمع الجمع ، لأنه ما لم تكن الرؤية بالنفس لا تكون الغيبة عن النفس ، فاذا انعدمت الرؤية يكون الحضور بلا غيبة . وهذا عين قول الشبلى رحمه الله : « الصوفى لا يرى فى الدارين مع الله غير الله » . وفى الجملة : ان وجود العبد هو الغير ، وحين لا يرى الغير لا يرى نفسه ، ويفرغ من نفسه كلية فى حال نفيه واثباته .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف مبنى على ثمان خصال : السخاء والرضا والصبر والاشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر » .

قال : بناء التصوف على ثمان خصال ، اقتداء بثمانية أنبياء عليهم السلام ، فيقتدى فى السخاء بابراهيم ، لأنه بلغ به أن ضحى بولده . وفى الرضـــا باسحاق لأنه رضى بأمر الله ، فقال بترك روحه العزيزة . وفى الصـــبر بأيوب لأنه صبر فى بلائه بالدود . وفى الاشارة بزكريا لأن الله تعالى قال : « اذ نادى ربه نداء خفيا(١) » وفى الغربة بيحيى ، لأنه كان غريبا فى وطنه وغريبا عن أهله بين أهله . وفى السياحة بعيسى لأنه كان فى سياحته من التجرد بحيث لم يكن يملك الا وعاء ومشطا ، وحين رأى شخصا يشرب بحفنتيه ألقى الوعاء ، وعندما رآه يخلل شعره بأصابعه رمى المشط . وفى لبس الصوف بموسى لأن ملابسه كلها كانت صوفا . وفى الفقر بمحمد عليه السلام لأن الله عز وجل بعث اليه بمفاتيح كنوز الأرض وقال له : لا تشق على نفسك ، وهيىء لنفسك من هـــذه الكنوز متاعا وأسبابا ، فقال : لا أريد ، يا الهى : أشبعنى يوما وأجعنى يومين(٢) .

= ص ٣٤٩ ، الرســـالة ج ١ ص ١٥٠ ، طبقـــات الشـــعرانى ج ١ ص ٨٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٣) .

(١) سورة « مريم » آية ٣ .

(٢) اشارة الى ما روى عن الرسول عليه السلام أنه قال : « عرض على الدنيـــا فأبيتها » رواه ابن أبى الدنيا وأحمد والطبرانى عن أبى بويهية .
وما ورد عنه عليه السلام أنه قال: « خيرت بين أن أكون نبيا ملكا او أكون نبيا عبدا ، فأشار الى جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيا عبدا : أشبع يوما وأجوع يوما » رواه الطبرانى عن ابن عباس ، وابن حبـــان عن أبى هريرة .

وهذه الأصول فى المعاملة : طيبة جدا .

ويقول الحصرى رحمه الله : « الصوفى لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده(١) » .

أى أن ما يجده لا يفقده أبدا ، وما يفقده لا يجده أبدا . وبمعنى آخر : لا يكون لوجده عدم ، ولا لعدمه وجد . فاما اثبات بلا نفى ، أو نفى بلا اثبات .

والمراد من كل هذه العبارات هو أنه : أما أن تسقط حال البشرية عن شخص وتفوته الشواهد الجسمانية وتنقطع نسبته عن الكل ، واما أن تظهر البشرية فى شخص وتجتمع تفاريقه فى عين ذاته فيجد قيامه من نفسه بنفسه .

ولم يكن من الممكن ظهور هذا الا فى نبيين عليهما السلام : أحدهما موسى — صلوات الله عليه — الذى لم يكن فى وجوده عدم فقال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى(٢) » ، والآخر رسولنا — صلى الله عليه وسلم — الذى لم يكن فى عدمه وجود حتى قيل : « ألم نشرح لك صدرك(٣) » ، فواحد أراد الحلية وطلب الزينة ، والثانى زين ولم تكن له رغبة .

ويقول على بن بندار الصيرفى النيسابورى رحمه الله : « التصوف اسقاط الرؤية للحق ظاهرا وباطنا » .

لأنك اذا نظرت الى الظاهر تجد علامة التوفيق على الظاهر ، فاذا أمعنت النظر فان معاملة الظاهر لاتزن جناح بعوضة فى جنب توفيق الحق تعالى ، فتقول بترك رؤية الظاهر . واذا نظرت الى الباطن تجد علامة التأييد على الباطن ، فاذا دققت النظر فان معاملة الباطن لا تزن ذرة فى جنب تأييد الحق تعالى ، فتقول بترك الباطن ، وترى الكل للحق ، ولا ترى لنفسك شيئا .

ويقول محمد بن أحمد المقرىء(٤) رحمه الله : « التصوف استقامة

---

(١) ورد هذا القول فى الرسالة وعقب عليه القشيرى بقوله : وهذا فيه اشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه : أى اذا فنيت آفاته لا تعود تلك الآفات . وقوله : لا يعدم بعدوجوده ، يعنى :اذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه (أنظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥٦) .

(٢) سورة « طه » آية ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة « الشرح » آية ١

(٤) أبو عبد الله : محمد بن أحمد المقرىء . صحب يوسف بن الحسين الرازى وعبد الله الخراز ومظفر القرمسينى وروبما والجريرى وابن عطاء . كان أغنى المشايخ وأسخاهم خلقا وأعلاهم همة وأتمهم دينا وورعا . مات سنة ست وستين وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٥٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ٢٦٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٣) .

الأحوال مع الحق(١) » . أى أن الأحوال لا تحول سر الصوفى عن الاستقامة فى الحال ، ولا تلقى به فى الاعوجاج ، لأن من يكون قلبه صيدا لمحول الأحوال ، فان الأحوال لا تنحرف به عن درجة الاستقامة ، ولا تمنعه عن الحق تعالى .

فصل فيما قيل فى المعاملات :

يقول أبو حفص الحداد النيسابورى(٢) رحمه الله : « التصوف كله آداب : لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول(٣) » .

وقريب من هذا المعنى ماقاله أبو الحسن النورى رحمه الله : « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق(٤) .

أى أنه لو كان رسوما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علوما لأمكن الوصول اليه بالتعلم ، ولكنه أخلاق ، فما لم تطلب حكمه من نفسك ، وما لم تصحح معاملته مع نفسك ، وتنصفه من نفسك ، لا يحصل .

والفرق بين الرسوم والأخلاق هو أن الرسوم فعل يكون بالتكلف والأسباب ، وحين يكون ظاهرها على خلاف باطنها تكون فعلا خاليا من المعنى . والأخلاق فعل محمود بلا تكلف وأسباب ، وظاهره موافق لباطنه ، وخال من الدعوى .

ويقول المرتعش رحمه الله : « التصوف : حسن الخلق » . وهذا على ثلاثة أنواع :

أولها مع الحق : بأداء أوامره بلا رياء .

والثانى مع الخلق : بحفظ حرمة الكبار ، والشفقة على الصغار ، وانصاف الأقران ، والاعراض عن الكل ، وعدم طلب الانصاف .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٥١١) .

(٢) اسمه عمرو بن سلمه . من أهل قرية يقال لها كورابأذ على باب نيسابور . صحب عبيد الله بن مهدى الابيوردى وعليا النصرابادى ، ورافق أحمد بن خضروية البلخى. توفى سنة نيف وستين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة ج ١ ص ٩٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٥٧ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٥٥) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف طفيف (أنظر : ص ١١٩) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف طفيف (أنظر : ص ١٦٧) .

والثالث مع النفس : بعدم متابعة الهوى والشيطان .

وكل من يقوم نفسه فى هذه المعانى الثلاثة يكون من ذوى الخلق الحسن. وهذا الذى ذكرته متفق مع قول عائشة الصديقة(١) رضى الله عنها ، حين قيل لها : أخبرينا عن خلق النبى عليه السلام ، فقالت : اقرأ من القرآن قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين(٢) » .

ويقول المرتعش رحمه الله أيضا : « هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشىء من الهزل » .

أى أن مذهب التصوف كله جد فلا تخلطوه بالهزل، ولا تتعلقوا بمعاملات المترسمين ، وفروا من المقلدين ، ذلك أن العوام لما نظروا الى أهل هذا الزمان ورأوا مترسمى الصوفية ، وشاهدوا رقصهم وغناءهم وذهابهم الى أبواب السلاطين ، واختصامهم من أجل اللقمة والخرقة ، أساءوا الاعتقاد فى الجميع ، وقالوا ان أصل الطريقة هو هذا ، وقد سار المتقدمون أيضا على هذا ، ولم يعلموا أنه زمان الفترة وعهد البلاء . وحين يحمل الحرص السلطان على الجور ، والطمع العالم على الفسق ، والرياء الزاهد على النفاق ، فانه لا محالة أيضا من أن يحمل الهوى الصوفى على الرقص والغناء .

واعلم أن أهل الطرق يفسدون ، ولكن أصول الطرق لا تفسد . واعلم أنه اذا أخفى فريق من أهل الهزل هزله فى جد الأحرار ، فان جدهم لا يصير هزلا .

ويقول أبو على القرمسينى(٣) رحمه الله : « التصوف : الأخلاق الرضية(٤) » .

والفعل المرضى هو أن يكون العبد راضيا عن الحق فى كل الأحوال ليكون راضيا بالرضا .

---

(١) عائشة ابنة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما ، تزوجها النبى عليه السلام بكرا ولم يتزوج بكرا غيرها ، وكان تزويجه بها بمكة وهى بنت ست سنين ، ودخل بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين ، وقبض وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وتكنى أم عبد الله . توفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ، ودفنت بالبقيع . (المعارف ص ٥٩) .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩

(٣) مظفر القرمسينى : من أشياخ الجبل . صحب عبد الله الخراز وغيره (انظر ترجمته فى الرسالة ص ١٥٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٠) .

(٤) ورد هذا القول فى حواشى الرسالة : « التصوف الاخلاق المرضية (أنظر الرسالة ج ١ ص ١٥٩) .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف هو الحرية ، والفتوة ، وترك التكلف ، والسخاء » .

فالحرية : أن يتحرر العبد من قيد الهوى ، والفتوة : أن يتجرد من رؤية الفتوة ، وترك التكلف : أن لا يجتهد فى المتعلقات والنصيب ، والسخاء : أن يترك الدنيا لأهل الدنيا .

ويقول أبو الحسن البوشنجى(١) رحمه الله : « التصوف اليوم اسم بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم(٢) » .

يعنى : أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف ، وكان المعنى موجودا فى كل منهم . والآن يوجد الاسم ولا يوجد المعنى .

أى أن المعاملة كانت معروفة ، والدعوى مجهولة ، والآن صارت الدعوى معروفة ، والمعاملة مجهولة .

الآن : قد أوردت هذا القدر من تعريفات المشايخ وأقوالهم رحمهم الله فى هذا الكتاب فى باب التصوف هذا ، لينفتح عليك — أسعدك الله — طريقه ، ونقول للمنكرين : مامرادكم من انكار التصوف ؟ فان كانوا ينكرون الاسم المجرد فلا ضير ، لأن المعانى تكون فى حق التسميات غريبة ، وان كانوا ينكرون عين هذه المعانى ، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبى عليه السلام وخصاله المحمودة .

وأنا أوصيك أن تراعى حق هذا وتنصفه لتكف الدعوى ، وأن تحسن الاعتقاد بأهل هذه الطريقة .

وبالله التوفيق ، وعليه التوكل والتصديق .

---

(١) اسمه على بن أحمد بن سهل . كان من فتيان خراسان ، لقى أبا عثمان وابن عطاء والجريرى وأبا عمرو الدمشقى . كان من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد ، وعلوم المعاملات وأحسنهم طريقة فى الفتوة والتجريد . مات سنة ثمان وأربعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٥٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٢٥) .

(٢) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٤٥٩) .

الباب الرابع
باب فى لبس المرقعة

اعلم ان لبس المرقعة شعار المتصوف . ولبس المرقعات سنة ، ومن هنا قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الايمان فى قلوبكم(١) » .

ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار(٢) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا لعائشة رضى الله عنها : « لا تضيعى الثوب حتى ترقعيه(٣) » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الايمان .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة(٤) . ويرد عنه أنه قال أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة .

ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كان له قميص لا يصل كماه الى أصابعه ، وكان اذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كميه .

وأمر الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بتقصير الثياب فى قوله تعالى : « وثيابك فطهر(٥) » . أى : فقصر .

ويقول الحسن البصرى(٦) رحمه الله : رأيت سبعين بدريا يلبسون

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى أمامة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٠٧) .
(٢) من قول أبى موسى الاشعرى : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار ويأتى مدعاة الضعيف .
(٣) ورد فى تلبيس ابليس : « لا تخلعى الثوب حتى ترقعيه » .
(٤) روى عن أبى عثمان النهدى أنه قال : رأيت على عمر قميصا فيه اثنتا عشرة رقعة وهو يخطب (اللمع ص ١٧٣) .
(٥) سورة « المدثر » آية ٤
(٦) أبو سعيد الحسن البصرى . كان والده من أهل ميسان فسبى . شيخ زهاد البصرة ، ويعده المتصوفة منهم . صبغ الحياة الروحية بصبغة الزهد والخوف ، وغلب عليه الخوف كأن النار لم تخلق الاله وحده . توفى سنة عشر ومائة (أنظر ترجمته فى الباب العاشر ، المعارف ص ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٣ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٢٣ .

جميعا ثيابا من الصوف(١) .

والصديق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب الصوف فى حال التجريد .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله . رأيت سلمان(٢) وقد لبس كليما ذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، وهزم بن حيان(٣) رضى الله عنه رأوا أويسا القرنى(٤) وكان يلبس ثوبا من الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار(٥) وسفيان الثورى(٦) ، رحمة الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية .

---

(١) ورد فى التعرف : قال الحسن البصرى : لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم الا الصوف . (أنظر :ص ٢٣) .

(٢) سلمان الفارسى : كان يكنى أبا عبد الله ، ويقول قوم أنه من أهل أصبهان ويقول قوم انه من فارس . لم يشهد بدرا ولا أحدا لأنه كان فى أوقاتها عبدا . وأول غزاة غزاها ، الخندق سنة خمس من الهجرة . عمر عمرا طويلا ومات فى أول خلافة عثمان وفى بعض الروايات انه مات فى خلافة عمر رضى الله عنه بالمدائن . وقيل مات سنة ست وثلاثين . (أنظر ترجمته فى المعارف ص ١١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٥) .

(٣) « هرم بن حيان » : هو من عبد القيس وكان من خيار الناس ، وؤلى الولايات زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان على عبد القيس يتوج يوم قتل شهرك زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (المعارف ص ١٩٢ ، أنظر ترجمته فى الباب العاشر) .

(٤) « أويس بن عامر » : ويقال ابن عمرو القرنى . من سادات التابعين ، ويعده البخارى من الضعفاء . كان يلزم المسجد مع جماعة من اصحابه . قال بعضهم انه مات بالحيرة ، وقال آخرون : بل مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه فى صفين . كان يلتقط الكسر من المزابل فيغسلها ويأكل بعضها ويتصدق ببعضها . قال له هرم بن حيان أوصنى فقال : توسد الموت اذا نمت ، واجعله نصب عينيك اذا قمت . (أنظر ترجمته فى الباب العاشر ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١١٨) .

(٥) أبويحيى مالك بن دينار البصرى : من موالى بنى سامة بن لؤىالقرشى . كان عالما زاهدا كثير الورع لا يأكل الا من كسبه . وكان يكتب المصاحف بالأجر . توفى سنة احدى وثلاثين ومائة بالبصرة . كان يقول : لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت أنى اذا مت أن أغل فأدفع الى ربى مغلولا كما يدفع العبد الآبق الى مولاه . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٣) .

(٦) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن عدنان الثورى الكوفى . كان اماما فى علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على امامته وورعه وزهده . وكانوا يسمونه أمير المؤمنين فى الحديث . توفى بالبصرة سنة احدى وستين ومائة . قوموا ثيابه التى عليه حتى النعل فبلغت درهما وأربعة دوانق (أنظر ترجمته فى المعارف ص ٢١٧ ، وفيات الاعيان ج١ ص ٢١٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٣٨ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٨٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٥) .

ويروى عن الامام الأعظم أبى حنيفة(١) — وهذا مكتوب فى كتاب تاريخ المشايخ الذى ألفه محمد بن على الترمذى(٢) — أنه كان أولا يلبس الصوف ويقصد العزلة الى أن رأى الرسول عليه السلام فى النوم يقول له : ينبغى لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب احياء سنتى . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غاليا ، وأمر داود الطائى(٣) رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء ابراهيم بن أدهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر اليه أصحاب — أبى حنيفة — بعين الاحتقار ، فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا ابراهيم بن أدهم ؟ فقال له أصحابه : لا يجرى الهزل على لسان امام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمداومة على الخدمة ، فقد انشغل بخدمة الله ، و انشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

واذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لظواهرهم ، فمن الجائز أن يكون فى الجيش مبارز واحد ، والمحققون فى كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون اليهم حينما يشبهونهم فى شىء من الأحكام ، لقوله

---

(١) النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه : الامام الفقيه الكوفى مولى تيم الله بن ثعلبة . كان جده زوطى من أهل كابل وكان رقيقا اعتق ، وان نفى ذلك أحد أحناد أبى حنيفة ، كان عالما زاهدا عابدا ورعا تقيا كثير الخشوع دائم التضرع الى الله تعالى . وكان حجة فى الفقه شهد له الشافعى فقال : من أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال على أبى حنيفة . دعى لتولى القضاء مرتين ولكنه رفض . توفى ببغداد سنة خمسين ومائة ودفن فى مقبرة الخيزران . تنسب اليه عدة مؤلفات فى الفقه أشهرها « الفقه الاكبر » (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢١٦ ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٣ ، الفهرست ص ٢٨٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٠٢ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٤١ ، كشف الظنون ج ٢ عمود ١٢٨٧) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن على الترمذى المتوفى سنة ٢٨٥ هى : متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقيه كوفى . لقى أبا تراب النخشبى وصحب يحيى الجلاء واحمد بن خضرويه . له تصانيف كثيرة وكرامات مشهورة . كان أستاذا لأبى على الجوزجانى وأبى بكر الوراق (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٩١ ، نفحات الانس ص ١١٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٥٠٣) .

(٣) داود بن نصير : أبو سليمان الطائى الكوفى الزاهد . يقال ورث عشرين دينارا فأكلها فى عشرين سنة . قيل عن سبب زهده أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له يوما : يا أبا سليمان ، أما الأداة فقد أحكمناها . فقال داود : أى شىء بقى ؟ قال : العمل بها . مات سنة خمس وستين ومائة (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٤ ، الرسالة ج ١ ص ٧٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٨) .

عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم(١) » أى : كل من يتولى قوما يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقا نظر الى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق الى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحبة المتصوفية لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم ، فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال — هؤلاء — على كشف الأحوال ، والتجرد عن الهوى ، والاعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم(٢) ؛ فيرون ممارستهم للشريعة وحفظهم لآداب الاسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة انسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مزدانة بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق — رابع — يقوده الى أفعالهم كسل طبعه ورعونة نفسه وطلبه الرياسة بلا آلة ، وارادته التصدر بلا فضل ، وبحثه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهم(٣) يلاينونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ، لأنه ليس فى قلوبهم(٤) شىء من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شىء من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرعى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله(٥) » .

---

(١) رواه ابن رسلان عن ابن عمر ، والطبرانى فى الاوسط (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٨٩) .
(٢) أظهارهم = ظواهرهم : جمع « ظاهر » .
(٣) « هم » أى الصوفية المحققون .
(٤) قلوبهم : أى قلوب أفراد الفريق الرابع .
(٥) سورة « الجمعة » آية ٥

وهذا الفريق هم الأغلب فى هذه الأيام . فليكن لزاما عليك اذن أن لا تقصد ما ليس لك ، لأنك لو قلت ألف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لا يكون بالخرقة ، بل بالحرقة . وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعة الادبار ومنشوز الشقاء يوم النشور ، كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لا تلبس المرقعة ؟ قال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة » . فاذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، واذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فان تكن كذلك فهو رياء ، وان لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب ملىء بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله انعام واكرام ، والصوف من لباس الأنعام » ! فالحلية حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قربة ، فهم يعملون ما عليهم ، ويحلون ظاهرهم ، وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فاذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة ، واذا أرادوا اتيان المعصية فى تلك الثياب ، فانهم لا يستطيعون خجلا من الخلق .

وفى الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص . وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر اليهم الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك ، فهى « لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص » ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سببا لجمع النعم . ثم ان الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة قميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح .

وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوطاء لآخر . وأرجو أن يفلحوا جميعا بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحب قوما فهو

معهم(١) » . ولكن ينبغى أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل الى التحقيق أبدا .

واعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يفنى الحجاب الا بدور الأحوال والتربية فى المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن . واذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة الطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أن سمى بالصوفى أو باسم آخـــر .

فصـــل : أما شرط المرقعات فهو أن يعملها ــ الصوفى ــ من أجل الخفة والفراغ ، وحيثما يتمزق شىء من الأصل يوضع فوقه رقعة .

وللمشايخ ، رحمهم الله ورضى الله عنهم ، فى هذا قولان : ففريق يقول أنه لا يشـــترط مراعاة نظام لحياكة الرقعة ، فتسحب الابرة حيثما تخرج رأســـها ، ولا يتكلف فى هـــذا .

وفريق آخر يقولون انه يشـــترط لحياكة الرقعة الترتيب والاســـتقامة ورعاية التضريب والتكلف فى الاستقامة ، لأنها معاملة الفقراء ، وصحة المعاملة دليل صحة الأصل .

وأنا على بن عثمان الجلابى ــ وفقنى الله ــ سألت شيخ المشـــايخ أبا القاسم الجرجانى(٢) فى طوس(٣) : ما أقل ما ينبغى للفقير حتى يكون جديرا باسم الفقر ؟ قال : ينبغى له ثلاث ، ولا أقل منها :

أولا : يجب أن يعرف كيف يخيط الرقعة خياطة مستقيمة .

ثانيا : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سماعا مستقيما .

ثالثا : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة .

وعندما رجعنا ــ أنا وفريق الدراويش الذين كانوا حاضرين معى حين قال هذا ــ الى الدويرة ، أخذ كل منهم يتصرف فى هذا ، وظهر لفريق من

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير : « من أحب قوما حشره الله فى زمرتهم » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٧٢) .

(٢) من شيوخ الهجويرى : انظر ترجمته فى الباب الثانى عشر .

(٣) « طوس » من مدن خراسان . وهى من نيسابور على مرحلتين ، وبها قبر الرشيد أمير المؤمنين ، وبها توفى الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام (البلدان : ص ٤٤) ،وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه مالا يحصى ، وحسبك بأبى حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى وأبى الفتوح أخيه (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٤٠) .

الجهلة فى هذا شره، وقالوا ان الفقر هو عين هذا ، وكان أكثرهم يتسابقون فى تجويد حياكة الرقعة ، والدبيب على الأرض بأقدامهم ، ويظن كل منهم فى نفسه أنه يعرف سماع الكلام ، فى الطريقة . ويحكم أن قلبى كان يميل الى هذا السيد ، لم أشـــأ أن يضيع كلامه هذا عبثا ، فقلت : تعالوا ليقول كل منا شـــيئا فى هذا القول . فقال كل منهم ما تراءى له ، فلما وصلت النوبة الى قلت : الرقعة المستقيمة هى أن تخاط للفقر لا للزينة ، لأنها اذا خيطت بالفقر كانت مستقيمة ولو لم تكن كذلك . وسماع الـــكلام مستقيما هو أن يسمع بالحال لا بالمنية ، ويتصرف فيه بالجد لا بالهزل ، وأن يفهم بالروح لا بالعقل . والقدم المستقيمة هى التى توضع على الأرض بالوجد لا باللهو والرسم .

ونقل البعض هذا الكلام للشيخ فقال : أصاب على خيره الله .

والمراد من لبس المرقعة لهذه الطائفة هو مؤنة الدنيا ، وصـــدق الفقر لله تعـــالى . وقد ورد فى الآثار الصحيحة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يلبس مرقعة حين رفع الى السماء . وقال أحـــد المشايخ : رأيته فى النوم ، بتلك المرقعة من الصوف ، وكان يتلألأ من كل رقعة نور ، فقلت : أيها المسيح ، ما تلك الأنوار على الثوب ؟ قال : انها أنوار اضطرارى ، فقد خطت كل رقعة منها لضرورة ، فصير الله عز وجل كل أذى أصابنى به نورا .

وأيضا : رأيت فى ما وراء النهر ، شيخا من أهل الملامة لم يكن يأكل أو يلبس شـــيئا للآدمى فيه نصيب ، فكان يأكل الأشياء التى يرميها الناس كالكراث العفن والقرع المر والجزر الفاسد وأمثال ذلك ، ويتخذ ملابســـه من الخرق التى يلتقطها من الطريق ويطهرها ويصنع منها مرقعة(١) .

وسمعت أنه كان بمرو الروذ(٢) شيخ من المتأخرين من أرباب المعـــانى قوى الحال طيب الســـيرة ، كانت العقـــرب تلد دون كلفة فى ســـجادته وقلنسوته ، لكثرة ما عليهما من الرقع غير المتكلفة .

وقد لبس شـــيخى(٣) رضى الله عنه ثوبا واحـــدا لمدة ســـتة وخمسين عاما ، كان يضع عليه رقعا بلا تكلف .

---

(١) ورد مثل هذا عن أويس القرنى أنه كان يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها فى الفرات ثم يخيطها فيلبسها (تلبيس ابليس ص ١٨٦) .

(٢) « مرو الروذ » : من مدن كورة مرو ، وبين مرو وبينهـــا خمس مراحل : ومرو الروذ افتتحها الاحنف بن قيس فى خلافة عثمان سنة احدى وثلاثين (البلدان : ص ٥٦)

(٣) أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى : من شيوخ الهجويرى : أنظر ص ٥٨ ، ترجمته فى الباب الثانى عشر .

ووجدت فى حكايات العراقيين أنه كان هنا لك اثنـــان من الدراويش : أحدهما صاحب مشاهدة ، والآخر صاحب مجاهدة ، لم يلبس أولهما طيلة حياته الا الخـــرق التى يمزقها الدراويش فى الســـماع ، ولم يلبس الآخر الا الخرق التى يمزقونها فى حال الاستغفار من ذنب ، حتى صـــارت زينة ظاهرهما موافقة لسيرة باطنهما . وهذا من رعاية الحال .

وكان الشيخ محمد بن خفيف(١) رضى الله عنه يرتدى لمدة عشرين عاما ثوبا من الصوف الغليظ ويعتكف كل عام أربع أربعينيات(٢) ، وكان يؤلف فى كل منها كتابا فى غوامض علوم الحقائق . وكان يعاصره شيخ من المحققين من علماء الطريقة ، يقيم بالقرب من فارس(٣) ، يدعى محمد بن زكريا ، لم يرتد المرقعة قط ، فسئل الشيخ محمد بن خفيف : ما شرط المرقعة ؟ ولبسها مسلم لمن ؟ فأجاب : شرط المرقعة هو ما يفعله محمد بن زكريا فى قميصه الأبيض ، ولبسها مسلم له .

فصل : وأما ترك عادة هذه الطائفة فلا يكون شرطا فى طريقهم . وقلة ارتدائهم ثياب الصوف الآن ، له معنيان ، أحدهما : أن الأصواف تشعثت ، والأنعام انتقلت فى الغارات من مكان الى مكان ، والثـــانى : أن طائفة من أصحاب البدع اتخذوا رداء الصوف شعارا لهم ، ومخالفة شعار أهل البدع ســـنة ، ولو كان مخالفة للسنة .

أما التكلف فى حياكة الرقعة فيجيزونه ، لأن جاههم قد عظم بين الخلق وكل من الخلق تشبه بهم ولبس المرقعة ، وبدت منهم أفعال ذميمة . ولما تأذوا من صحبة الأضـــداد ، اتخذوا زينة لا يعرف أحد غيرهم حياكتها ، وجعلوها علامة لمعرفة بعضهم البعض ، واتخذوها شـــعارا ، حتى ليقال ان درويشـــا دخل على أحد الشيوخ ، وكان قد جعل خطوط الرقعة التى خاطها على ثوبه مستعرضة ، فهجره الشيخ . وكان معنى هذا أن أصل الصـــفاء هو رقة الطبع ولطافة المزاج ، ولا يحسن الاعوجاج فى الطبع البتة . وكما أن الشعر غير المستقيم لا يحسن فى الطبع ، فكذلك الفعل غير المستقيم لا يقبله الطبع .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن خفيف . كان شيخ المشايخ فى وقته . صحب رويما والجريرى وأبا العباس بن عطاء . كان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٤) .

(٢) أنظر الابواب من السابع والعشرين الى التاسع والعشرين من عوارف المعارف ، « فى خاصية الاربعينية وذكر الفتوح وكيفية الدخول فيها » .

(٣) فارس : ولاية واسعة واقليم فسيح ، وأول حدودها من جهـــة العراق أرجان . وفارس اسم البلد وليس اسم الرجل ، وقصبتها شيراز . فتحت فى عهد عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٣٥ — ٨٤٨) .

وطائفة أخرى لا يتكلفون فى وجود اللباس وعدمه ، فاذا رزقهـــم الله عباءة لبسوها ، واذا رزقهم قباء لبسوه ، واذا تركهم عراة بقوا كذلك . وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — قد ارتضـــيت هذا الطريق ، وفعلت هكذا فى أســـفارى .

وورد فى الحكايات أنه حين جاء أحمد بن خضرويه(١) لزيارة أبى يزيد كان يرتدى قباء ، وحين جاء شاه بن شجاع(٢) لزيارة أبى حفص(٣) كان يلبس القباء . ولم يكن هذا لباسهما المعهود ، فقد كانا فى بعض الأوقات يرتديان المرقع ، ويلبســـان ثوبا من الصوف فى البعض الآخر ، أو البياض حسبما اتفق .

ونفس الآدمى معتادة ، ولها بالعادة الفة . والنفس اذا اعتادت شيئا صار طبيعة ، واذا ما صار طبيعة صـــار حجابا ، ولذا قال النبى عليه الســـلام : « خير الصيام صوم أخى داود(٤) » عليه السلام ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما حتى لا يصير الصوم عادة للنفس ، ويحجب بذلك .

وكان فى هذا المعنى أحب الأحباء أبو حامد الدوستاتى(٥) المروزى رحمه الله ، فقد كان مريدوه يلبسونه ثوبا ، ثم تكون لشخص اليه حاجة ، ثم كان يأتى من كانت له به حاجة فيتلمس فراغه ، فاذا ما خلا ، نزع عنه ذلك الثـــوب . ولم يكن يقول لملبســـه : لم تلبسنى ؟ ولا لنازعه : لم تخلعه عنى ؟ .

---

(١) كنيته : أبو حامد . من كبار مشايخ خراسان . صحب أبا تراب النخشبى وحاتما الأصم . كان كبيرا فى الفتوة ، قال عنه أبو حفص الحداد : ما رأيت أحدا أكبر همة ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه . توفى سنة أربعين ومائتين (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٣ ، الرسالة ج ١ ص ٩٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٨ ، نفحات الانس ص ٥٤) .

(٢) كنيته : أبو الفوارس . كان من أبناء الملوك . صحب أبا تراب النخشبى وأبا عبد الله الزراع البصرى . له رسالات مشهورة ، والمثلثة التى سماها : مرآة الحكماء . مات قبل الثلثمائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٩٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣١٢ ، نفحات الانس ص ٨٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٩٥٨) .

(٣) أبو حفص الحداد النيسابورى : سبق الاشارة اليه .

(٤) رواه الشيخان عن ابن عمرو : « أحب الصيام الى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة الى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦) .

(٥) أشير اليه فى أسرار التوحيد (أنظر ص ٢٧٢) .

ويوجد الآن فى غزنين(١) — حرسها الله — شيخ يلقب بالمريد ، رضى الله عنه ، لا اختيار له ولا تمييز فى لباسه . والحديث فى ذلك صحيح .

أما معنى أن أكثر ثيابهم زرقاء ، فمنه : أنهم وضعوا أصل طريقتهم على السفر والسياحة ، ولا يبقى الثوب الأبيض فى السفر على حاله ، ويصعب غسله ، ويطمع فيه كل شخص .

ثم ان لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب ، وهو لأناس رداء الحزن . والدنيا دار المحنة ، وخربة المصيبة ، ومفازة الغم ، وآفة المبتلين بالفراق ، وحصن البلاء ، فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا مقصودهم فى الدنيا ، لبسوا الأزرق ، وجلسوا فى مأتم الوصال .

ومنهم طائفة أخرى لم يروا فى المعاملات غير التقصير ، وفى القلب غير الخراب ، وفى الوقت غير الفوت ، فلبسوا الأزرق .

فواحد لبسه على موت عزيز ، والآخر على فوت مقصود ، لأن « الفوت أشد من الموت » .

سأل واحد من مدعى العلم درويشا : لم لبست هذا الأزرق ؟ قال : لقد بقى عن النبى عليه السلام ثلاثة أشياء ، أولها : الفقر ، والثانى : العلم ، والثالث : السيف .

ظفر السلاطين بالسيف ولم يستعملوه فى موضعه .

واختار العلماء العلم واكتفوا بالتعلم فقط .

واختار الفقراء الفقر وجعلوا منه آلة للغنى . فلبست الأزرق على مصيبة هذه الفئات الثلاث .

ويرد عن المرتعش رحمه الله أنه كان يمر فى محلة ببغداد(٢) وأحس بالظمأ ، فقصد بابا وطلب الماء . فخرجت اليه فتاة بجرة ماء ، فلما شرب صار قلبه صيدا للساقية . فظل فى مكانه حتى جاء رب الدار فقال له : أيها السيد ، كان قلبى متعطشا جدا لشربة ماء فسقونى شربة من دارك وسلبوا قلبى ، قال الرجل : تلك ابنتى ، وقد زوجتك اياها . فدخل

(١) « غزنين » أو « غزنه » موطن الهجويرى : ارجع الى ما ورد عنها فى القسم الاول ص ٣٩ .

(٢) « بغداد » : وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير فى مشارق الارض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء . انتقل اليها من جميع البلدان الدانية والقاصية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم . يجرى فى حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات . بناها ابو جعفر المنصور فاختطها فى ربيع الاول سنة احدى وأربعين ومائة (البلدان ص ٢ — ٢٢) .

المرتعش البيت تحقيقا لمراده ، وعقد عليها . وكان صاحب البيت هذا من أثرياء بغداد ، فأرسله الى الحمام ، والبسه ثيابه ، وخلع عنه المرقعة . ولما أقبل الليل وقف المرتعش للصلاة ، وقرأ الأوراد ، وأخلد الى الخلوة ، فصاح فى أثناء ذلك : هاتوا مرقعتى . فسألوه : ماذا أصابك ؟ قال : نوديت فى سرى : لقد خلعنا عن ظاهرك ثوب الصلاح والمرقعة بنظرة نظرتها مخالفة لنا ، فاذا نظرت أخرى نزعنا عن باطنك لباس المعرفة .

فالثوب الذى يكون السبب فى ارتدائه التقرب الى الله والموافقة لأوليائه تكون المداومة عليه مباركة ، فاذا كنت تستطيع أن تفى بحقه ، فبها ، والا فانه ينبغى عليك أن تصون دينك . ولا تجوز الخيانة فى ثياب الأولياء . ولأن تكون مسلما على التحقيق بلا دعوى ، خير من أن تكون وليا على التكذيب .

أما لبس المرقعة ، فيستقيم لطائفتين : أولاهما ، المنقطعون عن الدنيا ، والأخرى ، المشتاقون الى حضرة المولى .

وقد جرت السنة فى عادات المشايخ رضى الله عنهم ، على أنه عندما يتصل بهم مريد بحكم التبرك ، فانهم يؤدبونه خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة ، فاذا أدى حقها ، فبها والا قالوا ان الطريقة لا تقبله ، فسنة منها لخدمة الخلق ، وسنة ثانية لخدمة الحق ، وسنة ثالثة لمراعاة قلبه .

وهو يستطيع خدمة الخلق عندما يضع نفسه فى درجة الخدم ، وكل الخلق فى درجة المخدومين : أى يخدم الجميع بلا تمييز ، ويراهم خيرا منه ، ويعرف أن خدمتهم واجب عليه ، ولا يرى لنفسه بتلك الخدمة فضلا على الآخرين ، لأن ذلك خسران عظيم ، وعيب ظاهر ، وغبن فاحش ، وداء من الأدواء فى هذا الزمان(١) لا دواء له .

وهو يستطيع أن يخدم الحق جل جلاله حين يقطع حظوظه من الدنيا والعقبى كلية ، ويعبد الحق سبحانه وتعالى عبادة مطلقة من أجله هو ، لأن العبد ما دام يعبد الحق من أجل كفارة الذنوب وادراك الدرجات فانه لا يعبده لذاته ، فما بالك بأسباب الدنيا .

وهو يستطيع مراعاة قلبه حين يجمع همته ويرفع عن قلبه الهموم المختلفة ، ويحفظه — فى حضرة الأنس — من مواطن الغفلة .

فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة فى المريد ، يسلم له بلبس المرقعة على وجه التحقيق لا التقليد .

(١) زمان المؤلف .

أما من يخلع على المريد المرقعة ، فيجب أن يكون مستقيم الحال ، قد اجتاز جميع عقبات الطريق ، وذاق طعم الأحوال ، وادرك مشارب الأعمال ، وشاهد قهر الجلال ولطف الجمال . ويجب أيضا أن يكون مشرفا على حال مريده ، يعرف الام ينتهى : أهو من الراجعين ، أو الواقفين ، أو الواصلين ، فاذا عرف أنه سوف يرتد يوما عن الطريقة ، يقول له ذلك حتى لا يبدأ ، واذا توقف ، يأمره بالمعاملة ، واذا تحقق من أنه سيصل ، يتعهده بالرعاية .

ومشايخ هذه الطريقة هم أطباء القلوب ، وحين يكون الطبيب جاهلا بعلة مريضه فانه يهلكه بطبه ، لأنه لا يعرف تطبيبه ، ويجهل مواطن دائه ، فيجعل غذاءه وشرابه مخالفا لعلته ، لقوله عليه السلام : « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته(١) ، فالأنبياء عليهم السلام دعوا الخلق على بصيرة ، وجعلوا كل فرد فى درجته . ويجب للشيخ أيضا أن يدعو على بصيرة ، وأن يعطى لكل غذاءه ، حتى يتحقق المراد من الدعوة . فاذا لبس شيخ بلغ الكمال فى ولايته لله ، مريداً المرقعة بعد هذه السنوات الثلاث من التربية فى الرياضة ، فهذا جائز .

وشرط لبس المرقعة لبس الكفن ، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ، ويطهرون قلوبهم من راحتها ، ويقفون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله ، ويبرأون تماما من الهوى ، ومن ثم يعز الشيخ المريد بالباسه الخلعة ، وهو يقوم بحقها ويجتهد تماما فى اداء هذا الحق ، ويحرم على نفسه رغباتها .

أما الاشارات فى المرقعة ، فقد قيل فيها الكثير ، وقد عمل الشيخ أبو معمر الاصفهانى كتابا فيها . وعوام المتصوفة يغالون فى هذا الأمر كثيرا ، وليس مرادنا من هذا الكتاب نقل أقوالهم ، بل كشف المغلق من مراد هذه الطريقة .

وخير الاشارات فى المرقعة القول بأن يكون قبها من الصبر ، وكماها من الخوف والرجاء ، وابطاها من القبض والبسط ، ووسطها من مخالفة النفس ،وجيبها من صحة اليقين ، وسجافها من الاخلاص .

وخير من هذا ، القول بأن يكون القب من فناء المؤانسة ، والكمان من الحفظ والعصمة ، والابطان من الفقر والصفوة ، والوسط من الاقامة فى

(١) رواه ابن النجار عن أبى رافع : « الشيخ فى أهله كالنبى فى أمته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .

المشاهدة والجيب من الأمن فى الحضرة ، والسجاف من القرار فى محل الوصل . واذا هيأت لباطنك مرقعة كهذه ، فيجب أن تعمل لظاهرك واحدة أيضا .

ولى كتاب مستقل ، مؤلف فى هذا الموضوع ، اسمه : « أسرار الخرق والملونات » ويلزم للمريد نسخة منه .

أما اذا لبس (المريد) المرقعة ، فانه اذا مزقها فى غلبة الحال وقهر سلطان الوقت فهذا مسلم له ، ويكون له العذر . واذا مزقها فى حال الاختيار والتمييز ، فالأكثر فى شرط هذه الطريقة أن لا يسلم له بالاحتفاظ بها ، أما اذا ما لبسها فانه يكون كأحد أصحاب المرقعات فى هذا الزمان ، قد اكتفى بالظاهر دون الباطن .

والحقيقة فى تخريق الثياب هى أنهم حين ينتقلون من مقام الى مقام آخر ، يخلعون الثوب فى الحال ، شكرا على وجدان هذا المقام ، ويعدون ثوبا آخر لباسا لمقام آخر .

والمرقعة لباس جامع لكل مقامات الطريقة والفقر والصفوة . والخروج من هذا الثوب والتبرؤ منه تبرؤ من الكل ، وان يكن هذا المكان ليس موضعا لذكر هذه المسألة ، اذ أنها تلزم لباب الخرق والملونات وكشف حجاب السماع ، وقد أشرت اليها هنا بهذا المقدار حتى لا تخفى هذه اللطيفة ، وسأفصل هذا الحكم فى مكانه ان شاء الله عز وجل .

وقيل أيضا : أنه يجب لمن يقوم بالباس المرقعة من السلطان فى الطريقة ما يجعله اذا نظر الى غريب بعين الشفقة يصير قريبا ، واذا ما لبس عاصيا المرقعة يصير من أولياء الله .

وفى وقت من الأوقات كنت أسير برفقة شيخى فى آذربيجان(١) ، فرأيت بضعة أفراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال مرقعاتهم ليضع الفلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرأ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين(٢) » قلت : أيها الشيخ ، بأى خزى ابتلوا بهذا البلاء ، وفضحوا على الملأ ؟ قال : لأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين ، وهم يحرصون على

(١) « آذربيجان » : من ربع المشرق : أول مدنها أردبيل على أربع مراحل من زنجان . وأهل مدن آذربيجان أخلاط من العجم الآذرية والجاودانية القدم أصحاب مدينة البذ التى كان فيها بابك ثم نزلتها العرب لما فتحت . وافتتحت آذربيجان سنة اثنتين وعشرين افتتحها المغيرة بن شعبة فى خلافة عثمان (البلدان ص ٣٨) .

(٢) سورة « البقرة » آية ١٦

جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص ، والدعوة بلا أمر تربية للهـوى .

ويرد عن الجنيد رحمه الله أنه رأى بباب الطاق(١) مسيحيا جميلا جدا ، فقال : اللهم سخر لى هذا لأنه مخلوق طيب جدا ، فلما مرت برهة ، أقبل المسيحى وقال له : أيها الشيخ ، أعرض على الشهادة ، فعرضها عليه ، وأسـلم ، وصار واحدا من أولياء الله .

وسئل الشيخ أبو على الأسود المروزى(٢) رحمه الله : الباس المرقعة مسلم لمن ؟ قال : للمشرف على ملك الله تعالى فلا يجرى شىء يومئذ فى الدنيا من الأحكام والأحوال الا ويطلعه الله عليه .

وبعد ، فالمرقعة سمة الصالحين ، وعلامة الطيبين ، ولباس الفقراء والمتصوفين . وقـد جرى الحديث قبل هذا عن حقيقة الفقر والصفوة . واذا جعل شخص لباس الأولياء أداة لجمع أسبا بالدنيا ، وسترا لآفته ، فانه لا يضر الأولياء كثيرا . وبالله التوفيق .

---

(١) « باب الطاق » : محلة كبيرة يشتمل بالجانب الشرقى . (معجم البلدان جـ ١ ص ٤٤٥)

(٢) « أبو على سياه » (الأسود) : من كبار مشايخ مرو ، كان معاصرا لابى العباس القصاب وأبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير . صحب أبا على الدقاق ، وتوفى بمرو سنة أربع وعشرين وأربعمائة . (أنظـر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٩٠) .

الباب الخامس

باب اختلافهم فى الفقر والصفوة

أما علماء هذه الطريقة فمختلفون فى تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، وعند جماعة الصفوة اتم من الفقر .

فمن يقدمون الفقر على الصفوة يقولون ان الفقر فناء الكل ، وانقطاع الأسرار ، والصفوة مقـام من المقامات ، فاذا حصل الفنـاء ، تنعدم كل المقامات .

وهذه المسألة تعود الى الفقر والغنى ، وقد جرى الحديث فيهما قبل هذا .

ومن يقدمون الصفوة على الفقر يقولون ان الفقر شىء موجود قابل للاسم ، والصفوة صفاء من جميع الموجودات ، والصـفاء عين الفناء ، والفقر عين الغنى ، فالفقر من أسـماء المقامات ، والصـفوة من أسماء الكمال .

وقد طال الحديث فى هذا الأمر فى هـذه الأيام ، وكل منهم يعبر بعبارة عجيبة ، ويتقول على الآخر أقوالا غريبة ، والخلاف قائم فى تفضيل وتقديم وتأخير الفقر والصفوة .

ومن المتفق عليه أن العبـارة المجردة ليست الفقر أو الصـفوة . وقد صاغوا من العبارة مذهبا ، وأخلوا الطبع من ادراك المعنى ، وتخلوا عن حديث الحق . وهم يسمون نفى الهوى نفيا للعين ، ويرون اثبات المراد اثباتا للعين ، فالموجود والمقصود والمنفى والمثبت كله هم ، بقيام أنفسهم وهواهم ، والطريقة منزهة عن ترهات المدعين .

وفى الجملة : ان الأولياء يصـلون الى المحل الذى لا يبقى فيه محل ، وتفنى الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى ، فلا يبقى شرب ولا ذوق ، ولا قمع ولا قهر ، ولا صحو ولا محو ، ومن ثم يطلبون

اســـما بالضرورة ليطلقوه على هـــذا المعنى الذى لا يدخل تحت اسم ولا صفة ، وعندئذ يطلق عليه كل شخص الاسم الذى يكون أكثر تعظيما فى نظره . ولا يجوز التقديم والتأخير فى ذلك الأصل فيقول واحد ان ذاك مقدم ، أو هذا مقدم ، لأن التقديم والتأخير يكون فى الأسماء . وقد بدا لفريق أن اسم الفقر أكثر تقدما ، فصار فى قلوبهم أعظم ، لأنه يتعلق بالترك والتواضع . وبدا لفريق أن اسم الصفوة مقدم ، فصار أكثر عظما فى قلوبهم ، لأنه أقرب الى ارتفـــاع الكدر وفنـــاء الآفات . وكان مرادهم من هاتين التســـميتين الاعلام والدلالة على ذلك المعنى الذى تنقطع عنه العبارة ، وكانوا يتحدثون عنه فيما بينهم بالاشارة ، فكشفوا وجوده لأنفسهم باتمام الأعلام . ولا خلاف بينهم سواء عبروا عنه بالفقر أو بالصفوة .

ثم ان أهل العبارة وأرباب اللســـان الذين كانوا يجهلون حقيقة هذا المعنى ، تكلموا فى مجرد العبارة ، وقـــدموا واحدا وأخروا الثـــانى ، وكلاهما عبارة ، وسارت تلك الجماعة لتحقيق المعانى ، وتخلف هؤلاء فى ظلمة العبارة .

وفى الجملة ، ان هذا المعنى اذا حصل لفرد وجعل منه قبلة قلبه ، فسواء لديه أن سموه فقيرا أو صوفيا ، فكلاهما اسم اضطرارى لذلك المعنى الذى لا يدخل تحت اسم .

ويرجع هذا الخلاف الى زمن أبى الحسن بن شمعون رحمه الله ، فقد كان حينما يكون فى كشف يتعلق بالبقاء يقدم الفقر على الصفوة ، وحينما يكون أيضا فى كشف يتعلق بالفناء يقدم الصفوة على الفقر ، فقال له أرباب المعانى فى ذلك الوقت : لم تقـــول هذا ؟ قال للطبع مشرب تام فى الفناء والانقلاب ، ومثله أيضا فى البقاء والعلو ، فحينما أكون فى محل يتعلق بالفناء أقدم الصفوة على الفقر ، وحين أكون فى محل يتعلق بالبقاء أقدم الفقر على الصفوة ، لأن الفقر اسم الفناء ، والصفوة اسم البقاء ، لأفنى عن نفسى رؤية البقاء فى البقـــاء ، ورؤية الفنـــاء فى الفناء ، حتى يفنى طبعى عن الفنـــاء والبقاء .

وهذا كلام طيب من حيث العبارة ، ولكن الفناء يكون للفناء وليس للبقاء . وكل باق يفنى عن نفسه فهو فان ، وكل فان يبقى بنفسه فهو باق . والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص أن الفناء يفنى ، لأن المبالغة فى نفى أثر وجود ذلك المعنى ، يمكن أن تكون فى الفنـــاء ، وطالما بقى أثر ، فانه لا يكون فناء بعد ، فاذا حصل الفناء ، فان فناء الفناء لا يكون شـــيئا سوى الاغراب فى عبارة بلا معنى .

وهذه ترهات أرباب اللسان فى وقت عبادة العبارة . ولنا من هذا النوع كلام فى كتاب « الفناء والبقاء » ، وقد عملته فى أيام هوس الصـــبا وحدة الأحـــوال ، ولكنى أورد أحكامه فى هـــذا الكتاب على ســـبيل الحيطة ، ان شـــاء الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين الفقر والصـــفوة من حيث المعنى ، أما من حيث المعاملة فهى من قبيل التجرد عن الدنيا ، واخلاء اليد منها . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والمسكنة .

وقد قالت جماعة من المشايخ رحمهم الله : ان الفقير أفضل من المسكين ، لأن الله عز وجل قال : « للفقـــراء الذين أحصروا فى ســـبيل الله(١) » . فالمسكين صاحب معلوم ، والفقير تارك للمعلوم ، والفقر عز ، والمسكنة ذل ، وصاحب المعلوم ذليل فى الطريقة ، فقد قال النبى عليه السلام : « تعس عبد الدرهم وتعس عبد الدينار وتعس عبد الخميصة والقطيفة(٢) » وتارك المعلوم عزيز ، لأن اعتماد صاحب المعلوم على المعلوم ، واعتماد تارك المعلوم على الله تعالى . واذا اتفق لصاحب المعلوم شـــغل فانه يسير الى المعلوم ، واذا اتفق لتارك المعلوم شغل فانه يسير الى الله تعالى .

وقالت جماعة أخرى : ان المسكين أفضل (من الفقير) لأن النبى عليه السلام قال : « اللهم احينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين(٣) » . وحين ذكر عليه السلام الفقر قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا(٤) » . والفقير هو من يتعـــلق بسبب ، والمســـكين هو المنقطع عن الأســـباب .

وفى الشريعة — عند طائفة من الفقهـــاء — أن الفقير صاحب بلغة ، والمسكين مجرد ، وعند طائفة أخرى ، المسكين صـــاحب بلغة ، والفقير مجرد . ومن هنا يسمى أهل المقامات المسكين صوفيا .

وهذا الاختلاف يرجع الى اختلاف الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فالذين يقولون منهم أن الفقير مجرد والمسكين صاحب بلغة ، الفقر عندهم أفضل من الصفوة ، والذين يقولون ان المســـكين مجرد والفقير صاحب بلغة ، الصفوة عندهم أفضل من الفقر .

هذه هى أحكام اختلافهم فى الفقر والصفوة على سبيل الاختصار ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .

(٣) مكرر : سبق الاشارة اليه .

(٤) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس : « كاد الفقر أن يكون كفرا ، وكاد الحسد أن يكون سبق القدر » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٨) .

الباب السادس
باب بيان الملامة

سلكت طائفة من مشايخ الطريقة طريق الملامة(١) ، وللملامة فى خلوص المحبة تأثير عظيم ، ومشرب تام ، وقد اختص أهل الحق من بين العالم جميعا بملامة الخلق ، وبخاصة علماء هذه الأمة ، زاد الله من أمثالهم .

والرسول عليه السلام الذى كان قدوة ، واماما لأهل الحقائق ، وقدوة للمحبين ، كان — قبل أن يظهر عليه برهان الحق ويتصل به الوحى —

« أهل الملامة » أو « الملامتية » : فرقة من فرق الصوفية ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى بمدينة نيسابور بخراسان . ويطلق الهجويرى على هذه الفرقة اسم : « القصارية » أو « الحمدونية » نسبة الى حمدون القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وقد وصفه السلمى بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة (طبقات الصوفية ص ١٢٣) . وأساس مذهب الملامتية يقوم على الملامة .

و « الملامة » هى : لوم الملامتى نفسه ، ولوم الناس له . والمراد بلوم النفس : أن الملامتى لا يرى لنفسه حظا على الاطلاق ، ولا يطمئن اليها ، لأنه يعتقد أن النفس شر محض ، وأنها لا يصدر عنها الا ما يوافق طبعها من رياء ورعونة .

والمراد بلوم الناس : أن الملامتى يرى أن معاملته مع الله سر بينه وبين ربه لا يصح أن يطلع عليه غيره ، فهو حريص على كتمان ذلك السر ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلته به ، بل ان الملامتية خوفا من أن تنكشف أحوالهم وأسرارهم التى يضنون بها على الخلق ، وخشية أن يتسرب الغرور الى نفوسهم اذا ما ظهروا للناس بما يوجب مدحهم ، يتعمدون فعل ما يجلب عليهم سخط الخلق وازدراءهم ، ويجعلهم يطلقون عليهم السنتهم بالذم واللوم . يقول ابو حفص الحداد : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ، ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم (الملامتية والصوفية ص ٨٩) .

والملامتية لم يؤلفوا كتبا ، وكل ما أثر عنهم انما هو أقوال لها طابع خاص ، جمعها السلمى فى رسالته التى سماها باسمهم . وتعتبر هذه الرسالة أول ما ألف عن الملامتية ، وتلا ذلك ما ورد عنهم فى كشف المحجوب وعوارف المعارف والفتوحات المكية .

وقد تعرض الملامتية لنقد ابن الجوزى فوصفهم بأنهم أسقطوا جاههم عند الله (تلبيس ابليس ص ٣٦٣) بينما أشاد بهم السلمى (أنظر الملامتية ص ٨٧) ووضعهم ابن عربى فى أعلى درجات السالكين : (أنظر الفتوحات جـ٣ ص ٤٦) . ووقف منهم السهروردى موقفا وسطا ، فهو يصف الملامتى بالاخلاص والصدق ، ولكنه يضع الصوفى فى مرتبة أعلى ويصفه بأنه المخلص الخالص (انظر عوارف المعارف ص ٥٤) .

طيب الاسم وعظيما ، وعندما ألبس خلعة المحبة ، أطلق الخلق فيه لسان الملامة ، فقالت طائفة انه كاهن ، وقالت أخرى انه شاعر ، وقال فريق انه كاذب ، وقال آخر أنه مجنون ، وأمثال هذا .

وقد ذكر الله عز وجل صفة المؤمن فقال : « ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (١) » .

وقد جرت سنة الله العالم جل جلاله على أن كل من يكون له علاقة به ، يجعل العالم كله يلومه ، ويحفظ سره عن الانشغال بلومهم . وهذه غيرة الحق الذى يحفظ أحباءه من ملاحظة الغير حتى لا تقع على جمالهم عين ، ويحميهم من رؤيتهم لأنفسهم حتى لا يروا جمال أنفسهم ويعجبوا بها ، ويقعوا فى آفة العجب والكبرياء ، فسلط عليهم الخلق ليطيلوا فيهم ألسنتهم ، ومكن منهم النفس اللوامة لتلومهم على كل ما يفعلون،فاذا فعلوا الشر لامتهم به،واذا فعلوا الخير رمتهم بالتقصير . وهذا أصل قوى فى طريق الله عز وجل ، لأنه لا يوجد فى هذا الطريق آفة أو حجاب أصعب من أن يصير الانسان معجبا بنفسه .

وينشأ أصل العجب من شيئين : أحدهما طلب الجاه لدى الخلق ومدحهم ، وذلك : أن فعل العبد يرتضيه الخلق ، فيمدح نفسه ، ويرى نفسه كفءا ، فيعجب بذلك . والآخر ، أن ينال فعل شخص رضاء شخص آخر فيثنى عليه ، ويعجب بذلك .

وقد سد الله تعالى بفضله هذا الطريق على أحبائه حتى أن معاملاتهم وان تكن طيبة ، لا يرتضيها الخلق ، لأنهم لا يرونهم رؤية حقيقية ، ومجاهداتهم وان تكن كثيرة ، فانهم لا يرونها بحولهم وقوتهم ، ولا يعجبون بأنفسهم ، حتى حفظوا من العجب بأنفسهم . فمن يرضى عنه الحق لا يرضى عنه الخلق ، ومن يصطفى نفسه لا يصطفيه الحق .

مثال ذلك ابليس ، فقد ارتضاه الخلق ، ولم ترض عنه الملائكة ، وأعجب هو بنفسه . ولما لم يكن مرضيا عنه من الحق ، فقد جر عليه اعجاب الخلق اللعنة .

وآدم صلوات الله عليه ، لم ترض عنه الملائكة وقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء(٢) » . وهو لم يعجب بنفسه وقال :

---

(١) سورة « المائدة » آية ٥٤
(٢) سورة « البقرة » آية ٣٠

« ربنا ظلمنا أنفسنا(١) » . ولما كان مرضيا عنه من الحق قال فيه : « فنسى ولم نجد له عزما(٢) » ، فعدم رضاء الخلق عنه ، وعدم اعجابه بنفسه ، جلبا له الرحمة ، ليعلم أهل العالم أن المقبول لدينا(٣) مهجور من الخلق ، والمقبول لدى الخلق مهجور منا . فلا جرم أن تكون ملامة الخلق غذاء لأحباب الحق ، لأن فيها آثارالقبول ومشرب أوليائه ، لأنها علامة القرب ، وكما يفرح كل الخلق بقبول الخلق ، يفرحون هم برد الخلق لهم .

وجاء فى أخبار السيد المختار عليه السلام ، وعن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل أنه قال : « أوليائى تحت قبائى لا يعرفهم غيرى الا أولبائى » .

فصل : أما الملامة فعلى ثلاثة أوجه : الأول : استقامة السير ، والثانى : القصد ، والثالث : الترك .

فملامة استقامة السير : هى أن يؤدى فرد عمله جيدا ، ويحافظ على الدين ، ويرعى المعاملة ، فيلومه الخلق فى ذلك . ويكون هذا مذهب الخلق فيه ، وهو فارغ منهم .

وملامة القصد : هى أن يحصل لفرد جاه كبير بين الخلق ، ويصير مرموقا بينهم ، ويميل قلبه الى الجاه ، ويتعلق طبعه بهم ، ويريد أن يفرغ قلبه منهم وينشغل بالحق ، فيتكلف طريق الملامة — حتى فى الشىء الذى ليس فيه ضرر فى الشرع — لينفر الخلق منه ، ويكون هذا طريقه مع الخلق ، وهم فارغون منه .

وملامة الترك : هى أن يكون الكفر والضلال الطبيعى متمكنان من شخص حتى يقول بترك الشريعة واتباعها ، ويقول أن ما يفعله ملامة . ويكون هذا طريقه فيها .

أما من يكون طريقه الاستقامة ، وعدم مزاولة النفاق ، والكف عن الرياء ، فلا خوف عليه من ملامة الخلق ، ويكون فى كل الأحوال على مسلكه ، ويستوى لديه أى اسم يسمونه به .

---

(١) سورة « الأعراف » آية ٢٣
(٢) سورة « طه » آية ١١٥
(٣) أى لدى الحق .

وجدت فى الحكايات أن الشيخ أبا طاهر الحرمى ، كان يركب يوما حمارا ، وقد أمسك واحد من مريديه بعنان الحمار ، وكان يسير فى السوق ، فصاح رجل يقول : هذا الشيخ زنديق . فلما سمع المريد بذلك القول أراد — بدافع من غيرة ارادته لشيخه — أن يرجم الرجل ، وثار جميع أهل السوق أيضا . فقال الشيخ للمريد : اذا لزمت الصمت علمتك شيئا ، لتخلص من هذه المحن ، فصمت المريد . ولما رجعا الى الخانقاه قال للمريد : أحضر ذلك الصندوق . فلما أحضره ، أخرج منه لفافات من الرسائل ووضعها أمامه وقال له : انظر ، لقد أرسل كل شخص الى رسالة وخاطبنى فيها كل بلقب ، فواحد لقبنى بالشيخ الامام ، وآخر لقبنى بالشيخ الذكى ، وواحد لقبنى بالشيخ الزاهد ، وآخر لقبنى بشيخ الحرمين ، وأمثال هذا ، وهى كلها ألقاب وليست أسماء ، ولست شيئا من هذا كله . وقد قال كل منهم كلاما حسب اعتقاده ، ولقبنى بلقب ، فان كان ذلك المسكين قد قال كلاما على حسب اعتقاده ، ولقبنى بلقب ، فلماذا أثرت كل هذا العداء ؟ .

وأما من كان طريقه القصد فى الملامة ، وترك الجاه والرياسة ، والكف عن الانشغال بالخلق ، فانه يكون كما روى عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، من أنه كان قادما يوما من بستان نخل — فى حال خلافته — وقد حمل على رأسه حزمة حطب ، وكان له أربعمائة غلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا ؟ قال : « أريد أن أجرب نفسى » ، هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق عن أى عمل . وهذه الحكاية صريحة على اثبات الملامة ، وتوجد حكاية فى هذا المعنى عن الامام أبى حنيفة ، تجدها حيث يرد ذكره فى هذا الكتاب .

ويروى أيضا عن أبى يزيد أنه كان قادما من الحجاز(١) ، فنودى فى المدينة أن أبا يزيد قد جاء . فخرج الناس جميعا لاستقباله وأدخلوه المدينة باكرام ، ولما انشغل بمجاملتهم ، تخلف عن الحق وتشتت ، فلما دخل السوق ، أخرج من كمه رغيفا وأخذ فى أكله — وكان هذا فى شهر رمضان — فرجع الناس جميعا عنه وتركوه وحده . وكان بصحبته مريد ، فقال له : ألم تر كيف أنى تركت مسألة واحدة من الشريعة فردنى الخلق جميعا ؟

(١) « الحجاز » : جبل ممتد حل بين الغور ، غور تهامه ونجد . وقيل سمى الحجاز حجازا لانه فصل بين الغور والشام وبين البادية . وقال الاصمعى فى كتاب جزيرة العرب : الحجاز اثنتا عشرة دارا (وذكر على رأسها المدينة وخيبر) . (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — أقول : لقد كان يلزم للملامة فى ذلك الزمان فعل مستنكر ، والظهور بشىء مخالف للعادة . والآن اذا أراد رجل أن يلام ، قل له : أد ركعتين طويلتين ، أو : زاول دينك كاملا ، فان الخلق جميعا يسمونه بالمرائى والكاذب .

وأما من كان طريقه الترك ، ويختار ما يخالف الشريعة ويقول اننى أسلك طريق الملامة ، فتلك ضلالة واضحة ، وآفة ظاهرة ، وجنون صادق — على نحو ما يوجد عليه كثيرون فى هذه الأيام ، ومقصودهم من رد الخلق قبول الخلق — لأنه يجب أن يكون الشخص أولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردهم ، ويظهر بفعل يردونه به ، اذ أن تكلف الرد لقبول لم يحصل ، يكون حيلة .

واتفق لى ذات مرة أن أصحب أحد هؤلاء الأدعياء المبطلين ، فظهر يوما بمعاملة باطلة ، وجعل الملامة عذرا لها ، فقال له رجل : هذا ليس بشىء ! فرأيته يزفر ، فقلت : يا هذا ، اذا كنت تسلك طريق المعاملة وأنت صادق فى هذا ، فانكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك ، وما دام هو يوافقك فى طريقك ، فلم الخصومة والغضب ؟ وقصتك هذه أقرب الى الدعوى منها الى الملامة ، وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق ، وبرهانه حفظ السنة . ولما كنت أرى منك ترك الفريضة ظاهرا وأنت تدعو الخلق ، فان هذا الأمر يخرج عن دائرة الاسلام .

فصل : أعلم أن مذهب الملامة فى هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار(١) ، وله فى حقيقة الملامة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال : « الملامة ترك السلامة » . واذا تعمد شخص ترك سلامته ، وأحاط نفسه بالبلايا ، وتبرأ من المألوفات والراحات جميعا — أملا فى كشف الجلال وطلب المآل — حتى ييأس من الخلق برد الخلق ، ويقطع طبع ألفته منهم ، فانه كلما كان أكثر انقطاعا عنهم ، كان أكثر اتصالا بالحق . فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم — وهو السلامة — يعرض عنه أهل الملامة ، لتكون همومهم مخالفة للهموم ، وهمتهم مخالفة

(١) كنيته : أبو صالح . واسمه : حمدون بن أحمد بن عمارة القصار . صحب سلم ابن الحسين الباروسى ، وأبا تراب النخشبى ، وعليا النصرابادى . كان عالما فقيها يذهب مذهب الثورى . مات سنة احدى وسبعين ومائتين ودفن بنيسابور . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣٣ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

للهمم ، ويكونوا وجدانيين فى أوصافهم ، كما روى أحمد بن فاتك(١) عن الحسين بن منصور(٢) أنه سئل : من الصوفى ؟ فقال : وجدانى الذات(٣) .

ويرد عن أبى حمدون أنه سئل عن الملامة فقال : ان طريقها صعب ومغلق على الخلق ، ولكنى أقول عنها شيئا ، فهى «رجاء المرجئة(٤) ، وخوف القدرية(٥) » . وتحت هذا المعنى رمز .

اعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله تعالى بشىء الا بالقدر الذى يكون كافيا لجاه الخلق ، كأن يقول عنه شخص انه رجل طيب ويمدحه ، فيهبه روحه وقلبه ، ويتخلف به عن الله تعالى . فالخائف يجتهد دائما فى أن يكون بعيدا عن موضع الخطر ، وفى هذا الاجتهاد يكون للطالب خطران : أولهما ، الخوف من حجاب الخلق ، والآخر ، منع الفعل الذى أدانه الخلق به ، فيطيلون عليه لسان الملامة ، فلا هو يركن الى جاههم ، ولا هو بقادر على أن يجعلهم مذنبين بملامته . فينبغى للملامتى اولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه ، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا بالصغيرة فى الشرع ، ليرده الخلق ، حتى يكون خوفه فى المعاملة كخوف القدرية ، ورجاؤه فى معاملة اللائمين كرجاء المرجئة .

ولا يوجد فى حقيقة المحبة شىء أطيب من الملامة ، اذ ليس للملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب ، ولا مرور للحبيب الا على حى الحبيب ، وليس للأغيار خطر على قلب الحبيب ، لأن الملامة روضة العاشقين ، ونزهة المحبين ، وراحة المشتاقين ، وسرور المريدين . وهذه الطائفة من الثقلين

---

(١) أحمد بن فاتك بن سعيد : كنيته : أبو الفاتك . بغدادى . صحب الجنيد والنورى. كان تلميذا للحلاج وخادما له . (أنظر ترجمته فى نفحات الانس ص ١٥٢) .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج : من أهل بيضاء فارس . نشأ بواسط والعراق ، وقتل ببغداد سنة تسع وثلثمائة (ارجع الى ما ورد عن الحلاج فى القسم الاول ص ، ترجمة الحلاج فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٤٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٥ ، نفحات الانس ص ١٥٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٧٨) .

(٣) ورد فى الرسالة القشيرية : سئل عن الصوفى فقال : وجدانى الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا . (أنظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥١) وعلى هذا تكون العبارة السابقة لهذا القول : ويكونوا وجدانيين فى أوصافهم .

(٤) يقول ابن حزم ان فرق المقرين بملة الاسلام خمسة وهم : أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج . وأقرب فرق المرجئة الى أهل السنة من ذهب مذهب أبى حنيفة الى أن الايمان هو التصديق باللسان والقلب معا ، أما غلاة المرجئة فطائفتان : احداهما تقول ان الايمان عقد بالقلب فقط وان أظهر الكفر والتثليث بلسانه ، والطائفة الثانية تقول أن الايمان هو القول باللسان وأن اعتقد الكفر بقلبه (أنظر : الفصل فى الملل ج ٢ ص ١١١ — ١١٢ ، ج ٤ ص ٢٠٤) .

(٥) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٢٩ .

مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب ، ولم تكن لأى أحد من الخلائق المقربين والكروبيين والروحانيين هذه الدرجة ، ولم تكن هذه المرتبة أيضا لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة الا لهذا الفريق من هذه الأمة ، الذين سلكوا طريق انقطاع القلب .

أما عندى ، فطلب الملامة عين الرياء ، والرياء عين النفاق ، لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق ، والملامتى يسلك بالتكلف الطريق الذى يرده الخلق . وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم ، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة ، والأخرى خرجت بتلك . ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق ، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين ، ولا يقيده شىء .

وقد اتفقت لى ذات مرة صحبة أحد الملامتية فى ما وراء النهر ، وعندما تملكنى فى الصحبة حال من البسط قلت له : يا أخى ! ما مرادك من هذه الأفعال المشوشة ؟ قال : خلو الخلق منى . فقلت له : هؤلاء الخلق كثير ، ولن تجد العمر والزمان والمكانة لاخلاء الخلق منك ، فاخل أنت نفسك من الخلق لتخلص من هذه المشاغل ! ويوجد فريق منشغلون بالخلق ويظنون أن الخلق مشغولون بهم . أن أحدا لايراك ، فلا تر أنت نفسك ! وآفة حالك من عينك . ثم ، ما شأنك بالغير ؟ من يلزمه طلب الشفاء من الاحتماء ويطلبه من الغذاء ، فليس من الناس .

وهناك أيضا جماعة يمارسون الملامة لرياضة النفس ، لتتأدب نفوسهم باحتقار الخلق لهم ، وينتصفون منها ، لأن أطيب أوقاتهم ما يجدون فيه نفوسهم فى البلاء والمهانة .

ويروى عن السيد ابراهيم بن أدهم رحمه الله أنه سئل : أرأيت نفسك قد بلغت المراد أبدا ؟ قال : نعم ، رأيت ذلك مرتين : مرة ، كنت قد ركبت سفينة لم يعرفنى بها أحد ، وكنت ألبس خلقا ، وقد طال شعرى ، وكنت على حال كان أهل السفينة معه يسخرون منى ويهزأون بى . وكان مع القوم مهرج يأتى الى كل لحظة ويشد شعرى وينتزعه منى ، ويستخف بى على سبيل السخرية . وكنت أجد نفسى على مرادى ، وأفرح بذل نفسى ، الى أن بلغ السرور يوما غايته بأن قام المهرج وتبول على !

والمرة الثانية : أنى بلغت قرية فى مطر عظيم ، وقد غلبنى برد الشتاء وابتلت المرقعة على جسدى ، فوصلت الى مسجد فلم يدعونى أدخل هنالك . وقصدت مسجدا ثانيا وثالثا حتى عجزت ؛ وعصف بى البرد ،

فدخلت فى موقد حمام ، وبسطت ذيلى على النار ، وتصـــاعد الدخان من تحتى فاسود ثوبى ووجهى ، فبلغت مرادى فى تلك الليلة .

وقد وقعت لى أنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — واقعة ذات مرة ، وقمت بكثير من المجاهدة على أمل أن تحل تلك الواقعة ، فلم تحل . وكانت قد وقعت لى مثل تلك الواقعة من قبل ، فأقمت مجاورا على قبر الشيخ أبى يزيد (البسطامى) الى أن حلت ، فقصدت هنالك هـــذه المرة أيضا ، وبقيت على قبره مجاورا ثلاثة أشهر ، وكنت أغتسل كل يوم ثلاث مرات ، وأتوضا ثلاثين مرة ، أملا فى كشف تلك الواقعة ، فلم تحل البتة . ونهضت وذهبت الى خراســـان(١) ، وبلغت فى الليـــل قـــرية فى ولاية « كمش »(٢) حيث توجد خانقاة بها جماعة من المتصوفة ، وكنت وفقـــا للسنة المتبعة ، أرتدى مرقعة خشنة ، ولم يكن معى من آلة أهل الرسم غير عصا وركوة ، وبدوت حقيرا جدا فى أعين تلك الجماعة ، ولم يعرفنى منهم أحد ، وأخذ كل منهم يقول للآخر انى لست منهم ، وكان ذلك حقا لأنى لم أكن منهم ، ولكن كان لابد من قضاء تلك الليلة فى ذلك المـــكان ! وفى تلك الليلة أجلسونى على سطح ، وذهبوا هم الى ســـطح أعلى ، وأجلسونى على أرض جافة ووضعوا أمامى خبزا عفنا ، وكانت تصل الى رائحة الأحسية التى كانوا يأكلونها ، وأخـــذوا يسخرون منى من ذلك السطح العلوى ، فلما فرغوا من الطعام أخذوا يأكلون الخربوزج(٣) ، ويلقون بقشره فوق رأسى على سبيل المزاح . وكنت أتحمل استخفافهم راضيا وأقول : يا الهى ، لو لم يكونوا يرتدون ثياب أحبائك لمـــا تحملت منهم هذا . وكلما ازدادت ســـخريتهم بى ازداد قلبى سرورا ، حتى حلت واقعتى بتحمل هذا العبء . وأدركت فى الحال لماذا أفسح المشايخ — رحمهم الله — للجهال طريقا بينهم ، ويحتملون عبثهم .

هذه هى أحكام الملامة كاملة أوضحتها . وبالله التوفيق .

---

(١) « خراسان » : بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند طخارستان وغزنه وسجستان وكرمان وليس ذلك منها انما هو أطراف حدودها . وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهى كانت قصبتها وبلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر **جيحون** . وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا سنة ٣٠ فى أيام عثمان . ونيسابور أكبر مدن خراسان وقد صارت عاصمة هذا الاقليم منذ اتخذها أمراء الطاهريين عاصمة لهم (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها) .

(٢) كمش : « قومس » : كورة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهى فى ذيل جبال طبرستان وقصبتها دامغان وهى بين الرى ونيسابور . ومن مدنها الشهيرة بسطام (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) الخربوزج معرب (خربوزه) نوع من أنواع الشمام حلو المذاق جدا وقوامه من الداخل أصلب من الشمام وأبيض اللون ، أما لون قشره من الخارج فأغبر تغلب عليه الخضرة الداكنة العفرة ، وأجود أنواعه بأصفهان .

الباب السابع

باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين رضى الله عنهم أجمعين

والآن أذكر طرفا من أحوال ائمتهم من الصـــحابة الذين كانوا هـــداة لهم وقدوتهم فى المعاملة ، وأنفاسهم وقوادهم فى الأحوال بعـــد الأنبياء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم ، ليكون تأكيدا لاثبات مرادك ان شاء الله تعالى عز وجل .

منهم شيخ الاسلام وبعد الأنبياء خير وأفضل الأنام ، خليفة النبى ، وامام وسيد أهل التجريد، وهادى أرباب التفريد ، والبعيد عن الآفات النفسية، **« أبو بكر عبد الله بن عثمان الصديق(١) »** رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة ، والآيات والدلائل الظاهرة فى المعاملات والحقائق . وقـــد ذكر طرف من أحواله فى باب التصوف . ويعده المشايخ مقدم أرباب المشاهدة، لقلة حكاياته ورواياته ؛ ويعدون عمر رضى الله عنه مقدم أرباب المجاهدة ، لصلابته ومعاملته .

---

(١) اسمه عبد الله ، واسم أبيه ، أبو قحافة عثمان ، وكان اسم أبى بكر فى الجاهلية ، عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ولقبه عتيقا . ويقال لقب عتيقا لجماله ، ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار . وسمى صديقا ، لتصديقه خبر الاسراء ، فهو : عبد الله ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال له التيمى ، وهو يلتقى مع الرسول عليه السلام عند مرة بن كعب .

وكان أول من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به من أصحابه على بن أبى طالب ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر . وبويع أبو بكر فى اليوم الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعده بن كعب بن الخزرج . ثم بويع بيعة العامة . وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال . مات فى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة . دفن مع النبى صلى الله عليه سلم فى بيت عائشة ابنته زوج الرسول صلى الله عليه وسلم .

والصوفية يعدون أبا بكر أمامهم وقدوتهم فى التجريد . يقول أبو بكر الواسطى « أول لسان الصوفية : ظهرت فى هذه الأمة على لسان أبى بكر رضى الله عنه اشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء . ويقول السراج فى شرح قول الواسطى : انه يشير بهذا الى قول أبى بكر ، عندما سأله النبى صلى =

ومسطور فى الأخبار الصحاح ، ومشهور بين أهل العلم ، أن أبا بكر حين كان يصلى بالليل ، كان يقرأ القرآن بصوت خفيض ، وكان عمر عندما يصلى ، يقرأ بصوت جهير . وسأل الرسول عليه السلام أبا بكر : لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « أسمع من أناجى » فأنا أعرف أنه غير بعيد عنى ، ويستوى لدى سمعه الخفيض والجهير . وسأل عمر ، فقال : « أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان » ، فدل هذا (عمر) على المجاهدة ، وذاك (أبو بكر) على المشاهدة . ومقام المجاهدة فى جنب مقام المشاهدة مثل قطرة فى بحر ، ولهذا السبب قال النبى عليه السلام لعمر : « وهل أنت الا حسنة من حسنات أبى بكر » فاذا كان عمر — وهو الذى كان به عز الاسلام — حسنة من حسنات أبى بكر ، فانظر كيف يكون العالمون ؟ !!

يرد عنه أنه قال : « دارنا فانية ، وأحوالنا عارية ، وأنفاسنا معدودة ، وكسلنا موجود » .

فعمارة الدار الفانية من الجهل ، والاعتماد على الحال العارية من البله ، وتوطين القلب على الأنفاس المعدودة من الغفلة ، وتسمية الكسل بالدين من الغين ، لأن ما هو عارية يسترد ، وما هو عابر لا يبقى ، وما يأتى تحت العدد ينتهى ، وليس للكسل دواء .

وقد بين لنا رضى الله عنه أنه لا خطر للدنيا والدنيوى حتى ينبغى شغل الخاطر بهما ، لأنك اذا شغلت بالفانى حجبت عن الباقى ، ولما صارت النفس والدنيا حجابا للطالب عن الحق ، أعرض أحباؤه عنهما . ولما عرفوا أن الدنيا عارية ، والعارية ملك لآخر ، كفوا عن التصرف فى ملك الآخرين .

ويرد عنه أيضا أنه رضى الله عنه قال فى مناجاته : « اللهم أبسط لى الدنيا وزهدنى فيها » وتحت هذا رمز يعنى : أعطنى الدنيا أولا لأشكر ، ثم وفقنى لكى أكف عنها وأعرض عنها من أجلك ، لأكون قد أدركت درجة

= الله عليه وسلم : ايش خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ، فهى اشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التجريد .
وحكى عن الجنيد البغدادى ، أنه قال : أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته » .
(أنظر المعارف ص ٧٣ — ٧٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٦ — ١١٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٢ ، اللمع ص ١٦٨ — ١٧٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٧ — ٩) .

الشكر والانفاق ، وكذلك مقام الصبر ، وحتى لا أكون مضطرا فى الفقر ، فيكون الفقر لى باختيارى .

وهذا رد شيخ المعاملة الذى قال : من يكون فقره اضطرارا فهو أتم ممن يكون فقره اختيارا ، لأنه اذا كان فقره اضطراريا كان هو صنعة للفقر ، واذا كان فقره اختيارا كان الفقر صنعة له ، وعندما يكون كسبه منقطعا عن جلب الفقر فانه يكون أفضل من أن يجعله لنفسه درجة بالتكلف .

ونقول : ان صنعة الفقر تكون أظهر عند من تستولى ارادتها على قلبه فى حال الغنى ، الى حد أن يصرف عن محبوب آدم وذريته ، ألا وهو الدنيا ، وليس ذلك الذى تستولى على قلبه فى حال الفقر الرغبة فى الغنى الى حد أنها تدفعه الى أعتاب الظلمة والسلاطين من أجل المال ، فصنعة الفقر هى الانتقال من الغنى الى الفقر ، لا طلب الرياسة فى الفقر .

والصديق الأكبر رضى الله عنه — وهو المقدم على كل الخلق بعد الأنبياء ولا يجوز أن يتقدمه أحد — قد قدم الفقر الاختيارى على الفقر الاضطرارى . وكل مشايخ المتصوفة على هذا ، الا ذلك الشيخ الذى ذكرنا حجته ومقالته وردنا عليه . ثم ان الصديق الأكبر أكد هذا ، ودلل عليه بالدليل الواضح .

روى عنه الزهرى أنه حين بويع بالخلافة ، اعتلى رضى الله عنه المنبر وخطب ، وقال فى أثناء الخطبة : « والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولاليلة قط ، ولا كنت فيها راغبا ، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية ، وما لى فى الامارة من راحة » .

وحين يوصل الله عز وجل العبد الى كمال الصدق ، ويكرمه فى محل التمكين ، فانه ينتظر وارد الحق ليرى على أى صفة يجىء ويمضى عليها ، فاذا جاء الأمر له بالفقر يكون فقيرا ، واذا جاء الأمر بالغنى يكون غنيا ، فلا يتصرف فى هذا ولا يختار ، كما فعل الصديق رضى الله عنه فى البداية . ولا يكون له فيه أيضا الا التسليم ، كما فعل فى النهاية ، فبه اقتداء هذه الطائفة فى التجريد والتمكين ، والحرص على الفقر ، وترك الرياسة ، من بعد أن أصبح امام دين المسلمين عامة ، وامام أهل هذه الطريقة خاصة ، رضى الله عنه .

ومنهم : قائد أهل الايمان وفقير أهل الاحسان ، امام أهل الحقائق ،

وغريق بحر المحبة ، أمير المؤمنين « **أبو حفص عمر بن الخطاب(١)** » رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة والفراسات المذكورة ، خصه الله بالفراسة والصلابة ، وله لطائف فى هذه الطريقة ، وحقائق فى هذا المعنى، كما قال عليه السلام : « الحق ينطق على لسان عمر(٢) » . وقال أيضا عليه السلام : « قد كان فى الأمم محدثون فان يك فى أمتى فعمر(٣) » . وله فى هـذه الطريقة رموز لطيفة كثيرة لا يمكن حصرها كلها فى هـذا الكتاب .

ويرد عنه أنه قال : « العزلة راحة من خلطاء السوء » . والعزلة على نوعين ، أولهما : الاعراض عن الخلق ، والآخر : الانقطاع عنهم .

---

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وينسب الى عدى فيقال العدوى ، ويكنى أبا حفص . وكان يدعى الفاروق لأنه أعلن الاسلام ونادى به والناس يخفونه ، ففرق بين الحق والباطل . وكان المسلمون يوم أسلم تسعة وثلاثين رجلا وامرأة بمكة فكملهم عمر أربعين . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . عهد اليه أبو بكر واستخلفه بعده . وكان أول عمل قام به ، رد سبايا أهل الردة الى عشائرهم وقال : انى كرهت أن يصير السبى سنة على العرب . وحج بالناس عشر سنين متوالية ، ثم صدر الى المدينة ، فقتله (فيروز أبو لؤلؤة) غلام المغيرة بن شعبة فى أواخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقبر فى حجرة عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنهما . وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال .

سن عمر قيام شهر رمضان وكتب بذلك الى البلدان . سمى أمير المؤمنين ، وكان يسمى خليفة رسول الله . وكتب اليه أبو موسى الاشعرى « لعبد الله عمر أمير المؤمنين » وجرت عليه . كان فى وجهه خطان من كثرة البكاء ، وكان يحب الصلاة فى وسط الليل ، وكان يمر بالآية فى ورده فتخنقه العبرات فيبكى حتى يسقط ثم يلزم بيته حتى يعاد ، يحسبونه مريضا .

كان فى أعلى درجات الصديقين وظهرت عليه دلائل ذلك ، وهو ما ذكر عنه من أنه كان يخطب فصاح فقال فى وسط خطبته : يا سارية الجبل ! وسارية فى عسكر على باب نهاوند . فسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو . وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ قال : سمعت صوت عمر رضى الله عنه يقول : يا سارية ! الجبل ! الجبل ! وكان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت .

ويقول السراج : لأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر ، رضى الله عنه ، بمعانى . خص بذلك عمر من اختياره لبس المرقعة والخشونة ، وترك الشبوات واجتناب الشبهات ، واظهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ، ومساوات الاقارب والاباعد فى الحقوق ، والتمسك بالأشد فى الطاعات وغير ذلك مما روى عنه وبيانه يطول .

(أنظر ترجمته فى : المعارف ص ٧٧ — ٨٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١١٧ — ١٣٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٦ ، اللمع ص ١٧٣ — ١٧٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٤ — ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٩ — ١٣) .

(٢) رواه الحكيم عن الفضل بن عباس : « الحق بعدى مع عمر حيث كان » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٩) .

(٣) رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة : « قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فان يك فى أمتى أحد منهم فهو عمر بن الخطاب (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٢) .

والاعراض عن الخلق هو اختيار مكان خال ، وتجنب صحبة الأجناس بالظـاهر ، والركون الى النفس لرؤية الأعمال ، وتخليص النفس من مخالطة الناس ، وتأمين الخلق من شرك .

أما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب ، وليس لصفة القلب أى تعلق بالظاهر ، فحين ينقطع الشخص بقلبه عن الخلق وصحبتهم ، لا تكون له دراية بالمخلوقات حتى يستولى التفكير فيهم على قلبه،ومن ثم فان هذا الشخص وان يكن بين الخلق ، فانه يكون وحيدا ، وتكون همته فريدة عنهم . وهذا مقام عال وبعيد جدا وصحيح . وكانت هذه صفة عمر رضى الله عنه ، الذى أشـار الى راحـة العزلة ، وان كان بالظـاهر فى ولاية الامارة والخـلافة .

وهذا دليل على أن أهل الباطن وان خالطوا الخلق فى الظاهر ، فان قلوبهم تكون متعلقة بالحق ، ويكونون راجعين اليه فى كل حال ، ويعدون ذلك القدر من صحبتهم للخلق بلاء من الحق . وهم لا يتحولون عن الحق تعـالى بصحبتهم للخلق ، لأن الدنيا لا تصفو أبدا لأحباب الحق ، ولا تهنأ أحوالها ، كما قال عمر رضى الله عنه : « دار أسست على البلوى بلا بلوى محال » .

وكان عمر رضى الله عنه من خواص أهل الرسـول عليه السـلام وأصحابه ، وكان مقبولا فى حضرة الحق تعالى بجميع أفعاله ، الى حد أن جاء جبريل عليه السلام عندما أسلم عمر وقال للرسول عليه السـلام : « يا محمد قد أستبشر أهل السماء اليوم باسلام عمر » . وبه اقتداء هذه الطائفة فى لبس المرقعة والصلابة فى الدين من بعد أن صار رضى الله عنه اماما للخلق فى كل شىء .

ومنهم أيضا : جوهر كنز الحياء ، وأعبد أهل الصفاء ، والمتعلق بأعتاب الرضا ، والمتمكن على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنـه : « **أبو عمرو عثمان بن عفان(١)** » رضى الله عنـه . ذو الفضائل الواضحة ، والمناقب الظاهرة فى جميع المعانى .

---

(١) هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة ، ويجتمع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه : رقية وأم كلثوم . سمى ذا النورين لجمعه بينهما . وهو من المهاجرين الأولين ، هاجر الى الحبشة وهاجر الى المدينة . اشترى بئر رومة فى المدينة ، وكان ليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقـال النبى صلى الله عليه وسلم : من يشترى رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها =

ويروى عبد الله بن رباح وأبو قتادة — رضى الله عنهما — أنه فى يوم حرب الدار ، كنا عند عثمان رضى الله عنه ، فلما اجتمع الغوغاء على بابه ، شهر غلمانه السلاح ، فقال لهم : عثمان : كل من لا يخلع السلاح فهو حر منى . وخرجنا خوفا على أنفسنا ، فلاح الحسن بن على فى الطريق ، ورجعنا معه ، ودخلنا على عثمان لنرى لم أقبل الحسن رضى الله عنه ، فلما دخل الحسن ، حياه وعزاه على تلك البلية ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المسلمين بدون أمرك وأنت امام القوم ، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم . فقال له عثمان : « يا ابن أخى ! ارجع واجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره ، فلا حاجة لنا فى اهراق الدماء » .

وهذا علامة التسليم فى حال ورود البلاء ، فى درجة الخلة ، كما حدث لابراهيم عليه السلام عندما أشعل النمروذ النار والقى به فيها ، فقد جاءه جبريل عليه السلام وقال : « هل لك من حاجة » قال : « أما اليك ، فلا » فقال : فسل الله . قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ، فعثمان فى مكان الخليل ، والغوغاء فى مكان النار ، والحسن فى مكان جبريل . ولكن ابراهيم عليه السلام قد نجا من البلاء ، وعثمان رضى الله عنه هلك فى البلاء .

= فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . فكان يوم له ويوم لعثمان . فاذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فقال اليهودى لعثمان : أفسدت على فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم .

بويع فى غرة محرم سنة أربع وعشرين وهو ابن تسع وستين سنة . وكانت أيامه اثنتى عشرة سنة وحج بالناس أيامه كلها الا السنة الأولى . حوصر أربعين يوما وقتل فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل أن الذين قتلوه : محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى حذيفة وابن حزم . فلما دخلوا عليه من دار بنى حزم ضربه أحدهم بمشقص فى وجهه فسال الدم على المصحف فى حجره . ثم أخذ محمد ابن أبى بكر بلحيته ... ودفن بالبقيع ليلا وأخفوا قبره .

ويقول السراج ان عثمان رضى الله عنه خص بالتمكين ، والتمكين من أعلى مراتب المتحققين . ومما يتعلق به أهل الحقائق بعثمان ، ما روى عنه من أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه ، وكان له عدة مماليك ، فقيل له : لو دفعتها الى بعض عبيدك ؟ فقال : انى قد استطعت أن أفعل ذلك ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل يعجز عن ذلك وهل تكره ذلك ؟ فدل على أنه كان لا يدع افتقاد نفسه ، وكان يفتقد رياضة نفسه لئلا يسكن الى ما جمع اليه من الأموال لانه ليس فى ذلك كفيره .

ومما يدل على تخصيصه بالتمكين والثبات والاستقامة ما روى عنه أنه يوم قتل لم يبرح موضعه ، ولم يأذن لاحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره الى أن قتل ، رضى الله عنه ، وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ووقع الدم على موضع الآية : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » .

(انظر ترجمته فى المعارف ص ٨٢ — ٨٥ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٩ — ١٥٢ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣ ، اللمع ص ١٧٦ — ١٧٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٣ — ١٥) .

وللنجاة تعلق بالبقاء ، وللهلاك تعلق بالفناء ، وقد ذكرت طرفا من الحديث فى هذا المعنى من قبل .

فاقتداء هذه الطائفة بعثمان رضى الله عنه فى بذله المال والحياة ، والتسليم فى الأمور ، والاخلاص فى العبادة . وهو على الحقيقة امام حق فى الحقيقة والشريعة ، وطريقته فى المحبة ظاهرة . وبالله التوفيق .

● ومنهم ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء ، وقدرة الأولياء والأصفياء ، « **أبو الحسن على بن أبى طلب**(١) » كرم الله

---

(١) هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ويكنى أبا الحسن ، ابن عم الرسوم عليه السلام وزوج ابنته فاطمة . بويع بيعة العامة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقتل عثمان بأربعة أيام . وبايع له بالمدينة طلحة والزبير . وسار الى البصرة سنة ست وثلاثين وفيها كانت واقعة الجمل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة . وقتل طلحة وهزم من كان معهم . ورجع الزبير فقتل بوادى السباع . وأحيط بعائشة فأخذت ، ودخل على البصرة فبايعه أهلها . وأرسل عائشة الى المدينة ووجه معها سبعين امرأة من عبد القيس فى ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة ، ثم انصرف على بعد ذلك الى الكوفة واستعمل على البصرة عبد الله بن عباس . وتهيأ لحرب معاوية فسار بأهل العراق ، وأقبل معاوية فى أهل الشام ومن اتبعه فكانت موقعة صفين ثم الحكمان . ولم يزل فى حرب الى أن قتل رحمه الله ولم يحج لشغله بالحروب . وكان مقتله فى رمضان سنة أربعين ، وقاتله عبد الرحمن بن ملجم ، ودفن بالكوفة عند مسجد الجماعة فى قصر الامارة . وكانت ولايته خمس سنين الا ثلاثة أشهر .

ويقول السراج : لأمير المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعانى جليلة واشارات لطيفة ، والفاظ مفردة ، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والايمان ، والعلم وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية : من ذلك أنه سئل : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفنى نفسه ، لا تشبه صوره ، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، فوق كل شىء ولا يقال شىء تحته ، وتحت كل شىء ولا يقال شىء فوقه ، أمام كل شىء ولا يقال شىء أمامه ، داخل فى الأشياء لا كشىء ولا من شىء ولا فى شىء ولا بشىء . سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره .

وسأله رجل عن الايمان فقال : الايمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات ، فان صح ذلك عنه فهو أول من تكلم فى الاحوال والمقامات .

وذكر عنه أنه وقف على باب خزانة الأموال وقال : يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى . ويقال أنه كان اذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه ، فيقال له : مالك ياأمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، فلا أدرى أحسن أداء ما احتملت أم لا ؟

وكان رضى الله عنه يقول : القلوب أوعية وخيرها أوعاها . ويقول : التقوى هى ترك الاصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة .

وكان الجنيد يقول : رضوان الله عليه أمير المؤمنين على لولا انشغاله بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معانى كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى العلم اللدنى . والعلم اللدنى هو العلم الذى خص به الخضر عليه السلام .

(انظر : المعارف ص ٨٨ — ٩٠ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٥٤ — ١٨٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢ — ٤٥ ، اللمع ١٧٩ — ١٨٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٥ — ١٧ ، خزينة الاصفياء ط ص ٥ — ٢٦) .

وجهه . وله فى هذه الطريقة شأن عظيم ،ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام.فى دقة التعبير عن أصول الحقائق الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « شيخنا فى الأصول والبلاء على المرتضى » رضى الله عنه .

أى أن عليا رضى الله عنه هو امام هذه الطريقة فى العلم والمعاملة ، فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات .

ويحكى أن رجلا ذهب اليه وقال له : يا أمير المؤمنين ! أوصنى . فقال له :

« لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك ، فان يكن أهلك وولدك من أولياء الله ، فان الله لا يضيع أولياءه ، وان كانوا أعداء الله ، فما همك وشغلك لأعداء الله » .

وهذه المسألة تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله ، لأنه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقينهم صادقا ، كما ترك موسى عليه السلام ابنه شعيب عليه السلام فى حال قاسية وأسلم أمرها لله ، وكما حمل ابراهيم هاجر واسماعيل عليهما السلام الى واد غير ذى زرع ، وأسلم أمرهما لله جل جلاله ، ولم يجعلاهما أكبر شغلهما ، وربطا قلبيهما بالحق تعالى حتى تحقق مرادهما فى الدنيا والآخرة فى حال انعدام المراد ، بتسليم الأمور لله عز وجل .

وهذا شبيه بما قاله على كرم الله وجهه لسائل كان قد سأله : ما أطهر الكسب ؟ قال : « غناء القلب بالله » .

وكل قلب يكون غنيا بالله تعالى لا يصيره عدم الدنيا فقيرا ، ووجودها لا يسره . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والصفوة ، وقد مر ذكرهما . فأهل هذه الطريقة يقتدون به فى حقائق العبارات ودقائق الاشارات ، والتجرد عن معلوم الدنيا ، والنظر فى تقدير الحق .

ولطائف كلامه أكثر من أن تحصى ، ومنهجى فى هذا الكتاب هو الاختصار، وبالله التوفيق .

الباب الثامن
باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت

وأهل بيت النبى عليه السلام هم أولئك الذين اختصوا بطهارة الأصل ، ولكل منهم فى هـذه المعانى قدم راسخة ، وكانوا كلهم قدوة هذه الطائفة ، الخواص منهم والعوام . وأبين طرفا من أحوال طائفة منهم ، ان شاء الله عز وجل .

● منهم فلذة كبد المصطفى ، وريحانة قلب المرتضى،وقرة عين الزهراء : **« أبو محمد الحسن بن على(١) » كرم** الله وجهه ، كان ذا نظر صائب فى هذه الطريقة ، وحظ وافر فى دقائق العبارات ، الى حد أنه عندما أوصى قال : « عليكم بحفظ السرائر فان الله تعالى مطلع على الضمائر » .

وحقيقة هذا أن العبد مخاطب بحفظ الأسرار مع الحق ، وحفظ الأظهار من مخالفة الجبار .

---

(١) كان يكنى أبا محمد ، بويع بعد وفاة أبيه فى رمضان سنة أربعين ، ووجه عماله الى السواد والجبل ، ودعا بعبد الرحمن بن ملجم وقتله . وقدم معاوية العراق ، وكان الحسن عليلا وقد تفرق عنه أصحابه فلما رأى أنه لا قوة به ، صالح معاوية ، وصعد المنبر وقال : « أيها الناس ! ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وقد سالمت معاوية ، وأن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » . ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن . ومات الحسن فى ربيع الاول سنة احدى وأربعين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقى خليفة بالحجاز واليمن والعراق نحو سبعة أشهر .

ويقال ان معاوية حرض عليه امرأته جعدة بنت الاشعث بن قيس ، فدس اليها انك ان احتلت فى قتل الحسن وجهت اليك بمائة ألف درهم وزوجتك يزيد : فكان ذلك الذى بعثها على سمه ، فلما مات وفى لها معاوية المال وأرسل اليها : أنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

كان رضى الله عنه يقول : انى لأستحى من ربى عز وجل أن ألقاه ولم أمش الى بيته فمشى عشرين مرة الى مكة من المدينة على رجليه . وكانت الجنائب تقاد معه . وخرج من ماله لله تعالى مرتين . وكان اذا اشترى أحد حائطا ثم افتقر البائع يرد عليه الحائط ويردفه بالثمن معه . وما قال قط لسائل : لا . ولما نزل الموت به بعد شربه السم ، قال أخرجوا فراشى الى صحن الدار ، فأخرج ، فقال : اللهم انى أحتسب نفسى عندك غانى لم أصب بمثلها ، ثم قبض .

(انظر : المعارف ص ٩٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٩١ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ — ٥٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٦) .

ويرد عنه أنه عندما غلب شـــأن القدرية ، وتشتت مذهب الاعتزال فى الدنيا ، كتب الحسن البصرى رضى الله عنه الى الحسن بن على رضى الله عنهما ، كتابا قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : السلام عليك يا ابن رسول الله وقرة عينه ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فانكم معشر بنى هاشم كالفلك الجارية فى اللجج ، ومصابيح الدجى ، وأعلام الهدى ، والأئمة القادة الذين من تبعهم نجا كسفينة نوح المشـــحونة التى يأول اليها المؤمنون ، وينجو فيهـــا المتمسكون . فما قولك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حيرتنا فى القدر ، واختلافنا فى الاستطاعة ؟ لتعلمنا بما تأكد عليه رأيك ، فانكم ذرية بعضها من بعض ، بعلم الله علمتم ، وهو الشاهد عليكم ، وأنتم شهداء الله على الناس . والسلام » .

وعندما وصل الكتاب كتب الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد انتهى الى كتابك عن حيرتك وحيرة من زعمت من أمتنا ، والذى عليه رأيى أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر ، ومن حمل المعاصى على الله فقد فجر . ان الله لا يطاع باكراه ولا يعصى بغلبة ، ولا يهمل العباد من الملكة ، لكنه المالك لما ملكهم والقادر على ما غلبه قدرتهم ، فان ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا ولا لهم عنها مثبطا ، فان أتوا المعصية وشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبينها ، فعل ، وان لم يفعل فليس هو حملهم عليها اجبارا ولا الزمهم اياها اكراها ، باحتجاجه عليهم أن عرفهم ومكنهم وجعل لهم السبيل الى أخذ ما دعاهم اليه وترك ما نهاهم عنه . ولله الحجة البالغة . والسلام » .

أى أن انكار التقدير مذهب القدر ، وحمل المعاصى على الله مذهب الجبر ، فالعبد مختار فى كسبه بقدر ما حباه الله عز وجل من استطاعة ، والدين بين الجبر والقدر .

ولم يكن مرادى من هذا الكتاب أكثر من كلمة ، غير أنى أوردته كله لأنه غاية فى الفصاحة والعذوبة . وقد أوردت كل هذا لكى أبرهن على أنه رضى الله عنه كان فى علم الحقائق والأصول الى حد أن اشارة الحسن البصرى — مع علو مكانته فى العلم — كانت اليه .

ووجدت فى **الحكايات** أن اعرابيا جاء من البادية ، وكان جالســـا على بابه فى الكوفة ، فسبه وسب أمه وأباه . فنهض وقال له : يا أعرابى ،

اذا كنت جائعا يحضر لك الطعام ، واذا كنت ظمآنا يؤتى لك بالمـــاء ، والا ماذا الم بك ؟ وكان الاعرابى يقول له : أنت كذا ، وأمك كذا ، وأبوك كذا . فأمر الحسن رضى الله عنه غلامه فأحضر بدرة دنانير ، وقال له : أيها الاعرابى ! أسألك المعذرة ، فلم يبق ببيتنا أكثر من هذا والا ما منعناك اياه . فلما سمع منه الأعرابى هذا قال : أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وقد جئت هنا لتجربة حلمك .

وهذه صفة محققى المشايخ ، رضوان الله عليهم ، الذين يستوى لديهم مدح الخلائق وذمهم ، ولا تغيرهم الجفوة فى القول ، والله أعلم .

● ومنهم شمع آل محمد ، المجرد من العلائق ، سيد زمانه ، « **أبو عبد الله الحسين بن أبى طالب(١)** » رضى الله عنهما . كان من الأوليـــاء المحققين وقبلة أهل البلاء ، وقتيل صحراء كربلاء(٢) . وجميع أهل الطريقة متفقون على صحة حاله لأنه كان متابعا للحق ما دام الحق ظاهرا ، فلما فقـــد الحق شهر سيفه ، ولم يهدأ حتى جعل روحه العزيزة فداء الشهادة لله عز وجل . وللرسول فيه اشارات خصه بها ، كما روى عمر بن الخطاب

---

(١) « أبو عبد الله » كنيته . وورد عنه أنه لما مات معاوية طولب (الحسين) بالبيعة ليزيد بالمدينة ، فسأم التأخير وخرج الى مكة . وكتب أهل العراق اليه ووجهوا الرسل ، فوجه اليهم مسلم بن عقيل وكتب اليهم وأعلمهم أنه آثر كتابه . فلما قدم مسلم بن عقيل بالكونة بايعه أهلها . وخرج الحسين من مكة يريد العراق ، وكان يزيد قد ولى على العراق عبيد الله بن زياد وكتب اليه يقول : قد بلغنى أن أهل الكوفة قد كتبوا الى الحسين فى القدوم عليهم وأنه قد خرج من مكة متوجها نحوهم . وقد بلى بلدك من بين البلدان وأيامك من بين الايام ، فان قتلته والا رجعت الى نسبك والى أبيك عبيد فاحذر أن يفوتك » . وسار الحسين الى العراق وفى الطريق أتاه الخبر بقتل مســـلم بن عقيل فأراد أن يرجع ، فبعث اليـــه عبيد الله بالحر بن يزيد فمنعه .ثم بعث اليه بعمر بن سعد بن أبى وقاص فى جيش فلقى الحسين فى كربلاء وقتل . وكان الذى قتله رجل من مزحج واجتز رأسه وانطلق به الى ابن زياد فبعث به الى يزيد ومعه الرأس . وكان مقتله يوم عاشوراء سنة احدى وستين وهو ابن ست وخمسين . وحملت رأسه الى مصر ودفنت بالمشهد المشهور بها ومشى الناس أمامها حفاة من مدينة غزا الى مصر تعظيما لها .
قيل له رضى الله عنه : ما سمعت من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول : أن الله يحب معالى الامور ويكره سفسافها . وعقلت عنه أنه يكبر فأكبر خلفه فاذا سمع تكبيرى اعاد التكبير حتى يكبر سبعا . وسمعته يقول : من يطع الله يرفعه ، ومن يعص الله يضعه ، ومن يخلص نيته لله يزينه ، ومن يثق بما عند الله يغنيه ، ومن يتعزز على الله يذله .
وقال بعضهم : سمعت الحسين يقول : الصدق عز والكذب عجز ، والسر أمانة ، والجوار قربة ، والمعونة صداقة ، والعمل تجربة ، والخلق الحسن عبادة ، والصمت زين ، والشح فقر ، والسخاء غنى ، والرفق لب .
(انظر : المعارف ص ٩٣ ، اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٨ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ — ٩٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٨ — ٣٠) .

(٢) « كربلاء » : الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى طرف البرية عند الكوفة . (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٩) .

رضى الله عنه ، قال : جئت النبى عليه السلام يوما ، فرأيته كان قد أركبه على ظهره ، ووضع حبلا فى فمه ووضع طرفه فى يد الحسين ، حتى كان الحسين يسير وهو عليه السلام يسير خلفه على ركبتيه ، فلما رأيت هذا قلت : « نعم الجمل جملك يا أبا عبد الله » . فقال النبى عليه السلام : « نعم الراكب هو يا عمر » .

وله كلام لطيف فى طريقة الحق ، ورموز كثيرة ومعاملات طيبة . ويروى عنه أنه قال : « اشفق الاخوان عليك دينك » ، لأن نجاة المرء تكون فى متابعة الدين ، وهلاكه فى مخالفته ، فالرجل العاقل هو الذى يكون عند أمر المشفقين ، ويدرك أنهم يشفقون عليه ، ولا يسير الا متابعا لهم . والأخ الحق هو الذى يبدى النصيحة ، ولا يغلق باب الشفقة .

ووجدت فى الحكايات أن رجلا جاءه يوما وقال : يا ابن رسول الله عز وجل ! أنا رجل فقير ولى أطفال ، وأريد منك قوت ليلتى ! فقال له الحسين : أجلس فان لنا رزقا فى الطريق الينا ، فانتظر حتى يحضروه . ولم يمض كثير حتى جىء اليه بخمس صرر من عند معاوية ، فى كل منها الف دينار ، وقالوا ان معاوية يعتذر لك ويقول : انفق هذا المقدار على أتباعك ، الى أن تأتيك بعده معونة أوفى . فأشار الحسين رضى الله عنه أن اعطوها لذلك الفقير ، فأعطوه الصرر الخمس ، واعتذر اليه قائلا : لقد بقيت كثيرا ، ونلت قليلا ، ولو كنا نعرف أنه هذا المقدار لما حملناك على الانتظار ، فاعذرنا لأننا من أهل البلاء ، وقد تخلفنا عن كل راحات الدنيا ، وفقدنا مرادنا فيها ، ويجب أن نعيش لمراد الآخرين .

ومناقبه أشهر من أن تخفى على أحد من هذه الأمة ، والله أعلم .

● ومنهم أيضا : وارث النبوة ، وسراج الأمة ، السيد المظلوم ، والامام المحروم ، زين العباد ، وشمع الأوتاد : « **أبو الحسن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب** (١) » رضى الله عنه . كان أكرم وأعبد أهل زمانه ، وهو مشهور بكشف الحقائق والنطق بالدقائق .

---

(١) الامام الرابع من الأئمة الاثنى عشر ويكنى بزين العابدين وهو على الاصغر ، وأما الأكبر فقتل مع الحسين . وليس للحسين رضى الله عنه عقب الا من ولد زين العابدين هذا . أمه بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس . قال عنه الزهرى : ما رأيت قرشيا أفضل منه . وكان يثنى على أبى بكر وعمر وعثمان ويترحم عليهم ، ويصلى كل يوم وليلة الف ركعة . قيل توفى سنة أربع وتسعين أو اثنتين وتسعين للهجرة بالمدينة ودفن بالبقيع فى قبر عمه الحسن بن على رضى الله عنه ، وقيل توفى سنة تسع وتسعين وهو ابن ثمان وخمسين سنة . قال أبو خالد الكابلى : سمعت على ابن الحسين يقول : « من عف عن محارم الله كان عابدا ، ومن رضى بقسم الله كان غنيا ، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلما » . (انظر المعارف ٩٤ ، اليعقوبى ج ٣ ص ٤٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٢٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٠) .

سئل : من أسعد أهل الدنيا والآخرة ؟ قال « من اذا رضى لم يحمله رضاه على الباطل ، واذا سخط لم يخرجه سخطه من الحق » . وهذا من أوصاف الكمال للمستقيمين ، لأن الرضا بالباطل باطل ، والكف عن الحق فى حال الغضب باطل ، ولا يكون المؤمن مبطلا .

ويروى عنه أنه حين قتل الحسين بن على مع أولاده ، رضوان الله عليهم ، فى كربلاء ، لم يبق سواه ، لأنه كان قيما على النساء ومريضا — وكان أمير المؤمنين الحسين رضى الله عنه يدعوه عليا الأصغر — فلما حملوهم على ابل عارية الى دمشق(١) لدى يزيد بن معاوية — أخزاه الله — قال له رجل : « كيف أصبحتهم يا على ، ويا أهل بيت الرحمة ؟ قال : أصبحنا من قومنا بمنزلة قوم موسى من آل فرعون : يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا فلا ندرى صباحنا من مسائنا ، وهذا من حقيقة بلائنا » ، ونحن نشكر الله جل جلاله على نعمائه ، ونحمده على بلوائه .

ورد فى الحكايات أن هشام بن عبد الملك بن مروان(٢) ذهب للحج عاما ، وكان يطوف بالكعبة . وأراد أن يقبل الحجر ، فلم يجد طريقا اليه لكثرة الزحام ، فصعد المنبر وخطب . وفى أثناء الخطبة دخل زين العابدين على ابن الحسين المسجد بوجه مقمر ، وخد منور ، وثوب معطر وطاف بالبيت . فلما اقترب ، أخلى الناس الحجر تعظيما له حتى يقبله . فلما رأى ذلك رجل من أهل الشام (٣) ، قال لهشام : يا أمير المؤمنين ! لم يفسحوا لك الطريق الى الحجر وأنت أمير ، فمن كان ذلك الفتى الجميل الذى جاء

---

(١) « دمشق » : مدينة جليلة قديمة . وهى مدينة الشام فى الجاهلية والاسلام . ونهرها الأعظم يقال له بردا ، افتتحت فى خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة (البلدان ص ٨٧) . وقد روى عن كعب الاحبار أن أول حائط وضع فى الارض بعد الطوفان حائط دمشق وحران (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٨٩) .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ، كان يكنى أبا الوليد . بويع بعد يزيد بن عبد الملك ويقال وانته الخلافة وهو بقرية يقال لها الزيتونة من الجزيرة فجاءه البريد فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى جاء دمشق ، وكان ذلك فى رمضان سنة خمس ومائة . وفى عهده قتل زيد بن على الشهيد سنة مائة واحدى وعشرين وتحركت الشيعة فى خراسان وظهر أمرهم . كانت ولايته عشرين سنة الا خمسة أشهر وتوفى بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . (انظر : اليعقوبى ج ٣ ص ٥٧ — ٦٨ ، المعارف ص ١٥٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٠)

(٣) « الشام » : سميت بذلك لكثرة قراها وتدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وقال آخرون سميت بالشام بسام بن نوح وذلك أنه أول من نزلها فجعلت السين شينا .
أما حدها من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما عرضها فمن =

فتفرق الناس جميعا عن الحجر وأخلوا المكان ؟ فقال هشام : لا أعرفه — مخافة أن يعرفه أهل الشام ويتولون اليه ، ولا يرغبون فى امارته — وكان الشاعر الفرزدق (١) هناك فقال : أنا أعرفه ،قالوا :من هو ياأبا فراس؟ أخبرنا لأننا رأيناه فتى مهيبا جدا . فقال الفرزدق : أنصتوا لأرتجل لكم نسبه .

(شعر عربى)

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والحل يعرفه والبيت والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة الزهراء ويحكم ... وابن الرضى على خيركم قدم
اذا رأته قريش قال قائلها ... الى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى الى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الاسلام والعجم
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
ينشق نور الدجى عن نور طلعته ... كالشمس ينجاب اشراقها الظلم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم الا حين يبتسم
فى كفه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... يستو كفان ولا يعروهما العدم
عم البرية بالاحسان فانقشعت ... عنه الغيابة والاملاق والظلم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهم قوم وان كرموا
هم الغيوث اذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس يحتلم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجا ومعتصم
ان عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

= جبل طىء من نحو القبلة الى بحر الروم .. وبها من أمهات المدن حلب وحماة وحمص ودمشق وبيت المقدس .. وهى خمسة أجناد : جند مسرين وجند دمشق وجند الاردن وجند فلسطين وجند حمص (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٣٩ — ٢٤٤) وقد بدىء بفتح الشام سنة ثلاث عشرة وتم فتح مدنها سنة سبع عشرة (فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥ — ٤٤) .

(١) « الفرزدق » : أبو فراس همام الفرزدق ، ويقال همیم بالتصغير . الشاعر المشهور وصاحب جرير وهما الشاعران المعروفان بالمهاجاة . وقد جمع لهما كتاب يسمى « النقائض » وهو من الكتب المشهورة . وتوفى الفرزدق بالبصرة سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوما وقيل ثمانين يوما . وقيل لما مات الفرزدق وبلغ خبره جرير بكى وقال : أما والله أنى لا أعلم انى قليل البقاء بعده ، ولقد كان نجمنا واحدا ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقلما مات ضد أو صديق الا وتبعه صاحبه .
قيل التقى الحسن البصرى والفرزدق فى جنازة فقال الفرزدق للحسن البصرى :=

وقال فى مدحهم أبياتا كثيرة كهذه ومدحه ومدح أهل بيت النبى عليه السلام ، فغضب عليه هشام وأمر بحبسه بعسفان — وهو موضع بين مكة(١) والمدينة(٢) — ونقلوا هذا الخبر بعينه الى (زين العابدين) فأمر فحملوا اليه اثنى عشر ألف درهم ، وقال : قولوا له : يا أبا فراس ، اعذرنا لاننا معسرون لانملك أكثر من هذا والا أرسلناه لك.فأعاده الفرزدقوأرسل يقول : يا ابن رسول الله ، لقد قلت شعرا كثيرا قبل هذا من أجل المال ، وذكرت فى تلك المدائح الكذائب ، فقلت هذه الأبيات ، لكفارة بعضها ، من أجل الله ومحبة رسول الله وأولاده . فلما أبلغوا زين العابدين الرسالة قال : ارجعوا وأعيدوا اليه المال ، وقولوا له : يا أبا فراس ، اذا كنت تحبنا فانك لا ترتضى أن نستعيد شيئا وهبناه وأخرجناه من ملكنا . وعندئذ قبل الفرزدق المال .

ومناقب هذا السيد أكثر من أن يمكن جمعها ، والله أعلم .

● **ومنهم :** الحجة على أهل المعاملة ، وبرهان أهل المشاهدة ، أمام أولاد النبى ، والمختار من نسل على ، « **أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب** » كرم الله وجهه ، ورضى عنهم . ويقال أيضا أنه كان يكنى بأبى عبد الله(٣) ، ويلقب بالباقر .

= أتدرى ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ يقولون : اجتمع فى هذه الجنازة خير الناس وشر الناس . فقال الحسن : كلا ، لست خيرهم ولست بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله منذ ستين سنة .
(أنظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٤ ، ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٢) . وقد وردت هذه الحكاية والقصيدة فى وفيات الاعيان فى ترجمة الفرزدق . ونجد هنا اختلافا فى ترتيب بعض الابيات ، وتحريفا فى بعض المفردات . (انظر : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٠٠) .

(١) « مكة » المكرمة : تقع بين جبال عظام . وهى أودية ذات شعاب فجبالها المحيطة بها أبو قبيس الجبل الاعظم منه تشرق الشمس على المسجد الحرام ، وقعيقعان وفاضح والمحصب وثور عند الصفا وحراء وثبير وتفاحة والمطانح والفلق والحجون وسقر . لها من الشعاب كثير يقع المسجد الحرام بين جياد وقعيقعان . وقد زاد فى بنائه وتوسيعه — حتى صارت الكعبة فى وسطه — الخليفة المهدى فى سنة أربع وستين ومائة (انظر : البلدان ص ٧٨ — ٨٠) .

(٢) « المدينة » المنورة : كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة فى مستوى من الارض عذبه برية جبلية وذلك أن لها جبلين أحدهما : أحد والاخر . عير ، وأهلها المهاجرون والانصار والتابعون وبها قبائل العرب . وقد انتقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب معاقلها واختط الناس بها الخطط وكانوا قبل ذلك متفرقين واتصل البنيان بعضه ببعض حتى صارت مدينة . ومن المدينة الى مكة عشر مراحل عامرة آهلة (انظر : البلدان ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣) هذه الكنية ليست له وانما لابنه جعفر الصادق (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥) .

كان مخصوصا بدقائق العلوم ، ولطائف الاشـــارات فى كتاب الله عز وجل ، وكانت له كرامات مشهورة ، وآيات زاهرة ، وبراهين نيرة .

ويقال ان ملكا قصد هلاكه يوما ، وأرسل اليه رجلا ، فلما دخل عليه اعتذر له الملك ، وقدم له هدية ، ورده بالاحسان ، فقيل له : أيها الملك ! لقد كنت تقصـــد اهلاكه ، ورايناك معه على حال آخـــر ، فماذا حدث ؟ قال : لمـــا دخل على رأيت أسدين عن يمينه ويساره ، وكانا يقولان لى : اذا قصدته بسوء أهلكناك .

ويرد عنه أنه قال فى تفســـير قول الله عز وجل « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله(١) » قال : « كل من شغلك عن مطالعة الحق فهو طاغوتك » ، فتبين بأى شىء حجبت وتخلفت ، وتخل عنه لتحظى بالكشف . والمحجوب ممنوع ، والممنوع ينبغى أن لايدعى القربة .

يروى عنه واحـــد من خواصه أنه حين كان يمضى هزيع من الليل ، ويفرغ من أوراده ، كان يرفع صوته مناجيا ويقول : يا الهى وسيدى ! أقبل الليل ، وانتهت ولاية تصرف الملوك ، وظهرت النجوم فى السماء ، ونام جميع الخلق ، وهدأت أصوات الناس ونامت أعينهم ، وجفلوا عن أبواب بنى أمية واختفت رغائبهم ، وأغلق بنو أمية أبوابهم ووكلوا بها حراسهم ، وتخلى كل ذى حاجة اليهم عن حاجته . يا الهى أنت الحى ، العليم ، البصير ، لا تجوز عليك سنة ولا نوم ، ومن لا يعرفك بهذه الصفة لايستحق نعمتك . أنت يا من لا يردك شىء عن شىء ، ولا يتطرق الخلل الى بقائك ليـــلا ونهارا ، أبواب رحمتك مفتوحة لمن يدعوك ، وخزائنك كلها فداء من يثنى عليك ! أنت الاله الذى لا يجوز عليك رد ســـائل حين يدعوك مؤمن ، ولا راد لسائل بابك من خلق الأرض والسماء ، يا الهى حين أذكر الموت والقبر والحساب ، كيف أسعد القلب بالدنيا ؟ وحينما أذكر الكتاب كيف أقر بشىء من الدنيا ؟ وحين أذكر ملك الموت كيف أقبل نصيبا من الدنيا ؟ فأنا أطلب منك يا الهى لأنى أعرفك ، وأبحث عنك لأنى ادعوك أن تمنحنى فى حال الموت راحة تخلو من العذاب ، وفى حال الحساب عيشا بلا عقاب . كان يقول كل هـــذا ويبكى ، حتى قلت له ذات ليلة : ياسيدى وسيد آبائى ! الآم تبكى والآم تصيح ؟ قال : يا صديقى ، لقد ضاع ليعقوب ولد فبكى حتى كف بصره وابيضت عينـــاه ، وأنا فقدت ثمانية عشر فردا مع أبى — أى الحسين وقتلى كربلاء — فلا أقل من أن تبيض عيناى على فراقهم .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥٦ .

وهذه المناجاة فى العربية فصيحة جدا ، ولكنى جئت بمعانيها بالفارسية تجنبا للاطالة حتى لا تتكرر ، ثم أجىء بها فى موضع آخر ، ان شـــاء الله رب العالمين .

● **ومنهم** سيف الســـنة ، وجمال الطريقة ، ومعبر المعـــرفة ، ومزين الصفوة ، « **أبو محمد(١) جعفر بن (محمد بن) على بن الحسن بن على** » الصادق(٢) ، رضوان الله عليهم أجمعين . كان عالى الحال وحسن السيرة مزين الظاهر وعامر السريرة . وله اشارات جميلة فى كل العلوم . وهو مشهور بين المشايخ ، رضى الله عنهم أجمعين ، بدقة كلامه ووقوفه على المعانى . وله كتب معروفة فى بيان الطريقة .

يروى عنه أنه قال : « من عرف الله أعرض عما سواه » ، لأن معرفته هى عين الانكار للغير ، فانكار غيره هو معـــرفته ، ومعرفة غيره هى انكاره ، والعارف منقطع عن الخلق ومتصل بالحق ، وليس للغير فى قلبه من القدر ما يجعله يلتفت اليهم ، أو يجعل لوجودهم كبير خطر يعقد ذكرهم فى خاطره .

ويروى عنه أيضا أنه قال : « لا يصح العبـــادة الا بالتوبة » ، فقدم التوبة على العبادة ، لأن الله تعالى قدم التوبة على العبادة فى قوله تعالى : « التائبون العابدون(٣) » ، لأن التوبة بداية المقامات ، والعبودية نهاية المقامات . ولما ذكر الله جل جلاله العصاة أمر بالتوبة وقال : « وتوبوا الى الله جميعا(٤) » ولما ذكر الرسول عليه السلام ، ذكره بالعبودية وقال : « فأوحى الى عبده ما أوحى(٥) » .

---

(١) كنيته : « أبو عبد الله » (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥) .

(٢) الامام السادس من الائمة الاثنى عشر : « جعفر الصادق » : ابن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم . وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . لقب بالصادق لصدقه فى مقالته . وله كلام فى صنعة الكيميا والزجر والفال .. ألف تلميذه أبو موسى جابر بن حيان كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهى خمسمائة رسالة . توفى سنة ثمان وأربعين ومائة ودفن بالبقيع فى قبر أبيه وجده .دخل عليه سفيان الثورى يوما فرأى عليه جبة من خز ، فقال له : أنتم فى بيت النبوة تلبسون هذا ؟ فقال : ما تدرى أدخل يدك ، فاذا تحته مسح من شعر خشن .
(انظر ترجمته فى : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٩٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٩) .

(٣) سورة « التوبة » آية ١١٢

(٤) سورة « النور » آية ٣١ .

(٥) سورة « النجم » آية ١٠

ووجدت فى الحكايات أن داود الطائى رحمه الله جاء اليه وقال : يا ابن رسول الله ! عظنى ! فقد أسود قلبى . قال : يا أبا سليمان ! أنت زاهد زمانك ، فما حاجتك الىعظتى ؟ . قال : يا ابن رسول الله ! ان لك على جميع الخلق فضلا ، وعظتك لكل الخلق واجب . قال : يا أبا سليمان ، انى أخشى أن يتعلق بى جدى يوم القيامة قائلا : لم لم تؤد حق متابعتى ؟ فهذا الأمر لا يكون بالنسبة الصحيحة ولا بالنسب القوى ، وانما بالمعاملة الحسنة فى حضرة الحق تعالى . فبكى داود وقال : يا الهى ! اذا كان من طينته معجونة بماء النبوة ، وتركيب طبيعته من أصل البرهان والحجة ، جده الرسول ، وأمه البتول ، بهذه الحيرة ، فمن يكون داود حتى يعجب بمعاملته ؟ .

ويرد عنه أيضا أنه كان قد جلس يوما بين مواليه وأخذ يقول لهم : تعالوا لنبايع ونتعاهد على أن كل من يفوز منا يوم القيامة يشفع للجميع . فقالوا : يا ابن رسول الله ! ما حاجتك الى شفاعتنا ، وجدك الشفيع لجميع الخلق ؟ قال : انى أخجل بأفعالى هذه أن أنظر الى وجه جدى يوم القيامة .

وهذا كله من رؤية عيوب النفس ، وهى صفة من صفات الكمال . وجميع المتمكنين فى حضرة الله عز وجل من الأولياء والأنبياء والرسل كانوا على هذا . والرسول عليه السلام قال : « اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه وعيوب الدنيا(١) . » . وكل من يخفض رأسه من قبيل تواضع العبودية ، يرفع الله تعالى شأنه فى الدنيا والآخرة .

واذا ذكرت أهل البيت جميعا ، وأحصيت مناقبهم فردا فردا لا يكفى هذا الكتاب ، بل أن كتبا كثيرة لا تحتمل عشر عشير منها ، فهذا المقدار كاف لقوم يكون لعقولهم لباس الادراك ، من مريدى ومنكرى هذه الطريقة .

والآن ، أورد ذكر أصحاب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الايجاز والاختصار ، فى هذا الكتاب . وقد ألفت قبل هذا كتابا وأسميته « منهاج الدين » ، بينت فيه مناقب كل منهم بالتفصيل ، ولكنى سأذكر هنا أسماءهم وكنياتهم بمفردها ، ليتم مقصودك — أعزك الله — وبالله التوفيق .

---

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس ، والبيهقى فى شعب الايمان عن أنس : « اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره عيوبه (اشرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦) .

الباب التاسع
باب فى ذكر أهل الصُّفة

أعلم أن الأمة — زاد الله من عددهم — مجتمعة على أنه كان للنبى عليه السلام فريق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يلازمون مسجده ، وهبوا أنفسهم للعبادة ، وكفوا أيديهم عن الدنيا ، وأعرضوا عن الكسب . وأن الله عز وجل عاتب النبى عليه السلام من أجلهم ، فقال عز من قائل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى(١) » وكتاب الله عز وجل ناطق بفضائلهم ، وللرسول عليه السلام فى مناقبهم أقوال كثيرة بلغتنا فى ذكرهم رحمة الله عليهم أجمعين ، وقد ذكرت طرفا منها فى مقدمة هذا الكتاب .

ويروى عن ابن عباس(٢) رضى الله عنه ، عن النبى عليه السلام ، قال : « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه ، راضيا بما فيه فانه من رفاقى فى الجنة » .

نذكر منهم : مؤذن حضرة الجبار ، ومختار محمد المختار : « **بلال بن رباح**(٣) » رضى الله عنه .

---

(١) سورة « الانعام » آية ٥٢ .

(٢) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم : ابن عم النبى عليه السلام وصاحبه ، وحبر الامة وفقيهها . مات سنة ثمان وستين بالطائف (انظر : المعارف ص ٥٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ١٧٢) .

(٣) بلال بن رباح : كان من مولدى مكة لرجل من بنى جمح ، فأسر ، فاشتراه أبوبكر بخمس أواق فأعتقه .وكان يعذب فى الله . وشهد بدرا والمشاهد كلها .وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض رسول الله أتى أبا بكر فاستأذنه الى الشام فأذن له ، فلم يزل مقيما بها .ولم يؤذن بعد النبى ، فلما قدم عمر الى الشام لقيه فأمره فأذن فبكى عمر والمسلمون . مات بدمشق سنة عشرين (المعارف ص ٧٦) .

ومنهم : حبيب الله الحكيم ، ومحرم أحوال النبى : « **أبو عبد الله سلمان الفارسى** » رضى الله عنه .

ومنهم : قائد المهاجرين والأنصار ، والمتوجه الى الله الغفار : **أبو عبيده عامر بن عبد الله بن الجراح**(١) رضى الله عنه .

ومنهم : مختار الأصحاب وزينة الأرباب : « **أبو اليقظان عمار بن ياسر**(٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : كنز العلم ، وخزينة الحلم : « **أبو مسعود عبد الله بن مسعود الهذيلى** (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم المتمسك بباب الحرمة ، المبرأ من العيب والأمة : « **عتبة بن مسعود(٤)** » : أخو عبد الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : سالك طريق العزلة ، والمعرض عن عصائب الزلة : « **المقداد ابن الأسود** » رحمه الله .

ومنهم : راعى مقام التقوى ، الراضى بالبلاء والبلوى : « **خباب بن الأرت(٥)** » رضى الله عنه .

---

(١) أبو عبيدة بن عبد الله الجراح نسبة الى جده . اسمه عامر وهو من بنى الحارث ابن فهر بن مالك بن النظر . وبنو فهر هم قريش ومن فهر تفرقت قبائلها . وأمه من بنى الحارث بن فهر وقد أسلمت وزوجها . قال فيه الرسول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . شهد بدرا . ومات سنة ثمان عشرة بالشام ودفن بغوربيسان (انظر : المعارف ص ١٠٨ ، اللمع ص ١٨٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٧) .

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن عنس ، وعنس من مذحج من اليمن ، وياسر قدم من اليمن الى مكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى وزوجه أبو حذيفة أمة له اسمها سمية.ولم يزل ياسر وعمار ابنه مع حذيفة الى أن مات وجاء الاسلام فأسلم ياسر وعمار وسمية . وسمية أم عمار أول شهيدة فى الاسلام ، قتلها أبو جهل بحربة . وشهد عمار صفين مع على بن أبى طالب فقتل ودفن هناك ، وصلى عليه على (انظر : المعارف ص ١١١) .

(٣) من بنى عامر بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . وكان من حلفاء بنى زهرة . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد . وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمر وصدرا من خلافة عثمان ، ثم صار الى المدينة فتوفى بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع .
(انظر المعارف ص ١٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٨) .

(٤) كان قديم الاسلام . ولم يرو عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئا ، ومات فى خلافة عمر . وكان له ابن يقال له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن مات بالكوفة فى خلافة عبد الملك بن مروان . وكان كثير الحديث والفتيا ، فقيها (انظر المعارف ص ١٠٩) .

(٥) من بنى سعد بن زيد مناة من تميم . ويكنى أبا عبد الله . أصابه سباء فبيع بمكة فاشترته أم سباع الخزاعية فاعتقته . كان رجل فتيا . وابنه عبد الله بن خباب هو الذى قتله الخوارج فسال دمه كأنه شراك نعل . مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين ، وهو أول من قبره على بالكوفة وصلى عليه . (انظر المعارف ص ١٣٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٨) .

ومنهم : قاصد باب الرضا ، وطالب اللقاء فى الفنا : « **صهيب بن سنان**(١) » رضى الله عنه .

ومنهم : درج السعادة ، وبحر القناعة : « **عتبة بن غزوان**(٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : أخو الفاروق والمعرض عن الكونين والمخلوق : « **زيد بن الخطاب**(٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب المجاهدات فى طلب المشاهدات : « **أبو كبشة** (٤) » مولى رسول الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : العزيز التائب ، وعن كل الخلق آيب : « **أبو مرثد كناز بن حصين الغنوى**(٥) » رضى الله عنه .

ومنهم عابر طريق التواضع ، وسالك محجة التقاطع : « **سالم مولى حذيفة اليمانى**(٦) » رضى الله عنه .

---

(١) صهيب بن سنان بن مالك . بدرى ، وجميع المدنيين يثبتون نسبه فى النمر بن قاسط . وأمه سلمى من مازن تميم . وقال بعضهم . كان أبوه سنان عاملا لكسرى وكانت منازلهم بأرض الموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوا صهيبا وهو غلام صغير فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان واعتقه ، وبعث به الى النبى صلى الله عليه وسلم . كان مزاحا ، قال له النبى : أتأكل تمرا وبك رمد ؟ فقال : يا رسول الله انما أمضغ بالناحية الاخرى ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم منه . توفى بالمدينة سنة ثمان وثلاثين ، ودفن بالبقيع (المعارف ص ١٤ — ١٥) .

(٢) عتبة بن غزوان بن الحرث بن جابر من بنى مازن أخى سليم بن منصور بن عكرمة . من المهاجرين الأولين ، وهو ممن شهد بدرا وكان من الرماة المذكورين ، وهو الذى افتتح الابلة واختط البصرة وأمر مجشر بن الازرع فاختط مسجد البصرة . قدم المدينة فى الهجرة ، وتوفى فى طريق مكة بمعدن بنى سليم فى خلافة عمر سنة سبع عشرة . (المعارف ص ١١٩) .

(٣) زيد بن الخطاب : أمه أسماء من بنى أسد بن خزيمة ، وكان اسلامه قبل اسلام عمر . شهد بدرا وكان بينه وبين عمر درع فجعل كل واحد منهما يقول والله لا يلبسها غيرك . ثم شهد يوم أحد فصبر فى أربعة أنفس ولم يهرب فيمن هرب . وشهد يوم مسيلمة سنة اثنتى عشرة فقتل . (المعارف ص ٧٨) .

(٤) أبو كبشة : اسمه « سليم » . من مولدى أرض دوس ، ويقال من مولدى مكة . ابتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه . توفى أول يوم استخلف فيه عمر ابن الخطاب . (المعارف ص ٦٤) .

(٥) أبو مرثد كناز بن حصين : من غنى ولذا يسمى بالغناوى . كان تربا لحمزة بن عبد المطلب ، وآخى الرسول عليه السلام بينه وبين عبادة بن الصامت . وآخى بين ابنه مرثد وبين ابن الصامت أخى عبادة . مات فى خلافة أبى بكر سنة اثنتى عشرة ،وقتل مرثد فى حياة الرسول يوم الرجيع شهيدا وكان أمير السرية . (المعارف ص ١٤٣) .

(٦) سالم مولى حذيفة اليمانى : كان يكنى أبا عبد الله . وهو بدرى ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى بكر . وكان ولاء سالم لامرأة أبى حذيفة . استشهد يوم اليمامة ولا عقب له . (المعارف ص ١١٨) .

ومنهم : الخائف من العقوبة ، والهارب من طريق المخالفة : « **عكاشة ابن محصن**(١) » رضى الله عنه .

ومنهم : زين المهاجرين والأنصار ، وسيد بنى قار : « **مسعود بن الربيع القارى** » رضى الله عنه .

ومنهم : حافظ أنفاس النبى ، وباب كل الخيرات : « **عبد الله بن عمر**(٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : شبيه عيسى فى الزهد ، وبدرجة موسى فى الشوق : « **أبو ذر جندب بن جناده**(٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : المقيم فى الاستقامة ، والمستقيم فى المتابعة : « **صفوان بن البيضاء** » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب الهمة والخالى من التهمة : « **أبو الدرداء عويمر بن عامر**(٤) » رضى الله عنه .

ومنهم : شرف كيمياء الدين ، وصدف در التوكل : « **عبد الله بن بدر الجمهى** » رضى الله عنه .

---

(١) عكاشة بن محصن بن حرثان : من أسد خزيمة . بدرى يكنى أبا محض ، واخته أم قيس بنت محصن التى دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم بابن لها قد اعقلت عليه بالعذرة ، والعذرة وجع الحلق ، كان عكاشة من أجمل الرجال وبشره الرسول بالجنة بغير حساب ، وقتل ببزاخة فى خلافة أبى بكر . (المعارف ص ١١٩) .

(٢) عبد الله بن عمر : كان يكنى أبا عبد الرحمن ، وأسلم مع اسلام أبيه بمكة وهو صغير ، وشهد المشاهد بعد يوم بدر وأحد ، وبقى الى زمن عبد الملك ،ويقال مات بمكة ودفن بفخ ، وهو آخر من مات بمكة من الصحابة . (المعارف ص ٨٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٠) .

(٣) أبو ذر الغفارى : يقال اسمه جندب بن السكن ، ولقبه بربر . وقال آخرون : جندب بن جناده . وعن حفص بن المعتمر قال : جئت وأبو ذر آخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول : أنا أبو ذر الغفارى ، من لم يعرفنى فأنا جندب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا . وهو من غفار ، وغفار قبيلة من كنانة . أسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرا ولا أحدا ولا الخندق لانه حين أسلم رجع الى بلاد قومه ، فأقام حتى مضت هذه المشاهد ، ثم قدم المدينة . وكان عثمان سيره الى الربذة فمات بها سنة اثنتين وثلاثين . (المعارف ص ١١٠) .

(٤) عويمر بن عامر بن الحرث بن الخزرج : كان آخر أهل داره اسلاما ، وكان قبل اسلامه تاجرا . مات بالشام سنة اثنتين وثلاثين (انظر ترجمته فى : المعارف ص ١١٦ ، اللمع ص ١٨١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٩)

ومنهم : المتعلق بباب الرجاء ، ومختار رسول مالك الملك : « **أبو لبابة ابن عبد المنذر**(١) » رضى الله عنه .

واذا ذكرتهم جميعا يطول بنا الكلام . وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى(٢) رضى الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوى أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة(٣) ذكر فيه مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم ، ولكنه ذكر من جملتهم « مسطح بن أثاثة ابن عباد »(٤) ، وأنا أبغضه لأنه كان هو البادىء بافك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

أما « أبو هريرة(٥) » و « ثوبان(٦) » و « معاذ بن الحارث » و « سائب ابن الخلاد » و « ثابت بن الوديعة » و « أبو عبيس عويم بن ساعد »

---

(١) أبو لبابة الانصارى ، مكنى ببنت له كانت تحت زيد بن الخطاب . اسمه بشير ، ويقال رفاعة بن المنذر . توفى بعد مقتل عثمان وقبل قتل على (المعارف ص ١٤٢)

(٢) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى النيسابورى ، العربى الاصل ، المعروف بأبى عبد الرحمن السلمى . اشتهر بنسبه الى السلميين وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد أبى عمرو بن نجيد السلمى . تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقطنى وأبو نصر السراج الطوسى . كان مريدا لابى القاسم النصرابادى وتسلم منه الخرقة . وتتلمذ عليه عدد كبير من كبار الصوفية منهم الصوفى الفارسى أبو سعيد أبى الخير ، وأبو القاسم القشيرى . ألف السلمى كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، والذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف المعروف بطبقات الصوفية . توفى بسنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، ودفن فى نيسابور .
(انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٣١١) .

(٣) كتاب تاريخ أهل الصفة : نقل عنه أبونعيم الاصفهانى فى حلية الاولياء . ويسميه حاجى خليفة : « تاريخ أهل الصفوة » . (انظر : « كشف الظنون » ج ١ عمود ٢٨٦) .

(٤) مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ويكنى أبا عباد . شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها . وكان أبو بكر يجرى عليه . وهو الذى قذف عائشة رضى الله عنها ، وتوقف أبو بكر عن الانفاق حتى نزلت الاية : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » فقال أبو بكر : والله لأحب أن يغفر الله لى فرجع الى مسطح نفقته التى كان ينفقها عليه (المعارف ص : ١٤٣)

(٥) أبو هريرة : اختلفوا فى اسمه ، فمنهم من قال هو عبد الله بن عمرو ، وقال غيره هو عبد الرحمن ، وقيل عبد شمس . كان من قبيلة من اليمن يقال لها دوس وهو دوس بن عدثان من الازد . قال أبو هريرة : نشأت يتيما وهاجرت مسكينا ، وكنت أجيرا لبسرة بنت غزوان لطعام بطنى . وكان يكنى بأبى هريرة بهرة كان يلعب معها . وكان قدومه المدينة سنة سبع والنبى صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فسار الى خيبر حتى قدم مع النبى . توفى بالمدينة سنة تسع وخمسين . لما حضرته الوفاة بكى فقيل له فى ذلك فقال : أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وانى أصبحت على مهبط جنة أو نار لا أدرى أيهما يأخذ بى . (أنظر : المعارف ص ١٢٠ ، اللمع ص ١٨٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٠) .

(٦) ثوبان : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا عبد الله ، وهو من أهل السراة . أصابه سباء فاشتراه النبى وأعتقه ، ولم يزل معه حتى قبض ثم تحول الى الشام فنزل حمص ومات سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية (المعارف ص ٦٤) .

و « سالم بن عمير بن ثابت » و « أبو اليسر كعب بن عمرو بن وهب بن معقل(١) » و « عبد الله بن أنيس(٢) » و « الحجاج بن عمرو الأسلمى » رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد كانوا منهم وان تعلقوا من حين لحين بسبب ، ولكنهم كانوا جميعا بدرجة واحدة . وفى الحقيقة كان قرن الصحابة خير القرون ، وفى كل درجة كانوا فيها ، كانوا أحسن الخلق وأفضلهم فى كل فن ، بعد أن وهبهم الله سبحانه وتعالى صحبة النبى عليه السلام ، وحفظ أسرارهم من جميع العيوب ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم(٣) » وقال الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان(٤) » .

والآن أثبت ذكر بعض من التابعين ، فى هذا الكتاب ، لتتم الفـــائدة ، وتتصل القرون بعضها بالبعض ، ان شاء الله العزيز .

---

(١) **أبو اليسر كعب بن عمرو** : من الأنصار . أسر العباس بن عبدالمطلب يوم بدر ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم . توفى سنة خمس وخمسين فى خلافة عثمان (المعارف ص ١٤٢) .

(٢) **عبد الله بن أنيس الأنصارى** : كان يكنى أبا يحيى ويعرف بالجهنى ، وجهنة من قضاعة . اختلفوا فى بدر هل شهدها أم لا . وهو الذى يقال فيه : ليلة الجهنى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن ينزل من باديته الى مسجده فيصلى فيه ليلة ثلاث وعشرين ، فكان يدخل المسجد ليلة ثلاث وعشرين اذا صلى العصر ، ثم لا يخرج عنه الا لحاجة حتى يصلى الصبح ثم يخرج الى أهله ، فقيل ليلة الجهنى . وهو الذى روى عن الرسول فى ليلة القدر أنه قال : التمسوها الليلة ، وكانت ليلة ثلاث وعشرين . مات بالمدينة فى خلافة معاوية . (المعارف ص ١٢١) .

(٣) رواه أحمد فى مسنده عن ابن مسعود . (شرح اجامع الصغير ج ٢ ص ١٣) .

(٤) سورة «التوبة » آية ١٠٠ .

الباب العاشر
باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين

● **منهم** شمس الأمة ، وشمع الدين والملة :

« **أويس القرنى** » رضى الله عنه . كان من مشـــايخ أهل التصـــوف ، ومعاصرا للرسول عليه السلام ، غير أنه منع من رؤية الرسول عليه السلام بشيئين ، أولهما : غلبة الحال ، والثانى : حق الوالدة .

وقال عنه النبى عليه السلام للصحابة : يوجد رجل من قرن(١) اسمه أويس يشفع يوم القيامة لعدد من أمتى مساو لأغنام ربيعة ومضر . والتفت الى عمر وعلى رضى الله عنهما وقال لهما : انظراه ، وهو رجل عنين ، متوسط القامة ، غزير الشعر ، توجد على جنبه الأيسر شامة بيضاء فى حجم الدرهم ، وبكفه بياض كالبرص ، وهو يشفع فى عدد من أمتى مساو لعدد ربيعة ومضر ، وحين تريانه أبلغاه سلامى ، وقولا له أن يدعو لأمتى .

ولما قدم عمر مكة بعد وفاة النبى عليه السلام ، وكان معه أمير المؤمنين على ، قال فى خطبته : يا أهل نجد(٢) قوموا ، فنهض أهل نجد ، فقال : أيوجد بينكم رجل من قرن ؟ قالوا : نعم ، وارسلوا اليه بنفر . فاستخبرهم أمير المؤمنين عن أويس فقالوا : يوجد رجل مجنون يدعى أويسا ، لا يرد الأماكن العامرة ، ولا يصاحب الناس ، ولا يأكل ما يأكله الناس ، ولا يعرف الترح والفرح : يبكى حين يضحك الناس ، ويضحك حين يبكون . فقال :

---

(١) « قرن » بفتح القاف والراء : بطن من مراد ــ اليمنى العابد . والنسبة اليها : قرنى (معجم البلدان ج ٤ ص ١) .

(٢) « نجد » : نجد الحجاز ونجد اليمن . وجنوبى نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد اليمن ، وبين النجدين وعمان برية ممتنعة (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٥١) .

أريده . قالوا : انه بالصحراء على مقربة من ابلنـــا . فنهض الأميران رضى الله عنهما وذهبا اليه . ووجداه واقفا يصلى ، فجلسا حتى فرغ من الصلاة وسلم عليهما وأراهما علامتى جنبه وكفه فعرفاه ، وطلبا منه الدعاء ، وأبلغاه سلام النبى عليه السلام ، وأوصياه بالدعاء للامة . وظلا معـــه بعض الوقت الى أن قال لهما : عودا الآن فان القيامة قريب ، ومن ثم تتعذر رؤيتنا ، حيث لا رجعة ،لأنى الآن مشـــغول باعداد عدة الطريق الى القيامة .

ولمـــا رجع أهل قرن الى بلدهم صارت له حرمة وجاه بينهم ، وغادرها الى الكوفة(١) . وقد رآه هرم بن حيان رضى الله عنه يوما ، ولم يره أحـــد بعد ذلك ، الى أن وقعت الفتنة والحرب مع أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، فجاءه وكان يحارب معه أعداءه حتى استشهد فى موقعة صفين(٢) : « عاش حميدا ومات شهيدا » .

ويروى عنه أنه قال : « السلامة فى الوحدة » ، لأن قلب المنفرد عن الناس يكون متحررا من التفكير فى الغير ، ويائسا من الخلق فى جميع الأحوال ، ليسلم من كل آفاتهم ، ويعرض عنهم جميعا .

أما اذا ظن أحد معنى الوحدة أن يعيش المرء منفردا ، فهذا محال ، لأنه طالما يصحب الشيطان قلبه ويكون للنفس سلطان على صدره ، وتخطر الدنيا والعقبى على فكره ، ويجول التفكير فى الخلق فى رأسه ، لا تكون هناك وحدة بعـــد ، لأن عين الشىء والتفكير فى الشىء كلاهما واحد . والمشغول لا تكون العزلة سببب فراغه . وعلى ذلك فالوحيد اذا صاحب لا تزاحم الصحبة وحدته ، والمشـــغول لا تـــكون العزلة سبب فراغه ، فالانقطاع عن الانس لا يكون بالأنس . ومن يكون له أنس بالحق تعـــالى لا تضر مخالطة الأنس أنسه ، ومن يأنس بالأنس لا يخطـــر الأنس على قلبه ، ولا يدرى شـــيئا عن الأنس مع الحق ، لأن الوحدة صفة عبد صاف سمع قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده(٣) » .

• **ومنهم** أيضا شيخ الصفاء ومعدن الوفاء :

---

(١) « الكوفة » : اختطها سعد بن أبى وقاص الزهرى سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب . وهى أول مدينة اختطها المسلمون بالعراق (البلدان ص ٤ ، ٧٣) .

(٢) « صفين » موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربى . وكانت موقعة صفين بين على رض. الله عنه ومعاوية سنة ٣٧ هـ (معجم البلدان ج ٣ ص ٤٠٢) .

(٣) سورة « الزمر » آية ٣٦ .

« **هرم بن حيان** » رضى الله عنه ، كان من عظماء الطريقة ، ذا حظ موفور فى المعاملة . وقد أكثر من صحبة الصحابة وكرامهم . وقصد زيارة أويس ، ولما سار الى قرن كان (أويس) قد غادرها ، فرجع يائسا .ولما عاد الى مكة علم أنه بالكوفة ، فذهب اليها ولم يجده.وظل هناك مدة طويلة ، فلما أراد أن يرحل عنها الى البصرة لقيه فى الطريق على شاطىء الفرات(١) يتوضأ ، وقد ارتدى مرقعة ، فعرفه . ولمـــا تنحى (أويس) عن الشاطىء ومشط ذقنه ، تقدم اليه هرم وسلم عليه ، فقال له : عليك السلام يا هرم بن حيان . فسأله : كيف عرفت أنى هرم ؟ قال : عرفت روحى روحك . وجلسا معا برهة ، وصرفه .

قال هرم : لقد حدثنى كثيرا عن الأميرين — أى عمر وعلى رضوان الله عليهما — وقال لى ان عمر روى له عن الرسول عليه السلام قوله عليـــه السلام : « انما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيـــا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه(٢) . ثم قال : « عليك بحفظ قلبك » . وفى رواية : « عليك بقلبك » . أى : عليك بحفظ قلبك من التفكير فى الغير .

ولهذا الكلام معنيان ، أولهما : أن يجعل القلب متابعا للحق بالمجاهدة ، والثانى : أن يجعـــل نفسه متابعا للقلب بالمشاهدة ، وكلاهما أصـــل قـــوى .

وجعل القلب متابعا للحق شأن المريدين الذين يردون القلب عن ممارسة الشهوة ومؤانسة الهوى ، فتنقطع عنه الأفكار غير الملائمة ، الى حد أنه لا يبقى له فكر آخر سوى ذكر الحق .

وجعل النفس متابعة للقلب شأن الكاملين الذين ينور الحق تعـــالى قلوبهم بنور جماله ، ويحررها من جميع الأسباب والعلل ، ويبلغها أعلى الدرجات ، ويخلع عليها خلعة القرب ، ويتجلى عليها بألطافه ، ويتولاها بالمشاهدة والقرب ، ومن ثم يجعل البدن موافقا للقلب .

فالطائفة الأولى أصحاب قلوب ، وهؤلاء مغلوبو قلوب ، وصـــاحب القلب هو مالك القلب وباقى الصفة ، ومغلوب القلب فانى الصفة .

---

(١) « الفرات » (نهر) : الفرات معرب عن لفظه ، وله اسم آخر وهو «فراز رود» لانه بجانب دجلة ، والجهبة تسـمى بالفارسـية « فراز » و « رود » = نهر (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٠)

(٢) رواه الشيخان عن عمر ، ومالك فى الموطأ .

وحقيقة هـذه المسألة مردها الى قوله عز وجل : « الا عبـادك منهم المخلصين »(١) — بفتح اللام — والمخلص بكسر اللام هو الفاعل وباقى الصفة . والمخلص يفتح اللام هو المفعول وفانى الصفة . وسأورد هذه المسألة أكثر شرحا فى مكان آخر ، ان شاء الله تعالى .

والحقيقة ان فانى الصفة أعظم من هؤلاء الذين يجعلون الجسد موافقا للقلب ، لأن قلوبهم تكون محولة فى حضرة الحق وقائمة فى مشاهدة الحق اكثر من باقى الصفة الذين يجعلون القلب موافقا للأمر بالتكلف .

وبناء هذه المسألة قائم على أصل الصحو والسكر والمجاهدة والمشاهدة ، والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم** أيضا : امام العصر وفريد الدهر :

أبو على الحسن بن أبى الحسـين البصرى » رحمـه الله . وهنـاك فريق يجعلون كنيته « أبا محمد » ، وآخرون يجعلونها « أبا سعيد » . وله قدر كبير وشأن عظيم عند أهل هذا العلم (أى علم التصوف) بل كل العلوم . وكان لطيف الاشارة فى المعاملة .

وقد قرأت فى الحكايات أن أعرابيا جاءه وسأله عن الصبر ، فقال له : الصبر نوعان : أولهما : الصبر فى المصائب والبليات ، والثانى : الصبر عن المنهيات . فقال الأعرابى : أنت زاهد ما رأيت أزهد منك . فقـال الحسن : يا أعرابى ! أما زهدى فكله رغبة ، وأما صبرى فكله جزع . فقال الأعرابى : فسر لى هذا الكلام ، فقد اضطرب اعتقادى . فقال له: صبرى فى البلاء أو الطاعة ناطق بخوفى من نار جهنم ، وهذا عين الجزع . وزهدى فى الدنيـا رغبة فى الآخرة ، وهذا عين الرغبة ، بخ بخ لمن كان يأخذ نصيبه فى الوسط . حتى يكون صبره خاصا بالحق جل جلاله لا خوفا من جهنم ، وزهده مطلقا للحق عم نواله لا للوصول الى الجنة . وهذا دليل على صحة الاخلاص .

ويروى عنه أيضا ، رحمه الله ، أنه قال : « صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار » .

وهذا قول جد محكم ، واليق لأهل زماننا هذا الذين كلهم منكر لأعزاء حضرة الحق جل جلاله . وقد حـدث ذلك لأنهم يصحبون المستصوفة

(١) سورة « الحجر » آية ٤٠ .

وأهل الرسم ، ويرون أعمالهم قائمة على الخيانة ، والسنتهم تفيض كذبا وغيبة ، وسعيهم منصرفا الى استماع « الدوبيتات(١) » المليئة بالهزل والبطلان ، وأعينهم مملوءة باللهو والشهوة ، وكل همتهم جمع الحرام والشبهة . ويظنون أن هذه هى معاملة المتصوف ، وأن مذهب المتصوفة هكذا . وليس الأمر كذلك ، بل فعلهم كله طاعة ، ولسانهم ذاكر للحق والحقيقة ، وآذانهم محـل استماع الشريعة ، وأعينهم موضع جمـال المشاهدة ، وهمتهم كلها جمع فى محل الرؤية . فاذا ظهر قوم قد سلكوا طريق الخيانة ، فخيانة الخائنين تعود اليهم لا الى أحرار الدنيا وسادات الزمان هؤلاء . واذا صحب أحد أشرار قوم فان ذلك يرجع الى شره ، لأنه لو كان فيه خير لصاحب الأخيار ، اذ الجنس أميل الى الجنس(٢) . فملامة كل امرىء عليه ، لأنه يصحب صنوه وكفأه .

والمنكرون على الصوفية هم أشر خلق الله جل جلاله وأرذلهم ، لأن صحبتهم كانت مع أشرهم وأرذلهم ، فلمـا لم يدركوا هوى ومرادا أنكروا عليهم . أو أنهم اقتدوا بهم فلما هلكوا ، لم يتجهوا الى هؤلاء الأخيار والأعزاء على الله تعالى ، فينظروا بعين الرضا الى أخيارهم ، ويشتروا صـحبتهم بأرواحهم وقلوبهم ، ويختاروا من العـالم طريقهـم ، وينـالوا ببركاتهم مقصودهم فى الدارين وينقطعوا عن الكل . وقد قيل فى هـذا المعنى : (بيت من الشعر العربى)

فلا تحقرن نفسى وأنت حبيبها ❊ فكل امرىء يصبو الى من يجانس

● **ومنهم** : رئيس العلماء ، وقدوة الفقهاء : **« سعيد بن المسيب »(٣)** رحمه الله . كان عظيم الشأن ، رفيع القـدر ، عزيز القول ، حميـد الصدر ، وله مناقب كثيرة فى فنون العلم : من فقه وتوحيـد وحقائق وتفسير وشعر ولغة وغير ذلك .

(١) « الدوبيت » : شعر مكون من أربع شطرات ، وهو نوع من الرباعيات يترنم به الصوفية فى حلقات السماع .

(٢) العبارة فى الاصل : « الجنس مع الجنس آثر » .

(٣) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن مخزوم القرشى المدنى . أحد الفقهاء السبعة بالمدينة . كان سيد التابعين ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبى وقاص الزهرى وأبى هريرة رضى الله عنهما ، ولقى جماعة من الصحابة وسمع منهم . ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن . أكثر روايته المسند عن أبى هريرة ، وكان زوج ابنته . ضربة عبد الملك بن مروان وألبسه المسوح وطاف به أسواق المدينة حين امتنع عن مبايعته ، ومنع من مجالسته . كان يقول لنفسه اذا دخل الليل : قومى يا مأوى كل شر ، والله لادعنك تزحنى زحف البعير . قيل توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة وقيل سنة خمس ومائة (انظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٠٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٤) .

ويقولون أنه كان رجلا عيار(١) المظهر زاهد الطبع ، لا زاهد المظهر عيار الطبع . وهذه طريق محمودة فى الطريقة ، ومقبولة لدى جميع المشايخ رضى الله عنهم .

ويروى عنه أنه قال : « أرض باليسير من الدنيا مع سلامة دينك ، كما رضى قوم بكثيرها مع ذهاب دينهم » . أى أن الفقر مع السلامة خير من الغنى مع الغفلة ، لأن الفقير اذا نظر فى قلبه لا يجد فيه التفكير فى الزيادة ، واذا نظر فى يده يجد القناعة . والغنى حين ينظر الى قلبه يجد فيه التفكير فى زيادة الدنيا ، وعندما ينظر فيده يرى الدنيا المليئة بالشبهات .

اذن فرضاء الأحباب بربوبية الله بلا غفلة خير من رضاء الغافلين بالدنيا المليئة بالغرور والآفة والحسرة والندامة والزلة والمعصية .

وحينما يحل البلاء يقول الغافلون : الحمد لله اذ أنه لم يحل بالجسد ، ويقول الأحباب : الحمد لله أنه لم يحق بالدين . واذا كان الجسد فى بلاء ، فما دام القلب فى اللقاء ، يطيب للجسد البلاء . وحين يكون القلب فى الغفلة فانه وان يكن الجسد فى النعمة ، فانها لا تكون نعمة ، بل نقمة . وفى الحقيقة فان الرضا بقليل الدنيا هو كثير الدنيا ، والرضا بكثير الدنيا هو قليل الدنيا ، لأن قليلها مثل كثيرها .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه كان جالسا فى مكة وجاء اليه رجل وقال له : أخبرنى عن حلال ليس فيه حرام ، وحرام ليس فيه حلال . فقال رضى الله عنه : « ذكر الله حلال ليس فيه حرام ، وذكر غيره حرام ليس فيه حلال » ، لأن النجاة فى ذكره والهلاك فى ذكر غيره ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) العيار : هو الرجل الكثير المجىء والذهاب ، الذكى ، الكثير الطواف . وقيل الذى يتردد بلا عمل . ومنه العيار من الرجال ، الذى خلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها (أقرب الموارد) .

الباب الحادى عشر
باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين إلى يومنا

منهم شجاع الطريقة ، والمتمكن فى الشريعة ، « **حبيب العجمى(١)** » ، رضى الله عنه . كان عالى الهمة ، جليل القدر ، وله فى مراتب الرجال قيمة وخطر عظيم .

وكانت توبته فى البداية على يد حسن البصرى ، فقد كان فى أول عهده يقرض بالربا ، ويعيث فسادا ، ووهبه الله عز وجل بكمال لطفه التوبة النصوح ، ومن عليه بالتوفيق ، حتى أناب الى حضرته جل جلاله ، وتعلم قدرا من العلم .

وعن الحسن (البصرى) أن لسانه كان أعجميا ، ولم يكن جاريا على العربية . وقد خصه الله تعالى وتقدس بكرامات كثيرة الى حد أن الحسن مر يوما بباب صومعته وقت صلاة العشاء ، وكان قد أقام الصلاة ووقف يصلى ، فدخل الحسن ولم يقتد به ، لأن لسانه لم يكن جاريا على قراءة القرآن . ولما نام (الحسن) رأى الله سبحانه وتعالى فى منامه ، فقال: يا الهى ياذا الجلال ! فيم يكون رضاؤك ؟ فقال : يا حسن ، كنت قد أدركت رضاءنا فلم تعرف قدره . فقال : يا الهى تعاليت ! ما هو ؟ قال : لو أنك صليت خلف حبيب بالأمس ، ولم يردك عن صحة نيته انكار عبارته ، لكنا رضينا عنك .

---

(١) ورد عنه أن أحمد بن حنبل والشافعى كانا قد اجتمعا يوما ، فدخل عليهما حبيب . فقال أحمد : سأسأله سؤالا ، فقال الشافعى : لا تفعل ، فهو رجل عجيب فقال أحمد : لا مناص لى من ذلك . ولما اقترب حبيب منهما سأله : ما قولك فى حق رجل فاتته صلاة من الصلوات الخمس ولا يعرف أى واحدة هى ، ماذا يجب عليه أن يفعل ؟ قال حبيب : هذا قلب غفل عن الله فليؤدب ، وينبغى عليه أن يقضى الصلوات الخمس . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٩) .

ومن المعروف بين هذه الطائفة أنه عندما فر الحسن من رجال الحجاج(١) ، دخل صومعة حبيب ، فلما جاءوا اليها قالوا : يا حبيب ، هل رأيت الحسن؟ قال : نعم ، قالوا : أين ؟ قال : هاهو فى صومعتى ، فدخلوا الصومعة فلم يروا أحدا ، وظنوا أن حبيبا يهـزأ بهم ، فأغلظوا له قائلين : انك تكذب . وأقسم لهم قائلا : انى أقول الصدق ، وها هو فى صـومعتى . فدخلوا الصومعة ثانية وثالثة ولم يجـدوه ، فانصرفوا . وخرج الحسن وقال : يا حبيب انى أعـرف أن الله تعـالى لم يظهرنى لأولئك الظلمة ببركاتك ، فلماذا قلت لهم : انه هنـا ؟ قال : يا أسـتاذ ! انه لم يكن ببركاتى ان الله لم يظهرك لهم ، بل كان ببركات الصدق ، ولو كنت كذبت لفضحونى ، أنا وأنت(٢) .

وله من هذا القبيل كرامات كثيرة .

سئل : فيم يكون رضاء الله تعالى ؟ . قال : « فى قلب ليس فيـه غبار النفاق » . ذلك أن النفاق خلاف الوفاق ، والرضا عين الوفاق ، ولا تعلق للمحبة بالنفاق ، ومحلها الرضا ، فالرضا صفة الأحباب ، والنفاق صـفة الأعداء . وهذا قول عظيم أبينه ان شاء الله فى موضع آخر .

● **ومنهم** بقية أهل الانس ، وزين جملة الجن والانس :

«مالك بن دينار» رضى الله عنه . كان صاحب الحسن البصرى ، ومن كبار هذه الطريقة ، وله كرامات كثيرة مشهورة ، وفى الرياضة خصال مذكورة .

وكان دينار عبدا ، وقد ولد (مالك) فى حال عبودية أبيه .

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى . كان يكنى أبا محمد . ولى شرط أبان بن مروان فى بعض ولايات ابان فلما خرج بن الزبير أوفده عبد الملك بن مروان مع جيش من أهل الشام لقتاله فحاصره وقتله وصلبه . وولاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنوات . وفى سنة ٧٤ هـ . ولاه عبد الملك العراق فوليها عشرين سنة وأصلحها وذل أهلها . وتوفى سنة ٩٥ هـ فى عهد الوليد عبد الملك (انظر : المعارف ص ١٧٣ ، اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧ ــ ٣٤) .

(٢) وردت هذه الحكاية على لسان أبى طالب المكى ، قال : « حدثونا أن الحسن رحمه الله اختفى عند حبيب العجمى من الحجاج ، فسعى به فدخل عليه الشرط ففزع الحسن وذهب ليتسور الحائط ويهرب ، فقال له حبيب : أبا محمد ، اقعد حتى تبصر ، فقال : فدخل الشرط فقالوا أين الحسن ؟ قيل لنا انه عندك . فقال : هل ترون شيئا ؟ ففتشوا الدار كلها وخرجوا وهم لا يرونه ، فقال له الحسن : كيف لم ينظروا الى ؟ قال : لانك كنت عند الله فلم يروك ، ولو كنت عندى لابصروك . قال له الحسن : انى رأيتك لما دخلوا همهمت بشىء ، فهل ذكرت اسم الله الاعظم ؟ قال :لا ، ولكن قلت : اللهم اجعله عندك حتى لايبصروه » (قوت القلوب جـ ١ ص ١٣٧) .

وكانت بداية أمره أنه ذات ليلة ، شاء صبح السعادة الالهية أن ينثر شعلة من أنواره على روح مالك بن دينار ، وكان فى تلك الليلة مشـغولا بالطرب بين جماعة من رفاقه ، ولما ناموا جميعا أيقظ الحق جل جـلاله بخته ، فانبعث من خلال العود الذى كان يضرب عليه صوت جميل يقول : « يا مالك مالك أن لا تتوب ؟ » . فكف يده عن هذا كله ، وجاء الى الحسن وتاب على يديه توبة نصوحا .

وبلغ من منزلته أنه ركب ذات مرة سفينة ، فضاع فيها جوهرة ، وكان يبدو أكثر القوم نكرا(١) ، فاتهموه بسرقتها . ورفع رأسه الى السماء ، فخرج فى الحال كل ما فى البحر من السمك على الماء ، وقد أمسكت كل سمكة بفمها جوهرة ، فأخذ من كل ذلك جوهرة وأعطاها للرجل ، ووضع قدمه على الماء وسار عليه فى يسر حتى خرج الى الساحل .

يرد عنه أنه قال : « أحب الأعمال الى(٢) الاخلاص فى الأعمال » .

ذلك أن العمل يصير عملا بالاخلاص ، والاخلاص للعمل بمنزلة الروح للجسد . وكما أن الجسد بلا روح يكون جمادا ، كذلك الشخص الذى يؤدى العمل بالظاهر ألف عام لا يصير عمله عملا ما لم يربط الاخلاص به .

أما الاخلاص فهو من جملة الأعمال الباطنة ، والطاعات من جملة الأعمال الظاهرة . والأعمـال الظاهرة تتم بالأعمال الباطنة ، والأعمـال الباطنة تكتسب قيمتها بالأعمال الظاهرة ، فلو أن انسانا أخلص بقلبه ألف عام فانه ما لم يعمل بالاخلاص لا يكون اخلاصه اخلاصا . واذا عمل أحد بالظاهر ألف عام فانه ما لم يتصل الاخلاص بعمله لا يصير عمله عملا .

● **ومنهم** الفقير الخطير ، وعلى سـائر الأولياء الأمير :

« أبو حاتم حبيب بن سليم الراعى(٣) » رضى الله عنه . كان عظيم المنزلة بين المشايخ ،وله في جملة الأحوال آيات وبراهين كثيرة نيره . وكان صاحب سلمان الفارسى رضى الله عنه . ويروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « نية المؤمن خير من عمله » .

وكان صاحب أغنام ، يقيم على شاطىء الفرات ، ويسلك طريق العزلة . ويروى أحد المشايخ قائلا : مررت به فوجدته يصلى ويحرس غنمه ذئب !

---

(١) أى مجهولا من الجميع أكثر من أى شخص آخر : اذ النكر بمعنى الجهل .
(٢) فى الاصل « على » .
(٣) لم ترد له ترجمة فى الكتب التى رجعت اليها .

فقلت : فلأزر هذا الشيخ فانى أرى فيه آية كبرى . وبقيت لحظة حتى فرغ من الصلاة ، وسلمت عليه ، فقال : يا بنى ! لأى أمر جئت ؟ قلت : لزيارتك . قال : خيرك الله . قلت : أيها الشيخ ! انى أرى الذئب موافقا للغنم ! فقال : لأن راعى الغنم موافق للحق . قال هذا ، وكان لديه وعاء خشبى ! تحت حجر ، تفجرت فيه عينان : احداهما لبن ، والأخرى عسل . فقلت له : يا شيخ ! بم نلت هذه الدرجة ؟ قال : بمتابعة محمد عليه الصلاة والسلام . يا بنى ! لقد كان قوم موسى يخالفونه ، ومع هذا حباهم الصخر الماء ، ولم يكن موسى فى درجة محمد ، وبما انى متابع لمحمد ، فقد حبانى الله العسل واللبن ، فلا عجب . فقلت له : عظنى ! قال : « لا تجعل قلبك صندوق الحرص وبطنك وعاء الحرام » ، لأن هلاك الخلق فى هذين ، ونجاتهم فى حفظهما .

وكان لشيخى — رضوان الله عليه — روايات كثيرة عنه ، ولكن ليس من الميسر فى هذا الوقت أكثر من هذا ، لأن كتبى بقيت فى حضرة غزنين — حرسها الله — وأنا فى ديار الهند ، فى بلدة لها نور(١) من توابع الملتان ، أسير بين أناس ليسوا من جنسى ، والحمد لله رب العالمين .

● **ومنهم** الشيخ الصالح ، وبصلاحه الصالح ، **« أبو حازم المدنى »**(٢) رحمه الله ، كان قدوة لبعض المشايخ ، وله فى المعاملات حظ وافر وخطر كبير ، وفى الفقر قدم ثابتة ونفس صادق ، وفى المجاهدات مسلك كامل .

ويروى عنه عمرو بن عثمان المكى(٣) رضى الله عنه — وكلامه فى كل القلوب مقبول ، وفى كثير من الكتب مسطور — انه قيل له : « ما مالك ؟ قال : « الرضا عن الله والغناء عن الناس » .

وكل من يرضى بالحق يستغنى لا محالة عن الخلق . والكنز الأكبر للمرء : رضاء الله تعالى وتقدس .

---

(١) « لاهور » .

(٢) يسميه فريد الدين العطار ، أبا حازم المكى . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٥٦) .

(٣) عمرو بن عثمان بن كرب : كنيته أبو عبد الله . كان ينتسب الى الجنيد فى الصحبة، وصحب أبا سعيد الخراز وغيره ، روى عن محمد بن اسماعيل ويونس بن عبد الاعلى وسليمان بن سيف الحرانى وغيرهم . مات ببغداد سنة احدى وتسعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٠ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٢١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٦ ، نفحات الانس ص ٨٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٧١) .

والاشارة — هنا — الى الفناء بالله جل جلاله ، فكل من يغنى به يستغنى عن غيره ، ولا يعرف طريقا الى غير حضرته ، ولا يعرف غيره فى الخلا والملا ، ولا يدعو غيره ، ولا يعرف معزا ومذلا غيره .

ويقول واحد من المشايخ : دخلت عند « أبى حازم » فوجدته نائما ، وبقيت برهة حتى أستيقظ ، فقال : رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه الساعة فى المنام ، وقد حملنى اليك رسالة وقال : ان رعاية حق الأم أفضل من الحج ، فعد واطلب رضا قلبها . فرجعت من عنده ، ولم أذهب الى مكة . ولم أسمع منه أكثر من هذا .

● **ومنهم** داعى أهل المجاهدة ، والقائم فى محل المشاهدة ، **« محمد بن واسع(١) »** رضى الله عنه ، الذى لم يكن له مثيل فى زمانه ، وكان قد أدرك صحبة كثير من الصحابة والتابعين ، ورأى طائفة من الشيوخ المتقدمين .

وكان رضى اله عنه ذا حظ واف فى هذه الطريقة ، وأنفاس عالية واشارات كاملة فى الحقائق .

ورد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه » . وهذا مقام المشاهدة ، لأن العبد فى غلبة محبة الفاعل عليه يصل الى درجة أنه ينظر فى فعله فلا يرى الفعل ، ويرى الكل فاعلا . كما ينظر شخص الى الصورة فيرى المصور .

وحقيقة هذا ترجع الى قول الخليل عليه السلام الذى قال : لكل من القمر والشمس والنجم : « هذا ربى(٢) » ، وكان ذلك فى حال غلبة الشوق ، لأنه كان يرى كل ما يراه فى صفة محبوبه ، فالأحبة حين ينظرون الى العالم يرونه مقهور قهر الله وأسير سلطانه ، فيتلاشى وجود العالم فى جنب قدرة فاعله ، ويصير فى ذل قوله تعالى « كن »(٣) لا شىء . وهم ينظرون فيه بعين الاشتياق ، فلا يرون المقهور ويرون القاهر ، ولا يرون

---

(١) محمد بن واسع بن جابر الازدى ، أبو بكر البصرى الزاهد . روى عن أنس بن مالك والحسن البصرى . توفى سنة عشرين ومائة ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة . كان يلبس الصوف ، فدخل يوما على قتيبة بن مسلم فقال له قتيبة : ما دعاك الى لبس الصوف ؟ فسكت ، فقال : أكلمك فلا تجيبنى ؟ فقال : أكره أن أقول انى زاهد فأزكى نفسى ، أو فقير فأشكو ربى عز وجل (انظر ترجمته فى المعارف ص ٢٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٨) .

(٢) اشارة الى الآيات : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ من سورة « الانعام » .

(٣) اشارة الى الآية : « واذا قضى أمرا فانه يقول له كن فيكون » سورة « البقرة » آية ١١٧ .

المفعول ويرون الفاعل ، ولا يرون المخلوق ويرون الخالق . وسأوضح هذا فى باب المشاهدة ان شاء الله تعالى .

وهنا يخطىء فريق اذ يقولون : ان الرجل قال : « رأيت الله فيه » ، وهذا يقتضى المكان والتجزئة والحلول ، وهو كفر محض ، لأن المكان يكون جنس المتمكن ، واذا قدر شخص أن المكان مخلوق ، فلا بد وأن يكون المتمكن مخلوقا أيضا ، واذا قدر أن المتمكن قديم ، فلا بد وأن يكون المكان قديما أيضا .

وبهذا القول يحصل نوعان من الفساد : فاما أن يقال ان الخلق قديم، أو أن الخالق محدث ، وهذان كلاهما كفر . فرؤيته هذه (أى رؤية الله فى الأشياء) بمعنى رؤية آياته وأدلته وبراهينه فيها ، بالمعنى الذى ذكرته أولا .

وفى هذا المعنى رموز لطيفة أجىء بها فى موضعها ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** امام العالم ومقتدى الخلق وشرف الفقهاء وعز العلماء : **« أبو حنيفة النعمـاء بن ثابت الخـزاز »** رضى الله عنـه ، كان له فى العبادات والمجاهدات قدم ثابتة ، وشأن عظيم فى أصول الطريقة .

قصد فى بداية حاله العزلة ، وتبرأ من جملة الخلق ، وأراد أن ينسلخ عنهم ــ لأنه كان قد طهر قلبه من رياثهم **وجاههم** ، **وهذبه للحق** ــ الى أن رأى فى منامه ليلة أنه كان يجمع عظام النبى عليه السلام من لحده ويتخير بعضها من بعض ، فهب من نومه فزعا من ذلك ، وسأل واحدا من أصحاب محمد بن سيرين(١) فقال له : ستصل فى علم النبى عليه السلام وحفظ سـنته الى درجة عظيمة بحيث تتصرف فيهـا وتميز الصحيح من السقيم .

ومرة اخرى رأى النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم ، وقال له : يا أبا حنيفة ! لقد جعلت سببا لاحياء سنتى فلا تقصد .

(١) أبو بكر محمد بن سيرين البصرى . كان من سبى ميسان . روى عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر وغيرهم . وروى عنه قتادة بن دعامة وخالد بن الحذاء وغيرهم. أحد فقهاء البصرة صاحب الحسن البصرى ثم تهاجرا فى آخر الأمر فلما مات الحسن لم يشهد ابن سيرين جنازته . كانت له اليد الطولى فى تعبير الرؤيا . توفى سنة عشر ومائة بالبصرة بعد الحسن البصرى بمائة يوم .
(أنظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٣) .

وكان أستاذا لكثير من المشايخ مثل : ابراهيم بن أدهم ، والفضيل ابن عياض ، وداود الطائى ، وبشر الحـافى وغيرهم ، رضـوان الله عليهم أجمعين .

ومدون لدى العلماء أنه فى عهد أبى جعفر المنصور(١) ، فكروا فى أن ينصبوا رجـلا من بين أربعة قاضيا ، أولهـم الامام الأعظم أبو حنيفة ، وثانيهم سفيان(٢) وثالثهم مسعر بن كدام(٣) ، ورابعهم شريك(٤) ، رحمة الله عليهم ، وكان هؤلاء الأربعة من فحول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لاحضارهم جميعا . وأثناء سيرهم فى الطريق قال أبو حنيفة رضى الله عنه : سأتفرس فى كل منا فراسة فى ذهابنا هذا ! قالوا : يستصوب ، قال : أنا أدفع عن نفسى هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسـعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفر سفيان فى الطريق ، ولجأ الى سفينة وقال : خبئونى لأنهم يريدون قطع رأسى ، وذلك بتأويل الخبر الذى ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين(٥) » ، فأخفاه الملاح . وحمل الثلاثة الى المنصور ، فقال أولا لأبى حنيفة رحمه الله : ينبغى أن تتولى القضاء ! فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل غير عربى ومن موالى العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمى . فقال أبو جعفر : هذا

(١) عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس . الخليفة العباسى . بويع فى اليوم الذى توفى فيه أبو العباس سنة ١٣٦ هـ ، وكان حاجا فأخذ له عمه عيسى بن على البيعة على من حضر من الهاشميين والقواد بالأنبار ووافاه الخبر بذلك بايعه ابو مسلم ومن حضر من القواد . قتل أبا مسلم سنة ١٣٧ هـ . وبايع ابنه المهدى بولاية العهد سـنة ١٤٧ هـ . توفى عند وصوله مكة وهـو حاج سنة ١٥٨ هـ ودفن بها . (أنظر تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٠٠ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها) .

(٢) سبق الاشـارة اليه .

(٣) مسعر بن كدام ــ بكسر الكاف ــ طلبه أبو جعفر المنصور ليوليه القضاء فقال له : مهلا يا أمير المؤمنين . ان أهلى يطلبون حاجة بدرهم ، فأقول لهم أنا أشترى لكم ، فيقولون لاترضى بشرائك . فاذا كان أهلى لايرضون بشرائى لهم حاجة بدرهم ، (فكيف) يولينى أمير المؤمنين القضاء ؟ فأعفاه . دخل عليه سفيان الثورى فى مرض موته فقال له : ما هذا الجزع يامسعر ؟ والله لوددت أنى مت الساعة . فقال : انك اذا لواثق بعملك ياسفيان ! لكنى والله كأنى على شاهق جبل لا أدرى أين أهبط . فبكى سفيان وقال : أنت أخوف لله عز وجل منى يا أخى . توفى بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة . (انظر ترجمته فى طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٦) .

(٤) أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبى شريك النجعى . تولى القضاء بالكوفة أيام المهدى ثم عزله موسى الهادى ، وتولاه بالأهواز . توفى بالكوفة سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة .. (انظر ترجمته فى المعـارف ص ٢٢٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٥) .

(٥) رواه أحمد فى مسنده ، وابن داود ، وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة : « من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص٢٩١)

العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغى له العلم ، وأنت مقدم علماء الزمان . فقال : انا لا اليق لهذا العمل ، وفى هـذا القول اذ قلت : لا اليق ، لا يخرج عن اثنتين : اذا قلت الصدق ، فقد قلت بنفسى : لا اليق . واذا كذبت ، فالكاذب لا يليق للقضاء بين المسلمين ، وأنت لا تجيز ان تأتى بكاذب وتجعله خليفتك ، وتكل اليه أموال المسـلمين وفروجهم ، وأنت خليفة الله . قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر رحمه الله وأمسـك بيد الخليفة وقال له : كيف حالك وأولادك ، وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فانه مجنون.

وقالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء . فقال : أنا رجل سوداوى ورأسى خفيف ! فقال له المنصور : عالج نفسك بالعصائد الموافقة والأنبذة المثلثة ليكتمل عقلك . وعندئذ أسند القضاء الى شريك . وقاطعه أبو حنيفة رضى الله عنه ، ولم يكلمه قط . وهذه علامة على كمال حاله ، لمعنيـين : أولهما : صدق فراسته فى كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة وصحة الملامة ، واقصائه الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم .

وهذه الحكاية دليل قوى على صحة الملامة ، اذ أقصى هؤلاء الشيوخ الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة . واليوم ، لا ينظر جملة العلماء الى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنـوا الى أهوائهم ، ونفروا من طريق الحق ، وجعلوا ديار الأمراء قبلتهم ، وصيروا دور الظلمة بيتهم المعمور ، وجعلوا بساط الجبابرة موازيا (لمنزلة) قاب قوسين أو أدنى وينكرون كل ما يخالف هذه المعانى .

ذات مرة كان أحد مدعى الامامة والعلم قد قال فى حضرة غزنين — حرسها الله — ان لبس المرقعة بدعة ! فقلت : ان الثيـاب الحشيشية الديباجية والديبقية(١) ، وكلها مصنوعة من الابريسـم(٢) المحـرم على الرجال ، أخذها من الظلمة وجمعها من الحرام بالالحاح واللجاج ، حرام مطلق ، وهم يلبسونها ولا يقولون انها بدعة ، فلماذا يكون الثوب الحلال، من المكان الحلال ، المشترى بمال حلال بدعة ؟ ولو لم تكن رعونة الطبع وضلالة العقل مسلطة عليك ، لقلت كلاما أكثر اتزانا من هذا . والثياب الأبريسمية حلال للناس ومباحة للمجانين ، فاذا أقررت بأحد هذين فقـد عذرت نفسك ، والا فنعوذ بالله من عدم الانصاف .

---

(١) نسبة الى دبيق بلد بمصر واليه تنسب الثياب الدبيقية . أقرب الموارد .
(٢) نوع من الحرير

ويقول الامام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه : حينما حضرت نوفل ابن حيان رضى الله عنه الوفاة رأيت فى النوم أن القيامة قامت ، وجملة الخلق يحاسبون ، ورأيت النبى عليه السلام واقفا متشمرا على حوضه، والمشايخ وقوفا عن يمينه ويساره ، ورأيت شيخا حسن الوجه يجلل رأسه شعر أبيض وقد وضع خده على خد النبى ، ورأيت أمامه نوفـلا واقفا ، فلما رآنى أقبل على وسلم ، فقلت له : اسـقنى فقال : حتى أستأذن النبى عليه السلام . فأشـار اليه النبى عليه السـلام بأصبعه فأعطانى الماء ، فشربت منه وسقيت أصحابى ، ولم ينقص من ذلك القدح شىء قط . وقلت : يا نوفل ! من الشيخ الذى على يمين النبى ؟ قال : انه ابراهيم خليل الرحمن ، والآخر أبو بـكر الصديق . وهـكذا كنت أسأله وهو يعقد على أصبعى ، حتى سألته عن سبعة عشر شـخصا رضوان الله عليهم أجمعين ، فلما استيقظت وجدت على أصـبعى سبع عشرة عقدة .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم ، فقلت له : أين أطلبك ؟ قال : عند علم أبى حنيفة ، رضى الله عنه .

وله فى الورع طرف كثيرة ومناقب مشهورة أكثر من أن يحتملها هـذا الكتاب .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — كنت بالشام يوما نائما على رأس قبر بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت نفسى بمكة فى النـوم واذا بالنبى صـلى الله عليـه وسـلم قـد دخـل من باب بنى شيبة وقد احتضن شيخا كما يحتضنون الأطفال بشفقة ، فهرعت اليه وقبلت يديه وقدميه . وكنت أتعجب متسائلا : من يكون ذاك ، وما تلك الحال ؟ فأطلع عليه السلام — بحكم اعجازه — على باطنى وفكرى ، وقال لى : هذا امامك وامام أهل ديارك . ولى وأهل بلدى أمل كبير بذلك الحلم .

وصدق هذا الحلم . لأنه كان أحد هؤلاء الذين كانوا فانين عن أوصاف الطبع وباقين بأحكام الشرع وقائمين به . ولما كان مرشده هو النبى صلى الله عليه وسـلم — فانه وان يكن قـد مضى — فقد كان باقى الصفة ، وباقى الصفة : أما مخطىء أو مصيب ، وبما أن مرشده كان النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه يكون فانى الصفة ببقاء صفة النبى عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الخطأ لا يجوز على النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه لا يجوز كذلك على القائم به . وفى هذا رمز لطيف .

ويقال انه عندما حصل داود الطائى رحمه الله العلم ، وصار مصدرا وقدوة ، جاء أبا حنيفة رضى الله عنه ، وقال له : ماذا أفعل الآن ؟ فقال له : عليك بالعمل فان العلم بلا عمل كالجسد بلا روح .

والعلم — فديتك — ما لم يقترن بالعمل ، فانه لا يصفو ولا يخلص عهده ، وكل من يقنع بالعلم المجرد لا يكون عالما ، لأن العالم لايقنع بمجرد العلم ، فعين العلم تقتضى العمل ، كما تقتضى عين الهداية المجاهدة . وكما أن المشاهدة لا تكون بدون المجاهدة ، فان العلم لا يكون بدون العمل ، لأن العلم مواريث العمل ، وتخريج العلم النافع وفتوحه يكون ببركات العمل . ولا يمكن بأى معنى فصل العمل عن العلم ، كما لا يمكن فصل نور الشمس عن عين الشمس .

وقد أوردنا فى بداية الكتاب بابا مختصرا فى العلم ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم** سيد الزهاد وقائد الأوتاد : « **عبد الله بن المبارك المروزى(١)** » رضى الله عنه . كان من محتشمى القوم ، وعالما بجملة أحوال وأسباب الطريقة والشريعة . وكان أمام الوقت فى عصره ، وأدرك كثيرا من الشيوخ وصحبهم ، واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وأخذ عنه العلم . وله تصانيف مذكورة وكرامات مشهورة فى كل فن من فنون العلم .

والسبب فى ابتداء توبته هو أنه كان قد فتن بجارية ، وذات ليلة نهض من بين السكارى ، وصحب أحدهم ، ووقف تحت جدار المعشوقة ، وصعدت هى الى السطح ، ووقفا كلاهما فى مشاهدة أحدهما الآخر حتى الفجر . وعندما سمع عبد الله أذان الفجر ظنه أذان العشاء ، فلما طلع النهار عرف أنه كان طول الليل مستغرقا فى جمال المعشوقة ، فكان له من هذا زاجر ، فقال لنفسه : خسئت يا ابن المبارك اذ وقفت طوال الليل على قدميك موافقة لهواك ، ولا تمل ، ولو أن اماما قرأ فى الصلاة سورة طويلة لجننت ! فأين معنى الايمان فى مقابل هذه الدعوى ؟ (٢) . وعندئذ تاب

(١) كان يقيم بخراسان ، وكانوا يقدمونه فى الادب على سفيان ، وكان سفيان الثورى يقول : جهدت جهدى على أن أداوم ثلاثة أيام فى السنة على ماعليه ابن المبارك فلم أقدر . وكان يقول : سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ، لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس الا بالعصا ، والزاهد ينفر من الناس فيتبعونه . توفى سنة احدى وثمانين ومائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٧ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٧٩) .

(٢) أورد القشيرى هذه الحكاية ضمن ترجمة الفضيل بن عياض وذكر أنها كانت السبب فى توبة الفضيل . انظر ترجمة الفضيل : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ .

واشتغل بالعلم وطلبه ، حتى وصل الى درجة أن أمه دخلت عليه البستان يوما فرأته نائما وقد أمسكت حية كبيرة بغصن ريحان فى فمها وكانت تذب عنه الذباب .

ثم رحل عن مرو(١) وذهب الى بغداد وظل بها مدة فى صحبة المشايخ . وذهب الى مكة وجاور هنالك أيضا مدة ، ورجع الى مرو فتولاه أهلها ورتبوا له درسا . وفى ذلك الوقت كان نصف أهل مرو يتابع الحديث والنصف الآخر يسلك طريق الرأى ، كما هو الحال اليوم ، وكانوا يسمونه : « رضى الفريقين » بحكم أنه كان موافقا لكل منهما . وقد اختصم فيه كلا الفريقين . واتخذ هنالك رباطين : أحدهما لأهل الحديث ، والثانى لأهل الرأى ، وما يزال هذان الرباطان قائمين حتى اليوم ، ويسيران على قاعدة ذلك الأصل .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت راهبا قد هزل من المجاهدة ، وانحنى عوده من خشية الله ، فسألته : يا راهب ! كيف الطريق الى الله ؟ قال : لو عرفت الله لعرفت الطريق اليه ! ثم قال : أعبد من لا أعرفه وتعصى من تعرفه .

أى أن المعرفة تقتضى الخوف ، وأراك آمنا ، والأمن كفر . والجهل يقتضى الكفر ، وأجد نفسى خائفا . قال ابن المبارك : فصارت لى هذه عظة ، ومنعتنى عن كثير مما لا ينبغى عمله .

ويروى عنه أنه قال : « السكون حرام على قلوب أوليائه » . أى أنها مضطربة فى الدنيا فى حال الطلب ، ومضطربة فى العقبى فى حال الطرب ، ولا يجوز لها السكون فى الدنيا بغيبتها عن الحق ، ولا ينبغى لها القرار فى العقبى بحضور الحق وتجليه ورؤيته ، فالدنيا لها كالعقبى ، والعقبى كالدنيا ، لأن سكون القلب يقتضى أمرين : اما ادراك المقصود ، أو الغفلة عن المراد ، وادراك المراد لا يجوز فى العقبى والدنيا حتى يسكن القلب عن خفقان المحبة . والغفلة حرام على أحبائه حتى يسكن القلب عن حركات الطلب . وهذا أصل قوى فى طريق المتحققين ، والله أعلم بالصواب .

(١) « مرو » : هى أجل كور خراسان . افتتحها حاتم بن النعمان الباهلى وهو من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان ويقال ان الأحنف بن قيس حضر فتحها وذلك فى سنة احدى وثلاثين (البلدان ص ٤٦) .

● **ومنهم** ملك أهـــل الحضرة وســـلطان ولاية الوصـــلة : «**أبو على الفضيل بن عياض**» (١) رضى الله عنه . كان من جملة صعاليك القوم وكبارهم ، وله فى المعاملات والحقائق حظ وافر ونصيب كامل ، وكان أحد مشاهير هذه الطريقة ، وممدوحا بكل الألسن بين الملل ، وأحواله عامرة بالصدق والاخلاص .

وكان فى بداية أمره عيارا يقطع الطريق بين مرو وباورد(٢) . وكان يميل كل الميل الى الصلاح ، وفى طبعه همة وفتوة ، بحيث اذا كان فى القـــافلة امراة لم يكن يحوم حولها ، ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل ، وكان يترك لكل رجل شيئا بنسبة رأس ماله . الى أن جاء وقت خرج فيـــه تاجر من مرو فقالوا له : خذ معك حارسا لأن الفضيل على الطريق . قال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة ، فلا خوف . وصحب معه قارئا ، وأركبه جملا ليتلو القرآن ليلا ونهارا ، الى أن بلغت القافلة مكانا كان الفضيل رحمه الله يكمن فيه . واتفق أن قرأ القارىء قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله(١) » ، فبدت رقة فى قلبه رضى الله عنه ، وأظهرت العناية الأزلية سلطان الطافها لروحه ، فتاب عن ذلك العمل ، وكتب رسائل الى خصومه سرتهم .

وذهب الى مكة وظل بها مدة ، وأدرك بعض أولياء الله تعالى . ورجع الى الكوفة واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصحبه مدة ، وحصل العلوم . وله روايات عالية ومقبولة بين أهل الحديث ، وكلام رفيع فى حقائق التصوف والمعرفة .

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « من عرف الله حق معرفته عبده بكل طاقته » . ذلك أن كل من يعرفه يعرفه بالانعام والاحسان والرأفة والرحمة، فاذا عرفه أحبه ، فاذا أحبه أطاعه تدر طاقته ، لأن اطاعة أوامر الأحبة لا تكون شاقة ، وكل من يكون أكثر محبة يزداد حرصه على الطاعة . وكثرة المحبة من حقيقة المعرفة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : نهض النبى عليه السلام ذات ليلة من الفراش ، فتصورت أنه ذهب الى

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى . خرسانى من ناحية مرو من قرية يقال لها « قندين » . ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد . مات سنة سبع وثمانين ومائة. ورد عنه أنه قال : لا ينبغى لحامل القرآن أن يكون له الى الخلق حاجة لا الى الخلفاء فمن دونهم ، ينبغى أن تكون حوائج الخلق كلهم اليه . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٦ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٧٤ ، نفحات الأنس ص ٣٧) .

(٢) « باورد » بفتح الواو وسكون الراء : وهى أبيورد : بلد بخراسان بين سرخس ونسا (معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٥) .

(٣) سورة « الحديد » آية ١٦ .

حجرة أخرى فنهضت ، وكنت أسير على اثره حتى وجدته فى المسجد واقفا فى الصلاة ، وكان يبكى ، الى أن أذن بلال لصلاة الفجر وهو فى الصلاة ، فلما أدى صلاة الفجرورجع الى الحجرة رأيت كلا قدميه متورمتين وأطراف أصابعها مشققة ، وكان يسيل منها سائل أصفر ، فبكيت وقلت : يا رسول الله ! لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلماذا تشق على نفسك كثيرا ، دع هذا لشخص غير مأمون العاقبة ! قال : يا عائشة ! هذا كله من فضل الله ومنته ولطفهونعمته جل جلاله ، أفلا أكون عبدا شكورا(١) ؟

وقد قبل صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج خمسين صلاة ولم يستثقلها ورجع الى الله بكلام موسى ، وعاد بخمس صلوات ، وذلك لأنه لم يكن فى طبعه شىء مخالف للأمر قط ، لأن المحبة الموافقة .

ويروى عنه رضى الله عنه أنه قال : « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين ، وللمجانين فى دار المرضى الغل والقيد » . وغلنا هوى نفوسنا ، وقيدنا معصيتنا .

روى الفضل بن الربيع(٢) ، رحمه الله ، قال : ذهبت الى مكة مع هارون الرشيد(٣) ، فلما حججنا قال لى هارون : أهنا رجل من رجال الله فنزوره ؟

(١) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة ، والشيخان عن عائشة : « حتى تنفطر قدماه » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠١) .

(٢) أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس : حاجب الرشيد ، ووزير الأمين . سعى بالبرامكة وتمكن بالمجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليهم . وزر للرشيد بعد البراكمة ومات الرشيد والفضل مستمر على وزارته . كان فى صحبة الرشيد عند وفاته فقرر الأمور للأمين ، ولم يعرج على المأمون وهو بخراسان . خاف من المأمون ان انتهت الخلافة اليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ويجعلها لابنه موسى ؛ وحصلت الوحشة بين الأخوين الى أن سير المأمون جيشا من خراسان مقدمه طاهر ابن الحسين ووزيره الفضل بن سهل ، وأخرج الأمين جيشا من بغداد باشارة وزيره الفضل بن الربيع مقدمه على بن عيسى بن ماهان ، فالتقى الجيشان وقتل على بن عيسى ، ولما اضطربت أحوال الأمين وقويت شوكة المأمون ، استتر الفضل ابن الرابيع ثم ظهـر لمـا ادعى ابراهيم المهـدى الخلافة ببغـداد واتصل به ابن الربيع ، فلما اختل حال ابراهيم استتر ابن الربيع ثانيا ، ولم يزل بطالا الى أن مات . توفى سنة ثمان ومائتين . (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٥٩ وما بعدها، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٢) .

(٣) الخليفة العباسى هارون الرشيد بن محمد المهدى . تولى الخلافة يوم أن توفى أخوه موسى سنة ١٧٠ هـ . وكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة . ولما أفضت اليه الخلافة دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ! أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك، وقد قلدتك الأمر . ودفع خاتمه اليه . بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥هـ. وكان الغالب على الرشيد — صدرا من خلافته — يحيى بن خالد بن برمك وأبناه جعفر والفضل ، ثم بطش بهم فقتل جعفر سنة ١٨٧ هـ ومثل بجثته ، واعتقل أباه واخوته وصادر أملاكهم . ونكل بالعلويين . توفى سنة ١٩٣ هـ فى طوس فى قرية يقال لها « سناباد » (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٣٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها) .

فقلت : نعم ؟ هنا عبد الرزاق الصنعانى(١) . قال : خذنى اليه . فلما ذهبنا اليه وتحدثنا برهة ، أشار الى هارون أن أسأله أعليه دين ؟ فسألته ، فقال نعم ! فأمر فقضوا دينه . وخرجنا من هناك وقال — هارون — يا فضل ! ان قلبى ما يزال يتطلب رجلاأكبر من هذا . فقلت : هنا سفيان بن عيينة(٢) ، قال : امض لنذهب اليه . ولما دخلنا وتحدث معه برهة وأردنا العـــودة ؛ أشار الى ثانية ان أسأله ، فقال : نعم ، على دين ، فأمر فقضوا دينـــه . وخرجنا من هنالك فقال : يا فضل ! لم يحصل مقصودى بعد . فتذكرت أن الفضيل بن عياض رحمة الله عليه ورضى الله عنه موجود ، فصحبته اليه . وكان يقيم فى غرفة يتلو القرآن . وطرقنا الباب ، فقال : من ؟ قلت : أمير المؤمنين . فقال رضى الله عنه : « مالى ولأمير المؤمنين » . قلت : سبحان الله ، ألم يرو عن النبى عليه السلام أنه قال : « ليس للعبد أن يذل نفسه فى طاعة الله ، فقال : بلى ، أما الرضا فعز دائم عند أهله » . وعندئذ نزل وفتح الباب ،وأطفأ المصباح ، ووقف فى ركن ، فكان هارون يبحث عنه حتى وقعت يده عليه ، فقال : آه من يد لم أر أنعم منها اذا نجت من عذاب الله . فغلب هارون البكاء وظل يبكى حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال له : عظنى ! قال : يا أمير المؤمنين ! قد كان أبوك عم المصطفى صلوات الله عليه فطلب اليه أن : اجعلنى أميرا على قوم ، « قال : ياعم ، بك نفسك » . يعنى : « لأن تكون لحظة فى طاعة الله ، خير من طاعة الخلق لك ألف عام ، « لأن الامارة يوم القيامة الندامة » .

قال هارون : زد فى عظتى ؟ قال : لما نصب عمر بن عبد العزيز(٣) للخلافة،

---

(١) « عبد الرازق الصنعانى » : أبو بكر عبد الرازق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى اليمنى : من رواة البخارى ، ولد سنة ١٢٠هـ — ٧٣٧ م ، وتوفى سنة ٢١١ هـ — ٨٢٦ م . من مؤلفاته : تزكية الارواح ، تفسير القرآن ، الجامع الكبير ، كتاب السنن فى الفقه ، كتاب المنازى . قال فيه مؤلف « قاموس الاعلام » : كان من مشاهير العلماء والمحدثين .. وكان الناس يقصدونه من كل فج عميق لغزارة علمه ، وكان يروى عنه المشاهير مثل سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل » .
ومما هو جدير بالذكر أن أبا بكر الصنعانى من الشيوخ الذين ألصق بهم البعض قصة « شيخ صنعان » التى وردت فى الرسالة الفارسية « تحفة الملوك » المنسوبة الى الامام الغزالى ، وفى المنظومة الرمزية « منطق الطير » للشاعر الصوفى الفارسى « فريد الدين العطار » . (أنظر : « بحث فى حقيقة شيخ صنعان » أحمد ناجى القيسى : بغداد ١٣٨٤ هـ — ١٦٥ م) .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبى عمران الهلالى . أحد أئمة الاسلام . قال الشافعى عنه : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز . مات ســـنة ثمان وتسعين ومائة . (« خلاصة تذهيب الكمال » ص ١٢٤) .

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . الخليفة الأموى الزاهد العابد العادل : استخلف فى صفر سنة تسع وتسعين ، وتوفى بدير سمعان من أعمال حمص فى رجب سنة احدى ومائة . وكانت خلافته ثلاثين شهرا . وقبره فى هذا الموضع لم يتعرض لنبشه كتبور غيره من بنى أمية . كان فى نهاية النسك والتواضع ، ترك لعن على عليه السلام على المنابر وجعل مكانه : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها) .

استدعى **سالم بن** عبد الله ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن كعب القرظى(١) . رحمهم الله وقال : لقد ابتليت بهذه البلية ، فما تدبيرى ؟ فانى أرى هذا بلاء مهما يظنه الناس نعمة . فقال واحد منهم : اذا أردت أن يكون لك الفوز والنجاة غداة القيامة فاعتبر شيوخ المسلمين كأبيك ، وشبابهم كأخوتك ، وأطفالهم كأبنائك ، وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك وأخاك وولدك فى دارك ، لأن جميع ديار الاسلام بيتك ، وأهلها عيالك : « فزر أباك ، وأكرم أخاك ، وأحسن الى والدك » .

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين ، انى أخشى على وجهك الجميل أن يبتلى بنار جهنم ، فاخش الله تعالى ، وأد حقه خيرا من هذا .

وقال له هارون بعد ذلك : أعليك دين ؟ قال : نعم ، دين الله على وهو طاعته ، فاذا قضيته نجيتنى من الويل . فقال : **يا فضيل** ، اتكلم عن دينك للخلق . فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله ، اذ لدى منه نعم كثيرة ، وليس لى منه أى شكوى حتى أشكوه الى عباده . وعندئذ وضع هارون أمامه صرة ذهب بها ألف دينار وقال له : اصرف هذا فى وجه من الوجوه . فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين ! ان عظاتى هذه لم تفدك قط ، ومن هنا أخذت فى الجور وبدأت الظلم . قال : أى ظلم فعلت ؟ قال الفضيل : أنا أدعوك الى النجاة وأنت توقعنى فى الهلاك ، أفلا يكون هذا ظلما ؟ فبكى هارون ، وخرج من عنده وقال : يا فضل بن الربيع ! ان الملك حقـــا هو الفضيل .

وهذا كله دليل صولته فى الدنيا وأهلها ، وحقارة زينتها فى قلبه ، وتركه التواضع لأهل الدنيا من أجل الدنيا .

وله مناقب أكثر من أن يستوعبها الفهم .

● **ومنهم** ســـفينة التحقيق والـــكرامة ، وخـــزانة الشرف فى الولاية : **« أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى(٢) »** رضى الله عنه ، كان صبيا نوبيا اسمه « ثوبان » ، وكان من أخيار القوم وكبار هذه الطريقة وعياريها ، سلك طريق البلاء ، وسار فى طريق الملامة .

وكان أهل مصر جميعا متحيرين فى شأنه ، ومنكرين عليه فى حياته . ولم يعرف أحد من أهل مصر جمال حاله الى وقت وفاته . وفى تلك الليلة التى

---

(١) سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ومحمد بن كعب القرظى : من الفقهاء فى أيام عمر بن عبد العزيز . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٥١) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

فارق فيها الدنيا ، رأى سبعون رجلا النبى عليه السلام فى النوم يقول : ان حبيب الله ذا النون يزمع المجىء وقد جئت لاستقباله . وحين مات ظهر مكتـــوبا على جبينـــه : « هـــذا حبيب الله ، مات فى حب الله ، قتيل الله » . فلمـــا حملوا جنازته ، تجمعت طيور الســـماء وظللت جنازته ، فتحير أهل مصر جميعا ، وتابوا عما كانوا قد ارتكبوه معه من جفاء .

وله طرف كثيرة وكلمات طيبة فى حقائق العلوم ، كقوله : « العارف كل يوم أخشع ، لأنه فى كل ساعة أقرب(١) » .

ومن يكن الأقرب تكن حيرته أكثر لا محالة ، وخشوعه أوفر ، لأنه صار عليما بهيبة الحق وسلطانه ، فقد استولى جلال الحق على قلبه فلا يرى نفسه بعيدا عنه وعن وصله ، فيزداد خشوعا على خشوع ، كما قال موسى فى حال مكالمته : « يا رب ! أين أطلبك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم » ، واليائسين من صلاحهم . قال : يا الهى تعاليت ، لا قلب أكثر يأسا وانكسارا من قلبى !! فقال : فأنا حيث أنت .

فمدعى المعرفة بلا وجل وخشوع جاهل لا عارف . وحقيقة المعرفة علامة على صدق الارادة ، والارادة الصادقة صارمة للأسباب ، وقاطعة للعبد عما سوى الله عز وجل ، كقول ذى النون رضى الله عنه : « الصدق سيف الله فى أرضه ، ما وضع على شىء الا قطعه(٢) » ، والصدق رؤية المسبب لا اثبات السبب ، فاذا ثبت السبب انتفى حكم الصدق وسقط .

وقرأت فى الحكايات أن (ذا النون) كان ذات يـــوم راكبا سفينة مع أصحابه للنزهة فى النيل ، كعادة أهل مصر ، وكانت سفينة أخرى قادمة وبها جماعة من أهل الطرب يعبثون ، فكبر ذلك على تلاميذه ، فقالوا : أيها الشيخ ! ادع ليغرق الله هؤلاء جميعا ، وينقطع عن الخلق شؤمهم . فنهض ذو النون رحمه الله ورفع يديه وقال : يا الهى جل جلالك ! كما حبوت هؤلاء فى الدنيا عيشا طيبا ، امنحهم فى الآخرة أيضا طيب العيش ! فتعجب المريدون من قوله . ولما اقتربت السفينة ووقعت أعين ركابها على ذى النون ، بكوا ، وحطموا أعوادهم ، وتابوا وأنابوا الى الله . فقال رحمه الله لتلاميذه : ان طيب عيش الآخرة توبة الدنيا ، أما رأيتم أن المراد كله قد حصل ؟ وبلغتم أنتم واياهم مرادكم دون أن يصيب أحدا أذى ؟

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٦) .
(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٣) .

وكان ذلك من غاية شفقة الشيخ على المسلمين . وقد اقتدى فى هذا بالنبى عليه السلام ، اذ كان كلما زاد الكفار من جفائهم لا يغضب ، وكان يقول : « اللهم أهد قومى فانهم لا يعلمون » .

ويرد عنه أنه قال :كنت قادما من بيت المقدس(١) قاصدا مصر ، فرأيت فى الطريق شيخا مهيبا من بعيد ، فخطر بقلبى أن أســـأله سؤالا . فلما اقترب منى ، رأيته عجوزا بيدها عكاز ، وعليها جبة من صوف . فقلت : من أين ؟ قالت : من الله ! قلت : الى أين ؟ قالت : الى الله ! وكان معى دينار فأخرجته لأعطيه لها ، فلوحت بيدها فى وجهى وقالت : ياذا النون ! ان الصورة التى تصورتها عنى من ركاكة عقلك . اننى أعمل لله ، ولا آخذ شيئا من سواه ! وكما أنى لا أعبد غيره ، فانى لا آخذ (شيئا) من غيره .

وفى هذه الحكاية رمز لطيف ، اذ قالت العجوز : أنا أعمل لله ، فهذا دليل صدق المحبة ، لأن الخلق فى المعاملة نوعان :

فريق يعملون ويخالون أنهم يعملون من أجل الله ، وهم فى الحقيقـــة يعملون من أجل أنفسهم ، ومهما يكن أربهم منقطعا دنيويا ، فانهم — على كل حال — يرجون ثواب الآخرة .

والفريق الاخر ، انقطعت عن معاملاتهم ارادة الثواب (وخشـــية) العقاب فى الآخرة ، والرياء والســـمعة فى الدنيا . وكل ما يعملونه انما يعملونه من أجل تعظيم أمر الحق جل جلاله . ومحبة الحق تعالى تقتضيهم ترك نصيبهم ، فى طاعته . ويخيل لهؤلاء — وهم لا يدرون — أن كل ما يعملونه من أجل الآخرة هو أيضا لهم ، ولا يعرفون أن نصيب المطيع فى الطاعة أكثر من راحة العاصى فى المعصية ، لأن راحة العاصى فى المعصية ساعة ، وراحة المطيع فى الطاعة دائمة .

وأى فائدة لله تعالى وتقدس من مجاهدة الخلق ، وأى ضير عليه فى تركها ؟ ولو عمل كل الخلق بصدق أبى بكر ، فمرد ذلك اليهم . وان عملوا

---

(١) « بيت المقدس » أو « القدس » : مدينة على فضاء وسط الجبال ، والمسجد الأقصى فى طرفها الشرقى نحو القبلة . يقدسها المسلمون والنصارى واليهود ، فاليها كان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالقرب منها ولد المسيح ، وفيها مبكى اليهود . فتحت صلحا فى عهد عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩٠ — ٦٠٢) وقيل فتحت سنة خمس عشرة أو ستة عشرة . ولما دخل عمر ببيت المقدس كشف عن الصحراء وأمر ببناء مسجد عليها (الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ٤٠ — ٤٢) .

بكذب فرعون ، فضير ذلك عليهم ، لقوله تعالى : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم(١) » : وقوله تعالى : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه(٢) » .

والخلق انما يطلبون لأنفسهم الملك الأبدى ، ويقولون اننا نعمل من أجل الله . أما سلوك طريق محبتـــه فشىء آخر ، انهم (الأحبة) يرعون فى اطاعتهم للأمر حصول أمر الحبيب ولا يتطلعون لشىء آخر . وسوف يرد فى هذا الكتاب أمثال هذا القول فى باب الاخلاص ، ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** أمير الأمراء ، وسالك طريق اللقاء :

« أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور(٣) » رضى الله عنه . كان أوحد زمانه ، وسيد أقرانه فى عصره ، وملك ملوك الرجال . وكان مريد « الخضر » عليه السلام ، أدرك كثيرا من قدماء الشيوخ ، واختلط بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وتعلم منه العلم .

وكان فى بداية أمره . أمير بلخ(٤) ، فلمـــا أراد الحق تعالى أن يكون سلطان عالم ، خرج يوما للصيد ، وانفصل عن عسكره ، وركض خلف غزال ، فأنطقه الله عز وجل له ، فقال بلسان عربى فصيح : « ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ » . وكان هذا القول دليلا له ، فتاب(٥) وكف يده تماما عن ممالك الدنيا ، وسلك طريق الزهد والورع ، وأدرك الفضيل بن عياض وسفيان الثورى وصحبهما .

(١) سورة « الاسراء » آية ٧ .
(٢) سورة « العنكبوت » آية ٦ .
(٣) سبق الاشارة اليه
(٤) « بلخ » مدينة مشهورة بخراسان ، على الشاطىء الجنوبى لنهر جيحون على رافده دهلس . منها الى فرغانه ثلاثون مرحلة مشرقا ، والى الرى ثلاثون مرحلة مغربا ، والى سجستان ثلاثون مرحلة مما يلى القبلة ، والى كابل وقندهار ثلاثون مرحلة (أنظر : « البلدان » ص ٥٣) افتتح بلخ الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر فى زمن عثمان (معجم البلدان جـ ١ ص ٧١٣) .
(٥) ورد فى طبقات الصوفية أن أبا عبد الله السنجارى قال له : يا أبا اسحاق ! خبرنى عن بدء أمرك كيف كان ؟ قال : كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شابا فركبت الى الصيد ، فخرجت يوما على دابة لى ومعى كلب ، فأثرت أرنبا أو ثعلبا ، فبينا أنا أطلبه اذ هتف بى هاتف لا أراه فقال : يا ابراهيم ، ألهذا خُلقت أم بهذا أمرت. ففزعت ووقفت . ثم عدت فركضت ثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات . ثم هتف بى هاتف من قربوس السرج : والله ما لهـــذا خلقت ولا بهـــذا أمرت . قال : فصادفت راعيا لأبى يرعى الغنم فأخذت جبته الصوف فلبستها ، ودفعت اليه الفرس وما كان معى ،وتوجهت الى مكة . فبينا أنا فى البادية اذا برجل يسير . ليس معه اناء ولا زاد . فلما أمسى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، فاذا أنا باناء فيه طعام واناء فيه شراب ، فأكلت وشربت . وكنت معه على هذا أياما . وعلمنى اسم الله الأعظم ثم غاب عنى وبقيت وحدى . فبينا أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ، دعوت الله به فاذا أنا بشخص آخذ بحجزتى وقال : سل تعط . فراعنى قوله ، فقال : لاروع عليك ولا بأس عليك . أنا أخوك الخضر (أنظر : طبقات الصوفية ص ٢٩) .

ولم يأكل طيلة عمره الا من كسب يده . وله معاملات ظاهرة وكرامات مشهورة ، وفى حقائق التصوف كلمات بديعة ولطائف نفيسة . قال عنه الجنيد رحمة الله : « مفاتيح العلوم ابراهيم » .

ويروى عنه أنه قال : « اتخذ الله صاحبا وذر الناس جانبا(١) » .

والمراد من هذا القول أنه حين يصح اقبال العبد على الحق تعالى ، ويخلص فى توليه ، فان صحة اقباله على الحق تقتضى الاعراض عن الخلق ، لأنه لاشأن قط لصـــحبة الخلق مع حديث الحق . وصـــحبة الحق هى الاخلاص فى انفاذ أمره ، والاخلاص فى طاعته من خلوص محبته ، وخلوص محبة الحق يتأتى من معاداة النفس والهوى ، لأن كل من يعرف الهوى ينفصل عن الله عز وجل ، وكل من ينقطع عن الهوى يسكن الى الله . فأنت فى الحق ، كل الخلق ، فاذا أعرضت عن نفسك فقد أعرضت عن الجميع . ومن يعرض عن الخلق ويقبل على نفسه فانه يكون كما لو أن الخلق جميعا على صواب فيما هم فيه بحكم التقدير ، وقد صار لك معك شأن .

وبناء استقامة الظاهر والباطن للطالب فى شيئين : أحدهما ، ما ينبغى معرفته ، والآخر : ما ينبغى عمله .

وما ينبغى معرفته : هو رؤية تقدير الحق من خير أو شر ، لأنه فى كل الملك لا يسكن أى متحرك ولا يتحرك أى ساكن الا بالحركة التى يخلقها الله تعالى فيه ، والسكون الذى يضعه الله تعالى فيه .

وما ينبغى عمله : هو انفاذ الأمر ، وصحة المعاملة وحفظ التكليف ، فلا يصير تقديره بأى حال حجة لترك أمره .

والاعراض عن الخلق لا يستقيم مالم تعرض عن نفسك ، واذا أعرضت عن نفسك فانه يلزم كل الخلق لحصول مراد الحق ، واذا أقبلت على الحق تعالى فأنت تلزم لاقامة أمره . اذن ، فلا وجه للركون الى الخلق .

وان أردت أن تركن الى شىء بدون الحق ، فاركن الى الغير(٢) ، لأن الركون الى الغير رؤية للتوحيد ، والركون الى النفس اثبات للتعطيل ،

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٧) .
(٢) أى : الى غير نفسك .

ولهذا السبب كان شيخ الشيوخ أبو الحسن بن سالبة(١) رحمه الله يقول : لأن يكون المريد فى حكم هرة خير من أن يكون فى حكم نفسه ، لأن صحبة الغير تكون من أجل الله ، وصحبة النفس تكون من أجل تربية الهوى .

وسيأتى الكلام فى هذا المعنى فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وقرأت فى الحكايات أن ابراهيم بن أدهم قال : لما وصلت البادية ، أقبل شيخ وقال لى : يا ابراهيم ! أتعرف أى مكان هذا حتى تسير بغير زاد ولا راحلة ؟ .

قال : فعرفت انه الشيطان . وكان معى أربعة دوانق ، كنت قد بعت بها زنبيلا فى الكوفة ، فأخرجتها من جيبى وقذفت بها ، ونذرت أن أصلى بكل ميل أربعمائة ركعة . وبقيت فى البادية أربعة أعوام ، وكان الحق تعالى يبعث الى بالرزق عند الحاجة ، دون عناء . واتفق لى فى ذلك الوقت صحبة الخضر عليه السلام ، وعلمنى اسم الله الأعظم ، وعندئذ فرغ قلبى كلية من الغير .

وله مناقب كثيرة ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم** سرير المعرفة ، وتاج أهل المعاملة : **« بشر بن الحارث الحافى(٢) »** رضى الله عنه ، كان ذا شأن كبير فى المجاهدة ، وحظ واف فى المعاملة ، أدرك صحبة الفضيل بن عياض ، وكان مريدا لخاله على بن خشرم(٣) ، وعالما بعلم الأصول والفروع .

وكانت بداية حاله أنه كان يسير ذات يوم ثملا فى الطريق فوجد قطعة ورق فتناولها بتعظيم ، ورأى مكتوباعليها : « بسم الله الرحمن الرحيم(٤) » ، فعطرها ووضعها فى مكان طاهر . ورأى الله تعالى فى تلك الليلة فى النوم يقول له : يا بشر ! طيبت اسمى ، فبعزتى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة ، فلا يسمع أحد باسمك الا وتسرى فى روحه راحة . وعندئذ تاب وسلك طريق الزهد .

---

(١) سبق الاشارة اليه .
(٢) سبق الاشارة اليه .
(٣) عبد الرحمن بن على بن خشرم بن هلال بن ماهان بن عبد الله . وكان عبد الله يسمى « يعفور » فأسلم على يد على بن أبى طالب فسماه عبد الله . وبشر ابن الحارث وعبد الرحمن فى القرابة متساويان ، وكان الحارث وخشرم أخوين من أب وأم . (أنظر : طبقات الصوفية ص ٣٩ حاشية ١) . وورد فى الرسالة أنه ابن أخت على بن خشرم (أنظر : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٨) .
(٤) سورة « الفاتحة » آية ١ .

ولم يكن — من شدة الغلبة فى مشاهدة الحق — ينتعل شيئا قط ، فسئل عن علة ذلك فقال : الأرض بساطة ، وأنا لا أجيز أن أدوس بساطه وبين قدمى والأرض واسطة . وهذا من غرائب معاملاته ، اذ غدا النعل حجابا له فى جمع همته بالحق ! .

ويرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون عزيزا فى الدنيا ، شريفا فى الآخرة ، فليجتنب ثلاثا : لا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر أحدا بسوء ، ولا يجيب أحدا الى طعامه » .

أما كل من يعرف الطريق الى الله تعالى فلا يطلب من الخلق حاجة ، اذ أن الحاجة الى الخلق دليل عدم المعرفة ، لأنه لو كان عارفا بقاضى الحاجات لما طلب حاجة من (مخلوق) مثله : « استعانة المخلوك بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون »(١) .

وأما كل من يسىء القول الى أحد ، فهذا تصرف فى حكم الله تعالى ، لأن ذلك الشخص وفعله من خلق الله عز وجل ، فعلى من ترده ؟ ومن يعب الفعل يكن قد عاب الفاعل ، (وذلك) بخلاف ما أمر به (الله) من ذم الكفار موافقة له .

وأما قوله : تعففوا عن طعام الخلق ، فذلك لأن الرازق هو الله جل جلاله ، فاذا جعل مخلوقا سبب رزقك ، فلا تنظره ، واعلم أن ذلك رزقك الذى أوصله الله تعالى اليك ، وليس ملكا له . واذا خال أنه له ، وامتن به عليك ، فلا تجبه ، اذ ليس لأحد على أحد منة فى الرزق ، لأن الرزق عند أهل السنة والجماعة غذاء ، وعند المعتزلة ملك ، والله هو الذى يمد الخلق بالأغذية لا المخلوق . ولمجاز هذا القول معنى آخر ، والله أعلم .

● **ومنهم** ملك المعرفة ، وملك المحبة :

« أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى(٢) » رضى الله عنه ، كان من جلة المشايخ وأكبرهم حالا وأعظمهم شأنا ، الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة » .

---

(١) ورد فى الأصل : استعانة المخلوق الى المخلوق كاستعانة المسجون الى المسجون . ورد فى طبقات الصوفية كما أثبته وهو الأصح . (أنظر طبقات الصوفية ص ١٢٦) .
سبق الاشارة اليه
(٢) سبق الاشارة اليه .

وكان جده مجوسيا ، وأبوه أحد عظماء بسطام(١) ، وله فى أحاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

كان أحد الأئمة العشرة المعروفين ، ولم يكن لأحد قبله فى حقائق هذا العلم كل تلك الاستنباطات التى له . وكان فى كل الأحوال محبا للعلم ومعظما للشريعة برغم ما يقال من أن فريقا يرمونه بالالحاد .

وكان وقته فى البداية مبينا على المجاهدة وممارسة المعاملة . ويرد عنه انه قال : « عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشـــد على من العلم ومتابعته . ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا فى تجريد التوحيد(٢) » .

والحقيقة أن الطبع أميل الى الجهل منه الى العلم ، ويمكن عمل الكثير بالجهل دون مشقة ، ولا يمكن الخطوة واحدة بالعلم دون عناء ، وصراط الشريعة أدق وأخطر كثيرا من صراط الآخرة . فيجب عليك أن تكون فى كل الأحوال بحيث اذا تخلفت عن الأحوال الرفيعة والمقامات الخطيرة وسقطت ، أن تسقط فى ميدان الشريعة . واذا زايلك كل شىء يجب أن تبقى معك المعاملة ، لأن أعظم الآفات للمريد ترك المعاملة . وكل دعاوى المدعين تتلاشى فى ممارسة الشريعة ، ويتعرى أمامها كل أرباب اللسان .

ويرد عنه رحمه الله أنه قال : « الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة ، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم(٢) » .

أى أن الجنة ، وان تكن كبيرة ، مخلوقة . ومحبته : صفته ، وليست مخلوقة ، وكل ما يبقى للمخلوق مما هو مخلوق ، لاخطر له . والأحباب محجوبون بالمحبة ، ذلك أن وجود المحبة يقتضى الثنائية ، والثنائية لا تتأتى فى أصل التوحيد ، وطريق الأحباب من وحدانية الى وحدانية .

وفى طريق المحبة تتأتى علة المحبة ، وآفة ذلك أنه يلزم فى المحبة مريد ومراد ، فأما أن يكون المريد الحق والعبد المراد ، وأما أن يكون المراد الحق والعبد المريد . فاذا كان المريد الحق والمراد العبد ، فان وجود العبد

---

(١) « بسطام » بكسر الباء ثم الســـكون : بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق الى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين . فتحت مع الرى وقومس على يد نعيم بن مقرن فى عهد عمـــر بن الخطاب سنة تســـع عشرة أو ثمانى عشرة (معجم البلدان ج ١ ص ٦٢٣) .

(٢،٣) وردا بنصهما فى طبقات الصوفية . (أنظر ص ٧٠) .

يثبت فى مراد الحق . واذا كان المريد العبد والمراد الحق فلا سبيل لطلب وارادة المخلوق اليه . ويبقى هنا فى كلا الحالين ، آفة وجود المحب .

اذن ففناء المحب فى بقاء المحبة أصح وأتم من قيامه ببقاء المحبة .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : صرت مرة الى مكة ، فرأيت البيت مفردا ، فقلت : حجى غير مقبول ، لأنى رأيت أحجارا كثيرة من هذا الجنس . وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد بعد . وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ، ولا بيت . فنوديت فى سرى أن : يا أبا يزيد ! اذا لم تر نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركا . واذا لم تر العالم كله ورأيت نفسك كنت مشركا . وعندئذ تبت ، وتبت أيضا عن رؤية وجودى .

وهذه حكاية لطيفة فى صحة حاله ، وعلامة طيبة لأرباب الأحوال ، والله أعلم .

● **ومنهم** أمام الفنون وجاسوس الظنون :

« أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى(١) » رضى الله عنه . كان عالما بالأصول والفروع ، وكان جميع أهل العلم فى زمانه يتولونه ويقتدون به . وقد عمل كتابا فى أصول التصوف اسمه « الرعاية(٢) » . وله تصانيف أخرى كثيرة غيره .

وكان فى كل فن عالى الحال عظيم الهمة ، وكان شيخ مشايخ بغداد فى وقته .

يروى عنه أنه قال : « العلم بحركات القلوب فى مطالعة الغيوب ، أشرف من العمل بحركات الجوارح » .

والمراد بهذا أن العلم محل الكمال ، والجهل محل الطلب . والعلم فى الرواق أفضل من الجهل فى البلاط ، لأن العلم يبلغ بالرجل درجة الكمال ، والجهل لا يتخطى به الأعتاب .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) ذكره السلمى باسم : « الرعاية لحقوق الله » (أنظر طبقات الصوفية ص٥٦). وذكر باسم : « الرعاية فى التصوف » فى كشف الظنون ج ١ عامود ٩٠٨ ، هدية العارفين ج ١ عامود ٢٦٤ . وقد نشر كتاب الرعاية لحقوق الله فى سلسلة جب التذكارية سنة ١٩٤٠ .

ومما هو جديربالذكر أن هناك كتابا باسم : «الرعاية بحقوق الله» أشار اليه الهجويرى ونسبه الى محمد بن خضرويه (أنظر : كشـــف المحجوب ص ٤٣٩ :

والعلم — فى الحقيقة — أعظم من العمل ، لأنه يمكن معرفة الله تعالى بالعلم ، ولا يمكن ادراكه بالعمل . ولو كان للعمل بغير العلم طريق اليه ، لكان النصارى والرهبان فى شدة اجتهاهم : فى المشـــاهدة ، ولكان عصاة المسلمين : فى المغايبـــة .

اذن ، فالعمل صفة العبد ، والعلم صفة الله تعالى .

وقد أخطأ بعض رواة هذا القول ، وهم يروون كلا — الكلمتين (أى العلم والعمل) : « العمل » ويقولون — ان المحاسبى يقول — « العمل بحركات القلوب أشرف من العمل بحركات الجوارح(١) » وهذا محال ، لأن عمل العبد لا يتعلق بحركات القلب . واذا كانوا يريدون بهذا ، فكرة ومراقبة أحوال الباطن ، فهذا ذاته ليس غريبا ، لأن الرسول عليه السلام قال : « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

وفى الحقيقة : أعمال السر أفضل من أعمال الجوارح ، وتأثير أعمال الباطن أتم من تأثير أعمال الظاهر ، ولذلك قيل : « نوم العالم عبادة ، وسهر الجاهل معصية » لأن سر (العالم) مغلوب فى النوم واليقظة ، وعندما يغلب السر ، يغلب الجسد أيضا ، فالسر المغلوب بغلبة الحق أفضل من النفس الغالبة بحركات الظاهر والمجاهدة .

ويرد عنه رحمة الله أنه قال يوما لدرويش : « كن لله والا فلا تكن » يعنى : أبق بالحق ، أو افن عن وجودك .

أى : كن مجتمعا بالصفوة أو مفترقا بالفقر ، وابق بالحق أو افن عن نفسك . أو : كن على تلك الصفة حيث يقول الحق تعالى: « اسجدوا لآدم(٢) » ، أو على تلك الصفة حيث يقول : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا(٣) » ، فاذا كنت لنفســك باختيارك فقيامك بنفسك ، وان لم تكن باختيارك فقيامك بالحق . وهذا المعنى لطيف والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم** الامام المعرض عن الخلق وطلب الرياسة ، والمنقطع عن الخلق بالعزلة والقناعة : « **أبو سليمان داود بن نصير الطائى**(٤) » رضى الله

---

(١) ورد على هذا النحو فى طبقات الصوفية : أنظر ص ٥٩ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٣٤ ، سورة « الأعراف » آية ١١ ، ســورة « الكهف » آية ٥٠ ، سورة « طه » آية ١١٦ .
(٣) سورة « الانسان » آية ١ .
(٤) سبق الاشارة اليه .

عنه . كان من كبار المشايخ وسادات أهل التصوف ، منقطع النظير فى زمانه ، وتلميذ الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، ومن أقران الفضيل وابراهيم بن أدهم وغيرهما ، ومريد حبيب الراعى رضى الله عنه .

وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر ، وفى درجة عليـــا . وفى الفقه فقيه الفقهاء . اختار العزلة ، وأعرض عن طريق الرياسة والدنيا ، وسلك طريق الزهد والتقوى ، وله مناقب كثيرة ، وفضائل مذكورة ، فقد كان عالما فى المعاملات ، وكاملا فى الحقائق .

يرد عنه أنه قال لمريد من مريديـــه : « ان أردت السلامة سلم على الدنيا ، وان أردت الكرامة كبر على الآخرة » .

أى أن هذين المحلين حجـــاب ، وكل الفراغ منوط بهما ، فكل من يريد أن يفرغ بالجسد ، قل له : أعرض عن الدنيـــا ، وكل من يريد أن يفرغ بالقلب قل له : انزع من قلبك ارادة العقبى .

ومشهور فى الحكايات أنه كان يخالط محمد بن الحسن ، ويقصى عنه أبا يوسف ، فقيل له : كلاهما عظيم فى العلم ، فلماذا تعز أحدهما وتقصى عنك الآخر ؟ قال : لأن محمد بن الحسن أقبل على العلم وهو صاحب دنيا ونعم كثيرة ، وصير العلم سبب عز دينه وذل دنياه ، وأبا يوسف أقبل على العلم من الذل والفقر ، وصير العز سبب جاهه وجماله وعزه ، فمحمد ليس مثله .

ويروى عن معروف الكرخى رحمه الله أنه قال : لم أر أحدا كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى ، فلم تكن الدنيا وأهلها جميعا لديه بمقدار جناح بعوضة ، وكان ينظر الى الفقراء بعين الاحترام وان كانوا ملأى بالآفات . وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

● **ومنهم** شيخ أهل الحقائق ، والمنقطع عن جملة العلائق :
« **أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى**(١) » رحمه الله . كان خال الجنيد ، وعالما بجملة العلوم ، وذا شأن عظيم فى التصوف .

---

(١) قال عنه السلمى : انه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان امام البغداديين وشيخهم فى وقته . مات سنة احدى وخمسين ومائتين . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٨ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٤ ، ونيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٩ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٧٤ ، نفحات الانس ص ٥٣) .

وكان رحمه الله أول من خاض فى ترتيب المقامات وبسط الأحوال ، وأكثر مشـــايخ العراق(١) من مريديه . رأى حبيبا الراعى وصحبه ، وكان مريد معروف الكرخى .

كان يتجر فى سوق بغداد ، وعندما احترق السوق قالوا له : احترق دكانك . فقال : فرغت من قيده . ولما نظروا ، لم يكن دكانه قد احترق واحترقت كل الدكاكين من جهاته الأربع ! فلما رأى ذلك ، وهب الفقراء كل ما يملك ، واختار طريق التصوف .

سئل : كيف كانت بداية حالك ؟ قال : مر حبيب الراعى بدكانى ذات يوم ، فأعطيته كسرة قائلا : أعطها للفقراء ؟ فقال لى : خيرك الله ! ومنذ ذلك اليوم الذى سمعت فيه دعاءه هذا ، زايلنى الفلاح الدنيوى .

ويرد عنـــه أنـــه قال : « اللهم مهمـــا عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب(٢) » ، لأنه حين لا أكون محجـــوبا عنك ، يســـهل على بذكرك ومشاهدتك العذاب والبلاء ، ومتى أكون محجوبا عنك يصبح نعيمك الأبدى هلاكا لى ، بذل حجابك .

ذلك أن البلاء الذى يكون فى مشاهدة المبلى لا يكون بلاء بل يكون نعمة ، والنعمة فى حجاب المبلى هى البلاء الحقيقى ، لأنه لا يوجد فى الجحيم بلاء أشد من الحجاب ، ولو كان أهل الجحيم فى الجحيم مكاشـــفين لله تعالى ، لما خطرت الجنة لعصاة المؤمنين ، لأن رؤية الحق عز اسمه تمنح الروح من المسرات ما ينسيها عذاب الجسد ، ويشغلها عن بلاء البدن . ولا يوجد فى الجنة نعمة أتم من الكشف ، لأنه لو كانت كل تلك النعم ومئات من أمثالها حاصلة لهم(٣) وهم محجوبون عن الله لتصاعد الهلاك من قلوبهم وأرواحهم .

اذن ، فسنة الله تعالى أنه يجعل قلوب أحبائه بصيرة به فى جميع الأحوال حتى تستطيع تحمل جميع المشقات والرياضات والبلايا بشرابه ، ويكون دعاؤهم : أن كل ألوان العذاب أحب الينا من حجابك ، لأنه حين ينكشف جمالك لقلوبنا ، لا نبالى بألوان العذاب . والله أعلم .

---

(١) « العراق » : العراق المشهور : بلاد ، والعراقان : الكوفة والبصرة . قال قطرب انما سمى العراق عراقا لانه دنا من البحر . وقال الخليل : العراق شاطىء البحر وسمى العراق عراقا لأنه على شاطىء دجلة والفرات (معجم البلدان جـ٣ ص ٤٢٨).
(٢) ورد فى طبقات الصوفية : اللهم ما عذبتنى بشىء (أنظر ص ٥١) .
(٣) أى لأهل الجنة .

● **ومنهم** قائد أهل البلوى ، وأساس الزهد والتقوى :
«أبو على شقيق بن ابراهيم الازدى(١)» رضى الله عنه . كان عزيز القوم ومقتداهم ، وعالما بجميع علوم الشرع والمعاملات والحقائق ، وله مؤلفـــات كثيرة فى فنون العلم . صحب ابراهيم بن أدهم ، ورأى كثيرا من المشايخ وأدرك صحبتهم .

يرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم وأهل المعاصى أمواتا فى حياتهم(٢) » .

أى أن المطيع يكون حيا وان يكن ميتا ، لأن الملائكة تثنى على طاعته الى يوم القيامة ، وثوابه مؤبد ، فهو باق فى فناء الموت ببقاء الله .

ويرد عنه أن شيخا جاءه وقال : يا شـــيخ ! ذنوبى كثيرة وأريد أن أتوب ؟ فقال له : تأخرت ! قال : كلا ، بل بكرت ! فقال له كيف ؟ قال : كل من يأتى ـــ للتوبة ـــ قبل الموت وان يكن جاء متأخرا فهو مبكر .

ويقال : كانت بداية حاله أنه كان قد حدث فى سنة من السنين قحط فى بلخ ، وكان الناس يأكلون بعضهم ، وكان المسلمون مهمومين ، فرأوا غلاما كان يضحك ويمرح فى السوق ، فقال له الناس : لم تضحك ؟ ألا تخجل من أن كل الناس فى حزن وأنت تمرح الى هذا الحد ؟ فقال : لا هم لى قط ، فأنا عبد لسيد يملك قرية ، وقد أخلى قلبى من شغلى . فقال شقيق رضى الله عنه : يا الهى تعاليت ! ان هذا الغلام فرح كل هذا الفرح بسيد يملك قرية ، وأنت مالك الملك ، وقد تكفلت بأرزاقنا ، وقد وكلنا بقلوبنا كل هذاالحزن !! وانصرف عن شغل الدنيا ، وسلك طريق الحق ، ولم يهتم برزقه قط . وكان لشدة تواضعه يقول دائما : أنا تلميذ غلام ، وما أدركته أدركته به .

وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

---

(١) كنيته « أبو على » أو « أبو موسى » . من مشاهير مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . له لســـان فى التوكل ، وقيل انه أول من تكلـــم فى علم الأحـــوال بكورة خراسان .
يقول الجامى انه توفى سنة اربع وسبعين ومائة فى « الختل » وقبره بهـــا . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٦١ ، الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٧٧ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء جـ ١ ص ١٩٦ ، نفحات الانس ص ٤٩ ، خزينة الأصفياء جـ ٢ ص ١٣٣) .
(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٦٦) .

● **ومنهم** شيخ وقته ، والمجرد لطريق الحق :
« **أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى**(١) » رضى الله عنه ، كان عزيز القوم ، وريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة ، وكان عالما بعلم الوقت ، ومعرفة آفات النفس وبصيرا بكمائنها ، وله كلام لطيف فى المعاملات وحفظ القلوب ورعاية الجوارح .

ويرد عنه أنه قال : « اذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت(٢) » ، لأن الوقت رعاية الحال ، ومادام العبد يرعى الحال لا يستولى الخوف على قلبه ، فاذا زال ذلك ، يصير تارك الرعاية ويفسد وقته ، واذا غلب الخوف على الرجاء يبطل توحيده ، لأن غلبة الخوف من اليأس ، واليأس من الحق شرك . فحفظ التوحيد فى صحة رجاء العبد ، وحفظ الوقت فى صحة خوفه ، واذا تساويا : يحفظ التوحيد والوقت ، ويكون العبد مؤمنا بحفظ التوحيد ، ومطيعا بحفظ الوقت .

وتعلق الرجاء ينصرف الى المشاهدة التى يكون فيها الاعتقاد جملة ، وتعلق الخوف ينصرف الى المجاهدة التى يكون فيها الاضطراب جملة ، والمشاهدات مواريث المجاهدات .

ومعنى هذا أن كل الآمال تتولد من اليأس : وكل من يقنط من فلاحه بعمله ، يقوده قنوطه الى النجاح والفلاح بكرم الحق تعالى وتقدس ، ويفتح عليه باب الانبساط ، وينجو قلبه من آفات الطبع ، وتنكشف له جميع الأسرار الربانية ، كما يقول أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله : كنت أؤدى الصلاة فى الخلوة ذات ليلة ، وشعرت بكثير من الراحة فى تلك الأثناء ، وفى اليوم التالى حدثت أبا سليمان بذلك ، فقال : أنت رجل ضعيف لأن الخلق لا يزالون أمامك ، فأنت فى الخلاء على حال وفى الملأ على حال آخر . وليس فى الدنيا والآخرة شىء قط له من الخطر ما يمنع العبد عن الحق ، وحين يجلون العروس على الملأ ، فانهم يفعلون ذلك ليراها الخلق ، ويكون لها مزيد من العز بمشاهدة الخلق . ولكن ينبغى أن لا ترى نفسها بغير ذلك القصد ، حتى لا يكون لها من مشاهدة الخلق مذلة . فلو رأى الخلق عز طاعة المطيع فلا ضير عليه ، وانما الضرر يكون فى رؤيته لطاعته ، فان فى ذلك هلاكه . والله أعلم .

---

(١) عبد الرحمن بن عطية ، ويقال : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية . وهو من أهل « داريا » : قرية من قرى دمشق . مات سنة خمس عشرة ومائتين . أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٧٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٦ ؛ ونيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٩ ،نفحات الانس ص ٣٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٥) .
(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٧٦) .

● **ومنهم** المتعلق بحضرة الرضا ، وربيب على بن موسى الرضا :
« **أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى**(١) رضى الله عنه ، كان من قدماء المشايخ وسادتهم ، معروفا بالفتوة ، ومذكورا بالورع والانابة .

وكان ينبغى تقديم ذكره عن هذا الترتيب — ولكنى ذكرته فى هذا الموضع موافقة لشيخين : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : أولهما الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، الذى كتابه على هذا الترتيب ، والثانى : الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة ، فأثبته فى هذا الموضع — لأنه كان استاذ السرى السقطى ، ومريد داود الطائى .

يرد عنه أنه قال : « للفتيان ثلاث علامات : وفاء بلا خلاف ، ومدح بلا جود ، وعطاء بلا سؤال(٢) .

أما الوفاء بلا خلاف ، فهو أن العبد فى العبودية يحرم على نفسه المخالفة والمعصية .

وأما المدح بلا جود فهو أن يثنى على شخص لم ير منه احسانا .

وأما العطاء بلا سؤال فهو أن لا يميز فى العطاء عند الميسرة ، وعندما يعرف حال أحد لا يسأله . وهذا كله يكون من الخلق للخلق .

وهذه الصفات الثلاث عارية فى الخلق جميعا ، لأنها صفات الحق جل وعلا ، وأفعال له مع عباده : لأنه فى الوفاء لا يخالف أحباءه ، فمهما خالفوه فى وفائهم ، يزيدجل جلاله لطفه بهم . وعلامة وفائه أن العبد دعاه فى الأزل بلا فعل ، وهو لا يصده عنه اليوم بمعصيته .

والمدح بلا جود لا يفعله غيره ، لأنه جل جلاله فى غير حاجة الى فعل العبد ، ويثنى على العبد على قليل من الفعل . له الحمد فى الآخرة والأولى .

---

(١) معروف بن فيروز ، ويقال معروف بن على . كان بعد اسلامه يحجب لعلى ابن موسى الرضا ، فازدحم الشيعة يوما على باب على بن موسى فكسروا أضلع معروف ، فمات ودفن ببغداد وقبره يستشفى به . يقول البغداديون : قبر معروف ترياق مجرب . توفى سنة مائتين ، وقيل سنة احدى ومائتين . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٨٣ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٠ ، (ونيات الأعيان ج ١ ص ١٠٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٦٩ ،نفحات الانس ص ٣٨) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٨٩) .

والعطاء بلا سؤال لا يستطيعه غيره ، لأنه كريم يعلم حال كل فرد ، ويحقق مقصود كل واحد دون سؤال .

واذا كرم الله عز وجل العبد وعظمه وخصه بقربه ، وفعل معه هذه الأمور الثلاثة ، وهو يجتهد بقدر امكانه أن يعامل الخلق هذه المعاملة ، فانهم عندئذ يطلقون عليه اسم الفتوة ، ويثبتون اسمه فى زمرة الفتيان .

وكانت هذه الصفات الثلاث لابراهيم عليه السلام على الحقيقة ، وسأورد هذا فى موضعه ان شاء الله عز وجل .

● **ومنهم** زين العباد وجمال الأوتاد :

« أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم(١) » رضى الله عنه . كان من محتشمى بلخ ، ومن قدماء مشايخ خراسان . مريد شقيق ، وأستاذ أحمد ابن خضرويه رحمه الله . ولم يخط فى كل أحواله من البداية الى النهاية خطوة بغير صدق ، حتى قال الجنيد عنه : « صديق زماننا حاتم الأصم » .

وله كلام عال فى دقائق رؤية آفات النفس ورعونات الطبع ، وتصانيف مشهورة فى علم المعاملات .

يرد عنه أنه قال : « الشهوات ثلاث : شهوة فى الأكل ، وشهوة فى الكلام ، وشهوة فى النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة(١) » .

فكل من يتوكل فى الأكل ينجو من شهوة الأكل ، وكل من يتحدث بلسان الصدق ينجو من شهوة اللسان ، وكل من يرى بعين الصواب ينجو من شهوة العين .

وحقيقة التوكل من صدق معرفته ، لأنك اذا عرفته صدقت بمنحه الرزق ، ومن ثم يتكلم (العبد) بصدق المعرفة ، وينظر بصدق المعرفة ، فلا يكون أكله وشربه غير المحبة ، ولا تكون عبارته غير الوجد ، ولا يكون نظره غير المشاهدة .

---

(١) ذكر فى الرسالة : حاتم بن علوان الأصم . ويقال حاتم بن يوسف الأصم . مات بقرية من قرى ما وراء النهر اسمها « واشجرد » سنة سبع وثلاثين ومائة . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص٩١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص٨٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٩٦) .

وعندما تصح معرفة العبد يكون أكله حلالا ، وعندما يصح كلامه يتحدث بذكره ، وعندما يصح نظره يشاهده ، لأن أكل غير ما أعطاه باذنه لايحل ، وذكر أحد سوى ذكره فى الثمانية عشر ألف عالم لا يصح ، والنظر الى غير جماله وجلاله فى الموجودات لا يجوز . فاذا أخذت منه وأكلت باذنه فلا شهوة ، واذا تحدثت عنه وتكلمت باذنه فلا شهوة ، واذا رأيت فعله ورأيت باذنه فلا شهوة . وأيضا ، اذا أكلت بهواك فانه وان يكن حلالا يكن شهوة ، واذا تكلمت بهواك فانه وأن يكن ذكرا يكن كذبا وشهوة ، واذا نظرت بهواك فانه وأن يكن استدلالا يكن وبالا وشهوة .

وهو أعلم .

● **ومنهم** الامام المطلبى ، وابن عم النبى : **« أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى(١) »** رضى الله عنه ، كان من كبار وقته ، وأماما فى جميع العلوم ، ومعروفا بالفتوة والورع ، وله مناقب كثيرة ومشهورة ، وكلام عال .

وكان أولا تلميذ الامام مالك(٢) طالما كان بالمدينة ، فلما قدم العراق اختلف الى محمد بن الحسن رضى الله عنه .

وكان فى طبعه دائما الميل الى العزلة ، ويطلب تحقيق هذه الطريقة ، حتى اجتمع عليه قوم واقتدوا به ، وكان منهم أحمد بن حنبل ، ثم انشغل بطلب الجاه ومزاولة الامامة وتخلف عنه .

وكان محمود الخصال فى جميع الأحوال ، وفى بداية حاله كان فى قلبه قسوة على المتصوفة ، الى أن رأى سليما الراعى وتقرب اليه . وكان بعد ذلك طالبا للحقيقة أينما ذهب .

---

(١) أحد الأئمة الأربعة . يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النسب فى عبد مناف . ولد بغزة وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وقرأ القرآن ، ورحل الى الامام مالك بالمدينة . أقام بمصر أربع سنوات وتوفى بها سنة أربع ومائتين . كان كثير المناقب ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة ما لم يجتمع فى غيره حتى قال أحمد بن حنبل عنه : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى . (أنظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٠٩ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٥٠) .

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر . أحد الأئمة الأربعة ، وامام دار الهجرة ، قال عنه الشافعى : « مالك حجة الله تعالى على خلقه » . وقال ابن وهب : سمعت مناديا ينادى بالمدينة : « ألا لا يفتى الناس الا مالك بن أنس وابن أبى ذئب » . ضرب سبعين سوطا لفتوى لم توافق السلطان . توفى سنة تسع وسبعين ومائة وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع (أنظر ترجمته فى : المعارف ص ٢١٨ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٢ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٤٦) .

يرد عنه أنه قال : « اذا رأيت العالم يشتغل بالرخص فليس يجيء منه شيء » .

أى أن العلماء قبله كل أصناف الخلق ، فلا يجوز أن يتقدمهم أحد فى أى معنى ، ولا يمكنهم السير فى طريق الحق بغير الاحتياط والمبالغة فى المجاهدة ، وطلب الرخص شأن من يهرب من المجاهدة ويريد أن يخفف على نفسه ، فطلب الرخص درجة العوام حتى لا يخرجوا عن دائرة الشريعة ، وممارسة المجاهدة درجة الخِواص ليجدوا ثمرة ذلك فى أسراراهم ، العلماء خواص ، وحين يرضى الخاص بدرجة العام لا يتأتى منه شيء .

وطلب الرخص أيضا تخفيف للأمر ، والعلماء أحباء الحق تعالى ، والحبيب لايخفف أمر الحبيب ولايختار أدنى درجاته ، وانما يحتاط فى ذلك .

يروى أحد المشايخ قائلا : رأيت الرسول عليه السلام فى المنام فقلت له : يا رسول الله ! روى لى عنك أن لله عز وجل أوتادا وأولياء فى الأرض . فقال : لقد أصدقك الراوى عنى هذا الخبر . قلت : يا رسول الله ! يلزمنى أن أرى واحدا منهم . فقال : محمد بن ادريس واحد منهم .

وله مناقب كثيرة غير هذا .

● **ومنهم** شيخ أهل السنة ، وقاهر أهل البدعة : « **أبو عبد الله أحمد ابن حنبل(١)** » رضى الله عنه . اختص بالورع والتقوى . وكان حافظا لحديث النبى عليه السلام . وكانت هذه الطبقة بجملتها من الفريقين تتبرك به .

---

(١) الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، من بنى شيبان بن ذهل . ولد فى بغداد سنة أربع وستين ومائة . كان امام المحدثين ، صنف كتابه « المسند » وجمع فيه من الحديث ما لم يتوفر لغيره . وقيل انه كان يحفظ ألف ألف حديث . كان من أصحاب الامام الشافعى وخواصه ، ولم يزل مصاحبه الى أن ارتحل الشافعى الى مصر وقال فى حقه : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل . دعى الى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وكان ضربه فى سنة عشرين ومائتين فى عهد المعتصم ، ولم يزل يعذب الى أن مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، فاشتد الامر عليه وقال لا أسكن بلد أحد فيه . فأقام مختفيا لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة عن أحمد وأمر باحضاره واكرامه واعزازه ، وكتب الى الآفاق برفع المحنة واظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق ، وخمدت المعتزلة . توفى ببغداد سنة أربعين ومائتين ودفن بمقبرة باب حرب (أنظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٦٤) .

وكان قد أدرك صحبة المشايخ الكبار مثل ذى النون المصرى ، وبشر الحافى ، وسرى السقطى ، ومعروف الكرخى وأمثالهم رضى الله عنه . كان ظاهر الكرامات وصحيح الفراسات ، وكل ما ينسبه اليه اليوم بعض المشبهة(١) انما هو محض افتراء وموضوع ، وهو برىء من كل ذلك . وله اعتقاد فى أصول الدين ومرضى من كل العلماء .

ولما غلب المعتزلة فى بغداد قالوا : يجب أن يكلف بأن يقول ان القرآن مخلوق . وكان شيخا وضعيفا ، فشدوا ذراعية على العقابين(٢) وضربوه ألف سوط وهم يقولون : قل ان القرآن مخلوق ! فلم يقل . وفى أثناء ذلك حل رباط أزراره وكانت يداه مغلولتين فظهرت يدان أخريان وعقدتا الأزار ، فلما رأوا هذا البرهان تركوه . وقد مات متأثرا بتلك الجراح .

وفى أواخر عهده جاء اليه قوم وقالوا له : ماذا تقول فيمن ضربوك ؟ فقال : ماذا أقول ، لقد ضربونى من أجل الله لأنهم ظنوا انى على باطل ، فان يكونوا على حق ، فاننى لن اختصمهم يوم القيامة لمجرد جرح .

وله كلام عال فى المعاملات .وكل من كان يسأله عن مسألة كان يجيبه عنها اذا كانت من المعاملات ، ويحيله على بشر الحافى اذا كانت من الحقائق ، كما حدث أن جاء اليه رجل ذات يوم وقال : « ما الاخلاص ؟ قال : الاخلاص هو الخلاص من آفات الأعمال » . قال : « ما التوكل ؟ قال : الثقة بالله » . قال : « ما الرضا ؟ قال : تسليم الأمور الى الله » . قال : « ما المحبة ؟ » قال : سل عن هذه بشرا الحافى ، فانه طالما كان حيا لا أجيب عن هذا .

وكان أحمد بن حنبل رحمه الله ممتحنا فى جميع الأحوال : فى حال حياته

---

(١) المشبهة صنفان : صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره ، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره . وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى . والمشبهة الذين ضلوا فى تشبيه ذاته بغيره منهم السبأية الذين سموا عليا الها وشبهوه بذات الله ، والبيانية أتباع بيان بن سمعان الذى زعم أن معبوده انسان من نور على صورة الانسان فى أعضائه ، وأنه يفنى كله الا وجهه . ومنهم المغيرية أتباع المغيرة بن سعيد الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضاءه على صورة حروف الهجاء . ومنهم المنصورية والخطابية والحلولية والمقنعية والهشامية والمشبهة المنسوبة الى داود الجواربى .
وأما المشبهة لصفات الله بصفات المخلوقين فأصناف : منهم الذين شبهوا ارادة الله تعالى بارادة خلقه ، ومنهم الذين شبهوا كلام الله بكلام خلقه ، ومنهم الزرارية الذين قالوا ان جميع صفات الله من جنس صفاتنا . (« الفرق بين الفرق » أبو منصور البغدادى : القاهرة ١٩٤٨ أنظر : ص ١٣٨ — ١٤١) .

(٢) آلة للتعذيب يوثق عليها المجرمون .

بطعن المعتزلة ، وفى حال مماته باتهامات المشبهة ، الى حد أن أهل السنة والجماعة الذين لم يقفوا على حالة يتهمونه ، وهو برىء من ذلك ، والله أعلم .

● **ومنهم** سراج الوقت والمشرف على آفات المقت : « **أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى(١)** » رضى الله عنه ، كان من أجلة مشايخ الشام ، وممدوح جملة المشايخ ، الى حد أن قال الجنيد : « أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشـــام » .

وله كلام عال واشارات لطيفة فى فنون علم هذه الطريقة ، وروايات صحيحة من حديث النبى عليه السلام . وكان اليه رجوع أهل وقته فى وقعاتهم .

وكان مريد أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه ، وقد صحب سفيان ابن عيينه(٢) ومروان بن معـــاوية الفزازى(٣) والنباجى(٤) وأخذ عن كل منهم أدبا وفائدة .

ويرد عنه أنه قال : « الدنيا مزبلة ومجمع للكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ، فان الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف عنها ، والمحب لها لا يزول عنها بحال(٥) » .

هكذا كان من حقارة الدنيا لدى همة ذلك الشـــهم أن شبهها بالمزبلة وشبه أهلها بأقل من الكلاب ، وعلل ذلك بأن الكلب حين يأخذ حاجته من المزبلة ينصرف عنها ، أما أهل الدنيا فقد عكفوا دائما على جمع أسبابها ولا يرجعون أبدا عن محبتها وجمعها .

وهـــذه علامة على انقطاعه عن الدنيا وأخواتها ، واعراضـــه عن أصحابها . والانقطاع عن الدنيا مجال طيب ، وروضة ناضرة .

---

(١) سبق الاشـــارة اليه .
(٢) سبق الاشـــارة اليه .
(٣) مروان بن معاوية الفزازى : كان واسع الرواية جدا ، وكان ثقة ثبتا حافظا . مات فجأة سنة ثلاث وتسعين ومائة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢١٩) .
(٤) ســـعيد بن يزيد النباجى : كنيته أبو عبد الله . من قدماء المشايخ من أقران ذى النون المصرى ومن أساتذة أحمد بن أبى الحوارى ، يحكى عنه أحمد بن أبى الحوارى وغيره حكايات وأحوالا (أنظر ترجمته فى «نفحات الانس» ص ٩١) .
(٥) ورد فى طبقات الصوفية : « والمحب لا يزايلها بحال » (أنظر ص ١٠٢) .

وقد طلب العلم فى البداية ، وبلغ درجة الامامة ، ثم حمل كتبه والقى بها فى البحر وقال : « نعم الدليل أنت ، وأما الاشـــتغال بالدليل بعد الوصول محال » ، لأن الدليل انما يكون طالما كان المريد فى الطريق ، فاذا لاحت الحضرة فما قيمة السدة والطريق ؟

وقد قال المشايخ انما يكون هذا فى السر ، ومن قال فى هذا الطريق : « وصلت ، فقد فصل ، لأن الوصـــول تخلف ، فالشغل شغل ، والفراغ فراغ ، والوصول وصول .

والنسبة تكون فى الشغل والفراغ لأنهما صفتان للعبد ، أما الوصل فهو عناية الحق وارادته الأزلية لخير العبد ، وهذا لا يتأتى بشغل العبد أو فراغه ، فلا أصول لوصـــله ، ولا تجوز عليه ـــ سبحانه وتعالى ـــ الملازمة والقرب والمجاورة ، ووصلة كرامة للعبد ، وهجرة اهانة له ، ولا يجوز على صفاته التغير .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : من المحتمل أن يكون مراد ذلك الشيخ الكبير فى لغظ الوصول : الوصول الى طريق الحق ، اذ أن طريق الحق ليس فى الكتب ليعبر عنه ، لأنه حين يتضح الطريق تنقطع العبارات ، فالعبارات تكون لها القوة فى غياب المقصود ، فاذا حصلت المشاهدة تلاشت العبارات . واذا كانت الألسنة كليلة فى صحة المعرفة ، فمن الأولى أن تضيع (المعرفة) من عبارات الكتب .

وقد فعل غيره من المشايخ عين هذا ، مثل شيخ المشايخ أبى سعيد فضل الله بن محمد الميهنى وغيره ، حين ألقوا بكتبهم فى البحر(١) . وقد قلد فريق من المترسمين الأحرار فى ذلك ، لكسلهم وجهلهم . ويبدو أن أولئك الأحـــرار لم يكونـــوا يريدون بذلك غـــير انقطاع العلائق ، وترك الالتفات ، وفراغ القلب مما دون الحق . وهذا لا يصح الا من سكر الابتداء ، وحرارة الصبا ، لأن المتمكن لا يحجبه الكونان حتى تحجبه قطعة ورق ، فاذا ما انقطع المقلب عن العلائق فما قيمة قطعة ورق .

وأما من مراده بغسل الكتب نفى العبارات عن تحقيق المعنى ـــ كما

---

(١) ورد فى أسرار التوحيد أن الشيخ أبا سعيد **عندما** تحول عن دراسة علوم الدين واعتنق الصـــوفية جمع كتبه ومذكراته ودفنها وشـــيد فوقها دكانا وزرع غصنا امتدت فروعه ونما فى وقت قصير وصار شجرة كبيرة . واعتاد أهل ميهنة عند ولادة **الاطفال** وغسل الموتى أن يستعملوا بعض أغصان هذه الشجرة أملا فى الحصول على البركة .
(أنظر « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٦١) .

ذكرنا — فالأولى أن تنتفى العبارات من اللسان ، لأن مافى الكتاب عبارة مكتوبة ، وما على اللسان عبارة جارية ، وليست عبارة أولى من عبارة .

ويخيل لى أن أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله ، لم يجد مستمعا فى غلبة حاله ، فشرح حاله على الورق ، ولما اجتمع له من ذلك شىء كثير ولم يجده جديرا بالنشر ، ألقى به فى الماء وقال : « نعم الدليل أنت » ، أما وقد تحقق مرادى فمن المحال أن أنشغل عنه بك .

ويحتمل أيضا أن يكون قد اجتمعت لديه كتب كثيرة ، وكانت تمنعه عن الأوراد والمعاملات وتشغله ، فأزال الشغل من أمامه ، وطلب فراغ القلب للمعنى ، وقال بترك العبارات .

● **ومنهم** قائد الفتيان وشمس خراسان : « **أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى(١)** » رضى الله عنه . كان مخصوصا بعلو الحال وشرف الوقت . وكان فى زمانه مقتدى القوم ، ومرضيا لدى الخاص والعام ، سلك طريق الملامة ، وارتدى ثياب الجنود .

وكان لفاطمة زوجه شأن عظيم فى الطريقة ، فقد كانت ابنة أمير بلخ ، ولما رغبت فى التوبة بعثت رسولا الى أحمد تقول : اطلبنى من أبى ، فلم يجبها ، فأرسلت اليه تقول : يا أحمد ! لم أكن أظنك ذلك الرجل الذى يقطع طريق الحق ، فكن دليلا هاديا لا قاطعا . فأرسل أحمد رجلا وطلبها من أبيها ، فأعطاها لأحمد بن خضرويه بحكم التبرك . وقالت فاطمة بترك الانشغال بالدنيا ، واستراحت بحكم العزلة مع أحمد ، الى أن قصد زيارة السيد بايزيد فرافقته فاطمة . ولما أقبلت على بايزيد رفعت البرقع عن وجهها ، وكانت تتحدث معه بجرأة ، فتعجب أحمد من ذلك ، واستولت الغيرة على قلبه ، فقال : يا فاطمة ! أى جرأة تلك التى كانت لك مع بايزيد ؟ فقالت : لأنك أنت محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى ، والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج الى .

وكانت دائما جريئة مع بايزيد ، حتى وقعت عينه يوما على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء ، فقال : يا فاطمة ! لم الخضاب بالحناء ؟ قالت : يا بايزيد لقد كنت أنبسط معك طالما لم تكن رأيت يدى وحنائى ، والآن وقد وقعت عينك على يدى فقد صارت صحبتنا حراما .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

ورجعا من عند بايزيد ، وأقاما فى نيسابور(١) . وكانت علاقة أهل نيسابور ومشايخها بأحمد طيبة .

وعندما جاء يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله من الرى(٢) الى نيسابور ، وقصد بلخ ، أراد أحمد أن يدعوه ، فشاور فاطمة فيما ينبغى لدعوة يحيى ، فقالت : يلزم كثير من البقر والخراف والحوائج والتوابل ، وكثير من الشمع والعطر ، ومع كل هذا يلزم أيضا ذبح عشرين حمارا . فسألها أحمد : ما معنى ذبح الحمير ؟ قالت : حين يكون كريم ضيفا ببيت كريم أما يجب أن تعرف كلاب الحى ذلك ؟

وقال أبو يزيد رضى الله عنه :« من أراد أن ينظر الى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظر الى فاطمة » .

ويقول أبو حفص الحداد رحمة الله : « لولا أحمد بن خضرويه ماظهرت الفتوة » .

وكان له كلام عال ، وأنفاس مهذبة ، وتصانيف مشهورة فى كل فن من فنون المعاملات والأدب ، ونكت لا يحة فى الحقائق .

ويرد عنه أنه قال : « الطريق واضح ، والحق لا يح ، والداعى قد أسمع ، فما التحير بعدها الا من العمى(٣) » .

أى أن البحث عن الطريق خطأ ، لأن طريق الحق واضح كالشمس الساطعة ، فابحث عن نفسك أين أنت ، فان وجدتها فاسلك الطريق ، لأن الحق أظهر من أن يجىء تحت طلب الطالب .

---

(١) « نيسابور » : عاصمة اقليم خراسان . وهى بلد واسع كثير الكور ، فمن كور نيسابور الطبسين وقوهستان ونسا وابيورد وأبرشهر وجام وباخرز وطوس . ومن نيسابور الى مرو عشر مراحل ، والى هراة عشر مراحل والى جرجان عشر مراحل والى الدمغان عشر مراحل والى سرخس ست مراحل (البلدان ص ٤٥) .

(٢) « الرى » : على جادة طريق خراسان ، واسم مدينة الرى « المحمدية » وسميت بهذا الاسم لأن المهدى نزلها فى خلافة المنصور لما توجه الى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى ، وبناها وبها ولد الرشيد لأن المهدى أقام بها عدة سنين . افتتح الرى قرضه بن كعب الأنصارى فى خلافة عمر ابن الخطاب سنة ثلاث وعشرين (البلدان ص ٤٢) وورد فى معجم البلدان أن الذى فتحها زيدا الخيل الطائى فى عهد عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٩٢) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٠٥) .

ويرد عنه أنه قال : « استر عز فقرك » . أى لا تقل لأحد اننى فقير حتى لا ينكشف سرك ، لأنه كرامة عظيمة من الله تعالى .

ويرد عنه أيضا أنه قال : دعا فقير فى شهر رمضان واحدا من الأغنياء ، ولم يكن فى منزله غير رغيف يابس ، فلمـــا عاد الغنى أرسل اليه صرة ذهب ، فلم يقبلها ، وقال : هـــذا جزاء من يكشف لك سره ، أو يعتبر الأغنياء أهلا لعز الفقر .

وهذا لصحة صدق فقرة ، والله أعلم .

● **ومنهم امام المتوكلين ونخبة أهل زمانه : « أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى(١) »** رضى الله عنه . كان من أجلة مشايخ خراسان ومن سادتهم ، ومشهورا بالفتوة والزهد والورع ، وله كرامات كثيرة وعجائب لا تحصى رآها فى البادية .

وكان من كبراء سياحى المتصوفة ، قطع بوادى كثيرة على التجرد ، وكانت وفاته فى بادية البصرة . وبعد بضع سنوات جاء جماعة فوجدوه واقفا على قدميه ووجهه الى القبلة ، وقد أسلم الروح ، ويبس . وقد وضع ركوة أمامه وأمســـك بيده عصـــا . ولم يحم حوله أى ســـبع من السباع(٢) .

يرد عنه أنه قال : « الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل(٣) » لأن التصرف فى هذه الثلاثة شغل . وقد بقى أهل العالم جميعا فى بلاء هذه الثلاثة لأنهم يتكلفون ، وهذا من وجهة المعاملة ، ولكن من وجهة التحقيق ، فغذاء الفقير الوجد ، ولباســـه التقوى ، ومسكنه الغيب ، لأن الله عز من قائل قال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا(٤) » . وقال تعالى أيضا : « وريشا ولباس التقوى(٥) » . وقال الرسول عليه السلام : « الفقر وطن الغيب(٦) » . فحين يكون

---

(١) يقال له : عسكر بن محمد حصين . تفقه على مذهب الامام الشافعى ، وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل . صحب أبا حاتم العطار البصرى وحاتما الأصـم البلخى . توفى سنة خمس وأربعين ومائتين (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٤٦ ، الرسالة جـ ١ ص ٩٧ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء جـ ١ ص ٣٩٨ ، نفحات الانس ص ٥١) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية والرسالة عن وفاته أنه نهشته السباع .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية بنصه (أنظر ص ١٤٩) .
(٤) سورة « الجن » آية ١٦ .
(٥) سورة « الأعراف » آية ٢٦ .
(٦) لم أجد له سندا .

غذاؤه ومشربه من شراب القربى ، ولباسه التقوى والمجاهدة ، ووطنه الغيب وانتظار الوصل : يكون طريق الفقر واضحا ومعاملاته لائحة ، وهذه درجة الكمال .

● **ومنهم** لسان المحبة والوفاء ، وزين الطريقة والولاء : **« أبو زكريا بن معاذ الرازى(١) »** رضى الله عنه ، كان عالى الحـــال ، حسن الســـيرة ، وكانت له فى حقيقة الرجاء فى الحق تعالى قدم ثابتة : حتى ليقول عنه الحصرى رحمه الله : كان لله تعالى رجلان يسميان يحيى ، أحدهما من الأنبياء والثانى من الأولياء ، فأما يحيى بن **زكريا** عليه السلام فقد سلك طريق الخوف بحيث يئس كل مدعى الخوف من فلاحهم ، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طريق الرجاء على نحو مرغ أيدى أدعياء الرجاء فى التراب . قالوا : حال يحيى بن زكريا عليه السلام معروف ، فكيف كان حال يحيى هذا ؟ قال : بلغنى أنه لم تكن له جاهلية ، ولم تجر عليه كبيرة ، وكان جادا فى المعاملة والرياضة ، فلم يكن لأحد من الأصحاب طاقته .

قيل له : أيها الشيخ ، مقامك مقام الرجاء ، ومعاملتك معاملة الخائفين . قال : أعلم يابنى أن ترك العبودية ضلالة ، وأن الخوف والرجا قائمتا الايمان ، فمحال أن يقع أحد فى الضلالة بممارسة ركن من أركان الايمان . فالخائف يعبد خشـــية القطيعة ، والراجى أملا فى الوصل ، ومالم توجد العبادة لا يصح الخوف ولا الرجاء ، فاذا حصلت العبادة يكون الخوف والرجا جملة عبادة ، وحيثما تجب العبادة لا تفيد العبارة .

وله فى هذه المسائل تصانيف كثيرة ، ونكت واشارات بديعة . وكان أول من اعتلى المنبر بعد الخلفاء الراشـــدين من مشايخ هذه الطريقة . وأنا أحب كلامه جدا لأنه رقيق فى الطبع ، ولذيذ فى السمع ، ودقيق فى الأصل ، ومفيد فى العبارة .

يرد عنه أنه قال : « الدنيا دار الأشـــغال ، والآخرة دار الأهوال . ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال ، حتى يستقر به القرار اما الى الجنة وأما الى النار(٢) » . بخ بخ لذلك القلب الذى نجا من الاشتغال بالدنيا ، وأمن أهوال الآخرة ، وقطع همته عنهما ، واتصل بالحق .

وكان مذهبه : تفضيل الغنى على الفقر . وحين تجمعت عليه فى الرى ديون كثيرة قصد خراسان ، فلما بلغ بلخ احتجزه الناس فيها ، فتكلم هناك مدة ، ونصحهم ووعظهم . وقدم له الناس مائة ألف درهم فضة ، فلما

---

(١) سبق الاشـــارة اليه .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٠) .

رجع ليعود الى الرى قطع عليه اللصوص الطريق ، وأخذوا منه المال كله ، فجاء الى نيسابور مجردا ، وكانت وفاته بها .

وكان عزيزا فى كل الأحوال ، وحيدا بين الخلق .

● **ومنهم** شيخ مشايخ خراسان ، ونادرة كل الدنيا والزمان : « **أبوحفص عمر بن سالم النيسابورى(١) ، الحداد** » رضى الله عنه . كان من كبار القوم وسادتهم ، وممدوح كل المشايخ ، صحب أبا عبد الله الأبيوردى ، ورافق أحمد بن خضروية ، وجاءه شاه بن شجاع من كرمان(٢) للزيارة ، وذهب (أبو حفص) الى بغداد لزيارة المشايخ .

ولم يكن له نصيب من العربية ، فلما جاء بغداد قال المريدون لبعضهم البعض : انه لشين أن يلزم لشيخ شيوخ خراسان ترجمان ليترجم كلامه . فلما ورد مسجد الشونيزيه ، اجتمع حوله المشايخ جملة ، وكان معهم الجنيد ، فكان يتحدث اليهم بعربية فصيحة بحيث حاروا جميعا من فصاحته ، وسألوه : ما الفتوة ؟ قال فلتبدأوا بواحد منكم ، ولتتكلموا ! فقال الجنيد : « الفتوة عندى ترك الرؤيـــة واسقاط النســـبة » . فقال أبو حفص : « ما أحسن ما قال الشيخ ! ولكن الفتوة عندى أداء الانصاف وترك مطالبة الانتصاف(٣) » ، قال الجنيد رحمه الله : « قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته » ، فى الفتوة .

ويقال انه فى بداية حاله كان قد فتن بجارية ، فقيل له ان بمدينة نيسابور يهوديا ساحرا ، ولديه احتيال أمرك هذا . فذهب اليه أبو حفص ، وشرح له حاله ، فقال له اليهودى : ينبغى لك أن تكف عن الصلاة أربعين يوما وليلة ، والا تحوم حول الحق وأعمال الخير والنية الحسنة ، لأحتال لك ، ويتحقق مرادك ، ففعل . ولما انقضت الأربعون يوما ، صنع له اليهودى الطلسم ، ولم يتحقق المراد . فقال اليهودى : لا محالة أنه قد مر عليك شىء ، ففكر جيدا جدا . فقال أبو حفص : أنا لا أعلم أنه قد جرى على ظاهرى وباطنى شىء من أعمال الخير ، ولاأذكر الا انى كنت قادما فى الطريق فأبعدت حجرا بقدمى حتى لا ترتطم به قدم انسان . فقال له اليهودى : لا تغضب ذلك الاله الذى أضعت أمره أربعين يوما ، ولم يضع هذا المقدار من تعبك ! فتاب ، وأسلم اليهودى .

---

(١) سبق الاشـــارة اليه .

(٢) « كرمان » : ولاية مشهورة ، وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجســتان وخراســان . فتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٦٣) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية . (أنظر ص ١١٨) .

وظل يعمل حدادا حتى صار الى باورد ، ورأى أبا عبد الله الباوردى ، وعاهده على أن يكون مريدا له . ولما عاد الى نيسابور كان هناك رجل خفيف يقرأ القرآن يوما بالسوق ، وكان قد جلس على باب دكانه ، فغلبه السماع وغاب عن نفسه ، وأدخل يده فى النار وأخرج حديدة محماة دون ملفط ، فلما رآه تلاميذه صاحوا قائلين : يا أستاذ ، يدك ! يدك ! وزايلهم صوابهم ، فلما عاد أبو حفص الى حال صحوه ، كف يده عن الكسب ، ولم يأت أيضا الى الدكان .

ويرد عنه أنه قال : « تركت العمل ثم رجعت اليه ، ثم تركنى العمل فلم أرجع اليه(١) ، لأن كل شىء يكون تركه بتكلف العبد وكسبه ، تركه أولى من فعله فى صحة هذ االأصل ، اذ أن جملة الاكتساب محل الآفة ، والقيمة للمعنى الذى يأتى من الغيب بـــلا تكلف ، وفى كل محل يحصل الاختيار ويتصل به العبد ، تزول عنه لطيفة الحقيقة .

اذن ، فالترك والأخذ لا يصحان أبدا على العبد ، لأن العطاء والزوال من الله تعالى وتقدس ، وبتقديره ، فاذا جاء العطاء من الحق ، جاء الأخذ ، واذا جاء الزوال ، جـــاء الترك ، واذا كان هكذا ، فالقيمة له لأن الأخذ والترك به ، لا أن العبد جالب ودافع لهما بالاجتهاد .

واذا قال المريد الف سنة بقبول الحق ، فانه لا يكون كما يقول الحق بقبوله لمحة ، لأن الاقبال الذى لا يزال ، منعقد فى القبول الأزلى ، والسرور السرمدى فى السعادة السابقة ، ولا سبيل للعبد الى الخلاص الا بخلوص عناية الحق . والعبد الكثير العزة هو الذى يدفع المسبب الأسباب عن حاله ، والله أعلم .

● **ومنهم** قدوة أهل الملامة ، والراضى بالبلاء من السلامة : « **أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصـــار(٢)** » رضى الله عنه ، كان من قدماء المشايخ ومتورعيهم ، وكان على أعلى درجة فى الفقه والعلم ، وذهب مذهب الثورى .

وكان (فى الطريقة) مريد أبى تراب النخشبى ، ومن أتباع على النصرابادى وله رموز رقيقة فى المعاملات ، وكلام دقيق فى المجاهدات .

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٨) ..

(٢) « أبو صالح حمدون » : شـــيخ أهل الملامة فى نيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة . توفى سنة احدى وسبعين ومائتين ، ودفن فى مقبرة الحيرة . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقـــات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٣١ ، نفحات الانس ص٦٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

ويروى أنه لما عظم شأنه فى العلم ، جاءه أئمة وكبار نيسابور ، وقالوا له : ينبغى اعتلاء المنبر وعظة الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب . قال : لا يجوز لى الكلام . قالوا : لماذا؟ قال : لأن قلبى متعلق بالدنيا وجاهها ، فلا يفيد كلامى ولا يؤثر فى القلوب ، والكلام الذى لا يؤثر فى القلوب يكون استخفافا بالعلم أو استهزاء بالشريعة . والكلام مسلم به لمن يكون فى صمته خلل الدين ، فاذا تكلم ارتفع الخلل .

وسئل : ما بال كلام السلف أنفع للقلوب من كلامنا ؟ قال : « لأنهم تكلموا لعز الاسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق »(١) ، فمن تكلم وفق مراد الحق تعالى وينطق بالحق ، يكون فى ذلك الكلام قهر وسطوة تؤثر على الأسرار ، ومن يتكلم وفق مراد نفسه ، يكون فى كلامه من الهوان والذل مالا يكون للخلق منه فائدة ، وصمته خير من كلامه ، فخير للمرء أن يتجنب الكلام .

وأنا أعرف أن ذلك العظيم قد دفعهم عن نفسه تركا للجاه والشهرة .

● **ومنهم** الشيخ ذوالوقار ، والمشرف على الخواطر والأسرار : « **أبوالسرى منصور بن عمار** »(٢) رضى الله عنه ، كان من عظماء المشايخ فى الدرجة ، ومن كبرائهم فى المرتبة ، محبوبا من العراقيين ، ومقبولا من الخرسانيين . وكان أحسن الكلام فى الموعظة كلامه ، والطف البيان بيانه ، وكان يعظ الناس بفنون العلم والروايات والدرايات والأحكام والمعاملات . وبعض المتصوفة يبالغون فى أمره مبالغة تفوق الحد .

يرد عنه أنه قال : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع »(٣) .

وفى هذا عبرة هى : أن الله تعالى أودع فى كل عضو خلقه معنى متجانسا ، كما خلق الأيدى محل البطش ، والأرجل محل المشى ، والأعين محل النظر ، والآذان محل السمع ، واللسان محل النطق ، وهى لا تختلف كثيرا فى ظهور هذه المعانى وخفائها . وأما القلوب ، فقد أودع فى كل منها معنى

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ١٢٥) .
(٢) أصله من مرو ، من قرية « داندانقان » وقيل من « ابيورد » وقيل من « بوشنج » . أقام بالبصرة ، وكان من أحسن الناس كلاما فى الموعظة ، وأسند الحديث (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٣٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٣٥ ، نفحات الانس ص ٦١) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية على هذا النحو : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا » (أنظر ص ١٣٥) .

مختلفا ، وارادة مغايرة ، وهوى مختلفا : فجعل قلبا محلا للمعرفة ، وآخر موضعا للضلالة ، وثالثا موضعا للقناعة ، وهكذا . ولا شىء قط يكون فيه اعجوبة الخالق أظهر منها فى القلوب .

ويرد عنه أيضا أنه قال : « الناس رجلان : عارف بنفسه فشغله فى المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه فشغله بخدمته وعبادته ومرضاته »(١) ، فالعبادة رياضة للعارفين بأنفسهم ، ورياسة للعارفين بالحق ، فهذا يعبد لينال درجة ، وذاك يعبد وقد نال كل شىء ، وشتان ما بين المنزلتين : عبد قائم بالمجاهدة ، وآخر قائم بالمشاهدة .

ويرد عنه أنه قال : « الناس رجلان : مفتقر الى الله فهو فى أعلى الدرجات على لسان الشريعة ، وآخر لا يرى الافتقار لما علم من فراغ الله من الخلق والرزق والأجل والحياة والسعادة والشقاوة ، فهو فى افتقاره اليه وأستغنائه به »(٢) ، فذاك الفريق فى افتقاره ، محجوب عن رؤية التقدير برؤية الافتقار ، وهذا الفريق فى تركه لرؤية افتقاره ، مكاشف ومستغن به ، فأحدهما مع النعمة ، والآخر مع المنعم ، فمن يكن مع النعمة فى رؤية النعمة فهو فقير وان يكن غنيا ، ومن يكن مع المنعم ومشاهدته فهو غنى وأن يكن فقيرا . والله أعلم .

● **ومنهم** ممدوح الأولياء ، وقدوة أهل الرضا : « **أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكى**(٣) » رضى الله عنه ، كان من أعيان القوم وساداتهم ، وعالما بعلوم الشريعة والأصول والفروع والمعاملات . عمر طويلا ، وصحب القدماء ، وأدرك أتباع التابعين . وكان من أقران بشر والسرى ، ومريد الحارث المحاسبى ، وكان قد رأى الفضيل وصحبه .

وكان ممدوحا بكل الألسن ، وله أقوال عالية ، ولطائف سامية فى فنون علم هؤلاء القوم .

يرد عنه — رضى الله عنه — أنه قال : « أنفع الفقر ما كنت به متجملا ، وبه راضيا(٤) » . أى أن جمال الخلق جميعا فى اثبات الأسباب ، وجمال الفقير فى نفى الأسباب واثبات المسبب ، والرجوع اليه ، والرضا بأحكامه ،

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٣٦) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية مع اختلاف يسير فى ترتيب الكلمات (أنظر ص ١٣٥) .
(٣) من الطبقة الأولى من الصوفية ، ومن أساتذة أحمد بن أبى الحوارى . وكان أبو سليمان الدارانى يسميه : جاسوس القلب لحدة فراسته (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١ ، نفحات الانس ص ٦٢) .
(٤) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٣٨) .

لأن الفقر فقد السبب ، والغنى وجود السبب . وفاقد السبب يكون مع الحق ، وصاحب السبب يكون مع نفسه . فصار السبب محل الحجاب ، وترك الأسباب محل الكشف ، وجمال الدنيا والآخرة فى الكشف والرضا ، وسخط كل العالم فى الحجاب .

وهذا بيان واضح فى تفضيل الفقر ، والله أعلم .

● **ومنهم** سالك طريق الورع والتقوى ، وهو فى الأمة بزهد يحيى : « **أبو محمد عبد الله بن خبيق(١)** » رضى الله عنه ، كان من زهاد القوم ومتورعيهم فى كل الأحوال ، وله روايات عالية فى الحديث .

وكان على مذهب الثورى فى الفقه والمعاملة وحقيقتها ، ورأى أصحابه وصحبهم ، وله فى معاملات هذه الطريقة أقوال لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون حيا فى حياته ، فلا يسكن الطمع فى قلبه(٢) » ليتحرر من الكل ، لأن الطماع ميت فى قيد طمعه ، فالطمع فى القلب كالطبع على القلب ، والقلب المختوم ميت لا محالة ! بخ بخ للقلب الذى يموت عما سوى الحق ويحيا بالحق ، لأن الله تعالى خلق الذل ، والطمع ذل . وخلق الذكر ، والذكر عز .

كما قال أيضا : « خلق الله تعالى القلوب مساكن الذكر فصارت مساكن الشهوات ، ولا يمحو الشهوات الا خوف مزعج أو شوق مقلق(٣) » ، فالخوف والشوق قائمتا الايمان ، وحين يكون القلب محل الايمان يكون قرينه القناعة والذكر ، لا الطمع والغفلة . فقلب المؤمن لا يكون طماعا ولا متابعا للشهوات ، لأن الطمع والشهوة نتيجة الوحشة ، والمستوحش لا علم له بالله ولا بالايمان ، لأن الايمان أنس بالحق ووحشة من غيره ، كما قيل : « الطماع مستوحش منه كل واحد » . والله أعلم .

● **ومنهم** شيخ المشايخ فى الطريقة ، وأمام الأئمة فى الشريعة ، « **أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريرى(٤)** » رضى الله عنه ، كان مقبولا لدى

---

(١) عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكى — وفى طبقات الشعرانى : عبد الله ابن حنيف — من زهاد الصوفية . أصله من الكوفة ، ولكنه من الناقلة الى أنطاكية . وطريقته فى التصوف : طريقة النورى (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٤١ ، الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣ ، نفحات الانس ص ٦٦) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية : « من أراد أن يعيش غنيا فى حياته **فلا** يسكن الطمع فى قلبه » (أنظر ص ١٤٤) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٤٤) .

(٤) سبق الاشارة اليه

أهل الظاهر وأرباب القلوب ، وكاملا فى فنون العلم ، ومفتيا واماما لأصحاب أبى ثور فى الأصول والفروع والوصول والمعاملات . وله أقوال عالية وأحوال كاملة ، فكل أهل الطريقة متفقون على امامته ، ولا مجال لاعتراض واعراض فيه لأى مدع أو متصرف .

وكان ابن أخت السرى السقطى ومريده . سئل السرى يوما : هل يكون لمريد درجة أعلى من درجة الشيخ ؟ قال : نعم ، وبرهان هذا ظاهر ، فللجنيد درجة فوق درجتى . وكان هذا القول من ذلك الشيخ العظيم تواضعا ، وما قاله قاله بالبصيرة ، ولا رؤية لأحد لما فوقه ، فالرؤية تتعلق بما تحت ، وقوله دليل واضح ، فقد رأى الجنيد فوق درجته ، وهو وان رآه — حين رآه — فوق، فهو تحت .

ومشهور أنه فى حال حياة السرى قال المريدون للجنيد : فليكلمنا الشيخ ليكون فى ذلك راحة لقلوبنا ، فلم يجبهم ، وقال : ما دام شيخى موجودا فأنا لا أتكلم . الى أن كان نائما ذات ليلة فرأى النبى عليه السلام فى النوم يقول : ياجنيد ! كلم الخلق ، لأن كلامك سبب راحة قلوب الخلق ، وقد صير الله تعالى كلامك سبب نجاة عالم . فلما استيقظ وقر فى قلبه أن درجته جاوزت درجة السرى ، وقال لقد جاءنى من الرسول صلوات الله عليه الأمر بالدعوة . ولما كان الصباح ، أرسل السرى مريدا وقال له : حينما يسلم الجنيد من صلاته ، قل له : انك لم تتحدث الى المريدين بناء على قولهم ، ورددت شفاعة شيوخ بغداد ، وأرسلت لك رسالة أيضا فلم تتكلم . والآن قد أمرك الرسول عليه السلام فأطع أمره ! قال الجنيد رضى الله عنه : فذهب ذلك الخاطر من رأسى ، وأدركت أن السرى فى كل الأحوال مطلع على ظاهرى وباطنى ، وأن درجته فوق درجتى ، لأنه مشرف على أسرارى ، وأنا لا علم لى بأحواله . وذهبت اليه وطلبت منه المغفرة ، وسألته : كيف عرفت أنى رأيت النبى عليه السلام فى النوم ؟ قال : قد رأيت الله تعالى وتقدس فى النوم ، وقد قال لى : انى ارسلت الرسول — عليه السلام — ليقول للجنيد : عظ الخلق ، ليتحقق منه مراد أهل بغداد .

وفى هذه الحكاية دليل واضح على أن الشيوخ — بأى صفة يكونون — مشرفون على أحوال مريديهم .

وللجنيد كلام عال ، ورموز لطيفة .

يرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « كلام الأنبياء نبأ عن الحضور ، وكلام الصديقين اشارة عن المشاهدات »(١) ، فصحة الخبر من النظر ، وصحة المشاهدة من الفكر . ولا يمكن الاخبار الا عن عين ، والاشارة لا تكون عن عين ، فكمال ونهاية الصديقين ، بداية للأنبياء . والفرق واضح بين الولى والنبى وتفضيل الأنبياء على الأولياء ، خلافا لما ينزع اليه فريقان من الملاحدة ممن يؤخرون الأنبياء فى الفضل ويقدمون الأولياء .

ويرد عنه أنه قال : تمنيت وقتا ما أن أرى ابليس — عليه اللعنة — وذات يوم كنت واقفا بباب المسجد ، فاذا بشيخ يقبل من بعيد متجها الى ، فلما رأيته أحسست وحشة فى قلبى ، فلما اقترب منى قلت : من أنت أيها الشيخ ، اذ لا طاقة لعينى برؤية وجهك من الوحشة ، ولا طاقة لقلبى بالتفكير فيك من الهيبة ؟ قال : أنا الذى تتمنى مشاهدتى . قلت : يا ملعون ! ما منعك أن تسجد لآدم ؟ قال : يا جنيد ! كيف تصور انى أسجد لغيره ؟ قال الجنيد : فتحيرت فى كلامه ، فنوديت فى سرى أن : « قل له : كذبت ، ولو كنت عبدا لما خرجت عن أمره ونهيه . فسمع النداء من قلبى ، فصاح وقال : أحرقتنى بالله ! وغاب » .

وفى هذه الحكاية دليل على حفظه وعصمته ، لأن الله سبحانه وتعالى يحفظ أولياءه فى كل الأحوال من كيد الشيطان .

ويرد عنه أن مريدا من مريديه مرض قلبه يوما وظن انه بلغ درجة ، فأعرض عنه ، وجاء ذات يوم لتجربته . وكان (الجنيد) بحكم اشرافه مطلعا على مراده . وسأله (المريد) سؤالا ، فقال له الجنيد : أتريد جوابا عباريا أم معنويا ؟ قال : كلاهما : فقال الجنيد : ان أردت العبارى ، فلو أنك جربت نفسك لما احتجت الى تجربتى ولما جئت الى هنا للتجربة . وان أردت المعنوى ، فقد عزلتك من ولايتك . فأسود وجه المريد فى الحال وصاح : لقد ضاع من قلبى راحة اليقين ! وانشغل بالاستغفار ، وكف عن الفضول . وعندئذ قال له الجنيد : انك لم تعرف أن أولياء الله تعالى هم أولياء الأسرار ، ولا طاقة لك بتجربتهم . ونفخ عليه ، فعاد الى مراده ، وتاب عن التصرف فى المشايخ رحمهم الله . والله أعلم .

● **ومنهم** ملك أهل التصوف ، والمبرأ من آفة التكلف : « **أبو الحسن أحمد ابن محمد النورى(٢)** » رضى الله عنه ، كان له أحسن المعاملات وأبين

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « كلام الأنبياء نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين اشارات عن مشاهدات » (أنظر ص ١٦٢) .
(٢) سبق الاشارة اليه

الكلمات ، وأظرف المجاهدات . وله مذهب خاص فى التصوف ، وتوجد فرقة من المتصوفة يقال لها « النورية » يقتدون به ، ويتولونه .

وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة ، منهم فرقتان مردودتان ، وعشر مقبولة .

وأولى الفرق المقبولة : المحاسبية ، والثانية : القصارية ، والثالثة : الطيفورية ، والرابعة : الجنيدية ، والخامسة النورية : والسادسة : السهلية ، والسابعة : الحكيمية ، والثامنة : الخرازية ، والتاسعة : الخفيفية ، والعاشرة السيارية . وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة والجماعة .

أما الفرقتان المردودتان ، فواحدة منهما : الحلولية المنسوبة الى الحلول والامتزاج ، واليهم ينتمى السالمية والمشبهة . والأخرى : الحلاجيون المردودون لتركهم الشريعة والحادهم ، واليهم ينتمى الاباحيون والفارسيون . وسوف أورد فى هذا الكتاب — فى موضعه — بابا فى الفرق بين الفرق ، وأبين اختلاف تلك الفرق العشر ، واختلاف هاتين الفرقتين ، لتتم الفائدة ان شاء الله تعالى .

أما طريق (النورى) فكان محمودا فى ترك المداهنة ، ورفع المسامحة ، ودوام المجاهدة .

ويرد عنه أنه دخل على الجنيد ورآه جالسا فى الصدر ، فقال له : « يا أبا القاسم ! غششتهم فصدروك ، ونصحتهم فرمونى بالحجارة » . لأن المداهنة توافق الهوى ، والنصيحة تخالفه ، والانسان يعادى من يخالف هواه ، ويحب من يوافقه .

وكان أبو الحسن النورى رفيقا للجنيد ومريدا للسرى ، وقد رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وأدرك صحبة أحمد بن أبى الحوارى .

وله فى طريقة التصوف اشارات لطيفة وأقاويل جميلة ، وفى فنون العلم نكت عالية .

يرد عنه أنه قال : « الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره جمع به »(١) . أى أن كل من همته مجتمعة بالحق تعالى فهو مفترق عن غيره ، وكل من هو مفترق عن غيره مجتمع به ، فجمع الهمة بالحق تعالى ، افتراق عن التفكير فى المخلوقات ، فاذا صح الأعراض عن المكونات ، صح

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٦٦) .

الاقبال بالحق ، واذا صح الاقبال بالحق ، صح الاعراض عن الخلق ، لأن الضدين لا يجتمعان .

وورد فى الحكايات أن (النورى) فى وقت ما ، ظل يصرخ لمدة ثلاثة أيام وليال فى بيته ، واقفا فى مكان واحد ! فأخبروا الجنيد ، فنهض وذهب اليه ، وقال : يا أبا الحسين ! اذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه ، فأخبرنى لأصرخ انا أيضا ، وان كنت تعرف أنه لا يفيد ، فارض بالتسليم ليسعد قلبك . فكف النورى عن الصراخ وقال : ما أحسنك معلما لنا يا أبا القاسم !

ويرد عنه أنه قال : « أعز الأشياء فى زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة »(١) .

أى أن العلم والمعرفة كلاهما عزيزان فى هذا الزمان ، لأن العلم بلا عمل لا يكون علما ، والمعرفة بلا حقيقة لا تكون معرفة . وقد دل الشيخ بهذا الكلام على زمانه ، ولئن كان ذلك عزيزا فى كل الأوقات ، فهو اليوم أعز . وكل من ينشغل بطلب عالم وعارف تتشوش أوقاته ، ولا يجد (طلبته) ، فيجب أن ينشغل المرء بنفسه ليرى كل العالم عالما ، وأن يرجع عن نفسه الى الله ليرى كل العالم عارفا ، لأن العالم والعارف عزيزان ، والعزيز صعب المنال ، والشىء الذى يصعب ادراكه ، طلبه اضاعة للعمر . فيجب طلب العلم والمعرفة من نفسك ، والعمل والحقيقة من ذاتك .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من عقل الأشياء بالله فرجوعه فى كل شىء الى الله »(٢) ، لأن الاقامة ملك ، والملك بالمالك ، فالاستراحة تكون فى رؤية المكون لا فى رؤية الكون ، لأن (العبد) اذا اعتبر الأشياء علة للأفعال يتألم دائما ، ورجوعه الى كل شىء يكون منه شركا ، لأنه يرى أسبابا للفعل ، والسبب لا يقوم بنفسه ، بل هو قائم بالمسبب ، فاذا رجع الى مسبب الأسباب ، نجا من الانشغال .

● **ومنهم** مقدم السلف ، والخلف من السلف :

« **أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى** »(٣) رضى الله عنه ، كان من قدماء الصوفية وأجلتهم ، والأوحد فى زمانه ، وقدره رفيع فى كل القلوب .

(٢،١) وردا بنصهما فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٦٩) .

(٣) سعيد بن اسماعيل بن سعيد بن منصور الحيرى النيسابورى . أصله من الرى . كان فى وقته أوحد المشايخ فى سيرته ، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور ، ومات بها سنة ثمان وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص١٧٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٥٥ ، نفحات الانس ص ٨٧) .

وكان قد صحب فى البداية يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه ، ثم كان فى صحبة شاه بن شجاع الكرمانى مدة ، وذهب معه الى نيسابور لزيارة أبى حفص الحداد ، فتوقف عنده ، وقضى عمرا فى صحبته .

ويروى الثقاة عنه أنه قال : كان قلبى دائما يطلب الحقيقة فى حال الطفولة ، وينفر من أهل الظاهر . وكنت أعتقد أن للشريعة ، لا محالة ، سرا غير الظاهر الذى تجرى عليه العامة ، حتى أدركت البلوغ . وكنت يوما بمجلس يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، فأدركت ذلك السر ، وتحقق مقصودى ، فتعلقت بصحبته ، الى أن جاء جماعة من عند شاه بن شجاع وتحدثوا عنه ، فوجدت قلبى مائلا لزيارته . فقصدت كرمان من الرى ، وكنت أطلب صحبة (شاه) فلم يأذن لى ، وقال : ان طبعك ربيب الرجاء ، وقد صحبت يحيى ، وله مقام الرجاء ، والشخص الذى أشرب مشرب الرجاء لا يتأتى منه سلوك الطريقة ، لأن تقلد الرجاء يورث الكسل . فتضرعت اليه كثيرا وبكيت ، وأقمت عشرين يوما على أعتابه حتى أذن لى وقبلنى . ولبثت فى صحبته مدة ، وكان رجلا غيورا ، الى أن خطر له قصد نيسابور لزيارة أبى حفص ، فذهبت معه . وفى اليوم الذى دخلنا فيه على أبى حفص كان شاه يلبس قباء ، فلما رآه أبو حفص نهض على قدميه ، وتقدم اليه وقال : « وجدت فى القباء ما طلبت فى العباء » . وبقيت هناك وقد استولت صحبة أبى حفص على كل همتى ، ومنعتنى حشمة شاه بن شجاع من مداومة خدمته ، ورأى أبو حفص فى تلك الارادة . وكنت أتضرع الى الله أن ييسر لى صحبة أبى حفص دون أن يتأذى منى شاه بن شجاع ، الى أن قصد شاه العودة ، فانتعلت نعلى موافقة له ، وقلبى كله عند أبى حفص ، الى أن قال رضى الله عنه لشاه مباسطا : اترك صحبة هذا الصبى هنا ، لأنى مسرور منه . فالتفت شاه الى وقال : « أجب الشيخ » . ورحل هو ، وبقيت هنالك حتى رأيت ما رأيت من العجائب فى صحبة أبى حفص رضى الله عنه ، وكان له مقام الشفقة .

وقد أجاز الله عز وجل أبا عثمان من ثلاثة مقامات بثلاثة شيوخ ، وهذه الاشارات الثلاثة التى أشار اليها فى نفسه هى : مقام الرجاء بصحبة يحيى ابن معاذ ، ومقام الغيرة بصحبة شاه بن شجاع ، ومقام الشفقة بصحبة أبى حفص .

ويجوز أن يصل المريد الى المنزل بحبس أو بسنة أو بأكثر من هذه الصحبة ، ويصير كل شيخ وصحبة ، سبب كشف مقام له . ولكن الأفضل أن لا يشوب المشايخ بمقامه ولا يستهدف نهاياتهم فى ذلك المقام ، ويقول : كان هذا نصيبى من صحبتهم ، ولكنهم كانوا فوق هذا ، ولم يكن لى منهم

نصيب أكثر من هذا ، ويكون هذا أقرب الى الأدب ، لأنه لا شأن أبدا لبالغى طريق الحق بالمقامات والأحوال .

وكان (أبو عثمان) السبب فى انتشار التصوف فى نيسابور وخراسان . وقد صحب الجنيد ورويما ويوسف بن الحسين ومحمد بن الفضل رحمة الله عليهم . ولم يدرك أى من المشايخ من قلوب شيوخه ذلك الحظ الذى أدركه .

وقد وضع له أهل نيسابور منبرا ليتحدث اليهم بلسان التصوف وله كتب عالية ، وروايات متينة فى فنون علم الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « حق لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يذله بالمعصية »(١) . ويكون تعلق هذا بكسب العبد ومجاهدته على دوام رعاية أمور الحق . واذا كان هنالك رأى على هذا المعنى ، فهو : أن الله عندما يعز شخصا بالمعرفة فانه لا يذله بالمعصية ، لأن المعرفة عطاؤه ،والمعصية فعل العبد ، ومن يعز بعطاء الحق لا يذل بفعل نفسه ، مثل آدم عليه السلام الذى أعزه (الله) بالمعرفة ، ولم يذله بزلته .

● **ومنهم :** سهيل المعرفة ، وقطب المحبة :

« أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء »(٢) رضى الله عنه . كان من كبار القوم ، وسادات الوقت ، وصاحب طريق حسن وسيرة مرضية . صحب الجنيد ، ورأى أبا الحسن النورى وجماعة من كبار الصوفية رضى الله عنهم . وله كلام عال فى الحقائق ، واشارات لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « همة العارف الى مولاه فلم يعطف الى شىء سواه »(٣) لأنه لا يكون للعارف شىء قط غير معرفته ، فحين يكون رأس مال قلبه المعرفة يكون مقصود همته الرؤية ، لأنتشتت الهمم يثمر الهموم ، والهموم ترد عن حضرة الحق .

ويحكى عنه أنه قال : رأيت ذات يوم نصرانيا حسن الوجه ، فتحيرت فى جماله ، وتوقفت قبله ، فمر على الجنيد رحمه الله ، فقلت : يا أستاذ ! لن يحرق الله تعالى مثل هذا الوجه بنار الجحيم ! فقال رضى الله عنه :

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٧٣) .
(٢) سبق الاشارة اليه .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « سمت هم العارفين الى مولاهم ، فلم تعكف على شىء سواه ، وسمت هم المريدين الى طلب الطريق اليه ، فأفنوا نفوسهم فى الطلب. (أنظر : ص ١٧٩) .

يا بنى ! هذه سويقة النفس التى تحملك على هذا ، لا نظرة العبرة ، لأنك اذا نظرت بالعبرة فى كل ذرة من الموجودات ، فهذه الأعجوبة موجودة . ولكن سرعان ما تعذب بهذا الخزى ! قال : فلما انصرف عنى الجنيد نسيت القرآن فى الحال ، وظللت سنوات أطلب العون من الله تعالى ، وتبت حتى استعدت القرآن . والآن لا أجرؤ على الالتفات الى شىء أو أضيع وقتى فى النظر الى الأشياء .

● **ومنهم :** وحيد العصر وامام الدهر :

« أبو محمد رويم بن أحمد »(١) رضى الله عنه ، كان من جملة أجلة المشايخ وسادتهم ، ومن أصحاب سر الجنيد وأقرانه ، وعلى مذهب داود(٢) فقيه الفقهاء رضى الله عنه .

كان ذا حظ وافر فى علم التفسير والقراءات ، ولم يكن فى ذلك الزمان مثيله فى فنون العلم . وقد بلغ منزلته بعلو الحال ورفعة المقام والسفر الطويل بالتجريد ، والرياضات الشديدة فى التفريد .

وفى آخر عمره أخفى نفسه بين أصحاب الدنيا ، واعتمد عليه فى القضاء ، وكانت درجته أكمل من أن يحجب بذلك ، حتى قال عنه الجنيد : نحن الفارغين مشغولون ، ورويم المشغول فارغ .

وله تصانيف فى هذه الطريقة فى السماع ، وبخاصة الكتاب الذى أسماه « غلط الواجدين » ، وأنا مفتون به .

ويرد أن رجلا جاء اليه يوما وقال : « كيف حالك ؟ » فقال : « كيف حال من دينه هواه ، وهمته دنياه ، ليس بصالح تقى ، ولا بعارف نقى »(٣) .

وقد أشار بهذه الاشارة الى عيوب نفسه ، لأن الدين يكون لدى النفس هوى ، ومتابعو النفس قد أسموا الهوى دينا ، ومتابعة الهوى ممارسة للشريعة ، وكل من يكون على مرادهم وان يكن مبتدعا فهو لديهم دين ، وكل من يسير على خلاف هواهم وان يكن متقيا فهو لديهم لا دين له . وهذه الآفة شائعة فى زماننا ، فنعوذ بالله من صحبة من تكون هذه صفته .

أما ذلك الشيخ فقد أشار على التحقيق الى زمان السائل . ويجوز

(١) سبق الاشارة اليه .
(٢) داود بن على بن خلف : امام أهل الظاهر . ولد بالكوفة سنة مائتين أو اثنتين ومائتين . كان أحد أئمة المسلمين وهداتهم ، واليه انتهت رياسة العلم ببغداد . أصله اصفهان ، ومولده بالكوفة ومنشؤه بغداد وبها قبره . مات سنة سبعين ومائتين . (طبقات الشافعية ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٤) .

أيضا أنه — فى تلك الحال — قد ترك لنفسه ، حتى عبر عن وصف وجوده وأنصف صفته .

● **ومنهم :** بديع العصر ، ورفيع القدر :

« أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى » (١) رضى الله عنه . كان من كبار أئمة وقته ، وقدماء الشيوخ فى زمانه . عمر طويلا ، وكان مريدا لذى النون المصرى ، وصحب كثيرا من الشيوخ وخدمهم جميعا .

يرد عنه أنه قال : « أذل الناس الفقير الطموع ، والمحب لمحبوبه »(٢) . أى أن الفقراء الطماعين هم أذل الناس ، كما أن الفقراء الصادقين أشرفهم . والطمع يلقى بالفقير فى ذل الدنيا والآخرة ، لأن الفقراء أنفسهم حقراء فى نظر أهل الدنيا ، فاذا طمعوا صاروا أحقر . فالغنى بالعز أتم من الفقر بالذل . والطمع ينسب الفقير الى الكذب الصرف .

ثم ان المحب كذلك ، يكون بالنسبة لمحبوبه أذل الخلق طرا ، لأن المحب يرى نفسه فى مقابل محبوبه حقيرا ، وهو يتواضع له ، وهذا أيضا من نتائج الطمع ، وعندما ينقطع عنه الطمع يصير ذله كله عزا . وطالما كانت زليخا طامعة فى يوسف ، كانت تزداد كل لحظة ذلا ، وعندما انقطع عنها الطمع ، رد الله تعالى اليها جمالها وشبابها .

وقد جرت السنة على أن اقبال المحب يقتضى اعراض المحبوب ، فاذا كتم المحب المحبة فى صدره ، وفرغ بصرف المحبة من الحبيب ، وسكن الى المحبة ، فلا محالة أن يقبل عليه الحبيب . والمحب عزيز فى الحقيقة ما لم يطمع فى الوصل ، وعندما يطمع فيه ولا يدركه يصير عزه ذلا . وكل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب وفراقه ، تكون محبته معلولة .

● **ومنهم :** شمس سماء المحبة ، وقدوة أهل المعاملة :

« أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص »(٣) رضى الله عنه . كان

(١) شيخ الرى والجبال فى وقته . كان أوحد فى طريقته فى اسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الاخلاص . وكان عالما دينا . مات سنة أربع وثلثمائة . وروى الحديث . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٨٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣١٦ ، نفحات الانس ص ٩٧) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٩) .

(٣) سمنون بن عبد الله : أبو الحسن الخواص ، ويقال كنيته أبو القاسم . سمى نفسه سمنون الكذاب لكتمه عسر البول بلا تضرر . صحب سريا السقطى ومحمد ابن على القصاب وأبا أحمد القلانسى وكان يتكلم فى المحبة بأحسن كلام . من كبار مشايخ العراق . مات بعد الجنيد ، أى بعد سنة سبع وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٢ ، طبقات =

منقطع النظير فى زمانه ، وذا شأن عظيم فى المحبة . وكان جميع المشايخ يعظمونه ويسمونه « سمنون المحب » ، وأسمى هو نفسه : « سمنون الكذاب » !

وقد عانى متاعب كثيرة من (غلام الخليل)(١) . فقد شهد عليه عند الخليفة بأشياء غير صحيحة ، وكان الشيوخ جميعا يتألمون لذلك .

وكان (غلام الخليل) هذا ، رجلا مرائيا ويدعى الزهد والتصوف . وصير نفسه — بمكره وشعوذته — معروفا عند الخليفة وأهل السلطان ، وباع — مثل الكثيرين فى عصرنا — الدين بالدنيا . وقد آلى على نفسه التشهير بالمشايخ والدراويش لدى الخليفة ، وكان مراده أنه طالما هجر المشايخ ، ولم يتبرك بهم أحد ، بقى جاهه على حاله ! بخ بخ لسمنون وغيره من المشايخ الذين لم يتصد لهم أكثر من واحد بهذه الصفة ! واليوم ، فى هذا الزمان ، يوجد لكل رجل محقق مائة ألف (غلام الخليل) ! ولكن لا ضير ، فالعقبان أولى بالجيف .

ولما كبر جاه سمنون فى بغداد وتقرب كل شخص اليه ، تألم من ذلك (غلام الخليل) وأخذ فى اختلاق الأوضاع ، حتى وقعت عين امرأة على جمال سمنون ، وعرضت المرأة نفسها عليه ، فأبى . وذهبت هذه المرأة الى الجنيد قائلة : قل لسمنون أن يتزوجنى ، فغضب منها الجنيد وزجرها . فذهبت الى (غلام الخليل) واتهمت (سمنون) بتهمة مما تتهم به النساء الرجال ، واستمع (غلام الخليل) اليها كما يسمع الأعداء ، وأخذ فى السعاية ، وغير عليه الخليفة حتى أمر بقتله . فلما أحضروا السياف ، واستؤذن الخليفة ، انعقد لسانه حين اصدار الأمر ! ولما جن الليل ، نام فرأى فى النوم من يقول له : ان زوال روح سمنون رهين بزوال ملكك ! وفى اليوم التالى اعتذر لسمنون ورده مكرما(٢) .

وله كلام عال واشارات دقيقة فى حقيقة المحبة .

واتفق أنه حين كان قادما من الحجاز ، أن قال له أهل فيد(٣) : حدثنا ، فاعتلى المنبر ، وكان يتحدث ولامستمع له ، فالتفت الى القناديل وقال : انى أتحدث اليك ! فاصطكت كل تلك القناديل وتحطمت .

=الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٣ ، نفحات الانس ص١٠٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٧٢) .

(١) أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس . ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ، لكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء (ميزان الاعتدال : ص ٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى اللمع ، وهنا بعض الاختلاف (أنظر اللمع ص ٤٩٨) .

(٣) « فيد » : هى المدينة التى ينزلها عمال طريق مكة ، وأهلها طىء ، وهى فى سفح جبلهم المعروف بسلمى (البلدان ص ٧٦) .

ويرد عنه ، رضى الله عنه ، أنه قال : « لا يعبر عن شيء الا بما هو أرق منه ، ولا شيء أرق من المحبة فبم يعبر عنها ؟ »(١) .

والمراد من هذا : أن العبارة منقطعة عن المحبة ، لأن العبارات صفة المعبر ، والمحبة صفة المحبوب ، فعبارة هذا لا تستطيع ادراك حقيقة ذاك . والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم :** سلطان الشيوخ ، ومن التغير عن عهده منسوخ :

« أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى »(٢) ، رضى الله عنه . كان من أبناء الملوك ، وفريدا فى عصره ، صحب أبا تراب النخشبى ، وأدرك كثيرا من المشايخ . وقد ذكر طرف من حاله فى ذكر أبى عثمان الحيرى .

وله فى التصوف رسالات مشهورة ، وعمل كتابا يسمى « مرآة الحكماء » ، وله أقوال عالية .

ويرد عنه أنه قال : « لأهل الفضل فضل مالم يروه ، فاذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولاية مالم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم(٣) » .

والمراد من هذا القول أنه حيثما يوجد الفضل والولاية تسقط عنهما الرؤية ، وعندما تحدث الرؤية يسقط معناهما ، لأن الفضل صفة لا يراها الفضل ، والولاية صفة لا تراها الولاية . فاذا قال شخص : أنا فاضل ، أو : أنا ولى ، فانه لا يكون فاضلا ولا وليا .

وورد فى آثاره أنه لم ينم لأربعين عاما ، وعندما نام رأى الله سبحانه وتعالى فى النوم ، فقال : يا الهى ! كنت أطلبك بسهر الليل فرأيتك فى النوم ! فقال : يا شاه ! لقد أدركت فى النوم بغيتك بسهرك الليل ، ولو كنت نمت هنالك ، لما رأيت هنا . والله أعلم .

● **ومنهم** سرور القلوب ونور الأسرار :

« عمرو بن عثمان المكى(٤) » رضى الله عنه . كان من كبراء أهل الطريقة وساداتهم ، وله تصانيف مشهورة فى حقائق هذا العلم .

وكان ينتسب الى الجنيد بعد أن رأى أبا سعيد الخراز وصحب النباجى ، وكان امام الوقت فى الأصول .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٦) .
(٢) سبق الاشارة اليه .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٣)
(٤) سبق الاشارة اليه .

يرد عنه أنه قال : « لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر لله عند المؤمنين(١) » . وكل ما تستطيع عبارة العبد التصرف فيه لا يكون سرا للحق ، لأن كلية تكلف العبد منقطعة عن الأسرار الربانية .

ويقال انه حين جاء عمرو الى أصفهان ، اتصل بصحبته حدث ، وقد منعه أبوه من صحبة عمرو الى أن مرض . ومضت مدة ، ونهض الشيخ يوما وذهب لعيادته مع جماعة من الدراويش ، فأشار الحدث الى الشيخ ليقول للقوال أن ينشد شعرا ، فقال عمرو للقوال : أنشد . فقال :

(شعر عربى)

مالى مرضت فلم يعدنى عايد منكم ويمرض عبدكم فأعود

فلما سمع المريض ، نهض وجلس ، وقل لهب المرض وسلطانه ، وقال : زدنى . فأنشد القوال :

واشد من مرضى على صدودكم وصدود عبدكم على شديد

فنهض المريض وقد زايله المه(٢) ، وأذن له والده بصحبة عمرو ، وتاب عما كان يهجس فى قلبه ، وصار ذلك الحدث من عظماء الطريقة .

● **ومنهم :** مالك القلوب ، وماحى العيوب :

« أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى »(٣) رضى الله عنه . كان امام وقته ، ممدوحا بكل الألسن ، وله رياضات كثيرة ، ومعاملات طيبة ، وكلام لطيف فى الاخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول عنه علماء الظاهر : « هو جمع بين الشريعة والحقيقة » . وهذا خطأ ، لأن أحدا لا يفرق بينهما ، فالشريعة ليست سوى الحقيقة ، والحقيقة ليست سوى الشريعة . وهم يقولون هذا بحكم أن عبارات ذلك الشيخ أسهل فى الادراك ، وأيسر فى الفهم على الطبائع . وبما أن الحق تعالى قد جمع بين الحقيقة والشريعة ، فمحال أن يفرق بينهما أولياؤه .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف بسيط (أنظر ص ٢٠٢) .
(٢) وردت هذه الحكاية فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .
(٣) سهل بن عبد الله بن يونس ، صحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون المصرى سنة خروجه الى الحج بمكة . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الرسالة ج ١ ص ٨٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦١ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٥١ ، نفحات الانس ص ٦٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٤) .

واذا حصل الفرق ، فلا محالة أن يتأتى رد واحدة منهما وقبول الأخرى . ورد الشريعة الحاد ، ورد الحقيقة شرك .

وهذا الفرق الذى يفرقونه ليس لتفريق المعنى ، بل لاثبات الحد ، كقولك : « لا اله الا الله » ، فهذا حقيقة ، وقولك : « محمد رسول الله » شريعة . واذا أراد أحد — فى حال صحة الايمان — أن يفصل بينهما ، لا يستطيع ، وتكون ارادته باطلة .

وفى الجملة : الشريعة فرع الحقيقة ، كما أن المعرفة هى الحقيقة ، وقبول الأمر بالمعروف : شريعة ، وأهل الظاهر هؤلاء ينكرون مالا يتفق مع طباعهم ، والانكار لأصل من أصول طريق الحق أمر خطير . والحمد لله على الايمان .

ويرد عنه أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت على وجه أهل الأرض الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وروحه ودنياه وآخرته »(١) .

يعنى : أن كل من يعتقد أن له يدا فى نصيبه ، فذلك دليل على أنه جاهل بالله عز وجل ، لأن معرفته تقتضى ترك التدبير ، وترك التدبير تسليم ، واثبات التدبير من الجهل ، والله أعلم .

● **ومنهم** اختيار أهل الحرمين ، ولجملة المشايخ قرة العين :

« أبو عبد الله محمد بن الفضل البَاخى »(٢) رضى الله عنه . كان من جلة الشيوخ ، ومرضيا لدى أهل العراق وخراسان ، ومريدا لأحمد ابن خضرويه . وكان لأبى عثمان الحيرى ميل عظيم اليه .

وقد أخرجه المتعصبون من بلخ لافتتان الناس بمذهبه ، فصار الى سمرقند(٣) ، وقضى هنا لك عمره .

يرد عنه أنه قال : « أعرف الناس بالله ، أشدهم مجاهدة فى أوامره ، وأتبعهم لسنة نبيه »(٤) .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته » (أنظر ص ٢٠٧) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) « سمرقند » : من أجل البلدان وأعظمها قدرا وأشدها امتناعا . انغلقت سمرقند بعد أن افتتحت عدة مرات لمنعتها وشجاعة رجالها وشدة أبطالها . افتتحها قتيبة بن مسلم الباهلى فى أيام الوليد بن عبد الملك وصالح ملوكها (البلدان ص ٥٨) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٤) .

وكل من يكون أقرب الى الحق ، يكون أحرص على اتباع أوامره ، وكل من يكون أبعد عنه يكون أبعد عن متابعة رسوله ، وأشد اعراضا .

ويرد عنه أنه قال : « عجبت ممن يقطع البوادى والقفار والمفاوز حتى يصل الى بيته وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل الى قلبه لأن فيه آثار مولاه »(١) .

أى أن القلب ، وهو محل المعرفة ، أعظم من الكعبة وهى قبلة الخدمة .

والكعبة هى ما يكون اليه نظر العبد دائما ، والقلب ما يكون اليه نظر الحق دائما — حيثما يكون قلب الحبيب فأنا هنالك ، وحيثما يكون حكمه فمرادى هنالك ، وحيثما يكون أثر أنبيائى ، فقبلة أحبائى هنالك — والله أعلم .

● **ومنهم** : الشيخ ذو الخطر ، والفانى عن أوصاف البشر :

« أبو عبد الله محمد بن على الترمذى »(٢) رضى الله عنه . كان كاملا واماما فى فنون العلم ، ومن الشيوخ المحتشمين ، وله تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة . مثل كتاب : « ختم الولاية » ، وكتاب « النهج » ، وكتاب « نوادر الأصول » . وقد عمل كتبا أخرى كثيرة غير هذه . وهو معظم لدى جدا لأن قلبى صيد له ، وكان شيخى يقول : « محمد در يتيم » ، اذ لا قرين له فى العالم كله .

وله كتب فى علوم الظاهر ، واسناد عال فى الأحاديث . وكان قد بدأ تفسيرا ، فلم يف العمر باتمامه ، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عمله .

وكان قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة . ويسمونه فى ترمذ(٣) : محمد الحكيم ، ويقتدى به الحكيمية من المتصوفة . وله مناقب كثيرة ، منها أنه كان قد صحب الخضر عليه السلام .

ويروى مريده أبو بكر الوراق الترمذى أن الخضر كان يأتى اليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٤) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) « ترمذ » : مدينة مشهورة . راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى . واشهر من اخرجتهم من العلماء أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، الترمذى الضرير ، صاحب الصحيح . أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى الحديث (معجم البلدان ج ١ ص ٨٤٣) .

ويرد عنه أنه قال : « من جهل أوصاف العبودية ، فهو بنعوت الربانية أجهل »(١) . أى : كل من لا يصل الى معرفة النفس وهى مخلوقة ، فانه لا يصل الى معرفة الحق تعالى وهو الخالق ، وكل من لا يرى آفات الصفة البشرية ، أنى له أن يرى لطائف صفات الربوبية ؟! لأن الظاهر يتعلق بالباطن ، وكل ما يتعلق بالظاهر دون الباطن ، محال . وكل ما يتعلق بالباطن دون الظاهر ، محال . فأوصاف الربوبية منعقدة فى صحة أركان العبودية ، ولا تصح بغيرها .

وهذه الكلمة أصيلة جدا ومفيدة ، وسنتمها فى موضعها ان شاء الله عز وجل .

● **ومنهم :** شرف زهاد الأمة ، ومزكى أهل الفقر والصفوة :
« **أبو بكر محمد بن عمر الوراق** »(٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وزهادهم ، رأى أحمد بن خضرويه ، وصحب محمد بن على ، وله كتب فى الآداب والمعاملات . وقد دعاه المشايخ رحمة الله عليهم : « مؤدب الأولياء » .

ويحكى عن محمد بن على الحكيم فيقول : أعطانى كراسة قائلا : ألقها فى جيحون(٣) ! فلم يطعنى قلبى ، وأخفيتها فى منزلى ، وجئته وقلت : ألقيتها . فقال : ماذا رأيت ؟ قلت : لم أر شيئا . قال : لم تلقها ، عد والقها فى البحر . فرجعت وقد استحوز وسواس ذلك البرهان على قلبى ، والقيتها فى المـاء ، فانشق المـاء وظهر صندوق مفتوح ، فلما وقعت فيه أغلق الغطاء . فعدت ورويت له ما حدث ، فقال : الآن ألقيتها . وقلت : أيها الشيخ ! ما سر هذا ؟ حدثنى به . قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق ، يعجز الفهم عن ادراكه ، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام ، فأمر الله تعالى المـاء أن يوصله اليه .

ويرد عنه أنه قال : « الناس ثلاثة : العلماء والفقراء والأمراء . فاذا فسد العلماء ، فسد الطاعة ، واذا فسد الفقراء ، فسد الأخلاق ، واذا فسد الأمراء ، فسد المعاش »(٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٩).
(٢) سبق الاشـارة اليه .
(٣) « جيحون » (نهر) : وهو اسم أعجمى . سمى بذلك لاجتياحه الارضين . وقال ابن الفقيه يجىء جرحون من موضع يقال له « ريوسـاران » وهو جبـل يتصل بناحية السند والهند وكابل ، ومنه عين تخرج من موضع يقال له « عندميس » (معجم البلدان ج ٢ ص ١٧١) .
(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « الناس ثلاثة : العلماء والأمراء والقراء . فاذا فسد الأمراء فسد المعاش ، واذا فسد العلماء فسدت الطاعات ، واذا فسد القراء فسدت الأخلاق » (أنظر ص ٢٢٢) ، وورد فى طبقات الشعرانى باختلاف فى ترتيب الفئات (أنظر ج ١ ص ٧٣) .

ففساد الأمراء والسلاطين يكون بالجور ، وفساد العلماء يكون بالطمع ، وفساد الفقراء يكون بالرياء . وما لم يعرض الملوك عن العلماء ، لا يفسدون . وما لم يصحب العلماء الملوك ، لا يفسدون . وما لم يطلب الفقراء الرياسة — يعنى العظمة — لا يفسدون ، لأن جور الملوك من الجهل ، وطمع العلماء من عدم التدين ، ورياء الفقراء من عدم التوكل . فالأمير بلا علم ، والعالم بلا تقوى ، والفقير بلا توكل ، كلهم أقران الشيطان ، وفساد الخلائق جميعا مرتبط بفساد هذه الطوائف الثلاث .

● **ومنهم :** سفينة أهل التوكل والرضا ، وسالك طريق الفنا :
« **أبو سعيد بن عيسى الخراز** »(١) رضى الله عنه . وكان لسان أحوال المريدين ، وبرهان أوقات الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء . وله مناقب مشهورة ، ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متلألئة ، وكلام ورموز عالية . وقد صحب ذا النون المصرى وبشرا الحافى ، والسرى السقطى .

ويرد عنه أنه قال فى قول النبى عليه السلام : « جبلت القلوب على حب من أحسن اليها »(٢) : واعجبا لمن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته الى الله »(٣) . لأن الاحسان على الحقيقة هو ما يفعله مالك الأعيان . والاحسان هو عمل الخير لمن يكون فى حاجة الى ذلك الخير ، ومن يلزمه الاحسان من الغير ، كيف يستطيع الاحسان ؟

أى أن الملك والملك لله جل جلاله ، لأنه مستغن عن الغير ، وجميع أهل الدنيا والآخرة وما فى الكونين محتاجون اليه ، ولمـا عرف أحبـاء الحق هذا المعنى ، رأوا المنعم والمحسن فى الانعام والاحسان ، فصارت قلوبهم بكليتها أسيرة لمحبته ، وأعرضوا عن غيره . والله أعلم .

● **ومنهم :** شاهد المحققين ، ودليل المريدين :
« **أبو الحسن على بن محمد الأصفهانى** »(٤) رضى الله عنه . ويقال له

(١) من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصرى وأبا عبـد الله النباجى وأبا عبيـد البسرى . مات سنة تسع وسبعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٠ ، نفحات الانس ص ٧٣) .
(٢) رواه ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود : «جبلت القلوب على حب من أحسن اليها . وبغض من أسـاء اليها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤٦) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣١) .
(٤) على بن سهل بن الأزهر . من قدماء مشايخ اصفهان . صحب محمد بن يوسف ابن معدان المعروف بالبناء المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٠ ، نفحات الانس ص ١٠٣) .

أيضا : « على بن سهل » . كان من كبار المشايخ . وللجنيد معه مكاتبات لطيفة . وقام عمرو بن عثمان بزيارته فى أصفهان .

وكان محفوظا من الفتن والآفة ، وذا لسان طيب فى الحقائق والمعاملات وبيان لطيف فى الدقائق والاشارات .

يرد عنه أنه قال : « الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات ، واليقين خطرات »(١) . لأن الحضور متوطن القلب ولا تجوز عليه الغيبة ، واليقين خاطر يرد حينا ويذهب حينا ، فالحاضرون يكونون فى الحضرة ، والموقنون على الأعتاب . وسأورد بابا فى الغيبة والحضور فى هذا الكتاب .

وقال رحمة الله عليه : « من وقت آدم الى قيام الساعة ، الناس يقولون: القلب ، القلب ، وأنا أحب أن أرى رجلا يصف ايش القلب أو كيف القلب ، فلا أرى »(٢) .

والعوام يسمون تلك القطعة من اللحم : القلب ، وتلك تكون للمجانين والصبية والأطفال والمغلوبين ، ولكنهم بلا قلب . فما هو القلب ، فاننا لا نسمع عنه الا العبارة .

أى : اذا أسمينا العقـــل القلب ، فذلك ليس القلب ، واذا كنا ندعو الروح قلبا ، فذلك ليس القلب . واذا قلنا للعلم القلب ، فهو ليس بالقلب . وقيام كل شواهد الحق بالقلب ، ولا يوجد منه سوى العبارة .

● **ومنهم** : شيخ أهل التسليم ، وفى المحبة : المستقيم :

« أبو الحسن محمد بن اسماعيل »(٣) :(خير النساج) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ فى وقته ، وذا معاملة وبيان حسن فى العظات ، وعبارة مهذبة فى الاشارات . عمر طويلا ، وتاب الشبلى وابراهيم الخواص كلاهما فى مجلسه ، وبعث بالشبلى الى الجنيد ، حفاظا على حرمة الجنيد رضى الله عنه .

وكان مريدا للسرى ، ومن أقران الجنيد ، وأبى الحسين النورى ، وكان الجنيد يحترمه كثيرا ، وقد أجازه أبو حمزة البغدادى .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣٤) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣٥) .
(٣) أصله من « سامرا » وأقام ببغداد . صحب أبا حمزة البغدادى . وكان من أقران النورى وطبقته . عمر مائة وعشرين سنة ، وتوفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١١ ، نفحات الانس ص ١٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٧) .

ويروى أن السبب فى تسميته بخير النساج ، أنه عندما خرج من موطنه « سامرا »(١) قاصدا الحج ، مر بالكوفة ، فأمسك به مكار على باب الكوفة ، وقال له : أنت عبدى ، واسمك خير . فرأى ذلك من الحق ، ولم يخالفه . وظل سنوات طويلة يقوم له بالعمل ، وكلما كان يقول له : يا خير ! يقول : لبيك ، الى أن ندم الرجل على فعلته ، وقال له: اذهب ، لقد أخطأت ، ولست عبدى ! فذهب ، وصار الى مكة ، وبلغ تلك الدرجة التى قال معها الجنيد : « خير خيرنا » .

وكان أحب اليه أن يدعى خيرا ، ويقول : لا يجوز أن أغير اسما أسمانى به رجل مسلم .

ويقال انه حين اقتربت وفاته ، حان وقت الصلاة ، فلما أفاق من غشية الموت فتح عينيه ونظر نحو الباب ، وقال رضى الله عنه : « قف عافاك الله ، فانما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور . وما أمرت به لا يفوتك ، وما أمرت به فهو شىء يفوتنى ، فدعنى امضى فيما أمرت ثم امض بما أمرت »(٢) .

أى : دعنى أؤدى صلاة العشاء لأقضى أمر الحق ، لأتركك أنا أيضا تؤدى أمر الحق . ثم طلب الماء وتوضأ ، وصلى صلاة العشاء ، وأسلم الروح . رحمة الله عليه .

وقد رآه بعضهم فى النوم فى تلك الليلة ، فقيل له : ما فعل بك الله عز وجل ؟ قال رحمـــه الله : « لا تسألنى عن هذا ، ولكن اســـترحت من دنياكم »(٣) .

ويرد عنه أنه قال فى مجلسه : « شرح الله صدور المتقين بنور اليقين وكشف بصائر الموقنين بنور حقائق الايمان »(٤) ، فحيثما يكن الايمان يكن اليقين ، وحيثما يكن اليقين تكن التقوى ، لأنهما قرينا أحدهما الآخر ، وكل واحد منهما تابع للآخر .

---

(١) « سامرا » : تخفيف « سر من رأى » وهى وبغداد مدينتا الملك ودار الخلافة . كانت صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الا دير للنصارى اشترى أرضه المعتصم العباسى سنة احدى وعشرين ومائتين وبنى المدينـــة وخط القطائع للقواد والكتاب والناس وخط المسجد الجامع والاسواق ، وأفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس وأفرد لكل مهنة مكانا وأخذ يزيد فى البناء حتى توفى سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الخلافة الواثق فزاد من عمرانها وسكنها من جاء بعده من الخلفاء (أنظر : البلدان ص ٢٢ — ٣٥) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف طفيف (أنظر ص ٣٢٣) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية « استرحت من دنياكم الوضرة » (انظر ص ٣٢٣) .
(٤) ورد فى طبقات الصوفية « شرح صدور المتقين ، وكشف بصائر المهتدين بنور حقائق الايمان » (أنظر ص ٣٢٤) .

● **ومنهم :** داعى العصر ، وفريد الدهر :

« **أبو حمزة الخراسانى** »(١) رضى الله عنه ، كان من قدماء مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب ، ورأى الخراز . وكان ذا قدم ثابتة فى التوكل .

ومن المشهور فى الحكايات أنه كان يسير يوما فى طريق ، فوقع فى بئر ، وظل بها ثلاثة أيام وليال ، فجاء جماعة من السيارة الى البئر ، فقال لنفسه ، أناديهم ، ثم قال : لا ، لا يحسن أن أستعين بغير الحق ، وهذه تكون شكاية أشكوها اليهم ، فكأنى أقول : ان الله تعالى أوقعنى فى البئر فأخرجونى ! ولما اقبلوا ورأوا بئرا فى وسط الطريق بلا حائل وحاجز ، قالوا : تعالوا نغط رأس هذه البئر لكيلا يقع فيها أحد . قال : فاضطربت ويئست من حياتى . فلما أحكموا فوهة البئر ومضوا ، ناجيت الحق تعالى ، ووطنت قلبى على الموت ، ويئست من الخلق جميعا . فلما حل الليل ، سمعت صوتا من رأس البئر ، فلما أمعنت النظر ، نزع شخص الغطاء عن البئر ، فرأيت حيوانا ضخما ، فأمعنت النظر ، فكانت حية دلت بذيلها ، فأدركت أن نجاتى فى ذلك ، وأنها رسول الحق تعالى وتقدس ، فتعلقت بذيلها حتى أخرجتنى . وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة ! ما أحسنها نجاة نجاتك هذه ، فقد نجيناك من التلف بالتلف(٢) .

وسئل : من الغريب ؟ قال : « المستوحش من الالف »(٣) ، اذ لا وطن للفقير فى الدنيا والعقبى ، والألفة فى غير الوطن وحشة ، ومن تنقطع ألفته من الكون مستوحش من الجميع ، ومن ثم يكن غريبا .

وهذه درجة رفيعة ، والله أعلم .

● **ومنهم :** داعى المريدين بحكم الأمر :

« **أبو العباس أحمد بن مسروق** »(٤) رضى الله عنه . كان من كبار وأجلة خراسان ، وكان باجماع أولياء الله عز وجل من أوتاد الأرض ، وقد صحب القطب المدار عليه .

(١) أصله من نيسابور من محلة ملقاباد . صحب مشايخ بغداد ، وهو من أقران الجنيد ، ومن أفتى المشايخ وأورعهم ، مات سنة تسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٢٦ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٣ ، نفحات الانس ص ٧٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة القشيرية مع اختلاف فى أن الذى نجاه : « سبع » (أنظر ج١ ص ٣٨٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٣٢٦) .

(٤) اسمه : أحمد بن محمد بن مسروق . من أهل طوس ، وسكن بغداد ، ومات بها . توفى سنة تسع وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٣١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٤ . تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٥ ، نفحات الانس ص ٨٩) .

سئل : من القطب ؟ قال : لم يظهر ، ولكن يبدو من الاشارة أنه الجنيد رضى الله عنه ، فقد خدم أربعين من أصحاب التمكين وأفاد منهم ، وكان فارسا فى علوم الظاهر والباطن .

ويرد عنه أنه قال : « من كان سروره بغير الحق ، فسروره يورث الهموم ، ومن لم يكن أنسه فى خدمة ربه ، فانه يورث الوحشة(١) » .

أى أن كل ما سواه فناء ، وكل من يسر بالفناء فانه عندما يفنى الفناء يغتم . وكل ما سوى خدمته هباء ، وعندما تظهر حقارة المكونات يصير أنسه كله وحشة ، فغم كل العالم ووحشته فى رؤية الغير ، والله أعلم .

● **ومنهم** أستاذ المتوكلين ، وشيخ المحققين : « **أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربى(٢)** » رضى الله عنه . كان من كبار ومقدمى وقته ، ومقبول الأساتذة فى زمانه ، ومراعيا لمريديه .

وكان ابراهيم الخواص وابراهيم بن شيبان كلاهما من مريديه . وله كلام عال وبراهين واضحة ، وقدم راسخة فى التجريد .

ويرد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا أنصف من الدنيا ، ان خدمتها خدمتك ، وأن تركتها تركتك(٣) » .

أى أنها تطلبك مادمت تطلبها ، واذا أعرضت عنها وأقبلت على خدمة الله تعالى تفر منك ، ولا يتعلق فكرها بقلبك ، فكل من يعرض بصدق عن الدنيا يأمن شرها ، وينجو من آفتها ، ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم :** شيخ زمانه ، وأوحد عصره وأوانه : « **أبو على الحسن بن على الجوزجانى(٤)** » رضى الله عنه . كان منقطع النظير فى وقته ، وله تصانيف زاهرة فى علم المعاملات ورؤية الآفات .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « من لم يكن أنسه فى خدمة ربه فهو من أنسه فى وحشة » (أنظر ص ٢٤١) .

(٢) أبو عبد الله المغربى : صحب على بن رزين . وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين سنة ، ومات على جبل طور سيناء ، وقبره عليه ، مع قبر أستاذه على بن رزين . مات سنة تسع وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٤٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٦ ، نفحات الانس ص ٩٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٤٣) .

(٤) ورد فى الاصل : أبو على الحسن بن على « الجرجانى » . وورد فى طبقات الصوفية : « أبو على الجوزجانى » ، وفى نفحات الانس : « أبو العلى الجوزجانى » : من كبار مشايخ خراسان . له التصانيف المشهورة . تكلم فى علم الافات والرياضات المجاهدات ، صحب محمد بن على الترمذى (٢٨٥ هـ) ومحمد بن الفضل (٣١٩ هـ) وهو قريب السن منهما . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص٢٤٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٨ ، نفحات الانس ص ١٢٨) .

وكان مريد محمد بن على ، ومن أقران أبى بكر الوراق . وكان ابراهيم السمرقندى مريدا له .

يرد عنه أنه قال : « الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون ، وعلى الظنون يعتمدون ، وعندهم أنهم فى الحقيقة يتقلبون ، وعن المكاشفة ينطقون(١) » .

وكانت اشارة الشيخ الى خيلاء الطبع ورعونة النفس ، لأن الشخص وان يكن جاهلا فانه يعتقد فى جهله ، وبخاصة جهال المتصوفة . وكما أن علماءهم أعز ما خلق الله ، فجهالهم أذل ما خلق الله ، فما يكون لعلمائهم حقيقة يكون لجهالهم ظنا لا حقيقة . وهم يرتعون فى ميدان الغفلة ويخالونه ميدان الولاية ، ويعتمدون على الظن ويخالونه يقينا ، ويسيرون مع الرسم ويظنونه حقيقة ، وينطقون عن الهوى ويتوهمون أنه المكاشفة ، لأن الظن لا يفارق رأس الآدمى الا برؤية جلال الحق وجماله ، لأنه فى اظهار جماله يرونه كل شىء فيفنى ظنهم ، وفى كشف جلاله لا يرون أنفسهم فيتبدد ظنهم ، والله أعلم .

● **ومنهم :** باسط العلوم ، وواسط الرسوم : **« أبومحمد أحمد بن الحسين الجريرى(٢)»** رضى الله عنه . كان من أصحاب سر الجنيد ، وأدرك صحبة سهل بن عبد الله . وكان خبيرا فى مختلف العلوم ، وامام الوقت فى الفقه ، وعلى علم جيد بالأصول ، وبلغ فى طريقة التصوف درجة جعلت الجنيد يطلب منه أن يؤدب مريديه ، ويشرف على رياضاتهم . وكان بعد الجنيد ولى عهده الذى خلفه .

ويرد عنه أنه قال : « دوام الايمان وقوام الأديان وصلاح الأبدان فى خلال ثلاث : الاكتفاء ، والأتقاء ، والاحتماء . فمن اكتفى بالله صلحت سريرته ، ومن اتقى ما نهى الله عنه استقامت سيرته ، ومن احتمى ما لم يوافقه ارتاضت طبيعته ، فثمرة الاكتفاء صفوة المعرفة ، وعاقبة الاتقاء حسن الخليقة ، وغاية الاحتماء اعتدال الطبيعة(٣) » .

أى أن كل من يكتفى بالله : تصفو معرفته ، وكل من يستمسك بالمعاملة : يحسن خلقه فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى عليه السلام : « من كثر

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٤٨) .
(٢) أبو محمد الجريرى : يقال ان اسمه : أحمد بن محمد بن الحسين . مات سنة احدى عشرة وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٥٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٢ ، نفحات الانس ص ٣٩١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٦) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « قوام الاديان ، ودوام الايمان ... الخ » (انظر ص ٢٦٢) .

صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار(١) . و فى خبر آخر ان المتقين يأتون يوم القيامة « ووجوههم نور على منابر من نور » . وكل من يسلك طريق الاحتماء : يحفظ جسده من العلة ، ونفسه من الشهوة .

وهذه أقوال جامعة وحسنة ، والله أعلم .

● **ومنهم :** شيخ الظرفاء ، وقدوة الأصفياء : **« أبو العباس أحمد بن سهل الآدمى »(٢)** رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وأكثرهم حشمة، مبجلا بين أقرانه ، وعالما بعلوم التفسير والقراءات ، وكان ذا بيان فى فهم القرآن ولطائفه ، اختص به .

وكان من كبار مريدى الجنيد ، وصحب ابراهيم المارستانى . وكان أبو سعيد الخراز يجله كثيرا ، ولا يسلم لأحد غيره بالتصوف .

ويرد عنه أنه قال : « السكون الى مألوفات الطبع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق(٣) » .

أى أن كل من يسكن الى مألوفات الطبع يتخلف عن الحقيقة ، لأن الطباع أدوات النفس وآلاتها ، والنفس محل الحجاب ، والحقيقة محل الكشف ، والمريد المحجوب والساكن لا يكاشف أبدا ، فادراك الحقائق منعقد فى الأعراض عن مألوفات الطبائع . والطبع يألف اثنتين ، احداهما : الدنيا وأخواتها ، والأخرى : العقبى وأحوالها ، فهو يألف الدنيا بحكم الجنسية ، ويألف العقبى بحكم الظن . والفه يكون مع وهم العقبى لا مع عين العقبى ، لأنه لو عرفها حق المعرفة ، لانقطع عن هذه الدار الفانية ، واذا ما انقطع عن هذه (أى الدنيا) تفنى ولاية الطبع ، ومن ثم يكون كشف الحقائق، لأنه لا صلة لتلك الدار (أى العقبى) بالطبع الا بفناء الطبع ، « لأن فيها مالا خطر على قلب بشر » . وخطر العقبى فى أن طريقها مملوء بالخطر ، وكل ما يخطر فى الخواطر ليس فيه كثير خطر . ولما كان الوهم عاجزا عن معرفة حقيقة العقبى ، فكيف يكون للطبع الف مع عينها ؟

أذن ، فقد صح أن الف الطبع يكون مع وهم العقبى ، والله أعلم .

● **ومنهم :** مستغرق المعنى ، ومستهلك الدعوى : **« أبو مغيث الحسين**

(١) رواه ابن ماجه عن جابر : « من كثرت صلاته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣١٤) .
(٢) هو أبو العباس بن عطاء : سبق الاشارة اليه .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٥٧٢) .

ابن منصور الحلاج(١) » رضى الله عنه ، كان من سكارى هذه الطريقة ومشتاقيها ، وذا حال قوى وهمة عالية .

ومشايخ هذه الطريقة مختلفون فى شأنه ، فهو مردود عند طائفة ، ومقبول عند أخرى ، فقد رده فريق من أمثال عمرو بن عثمان ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأبى يعقوب الأقطع ، وعلى بن سهل الاصفهانى وغيرهم . وقبله ابن عطاء ، ومحمد بن خفيف ، وأبو القاسم النصر ابادى وجملة المتأخرين من الصوفية . وتوقف فى أمره فريق مثل : الجنيد والشبلى والجريرى والحصرى وغيرهم ، ونسبة فريق آخر الى السحر وأسبابه .

أما فى أيامنا هذه ، فقد كان للشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، والشيخ أبى القاسم الجرجانى ، والشيخ أبى العباس الشقانى — رضى الله عنهم — فى حديثه سر ، وكان لديهم معظما . وأما الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه ، فيقول : اذا كان من أرباب المعانى والحقيقة فلن يصير مهجورا بهجر من رده ، وان يكن مردودا من الحق ومقبولا من الخلق ، فلن يصير مقبولا بقبول الخلق . ونحن نتركه لله بحكم التسليم ، ونجله بقدر ما وجدنا فيه من دلائل الحق(٢) . ولا ينكر كمال فضله وصفاء حاله وكثرة مجاهداته ورياضاته الا قلة من جملة الشيوخ .

وقد كان من غير الأمانة اغفال ذكره فى هذا الكتاب ، لأن بعض أهل الظاهر يكفرونه وينكرون عليه ، وينسبون أحواله الى العذر* والاحتيال والسحر ، ويظنون أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الحلاج(٣) ، ذلك الملحد البغدادى الذى كان أستاذ محمد بن زكريا ، ورفيق سعد القرمطى . ولكن الحسين هذا الذى اختلف فى أمره كان فارسيا من بيضاورد(٤) ، ولم يكن هجر المشايخ له يعنى الطعن فى دينه ومذهبه ، بل فى حال دنياه ، فقد كان فى بداية أمره مريد سهل بن عبد الله وانصرف عنه دون استئذان ، واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق

(١) ارجع الى ما ورد عن الحلاج فى القسم الاول .
(٢) امتنع القشيرى عن ايراد ترجمة للحلاج ضمن تراجم الشيوخ فى القسم الخاص بالتراجم فى الرسالة . * هكذا فى الاصل (يعذر) . عذر الرجل عذرا وعذرا (لازم) كثرت ذنوبه وعيوبه : (أقرب الموارد) .
(٣) كان الهجويرى أول من طرق فكرة أنه كان هناك شخصان باسم الحلاج : أحدهما « الحسن بن منصور » الملحد المنسوب الى بغداد ، والآخر « الحسين بن منصور » الحلاج الحقيقى الفارسى المنسوب الى بيضاورد . وقد نقل « العطار » فى تذكرة الاولياء و « محمد بارسا » فى فصل الخطاب هذه الفكرة عنه .
(٤) « البيضاء » (بيضا ورد) : مدينة بفارس وهى أكبر مدينة فى كورة اصطخر . وانما سميت البيضاء لان لهاقلعة تبين من بعد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للمسلمين يقصدونها فى فتح اصطخر . وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ (معجم البلدان ج ١ ص ٧٩١) .

بالجنيد فلم يقبله ، ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل .

أما رأيت أن الشبلى قال : « أنا والحلاج شىء واحد فخلصنى جنونى وأهلكه عقله » ؟ فلو كان مطعونا فى دينه لما قال الشبلى أنا والحلاج شىء واحد ، وقال محمد بن خفيف : « هو عالم ربانى(١) » ومثل هذا ، فغضب شيوخ الطريقة والمشايخ — رضى الله عنهم — وعقوقهم ، أثمر الهجران والوحشة .

وله تصانيف زاهرة ورموز وكلام مهذب فى الأصول والفروع . وأنا على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفا(٢) فى بغداد ونواحيها ، وبعضها فى خوزستان(٣) وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعا — كما هو الحال فى بداية أمر المريدين — أقوالا : بعضها أقوى ، وبعضها أضعف ، وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع . وحين يكون لانسان دليل وبرهان من الحق وتواتيه العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقا ، خاصة وأن المعبر يغرب فى عبارته ، وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ، وتعجز العقول عن ادراكه ، ومن ثم يقولون ان هذا الكلام عال ، فينكره فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون انكارهم كاقرارهم . ولكن حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون بالغرابة ، ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من انكاره واقراره .

ثم ان هؤلاء الذين نسبوا ذلك الرجل الى السحر باطل زعمهم ، لأن السحر فى أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، واظهار السحر فى حال الكمال كفر ، واظهار الكرامة فى حال الكمال معرفة ، لأن الأول يكون نتيجة سخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة رضاه . وسنزيد هذا الكلام شرحا فى باب اثبات الكرامات ان شاء الله تعالى .

وباجماع أهل البصيرة من أهل السنة والجماعة ، لا يكون المسلم ساحرا والكافر مكرما ، لأن الأضداد لا تجتمع . وكان الحسين رضى الله عنه طوال عمره فى لباس الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ،

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٣٠٨) .
(٢) ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين كتابا من كتب الحلاج (أنظر الفهرست ص ٢٧١)
(٣) « خوزستان » : (معربها « الاخواص ») وهو اسم لجميع بلاد الخوز . قال ابن الفقيه الاصمعى : الخوز هم الفعلة الذين بنوا السرخ . وقال أبو زيد : وليس بخوزستان جبال ولا رمال الا شىء يسير يتاخم نواحى تستر وجند يسابور . وأما أرض خوزستان فأشبه شىء بأرض العراق . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩٦) .

وصيامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونكات لطيفة فى التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . فصح اذن أنها كانت كرامات ، والكرامات لا تكون الا لولى محقق .

وقد رده بعض أهل الأصول ، وهم يعترضون عليه فى كلماته التى تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، وذلك مبالغة منه وتهويل فى العبارة لا فى المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته فى غلبة الحال .

ويجوز أيضا أن يكون معنى العبارة مشكلا فلا يستطيعون فهم المعنى المقصود ، ويصور لهم وهمهم صورة عنه ، فينكرونه ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى .

غير انى رايت فريقا من الملاحدة — أخزاهم الله — فى بغداد ونواحيها يدعون توليهم له ، وقد جعلوا أقواله حجة لزندقتهم ، وأسموا أنفسهم الحلاجيين . وهم يغالون فى أمره كغلو الرافضة(١) فى تولى على رضى الله عنـــه .

وسأورد بابا فى الفرق بين الفرق أرد فيه على كلماتهم ان شاء الله عز وجل .

وفى الجملة : أعلم أنه لا يجوز الاقتداء بكلامه لأنه كان مغلوبا فى حاله لا متمكنا ، وينبغى للكلام متمكن حتى يمكن الاقتداء به . وهو عزيز على قلبى كثيرا بحمد الله ، ولكن طريقه غير مستقيمة على أى أصل ، وحاله غير مستقر على أى وجه ، وفى أحواله فتن كثيرة . وكان لى فى ابتداء حالى منه قوى فى معنى البراهين . وقـــد صنفت قبل هذا كتابا فى شرح كلامه ، وأثبت بالدلائل والحجج علو كلامه وصحة حاله فى ذلك الكتاب ، وذكرت بدايته ونهايته فى كتاب آخر اسمه المنهاج ، وقد أوردت هنا أيضا هذا المقدار . والطريق الذى ينبغى اثبات أصله بكثير من الاحتراز ، لمـــاذا ينتمى الناس اليه ويقتدون به ؟ ولكن الهوى لا يتفق أبدا مع الاستقامة ، ويبحث دائما عن الطريق المعوج ليتعلق به .

---

(١) « الرافضة » : فرقة من الشيعة سميت بذلك لانه لمـــا خرج زيد بن على بن الحسين سئل عن رأيه فى أبى بكر وعمر فأحسن القول فيهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة من أجل توليه لهما فسموا رافضة . وانقسم الشيعة اذ ذاك فريقين : رافضة وزيدية ، وكلاهما يفضل عليا على أبى بكر وعمر ، ولكن الزيدية أقل طعنا عليهما وأعدل حكما فيهما .
« ضحى الاسلام » أحمد أمين : القاهرة ١٩٥٦ ج ٣ ص ١٣٦

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « الألسنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات »(١) .

وهذه العبارة كلها آفة ، وفى حقيقة المعنى هذر . واذا حصل المعنى لا يفقد بالعبارة ، واذا فقد المعنى لا يوجد بالعبارة ، لأن الوهم يظهر فيها ويهلك الطالب ، لأنه يخال العبارة : المعنى . والله أعلم .

● **ومنهم :** قائد المتوكلين ، ورئيس المستسلمين : « **أبواسحق ابراهيم ابن أحمد الخواص(٢)** » رضى الله عنه . كان ذا شأن عظيم ومنزلة رفيعة فى التوكل ، أدرك كثيرا من الشيوخ ، وله آيات وكرامات كثيرة ، وتصانيف طيبة فى معاملات هذه الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « العلم كله فى كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت »(٣) .

والمراد من هذا هو أن لا تتكلف فى القسمة ، لأن القسمة الأزلية لا تتغير بتكلفك . ولا تقصر فى الأمر لأن ترك الأمر يثمر لك العقوبة .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت منها الكثير ، ولكن ليس فيها ما هو أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب منى أن يصحبنى فلم أجبه . قيل : لم ؟ قال : لا لأنى كنت أطلب رفيقا خيرا منه ، ولكنى خشيت أن أعتمد عليه دون الحق ، وتضر صحبته بتوكلى ، وأتخلف بالنافلة عن الفريضة .

وهذا من درجات الكمال ، والله أعلم .

● **ومنهم :** حجاب الأسرار والتمكين . وأساس أهل اليقين : « **أبوحمزة البغدادى البزاز(٤)** » رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومتكلميهم ،

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ألسنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات . وأنفس مستعملات تحت استعمالها مستهلكات » (أنظر ص ٣١٠) .
(٢) ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل : كان أوحد المشايخ فى وقته ، ومن أقران الجنيد والنورى . مات فى جامع الرى سنة احدى وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٨٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٤٩ ، نفحات الانس ص ١٣٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٧) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٨٥) .
(٤) اسمه : محمد بن ابراهيم . كان يتكلم ببغداد فى مسجد الرصافة قبل كلامه فى مسجد المدينة . وكان ينتمى الى حسن المسوحى . وتكلم يوما فى جامع المدينة ، فتغير عليه حاله ، وسقط عن كرسيه ، ومات فى الجمعة الثانية . كان من رفقاء أبى تراب النخشبى فى أسفاره ، ودخل البصرة مرارا . وتوفى سنة تسع وثمانين =

ومريد الحارث المحاسبى ، وصحب السرى . وكان من أقران النورى وخير النساج ، وصحب محتشمى المشايخ .

كان يعظ فى مسجد الرصافة فى بغداد ، وكان عالمـــا بالتفسير والقراءات ، وله فى أحاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

وكان رفيق الثورى فى وقعته وبلائه اللذين خلصهما الله تعالى منهما، وسأذكر ذلك فى شرح مذهب النورى ان شاء الله عز وجل .

ويرد عنه أنه قال : « اذا سلمت منك نفسك فقد أديت حقها ، واذا سلم منك الخلق قضيت حقوقهم(١) » .

أى أن الحقوق اثنان : أحدهما حق نفسك عليك ، والثانى حق الخلق عليك فاذا منعت نفسك من المعصية ، وطلبت طريق سلامة أخراها ، فانك تكون قد قضيت حقهـــا ، واذا أمنت الخلق من أذاك ولم تطلب أســـاءتهم ، فانك تكون قد قضيت حقهم . فاجتهد أن لا يصيبك والخلق منك أذى ، ومن ثم انشغل بقضايا حق الحق . والله أعلم .

● **ومنهم** : الامام فى فنه ، العالى الحال ، اللطيف الكلام : « **أبوبكر محمد ابن موسى الواسطى** »(٢) رضى الله عنه . كان من محققى المشايخ ، وذا شأن عظيم ودرجة رفيعة فى الحقائق ، ومرضيا لدى جملة المشايخ .

وكان من قدماء أصحاب الجنيد ، وذا عبارات غامضة لا يفهمها أهل الظاهر . ولم يستقر ببلد قط ، فلما ورد مرو قبله أهلها للطف طبعـــه وحسن سيرته ، وسمعوا أقواله . وقضى هنالك عمره .

ويرد عنه أنه قال:« الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره(٣)» لأنه اذا ذكره الذاكر ، فلا ضير اذا نسى ذكره ، وانما الضير فى أن يذكر ذكره وينساه ، لأن الذكر غير المذكور ، فالاعراض عن المذكور مع ذكر الذكر يكون أقرب الى الغفـــلة من الاعراض بلا ذكر ، ولا يكون للناسى فى النسيان وغيبة الذكر حضور .

= ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٥٩ ، نفحات الانس ص ٧١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٦) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : اذا سلمت منك نفسك فقد أديت حقها ، واذا سلم منك الخلق فقد أديت حقوقهم (أنظر ص ٢٩٨) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « الذاكرون فى ذكره أكثر من الناسين لذكره ، لان ذكره سواه » (أنظر ص ٣٠٥) .

وللذاكر فى الذكر والغيبة عن المذكور : ذكر الحضور ، وذكر الحضور بلا حضور أقرب الى الغفلة من الغيبة بلا ذكر ، لأن هلاك طلاب الحق فى ذكرهم ، فحيثما يكون الذكر أكثر ، يكون المعنى أقل . وحيثما يكون المعنى أقل ، يكون الذكر أكثر . وحقيقة ذكرهم من تهمة العقل ، والعقل يحصل من الهمة ، ولا اقتران للهمة قط بالنهمة والتهمة .

وأصل الذكر يكون فى الغيبة أو الحضور ، فحين يكون للذاكر غيبة عن نفسه وحضور مع الحق تعالى ، فانه لا يكون ذكرا ، بل مشاهدة . وحين يكون غائبا عن الحق وحاضرا مع نفسه ، فذلك لا يكون ذكرا ، بل غيبة ، والغيبة من الغفلة ، والله أعلم .

● **ومنهم** : سكينة الأحوال ، وسفينة المقال : « **أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى** »(١) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومذكوريهم ، وذا حال مهذب ووقت مطيب مع الحق تعالى ، وله اشارات لطيفة ومقبولة ، « كما قال واحد من المشايخ المتأخرين : ثلاثة من عجائب الدنيا : اشارات الشبلى ، ونكات المرتعش ، وحكايات جعفر » .

وكان من كبار أهل التصوف وسادات الطريقة . وكان أولا ابن حاجب حجاب الخليفة ، وتاب فى مجلس خير النساج رحمه الله ، وصار مريدا للجنيد ، ورأى كثيرا من المشايخ .

يرد عنه أنه قال فى معنى قول الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم »(٢) أى : أبصار الرءوس عن المحارم ، وأبصار القلوب عما سوى الله » ، فمتابعة الشهوة وملاحظة المحارم من الغفلة ، والمعصية الكبرى لأهل الغفلة هى أنهم يجهلون عيوبهم ، ومن يكن جاهلا فى الدنيا يكن أيضا جاهلا فى الأخرى ، لقوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى »(٣) .

وفى الحقيقة أنه اذا لم يطهر الله قلب انسان من ارادة الشهوة ، فانه لا يحفظ عينه من غوامضها ، واذا لم يثبت ارادته فى قلب انســـان فانه لا يحفظ بصيرته من النظر الى الغير .

ويرد عنه أنه دخل السوق يوما ، فقال قوم : « هذا مجنون » ! . فقال رضى الله عنه : « أنا عندكم مجنون وأنتم عندى أصحاء ، فزاد الله فى جنونى وزاد فى صحتكم » ، فجنونى من شدة المحبة ، وصحتكم من غاية

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) سورة « النور » آية ٣٠

(٣) سورة « الاسراء » آية ٧٢

الغفلة ، فليزد الله فى جنونى لأزداد قربا على قرب ، وليزد فى صحتكم(١) لتزدادوا بعدا على بعد .

وهذا القول من الغيرة ، والا فكيف يكون فى تلك الدرجة شخص لا يميز بين المحبة والجنون ؟!

● **ومنهم :** حاكى أحوال الأولياء بألطف الأقوال والأداء :

« **أبو محمد جعفر بن نصير الخلدى (٢)** » رضى الله عنه ، كان من كبار أصحاب الجنيد ، ومن قدماء الصوفية ، متبحرا فى فنون هذا العلم ، وحافظ أنفاس المشايخ وراعى حقوقهم .

وله كلام عال فى كل فن ، وقد ربط كل مسألة بحكاية ونسبها الى غيره ، تجنبا للرعونة .

ويرد عنه أنه قال : « التوكل استواء القلب عند العدم والوجود »(٣) .

أى أن التوكل هو أن يكون وجود الرزق وعدمه لدى قلبك سواء ، فلا تفرح بوجود الرزق ، ولا تغتم لعدمه ، لأن الجسد ملك للمالك ، والحق تعالى أولى برعايته وهلاكه ، وهو يحفظه كما يريد فلا تتدخل بينهما ، ودع الملك للمالك ، واقطع تصرفك .

ويروى هذه الحكاية فيقول : دخلت على الجنيد فوجدته محموما ، فقلت يا استاذ ! ادع الحق تعالى أن يشفيك . فقال : لقد كنت أدعو بالأمس فنوديت فى سرى : ان جسدك ملك لنا ، فاذا شئنا جعلناه صحيحا ، واذا شئنا جعلناه عليلا ، فمن أنت حتى تتدخل بيننا وبين ما نملك ؟ فاقطع تصرفك لتكون عبدا . والله أعلم بالصواب .

---

(١) الكلمة الفارسية فى الاصل تعطى معنى « صحوكم » .

(٢) اسمه : جعفر بن محمد بن نصير . بغدادى المنشأ والمولد . صحب الجنيد وأبا الحسين النورى وغيرهم من مشايخ الوقت . وكان المرجع اليه فى علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم . كان من أفتى المشايخ وأجلتهم وأحسنهم قولا . توفى ببغداد سنة ثمان وأربعين وثلثمائة . أسند الحديث ورواه . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٣٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٣ ، نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : سئل عن التوكل فقال : استواء القلب عند العدم والوجود، بل الطرب عند العدم والخمول عند الوجود ، بل الاستقامة مع الله تعالى على الحالين » (أنظر : ص ٤٣٧) .

ومنهم الشيخ المحمود ، ومعدن الجود :

« **أبو على بن محمد بن القاسم الرودبارى(١)** » رضى الله عنه كان من فتيان المتصوفة وقادتهم ، ومن أبناء الملوك ، وذا شأن عظيم فى فنون المعاملات، ومناقب كثيرة وأقوال لطيفة فى دقائق الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « المريد لا يريد لنفسه الا ما أراده الحق له ، والمراد لا يريد من الكونين شيئا غيره(٢) » ، فيجب أن يكون الراضى بارادة الحق تاركا لارادته ، ليكون مريدا . وليس للمحب نفسه ارادة حتى يكون له مراد ، ومن يريد الحق لا يريد الا ما يريده له . والمراد من الحق لا يريد غير الحق ،فالرضا من بداية المقامات ، والمحبة من نهاية الأحوال . والمقامات تنسب الى تحقيق العبودية ، والدرجات تنسب الى تأييد الربوبية . وما دام الأمر كذلك ، يكون المريد قائما بنفسه ، ويكون المراد قائما بالحق ، والله أعلم .

● **ومنهم :** خازن التوحيد ، وسمسار التفريد :

« **أبو العباس القاسم بن مهدى السيارى(٣)** » رضى الله عنه . كان من أئمة عصره ، عالما بعلوم الظاهر والباطن ، صحب أبا بكر الواسطى ، وأخذ الأدب عن كثير من المشايخ .

وكان أظرف القوم فى الصحبة ، وأزهدهم فى الآفة ، وله كلام عال وتصانيف محمودة .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد أن لا يخطر بقلبك ما دونه(٤) » . لأن التفكير فى الغير من اثباتهم ، واذا ثبت الغير : سقط حكم التوحيد .

وكان فى البداية من بيت علم ورئاسة ، ولم يكن أحد من أهل مرو يتقدم على أهل بيته فى الجاه ، وورث عن أبيه ميراثا كبيرا ، فدفعه كله ثمنا لشعرتين من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن الله عليه بالتوبة

---

(١) كنيته أبو على ، واسمه : أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار . من أهل بغداد . سكن مصر وصار شيخها ومات بها . صحب الجنيد والنورى ومن فى طبقتهم ، وصحب بالشام ابن الجلاء . كان عالما فقيها عارفا بعلم الطريقه ، حافظا للحديث . توفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٥٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٥١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٣).

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٥٦) .

(٣) اسمه القاسم بن القاسم بن مهدى ، كان من أهل مرو وشيخهم ، وأول من تكلم عندهم فى حقائق الاحوال . كان فقيها عالما ، كتب الحديث الكثير ورواه . توفى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٤٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٤ ، نفحات الانس ص ١٤٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « حقيقة المعرفة أن لا يخطر بالقلب مادونه » (أنظر ص٤٤٤)

ببركات ذلك ، وصحب أبا بكر الواسطى رحمه الله ، وبلغ من الدرجة أن صار امام صنف من المتصوفة . ولما أشرف على ترك الدنيا ، أوصى فوضعوا الشعرتين فى فمه .

وقبره اليوم ظاهر بمرو ، والنـــاس يذهبون اليه لطلب الحاجات ، وتحقيق الأمنيات ، وهو مجرب ، والله أعلم .

● **ومنهم :** مالك وقته فى التصوف ، والخالى طبعه من التكلف والتصرف ، **« أبو عبد الله محمد بن خفيف(١) »** رضى الله عنه . كان امام زمانه فى مختلف العلوم ، وذا شأن عظيم فى المجاهدات ، وبيان شاف فى الحقائق ، وعهد مهيأ وواضح فى التصانيف . وقـــد أدرك ابن عطاء ، والشبلى ، والحسين بن منصور والجريرى ، وصحب أبا يعقوب النهرجورى بمكة ، وقام بأسفار طيبة على التجريد .

وكان من أبناء الملوك ، فرزقه الله تعالى التوبة ، وأعرض عن الدنيا ، وشأنه عظيم عند أهل المعانى .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد : الاعراض عن الطبيعة » . لأن الطبائع كلها مكفوفة عن نعمائه ، ومحجوبة عن آلائه ، فما لم يحصل الاعراض عن الطبع ، لا يتأتى الاقبال على الحق ، وصاحب الطبع محجوب عن حقيقة التوحيد . ومتى رأيت آفة الطبع ، بلغت حقيقة التوحيد .

وله آيات وبراهين كثيرة . والله أعلم .

● **ومنهم :** سيف السياسة ، وشمس السعادة :
« أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى »(٢) رضى الله عنه . كان من كبار أهل التمكين ، ذا حظ وافر فى فنون العلم ، وصاحب رياضات وسياسات ، وله فى رؤية الآفات آيات كثيرة وبراهين طيبة .

---

(١) كان شيخ المشايخ فى وقته . وكان عالمـــا بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة جـ ١ ص ١٧٣ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء جـ ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الاصفياء جـ ٢ ص ٤) .

(٢) سعيد بن سلام : من ناحية « قيروان » وهى مدينة عظيمة بأفريقية ، مصرها عقبة ابن نافع بعد أن أتم فتح أفريقية . أقام بالحرم مدة وكان شيخه . كان أوحد فى طريقته فى الزهد . ورد نيسابور ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٧٩ ، الرسالة جـ ١ ص ١٧٩ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٧ ، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٨١ ، تذكرة الاولياء جـ ٢ ص ٣٠٦ ، خزينة الاصفياء جـ ٢ ص ٦) .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب » .

أى قال : ان الصحبة تكون مع الأغنياء ، والمجالسة تكون مع الفقراء . فانما يعرض عن الفقراء من يكون قد جالسهم ، لا من يكون قد صحبهم ـــ لأنه لا اعراض فى الصحبة ـــ وحين ينصرف عن مجالستهم الى صحبة الأغنياء ، يموت قلبه بموت الاحتياج ، ويبتلى جسده بالعجب والغرور ،

واذا كان الاعراض عن المجالسة يثمر موت القلب ، فكيف يكون الاعراض عن الصحبة ؟

وقد ظهر فى هذه الكلمات الفرق بين الصحبة والمجالسة ، والله أعلم .

● **ومنهم :** المبارز فى صفوف الصوفيين ، والمعبر عن أحوال العارفين ، **« أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محمويه(١) النصر ابادى(٢) »** رضى الله عنه . كان فى نيسابور كالملك شابور(٣) من نشابور ، أى أنه ملك نيسابور بعلو الحال ومرتبة الرجال ، غير أن عز الملوك يكون فى الدنيا ، وعزه فى الآخرة.

وله كلمات بديعة وآيات رفيعة . وكان مريد الشبلى وأستاذا للمتأخرين من أهل خراسان . ولم يكن له مثيل فى عصره ، فقد كان أعلم وأورع أهل زمانه فى فنون العلم .

---

(١) ورد هذا الاسم فى الأصل « محمود » وفى الحاشية « حمويه » وفى طبقات الصوفية ونفحات الأنس « محمويه » .

(٢) أبو القاسم النصرابادى : نيسابورى الأصل والمنشأ والمولد . شيخ خراسان فى وقته . أقام بنيسابور ثم خـرج فى آخر عمره الى مكة وحج ســنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وأقام بالحرم مجاورا ، مات سنة سبع وستين وثلثمائة . كتب الحديث الكثير ورواه ، وكان ثقة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٨٤ ، الرسالة جـ ١ ص ١٨١ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٧ ، تذكرة الاولياء جـ ٢ ص ٣١١ ، نفحات الأنس ص ٢٣٠) .

(٣) « شابور » : سابور الأول ابن أردشير بن بابك : الملك الساسانى . تولى الملك بعد أبيه سنة ٢٤١ م ، وفى أيامه ظهر « مانى» وقال بالأيتين ، وعاب مذهبه . ومال سابور اليه . وقال مالى ان مدبر العالم اثنان وهما شيئان قديمان : نور وظلمة ، خالقان : فخالق خير وخالق شر . فأجابه سابور الى هذه المقالة وأخذ بها أهل مملكته .وأقام سابور على هذهالمقالة عشرسنينثم رجع عن الثنويةالىالمجوسية، وهم بقتل مانى ، فهرب الى بلاد الهند ، وأقام بها حتى مات سابور .
وفى حروبه مع الرومان انتصر عليهم وحاصر ملكهم « فاليريان » بمدينة انطاكية ، وأسره وحمله وجماعة كثيرة معه وأسكنهم « جندى سابور » . ولكن ســابور هذا الذى تغلب على الروم ، استطاع « أذينة » العربى حاكم « تدمر » أن يهزمه وعلى اثر هذه الهزيمة استولى على آسيا الصغرى والشـــام وجزء كبير من العراق ، واعترف به الامبراطور الرومانى « جالينوس » وخلع عليه لقب امبراطور . وخلفته زوجته « الزباء » بعد وفاته ، واستطاعت بوصفها وصية على ابنها « وهب اللات » أن تدفع اغارة الجيوش على تدمر .

يرد عنه أنه قال(١) : « أنت بين نسبتين : نسبة الى آدم ، ونسبة الى الحق . فاذا انتسبت الى آدم دخلت فى ميادين الشهوات ، ومواضع الآفات والزلات ، وهى نسبة تحقق البشرية لقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا(٢) » . فاذا انتسبت الى الحق دخلت فى ميادين الكشف والبراهين والعصمة والولاية ، وهى نسبة تحقق العبودية لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا(٣) » .

ونسبة آدم منقطعة يوم القيامة ، ونسبة عبوديته قائمة دائمة ولايتطرق اليها التغير . وعندما ينسب العبد نفسه الى نفسه أو الى آدم ، فان كمال هذه النسبة أن يقول : « انى ظلمت نفسى(٤) » . وحين ينتسب الى الحق يكون الآدمى أهلا لقول الحق تعالى : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم(٥) » . والله أعلم .

● **ومنهم** : سرور سر سالكى الطريق ، وجمال أرواح أهل التحقيق ، **« أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى(٦) »** رحمه الله ، ورضى عنه . كان من محتشمى أحرار حضرة الحق تعالى ، ومن كبراء أئمة المتصوفة ، ولم يكن له نظير فى زمانه ، وله كلام عال وعبارات حسنة فى كل المعانى .

= ويتصل بتاريخ سابور أيضا قصته مع صاحب « الحضر » — وكان يقال له : « الساطرون » أو « الضيزن » — وابنته « النضيرة » التى عشقت سابور وعشقها ، واتفقت معه على حيلة يستطيع بها أن يدخل مدينة أبيها بجيوشه ويقتله فى مقابل أن يتزوجها ، ففعل وتداعت المدينة ففتحها عنوة وقتل الضيزن وخرب المدينة وحمل معه النضيرة وتزوجها ثم لم يلبث أن قتلها . وينسب الى سابور بناء مدينة نيسابور فى خراسان ، ومدينة « جندى سابور » فى الاهواز . وملك سابور احدى وثلاثين سنة . (انظر : تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٢٩ ، مروج الذهب جـ ١ ص ١٠٤ ، تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٧ — ٥١) .

(١) ورد هذا القول فى طبقات الصوفية : « أنت بين نسبتين : نسبة الى الحق ، ونسبة الى آدم . فاذا انتسبت الى الحق دخلت فى مقامات الكشف والبراهين والعظمة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » ، وقال : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . وقال : فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . واذا انتسبت الى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

(٢) سورة « الأحزاب » آية ٧٢ .

(٣) سورة « الفرقان » آية ٣٦ .

(٤) سورة « القصص » آية ١٦ .

(٥) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

(٦) أبو الحسن الحصرى : بصرى الأصل وسكن بغداد . كان شيخ العراق ولسانها ، ومن أجل المشايخ . له لسان فى التوحيد يختص هو به ، ومقام فى التفريد والتجريد مسلم له ، لم يشاركه فيه أحد بعده .

استاذ العراقيين وبه تأدب من تأدب منهم . صحب الشبلى وغيره ، وتوفى سنة احدى وسبعين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة جـ ١ ص ١٨٣ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٢٩٨ ، المنتظم جـ ٧ ص ١١٠ ، تذكرة الاولياء جـ ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

يرد عنه أنه قال : « دعونى فى بلائى ، هاتوا مالكم . السقم من أولاد آدم الذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، ثم أمره بأمر فخالف ، اذا كان أول الدن دردیا(١) فكيف يكون آخره ؟(٢) » .

أى أنه اذا ترك الآدمى لنفسه يكون كله مخالفة ، أما اذا وافاه بعنايته يكون كله محبة .

فعدد حسن عناية الحق ، وقابلها بقبح معاملتك ، واقض العمر فى هذا . وبالله العون والعصمة .

هذا طرف من سيرة بعض المتقدمين من المتصوفة وأهل القدوة منهم رضى الله عنهم ، ولو ذكرتهم جميعا وشرحت أحوالهم العزيزة ، وأوردت حكاياتهم فى هذا الكتاب لعجزت عن المقصود ، ولطال الكتاب .

والآن : ألحق بهم فريقا من المتأخرين لتكون الفوائد والموائد أكثر ، وبالله العون والتوفيق .

---

(١) « درد » كلمة فارسية تعنى : رواسب الخمر فى الدن .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٤٩٠) .

الباب الثانى عشر
باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين رضوان الله عليهم اجمعين

اعلم ــ خيرك الله ــ أنه يوجد فى زماننا هذا جماعة لا قدرة لهم على تحمل الرياضة ، وهم يطلبون الرياسة بدون الرياضة ، ويظنون كل أهل التصوف مثلهم ، وعندما يسمعون أقوال السلف ، ويرون شرفهم ، ويقرأون معاملاتهم ، ينظرون فى أنفسهم فيرون أنهم بعيدون عنهم ، ولكنهم لايقصدون الى القول : اننا لسنا كذلك ، ولكن يقولون : لم يبق فى زماننا أمثال هؤلاء. وقولهم هذا محال ، لأن الله تعالى لا يترك الأرض أبدا بلا حجة ، ولا هذه الأمة بلا ولى ، كما قال النبى عليه السلام : « لا يزال طائفة من أمتى على الخير والحق حتى تقوم الساعة » ، ولقوله عليه السلام : « لا يزال من أمتى أربعون على خلق ابراهيم »(١) .

وفريق من أولئك الذين أذكرهم فى هذا الباب قد ماتوا وأسلموا الروح للراحة والروح ، وفريق أحياء ، رضى الله عنهم وعنا وعن جميع المسلمين، واشملنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

● **ومنهم** : طراز طريق الولاية ، وجمال جمع أهل الهداية :
« **أبو العباس أحمد بن محمد القصاب** »(٢) رضى الله عنه . وقد أدركه

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « لا يزال من أمتى أربعون على خلق ابراهيم عليه السلام ، اذا جاء الأمر قبضوا » (انظر ص ٢) .

(٢) **أحمد بن محمد بن عبد الكريم القصاب الآملى** : خليفة محمد بن عبد الله الطبرى ، ومريد أبى محمد الجريرى . شيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، لجأ اليه أبو سعيد بعد وفاة مرشده أبى الفضل محمد بن حسن السرخسى ، وسافر اليه فى آمل وظل يمارس الرياضة تحت اشرافه عاما ، ونال على يديه الخرقة الثانية . توفى فى أواخر

المتقدمون منا وصحبوه ، وهو معروف ومشهور بعلو الحال ، وصدق فراسة المقال ، وكثرة البراهين والكرامات .

ويقول أبو عبد الله الخياط امام طبرستان(١) : من أفضال الله عز وجل ان صير فينا رجلا غير متعلم نسأله اذا أشكل علينا شيء فى علوم الدين وأصوله ودقائق التوحيد ، وهو أبو العباس القصاب رضى الله عنه .

وكان أميا ، غير أن أقواله ونكاته فى علم التصوف والأصول كانت رفيعة جدا . وكان فى ابتداء حاله وانتهائه عظيما وحسن السيرة . وقد سمعت عنه حكايات كثيرة ، ولكن مذهبى فى هذا الكتاب هو الاختصار .

يقال ان صبيا كان قد أمسك بزمام بعير يحمل حملا ثقيلا ، وكان يسير به فى سوق آمل(٢) — ويوجد وحل هنالك دائما — فانزلقت رجل البعير ووقع وانكسرت رجله ، فقصد الناس انزال الحمل عن ظهر البعير ، واستغاث الصبى . ومر بهم (أبو العباس) وقال : ماذا حدث ؟ فأخبروه ، فأمسك رضى الله عنه بزمام البعير ، واتجه الى السماء قبلة الدعاء ، وقال: اللهم اشف هذا البعير ، واذا لم تشأ أن تبرئه ، فلم أحرقت قلب القصاب ببكاء هذا الصبى ! وفى الحال نهض الجمل ، ومضى صحيحا معافى .

ويرد عنه أنه قال : يجب على العالم جميعا — أرادوا أو لم يريدوا — أن يأنسوا بالله ، والا فانهم يتألمون . لأنك اذا أنست به ترى المبلى فى البلاء فلا يكون البلاء بلاءا ، واذا لم تأنس به فانه عندما يحل البلاء تتأذى ، والله تعالى لا يغير تقديره برضاء أحد أو سخطه ، فرضاؤنا بحكمه راحة لنا ، وكل من يأنس بالله يرتاح قلبه ، وكل من يعرض عنه يتألم لورود القضاء . والله أعلم .

= القرن الرابع الهجرى.قيل له : ألف السلمى كتابا فى طبقات الشيوخ . فسأل : هل ذكر اسمى فيه ؟ قالوا : لا . قال : لم يفعل شيئا . (انظر ترجمته فى تذكرة الأولياء جـ٢ ص ١٨٥ ، نفحات الأنس ص ٢٨٦ ، وما ورد عنه من اشارات فى أسرار التوحيد الترجمة العربية ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩) .

(١) « طبرستان » : بلد منفرد له مملكة جليلة ولم يزل ملكه يسمى الاصبهبد . وهو بلد كثير الحصون منيع بالأودية وأهله أشراف العجم أبناء ملوكهم (البلدان ص ٤٣) غزاها سعيد بن العاص فى عهد عثمان بن عفان (معجم البلدان جـ ٣ ص ٥٠١) .

(٢) « آمل » : مدينة طبرستان الثانية . من الرى اليها مرحلتان . وآمل على بحر الديلم . (البلدان ص ٤٣) .

● **ومنهم** : بيان المريدين ، وبرهان المحققين :

« أبو على الحسن بن محمد بن على الدقاق »(١) رضى الله عنه . كان امام فنه ، منقطع النظير فى زمانه ، وذا بيان صريح ولسان فصيح فى كشف طريق الله تعالى . رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وكان مريد النصرابادى ، ويذكر الناس .

يرد عنه انه قال : « من أنس بغيره ضعف فى حاله ، ومن نطق من غيره كذب فى مقاله » ، لأن الأنس بالغير **غاية** فى الجهل وعدم المعرفة ، والأنس به وحشة من الغير . والمستوحش من الغير لا ينطق عن الغير .

وسمعت شيخا يقول : ذهبت يوما الى مجلسه وأنا أنوى أن أسأله عن حال المتوكلين ، وكان قد لبس عمامة طبرية حسنة ، فمال اليها قلبى . وقلت له : أيها الشيخ ! ما التوكل ؟ قال : أن تقصر الطمع عن عمائم الناس . قال هذا وألقى الى بالعمامة ، رضى الله عنه .

● **ومنهم** : الامام الأوحد ، وشرف أهل الزمان :

« أبو الحسن على بن أحمد الخرقانى »(٢) رضى الله عنه . كان من أجلة المشايخ وقدمائهم ، وممدوحا فى وقته من جميع أولياء الله . وقد قصد الشيخ أبو سعيد زيارته ، وكانت له معه محاورات لطيفة فى كل فن . وحين كان يهم بالعودة قال له (الخرقانى) قد اخترتك لولاية عهدى .

وسمعت من حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبى سعيد أنه عندما ذهب الشيخ الى (أبى الحسن الخرقانى) لم يتحدث قط ، وكان فقط يستمع اليه، ويجيب على أسئلته . وقلت له : أيها الشيخ ! لم صمت هكذا ؟ فلم يجب بغير كلمة واحدة هى : كفى(٣) .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيرى رضى الله عنه يقول : عندما بلغت

---

(١) أبو على الدقاق الصوفى . أستاذ ابى القاسم القشيرى وصهره . توفى فى نيسابور سنة خمس وأربعمائة ، ويقول آخر سنة ست وربعمائة . (انظر ترجمته فى تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ١٧٧ ، نفحات الأنس ص ٢٩١ ، سفينة الأولياء ص ١٥٩ ، خزينة الاصفياء جـ ٢ ص ٢١٤ ، شذرات الذهب ص ١٧٨) .

(٢) أبو الحسن الخرقانى : اسمه على بن جعفر . مريد أبى العباس القصاب ، ومن معاصرى أبى على الدقاق وأبى عبد الرحمن السلمى وأبى سعيد بن أبى الخير . من الصوفية أصحاب السكر ، والمروجين لوحدة الوجود ، فقد كان يعتنق مذهب أبى يزيد البسطامى . توفى سنة خمس وعشرين وأربعمائة . (انظر ترجمته فى : تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٣٠١ ، نفحات الأنس ص ٢٩٨ ، رياض العارفين ص ٤٧ ، خزينة الاصفياء جـ ١ ص ٥٢٢) .

(٣) انظر قصة زيارة أبى سعيد للخرقانى فى أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٦٠ وما بعدها .

خرقان(١) انتهت فصاحتى وزالت عبارتى من حشمة ذلك الشيخ ، حتى ظننت أنى عزلت عن ولايتى .

ويرد عنه أنه قال : الطريق طريقان : طريق الضلالة ، وطريق الهداية ، فطريق الضلالة هو طريق العبد الى الله ، وطريق الهداية هو طريق الله الى العبد . وكل من يقول : وصلت ، لم يصل . وكل من يقول : أوصلونى ، وصل ، لأن الايصال منعقد فى الوصول ، وعدم الوصول مرتبط بالوصول ، والله أعلم .

● **ومنهم** : ملك وقته وزمانه ، والمفرد فى بيانه وعيانه :
« أبو عبد الله محمد بن على المعروف بالداستانى(٢) » رضى الله عنه . كان عالما بأنواع العلوم ، وسائسا مهذبا ، ومن محتشمى حضرة الحق . وله أقوال مهذبة ، واشارات لطيفة .

وكان الشيخ السهلكى(٣) ، امام تلك الديار خلفا طيبا له . وقد سمعت من السهلكى بعض أقواله ، وهى أقوال عالية وطيبة جدا ، كقوله : « التوحيد عنك موجود ، وأنت فى التوحيد مفقود » .

أى أن التوحيد صحيح عنك ، ولكنك غير صحيح فى التوحيد ، لأنك لاتقوم بمقتضى حقه . وأقل درجة فى التوحيد ، نفى التصرف عنك فى الملك ، واثبات التسليم فى أمورك للحق عز وجل .

قال الشيخ السهلكى(٣) : فى وقت من الأوقات هجم الجراد على بسطام ، وقد اسودت الأشجار والمزروعات جميعا من كثرته ، فضج الناس بالدعاء . وسألنى الشيخ : ماذا حدث ؟ قلت : أقبل الجراد والناس فى عناء منه .

---

(١) « خرقان » : قرية من قرى بسطام على طريق استرآباد بها قبر أبى الحسن على ابن أحمد . له كرامات . مات سنة ٤٢٥ هـ (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٤) .

(٢) أبو عبد الله الداستانى : من أقران أبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير ، ومن أتباع مذهب أبى يزيد البسطامى . كان يلقب بشيخ المشايخ . توفى سنة سبع عشرة وأربعمائة (أنظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٩٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢١٦) .

(٣) كان شيخ الصوفية فى بسطام . أشار اليه ابن الاثير فذكر أنه عندما حمل الشيخ أبو اسحاق الشيرازى رسالة الخليفة المقتدى بالله الى السلطان ملكشاه السلجوقى والوزير نظام الملك ، كان كلما وصل الى مدينة من بلاد العجم خرج أهلها لاستقباله . ولما وصل بسطام خرج اليه السهلكى شيخ الصوفية بها ، وهو شيخ كبير ، فلما سمع أبو اسحاق بوصوله خرج اليه ماشيا ، فلما رآه السهلكى ألقى نفسه من دابة كان عليها ، وقبل يد الشيخ أبى اسحاق ، فقبل أبو اسحاق رجله وأجلسه فى موضعه . (ابن الاثير : انظر حوادث سنة ٤٧٥) . وهذه القصة وردت أيضا فى المنتظم فى ترجمة أبى اسحاق الشيرازى (انظر المنتظم ج ٩ ص ٧)

فنهض الشيخ وصعد الى السطح ، ورفع وجهه نحو السماء ، فطار الجراد كله فى الحال ! وعند صلاة العصر لم تبق منه واحدة ، ولم تتلف ورقة زرع لأحد . والله أعلم .

● **ومنهم** : سلطان السلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين :
« أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهنى(١) » رضى الله عنه . كان سلطان الطريقة ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال .

كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة ، وشأن عظيم فى درجة الاشراف على الأسرار . وكان له — غير هذا — آيات وبراهين كثيرة ، كما هو ظاهر من آثاره اليوم فى العالم .

ترك فى بداية حاله « ميهنه(٢) » وذهب الى « سرخس(٣) » لطلب العلم ، واتصل بأبى على زاهر(٤) رحمه الله ، وكان يصوم يوما كل ثلاثة أيام ، ويقضى تلك الأيام الثلاثة فى العبادة ، الى أن رأى فيه ذلك الامام الرشد ، وزاد فى تعظيمه .

وكان ولى الصوفية فى سرخس فى ذلك الوقت الشيخ أبوالفضل حسن(٥) رحمة الله عليه،وذات يوم كان (أبو سعيد) يسير على شاطىء نهر سرخس، فتقدم اليه أبو الفضل حسن وقال : يا أبا سعيد ! ليس هذا طريقك الذى تسير فيه ، فاسلك طريقك . فتعلق به الشيخ ، ورجع من عنده الى موطنه ، وانشغل بالرياضة والمجاهدة ، حتى فتح الحق عليه باب الهداية ، وأوصله الى الدرجة الأعلى .

---

(١) سبق التعريف به فى القسم الأول ضمن الشخصيات التى تأثر بها الهجويرى .

(٢) « ميهنه » : من قرى خابران . وهى ناحية بين أبيورد وسرخس قد نسب اليها جماعة من أهل العلم والتصوف منهم أبو سعيد أسعد بن أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير وأبو الفتح طاهر وكانا من أهل التصوف وبيته (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢٣) .

(٣) « سرخس » من قرى خابران مثل نسا وابيورد .وقد فتحت هذه البلاد فى سنة ٣٠ فى أيام عثمان رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٧١) .

(٤) أبو على زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسى : الفقيه المقرىء . كان من كبار الشافعية ، وشيخ عصره فى خراسان . وكان يعد من تلاميذ الأشعرى فى علم الكلام . توفى سنة تسع وثمانين وثلثمائة : « طبقات الشافعية » انظر : ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٤٣ .

(٥) أبو الفضل حسن : اسمه محمد بن الحسن السرخسى : نسبة الى سرخس . كان مريدا لأبى نصر السراج الطوسى ، ومرشدا لأبى سعيد بن أبى الخير . توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ودفن بموطنه سرخس وقبره بها . (انظر ماورد عنه فى أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٢ — ٧٢ ، ترجمته فى تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٣٧ ، نفحات الأنس ص ٢٨٤) .

سمعت الشيخ أبا مسلم الفارسى(١) يقول : كنت معه دائما فى خصومة. وذات يوم ذهبت اليه وقد ارتديت مرقعة صارت كالجلد من القذارة . ولما دخلت عليه وجدته جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية ، فقلت لنفسى : هذا الرجل يدعى الفقر مع كل هذه العلائق ، وانا أدعى الفقر مع كل هذا التجريد ، فكيف أكون على وفاق معه ؟ فأشرف على ما يجول بفكرى ، ورفع رأسه وقال : يا أبا مسلم ! فى أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما فى مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ .

أى أن أصحاب المشاهدة أغنياء بالحق ، والفقراء هم أرباب المجاهدات . قال (أبو مسلم) فندمت على ظنى ، وطلبت منه المغفرة على سوء ظنى .

يرد عنه أنه قال : « التصوف : قيام القلب مع الله بلا واسطة » ، وهذا أيضا اشارة الى المشاهدة .

والمشاهدة تتأتى من غلبة المحبة ، واستغراق الصفة فى تحقيق الشوق والرؤية ، وفناء الصفة ببقاء صفة الحق . وسأذكر فى كتاب الحج بابا فى المشاهدة ووجودها ، ان شاء الله عز وجل .

فى وقت من الأوقات ، خرج (أبو سعيد) من نيسابور قاصدا طوس ، وكان فيها عقبة شديدة البرودة ، وكانت قدماه تتجمدان فى نعله . قال درويش : فكرت فى أن أشق الفوطة نصفين وألقى بها على قدميه ، ولم يطاوعنى قلبى لأنها كانت فوطة جميلة جدا . وعندما بلغنا طوس قلت فى المجلس : فليفرق لنا الشيخ بين وسواس الشيطان والهام الحق ؟ قال : الالهام هو ما قيل لك أن مزق الفوطة حتى لاتبرد أقدام « أبى سعيد » والوسواس هو ما منعك .

وقد تواتر عنه من ذلك كثير ، وليس هذا مرادنا . والله أعلم .

● **ومنهم** زين الأوتاد ، وشيخ العباد :

« أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى(٢) » رضى الله عنه ، وبه قدوتى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب فى التصوف مذهب الجنيد .

---

(١) أبو مسلم الفارسى : فارس بن غالب . من شيوخ الصوفية فى فارس . أدرك أبا عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، وكان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى الفتح بن سالبه المتوفى سنة ٤٧٣ هـ . أشير اليه فى أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٥٢ ، شد الازار ص ١٨٠ حاشيته ٣

(٢) ارجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن شيوخ الهجويرى ، وانظر ترجمته فى : نفحات الأنس ص ٣١٥ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢٣١ .

كان مريد الحصرى(١) وصاحب سره ، ومن أقران أبى عمرو القزوينى(٢) ، وأبى الحسن بن سالبة(٣) . وقد ظل ستين عاما وهو يفر الى الزوايا طلبا للعزلة الصادقة ، واختفى اسمه من بين الخلق ، وكان كثيرا ما يلجأ الى جبل اللكام .

عمر طويلا ، وكانت له روايات وبراهين كثيرة ، غير أنه لم يكن يرتدى ثياب المتصوفة ويمارس رسومهم ، وكان شديدا مع أهل الرسم . ولم أر قط من هو أكثر منه مهابة .

وسمعته يقول : « الدنيا يوم ، ولنا فيها صوم » . أى أننا لا نأخذ منها شيئا ، ولا نتقيد بقيودها ، لأننا رأينا آفتها ، ووقفنا على حجبها ، فأعرضنا عنها .

وذات يوم كنت أصب الماء على يديه للوضوء ، وجال بخاطرى أنه مادامت الأعمال بالتقدير والقسمة ، فلم يجعل الأحرار أنفسهم عبيدا للشيوخ ؟ فقال لى : يا بنى ! عرفت ما فكرت فيه . واعلم أن لكل حكم سببا ، وحين يريد الحق تعالى أن يتوج صبيا بتاج الكرامة ، فانه يمنحه التوبة ، ويشغله بخدمة حبيب لتصير هذه الخدمة سببا لكرامته .

وكانت تظهر لنا منه كل يوم لطائف كثيرة كهذه .

ويوم أن وافته الوفاة « ببيت الجن » — وهى قرية على رأس عقبة بين بانيار ودمشق — كانت رأسه فى حجرى ، وكان قلبى ممتعضا من أحد أصحابى ، كما هى عادة الآدميين ، فقال لى : يا بنى ! سأحدثك فى مسألة من الاعتقاد ، فاذا قومت نفسك عليها نجوت من كل الآلام ! اعلم أن الله عز وجل هو خالق الأحوال من خير وشر ، فى كل مكان ، فلا ينبغى أن تعترض على فعله أو تألم له .

ولم يوص بأكثر من هذا ، وأسلم روحه للحق . رحمة الله عليه ، ورضى الله عنه ، وسقاه صوب رضوانه .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) أبو الحسن على بن عمرو القزوينى الزاهد . أشار اليه ابن الأثير وذكر أنه كان من الصالحين . روى الحديث والحكايات والأشعار (انظر : الكامل حوادث ٤٤٢ ؛ صفوة الصفوة ج ٢ ص ٢٧٥) .

(٣) سبق الاشارة اليه :

● **ومنهم :** الاستاذ الامام ، وزين الاسلام :

« أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى(١) » رضى الله عنه ، البديع فى زمانه ، والرفيع فى قدره . ومنزلته كبيرة ومعلومة لأهل زمانه . وله من أحواله وأنواع فضله لطائف كثيرة فى كل فن ، وتصانيف نفيسة كلها محققة . وقد حفظ الله تعالى حاله ولسانه من الحشو .

وسمعته يقول : « مثل الصوفى كعلة البرسام : أوله هذيان ، وآخره سكوت ، فاذا تمكن خرس » .

فالصفوة لها طرفان : أحدهما الوجد ، والآخر الدليل . فالدليل يكون للمبتدئين ، والتعبير عن الدليل فى الدليل هذيان . والوجد يكون للمنتهين ، والتعبير عن الوجد فى الوجد محال .

والطالبون ماداموا فى حال الطلب ، فانهم يتحدثون فى الهمة بعلو الهمة ، والنطق يبدو لأهل المنى : هذيانا ، فاذا ما وصلوا فانهم أيضا لاتبقى لهم الى الوصول عبارة واشارة .

ومثال هذا : أن موسى ، حينما كان مبتدئا ، كانت همته كلها محصورة فى الرؤية ، فعبر عن الهمة ، كما ورد فى قوله تعالى بشأنه : « أرنى أنظر اليك »(٢) . وقد بدت هذه العبارة هذيانا لعدم ادراك المقصود .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان فى نهاية حاله ومتمكنا ، وعندما وصل شخصه الى مقام الهمة فنيت همته ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك(٣) » . وهذه منزلة رفيعة ، ومقام عال .

● **ومنهم :** الشيخ الأوحد ، وفى طريقه المفرد :

« أبو العباس أحمد بن محمد الشقانى(٤) » رضى الله عنه . كان اماما فى فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا فى جميع المعانى ، راى كثيرا من المشايخ وكان من كبار أهل التصوف وأجلتهم .

---

(١) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن من تأثر بهم الهجويرى .
(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٣) ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (أنظر اللمع ص ١٥٨) .
(٤) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الأول ضمن شيوخ الهجويرى .

وكان يعبر عن طريقه فى الفناء بعبارة مغلقة اختص بها . وقد رأيت طائفة من الجهلة قلدوه فى تلك العبارات ، واختاروا شطحاته . والتقليد غير محمود فى المعنى ، فكيف به فى العبارة ؟ ! .

وكان لى معه أنس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقة ، وكان أستاذى فى بعض العلوم . ولم أر طيلة حياتى قط رجلا من أى صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

وقد انقطع عن كل الموجودات ، ولم يكن يفيد منه غير الامام المحقق لدقة عباراته . وكان طبعه دائما ينفر من الدنيا والعقبى ، ويصيح قائلا : « أشتهى عدما لاعود فيه » . وكان يقول بالفارسية : لكل آدمى غاية مطلوب ، ولا بد لى أيضا من غاية مطلوب ،وأنا أعلم يقينا أن ذلك لن يتحقق ، لأن غايتى هى أن يحملنى الله تعالى الى عدم ليس له وجود قط ، لأن كل ماهو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الآدمى عاشقا لحجابه ، والعدم فى المشاهدة خير من الراحة مع الحجاب . ولما كان الحق جل جلاله وجودا لا يجوز عليه العدم ، يكون هناك ضرر فى ملكه اذا جعلنى عدما ، لأن ذلك العدم ليس له وجود قط .

وهذا أصل قوى فى صحة الفناء . والله أعلم .

● **ومنهم :** قطب زمانه ، وفريد عصره وأوانه :

« أبو القاسم على الجرجانى(١) » رضى الله عنه وأرضاه . لا نظير له فى وقته ، ولا بديل له فى زمانه ، وكانت له بداية طيبة ، وقام بأسفار شاقة فى المعاملة . وتتجه اليه فى هذا الوقت قلوب أهل الحضرة جميعا ، ويعتمد عليه جملة الطالبين . وهو آية ظاهرة فى كشف وقائع المريدين ، وعالم بفنون العلم ، وكل من مريديه زينة لعالم . وسيبقى له من بعده خلف طيب يكون ان شاء الله قدوة القوم ، وهو لسان الوقت أبو على الفضل بن أحمد الفارمدى(٢) — أبقاه الله — الذى تخلى عن نصيبه فى حق ذلك الشيخ العظيم ، وأعرض عن الكل ، وجعله الحق تعالى وتقدس ببركاته لسان حال ذلك السيد .

وذات يوم كنت جالسا فى حضرة الشيخ (أبى القاسم الجرجانى) أعدد أحوالى والرؤى التى ظهرت لى ، لأصفى عليه وقتى ، لأنه ناقد الوقت ، وكان هو رضى الله عنه يصغى الى فى احترام . وكانت نخوة الصبى وجذوة

---

(١) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الأول ضمن شيوخ الهجويرى .
(٢) سبق الاشارة اليه فى القسم الأول .

الشباب تجعلنى حريصا على قول ذلك ، وقد خطر لى أن : عسى الشيخ لايكون قد مر بهذا فى البداية ، فهو يبدى نحوى كل هذا الخضوع ، ويتودد الى . ورأى هو فى الحال هذا فى باطنى ، فقال : ياحبيب أبيك ! ان خضوعى ليس لك أو لحالك ، لأن محول الأحوال يجىء فى محل المحال ، فخضوعى هذا لمحول الأحوال . وهذا الذى حدث لك ، يكون عاما لكل الطالبين ، وليس خاصا بك . فلما سمعت هذا أسقط فى يدى ، فرأى ذلك فى ، وقال : يابنى ! ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهوه العبارة ، فنفيه واثباته ، وفقده ووجوده كلاهما زهو ، والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو ، ويجب عليه أن يستمسك بأعتاب العبودية ، ويدفع عن نفسه كل نسبة غير الآدمية والطاعة .

وكانت لى معه من بعد ذلك أسرار كثيرة ، ولو شغلت باظهار الآيات لعجزت عن المقصود ، والله أعلم .

● **ومنهم** : رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء :

« **أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان(١)** » رضى الله عنه . كان متربعا فى الرياسة ، وقد فتح الله عز وجل عليه أبواب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة . وكان له بيان حسن وعبارة عالية فى الفناء والبقاء .

قال شيخ المشايخ أبو سعيد رحمة الله عليه : لقد جىء بنا الى ساحة الحق عن طريق العبودية ، وجىء بالشيخ المظفر اليها عن طريق السيادة.

أى أننا أدركنا المشاهدة بالمجاهدة ، وجاء هو الى المجاهدة بالمشاهدة .

وقد سمعته يقول : ان ما ادركه العظماء بقطع البوادى والمفازات أدركته وأنا جالس على الحشايا فى الصدارة .

ويحمل جماعة من أصحاب الرعونة هذا القول من الشيخ على الادعاء ، وذلك لنقص كياستهم ، لأن عبارته عن صدق حاله وليست ادعاء ، وبخاصة أنه كان ذا أهل . وقد بقى لنا منه اليوم خلف طيب وعظيم ، وهو السيد « أحمد » سلمه الله .

وكنت لديه ذات يوم ، وكان عنده رجل من أدعياء نيسابور ، وكان يقول فى حديثه : أنه يفنى حينما يبقى . فقال له السيد المظفر رحمة الله عليه :

(١) ارجع الى ماورد عنه فى القسم الأول ضمن أساتذة الهجويرى .

كيف يتأتى البقاء على الفناء ؟ والفناء عبارة عن العدم ، والبقاء اشارة الى الوجود ، وكل واحد منهما ينفى الآخر ، أى أنه ضده .

والفناء معروف ، أما اذا فنى ، فانه ان وجد ، لا يكون عين ذاك ، وانما يكون شيئا آخر .

ولا يجوز أن تفنى الذوات ، ولكن فناء الصفة وفناء السبب جائز ، فاذا فنيت الصفة والسبب ، يبقى الموصوف والمسبب ، ولا يجوز الفناء على ذاته .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : اننى لم أذكر عين عبارة ذلك السيد ، أما معناها فهو هذا الذى ذكرته . ولأوضح الآن المراد من هذه العبارة لتصير أعم .

والمراد منها : أن اختيار العبد صفة له ، والعبد محجوب باختياره عن اختيار الحق ، فصفة العبد حجاب له عن الحق .

واختيار الحق أزلى لا محالة ، واختيار العبد محدث ، ولا يجوز الفناء على الأزلى . وحين يبقى اختيار الحق فى حق العبد ، فان اختياره يفنى لا محالة ، وينقطع تصرفه ، والله أعلم .

وقد دخلت عليه يوما فى القيظ القائظ ، بثياب الطريق ، أشعث ، فقال لى : قل لى ما تريد فى الحال ؟ قلت : يلزمنى السماع . فأرسل شخصا فى الحال ، فأحضروا القوال وجماعة من أهل الطرب . وصيرتنى جذوة حداثتى ، وقوة ارادتى ، وحرقة بدايتى مضطربا فى السماع ، فلما انقضى على ذلك وقت ، وقل فى سلطان تلك الآنة وغليانها ، قال لى : كيف كان حالك فى هذا السماع ؟ قلت : أيها الشيخ ! كنت مسرورا جدا . فقال : سوف يأتى وقت يكون هذا ونعيق الغراب كلاهما لديك سواء ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع . واياك أن تتعود هذا حتى لا يصير طبيعة لك ، وتتخلف بذلك .

والله المستعان ، وعليه التكلان ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

الباب الثالث عشر
باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان

واذا ذكرنا الآن الجميع ، وشرحنا أحوالهم فى هذا الكتاب فانه يطول ، واذا أغفلنا البعض فان المقصود لا يتحقق أيضا .

والآن : أذكر فى هذا الكتاب هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون (أحياء) فى عهدى من أحاد القوم ومشايخهم من أرباب المعانى ، ممن هم غير أصحاب الرسوم ، لأكون أقرب الى حصول مرادى ان شاء الله عز وجل .

من كانوا فى الشام والعراق ، منهم :

« الشيخ زكى بن علاء » : كان من كبار المشايخ ، وسادات الزمان . وقد وجدته شعلة من شعل المحبة ، وذا آيات وبراهين ظاهرة .

والشيخ الكبير : « أبو جعفر محمد بن المصباح الصيدلانى » كان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان حسن فى التحقيق ، وميل عظيم الى الحسين ابن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه .

و « أبو القاسم السدسى » : كان شيخا صاحب مجاهدة ، طيب الحال ، وراعيا للدراويش وموضع اعتقادهم بحسن الاعتقاد .

أما أهل فارس ، فمنهم :

شيخ الشيوخ : « أبو الحسين بن سالبه(١) » : وكان لسانه فى التصوف أفصح لسان ، وبيانه فى التوحيد أوضح بيان ، وله اقوال معروفة .

---

(١) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

والشيخ المرشد : « أبو اسحاق بن شهريار(١) » : وكان من محتشمى القوم ، وذا مهابة عامة .

والشيخ الظريف : « أبو الحسن على بن بكران » : وكان من كبار المتصوفة .

والشيخ : « أبو مسلم(٢) » : وكان رجلا عزيز الوقت طيب الحال .

والشيخ : « أبو الفتح بن سالبه(٣) » : وهو خلف طيب لأبيه ، ومرجو فيه .

والشيخ : « أبو طالب » : وكان رجلا أسير كلمات الحق .

ولم أر من هؤلاء شيخ الشيوخ والشيخ أبا اسحاق .

أما أهل قهستان(٤) وآذربايجان ، وطبرستان وقومس ، فمنهم :

الشيخ « شقيق فرج » المعروف بأخى الزنجانى(٥) : كان رجلا حسن السيرة ، محمود الطريقة .

والشيخ « وندرى » : وهو من عظماء هذه الطريقة ، وتؤثر عنه خيرات كثيرة ، وكان سلطانا تائبا ، ورجلا عيارا فى طريق الحق .

والشيخ « أبو عبد الله الجنيد » : وكان شيخا رفيقا ومحترما .

والشيخ « أبو طاهر المكنسوف » : وكان من أجلة وقته .

---

(١) اسمه ابراهيم بن شهريار الكازرونى . فارسى الأصل والمولد ، ونشأ فى كازرون . كان مريدا للفيروز ابادى ، وصحب كثيرا من رجال الحديث . توفى سنة ست وعشرين وأربعمائة (انظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٥٤ ، سفينة الاولياء ص ١٦١ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢٢٥) .

(٢) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٣٨٠

(٣) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

(٤) « قهستان » : مخفف : « قوهستان » تعريب « كوهستان » ومعناها : موضع الجبل . وأكثر بلاد العجم لا يخلو من موضع يقال له كوهستان وأما المشهور بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحى هراة ثم يمتد فى الجبل طولا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمدان . فتحها عبد الله بن عامر بن كريز فى أيام عثمان سنة ٢٩ هـ (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠٥) .

(٥) آخى الزنجانى : من كبار الشيوخ فى وقته . كان مريدا للشيخ أبى العباس النهاوندى مريد جعفر الخلدى تنسب اليه كرامات وخوارق كثيرة . توفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وقبره فى زنجان (انظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ١٤٨ ، سفينة الأولياء ص ١١٢ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٨) .

والسيد « حسين السمنانى » : وهو رجل ذو بلاء ورجاء .

والشيخ « السهلكى(١) » : وكان من فحول المتصوفة وصعاليكهم .

و « أحمد(٢) » بن شيخ خرقان ، وهو لأبيه نعم الخلف .

و « أديب الكمندى(٣) » : وكان من سادات زمانه .

وأما أهل كرمان ، فمنهم :

السيد : « على بن الحسين السيركانى(٤) » ، وكان سياح الوقت ، وذا أسفار طيبة ، وابنه « حكيم » رجل عزيز .

والشيخ : «محمد بن سلمة» ، وكان من كبار وقته وقبله كان المكتومون من أولياء الله عز وجل ، ويوجد الآن شبان وأحداث ذوو رجاء .

وأما أهل خراسان(٥) ، التى يظللها اليوم اقبال الحق ، فمنهم :

الشيخ المجتهد : « أبو العباس الشرمقانى(٦) » وكان ذا عيش حسن ، ووقت طيب .

والسيد « أبو جعفر محمد بن على الجوينى(٧) » ، وكان من عظماء هذه الطائفة والمحققين منهم .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) أحمد بن أبى الحسن الخرقانى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ . وردت عنه اشارة فى أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٦٠ .

(٣) أورد له الجامى ترجمة لاتتعدى الاشارة الواردة فى كشف المحجوب (انظر نفحات الأنس ص ٣١٨) .

(٤) أظن أنه : (خواجه) على بن الحسن الكرمانى : كان من شيوخ كرمان ، ومريدا للشيخ « عمو » المتوفى سنة ٤٤١ هـ . ويبدو مما ذكره مؤلف أسرار التوحيد أن الكرمانى كان معاصرا لأبى طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ، وأبى على الخباز (انظر : أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٣٩٤ ، نفحات الأنس ص ٢٦٣ ، شد الازار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٥) « هذه المجموعة من الصوفية من أهل خراسان كانوا جمعيا من معاصرى أبى سعيد ابن أبى الخير ، وبعضهم كانوا من طبقة الشيوخ أقران أبى سعيد ، والبعض الآخر من تلاميذ الشيوخ وأبنائهم ، ووردت فى أسرار التوحيد اشارات بشأنهم ، وان كان هناك بعض التحريف فى الأسماء » .

(٦) الشرمقانى : نسبة الى « شرمقان » : بلدة قريبة من اسفرائين بنواحى نيسابور .

(٧) أبو محمد الجوينى : من معاصرى أبى سعيد بن أبى الخير ، وزميله فى الدراسة على أبى بكر القفال . كان اماما من الشافعية ، تفقه على أبى الطيب سهل بن محمد الصعلوكى ، ثم خرج الى أبى بكر القفال وعاد الى نيسابور . كان عالما بالأدب وغيره من العلوم . توفى سنة ٤٣٨ هـ (انظر : المنتظم ج ٨ ص ١٣٠ ، الكامل : حوادث سنة ٤٣٨ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٠) .

والسيد « أبو جعفر الترشيزى(١) » ، وكان من أعزاء الوقت .

والسيد « محمود النيسابورى(٢) » ، وكان مقتدى الوقت ، وذا لسان حسن .

والشيخ « محمد المعشوق(٣) » : وكانت حياته حسنة وطيبة .

والشيخ « حمزة المحب(٤) » : وكان شيخا طيب الباطن ، وميمونا .

والسيد « المظفر(٥) » ابن الشيخ أبى سعيد : وهو ذو رجاء فى أن يصير مقتدى القوم وقبلة القلوب .

والسيد « أحمد بن حماد السرخسى(٦) » ، مبارز الوقت ، وكان رفيقى مدة طويلة ، ورأيت من أمره عجائب كثيرة ، وكان من فتيان الصوفية .

والشيخ « أحمد النجار السمرقندى(٧) » ، وكان سلطان زمانه ، يقيم بمرو .

والشيخ « أبو الحسن على بن أبى على الأسود(٨) » ، وكان خلفا طيبا لأبيه ، وفريد عصره فى علو الهمة ، وصدق الفراسة .

---

(١) أبو على الترشيزى : من معاصرى أبى سعيد وأبى القاسم القشيرى . وردت بشأنه حكاية فى أسرار التوحيد . (انظر الترجمة العربية ص ١٠٤ — ١٠٦) .

(٢) محمود النيسابورى : كان يعزف بالمريد ، وبلغ من عظمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل اليه المريدين ، ويقول انه سالك طيب (اسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٨١) .

(٣) المعشوق الطوسى : كان من عقلاء المجانين ، وشيخا عظيما كاملا ، يقيم فى طوس . التقى به أبو سعيد بن أبى الخير فى طوس وهو فى طريقه الى نيسابور . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٧٧ ، ترجمته فى نفحات الأنس ص ٣٠٩) .

(٤) حمزة التراب : من معاصرى أبى سعيد . من أهل نيسابور . كان يقال له حمزة التراب لأنه كتب يوما رقعة الى أبى سعيد ووقعها ، لشدة تواضعه ، بكلمة : « تراب القدم » ، فكتب أبو سعيد بيتا من الشعر على ظهر الرقعة وأرسلها اليه . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣١) .

(٥) أبو الوفا المظفر : الابن الثانى لأبى سعيد بن أبى الخير (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٣٩٠) .

(٦) كان رفيقا للهجويرى فى ما وراء النهر ، وسافر معه الى لاهور ، وظل بها الى أن توفى ، ولا يزال قبره بها داخل ضريح الهجويرى ، ومعروفا باسمه . انظر القسم الاول . ص ٩٠ .

(٧) أحمد النجار : من أقران أبى سعيد : أشير اليه أكثر من مرة فى أسرار التوحيد (انظر الترجمة ص ٥٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩) .

(٨) هو ابن الشيخ أبى على الأسود (سياه) المتوفى سنة ٤٢٤ هـ . كان من كبار مشايخ مرو ، ومعاصرا لأبى العباس القصاب ، وأبى على الدقاق وأبى سعيد بن أبى الخير ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أبى سعيد (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ١٩٣ ، ٢٦٩ ، وترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٩٠) .

واذا عددت جميع المتصوفة من أهل خراسان فان ذلك يصعب ، فقد رأيت ثلثمائه متصوف فى خراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، ويكفى أن يكون فى العالم واحد منهم ، لأن شمس المحبة واقبال الطريقة فى طالع خراسان .

وأما أهل ما وراء النهر ، فمنهم :

السيد الامام ، مقبول الخاص والعام ، « أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمى(١) » : وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صاف ، وشفقة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق .

والسيد الفقيه ، وبين أصحابه الوجيه : « أبو محمد الباشغرى » كان ذا وقت طيب ، ومعاملات قوية .

و « محمد الآبلاقى » وكان شيخ وقته ، وعظيم زمانه ، وتاركا للرسوم والعادات والأسباب .

والسيد « العارف » : وكان فريد وقته ، وبديع عصره .

و « على بن اسحاق » : وكان سيد زمانه ، ورجلا محتشما ، وذا لسان عذب .

هذه أسماء الجماعة الذين رأيتهم جميعا وعرفت مناقبهم فردا فردا ، وكانوا جميعا من أهل التحقيق .

أما أهل غزنين وسكانها ، فمنهم :

الشيخ العارف ، وفى زمانه المنصف ، « أبو الفضل بن أسد » : وكان شيخا عظيما ، وصاحب براهين ظاهرة وكرامات زاهرة . وكان كشعلة من نار المحبة ، وحاله مبنى على التلبيس .

والشيخ المجرد ، المفرد من العلائق ، « اسماعيل الشاشى » ، وكان شيخا محتشما ، يسلك طريق الملامة .

---

(١) على بن عمر بن محمد بن الحسين الحرمى المعروف بالقزوينى : كان من كبار الصالحين ، قال أحمد بن على بن ثابت : كان أبو الحسن القزوينى أحد الزهاد المذكورين من عباد الله الصالحين . وتوفى سنة ٤٤٢ هـ صفوة الصفوة ج ٢ ص ٢٧٥) .

والشيخ « سالار الطبرى » ، وكان من علماء المتصوفة وصاحب حال طيب .

والشيخ العيار ومعدن الأسرار ، « أبو عبد الله محمد بن الحكيم » المعروف بالمريد ، رحمه الله ، وكان من سكارى قرب حضرة الحق ، وأوحد فنه . وحاله مستورة عن الخلق ، وله براهين ظاهرة ، وآيات زاهرة . وكان حاله فى الصحبة أطيب منه فى الرؤية .

والشيخ المحترم والمقدم على جميع العظماء ، « سعيد بن أبى سعيد العيار » : وكان حافظا لحـــديث النبى ، وعمر طويلا ، ورأى كثيرا من المشايخ . وكان قوى الحال ، ومطلعا ، ولكنه كان يتستر ولا يظهر معناه لأحد .

والسيد العظيم ، وقاعدة الاحترام والوقار ، « أبو العلاء عبد الرحيم ابن أحمد السفرى » ، كان عزيز القوم ، وسيد الوقت ، ويميل قلبى اليه. وهو صاحب وقت مهذب وحال طيب ، وخبير بفنون العلم .

والشيخ الأوحد ، « قسورة بن محمد الجرديزى » : المشفق على أهل الطريقة تمام الشفقة ، ولكل منهم لديه حرمة ، ورأى المشايخ .

وانى ، وفقا لما يرجوه عامة الناس وعلماء تلك المدينة ، أرجو أن يظهر فيها بعد هؤلاء رجال تعتقد فيهم ، وأن تتخلص من الطائفة التى تفرقت فيها وشوهت صورة هذه الطريقة ، وأن تصير أيضا محطا للأولياء والعظماء ان شاء الله تعالى .

فهرس موضوعات القسم الأول

الصفحة

كلمـــة وفاء ٥

تقـــديم ٧

الباب الأول : التعريف بالهجويرى . . . . . ١٣—١٠٦

الفصـــل الأول : عصر الهجويرى من النواحى السياسية والثقافية والدينية ١٥

الفصل الثـــانى : التصوف فى عصر الهجويرى ٢٧

الفصل الثـــالث : التعريف بالهجويرى : موطنه ، أسرته ، مولده زواجه ٣٩

الفصل الـــرابع : ثقافته ، أساتذته وشيوخه ، الشخصيات التى تأثر بها ٥٥

الفصل الخامس : رحـــلات الهجويرى ٧٣

الفصل السادس : المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى : استقراره فى لاهور ، وفاته ، قبره ٧٩

الفصل السابع : مؤلفـــات الهجويرى ٩٧

الباب الثانى : التعريف بكتاب كشف المحجوب . . . ١٠٧—١٨٨

الفصل الأول : تعريف بالكتاب : اســـمه ، موضوعه ، تاريخ تأليفـــه ١٠٩

الفصل الثـــانى : أقسام الكتاب ١٢٣

الفصل الثـــالث : مصـــادر الكتاب ١٤٣

الفصل الـــرابع : مكانة الكتاب بين كتب التصوف ١٥١

الصفحة
الفصل الخامس : مظاهر التأثير والتأثر ١٦٥
الفصل السادس : القيمة العلمية للكتاب ١٨١
الفصل السابع : مخطوطات الكتاب ، طبعاته ، الترجمة الانجليزية ١٨٥

فهرس موضوعات القسم الثانى
(ترجمة كتاب كشف المحجوب)

مقدمة المؤلف ١٩١
الباب الأول : باب اثبات العلم ٢٠٣
الباب الثانى : باب الفقر ٢١٥
الباب الثالث : باب التصوف ٢٢٧
الباب الرابع : باب لبس المرقعة ٢٤١
الباب الخامس : باب اختلافهم فى الفقر والصفوة . . . ٢٥٥
الباب السادس : باب بيان الملامة ٢٥٩
الباب السابع : باب فى ذكر ائمتهم من الصحابة . . . ٢٦٧
الباب الثامن : باب فى ذكر ائمتهم من أهل البيت . . . ٢٧٥
الباب التاسع : باب فى ذكر اهل الصفة ٢٨٥
الباب العاشر : باب فى ذكر ائمتهم من التابعين والأنصار . ٢٩١
الباب الحادى عشر : باب فى ذكر ائمتهم من اتباع التابعين الى يومنا هذا ٢٩٧
الباب الثانى عشر : باب فى ذكر ائمتهم من المتأخرين . . . ٣٧٥
الباب الثالث عشر : باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين من أهل البلدان ٣٨٧

كشف المحجوب للهجويرى

الجزء الثانى

دراسة وترجمة وتعليق
دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل

راجع الترجمة
دكتور أمين عبد المجيد بدوي

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

١٩٨٠

والآن : فلنعد الى الفرق بين فرقهم فى المذاهب ،
وبيان كل منها ، وبالله العـــون والعصمة والسداد .

الباب الرابع عشر
باب فى الفروق بين فرقهم ومذاهبهم ومقاماتهم وحكاياتهم

وكنت قبل هذا قد قلت فى ذكر أبى الحسن النورى رحمه الله أن الصوفية اثنتا عشرة فرقة ، اثنتان منها مردودتان وعشر مقبولة . ولكل صنف منهم معاملة طيبة ، وطريق محمودة فى المجاهدات ، وأدب لطيف فى المشاهدات . ومهما كانوا مختلفين فى المعاملات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، فانهم موافقون ومتفقون فى أصول وفروع الشرع والتوحيد . وقد قال أبو يزيد رضى الله عنه : « اختلاف العلماء رحمة الا فى تجريد التوحيد(١) » . ويتفق مع هذا خبر مشهور .

وحقيقة التصوف كائنة بين أخبار المشايخ من وجه الحقيقة ، ومقسومة من وجه المجاز والرسوم . وسأختصر القول وأوجزه فى بيان المقســـوم ، وأبسطه فى أصل مذهب كل منهم ، ليحصل للطالب علم ذلك ، ويكون سلاحا للعلماء ، وصلاحا للمريدين ، وفلاحا للمحبين ، ونجاحا للعقلاء ، وتنبيها لأرباب المروءة ، وثوابا لى فى الدارين ؛ وبالله العون والتوفيق ؛ وحســـبنا الله ونعم الرفيق .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : (انظر ص ٧٠) .
ويلاحظ أن ما يرد بين علامات التنصيص وارد فى الأصل الفارسى باللغة العربيـــة .

المحاسبية

أما المحاسبيون فينتمون الى أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى رضى الله عنه ، وكان باتفاق جميع أهل زمانه مقبول النفس والقول ، وعالما بأصول الحقائق وفروعها ، ويجرى كلامه فى تجريد التوحيد بصحة المعاملة الظاهرة والباطنة . ونادرة مذهبه هى أنه لا يقول بأن الرضا من جملة المقامات ، فيقول انه من جملة الأحوال . وقد بدأ بهذا الخلاف ، ثم قال به أهل خراسان. وقال العراقيون بأن الرضا من جملة المقامات ، وأنه نهاية التوكل(١) . وما زال هذا الخلاف باقيا بين القوم الى اليوم . ونبين الآن هذا القول ان شاء الله .

الكلام فى حقيقة الرضا : والشرط فى بيان هذا المذهب هو أن نثبت أولا حقيقة الرضا ، ونوضح أقسامه ، ثم نأتى بحقيقة الحال والمقام والفرق بينهما ان شاء الله عز وجل .

اعلم أن الكتاب والسنة ناطقان بذكر الرضا ، والأمة مجتمعة على ذلك « لقوله تعالى : رضى الله عنهم ورضوا عنه(٢) » ، « وقوله تعالى : لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة(٣) » ، وقوله عليه السلام : « ذاق طعم الايمان من قد رضى بالله ربا(٤) » .

والرضا على نوعين : أحدهما ، رضاء الله عن العبد ، والثانى : رضاء العبد عن الله تعالى وتقدس .

---

(١) ورد فى « الرسالة » عكس هذا تماما ، فالقشيرى يقول : « وقد اختلف العراقيون والخرسانيون فى الرضا : هل هو من الأحوال ، أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل ، ومعناه : أنه يئول الى أنه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه . وأما العراقيون فانهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال . ويمكن الجمع بين اللسانين ، فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد ، وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال ، وليست بمكتسبة » . (انظر : الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٢) .

(٢) سورة « المائدة » آية ١١٩ .

(٣) سورة « الفتح » آية ١٨ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده ، وأبو مسلم والترمذى عن العباس بن عبد المطلب ، (انظر شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٩) .

أما حقيقة رضاء الله عز وجل فهى ارادة الثواب والنعمة والكرامة للعبد ، وحقيقة رضاء العبد هى اقامته على أوامر الله والخضوع لأحكامه ، فرضاء الله تعالى مقدم على رضاء العبد ، لأنه ما لم يكن توفيقه جل جلاله ، فان العبد لا يخضع لحكمه ، ولا يقيم على مراده تعالى وتقدس ؛ لأن رضاء العبد مقرون برضاء الله عز وجل، وقيامه به .

وفى الجملة : فان رضاء العبد هو استواء قلبه على طرفى القضاء : اما منع ، واما عطاء ، واستقامة سره على مشاهدة الأحوال : اما جلال ، واما جمال ، بحيث أنه اذا وقف بالمنع أو سبق بالعطاء ، فان ذلك يتساوى لدى رضائه . واذا احترق بنار هيبة الحق وجلاله ، أو أضاء بنور لطفه وجماله ، يستوى لدى قلبه الاحتراق والاضاءة ، لأن ذلك عنده شاهد الحق ، وكل ما يكون من الحق فهو خير كله له ، اذا رضى بقضائه .

وقد سئل أمير المؤمنين الحسين بن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه عن قول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : « الفقر الى أحب من الغنى ، والسقم أحب الى من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من أشرف على حسن اختيار الله ، لم يتمن غير ما أختار الله له(١) » . ذلك أن العبد اذا رأى اختيار الحق ، أعرض عن اختيار نفسه ، ونجا من كل الهموم . وهذا لا يصح فى الغيبة ، وانما ينبغى لهذا الحضور ، « لأن الرضا للأحزان نافية ، وللغفلة معافية » .

أى أن الرضا يخلص المرء من الهموم ، وينتزعه من مخالب الغفلة ، ويمحو من قلبه التفكير فى الغير ، ويحرره من قيد المشقات ، لأن صفة الرضا الانقاذ .

أما حقيقة معاملات الرضا ، فهى رضاء العبد بعلم الله عز وجل ، واعتقاده بأن الله تعالى بصير به فى جميع الأحوال . وأهل هذا على أربعة أقسام :

طائفة راضون من الحق تعالى بالعطاء ، وتلك هى المعرفة .

وطائفة راضون منه بالنعماء ، وتلك هى الدنيا .

وطائفة راضون منه بالبلاء ، وتلك هى المحن المختلفة .

وطائفة راضون منه بالاصطفاء ، وتلك هى المحبة .

---

(١) ورد فى الرسالة : من اتكل على حسن اختيار الله (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٥) .

فمن ينظر من المعطى الى العطاء يقبله بالروح ، واذا قبله تزول من قلبه الكلفة والمشقة . ومن ينظر من العطاء الى المعطى يعجز بالعطاء ، ويسلك طريق الرضا بالتكلف ، وفى التكلف كل الآلام والمشقة . ثم ان المعرفة تكون حقيقة حين يكون العبد مكاشفا فى حق المعرفة ؛ وحين تكون المعرفة حبسا له وحجابا تكون نكرا ، وتكون النعمة نقمة ، والعطاء غطاء .

ومن يرضى منه بالدنيا يكون فى الهلاك والخسران ، ويكون رضاؤه كله نيرانا ، لأن (الدنيا) بأسرها لا تساوى أن يشغل بها حبيب باله ، أو أن يخطر أى هم من همومها على قلبه . والنعمة هى تلك النعمة التى تهدى الى المنعم ، فاذا كانت حجابا عن المنعم ، فانها تكون بلاء .

ومن يرضى منه بالبلاء ، هو الذى يرى المبلى فى البلاء ، ويستطيع تحمل مشقة البلاء بمشاهدة المبلى ، ولا يرى الألم الما بمسرة مشاهدة الحبيب .

ومن يرضون باصطفاء الحبيب ، أولئك هم أحباؤه ، لأن وجودهم فى الرضا والسخط يكون عارية ، فلا تكون منازل قلوبهم الا فى الحضرة ، ومضارب أسرارهم الا فى روضة الأنس ، فهم حضور غائبون ، ووحشيون عرشيون ، وجسمانيون روحانيون ، وموحدون ربانيون : قد تحررت قلوبهم من الخلق ، وتخلصت من قيود المقامات والأحوال ، وانقطعت أسرارهم عن المكونات ، وحزموا خصورهم للمحبة « كما قال الله تعالى : لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا(١) » ، فالرضا بالغير خسران ، والرضا به رضوان ، لأن الرضا به ملك صريح ، وبداية للعافية . « وقال النبى عليه السلام : من لم يرض بالله وبقضائه شغل قلبه وتعب بدنه(٢) » ، والله أعلم .

فصل : وفى الآثار أن موسى عليه السلام قال : « اللهم دلنى على عمل اذا عملته رضيت عنى . فقال انك لا تطيق ذلك يا موسى ! فخر موسى عليه السلام ساجدا له متضرعا ، فأوحى الله تعالى اليه : يا ابن عمران ! ان رضاى فى رضاك بقضائى(٣) » . يعنى : حين يكون العبد راضيا بقضاء الحق ، فذلك علامة ان الله تعالى راض عنه .

---

(١) سورة « الفرقان » آية ٣ .

(٢) ورد فى الجامع الصغير عن أنس : « من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس الها غير الله (ض) شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٣) ورد فى الرسالة (انظر : جـ ٢ ص ٤٢٣) .

سأل بشر الحافى الفضيل بن عياض ، رضى الله عنهما : الزهد أفضل أم الرضا ؟ فقال الفضيل : « الرضا أفضل من الزهد لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته(١) » .

أى أن فوق منزلة الزهد منزلة أخرى يتمناها الزاهد ، وليس فوق الرضا منزلة يتمناها الراضى ، فالحضرة أفضل من العتبة .

وهذه الحكاية دليل على صحة قول المحاسبى ان الرضا من جملة الأحوال ومن مواهب ذى الجلال ، لا من مكاسب العبد واحتياله . ويحتمل أيضا أن لا يكون للراضى تمن .

ويرد عن النبى عليه السلام أنه كان يقول فى دعواته : « أسألك الرضا بعد القضاء » ، أى : اجعلنى بحيث اذا حل بى قضاؤك المقدر يجدنى راضيا بوروده ، فصح هنا أن الرضا لا يصح قبل ورود القضاء ، لأنه يكون عزما على الرضا ، والعزم على الرضا لا يكون عين الرضا .

يقول أبو العباس بن عطاء رضى الله عنه : « الرضا نظر القلب الى قديم اختيار الله للعبد(٢) » . يعنى أن يعرف العبد أن كل ما يلحق به قد اقتضته ارادة قديمة وحكم سابق عليه ، فلا يضطرب ، ويطيب قلبه .

ويقول الحارث المحاسبى صاحب المذهب : « الرضا : سكون القلب تحت مجارى الأحكام(٣) » . ومذهبه فى هذا قوى ، لأن سكون القلب وطمأنينته ليسا من مكاسب العبد ، بل من مواهب الله جل جلاله . ويدل على أن الرضا من الأحوال لا من المقامات ما قيل من أن عتبة الغلام(٤) لم ينم ليلة ، وظل يقول حتى الصباح : « ان تعذبنى فأنا لك محب ، وان ترحمنى فأنا لك

---

(١) ورد بنصه فى الرسالة : (انظر : جـ ٢ ص ٤٢٥) .

(٢،٣) وردا بنصهما فى الرسالة (انظر : جـ ٢ ص ٤٢٦) ، وفى التعرف (انظر : ص ١٠٢) ، وفى اللمع (انظر : ص ٨٠) .

(٤) « عتبة الغلام » : هو عتبة بن أبان ، وسمى بالغلام لأنه كان فى العبادة كأنه غلام رهبان ، لأصغر سنه . كان يأوى الى المقابر والصحارى ويخرج الى السواحل فيقيم فيها فاذا جاء يوم الجمعة دخل البصرة فيشهد الجمعة ثم يأتى اخوانه فيسلم عليهم . وكان قد غلب عليه الحزن ، وكانوا يشبهونه فى الحزن بالحسن البصرى . مات شهيدا فى قتال الروم . وكان يهجع بعد العشاء شيئا يسيرا ثم يقوم الى الصباح (طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٣٧) .

محب(١) » . أى أن ألم العذاب ولذة النعمة يكونان على الجسد ، وقلق المحبة يكون فى القلب ، وهذا لا يضر ذاك . وهذا الكلام يؤكد قول المحاسبى ان الرضا نتيجة للمحبة ،لأن المحب يرضى بما يفعله المحبوب ، فاذا تعذب يسعد بالمحبة ، واذا تنعم لا يحجب عن المحبة ، ويترك اختياره فى مقابل اختيار الحق .

ويقول أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه : « منذ أربعين سنة ما أقامنى الله عز وجل فى حال فكرهته ، وما نقلنى الى غيره فسخطته(٢) » . وهذا اشارة الى دوام الرضا وكمال المحبة .

ومشهور فى الحكايات أن درويشا وقع فى دجلة(٣) ولم يكن يعرف السباحة فقال له رجل على الشاطىء : أتريد أن أنبه أحدا ليخرجك ؟ قال : لا . فقال : أتريد أن تغرق ؟ قال : لا . فقال له : ماذا تريد اذن ؟ قال : ما يريده الحق لى ! ما شأنى بالارادة ؟

وللمشايخ رضى الله عنهم فى الرضا كلام كثير على اختلاف العبارات ، أما القاعدة فهى هذان الأصلان اللذان ذكرتهما ، واقتصرت على هذا تركا للتطويل . ولكن ينبغى هنا أن أذكر الفرق بين المقام والحال ، وأبين حدودهما ، ليكون ادراك هذه المعانى أسهل عليك وعلى قراء الكتاب ، ويعرفوا هذه الحدود ان شاء الله تعالى .

الفرق بين المقام والحال : اعلم أن هذين اللفظين مستعملان بين هذه الطائفة ، جاريان فى عباراتهم ، متداولان فى علوم وبيان المحققين ، ولا مندوحة

(٢،١) وردا فى الرسالة : (انظر ج ٢ ص ٤٢٧) .

(٣) دجلة : نهر بغداد ، لا تدخله الألف واللام ، وأول مخرج دجلة من موضع يقال له عين دجلة ، وينصب فيه أنهار عديدة أولها نهر بأرض الروم يقال له نهر الكلاب . قال فيه أبو العلاء المعرى :

سقيا لدجلة والدنيا مفرقة ... حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
وبعدها لا أحب الشرب من نهر ... كأنما أنا من أصحاب طالوتا

(معجم البلدان : ج ٢ ص ٥٥١ ــ ٥٥٣) .

للطالب عن العلم بهما . وليس هذا الباب موضع اثبات هذه الحدود ، ولكن لا مناص من اعلام ذلك فى هذا المحل ، والله أعلم .

اعلم أن « المقام » برفع الميم هو الاقامة ، وبنصب الميم هو محل الاقامة . وهذا التفصيل والمعنى فى لفظ « مقام » سهو وغلط . وفى العربية « مقام » بضم الميم هو الاقامة ومكان الاقامة ، و « مقام » بفتح الميم هو القيام ومكان القيام ، لا مكان اقامة العبد فى طريق الحق ، وأداؤه ورعايته حق ذلك المقام ليدرك كماله ، بقدر ما يستطيع الآدمى . ولا يجوز أن ينتقل من مقامه دون أن يقضى حقه ، فمثلا أول المقامات التوبة ، ثم الانابة ، ثم الزهد ، ثم التوكل، وما شابه ذلك ، فلا يجوز أن يدعى الانابة دون التوبة ، أو يدعى التوكل دون الزهد . وقد أخبرنا الله تعالى عن جبريل عليه السلام أنه قال : « وما منا الا له مقام معلوم(١) » .

ثم ان الحال معنى يرد من الحق الى القلب دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد ، أو جذبه بالتكلف حين يذهب .

فالمقام عبارة عن طريق الطالب وموضعه فى محل الاجتهاد ، وتكون درجته بمقدار اكتسابه فى حضرة الحق تعالى .

والحال عبارة عن فضل الله تعالى ولطفه الى قلب العبد ، دون أن يكون لمجاهدته تعلق به ، لأن المقام من جملة الأعمال ، والحال من جملة الأفضال . والمقام من جملة المكاسب ، والحال من جملة المواهب ، فصاحب المقام قائم بمجاهدته ، وصاحب الحال فان عن نفسه ، ويكون قيامه بحال يخلقه الحق تعالى فيه .

والمشايخ رضى الله عنهم مختلفون هنا ، ففريق يجيزون دوام الحال ، وفريق لا يجيزونه .

والحارث المحاسبى رضى الله عنه يجيز دوام الحال ، ويقول ان المحبة والشوق والقبض والبسط كلها أحوال ، فاذا كان دوامها غير جائز فلا المحب محب ، ولا المشتاق مشتاق . وما لم يصر هذا الحال صفة للعبد فلا يقع عليه اسمه ، ولذا فهو يقول ان الرضا من جملة الأحوال . والاشارة الى ذلك

---

(١) سورة « الصافات » آية ١٦٤ .

ما قاله أبو عثمان الحيرى : « منذ أربعين سنة ما أقامنى الحق على حال فكرهته » .

وجماعة أخرى لا يجيزون بقاء الحال ودوامه ، كقول الجنيد رضى الله عنه : « الأحوال كالبروق فان بقيت فحديث نفس(١) » . وقالت جماعة فى هذا المعنى : « الأحوال كاسمها ، يعنى أنها كما تحل بالقلب تزول فى الوقت(٢) » أى أنها فى حال الحلول تتصل بالقلب ، وتزول فى ثانى الحال ، وما يبقى يصير صفة ، وقيام الصفة بالموصوف ، وينبغى أن يكون الموصوف أكمل من صفته ، وهذا محال . وقد جئت بهذا الفرق حتى اذا ما رأيت (كلمة) الحال والمقام فى عبارات هذه الطائفة ، وفى هذا الكتاب ، تعرف ما هو المراد بهما .

وفى الجملة : اعلم أن الرضا نهاية المقامات وبداية الأحوال ، وهو محل أحد طرفيه فى الكسب والاجتهاد ، والثانى فى المحبة وغليانها ، وليس فوقه مقام ، وفيه تنقطع المجاهدة ، فبدايته من المكاسب ، ونهايته من المواهب . ويحتمل الآن أن من رأوا فى البداية رضاء أنفسهم بأنفسهم ، قالوا انه المقام ، ومن رأوا فى النهاية رضاءهم بالحق ، قالوا انه الحال .

هذا هو حكم مذهب المحاسبى فى أصل التصوف ، ولكنه لم يختلف فى المعاملات ، الا فى أنه كان يزجر المريدين عن العبارات والمعاملات التى كان يتوهم فيها الخطأ مهما كان أصلها صحيحا ، كما حدث حين دخل عليه أبو حمزة البغدادى أحد مريديه ، وكان رجلا مستمعا وصاحب حال ، وكان للحارث « شاه مرغ »(٣) ، أى ديك يصيح ، فصاح فى تلك الساعة ، فصرخ أبو حمزة ، فنهض الحارث وأمسك السكين وقال له : كفرت ! وقصد قتله . فوقع المريدون على أقدام الشيخ وأبعدوه عنه . وقال لأبى حمزة : أسلم يا مطرود ! فقالوا له : أيها الشيخ ! لقد عرفناه جميعا من خواص الأولياء ، ونراه من جملة الموحدين ، فما سبب شك الشيخ فيه ؟ فقال الحارث : أنا لا أشك فيه ، ولا أنظر اليه بغير الخير ، ولا أرى باطنه الا مستغرقا فى التوحيد . ولكن

---

(٢٠١) وردا فى الرسالة . (انظر جـ ١ ص ١٩٣) .

(٣) « شاه مرغ » : كلمة فارسية معناها الدجاجة الكبيرة ، وقد وضعنا بازائها كلمة (ديك) بقرينة الصياح . وقد ذكرت هذه الكلمة بلفظها فى اللمع (ص ٤٩٥) عند الاشارة الى هذه الحكاية فى ذكر أبى حمزة الصوفى البغدادى. وهذه الكلمة غير مستعملة الان بين أهل اللغة ولا ذكر لها بالمعاجم الفارسية وقد ذكرت فقط فى قاموس الكلمات الفارسية فى اللغة العربية : (شاهمرك) على أنها محرفة عن (شاه مرغ) ، ومستعملة بين سكان سواحل الخليج الفارسى ، وأن معناها اللفظى : الدجاجة الكبيرة (انظر : « وازه هاى فارسى در زبان عربى » ص ٣٩٥) .

لم ينبغى له أن يفعل شيئا شبيها بأفعال الحلوليين حتى يبدو فى معاملته أثر من مقالاتهم ؟ فالطائر الذى لا عقل له ويصيح جريا على عادته وهواه ، لماذا يستمع اليه مع الحق ، والحق تعالى غير متجزىء ، وأحباؤه لا يطمئنون الى غير كلامه ، ولا وقت ولا حال لهم بغير التسليم له ، ولا نزول ولا حلول له فى الأشياء ، ولا يجوز على القديم الاتحاد والامتزاج . فلما رأى أبو حمزة وقتئذ نظر الشيخ قال : أيها الشيخ ! مهما كنت على صواب فى الأصل فانه ما دام فعلى شبيها بفعل أولئك القوم فقد تبت ! وأناب .

وله طرف كثيرة من هذا النوع ، وقد أختصرت .

وهذا طريق محمود جدا ، وطريق للسلامة فى الصحو بلا تكسير ، على الكمال . وقال النبى عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » . وأنا على بن عثمان الجلابى أطلب دائما من الله تعالى أن يهبنى مثل هذه المعاملة ، وهذا لا يستقيم مع صحبة المترسمين فى هذا الزمان ، لأنك اذا لم ترائهم فى المعصية ، عادوك ، فنعوذ بالله من الجهل والضلالة .

القصارية

وأما القصاريون فينتمون الى أبى صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار **رضى الله** عنه ، وكان من العلماء الكبار وسادات هذه الطريقة . وكان طريقه **اظهار** ونشر الملامة ، وله فى فنون المعاملات كلام عال . وكان رضى الله عنه **يقول** : ينبغى أن يكون علم الحق بك أطيب من علم الخلق . أى أن تكون **معاملتك** مع الحق فى الخلا أحسن من معاملتك مع الخلق فى الملا ، لأن الحجاب **الأعظم** عن الحق هو انشغال قلبك بالخلق . وقد أوردت هذا فى باب الملامة **فى بداية** الكتاب ، واختصرت فى ذلك تركا للتطويل .

ومن نوادر حكاياته أنه يقول : كنت أسير يوما على شاطىء النهر بحيرة **نيسابور**(١) ، وكان هناك عيار اسمه نوح ، معروف بالفتوة — وكان كل عيارى **نيسابور** فى طاعته — رأيته فى الطريق ، فقلت : يا نوح ! ما الفتوة ؟ قال : تريد **فتوتى أم** فتوتك ؟ قلت : اذكر الاثنتين . قال : فتوتى هى أن أخلع هذا القباء **والبس** المرقعة وأمارس معاملاتها لأصير صوفيا ، وأحترز من المعصية فى **ذلك الثوب** حياء من الخلق . وفتوتك هى أن تخلع المرقعة حتى لا تفتتن بالخلق **ولا يفتتن** بك الخلق ، ففتوتى حفظ الشريعة على الأظهار ، وفتوتك حفظ **الحقيقة** على الأسرار .

وهذا أصل قوى ، وبالله العون والتوفيق .

(*) يقصد بالقصارية فرقة الملامتية : ارجع الى باب بيان الملامة الجزء **الأول** ص ٢٥٩ .

(١) « حيرة نيسابور » : محلة كبيرة بنيسابور ينسب اليها جماعة من أهل **العلم** ، وهى تلتبس بالحيرة التى بظاهر الكوفة . (وفيات الأعيان ج ١ ص **٤٨٢**) .

الطيفورية

أما الطيفوريون فينتمون الى أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى رضى الله عنه ، وكان من رؤساء المتصوفة وكبارهم ، وطريقه الغلبة والسكر(١) .

وغلبة الحق عز وجل وسكر المحبة ليسا من جنس كسب الآدمى . وكل ما يخرج عن دائرة الاكتساب تكون الدعوة اليه باطلة ، والتقليد فيه محال . والسكر لا محالة لا يكون صفة للصاحى ، ولا سلطان للآدمى فى جلب السكر الى نفسه ، والسكران نفسه مغلوب ، ولا يلتفت الى الخلق حتى يظهر بصفة من صفات التكلف .

ومشايخ هذه الطريقة على أنه لا يصح الاقتداء الا بمستقيم يكون قد تحرر من دور الأحوال . ثم ان جماعة يجيزون أن يسلك الشخص طريق السكر والغلبة بالتكلف ، لأن الرسول عليه السلام قال : « ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا(٢) » . ولهذا وجهان ، أحدهما : أن يتشبه المرء بفريق رياء ، وهذا شرك صريح ، والثانى : أن يتشبه بهم لعل الحق تعالى يوصله الى درجة القوم الذين تشبه بهم ، ليكون موافقا لقول الرسول عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم(٣) » ، فكل ما يدخل فى نوع المجاهدات فى الطريق يأتى به ، ويظل على أعتاب الأمل حتى يفتح الله تعالى عليه باب التحقيق ومعانيه ، اذ قال واحد من المشايخ : « المشاهدات مواريث المجاهدات » .

ونقول : المجاهدات طيبة فى جميع المعانى ، ولكن السكر والغلبة لا يدخلان تحت الكسب حتى يمكن جلبهما بالمجاهدات ، ولا تصير عين المجاهدة علة للحصول على السكر ، ويمكن القيام بالمجاهدة فى حال الصحو(٤) ، ولا قبل لصاحب الصحو بقبول السكر ، وهذا محال .

---

(١) « السكر » عند أهل الحق هو غيبة بوارد قوى . وهو يعطى الطرب والالتذاذ ، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها . (تعريفات الجرجانى ص ٦٩) .

(٢) رواه ابن ماجة فى كتاب الزهد ، باب الحزن ، من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا (ج ٢ ص ٤٠٣) .

(٣) مكرر .

(٤) « الصحو » : هو رجوع العارف الى الاحساس بعد غيبته وزوال احساسه . (التعريفات ص ٧٥) .

وابين الآن حقيقة السكر والصحو على اختلاف المشايخ ليرتفع الاشكال ان شاء الله تعالى .

الكلام فى السكر والصحو : اعلم أعزك الله أن السكر والغلبة عبارة صاغها ارباب المعانى للتعبير عن غلبة محبة الحق تعالى ، والصحو عبـــارة عن حصول المراد . ولأهل المعانى أقوال كثيرة فى هذا المعنى ، فجماعة يفضلون الصحو على السكر ، وجماعة على خلافهم يفضلون السكر على الصحو — وهم أبو يزيد رضى الله عنه وأتباعه — ويقولون ان الصحو على التمكين والاعتدال يأخذ صفة الآدمية ، وذلك هو الحجاب الأعظم عن الحق تعالى ، وأن السكر يقوم على زوال الآفة ،ونقص صفات البشرية ، وذهاب تدبيرها واختيارها ، وفناء تصريفها فى نفسها ببقاء القوة الموجودة فيها خلافا لجنسها، وهذا أبلغ وأتم وأكمل ، مثلما كان داود عليه السلام فى حال الصحو ، فصدر عنه فعل ، فأضاف الله تعالى ذلك الفعل اليه وقال : « وقتل داود جالوت(١) » . وكان المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، فى حال السكر فظهر منه فعل ، فأضاف الله تعالى ذلك الفعل الى نفسه ، فى قوله تعالى : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى(٢) » ، فشتان ما بين عبد وعبد ، فمن كان قائما بنفسه ثابتا بصفاته ، قيل له : أنت فعلت ، على وجه الكرامة ، ومن كان قائما بالحق فانيا عن صفاته ، قيل له : نحن فعلنا ، فاضافة فعل العبد الى الحق أفضل من اضافة فعل الحق الى العبد ، لأنه حين يضاف فعل الحق الى العبد يكون العبد قائما بنفسه ، وعندما يضاف فعل العبد الى الحق يكون قائما بالحق ، اذ حين يكون قائما بنفسه يكون مثلما وقع نظر داود عليه الســـلام على ما لم يكن ينبغى له أن ينظر اليه ، اى على امراة أوريا(٣) ، فرأى ما راى . وحين يكون العبد قائما بالحق يكون مثل المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، اذ نظر نظرة من هذا النوع فحرمت امراة

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥١ .

(٢) سورة « الأنفال » آية ١٧ .

(٣) « برسبا بنت اليات » : امراة أوريا بن حنان الشطى ، يقال رآها داود عليه السلام فوقعت فى قلبه ، ولما قتل أوريا فى الحرب تزوجها داود (تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٣٨ ، المعارف ص ٢١) .

زيد(١) على زيد ، لأن تلك (النظرة) كانت فى محل الصحو ، وهذه كانت فى محل السكر .

ثم ان أولئك الذين يفضلون الصحو على السكر — وهم الجنيد رضى الله عنه وأتباعه — يقولون ان السكر محل للافة ، لأنه تشويش الأحوال ، وذهاب الصحة ، وضياع زمام النفس . ولما كان الطالب قاعدة لكل المعـــانى : اما عن طريق فنائه ، أو عن طريق بقائه ، أو عن طريق محوه ، أو عن طريق اثباته ، فأنه ما لم يكن صحيح الحال لا تحصل فائدة التحقيق ، لأن قلوب أهل الحق يجب أن تكون مجردة من كل المثبتات ، وهى لا تستريح أبدا من قيد الأشياء بعدم الرؤية ، ولا تنجو من آفاتها . وبقاء الخلق فى الأشياء راجع الى أنهم لا يرون الأشياء كما هى ، ولو رأوها (كذلك) لنجوا .

والرؤية الصحيحة على نوعين ، الأول : أن الناظر فى الشىء ينظر اليه بعين بقائه ، والثانى : أن ينظر اليه بعين فنائه ، فاذا نظر بعين البقاء يجد كل (الموجودات) ناقصة فى بقائها ، لأنها ليست باقية بنفسها فى حال بقائها ، واذا نظر بعين الفناء يجد كل الموجودات فانية فى جنب بقاء الحق ، وهاتان الصفتان تأمرانه بالاعراض عن الموجودات ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حال دعائه : « اللهم أرنا الأشياء كما هى » ، لأن كل من رأى استراح . وهذا معنى قول الله عز وجل : « فاعتبروا يا أولى الأبصار(٢) » ، وما لم ير فانه لا ينجو .

وهذا كله لا يستقيم الا فى حال الصحو ، ولا علم لأهل السكر بهذا المعنى أبدا : مثل موسى عليه السلام حين كان فى حال السكر فلم يطق اظهار تجل واحد ففقد الوعى ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان فى حال الصحو فكان من مكة الى قاب قوسين فى عين التجلى ، وكان فى كل لحظة أكثر يقظة وصحوا .

(١) « زينب بنت جحش » : كانت زوجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء الرسول الى منزل زيد يطلبه فلم يجده ، ورأى زينب فوقع اعجابها فى قلبه ، ولمـــا وقع ذلك كرهت الى زيد ، وفارقها زيد ، وتزوجها الرسول فى السنة الخامسة للهجرة . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٦٨ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٦٢ — ٥٦٤) .

(٢) سورة « الحشر » آية ٢ .

(شـــعر عربى)

شربت الراح كأســـا بعـــد كأس فما نفـــد الشـــراب ومـــا رويت

وكان شيخى — وهو جنيدى المذهب — يقول : السكر ملعب الصغار ، والصحو مفنى الرجال . وأنا على بن عثمان الجلابى أقول موافقة لشيخى رحمه الله : كمال حال صاحب السكر هو الصحو ، وأقل درجة فى الصحو : رؤية عجز البشرية ، فالصحو الذى يبدو آفة أفضل من السكر الذى هو عين الآفة .

ويحكى عن أبى عثمان المغـــربى رحمه الله أنه فى بداية حاله اعتزل عشرين سنة فى البوادى بحيث لم يكن يسمع آدميا ، حتى ذابت بنيته من المشقة ، وصارت عيناه كسم الخياط ، وتحول عن صورة الآدميين . وجاءه الأمر بالصحبة بعد عشرين عاما ، وقيل له : اصحب الخلق ، فقال لنفسه : فلأبدأ بصحبة أهل الله ومجاورى بيته ، ليكون ذلك أكثر بركة ، فقصـــد مكة . واطلع المشايخ على مجيئه بقلوبهم ، وخرجوا لاستقباله ، فوجدوه وقد تبدلت صورته ، وفى حال لم يكن قد بقى عليه فيها شىء سوى رقم الخلقة ، فقالوا : يا أبا عثمان ! لقد عشت عشرين سنة على هـــذه الصفة التى أعجزت آدم وذريته فى أمرك ، قل لنـــا لم ذهبت ؟ وماذا رأيت ؟ وما وجدت ؟ ولم عدت ؟ فقال : ذهبت بسكر ، ورأيت آفة السكر ، ولقيت يأسا ، ورجعت بالعجز . فقال جميع المشايخ : يا أبا عثمان ! حرام على المعبرين من بعدك أن يعبروا عن الصحو والسكر ، لأنك أنصفت كل الانصاف ، وأوضحت آفة السكر .

فالسكر كله هو ظن الفناء فى عين بقاء الصفة ، وهذا هو الحجاب ، والصحو كله هو رؤية البقاء فى فناء الصفة ، وهذا هو عين الكشف .

وفى الجملة : اذا تصور انسان أن السكر أقرب الى الفناء من الصحو ، فهذا محال ، لأن السكر صفة زائدة على الصحو ، وطالما كانت أوصاف العبد متجهة الى الزيادة فهو غافل ، وحين تتجه الى النقصان يكون للطلاب فيه رجاء . وهذا هو غاية حالهم فى الصحو والسكر .

وتروى عن أبى يزيد رضى الله عنه حكاية مقلوبة ، وهى أن يحيى بن معاذ رضى الله عنه كتب اليه رسالة يقول فيها : ما تقول فى شخص يسكر بقطرة من بحر المحبة ؟ فكتب اليه أبو يزيد رضى الله عنه : ما تقول فى شخص

تصير كل بحار العـــالم شراب محبة ، فيشربها جميعا ، ولا يزال يصرخ من الظمـــأ ؟ (١) .

ويتصور الناس أن يحيى قد عبر عن السكر ، وأبا يزيد عبر عن الصحو ، والأمر على خلاف هذا ، لأن صاحب الصحو هو من لا طاقة له بقطرة ، وصاحب السكر هو من يشرب الكل بالسكر ولا يزال يلزمه غيره ، لأن الشراب آلة السكر ، والجنس بالجنس أولى ، والصحو يكون بضد ذلك فلا يهدأ بالمشرب .

أما السكر فعلى نوعين : أحدهما بشراب المودة ، والآخر بكأس المحبة . وسكر المودة معلول لأنه يتولد من رؤية النعمة ، وسكر المحبة بلا علة لأنه يتولد من رؤية المنعم ، فكل من يرى النعمة يراها على نفسه فيكون قد رأى نفسه ، وكل من يرى المنعم يراه به فلا يرى نفسه ، ومهما يكن فى السكر فان سكره يكون صحوا .

والصحو أيضا على نوعين : أحدهما صحو الغفلة ، والآخر صحو المحبة . وصحو الغفلة هو الحجاب الأعظم ، وصحو المحبة هو الكشف الأبين ، فالمقرون بالغفلة سكر ولو كان صحوا ، والموصول بالمحبة صحو ولو كان سكرا . وعندما يكون الأصل محكما ، يكون الصحو كالسكر والسكر كالصحو ، وحين يكونان على غير أصل ، فكلاهما بلا جدوى .

وجملة القول : ان الصحو والسكر فى طريق الرجال معلولان بعلة الاختلاف ، وعندما يظهر سلطان الحقيقة جماله ، يبدو الصحو والسكر كلاهما طفيليا ، لأن طرفى كلا هذين المعنيين موصولان بأحدهما الآخر ، ونهاية أحدهما بداية الآخر ، والنهاية والبداية لا تكونان الا فى التفاريق ، وما ينسب الى التفرقة يكون متساويا فى الحكم ، والجمع نفى للتفاريق . ويقال فى هذا المعنى :

(بيت عـــربى)

اذا طـــلع الصـــباح بنجم(٢) راح تســـاوى فيه ســـكران **وصـــاح**

---

(١) ورد فى الرسالة قول القشيرى : « سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت النهر جورى يقول : سمعت على بن عبيد يقول : كتب يحيى بن معاذ الى أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته . فكتب اليه بو يزيد : غيرك شرب بحور السماوات والأرض وما روى بعد ، ولسانه خارج ويقول : هل من مزيد » . (الرسالة ج ٢ ص ٦٢٠) .

(٢) ورد فى الرسالة : « لنجم » (انظر : ج ١ ص ٢١٨) .

وكان فى سرخس شيخان : أحدهما « لقمان(١) » ، والآخر « أبو الفضل حسن » رحمهما الله ، وقد دخل لقمان على أبى الفضل يوما فوجده وبيده كتاب ، فقال له : يا أبا الفضل ! عما تبحث فى الكتاب ؟ فقال : عما تبحث عنه أنت فى تركه . قال : فلم الخلاف ؟ قال « أبو الفضل » : أنت الذى ترى الخلاف لأنك تسألنى : عما تبحث ؟ فأفق من السكر ولا تنفر من الصحو ليرتفع عنك الخلاف ، فتعرف ماذا نطلب أنا وأنت .

فللطيفوريين مع الجنيديين يجرى هذا القدر من الخلاف الذى ذكرناه . ومذهبه (أبو يزيد) فى المعاملات على الاطلاق : ترك الصحبة واختيار العزلة ، وهويأمر المريدين جميعا بهذا . وهذه طريقة محمودة ، وسيرة ممدوحة اذا تيسرت ، وهو أعلم .

---

(١) « لقمان السرخسى » : أشار اله ابن المنور فذكر انه كان مجذوبا من عقلاء المجانين ، وكانت له فى بداية أمره مجاهدات كثيرة واحتياط فى المعاملة ، وفجأة ظهر له كشف أودى بعقله . ولقمان هو الذى قدم اباسعيد ابن أبى الخير الى مرشده الشيخ أبى الفضل حسن السرخسى : انظر « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٤٠ — ٤١ ، وترجمته فى « نفحات الأنس » ص ٢٩٦) .

الجنيدية

أما الجنيديون فينتمون الى أبى القاسم الجنيد بن محمد رضى الله عنه ، وكانوا فى زمنه يسمونه « طاووس العلماء » . وكان سيد هذه الطائفة ، وامام أئمتهم ، وطريقه مبنى على الصحو ، على عكس الطيفوريين ، وقد ذكرت الاختلاف بينهما . ومذهبه أكثر المذاهب معرفة وشهرة ، وجميع مشايخى رحمهم الله كانوا جنيديين . وله غير هذا الاختلاف فى الكلمات اختلاف كثير فى معاملات هذه الطريقة ، ولكنى اقتصرت على هذا مخافة التطويل . واذا لزم لشخص أن يعرف أكثر من هذا ، فعليه أن يقرأه فى مكان آخر ليعلم له على نحو أفضل ، لأن مذهبى فى هذا الكتاب هو الاختصار وترك التطويل ، وبالله العون .

وقد وجدت فى الحكايات انه حين تبرأ الحسين بن منصور — فى حال غلبته(١) — من عمرو بن عثمان ، جاء الى الجنيد رحمه الله ، فقال له الجنيد: لم جئت ؟ قال : لأصحب الشيخ . قال: لا صحبة لنا مع المجانين ، لأنه ينبغى للصحبة الصحة ، فاذا وجدتها تكون كما فعلت مع سهل التسترى وعمرو . قال : « أيها الشيخ ! الصحو والسكر صفتان للعبد وما دام العبد محجوبا عن ربه حتى تفنى أوصافه(٢) » . قال الجنيد رضى الله عنه : « يا ابن منصور ! أخطأت فى الصحو والسكر ، لأن الصحو بلا خلاف عبارة عن صحة حال العبد مع الحق ، والسكر عبارة عن فرط الشوق وغاية المحبة ، وكلاهما لا يدخل تحت صفة العبد واكتساب الخلق . وأنا أرى يا ابن منصور فى كلامك فضولا كثيرا ، وعبارات لا طائل تحتها » . وهو أعلم .

---

(١) أى : فى حال كونه مغلوبا على نفسه من السكر .
(٢) هذه العبارة وردت هكذا فى الأصل بالعربية محرفة ، وتليها ترجمة فارسية أوضح ، معناها : « الصحو والسكر صفتان للعبد ، ولا يزال العبد محجوبا عن ربه حتى تفنى أوصافه » .

النورية

أما النوريون فينتمون الى أبى الحسين النورى رضى الله عنه ، وكان أحد صدور علماء المتصوفة ، وأشهر من النور بينهم ، بمناقبه اللامعة ، وحججه القاطعة . وكان له فى التصوف مذهب مرضى ، وقاعدة مختارة . وقانون مذهبه هو تفضيل التصوف على الفقر ، ومعاملاته تتفق مع الجنيد .

ومن نوادر طريقته أنه يؤثر حق الصاحب على حقه ، ويرى الصحبة بلا ايثار حراما ، ويقول : الصحبة للدراويش فريضة ، والعزلة غير حميدة ، وايثار الصاحب على الصاحب أيضا فريضة .

ويرد عنه أنه قال : « اياكم والعزلة فان العزلة مقارنة الشيطان ، وعليكم بالصحبة فان فى الصحبة رضاء الرحمن » .

والآن أبين حقيقة الايثار ، وحين أصل الى باب الصحبة والعزلة أشرح هنالك رموزهما لتكون الفوائد أعم .

الكلام فى حقيقة الايثار : قال الله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(١) » . وكان نزول هذه الآية فى فقراء الصحابة على الخصوص .

وحقيقة الايثار هى أن يرعى الصاحب فى الصحبة حق صاحبه ، ويتجاوز عن نصيبه فى نصيبه ، ويتجشم التعب من أجل راحة صاحبه ، « لأن الايثار : القيام بمعاونة الأغيار ، مع استعمال ما أمر الجبار لرسوله المختار ، حيث قال : خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين(٢) » . وسيأتى هذا أكثر شرحا فى باب آداب الصحبة ، أما المراد هنا فالايثار ، وهو على نوعين : أحدهما فى الصحبة ، كما مر ذكره ، والآخر فى المحبة . وفى ايثار حق الصاحب نوع من المشقةوالكلفة ، أما فى ايثار حق الحبيب فكله روح وراحة .

---

(١) سورة « الحشر » آية ٩ .
(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩ .

ومشهور فى الحكايات أنه حين أظهر غلام الخليل عداوته لهذه الطائفة ، وسلك مع كل منهم لونا من الخصومة ، أخذوا « النورى(١) » و « الرقام » و « أبا حمزة » وحملوهم الى دار الخلافة ، وقال غلام الخليل : هؤلاء قوم من الزنادقة ، واذا أمر أمير المؤمنين بقتلهم يتلاشى أصل الزنادقة ، لأنهم رؤساء كل هذه الطائفة ، واذا تم هذا الخير على يديه فأنا أضمن له ثوابا كبيرا . فأمر الخليفة بضرب رقابهم فى الحال . وجاء السياف وأوثق أيدى الثلاثة ، وعندما قصد قتل الرقام نهض النورى وجلس فى مكان الرقام على نطع السياف ، فى غاية الطرب والطواعية ، فعجب الناس ، وقال السياف: أيها الفتى ! ليس هذا السيف بالشىء المرغوب الذى يتقدمون اليه بهذه الرغبة التى جئت بها ، ولم تصل اليك النوبة بعد . قال : نعم ، ولكن طريقتى مبنية على الايثار ، والحياة أعز الأشياء ، وأريد أن أبذل هذه الأنفاس المعدودة فى سبيل هؤلاء الاخوة ، لأن نفسا واحدا فى الدنيا أعز على من الف سنة فى الآخرة ، لأن هذه دار الخدمة ، وتلك دار القربة ، والقربة تدرك بالخدمة . فنقل صاحب البريد هذا الكلام الى الخليفة ، فتعجب الخليفة من رقة طبعه ، ودقة كلامه فى مثل هذه الحال ، وأرسل شخصا يقول : توقفوا فى أمرهم . وكان العباس بن على قاضى القضاة ، فأحال اليه أمرهم . وحمل الثلاثة الى داره ، ووجدهم فى كل ما سألهم عنه من أحكام الشريعة والحقيقة على أتم حال ، وخجل من غفلته فى حقهم ، وعندئذ قال له النورى : أيها القاضى ! لقد سألت كل هذه الأسئلة ولم تسأل بعد : هل لله رجال قيامهم به ، وقعودهم به،ونطقهم وحركتهموسكونهم كلها حية به ، وقائمةبمشاهدته، واذا انقطعت مشاهدة الحق عنهم لحظة واحدة تعالى صراخهم ؟ . فتعجب القاضى من دقة كلامهم ، وصحة حالهم ، وكتب الى الخليفة يقول : اذا كان هؤلاء ملاحدة فأنا أشهد وأحكم بأنه لا يوجد على وجه الأرض موحد ! فدعاهم الخليفة وقال : سلوا حاجتكم . قالوا : ان حاجتنا اليك هى أن تنسانا ، فلا ترانا مقربين بقبولك ، ولا مطرودين بهجرك ، لأن هجرك لنا كقبولك ، وقبولك كهجرك . فبكى الخليفة وأعادهم مكرمين .

---

(١) اتهم غلام الخليل النورى بالزندقة ، وشهد عليه لدى الموفق ، وهو يومئذ أمير المؤمنين ، بأنه سمعه يقول : أنا أعشق الله وهو يعشقنى ، فقال النورى : سمعت الله تعالى ذكره يقول : « يحبهم ويحبونه » ، وليس العشق بأكثر من المحبة ، غير أن العاشق ممنوع ، والمحب يتمتع بحبه . فبكى الموفق من رقة كلامه . (اللمع ص ٤٩٢) .

ويروى عن نافع(١) انه قال : اشتهى ابن عمر(٢) سمكا ، فطلبوه فى كل المدينة فلم يجدوه . ووجدته بعد بضعة أيام ، وأمرت بأن يشوى ، وحملته اليه على طبق ، فرأيت على وجهه فى حال المرض أثر الفرح باحضار ذلك السمك . وجاء فى الحال سائل على الباب ، فقال : أعطوه له . فقال غلامه : ياسيدى ! لقد ظللت تطلبه عدة أيام ، فلم تعطيه له الآن ؟ يمكننا أن نعطى السائل شيئا آخر بدل هذا . فقال : أيها الغلام ! حرام على أكل هذا لأنى أخرجته من قلبى بذلك الخبر الذى سمعته عن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال عليه السلام : « أيما امرىء يشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له(٣) » .

ووجدت فى الحكايات أن عشرة من الدراويش أوغلوا فى البادية فانقطعوا عن الطريق ، وأدركهم العطش ، وكان معهم شربة ماء ، فكان كل منهم يؤثر بها الآخر حتى رحلوا جميعا عن الدنيا بظمئهم غير واحد منهم ، قال : لما رأيت الجميع ماتوا شربت الماء ، وعدت بقوته الى الطريق . فقال له واحد : لو كنت لم تشربه لكان ذلك أفضل . فقال : يا هذا ! لقد عرفت الشريعة هكذا ، أننى لو لم أشرب لكنت قاتل نفسى ، ومأخوذا بذلك . فقال : اذن فقد كانوا قاتلى أنفسهم ؟ قال : كلا ، لأن كل واحد منهم لم يشرب حتى يشرب الآخر ، فلما قضوا جميعا متفقين ، بقيت ، ووجب لى الماء لا محالة ، فكان ينبغى شرعا أن أشرب ذلك الماء .

وعندما نام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه على فراش النبى عليه السلام ، وخرج النبى مع أبى بكر رضى الله عنه من مكة ودخلا الغار ، وقصد الكفار فى تلك الليلة قتل النبى عليه السلام ، قال الله تعالى لجبريل وميكائيل : قد آخيت بينكما وجعلت أحدكما أطول عمرا من الآخر ، فأيكما يؤثر أخاه على نفسه بالحياة ، ويختار الموت لنفسه ؟ فاختار كلاهما الحياة،

---

(١) « نافع » مولى عبد الله بن عمر ، كان يكنى أبا عبد الله ، وكان من أهل « أبر شهر » أصابه عبد الله بن عمر فى غزواته . يروى عن مولاه ابن عمر وغيره . مات سنة وعشرين ومائة . (انظر : المعارف ص ٨٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٤٣) .

(٢) « ابن عمر » : عبد الله بن عمر بن الخطاب . سبقت له ترجمة (انظر جـ ١ ص ٢٨٨ حاشية ٢) .

(٣) رواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ، ورواه ابن الجزرى فى الموضوعات .

فقال الله تعالى لجبريل وميكائيل : لقد رأيتما شرف « على » وفضله عليكما، اذ آخيت بينه وبين رسولى ، فاختار لنفسه القتل والموت ونام مكانه ، وجعل روحه فداء النبى ، عليه السلام ، وآثره على نفسه بالحياة بهلاكه ، فاذهبا الآن الى الأرض ، واحفظاه من الأعداء . عندئذ جاء جبريل وميكائيل وجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه ، وقال جبريل : « بخ بخ ! من مثلك يا ابن أبى طالب لأن الله تعالى يباهى بك على ملائكته » ، وعندئذ نزل فيه قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد(١) » .

وتقول امرأة من صالحات الأنصار : لما امتحن الله تعالى المؤمنين بمحنة أحد(٢) ، خرجت بشربة ماء لأعطيها أحد أقربائى ، فرأيت فى الميدان أحد كرام الصحابة وقع جريحا وهو يلهث ، فأشار الى أن : أعطنى من ذلك الماء ، فأعطيته الماء . فصاح جريح آخر : أعطنيه ! فلم يشرب ، وأشار لى اليه ، فلما حملته اليه صاح آخر ، فلم يشربه وقال لى : احمليه اليه ، وهكذا حتى الشخص السابع ، فلما أراد السابع أن يأخذ منى الماء أسلم الروح ، فعدت وقلت : فلأعطه للآخرين ، وكان الستة قد رحلوا ، فمات السبعة جميعا . وعندئذ نزل قوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(٣) » .

وكان فى بنى اسرائيل عابد عبد أربعمائة(٤) سنة ، وذات يوم قال : يا الهى ! لو لم تكن تلك الجبال ولم تخلقها لكان السير والسياحة على عبادك أسهل . فجاء الأمر الى أحد أنبياء ذلك الوقت أن : قل لذلك العابد : ما شأنك بالتصرف فى ملكنا ؟ والآن وقد تصرفت ، محونا اسمك من ديوان السعداء ، وأثبتناك فى ديوان الأشقياء . فطرب العابد وسجد شكرا لله عز وجل . فقال نبى الوقت : لا يجب الشكر على الشقاء ، فقال : أنا أشكر

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٠٧ .

(٢) وقعة أحد : كانت فى شوال بعد بدر العظمى بعام ، فقد اجتمعت قريش واستعدت لطلب ثأرها يوم بدر ، وخرج المشركون وعدتهم ثلاثة آلاف رجل ورئيسهم أبو سفيان ، وخرج المسلمون وعدتهم ألف رجل حتى صاروا الى أحد ، ووافى المشركون فاقتتلوا اقتتالا شديدا وقتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله : رماه وحشى العبد بحربة فسقط ، ومثلت به هند بنت عتبه ، فجزع عليه رسول الله صلعم جزعا شديدا ، وكبر عليه خمسا وسبعين تكبيرة ، وانهزم المسلمون . (تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٥) .

(٣) سورة « الحشر » آية ٩ .

(٤) هكذا فى الأصل : (جهار صد) .

على الشقاء لأن البارىء أثبت اسمى فى ديوان من دواوينه . ولكن لى حاجة يا نبى الله ! قال : قل لأنقلها . قال : قل لله تعالى وتقدس (عنى) : ابعث بى الى الجحيم ، وضاعف جسدى بحيث أشغل مكان كل العصاة الموحدين ، ليذهبوا جميعا الى الجنة . فجاء الأمر أن : قل لذلك العابد : ان هذا الامتحان لم يكن اهانة لك ، بل كان جلوة لك على رؤوس الخلائق ، وكن أنت ومن تشفع له يوم القيامة فى الجنة .

وقد سألت أحمد بن حماد السرخسى : كيف كانت بداية توبتك ؟ قال : فى وقت من الأوقات خرجت من سرخس ، وأوغلت فى الصحراء على رأس ابلى ، ومكثت مدة . وكنت أحب دائما أن أجوع وأعطى نصيبى لآخر ، وكان قول الله عز وجل « ويؤثرون على أنفسهم » يتجدد أمام خاطرى . وكنت أعتقد فى هذه الطائفة . وذات يوم أقبل أسد جائع من الصحراء وافترس بعيرا من أبلى ، ومضى به فوق ربوة وزأر زأرة حتى سمع زئيره كل ما كان فى تلك الأنحاء من السباع واجتمعوا عليه ، فجاء ومزق البعير ولم يأكل شيئا ، ورجع الى الربوة . وأكلت السباع جميعا : من ذئب ، وابن آوى وأمثال ذلك . وبقى هو حتى انصرف الجميع ، وعندئذ قصده ليأكل شيئا ، فظهر من بعيد ثعلب أعرج ، فرجع الأسد حتى أكل الثعلب بقدر حاجته وعاد ، وعندئذ رجع الأسد وأكل قدرا منه . وكنت أنظر اليه من بعيد ، فلما عاد قال لى بلسان فصيح : يا أحمد ! الايثار باللقمة عمل الكلاب ، أما الرجال فيؤثرون بالروح والحياة . فلما رأيت ذلك البرهان كففت عن كل الأشغال ، وكان ذلك بداية توبتى .

ويقول جعفر الخلدى رضى الله عنه : كان أبو الحسن النورى رحمه الله ورضى الله عنه يناجى فى الخلوة يوما ، فذهبت لأسمع مناجاته بحيث لا يعلم ، لأنه كان فصيحا جدا ولبقا ، فقال : يا الهى ! أنت تعذب أهل النار وكلهم خلقك وقائمون بعلمك وقدرتك وقديم ارادتك ! فان كنت ولابد ستملأ الجحيم من الناس فأنت قادر على أن تملأها وطبقاتها بى ، وترسلهم الى الجنة ! قال جعفر : فتحيرت فى أمره ، فرأيت فى النوم أن قادما مقبل وهو يقول : قال الله تعالى : قل لأبى الحسن : اننا غفرنا لك بتعظيمك لنا ، وشفقتك على عبادنا .

وكانوا يسمونه بالنورى لأنه حين كان يتحدث فى دار مظلمة كانت الدار تضىء بنور باطنه . وكان يعرف أسرار المريدين بنور الحق ، حتى قال عنه الجنيد : « أبو الحسن جاسوس القلوب » .

هذه هى خصيصة مذهبه ، وهى أصل قوى وأمر معظم عند أهل البصيرة . وليس أشد على الآدمى أبدا من بذل الروح ، والامتناع عن محبوبه . وقد جعل الله تعالى مفاتيح كل الخيرات فى بذل المحبوب ؛ لقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون(١) » . واذا بذل امرؤ روحه فأى خطر للمال والمنال والخرقة واللقمة ؟ .

وأصل هذه الطريقة على نحو ما ذهب رجل الى رويم وقال له : أوصنى . فقال : « يا بنى ! ليس هذا الأمر غير بذل الروح ان قدرت على ذلك ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية(٢) » ، وكل ما عدا هذا ترهات كله !

وقال الله جل جلاله عز من قائل : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون(٣) » ، وقوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء(٤) » ، فالحياة الأبدية فى القرب السرمدى تدرك ببذل الروح ، وترك نصيب النفس فى انفاذ أمر الله ، ومتابعة أحبائه .

أما الايثار والاختيار جملة ففى رؤية التفرقة ، وفى عين الجمع عين الايثار الذى هو ترك النصيب ، وهو ذاته أصل النصيب . وطالما كان مسلك الطالب متعلقا بكسبه فهو كله هلاكه ، واذا ظهر جذب ولايته ، اضطربت أحواله وأفعاله جملة ، فلا تبقى له عبارة ، ولا لحاله اسم حتى يسميه انسان أو يعبر عنه ، أو يحال اليه شىء ، كما يقول الشبلى رحمه الله :

(شعر عربى)

غبت عنى فما أحس بنفسى ... وتلاشت صفاتى الموصوفة
فأنا اليوم غائب عن جميع ... ليس الا العبارة الملهوفة

---

(١) سورة « آل عمران » آية ٩٢ .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية : « أقل ما فى هذا الأمر بذل الروح ، فان أمكنك الدخول مع هذا فيه ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية » (انظر ص ١٨٣).
(٣) سورة « آل عمران » آية ١٦٩ .
(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٤ .

السهلية

وأما السهليون فينتمون الى سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله ، وكان من محتشمى أهل التصوف وكبارهم ، كما مر ذكره . وكان فى الجملة سلطان الوقت فى وقته ، ومن أهل الحل والعقد فى هذه الطريقة . وكانت له براهين كثيرة ظاهرة يعجز العقل عن ادراك حكاياتها .

وطريقه الاجتهاد ، ومجاهدة النفس ، والرياضة ، وكان يوصل المريدين بالمجاهدة الى درجات الكمال .

ومعروف فى الحكايات أنه قال لمريد : اجتهد أن تقول يوما طوال اليوم : « الله » ، « الله » ، وكذلك فى اليوم الثانى والثالث ، حتى اعتاد المريد ذلك ، فقال له : والآن صل الليالى بالأيام . ففعل كذلك الى أن صار اذا رأى نفسه فى المنام يقول ذلك فى النوم ، حتى أصبحت تلك العادة طبعا له ، فقال : أقلع الآن عن هذا ، وانشغل بالذكر . ففعل حتى أصبح مستغرقا فيه طوال وقته — « قال بعضهم : ذكر اللسان غفلة ، وذكر القلب قربة » — وحدث أن كان فى منزل مرة ، فسقطت خشبة من الهواء على رأسه وشجته ، وكانت قطرات الدم تسيل من رأسه على الأرض وتكتب « الله » ، « الله » !

وتربية المريدين عن طريق المجاهدة والرياضة طريق السهلية ، وخدمة الدراويش واحترامهم طريق الحمدونية(١) ، ومراقبة الباطن طريق الجنيدية رحمه الله عليهم أجمعين .

أما الرياضة والمجاهدة جملة فمخالفة النفس ، وما لم يعرف المرء نفسه فلا جدوى من رياضته ومجاهدته .

والآن أتحدث عن حقيقة النفس ومعرفتها ليصير ذلك معلوما ، ثم أبين المذاهب فى المجاهدات وأحكامها ، ليتضحا كلاهما لطالب المعرفة ، وبالله التوفيق .

---

(١) « الحمدونية » هم « القصارية » نسبة الى حمدون القصار ، ويقصد بهم الملامتية .

الكلام فى حقيقة النفس ومعنى الهوى :

اعلم أن النفس من وجهة اللغة هى وجود الشىء وحقيقته وذاته ، وهى — فيما جرت عليه عادات الناس وعباراتهم — تحتمل معانى كثيرة تختلف عن بعضها البعض ، وتستعمل بمعانى متضادة : فالنفس عند طائفة بمعنى الروح ، وعند فريق بعنى المروءة ، وعند قوم بمعنى الجسد ، وعند جماعة بمعنى الدم . أما مراد محققى هذه الطائفة من هذا اللفظ فليس شيئا من هذا كله ، وهم متفقون على أنها فى حقيقتها منبع الشر وقاعدة السوء . وتقول طائفة انها عين مودعة فى القالب كالروح ، وتقول طائفة أخرى انها صفة للقالب مثل الحياة . وهم متفقون على أنها السبب فى ظهور الاخلاق الدنيئة والأفعال المذمومة ، وهذه على قسمين ، أحدهما : المعاصى ، والآخر : أخلاق السوء ، مثل الكبر والحسد والبخل والغضب والحقد وما يشبه هذا من المعانى المذمومة فى الشرع والعقل . ويمكن دفع هذه الأوصاف عن النفس بالرياضة مثلما تدفع المعصية بالتوبة ، لأن المعاصى من أوصاف الظاهر وهذه الأخلاق من أوصاف الباطن ، وما يظهر فى الباطن من الأوصاف الدنيئة يتطهر بالأوصاف السنية الظاهرة ، وما يظهر على الظاهر يتطهر بالأوصاف الحميدة الباطنة .

والنفس والروح كلتاهما من اللطائف (المودعة) فى القالب على نحو ما فى العالم من شياطين وملائكة وجنة ونار ، ولكن احداهما محل الخير ، والأخرى محل الشر ، كالعين : فهى محل البصر ، والأذن : محل السمع ، والحلق : محل الذوق ، وغير هذا من الأعيان والأوصاف المودعة فى قالب الآدمى .

ومخالفة النفس رأس جميع العبادات ، وكمال كل المجاهدات . ولا يجد العبد لطريق الى الحق الا بذلك ، لأن فى موافقتها هلاك العبد ، وفى مخالفتها نجاته . وقد أمر الله تعالى وتقدس بمخالفتها ، ومدح من اجتهدوا فى مخالفة النفس ، وذم من ساروا وفقها ، « كما قال الله تبارك وتعالى : ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى(١) » ، وقوله تعالى : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم(٢) » . وأخبرنا عن يوسف الصديق عليه السلام بقوله : « وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى(٣) » . وقال النبى عليه السلام : « اذا أراد الله

---

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٨٧ . وكلمة « أفكلما » محذوفة فى الأصل الفارسى من الآية .
(٣) سورة « يوسف » آية ٥٣ .

بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه(١) » . وفى الآثار الموجودة والواردة أن الله تعالى وتقدس أوحى الى داود عليه السلام أن : « يا داود عاد نفسك ، وودنى بعداوتها ، فان ودى فى عداوتها » .

وهذا الذى ذكرناه جملة : أوصاف ، ولا محالة أن يكون للصفة موصوف لتقوم به ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها . ومعرفة الصفة لا تتأتى الا بمعرفة القالب كله ، وطريق معرفتها : بيان الأوصاف الانسانية وسرها .

وقد تحدث الناس فى حقيقة الانسانية ليعرفوا لأى شىء يليق هذا الاسم ، والعلم بهذا فريضة على كل طلاب الحق ، لأن كل من يجهل نفسه يكون بغيره أجهل . ولما كان العبد مكلفا بمعرفة الله عز و جل فانه ينبغى له أن يعرف نفسه ، ليعرف بصحة حدوثه قدم الله عز وجل ، ويعرف بفنائه بقاء الحق تعالى . ونص الكتاب ناطق بهذا كما قال الله تعالى : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه(٢) » أى : جهل نفسه » . وقال واحد من المشايخ : « من جهل نفسه فهو بالغير أجهل » . وقال الرسول عليه السلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه(٣) » . أى من عرف نفسه بالفناء فقد عرف ربه بالبقاء . ويقال : من عرف نفسه بالذل فقد عرف ربه بالعز ، ويقال : من عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية »، فكل من لا يعرف نفسه يكون محجوبا عن معرفة الكل . والمراد من هذا كله هنا معرفة الانسانية واختلاف الناس فيها .

يقول جماعة من أهل القبلة ان الانسان ليس الا روحا ، والجسد جوشنه وهيكله وموضعه ومأواه وبنيته ، ليكون محفوظا من خلل الطبايع ، والحس والعقل صفته . وهذا باطل ، لأنه حين تنفصل الروح عن البنية يسمونه انسانا ، ولا يرتفع هذا الاسم عن الشخص الميت ، فحين يكون فيه الروح يكون انسانا حيا ، وحين يكون بدون الروح يكون انسانا ميتا .

ثم ان الروح موجودة أيضا فى قالب البهائم ولا يسمونها انسانا ، فلو كانت الروح علة الانسانية لوجب أن يكون حكم الانسانية حيثما تكون الروح . اذن : فقد ثبت الدليل على بطلان قولهم .

---

(١) مكرر .
(٢) سورة « البقرة » آية ١٣٠ .
(٣) حديث موضوع : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى : رقم ٦ .

وقالت جماعة أخرى ان هذا الاسم واقع على الروح والجسد فى حيز واحد ، وحين يفترق أحدهما عن الآخر يسقط هذا الاسم ، مثلما يجتمع فى حصان لونان : أحدهما أسود ، والآخر أبيض فيسمونه « أبلق » ، وحين ينفصل هذان اللونان عن أحدهما الآخر يكون أحدهما أبيض ، والآخر أسود . وهذا أيضا باطل ، لقوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١) » ، وسمى تراب ادم بلا روح انسانا، ولم تكن الروح قد اتصلت بالقالب بعد .

ويقول جماعة آخرون : ان الانسان جزء لا يتجزأ ، ومحله القلب ، لأنه قاعدة كل أوصاف الآدمى . وهذا محال أيضا ، لأنه اذا قتل انسان وأخرج منه القلب ، لا يسقط عنه أيضا اسم الانسانية . وباجماع : لم يكن القلب فى قالب آدم قبل الروح .

وقد أخطأ جماعة من ادعياء المتصوفة فى هذا المعنى ، ويقولون : ليس الانسان آكلا وشاربا ومحلا للتغير ، وانما هو سر الهى ، وهذا الجسد لباسه ، وهو مودع فى امتزاج الطبع واتحاد الجسد والروح .

ونقول : من المتفق عليه أن لجميع العقلاء والمجانين والفسقة والجهلة والكفرة اسم الانسانية ، وليس فيهم أبدا أى معنى من الأسرار ، وكلهم متغير وآكل وشارب ، وليس فى القالب والوجود والشخص أى معنى يسمونه انسانا ، ولا يوجد هذا بعد عدمه أيضا . وقد سمى الله عز وجل جميع المكونات المركبة فينا انسانا ، بدون المعانى التى لا توجد فى بعض الآدميين ، لقوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين(٢) » ، فبقول الله عز وجل وهو أصدق القائلين أنه عبأ من التراب غير الطاهر هذه الصورة المخصوصة المحبوسة مع الجميع ، وتعبيرها الانسان .

كما قالت طائفة من أهل السنة : الانسان حى ، لأن صورته على هذه الهيئة المعهودة التى لا ينفى الموت عنها هذا الاسم بالصورة المعهودة والآلة المرسومة على الظاهر والباطن . والمراد من الصورة المعهودة : الصحيح

---

(١) سورة « الانسان » آية ١ .
(٢) سورة « المؤمنون » الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

والعليل ، ومن الآلة المرسومة : العاقل والمجنون . وكل ما هو أصح يكون أكمل فى الخلقة بالاجماع .

فاعلم أن تركيب الانسان الأكمل يتكون لدى المحققين من ثلاثة معان ، الأول : الروح ، والثانى : النفس ، والثالث : الجسد . ولكل عين من هذه صفة تقوم بها ، فللروح : العقل ، وللنفس : الهوى ، وللجسد : الحس . والانسان أنموذج لكل العالم ، والعالم اسم للدارين ، وفى الانسان أثر من كلا الدارين ، فأثر هذه الدنيا : الهواء والتراب والماء والنار ، وتركيبه من : البلغم والدم والصفراء والسوداء . وأثر الدار الآخرة : الجنة والجحيم والعرصات ، فالروح من حيث اللطافة بمقام الجنة ، والنفس من حيث الآفة والوحشة بمقام الجحيم ، والجسد بمقام العرصات . وجمال هذين المعنيين بالقهر والمؤانسة ، فالجنة تأثير رضائه ، والجحيم نتيجة سخطه ، كما أن روح المؤمن من روح المعرفة ، ونفسه من حجاب الضلالة ، وما لم يخلص المؤمن يوم القيامة من الجحيم ويصل الى الجنة ، فانه لا يدرك حقيقة الرؤية ، ولا يصل الى صفاء المحبة . وكذلك ما لم ينج العبد فى الدنيا من النفس ويصل الى تحقيق الارادة التى قاعدتها الروح ، فانه لا يصل الى حقيقة القربة والمعرفة . فكل من يعرفه (أى الله) فى الدنيا ، ويعرض عن الآخرين ، ويقوم على صراط الشريعة ، لا يرى الجحيم والصراط يوم القيامة .

وفى الجملة : فان روح المؤمن تدعوه الى الجنة لأنها أنموذج لها فى الدنيا ، ونفسه تدعوه الى الجحيم لأنها أنموذج لها فى الدنيا ، وللأولى مدبر هو العقل التام ، وللثانية قائد هو الهوى الناقص . وتدبير الأول صواب ، وتدبير الثانى خطأ . فيجب على طالبى هذه الحضرة أن يسلكوا دائما طريق مخالفة النفس ، ليكونوا بخلافها قد أمدوا الروح والعقل ، لأنهما موضع سر الله جل جلاله .

فصل : أما ما قاله المشايخ فى النفس ، فيقول ذو النون المصرى رحمه الله : « أشد الحجاب رؤية النفس وتدبيرها(١) » ، لأن متابعتها مخالفة لرضاء الحق ، ومخالفة الحق سر جميع الحجب .

ويقول أبو يزيد البسطامى رحمه الله : « النفس صفة لا تسكن الا بالباطل » . وهى لا تسلك أبدا طريق الحق .

ويقول محمد بن على الترمذى رحمه الله : « تريد أن تعرف الحق مع

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية . (انظر : ص ١٨) .

بقاء نفسك فيك ، ونفسك لا تعرف نفسها ، فكيف تعرف غيرها » ؟ أى أن نفسك فى حال بقائها محجوبة عن نفسها ، ولما كانت محجوبة بنفسها فكيف تصير مكاشفة بالحق ؟.

ويقول الجنيد رضى الله عنه : « أساس الكفر قيامك على مراد نفسك » لأنه لا اقتران للنفس بلطيفة الاسلام ، فهى لا محالة تجد فى الاعراض ، والمعرض منكر ، والمنكر غريب .

ويقول أبو سليمان الدارانى رحمه الله : « النفس خائنة مانعة ، وأفضل الأعمال خلافها » ، لأن خيانة الأمانة غربة ، وترك الرضا ضلالة .

وأنفاسهم رحمهم الله فى هذا المعنى أكثر من أن تحصر . وها قد وصلت الى المقصود واثبات مذهب سهل فى صحة مجاهدة النفس ورياضتها ، وطريق بيان ذلك فى الحقيقة ، وبالله التوفيق .

الكلام فى مجاهدة النفس :

« قوله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا(١) » . « وقال النبى عليه السلام : المجاهد من جاهد نفسه فى الله(٢) » . « وقوله عليه السلام : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، قيل : يا رسول الله ! ما الجهاد الأكبر ؟ قال : الا وهى مجاهدة النفس(٣) » . والرسول صلى الله عليه وسلم فضل مجاهدة النفس على الجهاد ، لأن مشقتها أكثر من مشقة الجهاد والغزو ، ولأن مخالفة الهوى وقهر النفس أمر عظيم جدا .

فاعلم — أكرمك الله — أن طريق مجاهدة النفس وسياستها واضح وظاهر ومحمود بين كل أهل الأديان والملل ، وأهل هذه الطريقة مختصون برعاية ذلك ، وهذه العبارة مستعملة وجارية بين الخواص والعوام .

---

(١) سورة « العنكبوت » آية ٦٩ .

(٢) رواه الترمذى وابن حيان عن فضالة بن عبيد (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٢٥) .

(٣) حديث موضوع كما ذكر ابن حجر فى كتابه تسديد القوس ، وقد بين انه من كلام ابراهيم بن عبلة . وقال العراقى : حديث ضعيف (يراجع كشف الخفاء للعجلونى ص ٥١١) .

وللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى رموز وكلمات كثيرة ، وسهل بن عبد الله رضى الله عنه يغالى كثيرا فى هذا الأصل ، وله فى مجاهدة النفس براهين كثيرة . ويقال انه حمل نفسه على أن يأكل وجبة واحدة كل خمسة عشر يوما ، وقطع عمرا طويلا بغذاء قليل .

وقد أثبت جميع المحققين المجاهدات وقالوا انها أسباب المشاهدات ، الا ذلك الشيخ الكبير(١) . الذى جعل المجاهدة علة المشاهدة ، وجعل للطلب تأثيرا عظيما فى ادراك الحق ، وهو يفضل الحياة الدنيا فى الطلب على الحياة الأخرى فى حصول المراد ، اذ يقول ان تلك ثمرة هذه ، لأنك اذا خدمت فى الدنيا تلقى هنالك القربة ، ولا تكون القربة بغير الخدمة ، فيلزم أن تكون المجاهدة التى يجاهدها العبد ، لتكون علة الوصول الى الحق ، بتوفيق الحق أيضا . وقال رضى الله عنه : « المشاهدات مواريث المجاهدات » .

ويقول آخرون : ليس للوصول الى الحق علة ، لأن كل من يصل الى الحق يصل بالفضل ، فأى شأن للفضل مع الفعل ؟ فالمجاهدة لتهذيب النفس لا لتحقيق القربة ، لأن رجوع المجاهدة الى العبد ، وحوالة المشاهدة الى الحق ، ومحال أن تصير هذه علة تلك ، أو أن تكون تلك آلة هذه .

وحجة سهل فى هذا(٢) قول الله عز وجل ، عز من قائل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، فمن يجاهد يشاهد .

وأيضا ورود الأنبياء ، واثبات الشريعة ، ونزول الكتب جميعا ، وجملة أحكام التكليف مبنية على هذا ، ولو لم تكن المجاهدة علة المشاهدة لكان حكم هذا كله باطلا . وجميع أحوال الدنيا والعقبى كذلك تتعلق بالحكم والعلل ، وكل من ينفى العلل عن الحكم يذهب بالشرع والرسم جملة ، فلا يصح اثبات التكليف لا فى الأصل ولا فى الفرع ، فالطعام يصير علة للشبع ، والثوب يصير علة لدفع البرد .

وهذا(٣) تعطيل لجميع المعانى ، فرؤية الأسباب فى الأفعال توحيد ، ودفعها تعطيل . ولهذا فى المشاهد دلائل ، وانكار هذا انكار للمشاهدة ومكابرة عيانا ، ألا ترى أنهم يخرجون الحصان الجامح بالرياضة من صفة

---

(١) سهل بن عبد الله .
(٢) أى فى القول بأن المجاهدة علة المشاهدة .
(٣) أى رأى من يقولون انه ليس للوصول الى الحق علة ، وأن المجاهدة ليست سببا للمشاهدة .

الحيوانية الى صفة الآدمية حتى أنهم ليبدلون أوصافه ، فيتناول السوط من الأرض ويعطيه لسيده ، ويدحرج الكرة برجله ، ويفعل أفعالا أخرى مثل هذه ؟ ويجعلون الصبى الأعجمى غير العاقل بالرياضة عربى اللسان ، ويبدلون فيه نطقه الطبيعى ، وأيضا يوصلون الوحش بالرياضة الى درجة أنه عندما يتركونه يمضى ، وحين يدعونه يعود ، وتكون مشقة قيده أحب اليه من الحرية والاطلاق . ويبلغون الكلب النجس المهمل بالمجاهدة الى مكانة تجعل فريسته حلالا(١) ، وأكل الآدمى منها بلا مجاهدة ورياضة حرام ؟ ومثل هذا كثير ، فمدار الشرع والرسم على المجاهدة .

والرسول صلى الله عليه وسلم فى حال قربه من الحق وادراك المراد وأمن العاقبة وتحقيق العصمة جاهد مجاهدات كثيرة : من جوع طويل ، وصوم وصال ، واحياء ليال بالسهر ، فجاءه الأمر : يا محمد ! « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى(٢) » .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حال عمارة المسجد كان يحمل لبنة ، وكنت أرى أن التعب كان ينال منه ، فقلت : « يا رسول الله ! أعطنى تلك اللبنة لأقوم عنك بهذا العمل ، قال : « يا أبا هريرة ، خذ غيرها فانه لا عيش الا عيش الآخرة(٣) » .

ويروى عن حيان بن خارجة أنه قال : سألت عبد الله بن عمر رضى الله عنه : ما تقول فى الغزو ؟.قال : « ابدأ بنفسك فجاهدها ، وابدأ بنفسك فاغزها ، فانك ان قتلت فارا بعثك الله فارا ، وان قتلت مرائيا بعثك الله مرائيا ، وان قتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا » ، فبقدر ما يكون لتأليف وتركيب العبارة أثر فى حق بيان المعانى ، يكون لتأليف وتركيب المجاهدات أثر فى وصول المعانى ، فكما أن البيان لا يصح بدون العبارة

---

(١) أى أنه حين يروضون الكلب لاستخدامه فى الصيد يصير أكل صيده حلالا .
(٢) سورة « طه » آية ٢٢١ .
(٣) ورد فى الرسالة أن حميد قال : سمعت أنسا يقول : كانت الأنصار يحفرون الخندق فجعلوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة ، فأكرم الأنصار والمهاجرة » (انظر ج ٢ ص ٦٣٨) .

وتأليفها ، فان الوصول لا يصح بغير المجـاهدة . ومن يدعى يخطىء ، لأن العالم واثبات حدوثه دليل معرفة الخالق ، ومعرفة النفس ومجاهدتها دليل وصولهـا .

وحجة الفريق الآخر أنهم يقولون ان هذه الآية « والذين جاهدوا فينـا لنهدينهم سبلنا » فيها تقديم وتأخير فى التفسير ، أى : « والذين هدينـاهم سبلنا جاهدوا فينا » .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، « لن ينجو أحدكم بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمته(١) » فالمجاهدة فعل للعبد ، ومحال أن يصير فعله علة نجاته ، فخلاص العبد ونجاته متعلقان بالمشيئة لا بالمجاهدة ، « كما قال الله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا(٢) » ، وقال أيضا : « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء(٣) » ، فنفى تكليف كل العالمين فى اثبات مشيئته . ولو كانت المجاهدة علة الوصول لمـا كان ابليس مردودا ، ولو كان تركها علة الرد والطرد لما كان آدم مقبولا ومصطفى أبدا ، فللأمر سبق العناية لا كثرة المجاهدة .

وليس كل من هو أكثر اجتهادا أكثر أمنا ، بل كل من تكون عناية الحق به أكثر ، يكون الى الحق أقرب ، فواحد فى الصومعة قرين للطاعة بعيد عن الحق ، وآخر فى الحانات موصول بالمعصية قريب الى رحمة الحق . وأشرف كل المعانى الايمان ، فالصبى الصغير غير المكلف حكمه حكم الايمان ، وكذلك المجانين ، وبما أن المجاهدة ليست علة لأشرف المواهب (أى الايمان) ، فما هو أقل منه لا يحتاج أيضا الى علة .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : هذا خلاف فى العبارة بدون معنى ، لأن واحدا يقول : « من طلب وجد » وآخر يقول : « من وجـد طلب »، وسبب الوجد الطلب ، وسبب الطلب الوجد ، فذلك يجاهد ليجد المشاهدة، وهذا يجد المشاهدة ليجاهد . وحقيقة هذا أن المشاهدة فى المجاهدة بمكان التوفيق فى الطاعة ، وهى عطاء من الحق عز وجل ، فلما كان حصول الطاعة

---

(١) ورد فى اللمع : « ليس منا أحد ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله فقال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله منه برحمة » (أنظر : ص ٤٧٥) .
(٢) سورة « الانعام » آية ١٢٥ .
(٣) سورة « آل عمران » آية ٢٦ .

بغير التوفيق محال ، فان حصول التوفيق محال أيضا بغير الطاعة . ولمـا كانت المجاهدة لا توجد بغير المشاهدة ، فالمشاهدة محـال بلا مجاهدة ، فتلزم لمعة من الجمال الالهى لتدل العبد الى المجاهدة ، ولما كانت تلك اللمعة علة وجود المشاهدة ، فالهداية سابقة على المجاهدة .

أما ما يحتج به أولئك القوم — يعنى سهل وأصحابه — من أن كل من ينكر المجاهدة يكون منكرا لاثبات ورود جميع الأنبياء والكتب والشرائع ، لأن مدار التكليف على المجاهدة ، فيلزم أن تكون تلك خيرا من هذه ، لأن مدار التكليف على هداية الحـق ، فالمجاهدة لاثبات الحجة ، لا لحقيقة الوصـلة ، لقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا ألا أن يشـاء الله(١) » أى ان علة الايمان مشيئتنا لا رؤية الدلائل ومجاهدتهم . وقال تعالى وتقدس أيضا : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون(٢) » فورود الأنبياء ونزول الكتب وثبوت الشرائع أسباب الوصول لا علته ، لأن أبا بكر كان مثل أبى جهل فى حكم التكليف ، ولكن أبا بكر وصل بالعدل والفضل ، وتخلف أبوجهل بالعدل والفضل ، فعلة الوصول عين الوصول لا طلب الوصول ، لأنه لو كان الطالب والمطلوب كلاهما واحدا لكان الطالب واجدا ، ولو كان واجدا لما كان طالبا ، لأن من وصل استراح ، ولا تصح الراحة على الطالب . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من استوى يوماه فهو مغبون(٣) » أى يجب أن يكون كل يوم أفضل ، وهذه درجة الطـالبين . وقال أيضـا : « استقيموا ولن تحصوا(٤) » فقال بالسبب للمجاهدة ، وأثبت السبب لاثبات الحجة ، ونفى الوصول عن السبب لتحقيق الالهية .

ومن يقولون انهم يحولون الحصان بالمجاهدة الى صفة أخرى ، فذلك لأن فى الحصان صفة مكتومة ، والمجاهدة سبب اظهارها ، وما لم يجد الرياضة لا يظهر ذلك المعنى . والحمار الذى ليس فيه هذا المعنى ، لا يصير حصانا أبدا ، فلا الحصان يمكن جعله حمارا بالمجاهدة ، ولا الحمار يمكن جعله حصانا بالرياضة ، لأن هذا قلب للعين ، فالشىء الذى لا يمكنه قلب العين يكون اثباته فى حضرة الحق محالا .

---

(١) سورة « الانعام » آية ١١١ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٦ .
(٣) حديث موضوع (أنظر كشف الخفاء للعجلونى) .
(٤) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر (الكنز الثمين ص ٥٧) .

وكانت تجرى على ذلك الشيخ رضى الله عنه — يعنى سهل التسترى — مجاهدات كان طليقا منها ، وكانت عباراته فى عين ذلك منقطعة عنهـا ، لا كالطائفة التى صيرت عبارتها مذهبا بدون المعاملة . ومحال أن ما ينبغى أن يكون كله معاملة ، يصير كله عبارة .

وجملة القول : ان لأهل هذه الطريقة مجاهدة ورياضة ، ولكن فى رؤيتها آفة ، فمن ينفى المجاهدة ليس مراده نفى عين المجـاهدة ، بل نفى رؤية المجاهدة ، وعدم الاعجاب بأفعاله فى محل القدس ، لأن المجاهدة فعل للعبد ، والمشاهدة ملك للحق ، وما لم يكن ما للحق ، لا يكون لفعل العبد قيمـة : لعمرى الم تضق بنفسك اذ تبالغ فى تجميل نفسك ، ولا ترى الفضل نفسه ، فتكثر الحديث عن فعلك ؟ !

فمجاهدة الأحبة هى فعل الحق فيهم بدون اختيارهم ، وقهره وصهره ، وقهره وصهره كله ملاطفة . ومجاهدة الغافلين هى فعلهم فى أنفسهم باختيارهم ، وتلك تشويش وتشتيت ، والقلب المشتت من الآفة يكون مشتتا ، فلا تعبر ما استطعت عن فعلك ، ولا تتابع النفس فى أية صفة ، لأن وجود وجودك حجاب لك ، واذا حجبت بفعل ، زال بفعل آخر ، وحين تكون كليتك حجابا ، فانك مالم تفن بكليتك لا تصير جديرا بالبقاء ، « لأن النفس كلب باغ ،وجلد الكلب لا يطهر الا بالدباغ » .

ومعروف فى الحكايات أن الحسين بن منصور رحمه الله كان قد نزل بالكوفة فى منزل محمد بن الحسن العلوى ، وقدم ابراهيم الخواص رحمه الله الكوفة، فلما سمع بخبره ذهب اليه ، فقال له الحسين : يا ابراهيم ! فى الأربعين سنة التى انتميت فيها الى هذه الطريقة ، أى شىء من هذا المعنى صار مسـلما لك ؟ قال : طريق التوكل صار مسلما لى . فقال الحسين رضى الله عنه : « ضيعت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد » ؟ أى أن التوكل عبارة عن معاملتك مع الله ، وصحة الباطن الاعتماد عليه ، فاذا قضى امرؤ عمرا فى معالجة الباطن فانه يلزم له عمر آخر ليقضيه فى معالجة الظاهر ، وقد انقضى العمران ، ولا اثر منه الى الحق بعد .

ويحكى عن الشيخ أبى على الأسود (سياه) المروزى رحمه الله أنه قال : رأيت النفس على صورة شبيهة بصورة امراة ، وقد أخـذ واحـد بشعرها وسلمها لى ، فأوثقتها بشجرة وقصدت هلاكها ، فقـالت لى : يا أبا على ! لا تتعب نفسك لأننى جنده عز وجل ، ولا تستطيع أن تقضى على .

ويروى عن محمد بن عليان النسوى(١) — وكان من كبار أصحاب الجنيد « رحمة الله عليهم أجمعين » — أنه قال : فى بداية حالى ، وكنت قد صرت بصيرا بآفات النفس وعرفت مكامنها ، كان فى قلبى دائما حقد عليهـا . وذات يوم خرج من حلقى شىء كجرو الثعلب ، وصيرنى الحق تعالى عارفا ، فعرفت أنه النفس ، فجعلته تحت قدمى ، وكنت كلما ضربته بقدمى ضربة كبر حجما ، فقلت : يا هذا ! كل شىء يهلك بالضرب والعنت ، فلماذا تزيد أنت ؟ قال : لأن خلقى معكوس ، فما يكون اعناتا للأشياء يكون راحة لى ، وما يكون راحة للأشياء ، يكون عنتا لى .

وقال الشيخ أبو العباس الشقانى ، وكان رضى الله عنه امام الوقت : دخلت الدار يوما فرأيت كلبا أصفر نائما فى مكانى ، فظننت أنه جاء من المحلة ، فأردت طرده ، فدخل تحت ذيلى واختفى .

والشيخ أبو القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه أبقاه الله ، أشـار الى بداية حاله فقـال : رأيتهـا (أى النفس) بصورة أفعى .

وقال درويش : رأيت النفس على صورة جرذ ، قلت : ما أنت ؟ قال: أنا هلاك الغافلين ، لأنى داعية شرهم وسوئهم ، ونجاة الأحبة ، لأنى اذا لم أكن معهم — ووجودى آفة — فانهم يغترون بطهرهم ويتكبرون بأفعالهم ، اذ أنهم حين يرون طهارة قلوبهم ، وصـفاء أسرارهم ، ونور ولا يتهم ، واستقامتهم على الطاعة ، يظهر فيهم زهو . وأيضا عندما يروننى بين جنبيهم، ينمحى منهم ذلك كله .

وهذه الحكاية دليل على أن النفس عين لا صفة ، ولها صفة ، ونحن نرى أوصافها ظاهرة .

وقال النبى صـلى الله عليه وسـلم : « أعدى عدوك نفسـك التى بين جنبيك(٢) » . فاذا حصلت معرفتها أمكن امتلاكها بالرياضة ، ولكن أصـل

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن على النسوى ، ويذكر مؤلف أسرار التوحيد أنه كان معروفا فى نسا بأحمد بن على . كان من جلة أصحاب أبى عثمان الحيرى النيسابورى ، يخرج من نسا قاصدا اليه فى مسائل واقعات ، فلا يأكل ولا يشرب فى الطريق حتى يرد نيسابور ، فيسأله عن تلك المسائل . وكان من أعلى المشايخ همة ، وله الكرامات الظاهرة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٣ ، أسرار التوحيـد (الترجمة) ص ٦٠ ، نفحات الأنس ص ٢٢١) .

(٢) رواه البيهقى (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٨٩) .

جوهرها لا يفنى . واذا صحت معرفتها يصير الطالب ملكا ، ولا خوف من بقائها فيه « لأن النفس كلب نباح ، وامساك الكلب بعد الرياضة مباح » ، فمجاهدة النفس لفناء أوصافها ، لا لفناء عينها .

وللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى أقوال كثيرة ، ولكنا خوف تطويل الكتاب نكتفى بهذا القدر .

والآن نتكلم فى حقيقة الهوى وترك الشهوات ، ان شاء الله .

الكلام فى حقيقة الهوى :

اعلم — أعزك الله — أن الهوى عند جماعة عبارة عن أوصاف النفس ، وعند أخرى عبارة عن ارادة الطبع المتصرف والمدبر للنفس ، كالعقل من الروح . وكل روح لا تكون فى بنيتها قوة من العقل تكون ناقصة ، وكل نفس لا تكون لها قوة من الهوى تكون ناقصة ، فنقص الروح : نقص القربة ، ونقص النفس : عين القربة . وللعبد دائما دعوة من العقل ، وأخرى من الهوى ، فمن يتبع دعوة العقل يصل الى الايمان والتوحيد ، ومن يتبع دعوة الهوى يصل الى الضلالة والكفران ، فالهوى حجاب الواصلين ، ومركب المريدين ، ومحل اعراض الطالبين ، والعبد مأمور بمخالفته ، ومنهى عن ركوبه « كما يقال ، لأن من ركبها هلك ، ومن خالفها ملك ، كما قال الله تعالى: وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى(١) » ، وقال النبى عليه السلام : أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل(٢) » .

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قول الله عزوجل : «أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله(٣) » : أى أن الهوى اله معبود ، والويل لمن يكون هواه معبوده دون الحق ، وكل همته ليل نهار طلب رضاء هواه .

والأهواء جملة على قسمين ، الأول : هوى اللذة والشهوة ، والثانى : هوى جاه الخلق والرياسة ، فمن يتبع هوى اللذة يكون فى الحانات ، ويكون الخلق آمنين فتنته . أما من يتبع هوى الجاه والرياسة ويكون فى الصوامع والدويرات ، فهو فتنة الخلق ، لأنه ضل الطريق ، وقاد الخلق أيضا الى الضلالة ، « فنعوذ بالله من متابعة الهوى » ، فمن تكون كل حركته هوى

---

(١) سورة « النازعات » آية ٤ .
(٢) رواه ابن عدى فى الكامل عن جابر وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١) .
(٣) سورة « الجاثية » آية ٢٣ .

ويرضى بمتابعته فانه بعيد عن الحق وان يكن معك بالمسجد ، ومن ينقطع عن الهوى ويفر من متابعته ، فانه قريب من الحق وان يكن فى الكنيسة .

يقول ابراهيم الخواص رضى الله عنه : سمعت ذات مرة أن ببلاد الروم(١) راهبا مقيما بالدير منذ سبعين سنة بحكم الرهبانية ، فقلت : واعجبا ! شرط الرهبانية أربعون سنة ، بأى شرف أخلد هذا الرجل الى الدير سبعين سنة ؟ وقصدته ، فلما اقتربت من ديره فتح كوة وقال لى : يا ابراهيم ! عرفت لأى أمر جئت . أنا لم أقم هنا رهبانية فى هذه السبعين عاما ، بل لأن لى كلبا هائجا(٢) ، فأقمت هنا أحرسه وأكفى الخلق شره ، والا فلست أنا هذا (الذى تظن) . فلما سمعت منه هذا الكلام قلت : يا الهى تعاليت ! أنت قادر على أن تهدى العبد طريق الصواب فى عين الضلالة ، وتكرمه بالصراط المستقيم . فقال لى : يا ابراهيم ! الام تطلب الناس ؟ امض واطلب نفسك ، واذا وجدتها فاحرسها ، لأن الهوى يرتدى ثوب الالهية كل يوم على ثلثمائة وستين لونا ، ويدعو العبد الى الضلالة(٣) .

وجملة القول : لا يجد الشيطان مجالا فى قلب العبد وباطنه ما لم يظهر له هوى معصية ، واذا ظهر قدر من الهوى فالشيطان عندئذ يأخذه ويزينه ويجلوه لقلبه ، ويسمون هذا المعنى بالوسواس ، فهو فى البداية يكون قد وجد من هواه « والبادى أظلم » . وهذا هو معنى قوله عز وجل فى جواب ابليس اذ كان يقول : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين(٤) » فقال الحق تعالى وتقدس فى جوابه : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان(٥) » ، فالشيطان

---

(١) الروم : جبل معروف فى بلاد واسعة تضاف اليهم فيقال بلاد الروم . وأما حدود الروم فشارقهم وشمالهم الترك والخزر والروس ، وجنوبهم الشام والاسكندرية ومغاربهم البحر والأندلس ، وكانت الرقة والشامات كلها تعد فى حدود الروم أيام الاكاسرة ، وكانت دار الملك انطاكية ، الى أن نفاهم المسلمون الى أقصى بلادهم .
وينسب الى بلاد الروم « وصيف بن عبد الله الرومى » : أبو الحافظ الانطاكى . (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٦١ — ٨٦٦) .
(٢) يقصد بالكلب نفسه .
(٣) وردت فى الرسالة اشارة الى هذه الحكاية (انظر ج ١ ص ٢٧٢) .
(٤) سورة « ص » آية ٨٢ .
(٥) سورة « الاسراء » آية ٦٥ .

فى الحقيقة هو نفس العبد وهواه ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد الا وقد غلبه شيطانه الا عمر فانه غلب شيطانه(١) » .

فالهوى تركيب طينة آدم ، وريحان روح أبنائه ، لقوله عليه السلام : « الهوى والشهوة معجونة بطينة ابن آدم(٢) » . وترك الهوى يجعل العبد أميرا ، وركوبه يجعل الأمير أسيرا ، مثلما ركبت زليخا هواها وكانت أميرة فصارت أسيرة ، وقال يوسف عليه السلام بترك الهوى وكان أسيرا فصار أميرا .

وسئل الجنيد رضى الله عنه : « ما الوصل ؟ قال : ترك ارتكاب الهوى » ، فمن يرد أن يكرم بوصلة الحق ، يجب أن يخالف هوى الجسد ، لأن العبد لا يقوم بعبادة أبدا أعظم من مخالفة الهوى ، اذ أن حفر الجبل بالظفر أيسر على ابن آدم من مخالفة النفس والهوى .

ووجدت فى الحكايات عن ذى النون المصرى رحمه الله انه قال : رأيت رجلا يطير فى الهواء فقلت : بم وجدت هذه الدرجة ؟ قال : دست الهوى حتى أصبحت فى الهواء .

ويرد عن محمد بن الفضل البلخى رضى الله عنه أنه قال : انى لأعجب من ذلك الذى يذهب بهواه الى بيته (بيت الله) ويزوره ، لم لا يدوس الهوى حتى يصل اليه ويراه ! ؟

أما أظهر صفات النفس ، فالشهوة . والشهوة معنى مبعثر فى كل أعضاء الآدمى ، وجميع الحواس أبواب لها . والعبد مكلف بحفظها جميعا ، ومسئول عن فعل كل منها : فشهوة العين الرؤية ، والأذن السمع ، والأنف الشم ، واللسان القول ، والحلق الذوق ، والجسد اللمس والمس ، والصدر التفكير ، فيلزم لأن يكون الطالب راعى وحاكم نفسه ، أن يقضى أيامه ليل نهار فى أن يقطع عنه دواعى الهوى هذه التى تظهر فى الحواس ، ويسأل الله تعالى أن يجعله على تلك الصفة التى بها تدفع هذه الارادة عن باطنه ، لأن كل من يبتلى ببحر الشهوة يحجب عن كل المعانى .

---

(١) رواه الحكيم الترمذى فى النوادر : « مالقى الشيطان عمر الا خر لوجهه وما سمع حسه الا فر » . (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٧٠) .

(٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس : « الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم » . (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٩١) .

فاذا دفع العبد هذا عن نفسه بالتكلف ، يطول عنت ذلك عليه ، ويتواتر وجود أجناسه . وطريق هذا : التسليم ، ليحصل المراد ، ان شاء الله وحده .

ويحكى عن أبى على سياه (الأسود) قدس الله روحه أنه قال: كنت قد ذهبت الى الحمام يوما ، وكنت أراعى السترة متابعة للسنة ، وأخذت أحدث نفسى قائلا : يا أبا على ! ابعد عنك هذا المقصود الذى هو منبع الشهوات التى تبتليك بكثير من الآفات ، لتنجو من الشهوة . فنوديت فى سرى أن : يا أبا على ! أتتصرف فى ملكنا ، وليس فى تعبيتنا عضو بأولى من عضو ؟ فبعزتنا اذا أبعدت عن نفسك ذلك ، فاننا نخلق فى كل شعرة من شعرك من الشهوات بقدر ما فى ذلك المحل .

ويقال فى هذا المعنى :

(بيت عربى)

منتنى الاحسان دع احسانك أترك بخشى الله باذنجانك

وليس للعبد تصرف فى خراب البنية . ولكن له التصرف فى تبديل الصفة بتوفيق الحق ، وتسليم الأمر ، والتبرؤ من الحول والقوة الكسبية .

وفى الحقيقة : اذا جاء التسليم جاءت العصمة ، وبعصمة الحق يكون العبد أقرب الى الحفظ وفناء الآفة ، منه بالمجاهدة ، « لأن نفى الذباب بالمكبة أيسر من نفيه بالمذبة » ، فحفظ الحق مزيل لجميع الآفات ، ومانع لكل العلل ، ولا مشاركة للعبد معه بأية صفة ، الا بما أمر ، ولا يجوز التصرف فى ملكه . وما لم يكن تقدير عصمة الحق ، فانه لا يمكن الرجوع عن أى شىء بجهد العبد ، لأن الجد انما يكون جدا بالجد ، فاذا لم يكن جد من الحق للعبد لا يفيده الجد ، وقوة الطاعة تسقط بالجد .

وأنواع الجد كلها تكون فى موضعين : اما أن يجتهد لكى يحول تقدير الحق عن نفسه ، أو ليكسب لنفسه شيئا على خلاف التقدير ، وكلا هذين غير جائز ، لأن التقدير لا يتغير بالجهد ، ولا يكون أى أمر بغير التقدير .

ويرد أن الشبلى رحمه الله مرض ، فجاء اليه طبيب وقال له : احتم ! فقال : مما أحتمى ؟ أمن شىء هو نصيبى ، أم من شىء ليس بنصيبى ؟ فاذا كان يلزم الاحتماء من النصيب ، فغير ممكن ، وان يكن من غير النصيب ، فهذا نفسه لا يعطى لى ، « لأن المشاهد لا يجاهد » .

وهذه المسألة سأجىء بها ، للاحتياط فى مكان آخر ، أن شاء الله .

الحكيمية

أما الحكيميون فينتمون الى أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى رضى الله عنه ، وكان واحدا من أئمة وقته فى جميع علوم الظاهر والباطن ، وله تصانيف ونكت كثيرة . وكانت قاعدة كلامه وطريقه على الولاية(١) ، وكان يعبر عن حقيقتها ، وعن درجات الأولياء ومراعاة ترتيبها . وهو ذاته على حده ، بحر لا ساحل له ، وذو أعاجيب كثيرة .

وبداية كشف مذهبه هى أن تعرف أن لله تعالى أولياء اصطفاهم من الخلق ، وقطع هممهم عن المتعلقات ، واشتراهم من دعاوى نفوسهم وأهوائهم ، وأقام كل واحد منهم فى درجة ، وفتح عليه بابا من المعانى . والكلام كثير فى هذا المعنى ، ويجب شرح قدر من أصوله ليصير معلوما .

والآن : أبين حقيقة هذا على سبيل الاختصار ، وأذكر أسباب وأوصاف كلام الناس فى ذلك .

الكلام فى اثبات الولاية :

اعلم أن قاعدة وأساس طريقة التصوف والمعرفة جملة يقوم على

---

(١) تكلم كثير من الصوفية فى الولاية واثباتها ، وما يرتبط بها من الكرامات والخوارق التى تنسب الى الأولياء من الصوفية وأهل الصلاح ، ومن يتصفح كتب التصوف وتراجم شيوخ الصوفية العربية والفارسية يرى مئات القصص المروية عن كرامات الأولياء وشيوخ الصوفية ، من ذلك ما ورد فى كتاب أسرار التواحيد عن كرامات الشيخ أبى سعيد ، فقد بلغ مجموع الحكايات التى تروى عن كراماته فى الفصل الأول من الباب الثانى مائة وعشر حكايات.
واذا كان الهجويرى قد نسب ادخال فكرة الولاية فى التصوف الاسلامى الى محمد بن على الترمذى ، فقد أرجع بعض الدارسين فى العصر الحديث منشأ هذه الفكرة الى ما قبل التصوف ، بل الى ما قبل الاسلام : ومن هؤلاء « آدم ميتز » الذى أرجع أصل الولاية الى المذهب النصرانى الغنوسطى ، ويقول ان الصوفية هم الذين أدخلوا هذه الفكرة فى الاسلام . (انظر : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٠) ويرى أبو العلا عفيفى أن فكرة الولاية انتقلت الى الصوفية عن الشيعة ، وان كان يرجع أصلها الى ما قبل الشيعة والصوفية فيقول ان فكرةالولاية أو ما يعادلها كانت موجودة فى البلاد التى =

الولاية واثباتها ، لأن جميع المشايخ رضى الله عنهم متفقون فى حكم اثباتها ، غير أن كلا منهم بين هذا بعبارة مختلفة ، ومحمد بن على رضى الله عنه مخصوص باطلاق هذه العبارة على حقيقة الطريقة .

أما « الولاية » بفتح الواو : فهى فى حقيقة اللغة بمعنى النصرة ، « والولاية » بكسر الواو : فهى الامارة(١) ، وكلتاهما مصدر « ولى » . ولما كان هكذا ، وجب أن تكون الكلمتان مثل « دلالة » و « دلالة » .

والولاية أيضا : الربوبية ، ومن ذلك أن الله تعالى قال : « هنالك الولاية لله الحق(٢) » ، لأن الكفار يتولونه ويرجعون اليه ، ويتبرأون من معبوداتهم .

والولاية أيضا بمعنى المحبة .

أما « ولى » فجائز أن تكون « فعيل » بمعنى « مفعول » ، كما قال الله تعالى : « وهو يتولى الصالحين(٣) » ، لأن الله تعالى لا يدع عبده لأفعاله

= فتحها المسلمون ، وكانت منتشرة انتشار الاسلام نفسه ، فلما ظهرت حركة التصوف فى البلاد الاسلامية لم تخلق فكرة الولاية خلقا ، وانما شكلت أفكارا كانت جزءا من التراث الروحى لهذه البلاد بأن أبرزت فيها الجانب الصوفى من الحياة الدينية (أنظر : التصوف الثورة الروحية ص ٢٩٤) .
(١) ولى الشىء وعليه ولاية و ولاية : ملك أمره وقام به ، أو : الولاية بالفتح المصدر والبلاد التى يتسلط عليها الوالى ج ولايات ، و (القوم على ولاية واحدة) ويكسر : أى يد واحدة مجتمعون فى النصرة وفى التاج . و (الولاية والولاية) القرابة (أقرب الموارد) .
« وقد عرف الكلاباذى الولاية بأنها ولايتان : ولاية تخرج من العداوة وهى لعامة المؤمنين ، فهذه لا توجب معرفتها والتحقق بها للأعيان ، لكن من جهة العموم ، فيقال : المؤمن ولى الله . وولاية اختصاص واصطفاء واصطناع وهذه توجب معرفتها والتحقق بها ، ويكون صاحبها محفوظا عن النظر الى نفسه ، فلا يدخله عجب ، ويكون مسلوبا من الخلق ، بمعنى النظر اليهم بحظ، فلا يفتنونه . ويكون محفوظا عن آفات البشرية ، وان كان طبع البشرية قائما معه باقيا فيه ، فلا يستحلى حظا من حظوظ النفس استحلاء يفتنه فى دينه ، واستحلاء الطبع قائم فيه . وهذه خصوص الولاية من الله للعبد . (التعرف ص ٧٤ — ٧٥) .
(٢) سورة « الكهف » آية ٤٤ .
(٣) سورة « الأعراف » آية ١٩٦ .

وأوصافه ، ويحفظه فى كنف حفظه . وجائز أن تكون « فعيل » بمعنى المبالغة فى الفاعل ، لأن العبد يتولى طاعته ، ويداوم على رعاية حقوقه ، ويعرض عن غيره ، فهذا مريد ، وذاك مراد .

وجميع هذه المعانى جائزة من الحق الى العبد ، ومن العبد الى الحق ، لأنه يجوز أن يكون الله تعالى ناصر أحبائه ، اذ أنه تعالى وعد أحباءه من صحابة النبى وقال : « ألا ان نصر الله قريب(١) » . وقال أيضا : « وأن الكافرين لا مولى لهم(٢) » . أى : « لا ناصر لهم » . ولما لم يكن ناصرا للكفار ، فلا محالة أن يكون ناصرا للمؤمنين فينصرهم وينصر عقولهم فى الاستدلال بالآيات ، وبيان المعانى لقلوبهم ، وكشف البراهين لأسرارهم . وينصرهم على مخالفة النفس والهوى والشيطان وموافقة أمور أنفسهم .

ويجوز أن يخصهم بالمحبة ويحفظهم من محل العداوة ، كما قال : « يحبهم ويحبونه » ، ليحبوه بمحبته ، ويعرضوا عن الخلق ، فيكون وليهم ، ويكونوا أولياءه .

ويجوز أيضا أن يمنح واحدا الولاية باقامته على طاعته ، ويحفظه فى حفظه وعصمته ، ليقيم على طاعته ، ويتجنب مخالفته ، ويفر الشيطان من حسنه .

ويجوز أن يمنح أحدا الولاية ليكون حله الحل وعقده العقد فى الملك ، ويكون دعاؤه مستجابا ، وأنفاسه مقبولة ، كما قال النبى عليه السلام : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره(٣) » .

ومعروف أنه فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، توقف نهر النيل(٤) على عادته ، لأنهم كانوا فى الجاهلية يلقون فيه كل عام

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢١٤ .
(٢) سورة « محمد » آية ١١ .
(٣) رواه البزاز عن ابن مسعود ، ورواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة : « رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٥) .
(٤) « نيل مصر » : قال القضاعى : من عجائب مصر النيل ، جعله الله لها سقيا : يزرع عليه ويستغنى به عن مياه المطر فى أيام القيظ . وليس فى الدنيا نهر ينصب من الجنوب الى الشمال الا هو . وقد روى عن عمرو بن العاص أنه قال ان نيل مصر سيد الأنهار . وكان للنيل سبعة خلجان . وأصل مجراه أنه يأتى من بلاد الزنج فيمر بأرض الحبشة مسامتا لبحر اليمن حتى ينتهى الى بلاد النوبة فلا يزال جاريا بازاء الصعيد حتى يصب فى البحر . (معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦٢) .

بجارية مزينة حتى يجرى ، فكتب عمر رضى الله عنه على قطعة ورق يقول : « أيها النهر ! اذا كنت توقفت بنفسك فلا يجوز ، وان كنت توقفت بأمر الله عز وجل فان عمر يقول : اجر ! فلما ألقوا الورقة فى النهر ، جرى الماء(١) . وهذه أمارة على الحقيقة ، فمرادى من الولاية واثباتها أن تعرف أن اسم الولى مسلم لمن توجد فيه هذه المعانى المذكورة ، بحيث يكون له هذا الذى ذكرناه حالا لا قالا . وقد ألف المشايخ رحمهم الله كتبا فى هذا من قبل ، وقد نفدت سريعا لنفاستها .

والآن : فلأجمل عبارات ذلك الشيخ العظيم ، وهو صاحب المذهب ، كاعتقادى (الجميل) فيه رضى الله عنه ، لتحصل لك ولسواك أيضا ممن يسعدون بقراءة هذا الكتاب من طالبى هذه الطريقة ، فوائد كثيرة ، ان شاء الله عز وجل .

---

(١) وردت هذه الحكاية هكذا فى النص ، بينما وردت فى الفتوحات الاسلامية على النحو التالى : « لما فتح عمرو بن العاص مصر ، أتى أهلها اليه حين دخل بؤنه من أشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : اذ كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب اليه : قد أصبت ، ان الاسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثت اليك بطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر . أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر ، وان كان الواحد القهار الذى يجريك ، فنسأل الواحد القهار أن يجريك . فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا . وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر .

(انظر : معجم البلدان ج ٣ ص ٨٦٣ ، الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ٦١)

فصـــل : اعلم قواك الله أن هذا اللفظ متداول بين الخلق ، والكتاب والسنة ناطقان به ، لقوله تعالى : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١) » ، وقال أيضا : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا(٢) » ، وقال فى موضع آخر : « الله ولى الذين آمنوا(٣) » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من عبـــاد الله لعبادا يغبطهم الأنبيـــاء والشـــهداء . قيل : من هم يا رسول الله ، وصفهم لنـــا لعلنا نحبهم . قال عليه السلام : قوم تحابوا بروح الله من غير أموال و لااكتساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن النـــاس » ، ثم تلا : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ان الله عز وجل قال : « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى(٤) » .

والمراد من هذا هو أن تعرف أن لله عز وجل أولياء قد خصم بمحبتـــه وولايته ، وهم ولاة ملكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية اظهار فعله ، وخصم بأنواع الكرامات ، وطهرهم من آفات الطبع ، وخلصهم من متابعة النفس ، فلاهم لهم سواه ، ولا أنس لهم الا معه . وقد كانوا قبلنا فى القرون الماضية ، وهم موجودون الآن ، وسيبقون من بعد هذا الى يوم القيامة ، لأن الله تعالى شرف هذه الأمة على جميع الأمم ، وضمن أن يحفظ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وما دام البرهان الخبرى والحجج العقلية موجودة اليوم بين العلماء ، فيلزم أن يكون البرهان العينى أيضا موجودا بين الأولياء وخواص الله تعـــالى .

وهـــذا هو الخلاف الذى بيننـــا وبين طائفتين : الأولى : المعتزلة ،

---

(١) سورة « يونس » آية ٦٢ .
(٢) سورة « فصلت » آية ٣١ .
(٣) سورة « البقرة » آية ٢٥٧ .
(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .. الحديث : من حديث أبى هريرة . وورد فى الرسالة : «من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة» (الرسالة ج ٢ ص ٦١٠) .

والثانية : عامة الحشوية(١) ، فالمعتزلة ينكرون تخصيص واحد دون الآخر من المؤمنين ، ونفى تخصيص الولى نفى لتخصيص النبى ، وهذا كفر . وعامة الحشوية يجيزون التخصيص ، ولكنهم يقولون انهم كانوا ، ولم يبقوا اليوم . وانكار الماضى والمستقبل كلاهما سيان ، لأن طرفا من الانكار لا يكون أولى من طرف آخر ، فالله تعالى قد أبقى البرهان النبوى الى اليوم ، وجعل الأولياء سبب اظهاره ، لتكون آيات الحق وحجة صدق محمد عليه السلام ظاهرة دائما ، وجعلهم أولياء العالم حتى صاروا مجردين لحديثه ، وطووا طريق متابعة النفس ، حتى أن الأمطار تمطر من السماء ببركتهم ، وينبت النبات من الأرض بصفاء أحوالهم ، وينتصر المسلمون على الكفار بهمتهم .

أما صفتهم وعددهم : فمنهم أربعة آلاف وهم المكتومون ، ولا يعرف أحدهم الآخر ، ولا يعرفون أيضا جمال حالهم ، وهم فى كل الأحوال مستورون عن أنفسهم وعن الخلق . والأخبار واردة بهذا ، وناطقة به أقوال الأولياء . وقد صار الخبر فى هذا المعنى عيانا لى والحمد لله .

أما أهل الحل والعقد وقادة حضرة الحق جل جلاله : فثلثمائة يدعون « الأخيار » ، وأربعون آخرون يسمون « الأبدال » ، وسبعة آخرون يقال لهم « الأبرار » ، وأربعة يسمون « الأوتاد » ، وثلاثة آخرون يقال لهم

---

(١) الحشوية ، أو : الحشوية ، أو : أهل الحشو ، مصطلح كلامى استخدم فى مجال ذم بعض أصحاب الحديث الذين قبلوا الآثار التشبيهية التجسدية دون نقد أو تمييز ، واكتفوا بتفسيرها تفسيرا حرفيا (انظر : مادة : «Hashwiya». Shorter Encyclopedia of Islam.
وذكر الشهرستانى أن جمـــاعة من الشيعة الغاليـــة وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه مثل الهشاميين وغيرهم من أهل الشيعة ، قالوا : معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض اما روحانية أو جســـمانية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكين .
ومشبهة الحشوية أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وأن المخلصين من المسلمين يعاينونه فى الدنيا والآخرة اذا بلغوا من الرياضة والاجتهاد الى حد الاخلاص والاتحاد المحض .
(انظر : الملل والنحل على هامش الفصل ج ١ ص ١٣٩) .

« النقباء » ، وواحد يسمونه « القطب » و « الغوث(١) » . وهؤلاء جميعا يعرفون أحدهم الآخر ، ويحتاجون فى الأمور لاذن بعضهم البعض ، والأخبار المروية ناطقة بهذا ، وأهل السنة مجتمعون على صحة هذا . وليس المراد فى هذا الموضع شرح هذا وبسطه . والعوام هنا يعترضون ، لأنى قلت انهم يعرفون بعضهم البعض بأن كلا منهم ولى ، فيقولون : يجب اذن أن يكونوا آمنين عواقبهم . وهذا محال ، لأن معرفة الولاية لا تقتضى الأمن ، فاذا جاز أن يكون المؤمن عارفا بايمانه ولا يكون آمنا ، فانه يجوز أيضا أن يكون الولى عارفا بولايته ولا يكون آمنا . ولكن يجوز على سبيل الكرامة أن يعرف الله تعالى الولى بأمن عاقبته فى صحة الحال عليه ، وحفظه من المخالفة . وهنا يختلف المشايخ رضى الله عنهم . وقد بينت أن علة الاختلاف هى أن كل واحد من هؤلاء الأربعة آلاف ، وهم المكتومون ، لا يجيز لنفسه معرفة الولى ، وكل من الفريق الآخر يجيز ذلك . وكثير من الفقهاء أيضا موافقون للفريق الأول ، وكثير منهم موافقون للفريق الثانى .

---

(١) ورد تقسيم آخر للأولياء فى اصطلاحات الصوفية الواردة فى الفتوحات المكية والملحقة بتعريفات الجرجانى ، وهـذا التقسيم يختلف عن تقسيم الهجويرى من حيث أسماء بعض الفئات وأعدادها ، وقد زيد فيه توضيح لوظيفة كل فئة من الأولياء ، وجاء ذكرهم فيه فى ترتيب تنازلى على النحو التـالى :

« القطب » وهو الغوث : عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ومكان ، وهو على قلب اسرائيل عليه السلام .

« الامامان » : هما شخصان احدهما عن يمين الغوث ونظره فى الملكوت ، والآخر عن يساره ونظره فى الملك ، وهو أعلى من صاحبه ، وهو الذى يخلف الغـوث .

« الأوتاد » : عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم : شرق وغرب وشمال وجنوب ، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة .

« البدلاء » : هم سبعة ، ومن سافر من القوم عن موضعه وترك جسدا على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد ، فذلك هو البدل لا غير ، وهم على قلب ابراهيم عليه السلام .

« النجباء » : أربعون ، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق فلايتصرفون الا فى حق الغير .

« النقباء » : هم الذين استخرجوا خبايا النفوس ، وهم ثلاثمائة .

(انظر : التعريفات ص ١٥٤) . وذكر « التهانوى » فى تعريفة للأبدال تقسيمها آخر للأولياء (انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ٨٤٥) .

ومن المتكلمين مثل الأســتاذ أبى اسحاق الاسفراينى(١) وجماعة من المتقدمين على أن الولى لا يعرف أنه ولى ، والأستاذ أبو بكر بن فورك(٢) وجماعة أخرى من المتقدمين على أن الولى يعرف أنه ولى(٣) .

ونقول لتلك الجماعة : أى ضير وآفة فى معرفته ؟ فيقولون : لأنه يعجب بنفسه حين يعرف أنه ولى ، وشرط الولاية حفظ الحق ، والمحفوظ من الآفة لا يجوز عليه ذلك . وهذا الكلام من سقط العوام ، اذ يصعب أن يكون انسان وليا وتجرى عليه كرامات ناقضة للعادة ، وهو لا يعرف

---

(١) أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران الاسفراينى : الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ، أخذ عنه الكلام والأصول عـامة شيوخ نيسابور ، وأقر له بالعلم أهل خرسان والعراق ، له التصانيف الجليلة منها كتابه « جامع الحلى » . أخذ عنه القاضى أبو الطيب الطبرى أصول الفقه باسفراريين ، وبنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور . توفى بنيسابور سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ونقل الى اسفرايين ودفن بها . اختلف الى مجلسه أبو القاسم القشيرى ، وأكثر أبو بكر البيهقى الرواية عنه فى تصانيفه . (وفيات الأعيان ج ١ ص ٤) .

(١) أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك : المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الاصبهانى : أقام بالعراق مدة يدرس العلم ، ثم توجه الى الرى فسعت به المبتدعه فراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه اليهم ففعل ، وورد نيسابور فبنى له بها مدرسة ودار . بلغت مصنفاته فى أصول الفقـه والدين ومعانى القرآن قريبا من مائة مصنف . دعى الى مدينة غزنة وجرت له بها مناظرات كثيرة . مات فى الطريق الى نيسابور ونقل اليها ودفن بها فى محلة الحيرة بنيسابور ، وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة (وفيـات الاعيان ج ١ ص ٤٨٢) .

(٣) نلاحظ فى هذه الفقرة أن الهجويرى وضع ابن فورك ضمن من يقولون بأن الولى يعرف نفسه أنه ولى ، بينما نرى القشيرى على عكس هذا فهو يقـول : « واختلف أهل الحق فى الولى : هل يجـوز أن يعلم أنه ولى أم لا ؟ فكان الامام أبو بكر بن فورك رحمه الله يقـول : لا يجوز ذلك ، لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن » (انظر الرسالة ج ٢ ص ٦٦٢) .

أنه ولى ، وأن هذه كرامات(١) . وقد قلد جماعة من العوام هذا الفريق ، وقلد بعض ذلك الفريق ، ولا اعتبار لقولهم .

أما المعتزلة فينكرون تخصيص الكرامات كلية — وحقيقة الولاية تخصيص الكرامات — ويقولون ان جميع المسلمين أولياء الله جل جلاله حين يطيعون لأن كل من قام بأحكام الايمان ، وأنكر صفات الله ورؤيته ، وأجاز خلود المؤمن فى النار ، وأقر بجواز التكليف على مجرد العقل من غير ورود الرسل ونزول الكتب ، فهو ولى لدى جميع المسلمين . ومثل هذا الشخص ولى ، ولكنه ولى الشيطان . ويقولون : اذا استوجبت الولاية الكرامة ، لوجب أن يكون لجميع المؤمنين كرامات ، لأنهم مشتركون فى الايمان ، وما داموا مشتركين فى الأصل ، فيجب أن يشتركوا أيضا فى الفروع . ثم يقولون انه يجوز أن يكون للمؤمن والكافر كرامة ، وذلك مثل جائع فى سفر يظهر له مضيف ، أو عاجز يركبه شخص على دابة ، ومثل هذا . ويقولون : اذا جاز لأحد أن يقطع مسافة فى ليلة ، لوجب أن يكون ذلك للنبى ، لأنه حين قصد النبى عليه السلام مكة ، قال الله تعالى : « وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس(٢) » .

ونقول : قولكم باطل اطلاقا ، لأن الله تعالى قال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا(٣) » الآية . أما معنى حمل الأثقال ، واجتماع الصحابة للذهاب من مكة فقد كان كرامة خاصة لا عامة ، ولو كانوا جميعا ذهبوا الى مكة لصارت عامة ، ولصار الايمان الغيبى ضروريا ، وارتفعت كل الأحوال والأحكام ، لأن الايمان محل العموم ، وفيه المطيع والعاصى ، والولاية

---

(١) أشار الكلاباذى الى الاختلاف فى الولى فقال : « واختلفوا فى الولى : هل يجوز أن يعرف أنه ولى أم لا ، فقال بعضهم : لا يجوز ذلك لأن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة ، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن ، وفى وجوب الأمن زوال العبودية لأن العبد بين الخوف والرجاء ، قال الله تعالى : « ويدعوننا رغبا ورهبا » . وقال الأجلة منهم والكبار : يجوز أن يعرف الولى ولايته ، لأنها كرامة من الله تعالى للعبد ، والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقضى زيادة الشكر (التعرف ص ٧٤) . أما القشيرى فهو وان كان يؤيد مبدأ معرفة الولى ولايته ، الا أنه يرى أن ذلك لا يجوز لجميع الأولياء ، يقول : « وكان الأستاذ أبو على الدقاق رحمه الله يقول بجوازه . وهو الذى نؤثره ونقول به . وليس ذلك بواجب فى جميع الأولياء حتى يكون كل ولى يعلم أنه ولى واجبا ، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم ، كما لا يجوز أن لا يعلمه بعضهم . فاذا علم بعضهم أنه ولى كانت معرفته تلك كرامة له انفرد بها » (الرسالة ج ٢ ص ٦٦٢) .

(٢) سورة « النحل » آية ٧ .

(٣) سورة « الاسراء » آية ١ .

فى محل الخصوص ، فما جعله الله تعالى حكما فى محل العموم ، أمر به النبى صلى الله عليه وسلم لموافقتهم فى حمل الأثقال ، وما جعله حكما فى محل الخصوص ، أوصل به نبيه فى ليلة من مكة الى بيت المقدس ، ومن هناك الى قاب قوسين ، وأطلعه على زوايا العالم وخباياه ، وحين عاد كان مايزال كثير من الليل باقيا .

وفى الجملة ، فانه يوجد فى حكم الايمان الخاص والأخص ، ونفى التخصيص مكابرة عيانية ، فكما أنه يكون ببلاط الملك : البواب ، والحاجب ، والسائس ، والوزير ، فانهم وان كانوا سواء فى حكم العبودية ، الا أن لبعضهم خصوصية . وكذلك المؤمنون ، فانهم مهما كانوا سواء فى حقيقة الايمان ، الا أنه يكون منهم العاصى والمطيع والعالم والعابد .

اذن : فقد صح أن انكار التخصيص انكار لكل المعانى . والله أعلم .

فصل : ولكل من المشايخ رحمهم الله رمز فى تحقيق العبارة عن الولاية ، وسأذكر ما يمكن ذكره من عبارات رموزهم ، لتكون الفائدة أتم ان شاء الله عز وجل .

قال أبو على الجوزجانى رحمه الله : « الولى هو الفانى فى حاله ، والباقى فى مشاهدة الحق : لم يكن له عن نفسه اخبار ، و لامع غير الله قرار » . لأن اخبار العبد يكون عن حاله ، فاذا فنيت الأحوال ، لا يصح له الاخبار عن نفسه ، ولا يقر مع غير الحق ، لأنه يخبره عن حاله ، اذ أن اخبار الغير عن حال الحبيب كشف لستر الحبيب ، وكشف ستر الحبيب على غير الحبيب محال . وأيضا حين يكون فى المشاهدة تكون رؤية الغير محالا ، وحين لا تكون رؤية الغير ، كيف يمكن القرار مع الخلق ؟

وقال الجنيد رضى الله عنه : « من صفة الولى أن لا يكون له خوف ، لأن الخوف ترقب مكروه يحل فى المستقبل ، أو انتظار محبوب يفوت فى المستأنف ، والولى ابن وقته ، ليس له مستقبل فيخاف شيئا . وكما لا خوف له ، لا رجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل ، أو مكروه يكشف ، وذلك فى الثانى من الوقت . كذلك لا يحزن ، لأن الحزن من حزونة الوقت . فمن كان فى ضياء الرضا وروضة الموافقة أين يكون له حزن ، كما قال الله تعالى : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(١) » ؟

---

(١) سورة « يونس » آية ٦٢ .

ويتصور للعامة فى هذا القول أنه حين لا يكون خوف ولا رجاء ، ولا حزن يخلفه أمن ، فانه لا يكون أمن أيضاً ، لأن الأمن يكون من عدم رؤية الغيب والاعراض عن الوقت ، وهذه صفة من ليس لهم رؤية بشرية ولا ركون الى صفة . والخوف والرجاء والأمن والحزن جملة ترجع الى حظوظ النفس فاذا فنيت تلك ، صار الرضا صفة للعبد ، واذا جاء الرضا ، استقامت الأحوال فى رؤية المحول ، وظهر الاعراض عن الأحوال ، ومن ثم انكشفت الولاية على القلب ، وظهر معناها على السر .

ويقول أبو عثمان المغربى رحمه الله : « الولى قد يكون مشهورا ، ولا يكون مفتونا » . ويقول آخر : « الولى قد يكون مستورا ، ولا يكون مشهورا » ، فهذا الذى احترز من الشهرة ولى ، لأن فى شهرته فتنة . فقال أبو عثمان : يجوز أن يكون مشهورا ولكن شهرته تكون بلا فتنة ، لأن الفتنة فى الكذب ، ولما كان الولى صادقا فى ولايته ، ولا يقع على الكاذب اسم الولاية ، ويكون اظهار الكرامة على يده محالا ، فانه يلزم أن تسقط الفتنة عن حاله .

وهذان القولان يرجعان الى ذلك الخلاف : هل يعرف الولى أنه ولى ؟ لأنه اذا عرف يكون مشهورا ، واذا لم يعرف يكون مفتونا . « والشرح لذلك طويل » .

وفى الحكايات أن ابراهيم بن أدهم رحمه الله قال لرجل : أتريد أن تكون وليا من أولياء الله تعالى ؟ قال : أريد . قال « لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله ، واقبل بوجهك عليه » .

أى : لا ترغب فى الدنيا والعقبى ، لأن الرغبة فى الدنيا اعراض عن الحق بشىء فان ، والرغبة فى العقبى اعراض عن المولى بشىء باق ، وحين يكون الاعراض بشىء فان ، فان الفانى يفنى ، ويفنى الاعراض . وحين يكون الاعراض بشىء باق ، فلا يجوز الفناء على البقاء ، ولا يجوز على اعراضه أيضا .

أما قوله : فرغ نفسك من الكونين ، فانه يقصد به ألا تجعل للدنيا والعقبى طريقا الى قلبك من أجل محبة الحق تعالى ، ووجه قلبك الى الحق ، فاذا وجدت فيك هذه الأوصاف تكون وليا .

وسئل أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : من الولى ؟ قال : « الولى هو الصابر تحت الأمر والنهى » ، لأنه كلما ازدادت محبة الحق فى قلبه ، أصبح أمره أكثر تعظيما على قلبه ، وازداد جسده بعدا عن نهيه .

ويحكى عنه أيضا أنه رضى الله عنه قال : قيل لى : بالبلد الفلانى ولى من أولياء الله عز وجل ، فنهضت ، وقصدت زيارته . فلما بلغت مسجده ، خرج من الدار ، وبصق على الأرض فى المسجد . فرجعت من هنالك ، ولم أسلم عليه ، وقلت : يجب على الولى أن يحفظ الشريعة على نفسه ، أو يحفظها الحق عليه ، فلو كان هذا الرجل وليا ، لما بصق على أرض المسجد ، حفظا لحرمته ، أو لحفظه الحق ، لصحة كرامته . وفى تلك الليلة رأيت النبى عليه السلام فى النوم فقال لى : يا أبا يزيد ! لقد حلت بك بركات ما فعلت . وفى اليوم التالى بلغت هذه الدرجة التى ترونها .

وسمعت أن رجلا دخل على الشيخ أبى سعيد ، ودخل بقدمه اليسرى أولا فى المسجد ، فرده قائلا : من لا يعرف كيفية دخول منزل الحبيب لا يليق بنا .

وفريق من الملاحدة — لعنهم الله — انتموا الى هذه الطريقة الخطيرة وقالوا : تلزم الخدمة(١) الى أن يصير العبد وليا ، فاذا صار وليا ارتفعت الخدمة . وهذه ضلالة ، ولا يوجد فى طريق الحق أى مقام يرتفع فيه أى ركن من أركان الخدمة . وسأشرح ذلك تماما فى مكانه ، ان شاء الله وحده .

الكلام فى اثبات الكرامات :

اعلم أن ظهور الكرامات جائز على الولى فى حال صحة التكليف عليه ، ويتفق على هذا فريقان من أهل السنة والجماعة ، وهو ليس بمستحيل فى العقل أيضا ، لأن هذا النوع فى مقدور الله تعالى وتقدس ، واظهاره لا يتنافى مع أى أصل من أصول الشرع والارادة ، وجنسه غير منقطع عن الأوهام .

والكرامة علامة صدق الولى ، ولا يجوز ظهورها على الكاذب ، الا كعلامة على كذب دعواه ، وهى فعل ناقض للعادة فى حال بقاء التكليف . ومن يعرف بتعريف الحق الصدق من الكذب ، على وجه الاستدلال ، فهو أيضا ولى .

وتقول طائفة من أهل السنة ان الكرامة صحيحة ، لكن لا الى حد الاعجاز ، مثل استجابة الدعوة ، وحصول المراد ، وما شابه هذا مما لا ينقض العادة .

ونقول : أى فساد تتصورونه من ظهور فعل ناقض للعادة على يد ولى صادق فى زمان التكليف ؟ فاذا قالوا ان هذا النوع ليس فى مقدور الله

---

(١) المقصود بالخدمة : أداء التكليف من عبادات وطاعات .

تعالى ، فهذه ضلالة . واذا قالوا ان هذا النوع مقدور ، ولكن اظهاره على يد الولى ابطال للنبوة ونفى لتخصيصها ، فهذا محال أيضا ، لأن الولى مخصوص بالكرامات ، والنبى مخصوص بالمعجزات . « والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، وانما هى معجزة لحصولها ، ومن شرطها اقتران دعوى النبوة بها ، فالمعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للأوليـــاء » . وحين يكون الولى وليا والنبى نبيا لا تكون بينهما أية شبهة حتى يلزم هذا الاحتراز ، لأن شرف الأنبياء ومراتبهم عليهم السلام بعلو الرتبة وصـــفاء العصمة ، لا بمجرد المعجزة او الكرامة ، أو اظهار فعل ناقض للعادة على أيديهم . والكل متساو فى أصل الاعجاز ، أما فى الدرجات والتفضـــيل فلاحدهما على الآخر فضل . وما دام يجوز لتسوية الافعال الناقضة للعادة أن يفضل أحدهم الآخر ، فلم لا يجوز أن يكون فعل ناقض للعادة كرامة للولى ، ويكون الأنبياء أفضل منهم ؟ وما دام الفعل الناقض للعـــادة هناك لا يصير علة تفضيل وتخصيص لهم على بعضهم البعض ، فهنا أيضا لا يصير فعل ناقض للعادة علة لتخصيص الولى على النبى — يعنى أن هذا لايصير معهم — ومن يتبين له هذا الدليل من العقلاء ترتفع هذه الشبهة من قلبه .

واذا تصور أحد أنه اذا كان للولى كرامة ناقضة للعادة فانه يدعى النبوة ، فهذا محال ، لأن شرط الولاية صدق القول ، والادعاء بخلاف المعنى كذب ، والكاذب لا يكون وليا . واذا ادعى الولى النبوة فذلك قدح فى المعجزة، وكفر محض . والكرامة لا تكون الا للمؤمن المطيع ، والكذب معصية لاطاعة . ومادام الأمر هكذا فان كرامة الولى تكون موافقة لاثبات حجة النبى ، ولا تقع أية شبهة بين الكرامات والمعجزات ، لأن النبى يثبت نبوته باثبات المعجزة ، والولى أيضا يثبت ولايته بالكرامة ، فهذا الصادق فى ولايته يقول مايقوله الصادق فى نبوته ، وكرامته عين اعجاز النبى .

ورؤية كرامة الولى تكون للمؤمن زيادة يقين على صدق النبى ، لا شبهة فيه ، لأنهما ليسا متضادين فى الدعوى حتى ينفى أحدهما الآخر ، بل ان دعوى أحدهما عين برهان دعوى الآخر . وكما أنه فى الشريعة حين يتفق جماعة من الورثة فى الدعوى ، اذا ثبتت حجة أحدهم فان حجته تثبت حجـــة الآخرين بحكم اتفاقهم واستوائهم فى الدرجة والدعوى ، واذا كانت الدعوى متضادة لا تكون حجة أحدهم حجة للآخر ، فانه اذا ادعى النبى صـــحة النبوة بدلالة المعجزة وصدقه الولى فى دعواه ، فان اثبات الشبهة فى هذا المحل يكون محالا .

الكلام فى الفرق بين المعجزات والكرامات :

ولمـــا صح أن تحقق المعجزة والكرامة محال على يد الكاذب ، فيجب لا محالة أن يكون الفرق بينهما أظهر ليصير معلوما وبينا لك .

فاعلم أن سر المعجزات : الاظهار ، وسر الكرامات : الكتمان ، وثمرة المعجزة تعود على الغير ، والكرامة خاصة بصاحبها . وصاحب المعجزة أيضا يقطع بأن هذه معجزة ، والولى لايستطيع أن يقطع بأن هذه كرامة أو استدراج . وصاحب المعجزة أيضا يتصرف فى الشرع ، ويقول ويفعل فى ترتيب نفيه واثباته ، بأمر الله ، ولا وجه لصاحب الكرامة فى هذا سوى التسليم وقبول الأحكام ، لأن كرامة الولى لا تنافى حكم شرع النبى بأى وجه .

ولو قال قائل : انك اذا قلت ان المعجزة ناقضة للعادة ، ودلالة على صدق النبى ، فما دامت هكذا فان جنسها لا يجوز الا على النبى ، وهذا يصير أمرا عاديا ، واثبات الكرامة يبطل عين حجتك لاثبات المعجزة ، فاننا نقو ل: ان هذا الأمر على خلاف الصورة التى اعتقدتها ، لأن الاعجاز ناقض لعادات الخلق ، ولمـــا كانت كرامة الولى هى عين معجزة النبى ، وتظهر نفس البرهان الذى تظهره معجزة النبى ، فان الاعجاز لا ينقض الاعجاز : ألم تر أنه حين صلب الكفار خبيبا(١) فى مـــكة كان الرسول عليه الســـلام جالسا فى المسجد بالمدينة ، وكان يراه ويقول للصحابة ما يفعلونه معه ، ورفع الله تعالى الحجاب عن عين خبيب **أيضا** حتى رأى هو أيضا النبى وسلم عليه ، وأبلغ الله تعالى سلامه الى أذن النبى ، وكذلك أسمع جواب الرسول صلى الله عليه وسلم لخبيب رضى الله عنه ، ودعا حتى صار وجهه الى القبلة ؟ فرؤية النبى عليه السلام له من المدينة وهو بمكة كانت فعـــلا ناقضا للعادة ، ومعجزة ، ورؤيته رضى الله عنه للنبى عليه الصلاة (والسلام) من مكة كانت أيضا فعلا ناقضا للعادة ، وكرامة له .

ومن المتفق عليه أن رؤية الغائب (فعل) ناقض للعادة ، فلا فرق بين غيبة الزمان وغيبة المكان ، فسواء كرامة خبيب فى حال غيبة المكان

---

(١) فى المتن « حبيب » وفى فهرس أعلام الكتاب كذلك . والأصح : خبيب ، وهو خبيب بن عدى بن مالك ، شهد أحدا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان فيمن بعثهم النبى مع رهط « عضل » و « القارة » ليعلموهم شرائع الاسلام فغدروا بهم فى الطريق وقتلوا منهم أربعة ، وجاءوا بزيد بن الدثنة وخبيب بن عدى الى مكة أسيرين فابتاع صفوان بن أمية زيدا وقتله ، وابتاع حجير بن اهاب خبيبا وصلبه .
(انظر : صفوة الصفوة ج ١ ص ٢٥٣ ، ص ٢٦٧) .

عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكرامة المتأخرين فى حال الغيبة عنه(١) . وهذا فرق بين جدا وبرهان ظاهر واضح على استحالة التضاد بين الكرامة والاعجاز ، لأن الكرامة لا تثبت الا فى حال تصديق صاحب المعجزة ، ولاتظهر الا على يد مؤمن مصدق مطيع ، لأن كرامة الأمة معجزة النبى عليه السلام ، ولأن شرعه باق فيجب أن تبقى حجته أيضا ، فالأولياء شهود على صدق رسالة الرسول . ولا يجوز أن تظهر كرامة على يد غريب(٢) .

وترد حكاية فى هذا المعنى عن ابراهيم الخواص رحمه الله ، وهى مناسبة جدا هنا .

قال (ابراهيم) : أوغلت فى البادية متجردا بحكم عادتى ، ولما سرت مسافة ، نهض رجل من ناحية وسألنى الصحبة . ونظرت اليه فأحسست من رؤيته بنفرة فى قلبى ، وقلت له : كيف يجوز هذا ؟ فقال لى : يا ابراهيم ! لا تغتم ، فأنا رجل من النصارى والصابئه(٣) ، أتيت من أقصى بلاد الروم على أمل صحبتك . فلما عرفت أنه غريب هدأ قلبى ، وسهل على طريق الصحبة وقضاء حقها ، وقلت : يا راهب النصارى ! ليس معى طعام وشراب ، وأخشى ان يصيبك أذى فى هذه البادية . قال : يا ابراهيم !

---

(١) أى فى حال غيبة الزمان ، فالفاصل الزمنى بين المتأخرين والنبى عليه السلام ، كالفاصل المكانى الذى كان بينه وبين خبيب .

(٢) يقصد بالغريب : الكافر .

(١) « الصابئة » : فى مقابل « الحنيفية » . وفى اللغة : صبأ الرجل ، اذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . (الملل والنحل ج ٢ ص ٩٥) وكانت الفرق فى زمان ابراهيم الخليل صنفين : الصابئة ، والحنفاء ، فالصابئة كانت تقول : اننا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته الى متوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب . والحنفاء كانت تقول : انا نحتاج فى المعرفة والطاعة الى متوسط من جنس البشر يكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات ، فيتلقى الوحى بطرف الروحانية ، ويلقى الى نوع الانسان بطرف البشرية . (الملل والنحل ج ٢ ص ٧٠) .

ألا تزال مع كل مالك من الصيت والشهرة فى العالم تحمل هم الطعام ؟ قال (ابراهيم) : فعجبت من انبساطه ، وقبلت صحبته لأرى الى أى حد تصل دعواه . فلما انقضت سبعة أيام وليال أدركنا العطش ، فتوقف وقال : يا ابراهيم ! لقد دوت طبول شهرتك فى العالم ، فهات ما عندك من دالات(١) على هذه الحضرة ، اذ لم تبق لى طاقة من الظمأ . قال (ابراهيم) : فسجدت على الأرض ، وقلت : يا الهى ! لا تفضحنى أمام هذا الكافر الذى يحسن الظن بى فى عين الغربة ، وحقق ظنه فى . ورفعت رأسى ، فرأيت طبقا وضع عليه قرصان وشربتا ماء ، فأكلنا وذهبنا من هنالك . ولما مرت سبعة أيام أخر ، قلت لنفسى : فلأجرب هذا النصرانى لأرى ذله ، قبل أن يمتحننى بشىء آخر ، فقلت : يا راهب النصارى ! تعال ، فاليوم نوبتك لترينا ما عندك من ثمرة المجاهدة . فسجد على الأرض وقال شيئا ، فظهر طبق عليه أربعة أقراص وأربع شربات ماء ، فتعجبت جدا واغتممت ، ويئست من حالى ، وقلت لنفسى : لا آكل من هذا لأنه ظهر من أجل كافر ، وهو معونة له ، فكيف آكل منه ؟ فقال لى : يا ابراهيم ! كل . قلت : لا آكل . قال : لأى علة لا تأكل ؟ قلت : لأنك لست أهلا ، وهذا ليس من جنس حالك ، وأنا فى عجب من أمرك ، فاذا حملت هذا على الكرامة ، فان الكرامة لا تجوز على الكافر ، واذا قلت انه معونة وأنت مدع ، تقع لى شبهة . قال : يا ابراهيم ! كل ، ولك بشارتان : احداهما اسلامى « أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » والأخرى : أن لك خطرا عظيما عند الحق تعالى . قلت : لم ؟ قال : لأنه ليس لنا شىء من هذا الجنس ، وقد سجدت خجلا منك وقلت : يا الهى ! اذا كان دين محمد حقا ومحمودا فامنحنى قرصين وشربتى ماء ، واذا كان ابراهيم الخواص وليك ، فامنحنى قرصين وشربتى ماء ! ولما رفعت رأسى كان الطبق قد أحضر . فأكل ابراهيم ، وأصبح ذلك الشاب الراهب واحدا من عظماء الدين(٢) . وكان هذا عين اعجاز النبى

---

(١) « الدالة » : ما تدل به على صديقك ، والجراة . يقال : له عليه دالة ، أى جراة بسبب وجاهته عنده . (أقرب الموارد) .

(٢) أورد القشيرى هذه الحكاية مختصرة ، وهنا اختلاف فى بعض التفاصيل . (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٨٣ — ٦٨٤) .

موصولا بكرامة الولى ، ونادر جدا أن يظهر البرهان للغير فى غيبة النبى ، ويكون للغير فى حضور الولى نصيب من كرامة الولى .

وفى الحقيقة لا يعرف منتهى الولاية غير المبتدىء فيها ، وذلك الراهب كان من المكتومين ، مثل سحرة فرعون ، فابراهيم كان يثبت صدق معجزة النبى ، وذاك الآخر كان يطلب صدق النبوة وعز الولاية أيضا ، وقد حقق الله تعالى بحسن عنايته مقصوده . وهذا فرق ظاهر بين الكرامة والمعجزة ، والكلام فى هذا كثير ، لكن الكتاب لا يحتمل أكثر من هذا .

واظهار الكرامة على الأولياء كرامة أخرى ، وشرطها الكتمان لا الاظهار بالتكلف . وقال شيخى رحمه الله : اذا أظهر الولى ولايته ودعا بها فلا ضير على صحة حاله ، ولكن تكلفه فى اظهارها يكون رعونة ، والله أعلم .

الكلام فى اظهار جنس المعجزة على يدى من يدعى الالهية :

اتفق مشايخ هذه الطائفة وجملة أهل السنة والجماعة على أنه يجوز أن يظهر فعل ناقض للعادة مثل المعجزة والكرامة على يد الكافر الذى تنقطع أسباب الشبهة عن ظهورها عليه ، ولا يشك أحد فى كذبه ، ويكون ظهور ذلك الفعل ناطقا على كذبه . وهذا مثلما عمر فرعون أربعمائة سنة لم يمرض خلالها ، وكان المـاء يرتفع من خلفه ، فعندما كان يتوقف كان المـاء يتوقف ، وحينما كان يسير كان الماء يسير ، وأمثال هذه العلامات ، ولم يشتبه أى عاقل فى أنه كان كاذبا فى دعوى الالهية وكافرا — لأن العقلاء يدركون بالضرورة أن الله تعالى ليس مجسما و لامركبا — ولو أن كثيرا من هذه الأفعال كانت تظهر عليه لمـا بقيت للعاقل شبهة فى كذب دعواه . وقس على ذلك أيضا ما يروى عن شداد صاحب ارم(١) ، وعن النمروذ من هذا النوع .

---

(١) ارم ذات العماد : مدينة عاد فى اليمن بين ابتر والشحر ، يقال كان فيها مائة ألف عمود كانت الجن قد اصطنعتها لعاد بن شداد بن سام بن نوح ، وكانت سخرت له الجن قبل سليمان بن داود بأربعة آلاف عام .

ويذكر ابو طالب المكى أن طائفة من الأبدال تجتمع فى هذه المدينة ليالى الجمع ، وفى الأعياد ، وكان سهل بن عبد الله يزورها فى كل جمعة . (قوت القلوب ج ٢ ص ١٣٨) .

ومثل هذا ما أخبرنا به المخبر الصادق من أنه فى آخر الزمان يخرج دجال ويدعى الالهية ، ويسير وعلى جانبيه جبلان : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وما يكون عن يمينه مكان النعيم ، وما يكون عن يساره موضع العذاب والعقوبة ، ويدعو الخلق الى نفسه ، ويعاقب من لا يؤمن به ، والله تعالى يميت الخلق ويحيهم بسبب ضلالته(١) ، ويبسط له الأمر المطلق فى العالم ، ولو ظهر عليه مئات الأفعال الناقضة للعادة لمـا وقع للعاقل فى كذبه شبهة ، لأن العاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى لا يركب الحمار ، ولا يتغير ولا يتلون . وهم يسمون هذا حكم الاستدراج .

ويجوز أيضا أن يظهر فعل ناقض للعادة على يد مدع للرسالة وكاذب ، فيكون دليلا على كذبه ، ويكون على يد الصادق دليلا على صدقه . ولكن لا يجوز أن يظهر فعل يشتبه فيه شخص ، لأنه حين يجوز اثبات الشبهة لا يمكن معرفة الصادق من الكاذب ، وعندئذ لا يعرف الطالب من يجب عليه أن يصدقه ومن يجب عليه أن يكذبه ، وعندئذ يبطل حكم النبوة كلية .

ويجوز أن يظهر على يد مدعى الولاية شىء من جنس الكرامة ، لأنه صادق فى دينه ، ولو أن معاملاته ليست طيبة ، لأنه يثبت بذلك صـدق الرسول ويظهر فضل الحق ، فلا ينسب ذلك الفعل لحوله وقوته . ومن يكن صادقا فى أصل الايمان يكن صادقا فى الولاية بالبرهان ، فهو ولى باعتقاده فى جميع الاحوال وان تكن أعماله ليست متفقة مع اعتقاده ، ودعواه الولاية مثل دعوى الايمان لا تنافى تركه المعاملات . والكرامة والولاية فى الحقيقة من مواهب الحق لا من مكاسب العبد ، فالكسب لا يصير علة لحقيقة الهداية .

وقد قلنا قبل هذا ان الأولياء ليسوا معصومين لأن العصمة ليست شرطا لهم ، ولكنهم محفوظون من الآفة التى يقتضى وجودها نفى الولاية ، ونفى الولاية والعياذ بالله مرتبط بالردة لا بالمعصية ، وهذا مذهب محمد بن على

---

(١) هكذا فى النص . ووردت فى « التعرف » اشارة الى هـذا نصها : « وجوز بعض المتكلمين وقوم من الصوفية اظهارها (اى المعجزة) عـلى الكذابين من حيث لا يعلمون ، وقت ما يدعونها فيما لا يوجب شبهة ، كما روى فى قصة فرعون من جرى النيل معه ، وكما أخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة الدجال : انه يقتل رجلا ثم يحييه فيما يخيـل اليه (انظر : « التعرف » ص ٧٤) .

الترمذى والجنيد وأبى الحسن النورى والحارث المحاسبى وغيرهم من أهل الحقائق رحمهم الله . أما أهل المعاملة مثل سهل بن عبد الله التسترى وأبى سليمان الدارانى وحمدون القصار وغيرهم فمذهبهم أن شرط الولاية المداومة على الطاعة ، وحين تمر الكبيرة على قلب الولى يعزل عن الولاية . وقلنا قبل هذا ان العبد ، باجماع الأمة ، لا يخرج من الايمان بالكبيرة ، وليست ولاية بأولى من أخرى ، فمادامت ولاية المعرفة التى هى أصل كل الكرامات لا تزول بالمعصية ، فمحال أن يزول ما هو أقل منها فى الشرف والكرامة بالمعصية . وقد طال هذا الخلاف بين المشايخ ، وليس مرادى هنا اثبات هذا كله ، ولكن أهم الأشياء فى معرفة هذا الباب هو أن تعلم علم اليقين : فى أى حال تظهر الكرامة على الولى ؟ أفى حال الصحو ، أم فى حال السكر ؟ وفى الغلبة ، أم فى التمكين ؟ وقد شرحت الصحو والسكر تماما فى ذكر مذهب أبى يزيد رحمه الله .

وأبو يزيد وذو النون المصرى ومحمد بن خفيف والحسين بن منصور ويحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنهم ومعهم جماعة على أن اظهار الكرامة على الولى لا يكون الا فى حال السكر ، وما يكون فى حال الصحو هو معجزة الأنبياء . وهذا فى مذهبهم فرق واضح بين المعجزة والكرامة ، لأن اظهار الكرامة على الولى يكون فى سكره وهو مغلوب لا طاقة له على الادعاء ، واظهار المعجزة على النبى يكون فى حال صحوه ، لأنه يتحدى ويدعو الخلق لمعارضتها . وصاحب المعجزة مخير بين طرفين : حكم أحدهما اظهارها حيثما يريد ، والآخر : كتمانها ، وليس للأولياء هذا ، لأنه يتفق لهم حينا أن يطلبوها (الكرامة) ولا تكون ، وحينا لا يطلبونها وتكون ، اذ أن الولى ليس داعيا حتى ينسب حاله الى بقاء الأوصاف ، لأنه مكتوم ، وحاله يوصف بفناء الصفة ، فواحد منهما صاحب شرع ، والآخر صاحب ستر . فيجب اذن ألا تظهر الكرامة الا فى حال الغيبة والدهشة حين يكون تصرفه كله بتصرف الحق ، ومن يكن وقته هكذا يكن كل نطقه من تأليف الحق ، لأن صحة صفة البشرية اما أن تكون للاهى أو الساهى أو لمطلق الالهى ، والأنبياء لا يكونون ساهين ولا لاهين ، ومطلق الالهى لا يكون الا الأنبياء . ويبقى هنا الأولياء ، وهم فى تردد وتلون ، وبدون تحقيق وتمكين ، وطالما كانوا — بقيام حال البشرية — مع أنفسهم ، يكونون محجوبين ، وعندما يكاشفون يصيرون مدهوشين ومتحيرين فى حقيقة ألطاف الحق ، واظهار الكرامات لا يصح الا فى حال الكشف ، لأنها درجة القرب ، وذلك هو الوقت الذى يستوى لدى (الولى) فيه الحجر والذهب . وهذه الحال لا تصير بأى حال صفة لأحد من الآدميين غير الأنبياء الا وتكون عارية فيه ، ولا يكون ذلك الا فى حال السكر ، مثلما حدث ان انقطع حارثة يوما عن الدنيا وكوشف فى الدنيا بالعقبى ، فقال

رضى الله عنه : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وفضتها ومدرها » . وفى اليوم التالى رأوه يعمل فوق نخلة ، فقالوا له : ما تفعل يا حارثة ؟ قال : أطلب قوتى ، اذ لا مناص لى من ذلك ، فكان كذلك فى تلك الساعة ، وفى هذه الساعة هكذا .

فمقام صحو الأولياء درجة العوام ، ومقام سكرهم درجة الأنبياء ، وعندما يرجعون الى أنفسهم يعتبرون أنفسهم من آحاد الناس ، وحين يغيبون عن أنفسهم ويرجعون الى الحق يصير السكر مذهبهم ، ويصيرون مهذبين للحق ، ويصير كل العالم فى حقهم مثل الذهب ، كما يقول الشبلى رحمه الله : « ذهب أينما ذهبنا ، ودر حيث درنا ، وفضة فى الفضاء » .

وسمعت من السيد الامام الحزامى فى **سرخس** قوله : كنت صبيا ، وكنت فى وقت من الأوقات سألت الطابرانى عن بداية حاله ، فقال : ذات مرة كنت فى حاجة الى حجر ، فكان كل حجر آخذه من مجرى نهر سرخس يصير جوهرا ، فكنت ألقيه ثانية(١) . وكان هذا لأن كلاهما كانا لديه سواء ، بل كان الجوهر حينذاك أحقر من الحجر ، لأنه كان يريد الحجر لا الجوهر .

وسمعت من السيد الامام الحزامى فى سرخس قوله : كنت صبيا ، وكنت قد ذهبت الى محلة من محلات الحدائق طلبا لأوراق التوت من أجل دودة القز ، وطلعت على شجرة فى وقت الظهيرة ، وأخذت أضرب فرع تلك الشجرة ، فمر أبو الفضل حسن رضى الله عنه بتلك المحلة ، وكنت على الشجرة فلم يرنى ، ولم أشك قط فى أنه كان غائبا عن نفسه وحاضرا مع الحق بقلبه ، فرفع رأسه وقال على حكم الانبساط : يا الهى ! منذ أكثر من سنة لم تعطنى دانقا لأحلق رأسى ، أتفعل هذا مع أحبائك ؟ فصارت كل أوراق الأشجار وغصونها وأصولها ذهبا فى الحال . وعندئذ قال : يالله أمر عجيب ! كل تعريضنا اعراض ! ألا يمكن التحدث معك لانشراح القلب ؟ !

---

(١) وردت هذه الحكاية فى الرسالة على هذا النحو : « سألت أحمد الطابرانى السرخسى رحمه الله ، فقلت له : هل ظهر لك شىء من الكرامات ؟ فقال : فى وقت ارادتى وابتداء أمرى ربما كنت أطلب حجرا استنجى به فلم أجد ، فتناولت شيئا من الهواء فكان جوهرا ، فاستنجيت به ، وطرحته . (الرسالة ج ٢ ص ٦٧٥) .

ويرد عن الشبلى أنه ألقى بأربعة آلاف دينار جملة فى دجلة ، فقالوا له : ما تفعل ؟ قال : الحجر أولى بالماء . قالوا : لم لا تعطيها للخلق ؟ قال : سبحان الله ! بم أحتج الى الله فى أنى رفعت الحجاب عن قلبى وجعلته على قلوب اخوتى المسلمين ، وليس من شرط الدين أن تريد أن يكون أخوك المسلم أسوأ منك ؟

وهذا كله حال السكر ، وقد شرحته ، أما المراد هنا فاثبات الكرامة .

ثم ان الجنيد وأبا العباس السيارى وأبا بكر الواسطى ومحمد بن على الترمذى صاحب المذهب « رضوان الله عليهم أجمعين » على أن الكرامة تظهر فى حال الصحو والتمكين دون السكر ، لأن الله تعالى جعل أولياءه أولياء للعالم ، وناط بهم الحل والعقد ، وصير أحكام العالم موصولة بهمتهم ، فوجب أن تكون آراؤهم أصح كل الآراء ، وقلوبهم أشفق كل القلوب ، وبخاصة على خلق الله ، لأنهم واصلون ، والتلوين والسكر يكونان فى حال الابتداء ، فاذا حصل البلوغ تبدل التلوين بالتمكين ، ومن ثم يكون الولى وليا حقا ، وتكون كراماته صحيحة .

ومعروف بين أهل هذه الطريقة أنه ينبغى للأوتاد أن يطوفوا كل ليلة حول العالم ، واذا وجد مكان لم تقع عليه أعينهم ، وظهر فيه خلل فانهم عندئذ يرجعون الى القطب ليستحضر همته حتى يزيل الله تعالى ذلك الخلل عن العالم ببركاته .

وأولئك الذين يقولون ان الذهب والمدر صارا لديهم سواء ، فهذا كله علامة السكر ، وعدم صحة الرؤية . ولا يكون لهذا كبير شرف ، فالشرف يكون للصحيح الرؤية الصحيح المعرفة الذى يكون الذهب لديه ذهبا ، والمدر مدرا ، ولكنه يكون بصيرا بآفاتهما ، حتى ليقول « يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى(١) » ، لأنى رأيت آفاتكما . فمن ير آفاتهما ، ويعرف أنهما محل الحجاب ، ويقل بتركهما : يلق الثواب .

وأيضا : من يكن الذهب لديه مثل المدر لا يستقيم قوله بترك المدر : أما رأيت أنه حين كان حارثة صاحب سكر ، قال : الذهب والمدر والحجر والفضة

---

(١) رواه الامام أحمد عن أبى صالح السمان عن على رضى الله عنه : أنه فرق جميع ما فى بيت المال وهو يقول : يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى (اللمع ص ١٨١) .

لدى سواء ، وأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان صاحب صحو فرأى آفة قبض الدنيا ، وأدرك ثواب تركها ، فكف يده عنها ، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ؟

ويروى أبو بكر الوراق الترمذى أن محمد بن على رضى الله عنه قال له يوما : يا أبا بكر ! سأمضى بك اليوم الى مكان . قلت : الأمر للشيخ ، وسرت معه . ولم يمض كثير حتى رأيت صحراء كبيرة جدا ، وتختا ذهبيا موضوعا على حافة عين ماء تحت شجرة خضراء وسط تلك الصحراء ، وقد جلس عليه شخص ارتدى ثيابا طيبة ، فلما اقترب منه محمد بن على رضى الله عنه ، سلم ، فنهض وأجلسه على التخت . فلما مضت مدة ، أقبلت من كل ناحية جماعة من الناس حتى اجتمع هنالك أربعون شخصا ، فأشار الى السماء ، فظهر مأكول ، فأكلنا . وسأل محمد بن على سؤالا ، وتكلم الرجل طويلا فى ذلك السؤال ، بحيث لم أفهم من حديثه كلمة . فلما انقضى بعض الوقت ، استأذن محمد بن على ورجع ، وقال لى : يا أبا بكر ! اذهب فقد صرت سعيد الأبد . وعدنا الى ترمذ بعد فترة ، وقلت : أيها الشيخ ! أى مكان كان ذلك ؟ ومن كان الرجل ؟ قال : كان ذلك تيه(١) بنى اسرائيل ، وكان ذلك الرجل القطب المدار عليه . قلت : أيها الشيخ ! كيف وصلنا فى هذه الساعة من ترمذ الى التيه ؟ قال : يا أبا بكر ! لا شأن لك بالوصول والسؤال والكيفية .

وهذا علامة على صحة الصحو لا السكر .

وقد اختصرنا هذا الآن ، لأننا لو شغلنا بتفصيله وشرح أخواته يطول الكتاب ، ونتخلف عن المقصود ، فلأصل بعض الدلائل التى تتعلق بهذا الكتاب بذكر كراماتهم وحكاياتهم ، ليكون فى ذلك تنبيه للمريدين ، وترويح للعلماء ، ومذاكرات للمحققين ، وللعوام زيادة يقين ورفع شبهة .

---

(١) « التيه » أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام . والغالب على أرض التية الرمال وفيها مواضع صلبة ، وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة . يتصل حد من حدودها بالجار ، وحد بجبل طور سيناء وحد بأرض بيت المقدس وما اتصل به من فلسطين ، وحد ينتهى الى مفازة فى ظهر ريف مصر الى حد القلزم . (معجم البلدان ج ١ ص ٩١٢) .

الكلام فى ذكر كراماتهم :

اعلم أنه ما دامت حجة العقل على صحة الكرامات قد ثبتت ، وقام الدليل على ثبوتها ، فانه ينبغى أن يصير الدليل الكتابى وما جاء فى الأخبار الصحاح معلوما لك أيضا ، لأن الكتاب والسنة ناطقان بصحة الكرامات والأفعال الناقضة للعادات على يد أهـــل الولاية ، وانكار ذلك جمـــلة انكار لحكم النصوص .

من جملة ذلك : ما أخبرنا به نص الكتاب فى قوله تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى(١) » . فاذا قال قائل من المنكرين بأن تلك كانت معجزة موسى صلوات الله عليه ، فانه يجوز أن نقول أيضا ان كرامة الأولياء هذه معجزة محمد صلى الله عليه وسلم ، فان يقل ان هذه فى الغيبة فلا يجب أن تكون معجزة ، وتلك كانت فى وقت (موسى) ، نقول : ان موسى غاب عنهم وذهب الى الطور ، وكان نفس الحكم باقيا ، فسيان غيبة الزمان وغيبة المكان ، وما دامت المعجزة تجوز هناك فى غيبة المكان ، فانها تجوز هنا أيضا فى غيبة الزمان .

وأخبرنا أيضا عن كرامة آصف بن برخيا أنه حين أراد سليمان عليه السلام أن يحضروا له عرش بلقيس قبل مجيئها ، أراد الله تعالى أن يبدى شرفه للخلق ، ويظهر كرامته ، ويبين لأهل زمانه أن كرامة الأولياء جائزة : قـــال سليمان عليه السلام : من يحضر تخت بلقيس هنا قبل مجيئها ؟ « قوله تعالى : قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك(٢) » فقال سليمان : ينبغى أسرع من هذا ، فقال آصف(٣) : أنا آتيك به قبل أن يرتد

---

(١) سورة « البقرة » آية ٥٧ .
(٢) سورة « النمل » آية ٣٩ .
(٣) آصف بن برخيا : يقال انه كان أحد المسرفين ثم تداركه مولاه واجتباه وأعطاه العلم والفضل وأطلعه على الاسم الأعظم . وكان آصف ابن خالة سليمان عليه السلام فأوحى الله تعالى الى سليمان : يا ابن رأس العابدين ، ويا ابن محجة الزاهدين ، الى كم يعصينى ابن خالتك آصف ، وأنا أحلم عنه مرة بعد مرة ؟ فوعزتى وجلالى لئن أخذته عطفة من عطفاتى عليه لأتركنه مثله لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله اليه ، فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع يديه نحو السماء وهو يقول : الهى وسيدى ! أنت أنت وأنا أنا ، فكيف أتوب ان لم تتب على ؟ وكيف أستعصم ؟ ان لم تعصمنى لأعودن ! فأوحى الله اليه : صدقت ، أنت أنت وأنا أنا ، استقبل التوبة فقد تبت عليك ، وأنا التواب الرحيم . (قوت القلوب ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩) .

اليك طرفك(١) » ، فلم يغضب عليه سليمان لهذا القول ، ولم ينكره ، ولم يره مستحيلا . ولم تكن هذه معجزة بأى حال ، لأن آصف لم يكن نبيا ، فلا محالة أن تكون كرامة . واذا كانت معجزة لوجب اظهارها على يد سليمان .

وأخبرنا أيضا عن أحوال مريم وزكريا أنه حين كان يدخل على مريم كان يرى فى الصيف فاكهة الشتاء ، وفى الشتاء فاكهة الصيف ، فكان يقول : « أنى لك هذا ؟ » فتقول مريم : « هو من عند الله(٢) » . ومن المتفق عليه أن مريم لم تكن نبية . وقد أخبرنا الله عز وجل عن حالها أيضا ببيان صريح فى قوله : « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا(٣) » .

وأيضا أحوال أصحاب الكهف ، وحديث الكلب معهم ، ونومهم وتقلبهم فى الكهف يمينا وشمالا ، « لقوله تعالى : ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد(٤) » ، فهذه كلها أفعال ناقضة للعادة ، ومعلوم أنها ليست معجزة ، فلابد أن تكون كرامة .

ويجوز أن تكون الكرامة بمعنى استجابة الدعوات بحصول أمور موهومة فى زمان التكليف ، ويجوز أن تكون قطع مسافة كبيرة فى ساعة ، ويجوز أن تكون ظهور طعام من مكان غير متوقع ، ويجوز أن تكون اشرافا على أفكار الخلائق ، وما شابه ذلك .

وفى الأحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم جاء حديث الغار ، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا يوما للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ! حدثنا بشىء من عجائب أفعال الأمم الماضية . فقال : كان قبلكم ثلاثة أشخاص يسيرون الى مكان ، فلما جن الليل قصدوا غارا وناموا فيه ، فلما مضى هزيع من الليل انحدرت صخرة من الجبل وسدت باب الغار تماما ، فتحيروا وقالوا لبعضهم البعض : لا ينجينا من هذا المكان الا أن نشفع أعمالنا الخالية من الرياء الى حضرة الله تعالى . فقال واحد منهم : كان لى أبوان ، ولم أكن أملك شيئا من حطام الدنيا غير عنيزة ، وكنت أقدم لهما لبنها ، وأحضر كل يوم حزمة حطب أنفق ثمنها على طعامى وطعامهما .

---

(١) سورة « النمل » آية ٤٠ .
(٢) سورة « آل عمران » آية ٣٧ .
(٣) سورة « مريم » آية ٢٥ .
(٤) سورة « الكهف » آية ١٨ .

وذات ليلة جئت متأخرا ، والى أن حلبت العنزة وثردت لهما طعامهما فى اللبن كانا قد ناما ، فبقى القدح فى يدى وأنا واقف على قدمى ، ولم أطعم شيئا ، وكنت أنتظر يقظتهما حتى طلع الصباح ، واستيقظا ، وطعما ، وعندئذ جلست . ثم قال : يا الهى ! اذا كنت صادقا فى قولى هذا فأغثنا . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فتحركت الصخرة حركة وظهر شق . وقال الثانى : كانت لى ابنة عم ذات جمال ، وكان قلبى مشغولا بها دائما ، وكنت أدعوها الى فلا تجيب ، الى أن أرسلت اليها مرة بالحيل مائة وعشرين دينارا لتخلو معى ليلة ، فلما اقتربت منى ظهرت فى قلبى خشية من الله عز وجل ، فانصرفت عنها وتركت لها الذهب . وعندئذ قال : يا الهى ! اذا كنت صادقا فى هذا فابعث الينا بالفرج . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فتحركت الصخرة حركة أخرى وازداد الشق انفراجا ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج بعد . وقال الثالث : كان لدى جماعة من الأجراء يعملون ، وأخذوا جميعا أجرهم كاملا ، وغاب واحد منهم ، فاشتريت بأجره نعجة . وفى السنة التالية صارت اثنتين ، وفى الثالثة أربعا ، وهكذا كانت تزيد كل سنة. ومضت عدة سنوات فتجمع له مال كثير ، وجاءنى الرجل قائلا : أتذكر أنى عملت لك مرة ؟ أنا الآن محتاج الى أجرى ، فقلت له : هيا ، فهذا المال كله لك ، فقال : أتهزأ بى ؟ قلت : لا ، بل أقول حقا . وأعطيته كل ذلك المال ، وانصرف . وعندئذ قال : يا الهى ! اذا كنت صادقا فى هذا الكلام فابعث الينا بالفرج . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فازدادت الصخرة انفراجا عن باب الغار حتى خرج الثلاثة(١) .

وكان هذا الفعل ناقضا للعادة .

ومعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث جريج الراهب ، وقد رواه أبو هريرة رضى الله عنه فقال : قال النبى عليه السلام : لم يتكلم فى الصغر بالمهد الا ثلاثة : أولهم عيسى عليه السلام — وكلكم تعرفونه — والثانى : راهب فى بنى اسرائيل اسمه جريج ، وكان رجلا مجتهدا(٢) ، وكانت له أم

---

(١) ينقل الهجويرى عن الرسالة القشيرية معظم قصص الكرامات . وحديث الغار هذا أورده القشيرى باسناد طويل ، وقال عنه انه حديث صحيح ومتفق عليه . والعبارة هنا تختلف فى بعض المواضع عما ورد بالرسالة (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٦٩ — ٦٧١) .

(٢) ورد فى الرسالة ، وهو الأصح : « لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصبى من زمن جريج ، وصبى آخر . فأما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلا عابدا فى بنى اسرائيل » .

تقية ، فجاءت لرؤية ولدها يوما وكان يصلى ، فلم يفتح باب الصومعة ، وكذلك فى اليوم الثانى والثالث ، حتى قالت أمه من غضبها : اللهم افضح ولدى ، وخذه بحقى ! وكان فى زمانه امرأة زانية فقالت لجماعة : أنا أفتن جريجا ، وذهبت الى صومعته ، فلم يلتفت اليها ، فصاحبت راعيا فى الطريق وحملت منه ، فلما جاءت المدينة قالت : هذا الحمل من جريج . ولما وضعت حملها ، قصد الناس صومعته ، وجاءوا به الى السلطان ، فقال جريج : يا غلام ! من أبوك ؟ فقال : يا جريج ! ان أمى تكذب عليك ، وأبى راع . وأما الثالث : فان امرأة كان لها صبى ، وكانت قد جلست على باب بيتها ، ومر فارس جميل الوجه حسن الملبس ، فقالت : يا رب اجعل ابنى مثل هذا الفارس . فقال الصبى : يا رب لا تجعلنى مثله . وبعد مدة مرت امرأة سيئة السمعة ، فقالت الأم : يا رب لا تجعل ابنى مثل هذه المرأة ، فقال الصبى : يا رب اجعلنى مثلها . فتعجبت الأم ، وقالت : يا بنى ! لم تقول هذا ؟ قال : لأن ذلك الفارس جبار من الجبابرة ، وهذه المرأة امرأة صالحة ولكن الناس يسبونها ، ولا أريد أن أكون من الجبابرة ، وأريد أن أكون من الصالحين(١) .

ومعروف أيضا قصة زائدة جارية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اذ دخلت يوما على النبى عليه السلام وسلمت عليه ، فقال لها النبى : يا زائدة ! لم تزورينا غبا ؟ أنت موفقة ، وأنا أحبك . قالت : يا رسول الله ! قد جئت اليوم بعجائب . قال : ما هى ؟ قالت : ذهبت صباحا للاحتطاب ، فلما حزمت حزمة ، وضعتها على صخرة لأحملها ، فرأيت فارسا هبط من السماء ، وسلم على وقال لى : أبلغى محمدا منى السلام ، وقولى له ان رضوان خازن الجنان يقرئك السلام ، ويقول : أبشر فقد قسمت الجنة من أجل أمتك ثلاثة أقسام : فريق يدخلها بغير حساب ، وفريق يحاسب حسابا يسيرا ، وفريق يغفر له بشفاعتك . قال هذا وصعد الى السماء ، والتفت الى فيما بين السماء والأرض فوجدنى لم أرفع الحزمة ، فقال : يا زائدة ! اتركى الحزمة على الصخرة . وقال لها : يا صخرة ! احملى الحزمة مع زائدة الى باب عمر . فنهض النبى عليه السلام وسار مع الصحابة حتى دار عمر رضى الله عنه ، فرأوا أثر مجىء الصخرة وذهابها ، فقال (عليه السلام) الحمد لله ، اذ لم يخرجنى الله تعالى من الدنيا الا وقد بشرنى رضوان بدخول أمتى الجنة ، وأعطى الله عز وجل امرأة من أمتى هذه الكرامة ، وأبلغها درجة مريم .

---

(١) أورد القشيرى حديث جريج هذا باسناد طويل ، والعبارة هنا مختلفة فى بعض التفاصيل . (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٦٨ — ٦٦٩) .

ومعروف أن النبى عليه السلام بعث العلاء بن الحضرمى لغزو ، وعرض له فى الطريق قطعة من البحر ، فساروا عليها ، وعبروها جميعا بحيث لم تبتل اقدامهم(١) .

ومعروف عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه كان يسير فى طريق فرأى جماعة وقوفا على قارعة الطريق ، وقد أخذ عليهم الطريق سبع ، فقال عبد الله بن عمر : أيها الكلب ! اذا كان لديك أمر من الله فالزمه ، والا فأفسح لنا الطريق لنمر . فنهض الأسد ، وتواضع له ، ومضى(٢) .

وفى أثر معروف عن ابراهيم النبى عليه السلام أنه رأى رجلا جالسا فى الهواء فقال له : يا عبد الله ! بم وجدت هذا ؟ قال : بشىء يسير . قال : ما هو ؟ قال : أعرضت عن الدنيا ، وأقبلت على أمر الله ، فقيل لى : الآن ماذا تريد ؟ قلت : أن يكون لى فى الهواء مسكن لينقطع قلبى عن الخلق .

وعندما جاء الفتى الأعجمى الى المدينة قاصدا قتل عمر ، قالوا له ان أمير المؤمنين نائم بمكان فى الخرائب ، فذهب اليه ورآه نائما على التراب وقد وضع الدرة تحت رأسه ، فقال لنفسه : اكل هذه الفتن فى الدنيا من هذا (الرجل) ، وقتله لدى سهل جدا ؟ وسل السيف ، فرأى أسدين أقبلا وقصداه ، فصاح ، فاستيقظ عمر رضى الله عنه ، وروى له القصة ، وأسلم .

وفى أيام خلافة أبى بكر رضى الله عنه أرسل خالد بن الوليد الى سواد العراق ، فجىء بين الهدايا بحق فيه سم قاتل لا يوجد مثله فى خزانة أى ملك . وفتح خالد رضى الله عنه الحق والقى بالسم على كفه ، وقال : باسم الله ، ووضعه فى فمه ، فتعجب الناس ، واهتدى كثير منهم .

---

(١) ورد هذا الخبر فى اللمع ، وهنا اختلاف يسير فى العبارة (انظر : اللمع ص ٣٩٧) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة منسوبة الى ابراهيم بن أدهم أنه كان فى رفقة ، فعرض لهم السبع ، فقالوا : يا أبا اسحق ! قد عرض لنا السبع . فجاء ابراهيم وقال : يا أسد ! ان كنت أمرت فينا بشىء فامض ، والا فارجع . فرجع الأسد ، ومضوا . (الرسالة جـ ٢ ص ٦٩١) .

ويروى الحسن البصرى رحمه الله أنه كان فى « عبادان(١) » رجل أسود يأوى الى الخرائب ، وذات يوم اشتريت من السوق طعاما وحملته اليه ، فقال لى : ما هذا ؟ قلت : طعام جئت به عساك فى حاجة اليه . فلم يقل شيئا ، وأشار بيده وضحك منى ، فرأيت حجر ومدر حيطان تلك الخرابة كله ذهبا ، فخجلت من فعلتى ، وتركت ما كنت قد حملته ، وفررت بنفسى من هيبته(٢) .

ويروى ابراهيم بن أدهم قائلا : مررت براع وطلبت منه ماء فقال : لدى لبن وماء ، فأيهما تريد ؟ قلت : أريد المـــاء . فنهض ، وضرب الحجر بعصاه ، فخرج منه ماء عذب لطيف ، فتعجبت ، قال : لا تعجب ، لأنه حين يكون العبد مطيعا للحق ، يطيعه العالمون جميعا .

وكان أبو الدرداء وسلمان (الفارسى) رضى الله عنهما جالسين معا يأكلان ويسمعان تسبيح القصعة(٣) .

ويروى عن أبى سعيد الخراز رضى الله عنه أنه قال : فى بعض الأوقات كنت أطعم كل ثلاثة أيام مرة ، وكنت أسير فى البادية . وفى اليوم الثالث بدا على الضعف ، ولم أجد طعاما ، وطلب الطبع عادته ، فجلست فى مكان ، فصاح بى هاتف يقول : يا أبا سعيد ! اختر : أتريد للنفس سببا لدفع الضعف بلا طعام ، أم طعاما لتسكين النفس ؟ فقلت : يا الهى ! أريد سببا . فدبت فى قوة ، ونهضت ، وسرت اثنتى عشرة مرحلة أخرى دون طعام وشراب(٤) .

---

(١) عبادان : كانت قطيعة لخمران بن أبان مولى عثمان بن عفان . وهذا الموضع فيه قوم متيمون للعبادة والانقطاع ، وهو تحت البصرة قرب البحر الملح . (معجم البلدان جـ ٢ ص ٥٩٧) .

(٢) وردت فى اللمع والرسالة ، وهنا اختلاف يسير (انظر : اللمع ص ٣٩١ ، الرسالة جـ ٢ ص ٦٧٥) .

(٣) ورد فى اللمع (انظر ص ٣٩٧) .

(٤) وردت فى اللمع والرسالة وهنا اختلاف فى العبارات . (انظر : اللمع ص ٥٠٤ ، الرسالة جـ ٢ ص ٦٨١) .

ومعروف أنهم اليوم فى « تستر(١) » يسمون بيت (سهل بن) عبد الله « بيت السباع » . وأهل تستر متفقون على أن كثيرا من الأسود والسباع كانت تجىء اليه ، وكان يقدم لها الطعام ، ويرعاها . وأهل تستر خلق كثيرون(٢) .

ويقول أبو القاسم المروزى : كنت أسير مع أبى سعيد الخراز ، فرأيت على شاطىء البحر شابا يرتدى مرقعة ، وقد علق محبرة فى ركوة ، فقال أبو سعيد : سيماء هذا الشاب عبائية ، ومعاملته حبرية ، وحين أنظر اليه أقول انه من الواصلين ، وحين أنظر الى المحبرة أقول انه من الطالبين ، فتعال نسأله الأم وصل . وقال له الخراز : أيها الفتى ! ما الطريق الى الله قال : الطريق الى الله طريقان : احدهما طريق العوام ، والآخر طريق الخواص ، ولا علم لك بطريق الخواص ، أما طريق العوام فهذا الذى تسلكه ، وتجعل معاملتك علة الوصول الى الحق ، وترى المحبرة من الحجاب(٣) .

ويقول ذو النون المصرى : ذات مرة ركبنا سفينة لنذهب من مصر الى

---

(١) تستر : أعظم مدينة بخوزستان ، وهو تعريب «شوشتر» . وبخوزستان أنهار كثيرة أعظمها نهر تستر ، وهو الذى بنى عليه سابور شادروان بباب تستر حتى ارتفع ماؤه الى المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض ، وبتستر قبر البراء بن مالك الأنصارى ، وفتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ١ ص ٨٤٧ ، ٨٥٠) .

(٢) ذكر أبو نصر السراج أنه دخل هذا البيت (انظر : اللمع ص ٣٩١) ، وأورد القشيرى أيضا ذلك . (انظر : الرسالة ج ٢ ص ٦٧٤) .

(٣) وردت هذه الحكاية عن أبى القاسم بن مروان النهاوندى ، قال : كنت أنا وأبو بكر الوراق مع أبى سعيد الخراز نمشى على ساحل البحر نحو « صيدا » فرأى شخصا من بعيد ، فقال : اجلسوا ، لا يخلو هذا الشخص أن يكون وليا من أولياء الله . قال : فما لبثنا أن جاء شاب حسن الوجه وبيده ركوة ومحبرة ، وعليه مرقعة . فالتفت أبو سعيد اليه منكرا عليه لحمله المحبرة مع الركوة ، فقال له : يا فتى ! كيف الطرق الى الله تعالى ؟ فقال يا أبا سعيد ! أعرف الى الله طريقين : طريقا خاصا وطريقا عاما ، فأما الطريق العام : فالذى أنت عليه ، وأما الطريق الخاص : فهلم ! ثم مشى على الماء حتى غاب عن أعيننا ، فبقى أبو سعيد حيران مما رأى . (الرسالة ج ٢ ٦٨٩ — ٦٩٠) .

جدة(١) ، وكان معنا فى السفينة فتى يلبس مرقعة ، وكنت أتوق الى صحبته ، ولكن هيبته كانت تمنعنى من الحديث معه ، لأنه كان رجلا عزيز الحال جدا ، ولم يكن يخلو من العبادة ، الى أن ضاعت ذات يوم صرة جواهر من رجل ، فاتهم صاحبها هذا الفتى ، وأرادوا أن يغلظوا له القول ، فقلت : لا تتحدثوا معه هكذا حتى أسأله بالحسنى . واقتربت منه وقلت له متلطفا : ان هؤلاء الناس يتهمونك ، وقد منعتهم من الاغلاظ والجفاء معك ، فما العمل ؟ فرفع وجهه الى السماء وقال شيئا ، فرأيت الأسماك وقد ظهرت على وجه الماء ، وقد أمسكت كل منها بجوهرة فى فمها ، فأخذ جوهرة وأعطاها للرجل . فلما رأى أهل السفينة ذلك ، وضع قدمه على الماء ومضى . وأما الذى سرق الصرة من أهل السفينة فقد أعادها ، وندم أهل السفينة كثيرا(٢) .

ويروى عن ابراهيم الرقى(٣) أنه قال : فى ابتداء أمرى ، قصدت زيارة مسلم المغربى ، فلما دخلت مسجده كان يؤم الناس ، وقرأ الفاتحة خطأ ، فقلت لنفسى : ضاع تعبى ! وفى اليوم التالى أردت أن أذهب الى شاطىء النهر للطهارة ، وكان قد نام فى الطريق أسد ، فرجعت . وكان أسد آخر يسير فى اثرى فصرخت ، فخرج مسلم من الصومعة ، ولما رآه الأسدان ، تواضعا له ، فأمسك بأذن كل منهما وعركها ، وقال : يا كلاب الله ! ألم أقل لكم لا تتعرضوا لضيوفى ؟ ثم قال لى : يا (أبا) اسحق ! لقد انشغلت بتقويم ظاهرك للخلق لأنك كنت تخشى الخلق ، وانشغلنا نحن بتقويم باطننا للحق ليخشانا الخلق(٤) .

---

(١) جدة : بلد على ساحل بحر اليمن ، وهى فرضة مكة بينهما يوم وليلة (معجم البلدان ج ٢ ص ٤١) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى ترجمة مالك بن دينار ، وأشار الهجويرى الى أنه هو الذى اتهم بسرقة الجوهرة (انظر ج ١ ص ٢٩٩) ، كما وردت فى الرسالة ، وهنا بعض الاختلاف (انظر الرسالة ج ٢ ص ٦٨٣ — ٦٨٤) .

(٣) ابراهيم بن داود الرقى : كنيته أبو اسحق ، من جلة مشايخ الشام ، ومن أقران الجنيد وابن الجلاء . صحبه أكثر مشايخ الشام ، وتوفى سنة ست وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٣١٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨١ تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٧٥ ، نفحات الانس ص ١٦٤) .

(٤) أوردها القشيرى على أنها من كرامات أبى الخير الأقطع التيناتى ، قال : « وحكى عن ابراهيم الرقى أنه قال : قصدته مسلما عليه ، فصلى صلاة المغرب فلم يقرأ الفاتحة مستويا . فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى ، =

وذات يوم خرج شيخى من بيت الجن قاصدا دمشق ، وكان المطر قد هطل ، وكنا نسير بمشقة فى الوحل ، ونظرت الى الشيخ فكان حذاؤه وثوبه جافين ، فحدثته (فى ذلك) فقال : نعم ، لأنى رفعت التهمة من طريق التوكل ، وحفظت قلبى من وحشة الحرص ، حفظ الله تعالى قدمى من الوحل .

ووقعت لى مرة واقعة ، وصعب على طريق حلها ، فقصدت الشيخ أبا القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وكان بطوس ، فوجدته فى مسجد بيته وحيدا ، وكان يتحدث الى عمود بعين واقعتى ، فقلت له : مع من تتكلم ؟ قال : يا بنى ! لقد انطق الله عز وجل لى هذا العمود فى هذه الساعة فسألنى هذا السؤال .

وبفرغانه(١) قرية يسمونها « شلاتك » ، وكان هنالك شيخ من أوتاد الأرض كانوا يلقبونه « الباب » — وهم يسمون كل صوفية تلك الديار وكبار الشيوخ بالباب — وكانت له زوجة عجوز تدعى فاطمة ، وقصدت زيارته من اوزكند(٢) ، ولما دخلت عليه ، قال : فيم جئت ؟ قلت : لأرى الشيخ بصورته ، ولينظر الى بعين الشفقة . فقال : يا بنى ! اننى أراك منذ اليوم الفلانى ، وحتى لا يجعلوك تغيب عنى أردت أن أراك . وعندما حسبت الأيام والأعوام كان ذلك يوم ابتداء توبتى . وقال : يا بنى ! ان قطع المسافات عمل الصغار ، وعليك بالهمة بعد هذه الزيارة ، فليس هناك شيء قط مرتبط بالحضور الى المشايخ ، ثم قال : يا فاطمة ! هات ما عندك ليأكل هذا الدرويش . فأحضرت طبقا من العنب الطازج ، ولم يكن هذا أوانه ، وكان على الطبق رطب ، ولا يمكن وجود الرطب فى فرغانه .

= فلما سلمت خرجت للطهارة ، فقصدنى السبع ، فعدت اليه وقلت : ان الأسد قصدنى . فخرج وصاح على الأسد وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفانى؟ وتنحى ... وتطهرت . فلما رجعت قال : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد . (الرسالة ج ٢ ص ٦٧٤).

(١) « فرغانة » : يقال لها « كاسان » وهى مدينة جليلة القدر ، عظيمة الأمر ، من المدن المضافة الى عمل سمرقند (البلدان ص ٥٩) يقال كان بها أربعون منبرا . وبينها وبين سمرقند خمسون فرسخا . (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٧٩) .

(٢) أوزكند : بلد بما وراء النهر ، من نواحى فرغانه ، ويقال لها : أوزجند ، وهى آخر مدن فرغانة مما يلى دار الحرب ، وينسب اليها جماعة منهم على بن سليمان بن داود الخطيبى : أبو الحسن الأوزكندى (معجم البلدان ج ١ ص ٤٠٤) .

وذات مرة كنت جالسا على تربة الشيخ أبى سعيد رحمه الله بميهنه ، وحيدا كعادتى ، فرأيت حمامة بيضاء مقبلة ، ودخلت تحت الفوطة الملقاة على تربته ، فقلت : عساها فرت من أحد . وحين نهضت نظرت تحت الفوطة ، فلم يكن هناك شيء قط . ورأيت هذا فى اليوم الثانى والثالث ، وبقيت فى عجب منه ، حتى رأيت (الشيخ) فى المنام ذات ليلة ، فسألته عن تلك الواقعة ، فقال : ان تلك الحمامة هى صفاء معاملتى التى تدخل كل يوم قبرى لمنادمتى .

ويروى أبو بكر الوراق قائلا : ذات يوم أعطانى محمد بن على الحكيم الترمذى بعض أجزاء من تصانيفه وقال : ألق هذه فى جيحون . فلما خرجت نظرت فكانت كلها طرائف لطيفة ، فلم يطاوعنى قلبى ، ووضعتها فى منزلى ، وعدت وقلت له : ألقيتها . قال : فما رأيت ؟ قلت : لم أر شيئا . قال : لم تلقها . فقلت : لقد صارت مشكلتى مشكلتين ، احداهما : لم يقول ألقها فى الماء ؟ ، والأخرى : أى برهان سيظهر ؟ ورجعت وأخذت الأجزاء وجئت الى شاطىء جيحون متألم القلب ، ورميت الأجزاء من يدى ، فرأيت الماء قد انشق وظهر صندوق مفتوح وسقطت فيه هذه الأجزاء ، وأغلق الصندوق باحكام ، وجرى الماء على حاله . فعدت وقلت له ، فقال : الآن ألقيتها . فقلت : أيها الشيخ ! أستحلفك بعزة الله أن تقول لى هذا السر . فقال : اعلم أنى كنت قد صنفت كتابا فى علم هذه الطائفة ، يصعب على جميع العقول تحقيقه ، وقد طلبه منى أخى الخضر عليه السلام ، وكانت سمكة قد أحضرت هذا الصندوق بأمره ، وأمر الله تعالى الماء أن يوصله اليه(١) .

واذا ذكرت كثيرا من هذه الحكايات فانها لا تنفد بعد ، ومرادى من هذا الكتاب اثبات أصول الطريقة فى الفروع والمعاملات . وقد عمل النقالون كتبا وجمعوا كثيرا منها ، وينشرها المذكرون فوق المنابر .

والآن أجيء بالفصول المتصلة بهذا ، فى هذا الكتاب المشبع ، حتى لا يلزم الرجوع اليها فى مكان آخر ، ان شاء الله تعالى .

---

(١) هذه الحكاية مكررة ، فقد سبق ذكرها فى ترجمة أبى بكر الوراق (انظر : ج ١ ص ٣٥٤) وأثبت الناشر فى الحواشى ما ترجمته : « وقد ذكر فى هذا الموضع فى نسخة أخرى حكاية محمد بن على الحكيم التى ينقلها أبو بكر الوراق من أنه أعطانى جزءا لألقيه فى الماء . وصارت مكررة هنا ولذا لم أكتبها » .

الكلام فى تفضيل الأنبياء على الأولياء :

اعلم أن جملة مشايخ هذه الطريقة مجمعون على أن الأولياء فى جميع الأوقات والأحوال متابعون للأنبياء ومصدقون لدعوتهم . والأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بداية النبوة . وجميع الأنبياء أولياء ، ولكن لا يكون من الأولياء نبى . والأنبياء متمكنون فى نفى صفات البشرية ، والأولياء عارية . وما يكون لهذا الفريق حالا طارئة يكون لذلك الفريق مقاما ، وما يكون مقاما لهذا الفريق يكون لذلك الفريق حجابا ، ولا يختلف فى هذا أى أحد من علماء أهل السنة ومحققى هذه الطريقة ، غير فريق من الحشوية ، وهم مجسمة أهل خرسان(١) المتكلمون بكلام متناقض فى أصول التوحيد ، لأنهم لايعرفون أصل هذه الطريقة ، ويسمون أنفسهم أولياء ، وهم أولياء حقا ولكنهم أولياء الشيطان ، ويقولون ان الأولياء أفضل من الأنبياء ، ويكفيهم هذه الضلالة أنهم يجعلون جاهلا أفضل من محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم . وفريق آخر من المشبهة الذين ينسبون الى هذه الطريقة ويجيزون — لعنهم الله — حلول ونزول الحق (فى جسم العبد) بمعنى الانتقال ، ويقولون بجواز التجزئة على ذات البارىء تعالى ، وذلك فى المذهبين المذمومين اللذين وعدت بأن أذكرهما بالتفصيل فى هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وفى الجملة فان هاتين الطائفتين اللتين تدعيان الاسلام متفقتان فى نفى

---

(١) « مجسمة أهل خراسان » : هم الكرامية . ويقول البغدادى ان الكرامية بخراسان ثلاثة أصناف : حقائقية ، وطرائقية ، واسحاقية . وهذه الفرق الثلاث لا يكفر بعضها بعضا وان كفرها سائر الفرق ، فلهذا عددناها فرقة واحدة . وزعيمها محمد بن كرام — شيخ الكرامية من المجسمة ، كان له فى خراسان من الأتباع ما يزيد على عشرين الفا ، ومثل ذلك فى أرض فلسطين . توفى سنة ٢٥٥ هـ — كان مطرودا من سجستان الى غرجستان ، وورد نيسابور فى زمان ولاية محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، وتبعه على بدعته من أهل سواد نيسابور شرذمة . وضلالات اتباعه متنوعة : فمنها أن ابن كرام دعا أتباعه الى تجسيم معبوده وزعم أنه له حد ونهاية من تحته والجهة التى منها يلاقى عرشه . وقد وصف ابن كرام معبوده فى بعض كتبه بأنه جوهر . وذكر فى كتابه أن الله تعالى مماس لعرشه وأن العرش مكان له . (انظر : « الفرق بين الفرق » ص ١٣٠ — ١٣١) .

تخصيص الأنبياء ، وكل من يعتقد نفى تخصيص الأنبياء يصير كافرا ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين دعاة وأئمة ، والأولياء متابعون لهم باحسان ، ومحال أن يكون المأموم أفضل من الامام .

وجملة القول : اعلم انه اذا وضعت أحوال وأنفاس أوقات جميع الأولياء فى جنب قدم صدق لنبى فانها تتلاشى جملة ، لأن هذه الطائفة (أى الأولياء) يطلبون ويسلكون ، وتلك (أى الأنبياء) قد وصلوا وأدركوا ، ورجعوا بأمر الدعوة ، ويحملونها لقوم .

واذا قال قائل من هؤلاء الملاحدة المذكورين — لعنهم الله — ان العادة قد جرت بأنه اذا جاء رسول من ملك الى شخص فلابد أن يكون المبعوث اليه أفضل منه ، مثلما أن الأنبياء أفضل من جبريل ، فتصورهم هذا خاطىء ، ونقول لهم : اذا أرسل ملك رسولا الى شخص وجب أن يكون المرسل اليه أفضل ، كما أرسل جبريل الى الرسل وكانوا كل منهم أفضل منه . ولكن حين يكون الرسول الى جماعة أو قوم فلا محالة أن يكون الرسول أفضل من تلك الجماعة ، كالأنبياء عليهم السلام من الأمم . ولا تقع لأى عاقل شبهة فى هذا ، ولا يخطر له اشكال ، فنفس واحد من أنفاس الأنبياء أفضل من أوقات كل الأولياء ، لأن الأولياء حين يصلون الى النهاية يخبرون عن المشاهدة ، ويخلصون من حجاب البشرية — وان كانوا عين البشر — وأول قدم للنبى تكون فى المشاهدة . وما دامت بداية هذا نهاية ذاك ، فانه لا يمكن أن يقاس هذا بذاك .

ألا ترى أن جميع طلاب الحق من الأولياء متفقون على أن مقام الجمع من التفاريق هو كمال الولاية ؟ وصورة ذلك أن العبد ، من غلبة المحبة ، يصل الى درجة يصير فيها عقله مغلوبا فى النظر الى الفعل ، وبشوقه للفاعل يراه كل العالم ، كما قال أبو على الرودبارى رحمه الله : « لو زالت عنا رؤيته ما عبدناه » ، لأننا لا ندرك شرف العبادة الا برؤيته . وهذه المعانى تكون للأنبياء بداية الحال ، لأن التفرقة لا تحدث فى أحوالهم ، ويكون نفيهم واثباتهم ومسلكهم ومقطعهم واقبالهم واعراضهم وبدايتهم ونهايتهم كلها فى عين الجمع ، كما هو الشأن فى بداية حال ابراهيم صلوات الله عليه ، اذ رأى النجم والقمر فقال « هذا ربى(١) » ، وأيضا لما رأى الشمس قال « هذا ربى » ، فلم يكن

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٧٦ .

ـ من غلبة الحق على قلبه واجتماعه فى عين الجمع ـ يرى الغير ، واذا رآه ، رآه بعين الجمع . وفى عين الرؤية تبرأ من رؤيته وقال : « لا أحب الآفلين(١) » . فابتدأ بالجمع ، وانتهى بالجمع ، فلا جرم أن تكون للولاية بداية ونهاية ولا يكون ذلك للنبوة ، فالأنبياء كانوا أنبياء مذ كانوا ، ويبقون أنبياء ما بقوا ، وكانوا كذلك فى معلوم الحق ومراده قبل أن يوجدوا .

وسئل أبو يزيد رضى الله عنه : « ما تقول فى حال الأنبياء ؟ قال : هيهات ! لا تصرف لنا أبدا فيهم ، فكل ما نتصوره فيهم كله نحن ، وقد جعل الحق تعالى اثباتهم ونفيهم فى درجة لا تصل اليها أعين الخلق ، فكما أن مراتب الأولياء خافية عن ادراك الخلق ، كذلك مراتب الأنبياء خافية عن تصرف الأولياء .

وأبو يزيد رضى الله عنه ، وكان رجلا عجيبا فى وقته ، يقول : حملوا سرنا الى السماوات فلم ينظر الى شىء ، وأروه الجنة والنار فلم يلتفت الى شىء ، وجازوا به المكونات والحجب ، فصرت طيرا ، وكنت أطير فى هواء الهوية حتى أشرفت على ميدان الأحدية ، ورأيت فيه شجرة الأزلية ، فلما نظرت كنت أنا كل ذلك(٢) ، فقلت : يا الهى ! ليس لى طريق اليك مع الأنية ، ولا معدى لى عن أنيتى ، فما ينبغى لى عمله ؟ فجاءه الأمر أن : يا أبا يزيد ! خلاصك من أنيتك منوط بمتابعة حبيبنا ، فأكتحل بتراب قدمه ، وداوم على متابعته ، وهذه حكاية طويلة ، وأهل الطريقة يسمونها « معراج بايزيد » .

والمعراج عبارة عن القرب ، فمعراج الأنبياء يكون من وجه الاظهار بالشخص والجسد ، ومعراج الأولياء يكون من وجه الهمة والأسرار ـ وأجساد الأنبياء فى الصفاء والطهر والقربة مثل قلوب الأولياء وأسرارهم ، وهذا فضل ظاهر ـ ويكون ذلك بأن يجعل الولى مغلوبا فى حالة حتى

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٧٦ .

(٢) هكذا فى الأصل ، وزيدت فى الحواشى عبارات أخرى ، وورد فى اللمع أنه حكى عن أبى يزيد أنه قال : أول ما صرت الى وحدانيته ، فصرت طيرا جسمه من الأحدية ، وجناحاه من الديمومية ، فلم أزل أطير فى هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت الى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة ، فلم أزل أطير الى أن صرت فى ميدان الأزلية ، فرأيت فيها شجرة الأحدية . ثم وصف أرضها وأصلها وفرعها وأغصانها وثمارها ، ثم قال : فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة . وتبع ذلك تفسير لهذا القول للجنيد (انظر اللمع ص ٤٦٤ وما بعدها) .

يسكر ، وعند ئذ يغيب عنه سره فى الدرجات ، ويزين بقرب الحق ، وعندما يعود الى حال الصحو تكون تلك البراهين كلها قد ارتسمت فى قلبه ، ويحصل له علمها ، فالفرق كبير بين شخص يحمل شخصه الى حيث يحمل فكر الآخر ، وبالله العون والتوفيق .

الكلام فى تفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة والمؤمنين أيضا :

يتفق أهل السنة والجماعة وجمهور مشايخ الصوفية رحمة الله عليهم أجمعين على أن الأنبياء والمحفوظين من الأولياء أفضل من الملائكة ، وذلك على خلاف المعتزلة الذين يقولون ان الملائكة أفضل من الأنبياء ، وأنهم أرفع فى الرتبة ، والطف فى الخلقة ، وأكثر طاعة للحق تعالى وتقدس ، فيجب أن يكونوا أفضل .

ونقول : الحقيقة على خلاف ما تتصورون ، فالجسد المطيع ، والرتبة الرفيعة ، والخلقة اللطيفة ليست علة لفضل الحق جل جلاله ، فالفضل لمن جعل الحق تعالى له الفضل . وكل هذا الذى تقولونه كان لابليس ولكنه ملعون ومخذول بالاجماع ، فالفضل لمن يجعل الله تعالى وتقدس له الفضل ، ويصطفيه من الخلق .

والدليل على فضل الأنبياء أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، ومن الضرورى أن يكون حال المسجود له أعلى من حال الساجد .

وان يقولوا ان الكعبة حجر جماد والمؤمن أفضل منها ويسجد لها ، فجائز أيضا أن الملائكة كانوا أفضل من آدم وسجدوا له ، نقول : لا يقول أحد أبدا ان المؤمن يسجد للكعبة أو المحراب أو الحائط ، بل الكل يقولون انه يسجد لرب الكعبة . والجميع يقولون ان الملائكة سجدوا لآدم وفقا لقوله تعالى : « اسجدوا لآدم(١) » وحين أمر الله المؤمنين قال : « واسجدوا واعبدوا ربكم(٢) » ، فالكعبة ليست مثل آدم . والمسافر اذا أراد أن يصلى لله وهو على ظهر دابة فانه اذا لم يتجه الى الكعبة يكون معذورا ، والمغمى عليهم اذا فقدوا الاستدلال على القبلة فى بادية فانهم حيثما يولوا وجوههم يكونوا قد امتثلوا أمر الله . ولم يكن للملائكة فى السجود لآدم عذر ، وذاك (أى ابليس) الذى جعل لنفسه عذرا صار ملعون الأبد وذليلا . وهذه الأدلة واضحة لمن له بصيرة .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٣٤ .

(٢) سورة « الحج » آية ٧٧ .

واعلم أيضا أنه اذا كان الملائكة مضطرين فى حق المعرفة ، فلأنهم لا شهوة لهم فى خلقتهم ، ولا حرص ولا آفة فى قلوبهم ، ولا رياء فى جبلتهم : غذاؤهم الطاعة ، ومشربهم الاقامة على الأمر . ثم ان الشهوة مركبة فى طينة آدم ، وارتكاب المعاصى محتمل منه ، وزينة الدنيا مؤثرة فى قلبه ، والحرص والحيلة منتشران فى طبعه ، وللشيطان سلطان كبير على شخصه لأنه يجرى مجرى الدم فى عروقه ، ومقرونة به النفس التى تدعوه الى كل الشرور ، فالشخص الذى يكون كل هذا وصفا لوجوده ، ومع امكان الشهوة يتعفف عن الفسق والفجور ، ومع عين الحرص يعرض عن الدنيا ، ومع بقاء وسواس الشيطان فى قلبه يرجع عن المعاصى ، ويعرض عن الآفات النفسية لينشغل بالقيام على العبادة ، والمداومة على الطاعة ، ومجاهدة النفس ، ومحاربة الشيطان ، فانه يكون فى الحقيقة أفضل من أولئك (أى الملائكة) ، لأنهم ليس فى صفاتهم معترك للشهوة ، ولا فى طباعهم ميل الى الغذاء واللذة ، ولا هم زوجة وولد ، ولا انشغال بالأهل والنسب،ولا هم محتاجون للآلة والسبب،ولا مستغرقون فى الأمل والآفة .

لعمرى انى لأعجب ممن يرى الفضل فى الأفعال ، أو العز فى الجمال ، أو العظمة فى جذب المنال ، وهو سرعان ما يرى تلك النعمة والعظمة تزول عنه ، لم لا يرى الفضل من مالك الأعيان ، والعز من رضاء السبحان ، والعظمة من المعرفة والايمان ، ليرى هذه النعمة خالدة عليه ، ويرى قلبه سعيدا بها فى الدارين ؟ !

ان جبريل الذى عبد الله آلاف السنين فى انتظار خلعة ، كانت خلعته حفظ غاشية محمد « صلى الله عليهما » حتى خدم دابته ليلة المعراج ، فكيف يكون أفضل ممن يروض النفس فى الدنيا ، ويجاهد ليل نهار ، والحق يشمله بعنايته ، ويكرمه برؤيته ، وينجيه من كل المخاطر ؟

وعندما تجاوزت نخوة الملائكة الحد ، وجعل كل منهم صفاء معاملته حجة ، وأطال لسان اللوم فى الآدميين ، أراد الحق جل جلاله أن يظهر لهم حالهم ، ويعلموا أن طهرهم محض عصمة الحق جل جلاله ولطف عنايته ، فقال لهم : اختاروا من بينكم ثلاثة يكونون أكبركم وتعتمدون عليهم ليذهبوا الى الأرض ، ويكونوا خلفاء فى الأرض ، ويدعوا الخلق الى الصلاح ، وينصفوا ويعدلوا بين الآدميين . فاختاروا ثلاثة ملائكة : واحد منهم قبل أن يصل الى الأرض رأى آفتها ، فطلب من الله تعالى أن يعود . وجاء الاثنان الى الأرض ، وقبل أن يصلا اليها ، بدل الله تعالى خلقتهما ، وجعلهما يرغبان فى الطعام والشراب ، وابتلاهما بالشهوة حتى عاقبهما بذلك ، وشاهدا فضل الآدميين على الملائكة عيانا .

وفى الجملة : فان خواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة ، وعوام المؤمنين أفضل من عوام الملائكة ، فالمحفوظون والمعصومون من الآدميين أفضل من جبريل وميكائيل عليهما السلام ، وغير المعصومين أفضل من الحفظة ، يعنى كرام الكاتبين ، والله أعلم .

وقد قيل فى هذا المعنى كلام كثير ، وقال كل من المشايخ شيئا . والله تعالى يفضل من يشاء على من يشاء ، والله تعالى أعلم .

والطف ما يتعلق بمذهب الحكيمية فى التصوف واختلاف المتصوفة مع بعضهم البعض هو ما ذكرته على سبيل الاختصار والتخفيف .

والولاية فى الحقيقة سر من أسرار الحق لا يتضح الا بالسلوك . ولا يعرف الولى غير الولى . ولو جاز اظهار هذا الأمر على كل العقلاء لما ظهر الحبيب من العدو ، ولما تميز الواصل من الغافل ، فالله تعالى أراد أن يجعل جوهر المحبة فى صدف الخلق الوضيع ، ويلقيه فى بحر البلاء ليفديه الطالبون بأرواحهم ، لمعزته ، ويقدموا الروح نثارا على ذلك البحر السالب للأرواح ، ويغوصوا فى قاع البحر ليحصل مرادهم أو يهلكوا كلية فى سبيل ذلك ؛ أو ينقضى عليهم حال الدنيا .

وقد أردت أن أطيل فى أصل هذا الكلام ولكن منعنى خوف ملالك ، ونفور طبعك ، فعطفت العنان صوب الاختصار . وهذا المقدار كاف للاحظ ؛ مريد للطريقة ، والله أعلم بالصواب .

الخـــرازيـــة

أما الخرازيون فينتمون الى أبى سعيد الخراز رضى الله عنه ، وله فى هذه الطريقة تصانيف زاهرة ، وفى التجريد والانقطاع أثر عظيم . وكان أول من عبر عن حال الفناء والبقاء(١) ، وأضمر طريقته كلها فى هاتين العبارتين . وأتكلم الآن عن معناهما ، وأورد أخطاء جماعة فيهما ، لتعرف ما هو مذهبه ، وما مقصود هذه الطائفة من هاتين العبارتين المتداولتين .

الكلام فى الفناء والبقـــاء :

« قوله تعالى : ما عندكم ينفد وما عند الله باق(٢) » . « وقوله تعالى : كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام(٣) » .

اعلم أن الفناء والبقاء على لسان العلم بمعنى ، وعلى لسان الحال بمعنى آخر . وأهل الظاهر ليسوا أكثر تحيرا فى عبارة من العبارات منهم فى هذه العبارة .

---

(١) « الفناء والبقاء » : ذكر القشيرى أن الصوفية أشاروا بالفناء الى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء الى قيام الأوصاف المحمودة .
وقسم القشيرى الفناء الى فنائين ، هما : فناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة ، ويكون بعدم هذه الأفعال . وفناؤه عن نفسه وعن الخلق ، بزوال احساسه بنفسه وبهم ، فاذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجودا . واذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق ، فنفسه موجودة والخلق موجودون ولكنه لا علم له بهم، ولا به ، ولا احساس ولا خبر ، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين ، غير محس بنفسه وبالخلق .
وجعل القشيرى فناء العبد على ثلاث مراحل : فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق . ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق . ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق . (انظـر : الرسالة جـ ١ ص ٢١١ ــ ٢١٣) .
(٢) ســورة « النحل » آية ٩٦ .
(٣) سورة « الرحمن » آية ٢٦ ، ٢٧ .

و « البقاء » على لسان العلم ومقتضى اللغة على ثلاثة أنواع :

الأول : بقاء طرفه الأول فى الفناء ، وطرفه الآخر فى الفناء ، مثل هــذه الدنيا التى لم تكن موجودة فى الابتداء ، ولا تكون موجــودة فى الانتهــاء ، وموجودة الآن .

والثانى : بقاء لم يكن موجودا قط ووجد ، ولا يفنى أبدا ، وذلك هو الجنة والنار ، والآخرة وأهلها .

والثالث : بقاء لا يمكن أبدا أنه لم يكن ، ولا يمكن أنه لا يكون ، وذلك بقاء الحق وصفاته جل جلاله ، لم يزل ولا يزال ، وهو قديم مع صــفاته . والمراد من بقائه : دوام وجوده « تعــالى الله عمــا يقــول الظــالمون » ، ولا مشاركة لأحد معه فى أوصافه .

وعلم الفناء هو أن تعلم أن الدنيا فانية . وعلم البقاء هو أن تعلم أن العقبى باقية ، لقوله تعالى : « والآخرة خير وأبقى(١) » ، وقال « أبقى » هنا على وجه المبالغة ، لأن بقاء عمر الآخرة لا يكون فى الفناء .

أما بقاء الحال وفناؤه ، فهو أنه حين يفنى الجهل فلا محــالة أن يبقى العلم ، وحين تفنى المعصية تبقى الطاعة ، وعندما يحصل للعبد العلم والطاعة فان الغفلة أيضا تفنى ببقاء الذكر . يعنى أنه حين يصير العبد عالما بالحق ويبقى بعلمه فانه يفنى به عن الجهل ، وعندما يفنى عن الغفلة يبقى بذكره ، ويكون هذا اسقاطا للأوصاف المذمومة بقيام الأوصاف المحمودة . ولكن ليس مقصود خواص أهل هذه الطريقة بهذه العبارة ما ذكرناه ، واشاراتهم فى هذا الأصل ليست بالعلم والحال .

وهم لا يستعملون الفناء والبقاء فى درجة كمال أهل الولاية ، لأنهم تحرروا من مشقة المجاهدة ، وخرجوا من قيد المقامات وتغير الأحوال ، ووصلوا الى ادراك الطلب ، ورأوا جميع المرئيات بالعين ، وسمعوا جميع المسموعات بالأذن ، وعرفوا جميع المعروفات بالقلب ، وأدركوا كل المدركات بالسر ، ورأوا فى ادراكها آفة ادراكها ، وأعرضوا عنها جملة ، وفنى القصد فى المراد ، وبلغوا الطريق ، فسقطت الدعوى وانقطعت عن المعنى ، وصارت الكرامات حجابا ، والمقامات غاشية ، ولبست الأحوال لباس الآفة ، وبقوا فى عين المراد بلا مراد من المراد ، وسقط المشرب عن الكل،وصار الأنس بالمستأنسات

---

(١) سورة « الأعلى » آية ١٧ .

هذرا ، « لقوله تعالى : ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة(١) » . وأنا أقول فى هذا المعنى :

(شـــعر عربى)

فنـــاء فنائى بفقـــد هـــوائى فصار هوائى فى الأمور هواك

« فاذا فنى العبد عن أوصافه ، أدرك البقاء بتمامه » . أى أنه اذا فنى العبد عن آفة الأوصاف فى حالة وجود الأوصاف ، بقى ففناء المراد ببقاء المراد(٢) ، فلا يكون له قرب أو بعد ، ولا تبقى له وحشة أو أنس ، ولا يكون له صحو أو سكر ، ولا فراق أو وصال ، ولا طمس أو اصطلام ، ولا أسماء واعلام ، ولا سمات وارقام . ويقول واحد من المشـــايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى :

(شـــعر عربى)

وطاح مقامى والرســـوم كلاهما فلست أرى فى الوقت قربا ولا بعدا
فنيت به عنى فبـــان لى الهـــدى فهذا ظهور الحق عنـــد الفنا قصدا

وفى الجملة : ان الفناء عن شىء لا يصح الا برؤية آفته ، ونفى ارادته ، لأن كل من تصور أن الفناء عن شىء يصح بحجاب ذلك الشىء يكون على خطأ ، فليس الأمر كأن يقول الآدمى حين يحب شيئا : اننى باق بذلك ، وعندما يكره شيئا يقول : اننى فان عنه ، لأن هذين صفة الطالب ، وليس فى الفناء محبة وعداوة ، ولا فى البقاء رؤية جمع وتفرقة .

وقد أخطأت جماعة فى هذا المعنى ، وهم يظنون أن الفناء بمعنى فقد الذات وانعدام الشخص ، وان البقاء هو أن يلحق بقاء الحق بالعبد ، وهذان كلاهما محال(٣) .

---

(١) سورة « الأنفال » آية ٤٢ .
(٢) أى : بقى فى فناء مراده ببقاء مراد الحق .
(٣) أشار السراج الى هذه الجماعة ووصفها بالضلال ، يقول : « أما القوم الذين غلطوا فى فناء البشرية ، فقد سمعوا كلام المحققين فى الفناء فظنوا أنه فناء البشرية ، فوقعوا فى الوسوسة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هى القالب ، والجثة اذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الالهية .
ولم تحسن هذه الفرقة الضالة أن تفرق بين البشرية وأخلاق البشرية ، لأن البشرية لا تزول عن البشر ، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود ، ولا لون البياض عن الأبيض ، وأخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من أنوار سلطان الحقائق . وصفات البشرية ليســـت هى عين البشرية . (اللمع : ص ٥٤٣) .

ورأيت فى بلاد الهند رجلا كان يدعى التفسير والتذكير والعلم ، وقد ناظرنى فى هذا المعنى ، فلما نظرت وجدته لم يكن يعرف الفناء والبقاء ، ولم يفرق بين المحدث والقديم .

ويعتقد كثير من جهلة هذه الطائفة بفناء الكلية ، وهذه مكابرة واضحة لأنه لا يجوز أبدا فناء الأجزاء الطينية وانقطاعها .

ونقول لهؤلاء المخطئين والجهلة : ماذا تريدون بهذا الفناء ؟ فاذا قالوا : فناء العين ، فانه محال ، واذا قالوا . فناء الوصف ، فانه يجوز فناء صفة ببقاء صفة أخرى ، لأن حوالة هاتين الصفتين الى العبد ، ومن المحال أن يقوم شخص بصفة آخر .

ومذهب النسطورية(١) من الروم ، والنصارى(٢) هو أنهم يقولون بأن مريم

---

(١) « النســـطورية » : فرقة من النصـــارى ، وهم منســـوبون الى « نسطور » وكان بطريقا بالقسطنطينية .
(٢) « النصارى » : فرق ، منهم : أصحاب « أريوس » وكان قسيسا بالاسكندرية ، ومن قوله التوحيد المجـــرد ، وأن عيسى عليه الســـلام عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السماوات والأرض . وكان فى زمن قسطنطين الأول ، أول من تنصر من ملوك الروم .
ومنهم : أصحاب بولس الشمشاطى وكان بطريقا بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان من قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام .
ومنهم : أصحاب مقدونيوس وكان بطريقا فى القسطنطينية بعد ظهور النصرانية ، وكان من قوله التوحيد المجرد وأن عيسى عبد ، مخلوق ، انسان ، نبى ، رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القـــدس وكلمة الله عز وجل ، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان .
ومنهم : البربرانية وهم يقولون بأن عيسى وأمه الهان من دون الله عز وجل ، وهذه الفرقة قد بادت (وأعظم الفرق التى تفرعت عنها) ثـــلاث فـــرق ، هى :
الملكانية : وهى مذهب جميع ملوك النصارى من الحبشـــة والنوبة ، ومذهب جميع نصارى افريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام ، وقولهم ان الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء : أب وابن وروح القدس كلها لم تزل ، وأن عيسى عليه السلام الله تام كله وانسان تام كله ليس أحدهما غير =

فنيت عن كل أوصاف الناسوت بالمجاهدة ، واتصل بها بقاء اللاهوت ، وأدركت البقاء بذلك ، حتى بقيت ببقاء الله ، وكان عيسى نتيجة ذلك ، ولم يكن تركيب عيسى من أصل الانسانية ، لأن بقاءه تحقيق لبقاء الالهية فهو وأمه والله باقون ببقاء واحد ، هو القديم ، وصفة الحق . وهذا كله يوافق قول الحشوية من المجسمة والمشبهة الذين يقولون بأن ذات الله محل الحوادث ، ويجيزون للقديم صفة المحدث .

ونقول للجميع : كيف يكون المحدث محل القديم ، والقديم محل المحدث ؟ وكيف يكون للقديم وصف محدث ، وللمحدث وصف قديم ، وجواز هذا هو مذهب الدهرية(١) ، ويبطل حدوث العالم ؟ فاما يجب أن يقال لصنع الصانع :

= الآخر ، وأن الانسان هو الذى صلب وقتل ، وان الاله منه لم ينله شيء من ذلك ، وأن مريم ولدت الاله والانسان ، وانهما معا شيء واحد ابن الله تعالى .

والنسطورية : وقالت مثل ذلك الا أنهم قالوا ان مريم لم تلد الاله وانما ولدت الانسان ، وأن الله تعالى لم يلد الانسان وانما ولد الاله ؛ وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان .

واليعقوبية : وقالت ان المسيح هو الله تعالى نفسه ، مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر ، ثم قام ورجع كما كان ، وأن الله تعالى عاد محدثا ، وأن المحدث عاد قديما ، وأنه تعالى هو كان فى بطن مريم محمولا به . وهم فى أعمال مصر وجميع النوبة والحبشة وملوك الأمتين المذكورتين (الفصل فى الملل ص ٤٨ — ٤٩) .

(١) « الدهرية » : يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع . (الفرق بين الفرق ص ١٧٧) . وذهبوا الى أن العالم لم يزل ، واعترضوا على سائر الناس الذين يقولون بأن العالم محدث ، لم يكن ثم كان .

فمما اعترضوا به أن قالوا : لم نر شيئا الا حدث من شيء أو فى شيء ، فان كان العالم محدثا يكون أحدثه (البارى) لأنه (علة العالم) ، أو أحدثه لعلة (أخرى) ، فان كان لأنه (علته) ، فالعالم لم يزل لأن محدثه لم يزل . واذ هو علة خلقه ، فالعلة لا تفارق المعلول ، وما لم يفارق من لم يزل ، فهو أيضا لم يزل .

وان كان أحدثه لعلة ، فتلك العلة لا تخلو من أحد وجهين ، اما أن تكون لم تزل ، واما أن تكون محدثة . =

« قديم » ، أو أن كلاهما محدث بامتزاج المخلوق مع غير المخلوق وحلول غير المخلوق فى المخلوق ، ويكفيهم هذا الخسران ، لأنهم اذا قالوا بأن القديم محل الحادث ، أو أن الحادث محل القديم ، أو أن الصنع والصانع قديمان ، واذا صار البرهان ضرورة ، لوجب أن يقال للمحدث : «صنع» ، ولصانعه : « محدث » ، لأن محل الشيء يكون مثل عين الشيء ، فعندما يكون المحل محدثا يجب أن يكون الحال محدثا أيضا ، فيلزم لهذا كله أن يقال للمحدث : « قديم » ، أو للقديم « محدث » ، وكلا هذين ضلالة . وفى الجملة : ان كل شيء يكون موصولا أو مقرونا أو متحدا أو ممتزجا بشيء يكون حكم هذين الشيئين واحدا .

اذن : بقاؤنا صفتنا ، وفناؤنا صفتنا ، وفى تخصيص أوصافنا يكون فناؤنا مثل بقائنا ، وبقاؤنا مثل فنائنا ، فالفناء وصف يكون ببقاء وصف آخر .

وأيضا : اذا عبر أحد عن فناء لا تعلق للبقاء به ، فجائز . واذا عبر عن بقاء لا تعلق للفناء به ، فجائز أيضا ، لأن المراد من ذلك : فناء ذكر الغير ، وبقاء ذكر الحق . « من فنى من المراد بقى بالمراد » ، لأن مرادك فان ، ومراد الحق باق . وحين تكون قائما بمرادك ، يفنى مرادك ، ويكون قيامك بالفناء ، وأيضا حينما تكون متصرفا بمراد الحق ، يبقى مراد الحق ، ويكون قيامك بالبقاء .

ومثال هذا ان كل ما يقع فى سلطان النار ، يصير على صفتها ، بقهرها . وكما أن سلطان النار يبدل وصف الشيء فى الشيء ، فسلطان ارادة الحق أولى من سلطان ارادة النار . ولكن تصرف النار هذا فى وصف الحديد ، والعين هى هى ، فلا يصير الحديد نارا أبدا . والله أعلم .

فصل : ولكل من المشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى لطيفة بالرمز : يقول أبو سعيد الخراز رضى الله عنه ، وهو صاحب المذهب : « الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية » : أى أن فى فعل العبودية آفة ، ويصل العبد الى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله ، ويفنى عن رؤية فعله ، ويبقى برؤية فضل الله تعالى ، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه ، لأن ما هو مقرون بالعبد من فعله يكون كله

= فان كانت لم تزل ، فمعلولها لم يزل ، فالعالم لم يزل .
وان كانت محدثة ، فلأنه أحدثها ، فهذا يوجب أن العلة لم تزل ، بالمعنى المبين آنفا (انظر : الفصل فى الملل ص ٩ وما بعدها) .

ناقصا ، وما هو موصول به من الحق يكون كله كاملا ، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته ، فانه يبقى بجمال الهية الحق .

ويقول أبو يعقوب النهرجورى رحمه الله : « صحة العبودية فى الفناء والبقاء » ، لأنه مالم يتبرأ العبد من كل نصيبه ، لا يليق للخدمة باخلاص ، فالتبرؤ من نصيب الآدمية هو الفناء ، والاخلاص فى العبودية هو البقاء .

ويقول ابراهيم بن شيبان(١) رحمه الله : « علم الفناء والبقاء يدور على اخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة(٢) » . يعنى أنه عندما يقر العبد بوحدانية الحق ، يرى نفسه مغلوبا ومقهورا لحكم الحق ، والمغلوب يفنى فى غلبة الغالب . وحين يصح عليه فناؤه يقر بعجزه ، ولا يرى له حيلة غير العبودية ، فيتمسك بعتبة الرضا . وكل من يعبر عن الفناء والبقاء بغير هذه العبارات — يعنى بالعبارة التى ترى الفناء فناء العين ، والبقاء بقاء العين — فهذه هى الزندقة ، ومذهب النصارى ، كما مر ذكره من قبل .

ويقول صاحب الكتاب — رحمه الله — ان كل الأقاويل من وجه المعنى قريبة من بعضها البعض ، ولو أنها مختلفة فى العبارة . وحقيقة هذا كله هو أن فناء العبد عن وجوده يكون برؤية جلال الحق وكشف عظمته ، حتى ينسى الدنيا والعقبى فى غلبة جلاله ، وتبدو الأحوال والمقامات حقيرة فى نظر همته ، وتتلاشى الكرامات فى حاله ، فيفنى عن العقل والنفس ، ويفنى أيضا فى عين الفناء عن الفناء ، فينطق لسانه بالحق ، ويخشع جسده ويخضع ، كما هو الحال فى ابتداء اخراج الذرية من ظهر آدم عليه السلام ، بدون تركيب الآفات ، فى حال عهد العبودية .

---

(١) « ابراهيم بن شيبان : أبو اسحاق القرمسينى ، ويسميه الجامى : الكرمانشاهى . شيخ الجبل فى وقته ، له مقامات فى الورع والتقوى يعجز عنها الخلق . صحب أبا عبد الله المغربى وابراهيم الخواص ، مات سنة سبع وثلاثين وثلثمائة . وكان شديدا على المدعين ، متمسكا بالكتاب والسنة ، لازما لطريق المشايخ والأئمة (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٠٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٥٥ ، نفحات الأنس ص ٢١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٤٠٤) .

ويقول أحد المشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

لا كنت ان كنت أدرى كيف السبيل اليكا
أفنيتنى عن طبعى فصرت أبكى عليكا

ويقول آخر :

ففى فنائى فناء لفنائى ... وفى فنائى وجدت أنت
محوت اسمى ورسم جسمى ... سئلت عنى فقلت أنت

هذه هى أحكام الفناء والبقاء . وقد ذكرت طرفا منها فى بابى « الفقر » و « التصوف » ، وحيثما أعبر عن الفناء والبقاء فى هذا الكتاب ، فالمراد هو هذا . وهذا قانون مذهب الخرازيين وأصل ذلك الشيخ العظيم الطيب الحال ، وهو أصل طيب ، والفضل الذى يكون دليل الوصل يكون على أصل . وهذه العبارة مشهورة فى جريان كلام هذه الطائفة ، والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

الخفيفية

أما الخفيفيون فينتمون الى أبى عبد الله محمد بن خفيف ، وكان من كبراء سادات هذه الطائفة ، ومن أعزة الوقت « رضى الله عنهم وعن جميع أسلافهم » ، وكان عالما بعلوم الظاهر والباطن ، وله تصانيف معروفة فى فنون علم الطريقة ، ومناقبه أشهر من أن يمكن احصاؤها جميعا . وفى الجملة : كان رجلا عزيز الحال ، عزيز النفس ، ومعرضا عن الشهوات النفسية . وسمعت أنه كان قد تزوج أربعمائة مرة ، وذلك لأنه كان من أبناء الملوك ، وعندما تاب كان أهل شيراز يتقربون اليه كثيرا ، ولما عظم حاله كانت بنات الملوك والرؤساء يطلبن أن يعقدن عليه للتبرك ، فكان يقبل ذلك ، ويطلقهن قبل الدخول(١) . ولكن كان له فى عمره أربعون امرأة : مثنى وثلاث متفرقات ، كن خادمات فراشه . وصحبته واحدة منهن أربعين عاما ، وكانت ابنة وزير .

وسمعت من الشيخ أبى الحسن على بن بكران الشيرازى رحمه الله أنه فى يوم من الأيام كانت كل واحدة من النسوة اللائى كن فى حكمه تحكى عنه حكاية ، وقد اتفقن جميعا على أنهن لم يكن قد رأين الشيخ أبدا فى الخلوة بحكم أسباب الشهوة . وظهر فى قلب كل واحدة وسواس وتعجبن — وقبل ذلك كانت كل واحدة منهن قد ظنت أنها مخصوصة بذلك — وقلن : لا تعرف سر صحبته غير ابنة الوزير ، لأنها فى صحبته منذ سنوات وهى أحب نسائه اليه . واخترن اثنتين من بينهن ، وبعثن بهما اليها قائلات : لقد كان للشيخ معك انبساط أكثر ، فيجب أن تطلعينا على سر صحبته . قالت : حين جعلنى الشيخ فى حكمه ، جاء الى شخص وقال : ان الشيخ سيجىء الليلة الى بيتك . فطبخت أطعمة جيدة ، وأكثرت من تزيين وتجميل نفسى . فلما جاء ، أحضروا الطعام ودعونى . فنظر برهة الى ، وبرهة الى الطعام ، ثم أخذ بيدى وأدخلها فى كمه ، وكانت هناك خمس عشرة عقدة تقع بين صدره وسرته ، وقال : يا بنت الوزير ! سلى ما هذه العقد . فسألته ، فقال : كل هذه قد عقدها لهب الصبر وشدته ، لقد صبرت عن مثل هذا

(١) الأصل فى الزواج عند أهل السنة : التأبيد ، أى الدوام ، وأن تكون النية معقودة على هذا . أما الزواج على نية التوقيت كزواج المتعة أو ما يشبهه (كما فى هذه الحالة) ، فباطل شرعا عند أهل السنة .

الوجه وعن مثل هذا الطعام ، قال هذا ونهض . وكانت هذه أكثر اجتراءاته معى .

وطراز مذهبه فى التصوف هو الغيبة والحضور ، وهو يعبر عن ذلك ، وسأبينه بمقدار قوتى ان شاء الله العزيز .

الكلام فى الغيبة والحضور :

هذه عبارات طردها مثل عكسها ، ومن ثم تبدو متضادة فى عين المعنى المقصود ، وهى مستعملة ومتداولة بين أرباب اللسان وأهل المعنى .

فالمراد من الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين ، حتى يصير الحكم الغيبى له مثل الحكم العينى .

والمراد من الغيبة : غيبة القلب عما دون الحق ، الى حد أن يغيب عن نفسه ، حتى أنه بغيبته عن نفسه لا يرى نفسه . وعلامة هذا : الاعراض عن حكم الرسوم ، مثلما يكون النبى معصوما عن الحرام ، فالغيبة عن النفس حضور بالحق ، والحضور بالحق غيبة عن النفس ، كأن يكون كل غائب عن نفسه حاضرا بالحق ، وكل حاضر بالحق غائبا عن نفسه . فمالك القلب هو الله عز وجل ، فاذا تهرت جذبة من جذبات الحق جل جلاله قلب الطالب ، جعلت الغيبة لديه مثل الحضور ، وارتفعت الشركة والقسمة ، وانقطعت الاضافة الى النفس ، كما يقول واحد من المشايخ رحمهم الله :

(شعر عربى)

ولى فؤاد وأنت مالكه بلا شريك فكيف ينقسم

ولما لم يكن للقلب مالك سواه ، فاذا غيبه أو أحضره يكون فى تصرفه .

هذا هو مجمل برهان مسلك الأحباب فى حكم النظر بعين الجمع . ولكن عندما يحدث الفرق ، فللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا كلام ، ففريق يقدم الحضور على الغيبة ، وفريق يقدم الغيبة على الحضور ، كما بينا فى الصحو والسكر ، ولكن الصحو والسكر يدل على بقاء الأوصاف ، والغيبة والحضور تدل على فناء الأوصاف ، فهذه أعز من تلك على التحقيق .

ومن يقدمون الغيبة على الحضور ، وهم : ابن عطاء ، والحسين بن منصور ، وأبو بكر الشبلى ، وبندار بن الحسين ، وأبو حمزة البغدادى ، وسمنون المحب رضى الله عنهم ، وجماعة من العراقيين ، يقولون : ان الحجاب الأعظم فى طريق الحق هو أنت ، فاذا غبت عن نفسك فنيت آفات وجودك فيك ،

وتغيرت قاعدة الحال ، فصارت مقامات المريدين كلها حجابا لك ، وأحوال الطالبين موضع آفتك ، وصارت الأسرار زنارا ، والمثبتات حقيرة فى همتك ، وأغمضت عينك عن نفسك وعن الغير ، واحترقت أوصاف البشرية فى مقرها بشعلة القرب . وتكون صورة هذا : مثلما أخرجك الله تعالى فى حال غيبتك من ظهر آدم ، وأسمعك كلامه العزيز ، وخصك بخلعة التوحيد ولباس المشاهدة ، فغبت عن نفسك ، وحضرت بالحق دون حجاب . واذا حضرت بصفتك ، غبت عن قرب الحق ، فهلاكك فى حضورك . وهذا هو معنى قول الله عز وجل : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم(١) » .

وأيضا : الحارث المحاسبى ، والجنيد ، وسهل بن عبد الله ، وأبو حفص الحداد ، وحمدون القصار ، وأبو محمد الجريرى ، والحصرى ، ومحمد بن خفيف صاحب هذا المذهب رضى الله عنهم أجمعين ، ومعهم جماعة أخرى على أن الحضور مقدم على الغيبة ، لأن كل ألوان الجمال منعقدة فى الحضور . والغيبة عن النفس طريق الى الحق ، فاذا أقبلت الحضرة صار الطريق آفة ، فكل من يغيب عن نفسه يكون لا محالة حاضرا بالحق .

وفائدة الغيبة : الحضور ، والغيبة بدون الحضور جنون . ويلزم ليكون المقصود من هذه الغيبة الحضور : اما الغلبة أو الموت أو الغفلة ، فاذا وجد المقصود سقطت العلة ، كما قيل : « ليس الغائب من غاب من البلاد ، انما الغائب من غاب من المراد . وليس الحاضر من ليس له مراد ، انما الحاضر من ليس له فؤاد حتى استقر فيه المراد » .

ولواحد من المشايخ رحمة الله عليهم بيتان فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

من لم يكن بك فانيا عن نفسه ... وعن الهوى والانس والأحباب
فكأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظ أو لحسن مآب

ومشهور أن واحدا من مريدى ذى النون قصد أبا يزيد ، وعندما وصل الى باب صومعته ودق الباب ، قال أبو يزيد : من أنت ؟ ومن تريد ؟ قال : أريد أبا يزيد . قال : من يكون أبو يزيد ؟ وأين،وأى شىء هو ؟ وقد بحثت منذ

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٩٤ .

مدة عن أبى يزيد ولم أجده . ولما عاد ذلك الشخص وأخبر ذا النون قال رحمه الله : « أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين الى الله(١) » .

وجاء رجل الى الجنيد رضى الله عنه وقال : كن حاضرا معى لحظة لأقول لك بضع كلمات . قال : أيها الفتى ! انك تطلب منى الشىء الذى أطلبه أنا منذ زمن بعيد ، فمنذ سنوات طوال وأنا أريد أن أكون حاضرا بالحق لحظة فلا أستطيع ، فكيف أستطيع فى هذه الساعة أن أكون حاضرا بك ؟

ففى الغيبة وحشة الحجاب ، وفى الحضور راحة الكشف ، ولا يكون الكشف فى جميع الأحوال مثل الحجاب .

ويقول الشيخ أبو سعيد رحمه الله فى هذا المعنى :

(بيت عربى)

تقشع غيم الهجر عن قمر الحب
وأسفر نور الصبح عن ظلمة الغيب(٢)

وللمشايخ فى الفرق بينهما لطيفة هى حال ؛ ومن حيث الظاهر قال . وهذه العبارات قريبة من بعضها البعض ، لأن الحضور بالحق والغيبة عن النفس سواء ، ومن لا يكن غائبا عن نفسه لا يكن حاضرا بالحق ، والحاضر غائب ، مثل جزع أيوب صلوات الله عليه فى حال ورود البلاء ، فهو لم يكن بنفسه ، بل كان في تلك الحال غائبا عن نفسه ، فلم يفصل الحق تعالى عين ذلك الجزع عن الصبر ، وعندما قال « مسنى الضر(٣) » ، قال الله تعالى : « انا وجدناه صابرا(٤) » ، وهذا الحكم بعينه عيان فى هذه القصة ، فتأمله جيدا .

---

(١) ورد فى الرسالة مع اختلاف يسير (انظر : الرسالة جـ١ ص ٢١٦).
(٢) ورد فى أسرار التوحيد ضمن بيتين على النحو التالى :
تقشع غيم الهجر عن قمر الحب ... وأشرق نور الصبح فى ظلمة العتب
وجاء نسيم الاعتذار مخففا ... فصادفه حسن القبول من القلب
(أسرار التوحيد (الأصل الفارسى) ص ١٣٩ ويقابلها ص ١٥٣ من الترجمة العربية) .
(٣) سورة « الأنبياء » آية ٨٣ .
(٤) سورة « ص » آية ٤٤ .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال : كان أهل السماوات والأرض مدة يبكون على حيرتى ، وكنت أيضا أبكى هكذا على غيبتهم ، والحال الآن انى لا أدرى بهم ولا بنفسى . وهذه اشارة طيبة الى الحضور .

هذا هو معنى الغيبة والحضور أوردته مختصرا ، لتكون قد عرفت مسلك الخفيفية ، وتعرف أيضا ما مراد هؤلاء القوم من الغيبة والحضور . ولو غولى أكثر من هذا لآل الأمر الى التطويل ومذهبنا فى هذا الكتاب الاختصار .

السيارية

أما السياريون فينتمون الى أبى العباس السيارى رضى الله عنه ، وكان امام مرو فى كل العلوم ، وصاحب أبى بكر الواسطى . ويوجد اليوم فى مرو ونسا طبقة كبيرة من أصحابه ، ولم يبق أى مذهب من مذاهب أهل التصوف على حاله الا مذهبه ، فلم تخل مرو أو نسا فى أى وقت من قدوة كان يرعى أصحابه فى اقامة مذهبه الى يومنا هذا . ولأهل نسا من أصحابه مع أهل مرو رسائل لطيفة — وكان كلامهم بينهم بالمراسلة — وقد رأيت بعض هذه الرسائل فى مرو ، وهى جيدة جدا . وبناء عباراتهم على الجمع والتفرقة ، وهذا لفظ مشترك بين كل أهل العلوم ، وكل طائفة تستخدم هذا اللفظ فى صنعتها لتفهيم عباراتها ، ولكن مراد كل طائفة منه يختلف عن الأخرى ، فالحسابيون مثلا مرادهم بالجمع والتفرقة : اجتماع الأعداد وافتراقها ، والنحويون : اتفاق الأسماء اللغوية وافتراق معانيها ، والفقهاء : جمع القياس وتفرقة النص أو عكس هذا ، والأصوليون : جمع صفات الذات وتفرقة صفات الفعل ، ولكن مراد هذه الطائفة به ليس كل هذا الذى ذكرناه .

والآن : أورد مقصود هذه الطائفة بهذه العبارات ، واختلاف مشايخهم فيها ليعلم لك حقيقة هذا ، ان شاء الله تعالى .

الكلام فى الجمع والتفرقة :

جمع الله تعالى الخلق فى الدعوة فى قوله تعالى « والله يدعوا الى دار السلام(١) » ، ثم فرقهم فى حق الهداية فى قوله تعالى : « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم(٢) » ، فدعا الجميع من وجه الدعوة ، وطرد جماعة بحكم اظهار المشيئة : جمع ، وأمر الجميع . وفرق ، فطرد جماعة بالخذلان ، وقبل جماعة بالتوفيق . وأيضا جمع وفرق بالنهى : فمنع جماعة العصمة ، وجماعة الميل الى الآفة ، فالجمع بهذا المعنى هو الحقيقة ، والسر المعلوم ، ومراد الحق ، والتفرقة اظهار أمره ونهيه ، كما أمر ابراهيم أن اذبح اسماعيل ، وأراد الا يذبحه ، وقال لابليس : اسجد لآدم ، وأراد الا يفعل ، ولم يفعل . (وقال لآدم : لا تأكل القمح ، وأراد أن يأكل(٣) ، وأمثال هذا

(١ ، ٢) سورة « يونس » آية ٢٥ .
(٣) هذه العبارة ترجمت من الحاشية .

كثير ، « فالجمع ما جمع بأوصافه ، والتفرقة ما فرق بأفعاله » ، وهذا كله انقطاع للارادة ، وترك لتصرف الخلق فى اثبات ارادة الحق .

وفى هذا القدر الذى ذكرته فى الجمع والتفرقة اجماع لكل أهل السنة والجماعة ، باستثناء المعتزلة ، ومعهم مشايخ هذه الطريقة المختلفون من بعد هذا فى استعمال هذه العبارات ، فجماعة يطلقونها على التوحيد ، وجماعة على الأوصاف ، وجماعة على الأفعال .

فمن يطلقونها على التوحيد يقولون ان للجمع درجتين : واحدة فى أوصاف الحق ، والأخرى فى أوصاف العبد ، فالتى فى أوصاف الحق هى سر التوحيد وكسب العبد منقطع عنها ، والتى فى أوصاف العبد عبارة عن التوحيد بصدق النية وصحة العزيمة ، وهذا قول أبى على الرودبارى .

وتقول الجماعة الأخرى — وهم الذين يطلقونها على الأوصاف — أن الجمع صفة الحق ، والتفرقة فعله ، وكسب العبد منقطع عنهما ، لأنه لا منازع له فى الالهية ، فالجمع ذاته وصفاته ، لأن الجمع : التسوية فى الأصل ، ولا يتساوى فى القدم الا ذاته وصفاته ، ولا يجتمع الخلق فى افتراقهما بالعبارة والتفضيل .

ومعنى هذا هو أن له تعالى صفات قديمة ، وهو « تعالى الله » مخصوص بها ، وقيامها به ، واختصاص وجودها به . ولا يكون هو وصفاته اثنين ، لأنه لا يجوز الفرق والعدد فى وحدانيته ، وبهذا الحكم لا يجوز الجمع فى هذا المعنى . أما التفرقة فى الحكم فهى أفعال الله تعالى ، لأنها كلها متفرقة فى الحكم ، فلأحدها حكم الوجود ، وللآخر حكم العدم ، لأنها ممكنة الوجود ، ولواحد منها حكم الفناء ولآخر حكم البقاء .

وجماعة أخرى أيضا يطلقونها على العلم ، ويقولون : « الجمع : علم التوحيد ، والتفرقة : علم الأحكام » ، فعلم الأصول هو الجمع ، وعلم الفروع هو التفرقة . وقال مثل هـذا أيضا أحد المشايخ رحمـه الله : « الجمع ما اجتمع عليه أهل العلم ، والفرق ما اختلفوا فيه » .

وأيضا مراد جمهور محققى المتصوفة « نضر الله وجوههم » فى مجارى عباراتهم ورموزهم بلفظ التفرقة : المكاسب ، وبلفظ الجمع : المواهب ، أى المجاهدة والمشاهدة ، فما يحصل عليه العبد فى هـذا الطـريق عن طريق المجاهدة يكون كله تفرقة ، وما يكون محض عناية الحق تعالى وهدايته ، فهو جمع ، وفيه عز العبد ، لأن وجود أفعاله وامكان مجاهداته يتخلصان من

آفة الفعل بجمال الحق ، ويجد أفعاله مستغرقة فى أفضال الحق ، ومجاهداته منفية فى حق الهداية ، ويكون قيامه كله بالحق ، والحق تعالى محول أوصافه ، وكل فعله اضافة الى الحق ليتحرر من نسبة كسب نفسه ، كما أخبرنا النبى عليه السلام « فى قوله عليه السلام خبرا عن الله تعالى : لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبـه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ولسانا ، بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يبطش(١) » : أى أنه يصـير فى ذكرنا مغلوب ذكرنا ، فيفنى كسبه من ذكره ، ويصير ذكرنا سلطان ذكره ، وتنقطع عن ذكره نسبة الآدمية فيكون ذكره ذكرنا ، حتى أنه يكون فى حال الغلبة بتلك الصفة التى قال فيها أبو يزيد رحمه الله : « سبحانى سبحانى ما أعظم شأنى(٢) » ، فما قاله علامة قوله ، والقائل هو الحق ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحق ينطق على لسان عمر(٣) » .

وحقيقة هذا هى أنه حين يظهر قهر من الحق سلطانه على وجود الآدمى ، فانه يأخذه من نفسه ، حتى يصير نطقه (أى العبد) كله نطقه (أى الحق) ، مع الاستحالة ، من غير أن يكون للحق تعالى وتقدس امتزاج بالمخلوقات ، واتحاد بالمصنوعات ، أو أن يكون حالا فى الأشياء « تعالى الله عن ذلك وعما يصفه الملاحدة علوا كبيرا » ، فيجوز اذن أن تصير المحبة من الحق سلطانا على قلب العبد ، وبغلبتها وافراطها يعجز العقل والطبايع عن حملها ، ويسقط أمره عن كسبه ، عندئذ يسمون هذه الدرجة بالجمع ، مثلما كان الرسول عليه السلام مستغرقا ومغلوبا فحدث منه فعل ، فدفع الله تعالى النسبة عن فعله ، وقال ان ذلك كان فعلى لا فعلك ، وان دل على فعلك : « وما رميت اذ رميت

---

(١) حديث قدسى : رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة .

(٢) وردت فى اللمع اشارة الى هذا القول ودافع السراج عن أبى يزيد ضد من اتهموه بالكفر بسبب هذه المقالة (انظر اللمع ص ٤٧٢) .

(٣) رواه أحمد والترمذى عن ابن عمر ، وأبو داود والحاكم عن أبى ذر ، والطبرانى عن بلال : « ان الله تعالى جعل الحق على لسـان عمر وقلبه » . (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١١٥) .

ولكن الله رمى(١) » ، وكما حدث أيضا فعل من هـذا النوع من داود عليه السلام ، فقال له : « وقتل داود جالوت(٢) » وكان هذا فى حال التفرقة . وفرق بين من يضيف فعله اليه وهو محل الآفة والحوادث ، ومن يضيف فعله لنفسه وهو قديم ومنزه من الآفة ، فحينما يظهر على الآدمى فعل ليس من جنس أفعال الآدميين يكون فاعله الحق جل وعلا لا محـالة . والاعجاز والكرامات كلها مقرونة بهذا ، فالأفعال المعتادة كلها تفرقة ، والناقضة للعادة جمع ، لأن الذهاب الى (قاب قوسين(٣)) فى ليلة ليس معتادا ، ولا يكون غير فعل الحق . وعدم الاحتراق بالنار(٤) ليس معتادا ، ولا يكون غير فعل الحق ، فالحق تعالى أعطى أنبياءه وأولياءه هذه الكرامات ، وأضاف فعله اليهم ، وأفعالهم الى نفسه ، لأن فعل الأحبة فعله ، وبيعتهم بيعته ، وطاعتهم طاعته ، قال عز من قائل : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله(٥) » . وقال أيضا : « من يطع الرسول فقد أطاع الله(٦) » ، فأولياؤه مجتمعون بالأسرار ، ومفترقون باظهار المعاملة ، لتكون المحبة محكمة باجتماع الأسرار ، وتكون اقامة العبودية صحيحة بافتراق الأظهار ، كما يقول واحد من كبار المشايخ فى حال الجمع :

(شـــعر عربى)

قد تحققت بسرى فتناجاك لسـانى
واجتمعنـا لمعـان وافترقنـا لمعـانى
فلئن غيبـك التعظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى(٧)

---

(١) سورة « الأنفال » آية ١٧ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٥١ .
(٣) اشارة الى قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسـين أو أدنى » سورة « النجم » آية ٧ ، ٨ .
(٤) اشـارة الى القـاء ابراهيم فى النار ، وعدم احراقها له بحـفظ الحق تعـالى .
(٥) سورة « الفتح » آية ١٠ .
(٦) سورة « النساء » آية ٧٩ .
(٧) نسب القشيرى هذين البيتين الى الجنيد، وأوردهما على النحو التالى:
وتحققتك فى سرى فناجاك لسانى ... فاجتمعنا لمعانى وافترقنا لمعانى
ان يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى ... فقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى
(الرسالة ج ١ ص ٢١٠) .

فقال لاجتماع الأسرار : جمعا ، ولمناجاة اللسان : تفرقة ، ثم بين الجمع والتفرقة كلاهما فى نفسه ، وجعل نفسه قاعدتهما . وهذا كلام لطيف .

فصل : ويبقى هنا الاختلاف الذى بيننا وبين الجماعة التى تقول ان اظهار الجمع نفى للتفرقة لأنهما متضادان ، اذ أنه اذا استولى سلطان الهداية سقطت ولاية الكسب والمجاهدة .

وهذا تعطيل محض ، لأنه طـالما كان امكان المعـاملة وقدرة الكسب والمجاهدة فان ذلك لا يسقط عن العبد مطلقا ، لأن الجمع غير منفصل عن التفرقة : كالنور من الشمس ، والعرض من الجوهر ، والصفة من الموصوف، فلا تنفصل المجاهدة عن الهداية ، ولا الشريعة عن الحقيقة ، ولا الادراك عن الطلب . ولكن يمكن أن تكون المجاهدة مقدمة أو تكون مؤخرة ، ومن تكن المجاهدة مقدمة له تكن المشقة عليه أكثر ، لأنه يكون فى الغيبة ، ومن تكن المجاهدة مؤخرة له لا يكن عليه عناء وكلفة ، لأنه يكون فى الحضرة . ومن يبد له نفى مشرب الأعمال نفيا لعين العمل يكن على خطأ عظيم .

ويجوز أن يصل العبد الى درجة ينظر فيها الى كل أوصافه المحمودة بعين العيب ، ويراها ناقصة . وعندما يرى أوصافه المحمودة معيوبة ومعلولة ، فانه يلزم أن يرى أوصافه المذمومة أكثر عيبا . وقد أوردت ذلك لأنه قد وقع لقوم من الجهال غلط فى هذا المعنى — وهو أن ذلك مقرون بالاتحاد — لذا يقولون ان ادراك أى شىء غير مرتبط بجهدنا ، وان أفعالنا وطاعتنا معيوبة، ومجاهداتنا ناقصة ، فعدم فعلها أولى من فعلها .

ونقول لهم : نحن وأنتم معا نضع لأعمالنا فعلا — وللأفعال محل العـلة ومنبع الآفة — فلا محالة أنه يجب أن يوضع فعل لغير المعمـول أيضـا . ولمـا صارا كلاهما فعلا ، والفعل محل العلة ، فلماذا اذن يعتبرون غـير المعمول أولى من المعمول (وكلاهما فعل) ؟ وهذا خسران ظاهر وغبن فاحش . وقد جاء هذا فرقا حسنا بين الكفر والايمان ، لأن المؤمن والكافر متفقان على أن أفعالهما محل العلة ، فالمؤمن بحكم الطاعة يرى المعمول أولى من غير المعمول ، والكافر بحكم العصيان يرى غير المعمول أولى من المعمول.

فالجمع هو أنه فى رؤية آفة التفرقة لا يسقط عنه حكم التفرقة .

والتفرقة هى أنه فى حجاب الجمع يمكن جعل التفرقة جمعا . وفى هذا المعنى يقول المزين الكبير(١) رحمه الله : « الجمع : الخصوصية ، والتفرقة : العبودية ، موصول أحدهما بالآخر غير مفصول عنه » . لأن علامة الخصوصية حفظ العبودية ، فحينما لا يكون المدعى فى المعاملات قائما بالمعاملات ، يكون كاذبا فى دعواه . ويجوز أن يرتفع عن العبد ثقل المجاهدة وعناء الكلفة فى أداء حق المجاهدة والتكليف ، ولا يجوز أن ترتفع عين المجاهدة والتكليف فى عين الجمع الا بعذر واضح يكون عاما فى حكم الشريعة . وأنا أبين هذا ليصير معلوما لك على وجه أفضل .

اعلم أن الجمع على نوعين : يقال لأحدهما : جمع السلامة ، وللآخر : جمع التكسير .

وجمع السلامة هو أنه فى غلبة الحال وقوة الوجد وقلق الشوق التى يوجدها الحق تعالى فى العبد ، يكون الحق تعالى حافظا له ، ويجرى الأمر على ظاهره ، ويبقيه على أدائه ، ويزينه بالمجاهدة ، كما كان سهل بن عبد الله ، وأبو حفص الحداد ، وأبو العباس السيارى صاحب المذهب ، وأبو يزيد البسطامى ، وأبو بكر الشبلى ، وأبو الحسن الحصرى وجماعة آخرون — رضوان الله عليهم أجمعين — دائما مغلوبين حتى يحين وقت الصلاة ، عندئذ يعودون الى حالهم ، فاذا صلوا غلبوا ثانية . لأنه طالما كنت فى محل التفرقة فأنت تجرى الأمر ، وحين يجذبك فهو أولى بأمره أن يحفظه عليك لكلا معنيين : أولهما : حتى لا تزول علامة عبوديتك ، والثانى : حتى يقوم بحكم وعده (حيث قال) : انى لن انسخ أبدا شريعة محمد .

وجمع التكسير هو أن يكون العبد فى الحكم والها ومدهوشا ، ويكون حكمه حكم المجانين ، فواحد من هذين يكون معذورا والآخر مشكورا ، والمشكور يكون حاله نيرا جدا وأقوى ممن يكون معذورا .

وفى الجملة : اعلم انه ليس للجمع مقام مخصوص ، ولا حال مفرد ، لأن الجمع جمع الهمة فى معنى مطلوبك ، ويكون كشف هذا المعنى لطائفة فى

---

(١) المزين : أبو الحسن على بن أحمد ، من أهل بغداد ، صحب الجنيد وسهل بن عبد الله ، وأقام بمكة مجاورا ومات بها . توفى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٨٢ ، الرسلة ج ١ ص ١٦٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٨ ، نفحات الانس ص ١٦١) .

المقامات ، ولطائفة فى الأحوال . وفى كلا الوقتين يحصل مراد صاحب الجمع ببقائه فى نفى المراد ، « لأن التفرقة فصل ، والجمع وصل » ، وهذا يصح فى كل الأشياء ، مثل جمع همة يعقوب بيوسف عليهما السلام ، اذ لم يكن قد بقى له شىء غير همته . ومثل جمع همة المجنون فى ليلى ، لأنه حينما لم يكن يراها كان كل العالم وكل الموجودات عنده صورة ليلى . ومثل هذا كما كان أبو يزيد يوما فى الصومعة ، فجاءه رجل وقال : « هل أبو يزيد فى البيت ؟ فقال أبو يزيد : هل فى البيت الا الله ؟ » .

ويقول واحد من المشايخ رحمه الله : جاء درويش الى مكة ، وأقام سنة فى مشاهدة الكعبة ، فلم يطعم ، ولم يشرب ، ولم ينم ، ولم يذهب للطهارة ، لاجتماع همته برؤية البيت ، لأن الله تعالى قد أضافه الى نفسه فصار غذاء جسده ومشرب روحه .

وأصل هذا كله أن الله تعالى جزأ وقسم أصل محبته التى هى جوهر واحد ، وخص كل واحد من أحبابه بذلك الجزء من أجزاء الكل ، على قدر ابتلائه ، وعندئذ خلع عنه جوشن الانسانية ولباس الطبيعة وغاشية المزاج وحجاب الروح حتى حول بقوته الأجزاء التى كانت موصولة به الى صفته ، الى حد أن صار كل المحب كل المحبوب ، وأخذت كل حركاته ولحظاته شرائطه ، وهذا هو السبب فى أن أرباب المعانى وأصحاب اللسان سموا ذلك بالجمع .

ويقول الحسين بن منصور رحمه الله فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

لبيك لبيك يا سيدى ومولائى ... لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى
يا عين عين وجودى ومنتهى همى ... يا منطقى واشاراتى وانبائى
يا كل كلى ويا سمعى ويا بصرى ... يا جملتى وتباعيضى وأجزائى

فمن يكن فى أوصافه مستعارا يكن اثبات الوجود عليه عارا له ، ويكن التفاته الى الكونين زنارا ، وتكن كل الموجودات فى همته حقيرة .

وأيضا تسميه جماعة من أرباب اللسان ، لدقة الكلام واعجاب العبارة ، بجمع الجمع ، وهذه العبارة طيبة من حيث العبارة ، أما من حيث المعنى فالأفضل أن لا تقول للجمع جمعا ، لأنه تلزم التفرقة ليجوز عليها الجمع ، فاذا حصل الجمع فقد كان تفرقة ، لأن الجمع لا يتحول عن حاله . وهذه العبارات محل للتهمة ، لأنه ليس للمجتمع نظر الى ما هو فوق وتحت خارج نفسه : ألم تر أنه فى ليلة المعراج عرض على الرسول عليه السلام الكونان

والعالمان فلم يلتفت الى شيء لأنه كان مجموعا بالجمع ؟ والتفرقة لا تظهر للمجتمع ، حتى أن الله تعالى قال : « ما زاغ البصر وما طغى(١) » .

وقد ألفت فى بداية حالى كتابا فى هذا المعنى وأسميته : « كتاب البيان لأهل العيان » ، وذكرت فى « بحر القلوب » ، فى باب الجمع،فصولا مطولة. وقد اكتفيت الآن بهذا المقدار للتخفيف .

هذا هو طرف من مذهب السيارية من المتصوفة ، وقد فرغت من الحديث عن فرق الصوفية المقبولة والمحققة .

والآن : أعود الى قول تلك الجماعة من الملاحدة — لعنهم الله — الذين ألحقوا أنفسهم بهم ، وقد جعلوا عباراتهم هذه آلة اظهار الحادهم ، وأخفوا ذلهم فى عزهم ، لتظهر مواضع أخطائهم ، ويتخلص المريدون من مكرهم ودعواهم ، ويرعوا أنفسهم ، والله أعلم .

(١) سورة « النجم » آية ١٧ .

الحلولية

وأما الحلولية ، « لعنهم الله ، قوله تعالى : فماذا بعد الحق الا الضلال(١) » ، فهم من الطائفتين المطرودتين اللتين تنتميان الى هذه الطائفة، ويصادقونهم بضلالة من أنفسهم ، فطائفة منهما تنتمى الى أبى حلمان الدمشقى(٢) ، ويروون عنه ما يخالف ما هو مسطور عنه فى كتب المشايخ . وأهل هذه الطريقة يعدون ذلك الشيخ من أرباب القلوب ، أما هؤلاء الملاحدة فينسبونه الى الحلول والامتزاج وتناسخ الأرواح . وقد رأيت طعنا فيه فى كتاب متقدم . ولعلماء الأصول أيضا صورة عنه ، والله عز وجل أعلم به.

والطائفة الأخرى ينسبون أقوالهم الىفارس وهو يدعى أن هذا هو مذهب الحسين بن منصور ، وأنه ليس لأحد هذا المذهب الا أصحاب الحسين . وقد رأيت أبا جعفر الصيدلانى ومعه أربعة آلاف رجل من الحلاجيين متفرقين فى العراق وكانوا جميعا يلعنون فارسا لهذه المقالة ، فليس فى كتبه (أى الحلاج) التى صنفها شيء سوى التحقيق .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : انى لا أعرف من كان فارس هذا وأبو حلمان ، وماذا قالا ، ولكنى أقول ان كل قائل مقالة تخالف التوحيد والتحقيق ليس له من الدين أى نصيب ، وحين يكون أصل الدين غير مستحكم ، فالأولى أن يكون التصوف — وهو نتيجة وفرع — مختلا ، لأن اظهار الكرامات ، وكشف الآيات ، لا يكون الا على أهل الدين والتوحيد . وقد أخطأ قائلو هذا

(١) سورة « يونس » آية ٣٢ .
(٢) أبو حلمان الدمشقى : ينسب اليه الحلمانية من الحلولية . وكان أصله من فارس ومنشؤه حلب ، وأظهر بدعته بدمشق فنسب لذلك اليها . وكان كفره من وجهين : أحدهما : أنه كان يقول بحلول الاله فى الأشخاص الحسنة ، وكان مع أصحابه اذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها يوهمون أن الاله قد حل فيها . والوجه الثانى : قوله بالاباحة ودعواه أن من عرف الاله على الوصف الذى يعتقده هو ، زال عنه الحظر والتحريم واستباح كل ما يستلذه ويشتهيه (انظر : الفرق بين الفرق ص ١٥٦) .

الكلام جميعا فى الروح ، وأنا الآن أبين كيفيتها وجميع أحكامها ، وأذكر مقالات الملاحدة وأغلاطهم وشبهاتهم فى ذلك ؛ لتقوى بهذا — قواك الله — اذ أن فى هذا (الذى يقولونه) فسادا كثيرا .

الكلام فى الروح :

اعلم أن العلم بماهية الروح ضرورى ؛ وأن العقل عاجز فى كيفيتها . وقد قال كل من علماء الأمة وحكمائها شيئا فى ذلك ، على حسب قياسه . وللكفار أيضا كلام فى ذلك ، مثلما أرسل كفار قريش — بايعاز من اليهود — النضر ابن الحارث ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن كيفية الروح وماهيتها .

وقد أثبت الله تعالى أولا عينها فى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح(١) »، ثم نفى عنها القدم فى قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى(٢) » .

والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارفه منها ائتلف وما تناكر منها اختلف(٣) » . وتوجد أدلة كثيرة مثل هذه على وجودها ، دون التصرف فى كيفيتها . فقالت جماعة ان « الروح هو(٤) الحياة التى يحيى بها الجسد » ، وجماعة من المتكلمين أيضا على هذا ، وبهذا المعنى تكون الروح عرضا ، لأن الحيوان يحيا بها بأمر الله عز وجل ، وهى من جنس التأليف والحركة والاجتماع وأمثال هذا من الأعراض التى يتحول بها الشخص من حال الى حال .

وقالت جماعة أخرى : « هو (أى الروح) غير الحياة ، ولا يوجد الحياة الا معها ، كما لا يوجد الروح الا مع البنية ، ولن يوجد أحدهما دون الآخر ، كالألم والعلم به ، لأنهما شيئان لا يفترقان » . وهى بهذا المعنى أيضا عرض مثل الحياة .

وجمهور المشايخ أيضا ، وكثير من أهل السنة والجماعة — رحمهم الله — على أن الروح عين لا وصف ، لأنها طالما هى موصولة بالقالب على مجرى العادة فان الله تعالى يخلق الحياة فى ذلك القالب . وحياة الآدمى صفة ، وهو حى بها ، أما الروح فمودعة فى الجسد ، ويجوز أن تنفصل عن الآدمى

(١ ، ٢) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .
(٣) رواه البخارى عن عائشة ، وأحمد ومسلم عن أبى هريرة ، والطبرانى عن ابن مسعود .
(٤) هكذا فى النص . والروح تذكر وتؤنث .

ويظل حيا بالحياة كما فى حال النوم ، فهى تذهب وتبقى الحياة . ولكن لا يجوز فى حال ذهابها أن يبقى العلم والعقل ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أرواح الشهداء فى حواصل الطيور(١) » ، فلا محالة أن تكون (الأرواح) عينا . وقال الرسول عليه السلام : « الأرواح جنود مجندة » ، فلا محالة أن تبقى الجنود ، والبقاء لا يجوز على العرض ، والعرض لا يقوم بنفسه ، فهى اذن جسم لطيف يأتى بأمر الله عز وجل ، ويذهب بأمره . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : رأيت فى ليلة المعراج آدم ويوسف وهارون وموسى وعيسى وابراهيم عليهم السلام فى السماوات ، فلا محالة أنها كانت أرواحهم . ولو كانت الروح عرضا لما قامت بنفسها حتى يمكن رؤيتها فى حال الوجود ، لأنه يلزم لوجودها محل لتكون عارضة فى ذلك المحل ، ومحلها الجوهر ، والجوهر مؤلف وكثيف ولطيف الجسم ، ولما كان جائز الرؤية فانه يجوز أن يكون فى حواصل الطيور ، ويجوز أن يكون جندا له مجىء وذهاب ، على نحو ما تنطق به الأخبار ، ويكون مجيئها وذهابها بأمر الله تعالى ، لقوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى » .

ويبقى هنا اختلاف الملحدة الذين يقولون أن الروح قديمة ، ويعبدونها ، ولا يعرفون فاعلا ومدبرا للأشياء غيرها ، ويسمونها روح الاله الذى لم يزل ، ويقولون أنها تنتقل من شخص الى آخر ، وليس هنالك اجماع على أية شبهة وقعت للخلق بقدر ما على هذه ، لأن جميع النصارى على هذا مهما اختلفوا فى العبارة ، وكل أهل الهند والصين وجميع بلادها على هذا ، وتجتمع عليه الشيعة(٢) والقرامطة(٣)

---

(١) رواه مسلم : « أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٧٨) .

(٢) « الشيعة » : هم الذين شايعوا عليا على الخصوص ، وقالوا بامامته نصا ووصاية : اما جليا ، واما خفيا ، واعتقدوا أن الامامة لاتخرج عن أولاده ، وان خرجت فبظلم من غيره ، أو بتقية من عنده . وهم خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وامامية ، وغلاة ، واسماعيلية : وبعضهم يميل فى الأصول الى الاعتزال ، وبعضهم الى السنة ، وبعضهم الى التشبيه . (الملل والنحل على هامش الفصل ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦) .

(٣) « القرامطة » : ينسبون الى حمدان قرمط ، وهو حمدان بن الأشعث ، لقب بقرمط لقرمطة فى خطه أو فى خطوه ، وكان فى ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة . وينسب البغدادى القرامطة الى الباطنية فيقول ان الدعوة الباطنية ظهرت فى أيام المأمون من حمدان قرمط ، ومن عبد الله بن ميمون القداح (الفرق بين الفرق ص ١٨) . =

والباطنية(١) ، وهاتان الطائفتان المبطلتان أيضـــا تقولان بهذه المقـــالة . وكل جماعة من جملة من ذكرناهم لهم مقدمات لهذا القول ، وهم يؤيدون دعواهم بالبراهين .

= والقرامطة من المتشبثين بفكرة المهدى ، وعندما زار الرحالة الفـــارسى ناصر خسرو ، عاصمتهم « الأحساء » عام ٤٤٣ هـ وجد أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذى فيه قبر مؤسس مذهبهم فرسا بسرج ولجام لا يغادر مكانه ليلا ونهارا ، ويقولون انه للمهدى يركبه متى ظهر . وكان وراء عقائدهم دائما قول بالحلول ، وقد قالت طائفة منهم بنبوة محمد بن اسماعيل بن جعفر (الفصل جـ ٤ ص ١٨٤) ، ومنهم من قالوا بالهيته : يقول ابن حزم فى حديثه عن الغالية : « ثم زادت فرقة على ما ذكرنا فقالت بالهية محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة » (الفصل جـ ٤ ص ١٨٧).

(١) « الباطنية » : يذكر الشهرستانى أن الباطنية لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولهم ألقـــاب كثيرة ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وبخراسان : التعليمية والملحدة ، وهم يقولون : نحن اسماعيلية (الملل جـ ٢ ص ٢٩) . وقد ظهرت دعوة الباطنية أولا فى زمان المأمون ، وانتشرت فى زمان المعتصم، ودخل فى دعوتهم الأفشين صاحب جيش المعتصم . ومؤسسو الباطنية جماعة منهم ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق ، ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان . (الفرق بين الفرق ص ١٦٩)

وذكروا أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا أولاد المجوس ، وكانوا مائلين الى دين أسلافهم من الثنوية وتأولوا آيات القرآن وســـنن النبى على موافقـــة أسسهم .

وذكر زعماء الباطنية فى كتبهم أن الاله خلق النفس ، فالاله هو الأول ، والنفس هو الثانى ، وهما مدبرا العالم ، وسموهما : الأول والثانى . وقولهم ان الأول والثانى يدبران العالم هو بعينه قول المجوس باضـــافة الحوادث الى صانعين : أحدهما قديم ، والآخر محدث ، الا أن الباطنية عبرت عن الصانعين بالأول والثانى ، وعبر المجوس عنهما بيزدان وأهرمن. (انظر الفرق بين الفرق ص ١٧٠ وما بعدها) .

ونقول لهؤلاء جميعا : ماذا تريدون بلفظ القدم هذا ؟ أمحدث متقدم فى الوجود ، أو قديم دائما ؟ فاذا قالوا ان مرادنا : محدث متقدم فى الوجود ، ارتفع الخلاف فى هذا الأصل ، لأننا نحن أيضا نقول ان الروح محدث مع تقدم وجودها على وجود الشخص ، كما قال النبى عليه السلام : « ان الله خلق الأرواح قبل الأجساد » ، واذا صح حدوثها ، فلا محالة أن يكون المحدث بالمحدث محدثا وتكون جنسا من خلق الله يتصل بجنس آخر ، ومن اتصالهما باحدهما الآخر يخلق الله الحياة وفق تقديره . أى أن الأرواح جنس من الخلق ، والأجساد جنس آخر ، وحينما يقدر حياة حيوان يأمر أن تتصل الروح بالجسد فتحصل الحياة فى الحى . أما تحولها من شخص الى شخص فلا يجوز ، فكما أنه لا يجوز لشخص واحد حياتان ، فانه لا يجوز أيضا أن يكون لروح واحد شخصان . ولو لم تنطق بذلك الأخبار ، ولو لم يكن الرسول صادقا فى اخباره لمـــا كان معقول الروح الا الحياة ، ولكانت صفة لا عينا .

واذا قالوا : ان مرادنا بهذا القول أنها كانت قديمة دائما ، نقول : أهى قائمة بنفسها ، أو بالغير ؟ فاذا قالوا : انها قديمة قائمة بنفسها ، نقول : أهى اله العالم ، أم لا ؟ فاذا قالوا : انها ليست هو ، فان ذلك يكون اثباتا لقديمين ، وهذا غير معقول ، لأن القديم لا يكون محدودا ، ولأن وجود ذاتين يجعل من أحدهما حدا للآخر ، وهذا محال .

وان يقولوا : انها اله العالم ، نقول : اذن فهى قديمة والخلق محدث ، ومحال أن يكون للمحدث امتزاج بالقديم ، أو اتحاد أو حلول ، أو يصير المحدث مكان القديم ، أو يكون القديم حادثا ، لأن كل ما يتصل بشىء يكون مثله . والوصل والفصل لا يجوز الا على المحدثات ، لأنها من جنس بعضها البعض ، تعالى الله عن ذلك .

وان يقولوا : غير قائمة بنفسها ، وقيامها بغيرها ، فان هذا لا يخرج عن اثنتين : اما أن تكون صفة ، أو تكون عرضا . فاذا قالوا انها عرض ، فلا محالة من أنه يجب القول : أفى محل ، أو لا محل ؟ فان يقـــولوا : فى محـــل ، فان محلها يكون مثلها ويبطل اسم القدم عن كليهما . وان يقولوا : فى لا محل، يكون محالا ، فما دامت عرضا غير قائم بذاته فمن غير المعقول أن تكون فى لا محل .

وان يقولوا : انها صفة قديمة — كما يقول الحلولية والتناسخية(١) — ويسمون تلك الصفة : صفة الحق ، يكون محالا ، لأن الصفة القديمة للحق لا تصير صفة للخلق ، واذا جاز أن تكون حياته صفة للخلق ، لجاز أيضا أن تكون قدرته قدرة للخلق وعندئذ تقوم الصفة بالموصوف ، فكيف يكون للصفة القديمة موصوف محدث ؟ . .

فلا محالة اذن أن لا يكون للقديم أى تعلق بالمحدث ، وقول الملحدة فى هذا باطل ، والروح مخلوقة وبأمر الحق ، ومن يقول غير هذا يكون قوله مكابرة عيانا ، ولا يستطيع أن يفرق المحدث من القديم . ولا يجوز أن يكون الولى فى صحة ولايته جاهلا بأوصاف الحق .

---

(١) « التناسخية » : منهم القائلون بتناسخ الأرواح فى الأجساد وانتقالها من شخص الى شخص ، ومنهم من قالوا بتناسخ روح الاله .

والقائلون بالتناسخ منهم أصناف كانوا قبل دولة الاسلام ، وأصناف ظهروا فى دولة الاسلام ، فممن كانوا قبل الاسلام : السمنية الذين قالوا بقدم العالم ، وبابطال النظر والاستدلال ، وأنكر اكثرهم المعاد والبعث بعد الموت ، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح فى الصور المختلفة ، وأجازوا أن ينتقل روح الانسان الى كلب وروح الكلب الى انسان . ومنهم المانوية، ذلك أن مانى قال فى بعض كتبه ان الأرواح التى تفارق الأجساد نوعان : أرواح الصديقين ، وأرواح أهل الضلالة ، فأرواح الصديقين اذا فارقت أجسادها سرت فى عمود الصبح الى النور الذى فوق الفلك فبقيت فى ذلك العالم على السرور الدائم . وأرواح أهل الضلالة اذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منكسة الى أسفل فتتناسخ فى أجسام الحيوانات الى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلحق بالنور العالى . وقال بعض اليهود بالتناسخ وزعم أنه وجد فى كتاب دانيال أن الله تعالى مسخ بختنصر فى سبع صور من صور البهائم والسباع وعذبه فيها كلها ثم بعثه فى آخرها موحدا .

وأما أهل التناسخ فى دولة الاسلام فقد قالت البيانية والجناحية والخطابية والراوندية من الروافض الحلولية بتناسخ روح الاله فى الأئمة . وأول من قال بهذا السبابة من الرافضة لدعواهم أن عليا صار الها حين حل روح الاله فيه . وزعمت البيانية أن روح الاله دارت فى الأنبياء ثم فى الأئمة الى أن صارت فى بيان بن سمعان . وادعت الجناحية مثل ذلك فى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وكذلك دعوى الخطابية فى أبى الخطاب. وكذلك دعوى قوم من الراوندية فى أبى مسلم ، فهؤلاء يقولون بتناسخ روح الاله دون أرواح الناس (الفرق بين الفرق ص ١٦٢ — ١٦٣) .

وبحمد الله تعالى قد حفظنا الله من البدعة والخطر ، ووهبنا العقل حتى نظرنا واستدللنا به ، ومنحنا الايمان حتى عرفناه بهدايته . فحمدا له غير موصول بغاية ، لأن الحمد المتناهى فى ازاء النعيم اللامتناهى لا يكون مقبولا .

ولما سمع الظاهريون هذه الحكاية من أهل الوصول ظنوا أن هذا هو اعتقاد جميع المتصوفة ، حتى حجبوا بغلطهم الكبير وخسرانهم الواضح عن جمال هذه الأخبار ، وخفيت عليهم لطيفة ولاية الحق ولوامعها ، واللوايح الربانية ، من بعد أن ردوا الكبار والسادة . فأما رد الخلق فهو مثل قبولهم، وقبولهم مثل ردهم .

فصل : يقول واحد من المشايخ رحمهم الله : « الروح فى الجسد كالنار فى الفحم ، فالنار مخلوقة ، والفحم مصنوع(١) » . ولا يجوز القدم الا على ذات الله وصفاته .

وكان من المشايخ رضى الله عنهم أبو بكر الواسطى الذى تحدث كثيرا فى الروح ، ويرد عنه أنه قال : « الأرواح على عشرة مقامات » : أولها : أرواح المخلصين المحبوسة فى ظلمة ولا تدرى ماذا يراد أن يفعل بها . والثانى : أرواح العباد التى تسعد فى سماوات الدنيا بمواريث الأعمال وما عملت من الطاعات ، وتسير بقوتها . والثالث : أرواح المريدين التى تكون فى السماء الرابعة فى لذات الصدق وظل أعمالها مع الملائكة . والرابع : أرواح أهل السنن المعلقة من العرش فى قناديل النور : أغذيتها الرحمة وأشربتها اللطف والقربى . والخامس : أرواح أهل الوفاء التى تطرب فى حجاب الصفاء ، ومقام الاصطفاء . والسادس : أرواح الشهداء فى حواصل الطيور فى الجنة ، تذهب فى الرياض حيث تريد ، من آن لآخر . والسابع : أرواح المشتاقين التى قامت فى حجب أوار الصفاء على بساط الأدب . والثامن : أرواح العارفين التى تسمع صباح مساء كلام الله فى حظائر القدس ، وأماكنها فى الجنة ، وترى الدنيا . والتاسع : أرواح المحبين التى استغرقت فى مشاهدة الجمال ومقام الكشف ، لا تعرف سواه ، ولا تسكن الى أى شىء . والعاشر : أرواح الدراويش التى استقرت فى محل الفناء ، وتبدلت أوصافها ، وتغيرت أحوالها .

ويرد عن المشايخ رضى الله عنهم أنهم رأوها (أى الروح) كل منهم بصورة ،

---

(١) فى الأصل : مصنوعة .

وهذا جائز لأنها ــ كما قلنا ــ موجودة وجسم لطيف ، فيلزم أن تكون مرئية ، وحين يريد الحق تعالى يريها للعبد كما يريد .

ويقول صاحب الكتاب : ان حياتنا فى الجملة بالله ، وبقاؤنا به ، واحياؤنا فعل للحق ، ونحن أحياء بخلقه لا بذاته وصفاته ، وقول الروحانيين كله باطل . ومن الضلالة العظمى بين الخلق أن يقولوا للروح : قديم ، مهما عبروا عنها ، فتقول طائفة انها النفس والهيولى ، وتقول أخرى انها النور والظلمة ، ويقول مبطلو هذه الطريقة انها الفناء والبقاء ، أو الجمع والتفرقة ، أو صاغوا عبارات مزخرفة مثل هذه ويحسنون كفرهم بها . والمتصوفة ينفرون من هذه الطائفة ، لأن اثبات الولاية وحقيقة محبة الله لا تصح الا بمعرفته ، وحين لا يعرف شخص القديم من المحدث فانه يكون جاهلا فيما يقوله ، ولا يأخذ العقلاء بقول جاهل .

وقد ذكرنا الآن فى هذا الباب ما كانت تقصده هاتان الطائفتان المبطلتان ، واذا كان يلزم أكثر من هذا فينبغى طلبه من كتب لى ، فليس مرادى هنا التطويل .

وأبين الآن فى هذا الكتاب بالبراهين الظاهرة كشف حجب أبواب المعاملات وحقائق أهل التصوف ، ليسهل عليك طريق معرفة المقصود ، وينفتح الطريق لكل من له بصيرة من المنكرين ، ويكون لى بهذا الدعاء والثواب ، ان شاء الله تعالى .

كشف الحجاب الأول
فى معرفة الله تعالى

« قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره(١) » . « وقال النبى عليه السلام : لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ، ولزالت بدعائكم الجبال » .

فمعرفة الله تعالى على نوعين : أحدهما : علم ، والآخر : حال ، والمعرفة العلمية هى قاعدة جميع خيرات الدنيا والآخرة .

وأهم الأشياء للعبد فى جميع الأوقات والأحوال معرفة الله جل جلاله : «قوله تعالى : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون(٢)» أى : ليعرفون ،فكثير من الخلق معرض عن هذا سوى من اصطفاهم الله وخلصهم من ظلمات الدنيا ، وأحيا قلوبهم به ، « لقوله تعالى :" « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس »(٣) ــ يعنى عمر ــ « كمن مثله فى الظلمات »(٤) ــ يعنى أبا جهل ــ فالمعرفة حياة القلب بالحق ، واعراض السر عما سوى الحق . وقيمة كل امرىء بمعرفته ، ومن لا معرفة له لا قيمة له .

فالناس من علماء وفقهاء وغيرهم سموا صحة العلم بالله : المعرفة . ومشايخ هذه الطائفة سموا صحة الحال بالله : المعرفة ، ولذلك قالوا ان المعرفة أفضل من العلم ، لأن صحة الحال لا تكون الا بصحة العلم ، وصحة العلم ليست صحة الحال ، أى : لا يكون عارفا من لا يكون عالما بالحق ، ولكن يكون عالما من لا يكون عارفا . ومن كانوا جهالا بهذا المعنى من الطائفتين ناظروا فى هذا بلا فائدة ، وأنكرت تلك الطائفة على هذه ، وهذه على تلك .

والآن أكشف سر هذا لتظهر الفائدة لكلا الطائفتين ، ان شاء الله .

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٩١ .
(٢) سورة « الذاريات »آية ٥٦ .
(٣ ، ٤) سورة « الأنعام » آية ١٢٢ .

فصـــل : اعلم ــ أسعدك الله ــ أن للناس فى معرفة الله تعالى وصحة العلم به اختلاف كبير ، فالمعتزلة يقولون ان معرفة الله عقلية ، ولا يجوز لغير العاقل معرفته . وهذا القول باطل بالنسبة للمجانين الذين فى ديار الاسلام لأن حكمهم حكم المعرفـــة ، وللأطفال غير العقلاء وحكمهم حكم الايمان ، فلو كانت المعرفة بالعقل لما كان لهم حكم المعرفة لأنه ليس لهم عقل ، ولما كان للكافرين الذين لهم عقل حكم الكفر . ولو كان العقـــل علة للمعرفة لوجب أن يكون كل عاقل عارفا ، ولكان كل غير العقلاء جهالا ، وهذه مكابرة عيان .

وتقول جماعة ان علة معرفة الحق الاستدلال ، ولا تجوز المعرفة لغير المستدل . وهذا القول باطل بالنسبة لابليس ، لأنه رأى آيات كثيرة ، والجنة والجحيم والعرش والكرسى ولم تصر رؤية كل هذا له علة للمعرفة .

« وقوله تعالى : ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله(١) » ، واذا كانت رؤية الآيات والاستدلال بها علة المعرفة لجعلها الله تعالى هى لا مشيئته علة معرفته .

وصحة العقل ، ورؤية الآية عند أهل السنة والجماعة سبب المعرفة لا علتها ، لأن علتها ليست سوى محض عناية الله ولطف مشيئته ، « عمت نعماؤه » ، فالعقل بغير عنايته يكون أعمى ، لأن العقل ذاته جاهل بنفسه ، ولم يعرف حقيقته أحد من العقلاء ، وما دام جاهلا بنفسه فكيف يعرف غيره ؟ وبغير عناية الحق يكون الاستدلال والفكرة فى رؤية الآية كلاهما خطأ ، لأن أهل الهوى وطوائف الالحاد كلهم مستدل ولكن أكثرهم ليسوا عرفاء . ثم ان من يكن من أهل العناية تكن كل حركاته معرفة ، واستدلالاته طلبا ، وتركه الاستدلال تسليما . وفى صحة المعرفة لا يكون التسليم أولى من طلب الطالب ، لأن الطلب أصـــل لا وجه لتركه ، والتســـليم أصل لا وجه فيه للاضطراب ، وليست المعرفة حقيقة هذين .

واعلم أنه لا هادى للعبد ولا شارح لقلبه فى الحقيقة غير الله ، « تعالى الله عن جميع ما يقول الظالمون » ، وليس لوجود العقل والدلائل امكان الهداية،ولا دليل على هذا أوضح من أن الله تعالى قال : « ولو ردوا لعادوا لمـــا نهوا عنه(٢) » . وعندما ســـئل أمير المؤمنين على عن المعرفة قال : « عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله » . فالله تعالى خلق الجسد وأحال حياته الى الروح ، وخلق القلب وأحال حياته الى نفسه ، فما دام ليس للعقل قدرة احياء الجسد ، فمحال أن يحيى القلب ، كما قال : « أومن

(١) سورة « الأنعام » آية ١١١ .
(٢) سورة « الأنعام » آية ٢٨ .

كان ميتا فأحييناه(١) » ، فأحال الحياة كلها الى نفسه ، ثم قال : « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس(٢) » . وقال أيضا : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه(٣) » ، فأحال شرح القلب الى نفسه ، وربط ختمه أيضا بفعله فقال : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم(٤) » ، وقال أيضا : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا(٥) » ، فما دام قبض القلب وبسطه وختمه وشرحه له ، فمحال أن يعـــرف غيره هاديا ، لأن كل ما دونه علة وسبب ، ولا تستطيع العلة والسبب الهداية أبدا بغير عناية المسبب ، لأن الحجاب قاطع طريق لا هاد .

قوله تعالى : « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم(٦) » أضاف التحبيب والتزيين الى نفسه ، وجعل الزام التقوى التى عينها المعرفة منه ، وليس للملزم فى الزامه اختيار الدفع والجلب ، فلا نصيب للخلق من معرفته بدون تعريفه غير العجز .

ويقول أبو الحسن النورى رضى الله عنه : « لا دليل على الله سواه ، انما العلم يطلب لأداء الخدمة » . وليس لأحـــد من المخلوقات القدرة على أن يوصل أحدا الى الله ، فلم يكن هناك مستدل أكثر عقلا من أبى طالب ، ولا دليل أكبر من محمد ، ولكن لما جرى الحكم على أبى طالب بالشقاء ، لم تنفعه دلالة محمد . وأول درجة من الاستدلال هى الاعراض عن الخلق ، لأن الاستدلال : التأمل فى الغير ، وحقيقة المعرفة : الاعراض عن الغير . وفى العادة يكون وجود كل المطلوبات بالاستدلال ، ومعرفته خلاف العادة ، فمعرفته ليست الا دوام حيرة العقل ، واقبال عنايتـــه (تعالى) على العبد ، ولا سبيل فيها لكسب الخلق ، ولا دليل لعبده سوى انعامه ولطفه ــ وذلك من فتوح القلوب وخزائن الغيوب ــ لأن كل ما سواه محدث ، ويجوز أن يصل المحدث الى مثله ، ولا يجوز أن يصل الى خالقه بوجوده . وما يدخل تحت كسبه فهو كسب كاسب غالب ، ومكتسبه مغلوب ، فليست الكرامة أن

(١ ، ٢) سورة « الأنعام » آية ١٢٢ .
(٣) سورة « الزمر » آية ٢٢ .
(٤) سورة « البقرة » آية ٧ .
(٥) سورة « الكهف » آية ٢٨ .
(٦) سورة « الحجرات » آية ٧ .

يثبت العقل بدليل الفعل وجود الفاعل ، بل الكرامة هى أن ينفى القلب وجود نفسه بنور الحق سبحانه وتعالى ، فتكون المعرفة للأول قالا ، وللآخر حالا.

وما يراه جماعة من أنه علة المعرفة — وهو العقل — قل لهم ، انظروا ، أى شىء يثبته العقل فى القلب من عين المعرفة ، وكل ما يثبته العقل تقتضى المعرفة نفيه ؟ ! يعنى أن كل ما يتصور فى القلب بدلالة العقلُ على أنه الله ، فالله على خلافه ، واذا تصور خلاف ذلك ، فهو أيضا على خلافه ، فأى مجال يبقى هنا للعقل حتى تكون المعرفة باستدلاله ؟ لأن العقل ووهمه كلاهما جنس واحد ، وحيثما ثبت الجنس انتفت المعرفة ، فجاء اثبات استدلال العقل تشبيها،ونفيه تعطيلا،وليس مجاله الا فى هذين الأصلين،وهذان كلاهما نكرة ، لأن المشبهة والمعطلة(١) غير موحدين ، فلما كان العقل قد سار على قدر امكانه ، وما جاء منه كان كله ذاته ، لم يكن لقلوب الأحبة معدى عن الطلب ، فاستقروا على عتبة العجز بلا آلة ، وصاروا فى قرارهم بلا قرار ، ورفعوا أيديهم ضارعين وطلبوا لقلوبهم مرهما ، وكان طريقهم قد وصل الى نوع طلب قدرتهم ، وهنا صارت قدرة الحق قدرتهم . يعنى أنهم وجدوا الطريق منه اليه ، واستراحوا من عناء الغيبة ، وسكنوا فى روضة الأنس ، واستقروا فى الروح والسرور . فلما رأى العقل القلوب بلغت مرادها أظهر تصرفه ، فلم يدرك شيئا ، وعجز وتحير ، فلما تحير عزل ، ولما عزل عندئذ البسه الله لباس الخدمة ، وقال له : طالما كنت مع نفسك فقد حجبت بآلة تصرفك ، فلما فنيت الآلة عجزت ، فلما عجزت وصلت . فصار نصيب القلب القربة ، ونصيب العقل الخدمة ، وكانت معرفته بالتعريف ، فالله عز وجل صير العبد عارفا بتعريفه وتعرفه حتى عرفه به ، فليست المعرفة ما تكون موصولة بآلة ، انما المعرفة ما يكون وجوده فيها عارية ، فصارت الأنانية خيانة لكل وجود العارف ، حتى صار ذكره بلا نسيان ، وحاله بلا تقصير ، ومعرفته حالا لا قالا .

وقالت طائفة أيضا ان المعرفة الهام ، وهذا محال ، لأن للمعرفة برهان الباطل والحق ، وليس لأهل الالهام برهان على الخطأ والصواب ، لأن واحدا يقول : انى ملهم بأن الله تعالى ليس له مكان ، ويقول آخر : اننى ملهم بأن

---

(١) « المعطلة » : يطلق البعض هذا الاسم على المعتزلة ، لأنهم قالوا ان الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلا، فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته لا بعلم وقدرة وصفات قديمة ومعان قائمة به ، فأثبتوا الذات وعطلوا الصفات ، ومن هنا سموا بالمعطله .

له مكانا ، ولا محالة أن يكون الحق فى جانب أحدى هاتين الدعوتين المتضادتين ، وكل منهما يدعى الالهام ، ويلزم لا محالة مميز ليفرق بين صدق وكذب هذين المدعيين ، وعندئذ يعرف بالدليل ، ويبطل حكم الالهام . وهذا قول البراهمة(١) والالهاميين .

وقد رأيت فى زماننا أن قوما يغالون فى هذا كثيرا ، وينسبون حالهم الى طريق العباد ، والجميع على ضلالة ، وقولهم مخالف لجميع العقلاء من أهل الكفر والاسلام ، لأن عشرة ممن يدعون الالهام يدعون بعشرة أقوال متناقضة فى حكم واحد ، فتكون الدعاوى كلها باطلة ، ولا يكون أحد على حق . واذا قال قائل ان ما هو خلاف للشرع لا يكون الهاما ، نقول : انك فى أصلك مخطىء ، وعلى غلط ، لأنك حين تقيس الشريعة بالهامك يكون ثبات هذا الالهام بها .

المعرفة : شرع ونبوة وهداية ، لا الهام ، وحكم الالهام فى المعرفة باطل بكل الوجوه .

وقد قالت طائفة أخرى ان معرفة الله ضرورة . وهذا أيضا محال ، لأنه فى كل شىء يكون علم العبد به ضرورة ، يجب أن يشترك فيه كل العقلاء ، وما دمنا نرى أن فريقا من العقلاء يجحدونه وينكرونه ويجيزون التشبيه والتعطيل ، فقد صح أنها ليست ضرورة . وأيضا لو كانت معرفة الله ضرورة لما جاء بها التكليف ، لأن التكليف بمعرفة شىء يكون العلم به ضرورة محال ، مثل معرفة النفس والسماء والأرض والنهار والليل والآلام واللذات وأمثالها التى لا يستطيع العاقل أن يلقى بنفسه الى الشك فى حال وجودها ، لأنه مضطر فى ذلك ، واذا أراد ألا يعرفها فانه لا يستطيع .

أما الطائفة من المتصوفة الذين نظروا الى صحة يقينهم ، فقد قالوا اننا نعرفه بالضرورة — لأنهم لم يجدوا فى قلوبهم أى شك فسموا اليقين ضرورة — فهم مصيبون فى المعنى ولكنهم مخطئون فى العبارة ، لأنه فى العلم

---

(١) « البراهمة » : هم أتباع الديانة البرهمية ، والفيدانتا الهندية من أكثر المذاهب تصويرا للديانة البرهمية ، وأخص ما يمتاز به هذا المذهب هو القول بوحدة الوجود . وطريق النجاة والسعادة عندهم ليس فى الزهد والتعبد فحسب ، وانما هو أيضا فى أن يعرف المتعبد أن الاله « براهما » فى كل شىء ، وأن كل شىء هو براهما .
ويقول البغدادى ان البراهمة ينكرون جميع الأنبياء والرسل ، وان وافقوا المسلمين فى القول بحدوث العالم وتوحيد صانعه . وللشافعى كتاب فى تصحيح النبوة والرد على البراهمة . (الفرق بين الفرق ص ٢١٥، ٢٢٠).

بالضرورة لا يجوز التخصيص للصحيح ، لأن جميع العقلاء فيه سواء . والضرورة أيضا علم يظهر فى قلوب الأحبة بلا سبب ، والعلم بالله ومعرفته ســـــبب .

أما الأستاذ أبو على الدقاق والشيخ أبو سهل والد سهل الذى كان رئيس نيسابور وامامها ، رحمة الله عليهم ، فعلي أن بداية المعرفة استدلال ، ونهايتها ضرورة ، مثل العلم بالطاعات فهو مكتسب فى البداية ويصير ضرورة فى النهاية ، بقول لأهل السنة والجماعة ، ويقولون : الا ترى أن العلم بالله يصير ضرورة فى الجنة ، وما دام يجوز أن يكون هنالك ضرورة فانه يجوز أن يصير هنا أيضا ضرورة . وهنا أيضا الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا فى ذلك الحال يسمعون كلامه بلا واسطة ، فكانوا يعرفونه بالضرورة ، والملائكة الذين كانوا يؤدون الوحى كذلك ، وأمثال هذا .

ونقول : ان أهل الجنة فى الجنة يعرفونه بالضرورة لأنها ليست دار تكليف ، كما أن الأنبياء عليهم السلام مأمونو العاقبة وآمنون من القطيعة ، ومن عرفه بالضرورة لا يكون له أيضا خوف من القطيعة . وللايمان والمعرفة فضل بأنهما غيبيان ، فاذا صارا عيانا يصير الايمان خبرا ، ويرتفع الاختيار فى عين ذلك ، وتضطرب أصول الشرع ، ويبطل حكم الردة ، ولا يصح تكفير « بلعم »(١) و « برصيصا »(٢) وابليس لأنهم بالاجماع كانوا عارفين بالله عز وجل ، كما أخبرنا عن ابليس من حال الطرد والرجم (أنه قال) : « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين(٣)** » . وفى الحقيقة فان قوله « فبعزتك » ، وتكلمه ، وسماعه الجواب يقتضى المعرفة ، والعارف طالما هو عارف فهو آمن من القطيعة ، والقطيعة تحصل بزوال المعرفة ، ولا يتأتى زوال العلم الضرورى . وهذه المسألة مملوءة بالآفة بين الخلق ، ويشترط أن تعرف هذا القدر لتكون قد نجوت من الآفة ، لأن علم العبد ومعرفته بالله تعالى لا يكونان الا باعلامه وهدايته الأزلية .

---

(١) بلعم بن باعوراء : يقال انه كان عابدا زاهدا ، أوتى الاسم الأعظم ، ثم انسلخ عن الآيات ، وأدخل الهوى على العلم ، فضل بذلك وهلك ، ولم ينفعه ما كان منه من العبادة والزهادة (قوت القلوب ج ٢ ص ١٨٢) .

(٢) برصيصا : كان عابدا فى غاية التقـــوى ، وفى النهـــاية خدعه الشـــيطان فضـــل .

(٣) سورة « ص » آية ٨٢ .

ويجوز أن يزيد يقين العباد فى المعرفة حينا وينقص حينا ، ولكن أصل المعرفة لا يزيد ولا ينقص ، لأن زيادته نقصان ، ونقصه نقصان أيضا ، ولا يليق التقليد لمعرفة الله ، ويجب أن يعرف بصفات الكمال ، ولا يستقيم هذا الا بحسن رعاية الحق تعالى وصحة عنايته . والدلائل والعقول كلها ملك له وتحت تصرفه : اذا أراد فهو يجعل فعلا من أفعاله دليلا لواحد ويهديه اليه ، واذا أراد ، يجعل الفعل نفسه حجابا له ، ليعجز عنه أيضا بذلك الفعل ، مثل عيسى عليه السلام فقد صار دليلا لقوم الى المعرفة ، وحجابا لقوم عن المعرفة ، حتى قالت طائفة انه عبد الله عز وجل ، وقالت طائفة انه ابن الله عز وجل . والصنم والقمر والشمس كذلك كانت دليل جماعة الى الحق ، وتخلفت بها أيضا جماعة . واذا كان الدليل علة المعرفة للزم أن يكون كل مستدل عارفا ، وهذا مكابرة عيان ، فالله تعالى يختار واحدا ويجعل جميع الأشياء هداة له حتى أنه يصل اليه بسببها ويعرفه ، فالدليل هنا صار له سببا لا علة ، ولا يكون سبب أولى من سبب فى حق المسبب للمسبب . ولعمرى ان اثبات السبب للعارفين يكون زنارا فى المعرفة ، والالتفات الى غير المعروف شرك : « من يضلل الله فلا هادى له(١) » ، فعندما يكون فى اللوح المحفوظ ، لا بل فى مراد الحق ومعلومه أن الشقاوة نصيب شخص ، كيف يصير الدليل والاستدلال هاديا له ؟ « من التفت الى الأغيار فمعرفته زنار » ، فمن تلاشى واستغرق فى قهر الله كيف يتعلق به شىء بدون الحق ؟ فحينما خرج ابراهيم عليه السلام من الغار فى النهار لم ير شيئا — وفى النهار تكون البراهين أكثر والعجائب أظهر — وحين خرج فى الليل رأى كوكبا ، فلو كان الدليل علة معرفته ، فالدلائل فى النهار أظهر ، والعجائب أبين . فالله تعالى يهدى العبد اليه كما يريد ، وبما يريد ، ويفتح له باب المعرفة حتى أنه يصل فى عين المعرفة الى درجة تصير المعرفة فيها غيرا ، وتصير صفته ومعرفته آفة له ، ويحجب بالمعرفة عن المعروف حتى تصير حقيقة المعرفة دعوى له .

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : « اياك أن تكون بالمعرفة مدعيا » . لأنك تهلك فى ذلك ، فتعلق بمعناها حتى تجد النجاة . وكل من يكرم بكشف جلاله ، يصير وجوده وبالا له ، وتصير صفاته كلها محل آفته . وكل من يكون للحق ويكون الحق له لا يكون له شىء حتى تصح نسبته الى ذلك الشىء فى الكونين والعالمين . وحقيقة المعرفة هى العلم بأن الملك للحق تعـــالى وتقدس ، وحين يعرف شخص أن كل الممالك ملك له ، فأى أمر يبقى له

---

(١) سورة « الأعراف » آية ١٨٦ .

مع الخلق حق يصـــير محجوبا بنفسه أو بالخلق ؟ والحجاب من الجهل ، واذا فنى الجهل يتلاشى الحجاب ، ويصير الدنيوى بالمعرفة عقبويا ، والله أعـــلم .

فصل : وللمشايخ فى هذا المعنى رموز كثيرة ، ولحصول الفائدة أذكر بعضا من أقاويلهم ان شاء الله عز وجل .

يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله : « المعرفة أن لا تتعجب من شىء » . لأن التعجب يتأتى من فعل يفعله الشخص زيادة عن مقدوره ، ولمـــا كان تعالى وتقدس قادرا على الكمال ، فتعجب العارف من أعماله محال . واذا كان هنالك تعجب ، فينبغى أن يكون من أنه أوصـــل حفنة من التراب الى درجة أن صارت محلا لأمره ، وأبلغ قطرة دم الى مرتبة أن تتحـــدث عن محبته ومعرفته ، وتطلب رؤيته ، وتقصد قربه ووصله .

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : « حقيقة المعرفة : اطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار » . يعنى أنه ما لم يزين الحق تعـــالى بعنايته قلب العبد بنوره ، وينقيه من جميع الآفات ، بحيث لا يبقى للموجودات والمثبتات فى قلبـــه مقدار وزن خردلة ، لا تغلبه مشـــاهدة أسرار الباطن والظاهر . وعندما يفعل هذا ، تصير المعاينة كلها مشاهدة .

ويقول الشبلى رحمه الله : « المعرفة : دوام الحيرة » . والحيرة على نوعين : أحدهما فى الماهية ، والثانى فى الكيفية . والحيرة فى الماهية شرك وكفر ، وفى الكيفية معرفة ، لأنه ليس للعارف شك فى وجوده ، ولا مجال للعقل فى كيفيته . ويبقى هنا يقين فى وجود الحق ، وحيرة فى كيفيته ، ولهذا السبب قال (الشبلى) : « يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا » ، فأثبت أولا معرفة وجوده ، وكمال أوصـــافه ، وعرف أنه مقصـــود الخلق ومجيب دعواتهم ، وأنه لا حيرة للمتحيرين فى سواه ، وعندئذ طلب زيادة الحيرة ، وعرف أن الحيرة والاضطراب كانت شرك وقفة للعقل فى المطلوب . وهذا المعنى لطيف جـــدا .

ويحتمل (أن يكون المعنى) أن معرفة الوجود الحق تقتضى التحير فى وجود نفسه ، لأن العبد اذا عرف الله ، يرى كل ذاته فى قيد قهره . وحين يكون وجوده وعدمه به ، وسكونه وحركته منه ، فانه يحار فى قدرته ، ويقول: ما دام بقاء كلى به ، فمن أكون أنا ؟ وعلام أكون ؟ ولهذا قال النبى عليه

السلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، أى : كل من عرف نفسه بالفناء، عرف الله بالبقاء . ومن الفناء يبطل العقل والصفة . وحين لا يكون عين الشىء معقولا فانه لا يمكن فى معرفته غير التحير .

ويقول أبو يزيد رحمـــه الله : « المعرفة : أن تعرف أن حركات الخلق وسكناتهم بالله » . ولا تصرف لأى أحد فى ملكه بغير اذنه ، فالعين عين به ، والأثر أثر به ، والصفة صفة به ، والمتحرك والساكن متحرك وساكن به ، فما لم يخلق فى البنية الاستطاعة ، وفى القلب الارادة ، فان العبد لا يستطيع أن يفعل أى فعل . وفعل العبد على المجاز ، وفعل الحق على الحقيقة .

ويقول محمد بن واسع ، رحمه الله ، فى صفة العارف : « من عرف الله قل كلامه ودام تحيره» . لأنه يمكن التعبير عن الشىء الذى يدخل تحت العبارة، وللعبارة فى الأصول حد ، وحين لا يكون المعبر محدودا ليوضع عليه أساس العبارة ، كيف تثبت عبارة المعبر ؟ وحين لا يدخل المقصـــود فى العبـــارة — وليس للعبد بد منه — فأى حيلة له غير الحيرة الدائمة ؟ !

ويقول الشبلى رحمه الله : « حقيقة المعرفة : العجز عن المعـــرفة » . فالشىء الذى لا يبدو للعبد من حقيقته غير العجز فيه ، يجوز أن لا يكون للعبد فى ادراكه بنفسه أكثر من الدعوى ، لأن العجز يكون طلبا له ، وطالما كان الطالب قائما فى آلته وصفته ، فانه لا يصح عليه اسم العجز ، وحين تنتهى هذه الآلة والأوصاف ، فانه عندئذ يكون فناء لا عجزا .

ويقول فريق من الأدعياء انه فى حال اثبات صفة الآدمية وبقاء التكليف بصحة الخطاب وقيام حجة الله عليهم ، تكون المعرفة عجزا ، وقد صرنا عاجزين ، وعجزنا عن الكل . وهذه ضلالة وخسران ، ونقـــول لهم : فى طلب أى شىء عجزتهم ، وللعجز علامتان ، وكلتاهما ليستا معكم ، احداهما : علامة فناء آله الطلب ، والأخرى : اظهار التجلى ، فحيثما يكون فناء الآلة تتلاشى العبارة ، واذا عبرت العبارة عن العجز ، فان العبارة عن العجز لاتكون عجزا . وحيثما يكون اظهار التجلى ، لا يقبل علامة ولا يحصل التمييز، حتى لا يعرف العاجز أنه عاجز ، أو أن ما هو منسوب اليه يسمى عجزا ، لأن العجز يكون غيرا ، واثبات معرفة الغير لا يكون معرفة . وما دام للغير مكان فى القلب ، وما دام للعارف عن الغير عبارة ، فانه لا يكون عارفا بعد .

ويقول أبو حفص الحداد رحمه الله : « منذ عرفت الله ما دخل فى قلبى حق ولا باطل(١) » . لأنه ما دام للخلق رغبة وهوى ، فانه يرجع الى القلب حتى يرشده القلب الى النفس التى هى محل البـــاطل . وحين يجد العز الدائم ، فانه يرجع أيضا الى القلب حتى يرشده القلب الى الروح التى هى منبع الحق والحقيقة . وحين يكون الغير فى القلب ، يصير رجوع العـــارف اليه نكرا . فكل الخلق طلبوا برهان المعرفة من القلب ، وطلبوا منه الرغبة والهوى أيضا ، فمن لم يرغبوا فى طلب الباطل من القلب ، ولم يطمئنـــوا الا الى الحق ، طلبوا الحق من القلب ، ولما لزمت علامة البرهان رجعوا الى الحق . وهذا هو الفرق بين العبد الذى يرجع الى القلب ، والعبد الذى يرجع الى الحق

ويقول أبو بكر الواسطى رحمه الله : « من عرف الله انقطع ، بل خرس وانقمع(٢) » « وقال النبى عليه السلام : لا أحصى ثناء عليك(٣) » ، فالنبى عليه السلام طالمـــا كان فى الغيبة كان أفصح العرب والعجم ، وعندما حمل من الغيبة الى الحضرة قال : لا قدرة للسانى على كمال الثناء عليك ، فماذا أقول وقد صرت بلا قول من القول ، وبلا حال من الحال ؟ أنت هو أنت ، وكلامى بى أو بك ، فاذا قلت : بى ، أكون محجوبـــا بقولى ، واذا قلت : بك ، أكون بكسبى معيوبا فى تحقيق قربتك ، فأنا لا أتكلم . فجاء الأمر : اذا لم تقل يا محمد فاننا نقول ، « لعمرك اذا سكت عن ثنائى ، فالكل منك ثنائى » ، فاذا كنتلا ترى نفسك أهلا للثناء علينا ، فقد صيرنا جميع أجزاء العالم نائبة عنك ، لتثنى علينا ، وتحيل الثناء اليك .

وبالله التوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

---

(١) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦٠٢).
(٢) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦٠٣) .
(٣) رواه مسلم عن عائشة : « لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفســـك » .

كشف الحجاب الثانى
فى التوحيد

قوله تعالى : « والهكم اله واحد(١) . وقوله تعالى : قل هو الله أحد(٢) » الى آخره . وقوله تعـــالى : لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد(٣) » .

وقال النبى عليه السلام : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لأهله : اذا مت فاحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذرونى نصفى فى البر ونصفى فى البحر فى يوم رايح . ففعلوا . فقال الله عز وجل للريح : اجمعى ما أخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال :استحياء منك . فغفر له(٤) » .

وحقيقة التوحيد هى الحكم على وحدانية شىء بصحة العلم بواحدانيته . ولمـــا كان الحق تعالى واحدا بلا قسيم فى ذاته وصفاته ، وبلا دليل وشريك فى أفعاله ، والموحدون يعرفونه بهذه الصفة ، فانهم يسمون علمهم بوحدانيته توحيـــدا .

والتوحيد ثلاثة ، أولها : توحيد الحق للحق ، وذلك علمه بوحدانيته . والثانى : توحيد الحق للخلق ، وذلك حكمه بتوحيد العبد ، وخلقه التوحيد فى قلبه . والثالث : توحيد الخلق للحق ، وذلك علمهم بوحدانيـــة الله عز وجل(٥) ، فحين يكون العبد عارفا بالحق ، يستطيع الحكم بوحدانيته ، وبأنه تعالى واحد لا يقبل الوصل والفصل ، ولا تجوز عليه الاثنينية . ووحدانيته ليست عددا حتى تصير اثنين باثبات عدد آخر ، فتكون وحدانيته عددا . وانه ليس محدودا حتى تكون له الجهات الست ، ويلزم لكل جهة منها جهات ست أخرى ، ويكون هذا اثبات أعداد بلا نهاية . وليس له مكان ، وليس

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٦٣ .
(٢) سورة « الاخلاص » آية ١ .
(٣) سورة « النحل » آية ٥١ .
(٤) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٨١) .
(٥) ورد هذا التقسيم للتوحيد للقشيرى فى الرسالة (انظر ج ٢ص٥٨٢).

فى مكان حتى يكون متمكنا باثبات المكان ، ويلزم للمكان مكان أيضا ، ويبطل حكم الفعل والفاعل والقديم والمحدث . وليس عرضا فيحتاج الى جوهر ، ولا يبقى فى محله فى الحالين . وهو ليس جوهرا حتى لا يصح وجوده الا مع مثله . وليس طبعا حتى يكون مبدأ السكون والحركة . وليس روحا فيحتاج الى بنية . وليس جسما فيكون مؤلفا من أجزاء ، ويكون قوة فى الأشياء . وليس حالا فى شىء فيكون من جنس الأشياء ، ولا اتصال له بشىء فيكون ذلك الشىء جزءا منه . وهو مبرأ من كل النقائص والنقصان ، ومنزه عن الآفات ، ومتعال عن كل عيب . وليس له شبيه فيكون هو وشبيهه شبيئين . ولا ولد له فيقتضى نسله وصله وفصله . ولا يجوز التغيير على ذاته وصفاته فيتغير وجوده بذلك ، ويصير المتغير فى الحكم مثل التغير . وهو موصوف بصفات الكمال التى يثبتها له الموحدون بحكم البصيرة والهداية، والتى وصف نفسه بها ، وبرىء من الصفات التى يصفه بها الملحدون بهواهم، لأنه لم يصف نفسه بها « تعالى الله عما يقول الظالمون » .

حى وعليم ، رءوف ورحيم ، مريد وقدير ، سميع وبصير ، متكلم وباق . وعلمه ليس حالا فيه ، وقدرته ليست صلابة فيه ، وسمعه وبصره ليسا متحددين فيه ، وكلامه ليس تبعيضا وتحديدا فيه ، وهو دائما مع صفاته قديم ، وكل المعلومات ليست خارجة عن علمه ، وليس للموجودات بد من ارادته . يفعل ما يريد ، ويريد ما يعلم ، وليس للخلائق اشراف على أسراره. حكمه كله حق ، وليس لأحبائه سوى التسليم ، وأمره كله حتم ، ولا حيلة لمريديه غير انفاذ أمره . مقدر الخير والشر ، ولا يليق الرجاء والخوف الا به . خالق النفع والضر ، وحكمه كله حكمة ، ولا وجه سوى الرضا بقضائه . وليس لأحد شمة من وصله ، ولا سبيل للوصول اليه ، ورؤيته تجوز لأهل الجنة . ولا يليق للتشبيه والجهات ، ولا تجرى عليه المقابلة والمواجهة ، ويجوز للأولياء مشاهدته فى الدنيا ، وليس الانكار شرطا . وكل من يعرفه هكذا لا يكون من أهل القطيعة ، وكل من يعرفه بخلاف ذلك ، لا دين له . والكلام كثير فى هذا المعنى ، فى الأصول والوصول ، ولكنى اقتصرت على هذا خشية التطويل .

وفى الجملة : أقول أنا على بن عثمان الجلابى اننى ذكرت فى بداية هذا الفصل أن التوحيد هو الحكم على وحدانية شىء ، ولا يمكن الحكم الا بالعلم ، ولذا فقد حكم أهل السنة على وحدانية الله بالتحقيق ، لأنهم رأوا صنعا لطيفا ، وفعلا بديعا عجيبا ، وشاهدوا لطائف كثيرة ، ورأوا أن وجود هذه الصنائع بنفسها محال ، ووجدوا علامة الحدوث ظاهرة فى كل شىء ، فلا محالة من وجود فاعل ليوجدها من العدم : أى أن العالم والأرض

والسماء والشمس والقمر والبر والبحر والجبال والصحارى بصورها الكثيرة وحركاتها وسكناتها ، والعلم والنطق والموت والحياة ، هذه كلها لابد لها من صانع ، وهى فى غنى عن صانعين أو ثلاثة ، والصانع الواحد ، الكامل ، الحى ، العليم ، العالم ، القادر ، المختار مستغن عن شريك أو شركاء آخرين ، وبما أن الفعل لابد له من فاعل ، ولا حاجة لفعل واحد لوجود فاعلين ، فلا محالة أن يكون واحدا بلا شك وريب « بعلم اليقين » .

وقد اختلف معنا الثنوية(١) فى هذا باثبات النور والظلمة ، والمجوس(٢) باثبات يزدان وأهريمن ، والطباعيون باثبات الطبع والقوة ، والفلكيون باثبات الكواكب السبعة ، والمعتزلة باثبات خالقين وصانعين بلا نهاية . وقد ذكرت دليلا مختصرا لرد هؤلاء جميعا ، وليس هذا الكتاب موضعا لاثبات ترهات تلك الطوائف . ويلزم لطالب هذا العلم أن يطلب هذه المسألة من كتاب أكثر تطويلا ، ألفته وأسميته : « الرعاية بحقوق الله تعالى » ، أو فى كتب الأصوليين المتقدمين ، رضى الله عنهم .

وأعود الآن الى الرموز التى قالها المشايخ فى التوحيد ، بتوفيق الله .

فصل : يرد عن الجنيد رحمه الله أنه قال : « التوحيد افراد القدم عن الحدث(٣) » . أى انك لا ترى القديم محل الحوادث والحوادث محل

---

(١) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين ، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، فقد قال الثنوية من المانوية والديصانية والمرقيونية بقدم النور والظلمة وزعموا أن العالم مركب منهما ، وأن الخير والنفع من النور ، وأن الشر والضر من الظلام (الفرق بين الفرق ص ٢١٥—٢١٦) .

(٢) المجوس : من الثنوية ، فقد أثبتوا أصلين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر هما : « يزدان » و « اهرمن » .

ومسائل المجوس كلها تدور حول قاعدتين : احداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية : سبب خلاص النور من الظلمة .

والمجوس الأصلية أثبتوا الأصلين ، الا أنهم زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلى والظلمة محدثة (الملل والنحل على هامش الفصل : انظر ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣) .

(٣) ورد فى الرسالة : التوحيد الذى انفرد به الصوفية هو : افراد القدم عن الحدث . (انظر ج ٢ ص ٥٨٦) .

القديم ، وتعلم أن الحق تعالى قديم ، وانك بالضرورة محدث ، ولا يتصل به شيء من جنسك ، ولا يمتزج بك أى شيء من صفاته ، اذ لا مجانسة للقديم مع المحدث ، لأن القديم كان قبل وجود الحوادث . وبما أن القديم ، مذ كان ، لم يكن محتاجا الى المحدث قبل وجود الحوادث ، فانه لا يحتاج اليه أيضا بعد وجودها . وهذا مخالف لمن يقولون بقدم الأرواح ، وقد مرذكرهم . وعندما يقول شخص ان القديم نازل فى المحدث ، أو يرى أن المحدث يتعلق بالقديم ، فانه لا يبقى دليل على حدوث العالم . وقد قالوا هذا فى مذهب الدهرية(١) ، فنعوذ بالله من اعتقاد السوء .

وفى الجملة : ان جميع حركات المحدثات هى توحيد ، وشاهد على قدرة الله عز وجل ، واثبات لقدمه .

(شـــعر عـــربى)

ففى كل شيء لـــه آيـــة تـــدل على انـــه واحـــد(٢)

أما العبد فغافل عن هذا كله لأنه يريد مرادا سواه ، أو يسكن الى غير ذكره . ولمـــا كان لا ينبغى له شريك فى العدم والوجود ، فمحال أن يكون له شريك فى الترتيب .

ويقول الحسين بن منصور رحمه الله : « أول قدم فى التوحيد فناء التفريد » . لأن التفريد حكم بانفصال شخص عن الآفات ، والتوحيد حكم بوحدانية شيء . فيجوز فى التفريد اثبات الغير ، ولا يجوز أن يوصف غيره بهذه الصفة . ولا يجوز على الوحدانية اثبات الغير ، ولا يليق لغير الحق أن يوصف بهذه الصفة ، فجاء التفريد عبارة مشتركة ، والتوحيـــد ناف للشركة . وأول قدم فى التوحيد نفى الشريك ، ورفع المزاج من المنهـــاج ، لأن المزاج فى المنهاج كطلب المنهاج بلا سراج .

---

(١) « الدهرية » : يقولون بقدم العالم وأبديته ، ويجحدون الصانع ، ويقولون ان ما يحدث فى العالم يحدث بقوانينه الطبيعية (انظـــر : الفرق بين الفرق ص ٧٨ ، ١٩٩) .

(٢) ورد فى اللمـــع :

وفى كل شيء لـــه شـــاهد يـــدل على انـــه واحـــــد

(أنظر ص ٥٣).

ويقول الحصرى رحمه الله : « أصولنا فى التوحيد خمسة أشياء : رفع الحدث ، واثبات القدم ، وهجر الأوطان ، ومفارقة الاخوان ، ونسيان ما علم وجهل(١) » .

أما رفع الحدث : فهو نفى المحـــدثات عن مقارنة التوحيد ، واستحالة الحوادث عن ذاته المقدسة جل جلاله .

واثبات القدم هو : الاعتقاد بدوام وجود الله تعالى وتقدس ، وقد شرحنا هذا من قبل فى قول الجنيد رضى الله عنه .

والمراد من هجر الأوطان : الانقطاع عن كل مألوفات النفس ، ومواطن راحة القلب ، ومواضع استقرار الطبع ، وهجرة المريدين من رسوم الدنيا ، بالمقامات السنية ، والأحوال البهية ، والكرامات الرفيعة .

والمراد بمفارقة الاخوان : الاعراض عن صحبة الخلق ، والاقبال على صحبة الحق ، لأن كل خاطر يمر به ذكر الغير ، يكون حجابا وآفة بالقدر الذى يمر به هذا الخاطر على سر الموحد ، ويحجبه عن التوحيد بهذا القدر ، لأن التوحيد باتفاق الأمم هو جمع الهمم ، والراحة مع الغير دليل تفرق الهمـــــة .

والمراد بنسيان ما علم وجهل من التوحيد هو : أن علم الخلق يكون بمتى وكيف ، أو بجنس أو بطبع ، وكل ما يثبته علم الخلق فى توحيـــد الحق ينفيه التوحيد ، وكل ما يثبته جهلهم يكون على خلاف علمهم ، لأن الجهل ليس توحيدا . والعلم بتحقيق التوحيد لا يصح الا بنفى التصرف ، وليس فى العلم والجهل سوى التصرف : تصرف عن بصيرة ، وآخر عن غفلة .

ويقول واحد من المشايخ رحمهم الله : كنت فى مجلس الحصرى فاستولى على النوم ، ورأيت ملكين نزلا من السماء الى الأرض وسمعا كلامه فترة ، فقال واحد منهما للآخر : الذى يقوله هذا الرجل علم التوحيد ، لا عين التوحيد . وعندما استيقظت كان (الحصرى) يتحدث عن التوحيد ، فالتفت الى وقال : يا فلان ! لا يمكن التحدث عن التوحيد الا بعلم التوحيد(٢) .

---

(١) ورد فى الرسالة : « رفع الحدث ، وأفراد القدم ، وهجر الاخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما علم وجهل » (أنظر جـ ٢ ص ٥٨٤) .

(٢) ورد فى الرسالة منسوبا الى منصور بن خلف المغربى (انظـــر جـ ٢ ص ٥٨٤) .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال : « التوحيد : أن يكون العبد شبحا بين يدى الله ، تجرى عليه تصاريف تدبيره ، فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده ، بالغناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له ،وعن استجابته بحقائق وجود وحدانيته فى حقيقة قربه ، بذهاب حسه وحركته ، لقيام الحق له فيما أراد منه ، وهو أن يرجع آخر العبد الى أوله ، فيكون كما كان قبل أن يكون(١) » .

والمراد من هذا كله أن لا يبقى للموحد اختيار فى اختيار الحق ، ولا يرى نفسه فى وحدانية الحق ، لأن نفسه تفنى فى محل القرب ، ويذهب حسه، وتجرى عليه أحكام الحق كما يريد الحق ، بفناء تصرف العبد ، حتى يصير كما كان ذرة فى الأزل فى حال عهد التوحيد ، لأن القائل هو الحق ، والمجيب هو الحق ، وهو علامة الذرة . ومن يكون كذلك لا يرتاح الخلق اليه حتى يدعونه الى شىء ، ولا يبقى له أنس مع أحد حتى يجيب دعوتهم .

وهذا القول يشير الى فناء الصفة ، وصحة التسليم فى حال القهر ، وكشف الجلال الذى يفنى العبد عن أوصافه ، حتى يصير آلة وجوهرا لطيفا، فاذا ضرب على كبد حمزة(٢) يمر بلا تصرف ، واذا وضع على ظهر مسيلمة(٣) يحمله بلا تمييز . وفى الجملة : يكون فانيا عن الكل ، ويصبح شخصه مكان تعبية أسرار الحق ، حتى يكون لنطقه حوالة اليه ، ولفعله اضافة اليه ، ولصفته قيام به ، ويبقى عليه حكم الشريعة لاثبات الحجة ، ويفنى عن رؤية الكل . وهذه صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد أوصلوه فى ليلة المعراج

---

(١) أورده السراج للجنيد وقد أجاب به عن توحيد الخاصة (انظر : اللمع ص ٤٩) .

(٢) حمزة بن عبد المطلب : عم النبى عليه السلام وأسد الله وأسد رسوله ، قتل يوم أحد ، اذ رماه وحشى غلام جبير بن مطعم بحربة فسقط ، ومثلت به هند بنت عتبة بن ربيعة وشقت عن كبده فأخذت منهـا قطعـة فلاكتها (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥) .

(٣) مسيلمة الكذاب : هو مسيلمة بن حبيب ، من حنيفة بن لجيم ، كان قد أسلم ثم ادعى النبوة فى سنة عشر وزعم أنه شريك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النبوة ، وقتل فى أيام أبى بكر الصديق . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٩ المعارف ص ١٧٨) .

الى مقام القرب — وللمقام مسافة أما القرب فلا مسافة له — وابتعد حاله عن نوع ما هو معلوم للخلق ، وانقطعت عنه الأوهام الى حد أن الكون افتقده ، وافتقد هو نفسه ، وحار فى فناء الصفة بلا صفة ، وتشوش ترتيب الطبائع واعتدال المزاج ، فبلغت النفس محل القلب ، والقلب درجة الروح ، والروح مرتبة السر ، والسر صفة القرب ، وانقطع عن الكل فى الكل ، فأراد أن تتخرب البنيـة ويفارق الشخص — وكان مراد الحق من ذلك اقـامة الحجة — فجاءه الأمر أن : ابق على حالك ، فوجد بذلك القوة ، وصارت تلك القوة قوته ، وبفنائه عن نفسه ظهر بقاؤه بالحق ، حتى رجع وقال : « انى لست كأحدكم(١) ، انى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى » ، لأن حياتى به ، وبقائى به . كما قال عليه السلام : « لى مع الله وقت لا يسع معى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل(٢) » .

ويرد عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : « ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهرا وباطنا فى ملكه وقدرته ، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار من غير احاطة ، ولا ادراك نهاية(٣) » .وهـذا قول جـامع لكل أحكام التوحيـــد .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته(٤) » . وقد أخطأ العلماء فى هذه الكلمة فيخالون أن العجز عن المعرفة هو عدم المعرفة ، وهذا محال ، لأن العجز يكون فى الحال الموجود ولا يكون فى الحال المعدوم ، كالميت فهو لا يكون عاجزا فى الحياة ويكون عاجزا فى الموت ، مع استحالة اسم العجز والقوة . والأعمى لا يكون عاجزا عن البصر ، لأنه فى العمى يعجز عن الرؤية . والمقعد لا يكون عاجزا عن القيام ، لأنه عاجز عن القيام فى القعود . وكذلك العارف فهو لا يكون عاجزا والمعرفة موجودة ، ويكون هذا كضرورة . وعلى هذا نحمل قول الصديق رضى الله عنـــه .

---

(١) ورد فى اللمع (انظر ص ١٣٢) .

(٢) ورد فى اللمع : « لى مع الله وقت لا يسعنى فيـه شىء غير الله عز و جل »(انظر ص ١٦١) .

(٣) ورد فى الرسالة : (انظر ج ٢ ص ٥٨٥) .

(٤) ورد فى اللمع (ص ٥٧) والرسالة (ج ٢ ص ٥٨٥) .

وقد قال أبو سهل الصعلوكى والأستاذ أبو على الدقاق رحمهما الله : ان المعرفة تكون كسبا فى البداية ، وتصير ضرورة فى النهاية . والعلم بالضرورة هو ما يكون صاحبه مضطرا وعاجزا عن دفعه وجلبه فى حال وجوده ، فبهذا القول يكون التوحيد فعلا للحق تعالى وتقدس فى قلب العبد .

ويقول الشبلى أيضا رحمه الله : « التوحيد حجاب الموحد عن جمال الأحدية » . لأنه اذا قيل أن التوحيد فعل للعبد فلا محالة أن فعل العبد لا يصير علة لكشف جلال الحق فى عين الكشف ، لأن كل ما يصير علة للكشف يكون حجابا ، والعبد بكل أوصافه غير ، فاذا عد صفته : الحق ، فللصفة لا محالة موصوف ، ويجب أن يعد صفته الحق أيضا ، وعندئذ يصير الموحد والتوحيد والأحد ثلاثتهم جميعا وجودا لأحدهم الآخر ، وهذا ثالوث النصارى بعينه . وما دامت أية صفة لا تكون مانعة للطالب عن فنائه فى التوحيد ، فانه يكون ما يزال محجوبا بتلك الصفة ، وما دام محجوبا فهو ليس بموحد ، « لأن ما سواه من الموجودات باطل » . فاذا صح أن كل ما سواه باطل ، وأن الطالب سواه ، فان صفة الباطل تكون باطلة فى كشف جمال الحق ، وهذا تفسير : « لا اله الا الله » .

ومعروف فى الحكايات أنه حين ذهب ابراهيم الخواص رضى الله عنه الى الكوفة لزيارة الحسين بن منصور ، قال له : يا ابراهيم ! فيم قضيت وقتك ؟ قال : لقد قومت نفسى على التوكل . فقال الحسين : « ضيعت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد(١) ؟ » .

وللمشايخ رحمهم الله كلام كثير فى التعبير عن التوحيد ، فقد قالت طائفة انه الفناء ، لأنه لا يصح الا فى بقاء الصفة . وقالت طائفة ان التوحيد ليس الا فناء صفة النفس ، ويجب جعل قياس هذا على الجمع والتفرقة ليصير معلوما .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : ان التوحيد سر من الحق الى العبد ، وهو لا يتضح بالعبارة حتى يزخرفه أحد بالعبارات المزخرفة ، لأن العبارة والمعبر غير ، واثبات الغير فى التوحيد اثبات للشريك ، وعندئذ يصير ذلك لهوا ، والموحد الهى وليس بلاه .

هذه هى أحكام التوحيد ومسلك أرباب المعرفة فيه ، على سبيل الاختصار ، وبالله العون والعصمة .

---

(١) هذه الحكاية مكررة (انظر ص ٤٣٦) .

كشف الحجاب الثالث
فى الايمان

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا(١) » ، وقال أيضا فى مواضع أخرى كثيرة : « يا أيها الذين آمنوا » .

وقال النبى عليه السلام : « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر(٢) » .

والايمان من وجه اللغة هو التصديق . وللناس فى اثبات حكمه فى الشريعة كلام كثير ، واختلاف لا يحصى .

والمعتزلة يقولون لجملة الطاعات العلمية والعملية : الايمان ، ولذا يخرجون العبد بالذنب من الايمان . والخوارج يقولون عين هذا ، ويقولون للعبد كافرا ، بالذنب الذى يرتكبه .

وتقول طائفة أخرى ان الايمان قول فقط ، وتقول طائفة انه معرفة فقط ، ويقول فريق من متكلمى أهل السنة انه التصديق المطلق . وقد ألفت فى بيان هذا كتابا مستقلا ، والمراد هنا اثبات اعتقاد مشايخ المتصوفة ، وجمهورهم فى الايمان على قسمين ، كما أن الفقهاء فريقان ، فجماعة مثل : الفضيل بن عياض وبشر الحافى وخير النساج وسمنون المحب وأبى حمزة البغدادى و (أبى) محمد الجريرى ، رضوان الله عليهم ، وكثير غيرهم يقولون ان الايمان هو القول والتصديق والعمل . وجماعة يقولون ان الايمان هو القول والتصديق ، مثل : ابراهيم بن أدهم وذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى وحاتم الأصم وأبى سليمان الدارانى والحارث المحاسبى والجنيد وسهل بن عبد الله التسترى وشقيق البلخى ومحمد بن الفضل البلخى وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين . وجماعة آخرون من فقهاء الأمة مثل مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وجماعة غيرهم على القول الأول ، وأيضا أبو حنيفة والحسين بن الفضل البلخى وأصحاب أبى حنيفة مثل : محمد بن الحسن وداود الطائى وأبى يوسف رحمهم الله على القول الثانى . وهذا الخلاف فى الحقيقة يرجع الى العبارة لا الى المعنى .

---

(١) سورة « النساء » آية ١٣٦ .

(٢) رواه مسلم ، والبيهقى فى شعب الايمان عن عمر ، وقال عنه صحيح (مختصر شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١٢) .

وأبين الآن هذا المعنى بطريق الاختصار ، ليصير معلوما لك ، حتى لاتقول لأحد بهذا الخلاف انه مخالف للأصل فى الايمان ، ان شاء الله .

فصل : اعلم أنه من المتفق عليه بين أهل السنة والجماعة ، وأهل التحقيق والمعرفة أن للايمان أصلا وفرعا . وأصله : التصديق بالقلب ، وفرعه : مراعاة الأمر . والعرب عادة يسمون فرع الشيء على وجه الاستعارة باسم الاصل مثلما يسمون نور الشمس فى جميع اللغات بالشمس . وبهذا المعنى يسمى فريق الطاعة ايمانا ، لأن العبد لا يصير آمنا من العقوبة الا بها . والتصديق المجرد لا يقتضى الأمن ما لم يؤد (العبد) أحكام الأمر ؛ فكل من تكون طاعته أوفر ، يكون أمنه من العقوبة أكثر ، ولما صار ذلك علة للأمن بالتصديق والقول سموه ايمانا .

ثم ان فريقا آخر قالوا : ان علة الأمن المعرفة لا الطاعة ، فمهما حصلت الطاعة فانه حين لا تكون المعرفة لا تجدى الطاعة ، وحين توجد المعرفة فانه اذا لم تكن الطاعة فان العبد ينجو أخيرا ، ولو أن حكمه يكون فى المشيئة : فاما أن يتجاوز الله عز وجل عن زلته بالفضل ، أو يغفر له بشفاعة النبى عليه السلام ، أو يعذبه بمقدار جرمه ثم يبعث به الى الجنة ، فهم حين يكونون أصحاب المعرفة فانهم ، وان يكونوا مجرمين ، لا يخلدون فى النار ، بحكم المعرفة . وأصحاب العمل لا يدخلون الجنة بالعمل المجرد بدون المعرفة ؛ فهنا صار معلوما أن الطاعة لم تجىء علة للأمن ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لن ينجو أحدكم بعمله ، قيل ، ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمته(١) » .

فالايمان من وجه الحقيقة ، بلا خلاف بين الأمة ، هو المعرفة والاقرار والعمل . وكل من يعرف (الله) يعرفه بوصف من الأوصاف ، وأخص أوصافه على ثلاثة أقسام : بعض يتعلق بالجمال ، وبعض يتعلق بالجلال ، وبعض يتعلق بالكمال . ولا سبيل للخلق الى كماله بدون أن يثبتوا له الكمال وينفوا عنه النقص . ويبقى هنا الجمال والجلال ، فمن يكن شاهده جمال الحق فانه يكون فى المعرفة مشتاقا دائما لرؤيته ، ومن يكن شاهده جلال الحق فانه ينفر دائما من أوصاف (نفسه) ، ويكون قلبه محل الهيبة ، فالشوق من تأثير المحبة ، وكذلك النفرة من أوصاف البشرية ، لأن كشف حجاب صفة

(١) مكـــرر .

البشرية لا يكون بغير عين المحبة ، فصار الايمان والمعرفة محبة . وعلامة المحبة الطاعة ، لأنه حين يكون القلب محل المحبة ، والعين محل الرؤية ، والروح محل العبرة ، والقلب موضع المشاهدة ، يجب أن لا يكون الجسد تاركا للأمر . ومن يكن تارك الأمر لا يكن جاهلا بالمعرفة . وهذه الآفة ظهرت فى هذا الزمان بين المتصوفة ، لأن فريقا من الملاحدة رأوا جمالهم ، وعرفوا قدرهم ومنزلتهم ، فتشبهوا بهم وقالوا ان هذه المشقة الكثيرة من أنك لم تعرف ، فاذا عرفت ارتفع التكليف .

ونقول : لا ، بل اذا عرفت صار القلب محل التعظيم ، وازداد تعظيم الأمر . ونرى أنه من الجائز أن يصل المطيع الى درجة ترتفع فيها عنه مشقة الطاعة ، ويزداد توفيقه فى أداء أمره ، الى درجة أن ما يؤديه الخلق بمشقة لا تكون له فى أدائه مشقة ، وهذا لا يمكن أن يكون الا بالشوق المقلق والمزعج .

ويقول فريق ان الايمان كله من الحق ، ويقول فريق آخر انه كله من العبد ، وقد طال هذا الخلاف بين الخلق بما وراء النهر ، فمن يقل انه كله منه (من الحق) يكن ذلك جبرا محضا ، لأنه يلزم أن يكون العبد فيه مضطرا ، ومن يقل انه كله منه (من العبد) يكن قدرا محضا ، لأن العبد لا يعرفه بغير اعلامه ، وطريق التوحيد دون الجبر وفوق القدر .

والايمان فى الحقيقة هو فعل العبد مقرونا بهداية الحق ، لأن من أضله (الله) لا يستطيع الاهتداء الى الطريق ، ومن هداه لا يضل « لقوله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا(١) » ، فعلى هذا الأصل ينبغى أن تكون الطاعة هداية الحق ، والايمان فعل العبد .

وعلامة الايمان على القلب : اعتقاد التوحيد ، وعلى العين : الحفظ من المنهيات والعبرة فى العلامات والآيات ، وعلى الأذن : استماع كلامه ، وعلى المعدة : التخلى عن محرماته ، وعلى اللسان : صدق القول ، وعلى الجسد : التعفف عن المنهيات ، لتوافق الدعوى المعنى . ولهذا استجاز ذلك الفريق الزيادة والنقصان فى الايمان .

(١) سورة « الأنعام » آية ١٢٥ .

والمتفق عليه بين الجميع أنه لا يجوز الزيادة والنقصان فى المعرفة ، لأنه لو كانت المعرفة تزيد وتنقص ، لوجب أن يزيد المعروف وينقص ، وبما أن الزيادة والنقصان لا يجوزان على المعروف ، فانهما لا يجوزان أيضا على المعرفة ، لأن المعرفة الناقصة لا تكون معرفة ، فيجب أن تكون الزيادة والنقصان فى العمل والفرع . ومن المتفق عليه أن الزيادة والنقصان اللذين فى العمل والفرع يجوزان على الطاعة ، وذلك يصعب على قلوب الحشوية الذين ينتسبون الى الفريقين ، لأن فريقا من الحشوية يقولون ان الطاعة من جملة الايمان ، وفريقا آخر لا يرون الايمان الا القول المجرد ، وكلا هذين عدم انصاف .

وجملة القول : ان الايمان على التحقيق هو استغراق كل أوصاف العبد فى طلب الحق ، ويجب أن يكون اتفاق جميع المؤمنين على هذا ، لأن غلبة سلطان المعرفة قاهر لأوصاف الانكار ، وحيثما يكون الايمان تنتفى أسباب الانكار ، فقد قيل : « اذا طلع الصباح بطل المصباح » . وقوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها(١) » ، فاذا حصلت حقيقة المعرفة فى قلب العارف فنيت ولاية الظن والشك والانكار ، وسخر سلطانها حواسه وهواه ، حتى يكون كل ما يفعله ويقوله وينظره فى دائرة الأمر .

ووجدت فى الحكايات أن ابراهيم الخواص سئل عن حقيقة الايمان ، فقال (للسائل) ليس عندى الآن لهذا جواب ، لأن كل ما أقوله يكون عبارة ، ويلزمنى أن أجيب بالمعاملة . ولكنى أقصد مكة ، وأنت أيضا اصحبنى فى هذا الطريق على هذا العزم ، لتجد جواب مسألتك . قال : ففعلت هكذا ، فلما توغلت معه فى البادية كان يظهر فى كل ليلة قرصان وشربتا ماء ، فكان يعطينى واحدا ويأكل الآخر ، الى أن أقبل ذات يوم فى وسط البادية شيخ راكب ، فلما رآه ترجل عن جواده ، وسأل كل منهما الآخر (عن حاله) وتحدثا مدة ، وركب الشيخ وعاد . فقلت : أيها الشيخ ! قل لى من كان ذلك الشيخ ؟ قال : كان جواب سؤالك . قلت : كيف ؟ قال : ذلك كان الخضر النبى عليه السلام الذى كان يطلب صحبتى ، ولم أجبه لأنى خشيت فى تلك الصحبة أن أعتمد عليه دون الحق ، فيفسد توكلى ، وحقيقة الايمان حفظ التوكيل على الله عز وجل ، لقوله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين(٢) » .

---

(١) سورة « النمل » آية ٣٤ .
(٢) سورة « المائدة » آية ٢٣ .

ويقول محمد بن خفيف رحمه الله : « الايمان : تصديق القلب بما أعلمه من الغيب » . لأن الايمان بالغيب ، والله تعالى غائب عن العين ، ولا يمكن ايجاده فى يقين العبد الا بالقوة الالهية ، ولا يكون ذلك الا باعلام الله تعالى . وبما أنه — « جل جلاله وعم نواله » — معرف العرفاء ، ومعلم العلماء ، لأنه خلق فى قلوبهم المعرفة والعلم ، وقطع حوالة ذلك عن كسبهم ، فان كل من صدق قلبه بمعرفة الحق يكون مؤمنا .

وبحكم أن لى كلاما كثيرا فى هذا الباب ، فى غير هذا الكتاب ، اكتفيت هنا بهذا القدر حتى لا يطول الكتاب . وأيضا اذا حصلت هداية الحق يكون هذا القدر كافيا .

والآن : فلنمض الى سر المعاملات ، ولنكشف حجبها ليكون للطالبين فوائد ان شاء الله .

كشف الحجاب الرابع
فى الطهارة

أول شىء يفرض على العبد بعد الايمان هو الطهارة لأداء الصلاة ، وتلك طهارة البدن من النجاسة والجنابة ، وغسل الأعضاء الثلاثة ، ومسح الرأس اتباعا للشريعة ، أو التيمم فى حال فقد المـاء أو شـدة المرض ، أو الخوف من المرض كما هو معلوم من أحكام هذا .

واعلم ان الطهارة على نوعين : أحدهما طهارة الظاهر ، والآخر طهارة القلب ، فكما أن الصلاة لا تصح بدون طهارة البدن ، فان المعرفة لا تصح بدون طهارة القلب . فيلزم لطهارة البدن الماء المطلق ، ولا يجوز المـاء المشوب أو الملوث أو المستعمل ، ويلزم لطهارة القلب التوحيد المحض ، ولا يليق بالاعتقاد المختلط والمشوش ، فهذه الطائفة يكونون دائما على الطهارة بالظاهر ، وعلى التوحيد بالباطن ، « كما أمر النبى عليه السلام : داوم على الوضوء يحببك حافظاك » ، وقوله تعالى : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين(١) » ، فكل من يداوم على الطهارة بالظاهر تحبه الملائكة ، وكل من يقوم على التوحيد بالباطن يحبه الله تعالى .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول دائما : « اللهم طهر قلبى من النفاق(٢) » ولم يكن النفاق يتأتى فى قلبه بحال من الأحوال ، ولكن رؤيته لكراماته كانت تبدو له اثباتا للغير ، واثبات الغير نفاق فى محل التوحيد . ومهما جعلوا ذرة من كرامات المشايخ كحلا لأعين المريدين ، فقد كانت فى النهاية — فى محل كمالها — حجابا للمكرم ، لأن ما يكون غيرا تكون رؤيته آفة ، سواء رأى نفسه أو رأى غيره ، ولذلك قال أبو يزيد رضى الله عنه : « نفاق العارفين أفضل من اخلاص المريدين » . أى أن كل ما يكون مقاما

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٢٢ .

(٢) « اللهم طهر قلبى من النفاق وعملى من الرياء ولسانى من الكذب وعينى من الخيانة فانك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » رواه البخارى والطبرانى عن أم معبد الخزاعية وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٠١) .

للمريد يكون حجابا للكامل ، فهمة المريد أن يجد الكرامات ، وهمة الكامل أن يجد المكرم .

وفى الجملة فان اثبات الكرامات يبدو لأهل الحق نفاقا ، لأن ذلك معاينة للغير ، فآفة أحباء الله تكون خلاصا لأهل المعصية من المعصية ، وآفة أهل المعصية تكون نجاة لكل أهل الضلالة من الضلالة ، لأنه لو كان الكفار يعرفون أن معصيتهم مكروهة من الله عز وجل ، كما يعرف العصاة ، لنجوا جميعا من الكفر . ولو كان العصاة يعرفون أن جميع معاملاتهم محل للعلة ، كما يعرف الأحبة ، لنجوا جميعا من المعصية ، ولتطهروا من جميع الآفات .

فيلزم اذن أن تكون طهارة الظاهر موافقة لطهارة السر . أى أنه عندما يغسل اليد ، يجب أن يغسل القلب من حب الدنيا . وحين يستنجى ، فكما أنه طلب النجاة من نجاسة الظاهر ، يطلب النجاة من محبة الغير بالباطن . وحين يجعل الماء فى فمه فانه يجب أن يخلى فمه من ذكر الغير . وحين يستنشق يجب أن يحرم على نفسه رائحة الشهوات . وعندما يغسل الوجه فانه يجب عليه أن يعرض عن جميع المألوفات كلية ، ويقبل على الحق . وعندما يغسل اليدين يجب أن يقطع تصرفه عن جمع أنصبة نفسه . وعندما يمسح الرأس يجب أن يسلم أموره للحق . وعندما يغسل القدم يجب أيضا أن لا ينوى الاقامة على غير حق أمر الله تعالى ، لتتأتى له الطهارتان ، لأن جميع أمور الشرع الظاهرة مرتبطة بالباطن ، مثل الإيمـان ، فهو قول باللسان فى الظاهر ، وتصديق بالقلب فى الباطن . وحقيقة النية بالقلب وأحكام الطاعة على الجسد ، فطريق الطهارة هو التفكر والتدبر فى آية الدنيا والدين ، لأن الدنيـا دار غدارة ومحـل الفنـاء ، ولا يخلو القلب منهـا الا بالمجاهدات الكثيرة . وأهم المجاهدات : حفظ آداب الظاهر ، والمحافظة عليها فى جميع الأحوال .

ويرد عن ابراهيم الخواص رحمه الله أنه قال : يلزمنى من الله عمر الأبد فى الدنيا لينشغل جميع الخلق فى نعم الجنة وينسوا خدمة الحق ، وأقوم أنا فى بلاء الدنيا بحفظ آداب الشريعة ، وأذكر الحق .

ويرد عن أبى طاهر الحرمى أنه كان مجاورا فى مكة أربعين عاما ، ولم يتطهر فى مكة ، وكان فى كل مرة يخرج من مكة خارج حدود الحرم للطهارة ، ويقول : اننى أكره أن أصب على الأرض التى أضافها الله الى نفسـه ماء استعملته .

ويرد عن ابراهيم الخواص أنه كان مبطونا فى جامع الرى ، وكان قد اغتسل فى يوم وليلة ستين مرة ، وفى النهاية كانت وفاته فى وسط الماء(١) .

وابتلى أبو على الرودبارى رحمه الله ببلاء الوسواس فى الطهارة ، قال : ذات ليلة نزلت فى الماء فى وقت السحر وبقيت حتى طلوع الشمس ، وكنت فى ذلك الوقت مريضا بقلبى ، وقلت : اللهم أسألك العافية ! فصاح هاتف : ان العافية فى العلم .

ويرد عن سفيان الثورى رحمه الله أنه تطهر لصلاة واحدة ستين مرة ، أثناء مرضه فى حال رحيله عن الدنيا ، وقال : لكى أكون طاهرا عندما يأتى الأمر .

ويقال ان الشبلى رحمه الله تطهر يوما بقصد الذهاب الى المسجد ، فسمع هاتفا يقول : غسلت الظاهر ، فأين صفاء الباطن ؟ قال : فعدت ووهبت كل ملكى وميراثى ، ولم ألبس طوال سنة الا ذلك القدر من الثياب الذى تجوز به الصلاة ، ثم ذهبت الى الجنيد فقال لى رضى الله عنه : يا أبا بكر ! لقد كانت طهارة مفيدة جدا تلك التى فعلتها ، فليجعلك الله دائما طاهرا . وقال انه من بعد ذلك لم يكن أبدا بدون طهارة ، الى حد أنه حين هم بالذهاب من الدنيا وقع نقص فى طهارته ، فأشار الى مريد أن : طهرنى ! فطهره ، ونسى أن يخلل لحيته — ولم يكن فى ذلك الوقت يستطيع الكلام — فأمسك بيد المريد وأشار الى لحيته فخللها(٢) .

ويرد عنه أنه قال : لم أترك فى أى وقت أدبا من آداب الطهارة ، فلم يظهر فى باطنى عجب .

ويرد عن أبى يزيد رحمه الله أنه قال : كلما يمر على قلبى التفكير فى الدنيا أتطهر ، وعندما تمر فكرة العقبى اغتسل ، لأن الدنيا محدثة والتفكير فيها يكون حدثا ، والعقبى محل الغيبة ، والراحة معها جنابة ، ويجب الطهارة من الحدث ، والاغتسال من الجنابة .

ويرد عن الشبلى رحمه الله أنه تطهر يوما ، فلما دخل المسجد نودى فى سره أن : يا أبا بكر ! هل تطهرت الطهارة التى تجعلك تدخل بيتى بهذه

---

(١) وردت فى ترجمته فى طبقات الصوفية اشارة الى هذا (انظر : طبقات الصوفية ص ٢٨٤) .
(٢) وردت فى اللمع اشارة الى هذا على لسان بكران الدينورى (انظر ص ٢٨١) .

الجراة ؟ ولما سمع ذلك رجع ، فنودى : أتتحول عن عتبتى ! الى أين ستذهب ؟ فصرخ ، فنودى : انك تشنع علينا ، فوقف صامتا ، فنودى : انك تدعى تحمل بلائنا ، فصاح قائلا : « المستغاث بك منك ! » .

ولمشايخ هذه الطريقة رحمهم الله أقوال كثيرة فى تحقيق الطهارة ، وقد أمروا المريدين بالمداومة على طهارة الظاهر والباطن حين يقصدون أعتاب الحق ، فحين يقصد شخص الخدمة بالظاهر يجب أن يطهر الظاهر ، وحين يقصد القربى بالباطن يجب أن يطهر الباطن . وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة والرجوع الى حضرة الله تعالى .

والآن : أشرح حكم التوبة وما يتعلق بها ، لتعلم لك حقيقتها ، ان شاء الله .

باب التوبة وما يتعلق بها :

اعلم أن التوبة أول مقام لسالكى طريق الحق ، كما أن الطهارة أول درجات طالبى الخدمة ، « كما قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا(١) » ، وقال أيضا : « وتوبوا الى الله جميعا(٢) » .

والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما من شىء أحب الى الله من شاب تائب(٣) » ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له(٤) » ، ثم قال : اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب(٥) ، ثم تلا : « ان الله يحب التوابين(٦) » . وقالوا : ما علامة التوبة ؟ قال : الندامة .

أما ما قاله من أن الذنب لا يضر الأحبة ، فيعنى أن العبد لا يكفر بالذنب ،

---

(١) سورة « التحريم » آية ٨ .
(٢) سورة « النور » آية ٣١ .
(٣) رواه أبو المظفر السمعانى فى أماليه عن سلمان (مختصر شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٥٥) .
(٤) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود (مختصر شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٩) .
(٥) رواه القشيرى فى الرسالة وابن النجار عن أنس .
(٦) سورة « البقرة » آية ٢٢٢ .

ولا يتأتى فى ايمانه ضرر . وحين لا يضر الذنب الأصل ، فان ضرر المعصية التى عاقبتها النجاة ، لا يكون ضررا فى الحقيقة .

واعلم أن التوبة فى اللغة بمعنى الرجوع ، على نحو ما يقال : « تاب » أى « رجع » ، فالرجوع عما نهى الله عنه الى الطيب من أمر الله تعالى هو حقيقة التوبة .

والنبى عليه السلام قال : « الندم توبة(١) » ، وهذا لفظ جامع مودعة فيه كل شروط التوبة ، لأن أول شرط للتوبة هو الأسف على المخالفة ، والشرط الثانى : ترك الزلة فى الحال ، والثالث : العزم على عدم الرجوع الى المعصية ، وهذه الشروط الثلاثة مرتبطة بالندم ، لأنه عندما يحدث الندم فى القلب يكون الشرطان الآخران تابعين له .

وكما أن للتوبة شروطا ثلاثة ، فان للندم أسبابا ثلاثة ، الأول : أنه عندما يستولى خوف العقوبة على القلب ويتأتى الحزن على الفعال السيئة فى القلب ، يحدث الندم . والثانى : أنه عندما تستولى الرغبة فى النعمة على القلب ، ويعرف أنها لا تتأتى بالفعل السىء والمعصية ، فانه يندم لذلك على أمل أن يجدها . والثالث : أنه يخجل من الله ، ويندم على المخالفة . فواحد من هؤلاء الثلاثة تائب ، وواحد منيب ، وواحد أواب .

وللتوبة مقامات ثلاثة ، أولها : التوبة ، والثانى : الانابة ، والثالث : الأوبة . فالتوبة : الخوف من العقاب ، والانابة : لطلب الثواب ، والأوبة : لرعاية الأمر ، لأن التوبة مقام عامة المؤمنين ، وتكون من الكبيرة ، « لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » . والانابة مقام الأولياء والمقربين ، لقوله تعالى : من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب(٢) » . والاوبة مقام الأنبياء والمرسلين ، « لقوله تعالى : نعم العبد انه أواب (٣) » .

فالتوبة : الرجوع عن الكبائر الى الطاعة ، والانابة : الرجوع عن الصغائر الى المحبة ، والأوبة : الرجوع عن النفس الى الله تعالى . والفرق

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٨٦) .
(٢) « سورة ق » آية ٣٣ .
(٣) سورة « ص » آية ٣٠ .

ظاهر بين من يرجع عن الفواحش الى الأوامر ، ومن يرجع عن اللمم والوهم الى المحبة ، وبين من يرجع عن نفسه الى الحق .

وأصل التوبة أن تكون من زواجر الحق ، واستيقاظ القلب من نوم الغفلة، ورؤية عيب الحال . وحين يتفكر العبد فى سوء أحواله ، وقبح أفعاله ، ويتخلص من ذلك ، يسهل عليه الحق تعالى أسباب التوبة ، ويخلصه من شؤم المعصية ، ويبلغه حلاوة الطاعة .

ويجوز عند أهل السنة والجماعة وكل مشايخ المعرفة أن يتوب الشخص عن ذنب واحد ، ويذنب ذنوبا أخرى ، ويثيبه الله على ذلك الذنب الذى رجع عنه ، وربما يرده عن الذنوب الأخرى ببركة ذلك ، مثل شخص سكير وزان : يتوب عن الزنا ، ويصر على شرب الخمر ، فتكون توبته من الذنب الأول صحيحة ، مع ارتكابه للذنب الثانى .

والبهشمية(١) من المعتزلة يقولون ان اسم التوبة لا يصح الا على الشخص الذى يجتنب جميع الكبائر . وهذا القول محال ، لأن الشخص يعاقب على كل المعاصى التى يرتكبها ، وحين يترك نوعا من المعاصى فانه يأمن من العقوبة عليه ، فلا محالة من أن يكون بذلك تائبا . وأيضا اذا كان شخص يؤدى بعض الفرائض ويمتنع عن البعض ، فلا محالة من أن يثاب بما يعمله ، كما أنه يعاقب على ما يتركه . وحين لا تكون لأحد آلة المعصية ولا تتهيأ له أسبابها ويتوب عنها فانه يكون تائبا — لأن للتوبة ركنا هو الندامة — ولأنه بتلك التوبة تحصل له الندامة على الماضى ، وهو معرض فى الحال عن ذلك الجنس من المعصية ، وعازم على أنه اذا وجدت الآلة وتهيأت الأسباب فانه لن يعود أبدا الى هذه المعصية .

---

(١) « البهشمية » : هم أتباع أبى هاشم بن الجبائى ، ويقال لهم : الذمية لقولهم : باستحقاق الذم والعقاب لا على فعل ، وأنه سمى من لم يفعل ما أمر به عاصيا وان لم يفعل معصية ، ولم يوقع اسم المطيع الا على من فعل الطاعة ، وزعم أن المكلف لو تغير تغيرا قبيحا يستحق بذلك قسطين من العذاب . وسائر المعتزلة يكفرونه فى هذه المواضع الثلاثة . ومن قوله فى التوبة انها لا تصح من ذنب مع الاصرار على قبيح آخر يعلمه قبيحا أو يعتقده قبيحا وان كان حسنا . وقوله فى التوبة أيضا انها لا تصح عن الذنب بعد العجز عن مثله .
(انظر : الفرق بين الفرق ص ١١١ — ١١٥).

والمشايخ مختلفون فى وصف التوبة وصحتها ، وسهل بن عبد الله ومعه جماعة رحمهم الله على أن « التوبة أن لا تنسى ذنبك » ، وتخجل منه دائما حتى اذا ما عملت أعمالا كثيرة لا تعجب بذلك ، لأن الحسرة على العمل السيء تكون مقدمة للأعمال الصالحة . والشخص الذى لا ينسى الذنب لا يعجب بنفسه أبدا .

والجنيد أيضا ومعه جماعة رحمهم الله على أن « التوبة أن تنسى ذنبك »، لأن التائب يكون محبا ، والمحب يكون فى المشاهدة ، وذكر الجفاء فى المشاهدة جفاء ، فيكون أوقاتا مع الجفاء ، وأوقاتا مع ذكر الجفاء ، وذكر الجفاء حجاب عن الوفاء . ومرجع هذا الخلاف مرتبط بالخلاف فى المجاهدة والمشاهدة، ويجب طلب هذا فى مذهب السهليين ، فمن يقل ان التائب قائم بنفسه ، ير نسيان ذنبه غفلة ، ومن يقل انه قائم بالحق ، يبد له ذكر الذنب شركا .

وفى الجملة : اذا كان التائب باقى الصفة ، فان عقدة أسراره لا تكون قد حلت ، واذا كان فانى الصفة ، فلا يصح له ذكر الصفة ، فموسى عليه السلام قال : « تبت اليك » فى حال بقاء الصفة ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحصى ثناء عليك » فى حال فناء الصفة .

وجملة القول : ان ذكر الوحشة فى محل القرب يكون وحشة ، ويلزم للتائب الا يذكر نفسه ، فكيف يذكر ذنبه ؟ . وفى الحقيقة ان ذكر الذنب ذنب ، لأنه محل الأعراض ، وكما أن الذنب محل الاعراض ، فان ذكره أيضا يكون محل الاعراض ، وكذلك ذكر غيره . وكما أن ذكر الجرم يكون جرما ، فان نسيانه أيضا يكون جرما ، لأن تعلق الذكر والنسيان كلاهما مرتبط بك أيضا .

قال الجنيد رحمه الله : قرأت كتبا كثيرة فلم أفد منها بقدر ما أفدت من هذا البيت :

(شعر عربى)

اذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

ولما كان وجود المحب فى حضرة الحبيب يكون جنابة ، فأية قيمة تكون لوصفه ؟

وفى الجملة : ان التوبة تأييد ربانى ، والمعاصى فعل جسمانى ، فاذا حلت الندامة فى القلب ، لا تبقى على الجسد أية آلة تدفع

ندامة القلب . ولما لم يكن فعله(١) فى البداية دافعا للتوبة ، فانها حين جاءت(٢) ، لا يكون فعله فى النهاية أيضا حافظا للتوبة . وقال الله عز وجل: « فتاب عليه انه هو التواب الرحيم(٣) » . ولهذا نظائر كثيرة فى نص الكتاب الى حد أنها لشهرتها لا توجد حاجة لاثباتها .

فالتوبة على ثلاثة أنواع : واحدة من الخطأ الى الصواب ، والثانية من الصواب الى الأصوب ، والثالثة من النفس الى الحق . وتكون من الخطأ الى الصواب « لقوله تعالى : والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم(٤) » الآية . ومن الصواب الى الأصوب ما قاله موسى عليه السلام : « تبت اليك(٥) » . ومن النفس الى الحق ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « وانه ليغان على قلبى ، وانى لاستغفر الله فى كل يوم سبعين مرة(٦) » .

وارتكاب الخطأ قبيح ومذموم ، والرجوع من الخطأ الى الصواب طيب ومحمود ، وهذه توبة العامة ، وحكم هذا ظاهر ، وطالما كان الأصوب ، فان الاستقرار مع الصواب وقفة وحجاب . والرجوع من الصواب الى الأصوب محمود فى درجة أهل الهمة ، وهذه توبة الخواص ، ومحال أن يتوب الخواص من المعصية : ألم تر أن كل العالم كانوا يحترقون فى حسرة رؤية الله ، وتاب عنها موسى عليه السلام ، لأنه طلب الرؤية باختياره ، والاختيار فى المحبة آفة ، وتركه آفة اختياره بدا للخلق تركا للرؤية ؟ والرجوع من النفس الى الحق يكون فى درجة المحبة ، فيتوب من الوقوف على المقام العالى ، كما يتوب من آفة المقام الأعلى ، ويتوب أيضا من رؤية المقامات والأحوال ،

---

(١) أى : فعل العبد .
(٢) أى : حين جاءت التوبة .
(٣) سورة « البقرة » آية ٣٧ .
(٤) سورة « آل عمران » آية ١٣٥ .
(٥) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٦) عن أغر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى . وفى رواية لمسلم : « توبوا الى ربكم فوالله انى لأتوب الى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » .

مثلما كانت مقامات المصطفى عليه السلام فى ترق كل لحظة ، فانه حينما كان يصل الى مقام أعلى ، كان يستغفر من المقام الأدنى ، ويتوب من رؤية ذلك المقام . والله أعلم بالصواب .

فصـــل : اعلم أنه ليس للتوبة شرط التأبيد من بعد أن يصح العزم على عدم الرجوع الى المعصية . واذا وقعت للتائب فترة(١) وعاد الى المعصية ، من غير أن يصح عزمه على الرجوع ، يكون قد أدرك حكم التوبة وثوابها عن الأيام التى مرت . وقد كان من المبتدئين والتائبين من هذه الطائفة من تابوا وحدثت لهم فترة وعادوا الى الفساد ، ثم رجعوا الى أعتاب الله بحكم تنبيه، حتى أن واحدا من المشايخ رحمهم الله قال : تبت سبعين مرة ثم رجعت الى المعصية ، حتى وجدت الاستقامة فى المرة الحادية والسبعين .

وقال أبو عمرو بن نجيد(٢) رضى الله عنه : تبت أول مرة فى مجلس أبى عثمان الحيرى ، وبقيت على ذلك مدة ، ثم ظهر فى قلبى داع للمعصـــية فتابعته ، وأعرضت عن صحبة ذلك الشـــيخ . وكنت حيثما أراه من بعيد أهرب من الخجل حتى لا يرانى . والتقيت به يوما فجأة فقال لى : يا بنى ! لا تصاحب أعداءك الا أن تكون معصوما ، لأن العدو يرى عيبك . وعندما تكون معيوبا يفرح العدو ، وحين تكون معصوما يحزن . واذا لزمك أن تفعل معصية ، فتعال الينا لنحمل بلاءك ، حتى لا تكون كما يهوى العدو . قال : فسئم قلبى المعصية ، وصحت توبتى .

وسمعت أيضا أن واحدا تاب من المعاصى ورجع اليها ثانية ، ثم ندم وقال لنفسه يوما : اذا عدت الى الحضرة فكيف يكون حالى ؟ فصاح به هاتف أن: « أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، فان عدت الينا قبلناك » .

---

(١) أى : عودة الى ما كان عليه قبل التوبة .

(٢) هو اسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن سالم بن خالد السلمى، جد أبى عبد الرحمن السلمى لأمه . صحب أبا عثمان الحيرى ، ولقى الجنيد، وكان من أكبر مشايخ وقته . مات سنة ست وستين وثلثمائة (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٥٤ ، الرسالة جـ ١ ص ١٧١ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٥ ، تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٢٦٢ ، نفحات الانس ص ٢٢٧).

والآن ، نعود الى أقاويل المشايخ رضى الله عنهم .

فصـــل : يقول ذو النـــون المصرى : « توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة(١) » . لأن العوام يسألون عن ظاهر الحال ، والخواص عن تحقيق المعاملة ، لأن الغفلة للعوام نعمة ، وللخواص حجاب .

ويقول أبو حفص الحداد رحمه الله : « ليس للعبد فى التـــوبة شىء لأن التوبة اليه لا منه(٢) » . وبهذا القول يجب ألا تكون التوبة من كسب العبد، لأنها موهبة من مواهب الحق سبحانه وتعالى . وهذا القول يتعلق بمذهب الجنيـــد .

ويقول أبو الحسن البوشنجى فى التوبة : « اذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فهو التوبة » . لأن ذكر المعصية اما أن يكون بحسرة أو برغبة ، فاذا ذكر أحد المعصية بالحسرة والندم يكون تائبـــا ، وكل من يذكر معصيته برغبة يكون عاصيا ، فليس فى فعل المعصية من الآفة بقـــدر ما فى الرغبة فيها ، لأن فعل المعصية يكون لفترة ، أما الرغبة فيها فدائمة ، فمن يكن مع المعصية ساعة بجسده لا يكن كمن يصاحبها ليل نهار بقلبه .

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : « التوبة توبتان : توبة الانابة ، وتوبة الاســـتجابة ، فتـــوبة الانابة : أن يتوب العبد خوفا من عقـــوبته ، وتوبة الاستجابة : أن يتوب حياء من كرمه(٣) » . وتولد الخوف يكون من كشف الجلال ، وتولد الحياء يكون من رؤية الجمال ، فواحد فى الجلال يحترق من نار خوفه ، وواحد فى الجمال يضىء من نور حيائه : واحد فى سكره ، والآخر مدهوش . وأهل الحياء أصحاب سكر ، وأهل الخوف أصحاب صـــحو ، والكلام فى هذا طويل ، وقد اختصرته خوف الاطالة ، وبالله العون والعصمة، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

---

(١) ورد بنصه فى اللمع (أنظر ص ٦٨) ، وفى الرســـالة (انظـــر جـ١ ص ٢٦٠) .

(٢) ورد بنصه فى الرسالة (انظر جـ ١ ص ٢٦٢) .

(٣) ورد هذا القول بنصه فى الرسالة مســـندا الى ابن عطاء (انظـــر الرســـالة جـ ١ ص ٢٦١) .

كشف الحجاب الخامس
فى الصلاة

« قوله تعالى : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة(١) » . « وقوله عليه السلام : الصلاة وما ملكت أيمانكم(٢) » .

والصلاة فى اللغة بمعنى الذكر والانقياد ، وهى فى جريان عبارات الفقهاء عبارة مخصوصة تطلق على هذه الأحكام المعتادة . وهى أمر من الحق تعالى أن : أقيموها خمس مرات . ولها شروط قبل الدخول فيها ، أولها : الطهارة من النجاسة فى الظاهر ، ومن الشهوة فى الباطن . والثانى : طهارة الثوب من النجاسة فى الظاهر ، وأن يكون من وجه الحلال فى الباطن . والثالث : طهارة الروح من الحوادث والآفات فى الظاهر ، ومن الفساد والمعصية فى الباطن . والرابع : استقبال القبلة ، فقبلة الظاهر الكعبة ، وقبلة الباطن العرش ، وقبلة لسر المشاهدة . والخامس : قيام الظاهر فى حال القدرة ، وقيام الباطن فى روضة القربة ، بشروط دخول وقتها فى ظاهر الشريعة ، ودوام وقتها فى درجة الحقيقة . والسادس : خلوص النية فى استقبال الحضرة . والسابع : التكبير فى مقام الهيبة ، والقيام فى محل الوصلة ، والقراءة بترتيل وعظمة ، والركوع بخشوع ، والسجود بتذلل ، والتشهد باجتماع ، والسلام بفناء الصفة ، كما جاء فى الخبر عن النبى عليه السلام : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى وفى جوفه أزيز كأزيز المرجل » .

وعندما كان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقصد الصلاة كان شعره يخرج من ثوبه ، وتعروه رعدة ، ويقول : جاء وقت قضاء الأمانة التى عجزت السماوات والأرضون عن حملها .

ويقول واحد من المشايخ : سألت حاتما الأصم ، رحمة الله عليه ، كيف تصلى ؟ قال : حين يدخل الوقت أتوضأ وضوءا ظاهريا وآخر باطنيا : الظاهرى

---

(١) سورة « البقرة » آية ٤٣ .
(٢) رواه أحمد والنسائى وابن حبان عن أنس ، والطبرانى عن ابن عمر (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٨٢) .

بالماء ، والباطنى بالتوبة . ثم أدخل المسجد ، وأجعل المسجد الحرام شاهدى ، وأضع مقام ابراهيم بين عينى(١) ، وأرى أن الجنة عن يمينى ، والنار عن يسارى ، والصراط تحت قدمى ، وملك الموت خلفى ، وعندئذ أكبر بتعظيم ، وأقوم بحرمة ، وأقرأ بهيبة ، وأسجد بتضرع ، وأركع بتواضع ، وأجلس بحلم ووقار ، وأسلم بالشكر . وبالله العون .

فصل : اعلم أن الصلاة عبادة يجد فيها المريدون طريق الحق من البداية الى النهاية ، وتتكشف فيها مقاماتهم : فالطهارة للمريدين فى مكان التوبة ، والتعلق بشيخ فى مكان التوجه الى القبلة ، والقيام بمجاهدة النفس فى مكان القيام ، ودوام الذكر فى مكان القراءة ، والتواضع فى مكان الركوع ، ومعرفة النفس فى مكان السجود ، والتشهد فى مكان مقام الأنس ، والسلام فى مكان التفريد من الدنيا والخروج من قيد المقامات ، ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان ينقطع عن كل المشارب ، كان يطلب الشوق فى محل كمال الحيرة ، ويتعلق بالمشرب ، وعندئذ كان يقول : « أرحنا يابلال بالصلاة » .

وللمشايخ رضى الله عنهم كلام فى هذا ، ولكل درجة ، فجماعة يقولون ان الصلاة آلة الحضور ، وجماعة يقولون انها آلة الغيبة ، فمن كانوا غائبين حضروا فى الصلاة ، ومن كانوا حاضرين غابوا فى الصلاة ، كما هو الحال فى الآخرة فى محل الرؤية ، فمن يروا الله يكونوا غائبين فيحضروا ، ومن يكونوا حاضرين يغيبوا .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول ان الصلاة أمر ، لا آلة حضور ولا آلة غيبة ، لأن الأمر لا يكون آلة لأى شىء ، فعلة الحضور تكون عين الحضور ، وعلة الغيبة تكون عين الغيبة ، وليس لأمر الله سبحانه وتعالى علاقة بأى سبب ، لأنه لو كانت الصلاة علة الحضور وآلته للزم أن تجعل الغائب حاضرا ، ولو كانت علة الغيبة وآلتها لحضر الغائب بتركها ، وبما أنه ليس للغائب والحاضر عذر لتركها ، فهى نفسها فى ذاتها سلطان وليست مرتبطة بالغيبة والحضور .

فأهل المجاهدة وأهل الاستقامة يكثرون الصلاة ، ويأمرون بهذا . كذلك يأمر المشايخ المريدين بصلاة أربعمائة ركعة فى اليوم والليلة ، لتعويد الجسد على العبادة . وأهل الاستقامة أيضا يصلون كثيرا لشكر القبول فى الحضرة . ويبقى هنا أرباب الأحوال وهم على نوعين : فجماعة أولئك الذين تكون

---

(١) فى الأصل : « بين حاجبى » .

صلاتهم فى كمال المشرب فى مكان مقام الجمع فيجتمعون بها ، وجماعه أولئك الذين تكون صلاتهم فى مكان مقام التفرقة فيتفرقون بها ، فأولئك الذين يكونون مجتمعين فى الصلاة يكونون ليل نهار فى الصلاة ، وهؤلاء الذين يكونون متفرقين يزيدون قليلا على الفرائض والسنن .

وقال الرسول عليه السلام : « جعلت قرة عينى فى الصلاة (١) » . أى أن كل راحتى فى الصلاة ، لأن مشرب أهل الاستقامة يكون فى الصلاة . وكان ذلك أنه حين عرج بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبلغ درجة القرب، انقطعت نفسه عن الكون ، ووصلت الى تلك الدرجة التى كان فيها قلبه : فوصلت النفس الى درجة القلب ، والقلب الى درجة الروح ، والروح الى محل السر ، وفنى السر عن الدرجات ، ومحى عن المقامات ، وبقى بلا دلالة من الدلالات ، وغاب عن المشاهدة فى المشاهدة ، وشرد من المغايبة ، وتلاشى المشرب الانسانى ، واحترقت المادة النفسانية ، وانعدمت القوة الطبيعية ، وصارت الشواهد الربانية عيانا فى ولايته ، فلم يبق من نفسه بنفسه ، ووصل المعنى الى المعنى ، وانمحى فى كشف لم يزل ، واختار بتشوق بلا اختياره ، وقال : يا الهى ! لا ترجعنى الى دار البلاء ثانية ، ولا تلق بى فى قيد الطبع والهوى . فجاءه الأمر : هكذ حكمنا أن تعود الى الدنيا لاقامة الشرع ، لنعطيك هنالك أيضا ما أعطيناكه هنا . فلما عاد الى الدنيا كان كلما اشتاق الى ذلك المقام المعلى (والمعالى) يقول : « ارحنا يا بلال بالصلاة » ، فكانت كل صلاة معراجا له وقربة ، فكان الخلق يرونه فى الصلاة ، وكانت روحه فى صلاة ، وقلبه فى مناجاة ، وسره فى تحليق ، ونفسه فى انصهار ، حتى صارت الصلاة قرة عينه ، فكان جسده فى الملك ، وروحه فى الملكوت : كان جسده انسيا ، وروحه فى محل الأنس .

ويقول سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « علامة الصادق أن يكون له تابع من الحق اذا دخل وقت الصلاة يحثه عليها وينبهه ان كان نائما(٢) ». وكان هذا الأثر ظاهرا فى سهل بن عبد الله رضى الله عنه لأنه كان قد صار زمنا من الشيخوخة ، وحينما كان يحين وقت الصلاة كان جسده يصح ، فاذا صلى بقى (قعيدا) مكانه(٣) .

---

(١)رواه الطبرانى عن المغيرة وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤٦ » .

(٢) ورد فى اللمع : « علامة الصادق أن يكون له تابع من انجن اذا دخل وقت الصلاة يحثه على ذلك ، وان كان نائما ينبهه (انظر ص ٢٠٤) .

(٣) وردت فى اللمع اشارة الى هذا (انظر ص ٢٠٧) .

ويقول أحد المشايخ رضى الله عنهم : « يحتاج المصلى الى أربعة أشياء: فناء النفس ، وذهاب الطبع ، وصفاء السر ، وكمال المشاهدة » . ولا مندوحة للمصلى عن فناء النفس ، ولا يكون ذلك الا بجمع الهمة ، فعندما تجتمع الهمة تصل ولاية النفس ، لأن وجودها تفرقة لا يتأتى تحت عبارة الجمع . وذهاب الطبع لا يكون الا باثبات الجلال ، لأن جلال الحق زوال الغير . ولا يكون صفاء السر الا بالمحبة . ولا يكون كمال المشاهدة الا بصفاء السر .

ويرد أن الحسين بن منصور الحلاج كان يصلى أربعمائة ركعة فى كل يوم وليلة ، وكان يفرضها على نفسه ، فقيل له : لم كل هذا العناء فى هذه الدرجة التى أنت بها ؟ فقال : العناء والراحة يبدوان فى حالكم ، أما الأحبة فصفتهم فانية فلا يبدو عليهم تعب ولا راحة .

فتأمل حتى لا تسمى الكسل وصولا ، ولا الحرص طلبا !! .

قال قائل : كنت أصلى خلف ذى النون ، فلما بدأ التكبير وقال : الله أكبر، وقع مغشيا عليه كالجسد الذى لا حس فيه .

وعندما شاخ الجنيد رضى الله عنه ، لم يضيع أى ورد من أوراد الشباب ، فقيل له : أيها الشيخ ! لقد صرت ضعيفا فكف عن بعض النوافل . قال : هذه أشياء أدركت بها فى البداية ما أدركته ، فمحال أن أكف عنها فى النهاية بعد قضاء الله(١) .

والمعروف أن الملائكة يكونون دائما فى الطاعة والعبادة : مشربهم من الطاعة وغذاؤهم من العبادة ، لأنهم روحانيون ولا نفوس لهم .والزاجر والمانع للعبد عن طاعة الله هو النفس الأمارة بالسوء . وكلما زيدت قهرا يصير طريق التعبد أيسر ، وحين تفنى النفس يصير غذاؤه ومشربه العبادة مثل الملائكة ، اذا صح فناء النفس .

ويقول عبد الله بن المبارك : أذكر أنى رأيت فى الصفر امرأة من المتعبدات

---

(١) ذكر السراج أنه سمع ابن علوان يقول : كان الجنيد رحمه الله لا يترك أوراده من الصلاة على كبر سنه وضعفه ، فقيل له فى ذلك فقال : حال وصلت به الى الله تعالى فى بدايتى ، كيف يتهيأ لى أن أتركه فى نهايتى. (اللمع ص ٢٠٨) .

لدغتها العقرب فى الصلاة أربعين مرة ، ولم يظهر عليها أى تغير ، فلما فرغت من الصلاة قلت لها : يا أماه ! لم لم تدفعى عن نفسك تلك العقرب ؟ قالت : يابنى ! أنت صغير ، كيف يجوز أن أعمل لنفسى أثناء عملى للحق ؟ .

وكان أبو الخير الأقطع(١) قد أصيب بالجذام فى رجله ، فقال الأطباء : يجب قطع هذه الرجل ، ولم يرض بذلك . فقال المريدون : يجب أن تقطع رجله فى الصلاة فهو لا يدرى بنفسه ، ففعلوا كذلك ، وعندما فرغ من الصلاة وجد رجله مقطوعة .

ويرد عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه عندما كان يتهجد كان يقرأ بصوت خفيض ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ بصوت جهير — كما ذكرنا فى ذكر الصحابة — فقال النبى صلى الله علية وسلم : يا أبا بكر ! لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « يسمع من أناجى » اذا قرأت بصوت خفيض أو جهير . وقال لعمر : لم تقرأ بصوت جهير ؟ قال : أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان » . فقال الرسول عليه السلام : عليك يا أبا بكر أن تقرأ بصوت أجهر ، وقال لعمر : اقرأ بصوت أخفض(٢) ، لترك العادة .

وبعض هذه الطائفة يظهرون الفرائض ويخفون النوافل ، وهم يريدون بذلك أن يتخلصوا من الرياء ، لأنه حين يمارس شخص الرياء فى المعاملة فان الخلق يراؤنه ، ويقولون : ولو أننا لا نرى المعاملة ، فان الخلق يرونها . وهذا رياء أيضـــا .

وجماعة آخرون يظهرون الفرائض والنوافل ويقولون : ان الرياء باطل ، والطاعة صحيحة وحق ، ومحال أن نخفى حقا من أجل باطل ، فيجب اخراج الرياء من القلب ، وعليك أن تتعبد حيثما تريد .

---

(١) أبو الخير الأقطع : أصله من المغرب ، وقدم المشرق ، فصحب ابن الجلاء وغيره ، ومات بمصر . وله كرامات وفراسات ، وكان أوحد فى طريقته فى التوكل . مات سنة ست وأربعين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٧٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٧ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ٢٠٩) .

(٢) مكرر (انظر ج ١ ص ٢٦٨) .

وقد حفظ المشايخ رضى الله عنهم حق آداب الصلاة ، وأمروا المريدين بذلك . ويقول واحد منهم : سافرت أربعين عاما فلم أصل أية صـــلاة غير جماعة ، وكنت فى كل جمعة بقصـــبة .

وأحكام هذا أكثر من أن يمكن حصرها .

ومما يتصل بالصـــلاة من المقامات : المحبة . والآن أذكر أحكامها ، ان شـــاء الله تعـــالى .

باب المحبة وما يتعلق بهـــا(١) :

« قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه(٢) » . وقال أيضا عز وجل : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله(٣) » .

وقال النبى عليه السلام : سمعت جبريل يقول ان الله عز وجل قال : « من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما ترددت فى شىء كترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابد له منه . ومايتقرب الى عبدى بشىء أحب الى من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل ، حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا » . وقال أيضا عليه السلام : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » . وقوله عليه السلام : « اذا أحب الله العبد قال لجبريل : يا جبريل ! انى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل . ثم يقول جبريل لأهل السماء ان الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء . ثم يصنع له القبول فى الأرض فيحبه أهل الأرض . وفى البغض مثل ذلك » .

---

(١) اعتمد الهجويرى فى هذا الباب على ما ورد فى باب المحبة فى الرسالة القشيرية ، ونقل عنها نص الأحاديث والتعريفات . والعبارة فى أصـــلها العربى فى الرسالة أكثر سلاسة وترابطا . (راجع الرسالة ج ٢ ص ٦١٠ — ٦١٤ وكشف المحجوب : الأصل الفارسى ص ٣٩٢ وما بعدها) .

(٢) ســـورة « المائدة » آية ٥٤ .

(٣) سورة « البقرة » آية ١٦٥ .

اعلم أن محبة الله تعالى للعبد ومحبة العبد لله تعالى صحيحة ، والكتاب والسنة ناطقان بهذا ، والأمة مجتمعة عليه . والله سبحانه وتعالى على صفة تجعل المحبين يحبونه ، وهو يحب أحباءه .

ويقال ان المحبة بالمعنى اللغوى مأخوذة من « الحبة » ــ بكسر الحاء ــ وهى بذور تقع على الأرض فى الصحراء ، فسموا الحب حبا لأن فيه أصل الحياة ، كما أن فى الحب أصل النبات ، فمثلما تسقط تلك البذور فى الصحراء ، وتختفى فى التراب ، وتسقط عليها الأمطار ، وتسطع عليها الشمس ، ويمر عليها البرد والحر ولا تتغير تلك البذور بتغير الأزمنة ، وعندما يحين وقتها تنمو وتزهر وتثمر ، هكذا الحب حين يسكن فى قلب فانه لا يتغير بالحضور والغيبة ، والبلاء والمحنة ، والراحة واللذة ، والفراق والوصال ، كما قال الشاعر :

(شعر عربى)

يا من سقام جفونه لسقام عاشقه طبيب
حزت المودة فاستوى عندى حضورك والمغيب

ويقولون أيضا انها مأخوذة من « الحب(١) » الذى فيه ماء كثير ، ويكون قد امتلأ ، وليس فيه للعيون مساغ ، وقد صار مالكه أيضا ، فكذلك المحبة حينما تجتمع فى قلب الطالب وتملأ قلبه لا يبقى فى ذلك القلب مكان لغير حديث الحبيب ، مثلما كرم الله سبحانه وتعالى الخليل بالخلة ، فتجرد عليه السلام الا من حديث الحق ، وصار العالم والعالمون حجابه ، فصار فى تلك المحبة عدوا للحجب ، ثم أخبرنا عن حاله ومقاله فى قوله تعالى : « فانهم عدو لى الا رب العالمين(٢) » . ويقول الشبلى رحمه الله فى هذا المعنى : « سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب(٣) » .

ويقال أيضا ان « الحب » هو تلك الخشبات الأربع المعشقة معا التى توضع عليها جرة الماء ، فيسمون الحب حبا بهذا المعنى ، لأن المحب

---

(١) أى الجرة .
(٢) سورة « الشعراء » آية ٧٧ .
(٣) ورد بنصه فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦١٥) .

يتحمل عز الحبيب وذله وتعبه وراحته وبلاءه وجفاءه ولا يثقل عليه ذلك ، لأن عمله يكون كعمل تلك الخشبات ، ويكون تركيبه وخلقته لتحمل مشقة الحبيب . ويقال فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

ان شئت جودى وان شئت فامتنعى كلاهما منك منسوب الى الكرم

ويقال أيضا : انها مأخوذة من « الحب » وهو جمع حبة القلب ، وحبة القلب محل اللطيفة وقوامها ، لأن اقامتها بها ، فسموا المحبة حبا باسم محلها ، لأن قرارها فى حبة القلب ، والعرب يسمون الشىء باسم موضعه .

ويقال أيضا انها مأخوذة من حباب الماء وغليانه عند المطر الشديد ، وذلك الغليان يكون ماء فى حال المطر العظيم ، فأسموا المحبة حبا « لأنه غليان القلب عند الاشتياق الى لقاء المحبوب » ، وقلب المحب يكون ذائما مضطربا وقلقا فى اشتياقه لرؤية المحبوب ، وكما أن الأجسام تشتاق الى الأرواح ، فان قلوب المحبين تشتاق الى لقاء الأحباب . وكما أن قيام الجسد يكون بالروح ، فان قيام القلب يكون بالمحبة ، وقيام المحبة يكون برؤية المحبوب ووصله . ويقال فى معناه :

(شعر عربى)

اذا ما تمنى الناس روحا وراحة تمنيت أن القاك يا عز خاليا

ويقال أيضا ان الحب اسم موضوع لصفاء المودة ، لأن العرب يسمون صفاء بياض انسان العين حبة الانسان(١) ، كما يقال لصفاء سويداء القلب حبة القلب ، فصار هذا محل المحبة وذاك محل الرؤية ، وكان من هذا المعنى أن اقترن القلب والعين فى المحبة . ويقال فى هذا المعنى :

(شعر عربى)

القلب يحسد عينى لذة النظر والعين تحسد قلبى لذة الفكر

---

(١) ورد فى الرسالة : بعضهم قال : الحب اسم لصفاء المودة ، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : « حبب الأسنان » . (انظر ج ٢ ص ٦١٣) .

فصـــل : أعلم أن المحبة فى استعمال العلماء على وجوه ، احـــدها : بمعنى ارادة المحبوب بغير سكون النفس ، والميل ، والهوى ، وتمنى القلب ، والاستئناس ، ولا يجوز تعلق هذا كله بالقديم ، ويكون للمخلوقات مع بعضها البعض ، وللاجناس ، والله تعالى متعال عن هذا كله علوا كبيرا . والثانى : بمعنى الاحسان وتخصيص العبد الذى يصطفيـــه ، ويوصـــله الى درجة كمال الولاية ، ويخصه بأنواع الكرامات . والثالث : بمعنى الثناء الجميل على العبـــد .

وتقول طائفة من المتكلمين ان محبة الحق التى أخبرنا بهـــا ، من جملة الصفات السمعية ، مثل الوجه واليد والاستواء ، التى لو لم يكن الكتاب والسنة ناطقين بهـــا لكان وجودها مستحيلا للحق تعالى ، من وجهة العقل ، فنحن نثبتها ونؤمن بها ، ولكننا نتوقف فى تصرفها . ومراد هـــذه الطائفة هو أنهم لا يجيزون هذا اللفظ على اطلاقه للحق تعالى .

وهذا الذى ذكرناه كله أقاويل ، وسأبين لك حقيقة هذا ان شاء الله .

كيفية المحبة من الله تعالى الى أوليائه ومن أوليائه الى حضرته :

اعلم أن محبة الحق تعالى للعبد هى ارادة الخير له ورحمتـــه به . والمحبة اسم من أسماء الارادة مثل الرضا ، والسخط والرأفة وما شابه ذلك ، وكل هذه الأسماء لا تليق الا لارادة الحق تعالى ، وهذه الارادة صفة قديمة له يريد بها أفعاله ، ففى حكم المبالغة واظهار الفعل ، بعض هذه الصفات أخص من البعض .

وفى الجملة ، فان محبة الله للعبد هى أنه ينعم عليه كثيرا ، ويثيبه فى الدنيا والآخرة ، ويؤمنه من محل العقوبة ، ويعصـــمه من المعصية ، ويكرمه بالأحوال الرفيعة والمقامات السنية ، ويقطع سره عن الالتفـــات الى الغير ، ويوصل اليه العناية الأزلية حتى يتجرد من الكل ، ويتفرد لطلب رضائه . وحين يخص الحق تعالى العبد بهذه المعانى فانهم يسمون تخصيص ارادته : المحبة ، وهذا مذهب الحارث المحاسبى والجنيد وجماعة من المشايخ . وفقهاء الفريقين والمتكلمون من أهل السنة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، أكثرهم على هذا أيضا .

(وهناك) من يقولون ان محبة الحق تعالى بمعنى الثناء الجميل على العبد ، وثناؤه كلامه ، وكلامه غير مخلوق . ومن يقولون انهـــا بمعنى

الاحسان ، واحسانه يكون فعله . وهذه الأقاويل متقاربة فى المعنى ، وحكمها جميعا موجود .

أما محبة العبد لله ، فهى صفة تظهر فى قلب المؤمن المطيع بمعنى التعظيم والاكبار ، ليطلب رضاء المحبوب ، ويصير بلا صبر فى طلب رؤيته ، وقلقا فى الرغبة فى قربه ، ولا يسكن الى أحد دونه ، ويعتاد ذكره ، ويتبرأ مما سوى ذكره ، وتحرم عليه السكينة ، وينفر منه السكون ، وينقطع عن جميع المألوفات والمستأنسات ، ويعرض عن الأهواء ، ويقبل على سلطان المحبة ويطيع حكمه ، ويعرف الحق تعالى وتقدس بنعوت الكمال .

ولا يجوز أن تكون محبة « العبد للحق(١) » من جنس محبة الخلق لبعضهم البعض ، لأن تلك ميل الى الاحاطة بالمحبوب وادراكه ، وهذا حكم صفة الأجسام . ومحبو الحق تعالى مستهلكون فى قربه ، لا طالبلون لكيفيته ، لأن الطالب قائم بنفسه فى المحبة ، والمستهلك قائم بالمحبوب ، وأصدق الناس فى معترك المحبة مستهلكون ومقهورون ، لأنه لا توسل للمحدث الى القديم الا بقهر القديم . وكل من يعلم حقيقـــة المحبة على وجه التحقيق يرتفع عنه الابهام ، ولا تبقى له شبهة .

والمحبة على نوعين ، الأول : محبة الجنس للجنس ، وتلك ميل وتوطين للنفس ، وطلب ذات المحبوب عن طريق المماسة والملاصقة . والثانى : محبة الجنس لغير الجنس ، وهذه تتطلب القرار مع صفة من أوصاف المحبوب يطمئن اليها ويأنس بها ، مثل سماع كلامه أو رؤيته .

والمعتقدون فى المحبة على قسمين ، الأول : من يرى انعام الحق عليه ، ورؤية الانعام والاحسان تقتضى محبة المنعم والمحسن . والثانى : من يضع كل الانعام فى محل الحجاب ، بسبب غلبة المحبة ، ويكون طريقهم الى المنعم من رؤيتهم للمنعم ، وهذه أعلى ، والله أعلم .

فصـــل : وفى الجملة : المحبة معروفة بين جميع أصـــناف الخلق ، ومشهورة بجميع الألسنة ، ومتداولة فى جميع اللغات ، ولا يستطيع أى صنف من العقلاء أن يخفيها عن نفســـه .

---

(١) فى النص (محبة الحق للعبد) وواضح من السياق أن المقصـــود هو : « محبة العبد للحق » كما أثبتناه .

ومن مشايخ هذه الطائفة سمنون المحب رضى الله عنه ، وله فى المحبة مذهب ومشرب خاص ، ويقول ان المحبة أصل طريق الحق تعالى وقاعدته ، والأحوال والمقامات منازل ، وكل محل يكون فيه الطالب يجوز عليه الزوال ، الا محل المحبة فلا يجوز عليه الزوال بأى حال من الأحوال ، ما دام الطريق موجودا . وقد اتفق جميع المشايخ الآخرين معه فى هذا المعنى ، ولكن بحكم أن هذا الاسم عام وظاهر ، فقد أرادوا أن يخفوا حكمه بين الخلق ، وأن يبدلوا الاسم فى تحقيق وجود المعنى ، فسموا صفاء المحبة : صفوة ، وسموا المحب : صوفيا ، وفريق آخر سموها : فقرا ، وسموا المحب : فقيرا ، لترك اختيار المحب فى اثبات اختيار الحبيب ، لأن أقل درجة فى المحبة هى الموافقة ، وموافقة الحبيب مخالفة للغير . وقد بينت فى بداية هذا الكتاب حكم الفقر والصفوة .

ويقول ذلك الشيخ العظيم فى هـذا المعنى : « الحب عنـد الزهاد أظهر من الاجتهاد ، وعند التائبين أوجد من الحنين والأنين ، وعند الأتراك أشهر من الفتراك(١) ، وسبى الحب عند الهنود أشهر من سبى محمود(٢) ، وقصة الحب والحبيب عند الروم أشهر من الصليب » ، وقصـة الحب فى العرب : « فى كل حى من طرب أو ويل أو حزن(٣) » . والمراد من هذا كله أنه لا يوجد جنس من الناس لم يقع له أمر فى الغيبة ، فلا يفرح قلبه بالمحبة ، أو يثمل بشرابها ، أو يبقى مخمورا من قهرها ، لأن القلب مركب من الانزعاج والاضطراب ، وبحر عقد المحبة فيه كالسراب . والمحبة للقلب مثل الطعام والشراب ، وكل قلب خال منها يكون خربا ، ولا سبيل للتكلف الى دفعها أو جلبها . والنفس تجهل لطائف ما يمر على القلب .

ويقول عمرو بن عثمان المكى ، رحمه الله ، فى كتاب المحبة : ان الله تعالى

---

(١) كلمة فارسية معناها السير الذى يتدلى من سرج الفارس يعلق به الصيد ونحوه ، أى « المعلاق » .

(٢) اشارة الى غزو السلطان محمود الغزنوى لبلاد الهنـد وتحطيمـه لمعابد الأصـنام واسـتيلائه على ما فيها من كنوز (انظر ج ١ القسـم الأول ص ١٦) .

(٣) هذا هو نص العبارة كما وردت باللغة العربية فى النص الفارسى، وليست ترجمة ، وهى عبارة ركيكة ، ولعله يريد أن يقول ان قصة الحب فى كل حى من أحياء العرب أشهر من الطرب أو الويل والحزن .
وقد أردفت هذه العبارة العربية بشرح فارسى ترجمته كما يلى : وفى كل قبيلة فى العرب طرب أو حزن أو نيل أو ويل من المحبة .

خلق القلوب قبل الأجساد بسبعة آلاف عام واحتفظ بها فى مكان القرب ، وخلق الأرواح قبل القلوب بسبعة آلاف عام واحتفظ بها فى روضة الأنس ، وخلق الاسرار قبل الأرواح بسبعة آلاف عام واحتفظ بها فى درجة الوصل . وتجلى على السر كل يوم ثلثمائة وستين مرة بكشف الجمال ، وكرمه ثلثمائة وستين مرة بنظره ، وأسمع الروح كلمة المحبة ، وأظهر على القلب ثلثمائة وستين لطيفة من لطائف الأنس ، فنظرت بكل هذا الى الكون ، فلم تر أحدا أكرم منها ، فظهر فيها زهور وفخر ، فامتحنها الحق تعالى بذلك ، فسجن السر فى الروح ، وحبس الروح فى القلب ، وحبس القلب فى الجسد ثم ركب العقل فيها ، وأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأصدر أوامره فبحث كل واحد منهم عن مقامه ، وأمرهم الحق تعالى بالصلاة حتى صار الجسد فى الصلاة ، واتصل القلب بالمحبة ، ووصلت الروح الى القربة ، واستقر السر بالوصلة .

ومجمل القول: ان العبارة عن المحبة ليست هى المحبة ، لأن المحبة حال ، ولا يكون الحال قالا أبدا . واذا أراد أهل عالم أن يجلبوا المحبة لما استطاعوا ، واذا تكلفوا لدفعها لما استطاعوا ، لأنها من المواهب لا من المكاسب . واذا اجتمع كل العالم ليجلبوا المحبة لشخص يطلبها لما استطاعوا واذا أرادوا أن يدفعوها عن شخص هو أهل لها لما استطاعوا ، ولعجزوا ، لأنها الهية والآدمى لاه ، ولا يستطيع اللاهى ادراك الالهى . والسلام .

فصـل : أما العشق فللمشايخ فيه كلام كثير . وفريق من هذه الطائفة رأوا أنه يجوز على الحق تعالى ولا يجوز منه تعالى ، وقالوا ان العشق صفة المنع عن المحبوب ، والعبد ممنوع عن الحق ، والحق تعالى ليس ممنوعا ، فعشق العبد له جائز ، ولا يجوز منه (للعبـد) .

وقال فريق أيضا ان العشق لا يجوز للعبد على الحق تعالى ، لأن العشق تجاوز للحد ، والله تعالى ليس محدودا .

وقال المتأخرون أيضا ان العشق لا يصح فى الدارين الا على طلب ادراك الذات ، وذات الحق تعالى ليست مدركة ، والمحبة تصح مع الصـفة ، فينبغى أن لا يصح العشق عليه . وقالوا أيضا ان العشق لا يتأتى الا بالمعاينة والمحبة تجوز بالسمع ، ولمـا كان العشق نظريا فانه لا يجوز على الحق ، لأن أحدا لا يراه فى الدنيا . ولمـا كانت هذه (أى المحبـة) خبرية فقـد ادعاها كل واحد ، لأن الكل سواء فى الخطاب ، فالحق تعالى ليس مدركا ولا محسوسا بذاته حتى يصح للخلق العشق معه ، ولمـا كان بالصفات

والأفعال محسنا ومكرما فان المحبة تصح للأولياء : الم تر كيف انه حين استغرقت محبة يوسف،يعقوب عليهما السلام ، فانه حين وصل تريح قميصه الى أنفه فى حال الفراق أبصرت عيناه الكفيفتان ، ولما استهلك العشق زليخا لم تتفتح عيناها طالما لم تدرك الوصول ؟ وهذا شيء عجيب جدا ، فواحد يربى الهوى ، وآخر يترك الهوى .

وقالوا أيضا ان العشق ليس له ضد ، وليس للحق تعالى ضد ليجوز عليه ذلك .

وتوجد فصول لطيفة فى هذا ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر خوف التطويل ، وهو أعلم .

فصل : ولمشايخ الصوفية فى تحقيق المحبة رموز أكثر من أن يمكن حصرها . وأذكر قدرا منها على سبيل التبرك .

يقول الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله : « المحبة : محو المحب لصفاته ، واثبات المحبوب بذاته(١) » ، بمعنى أنه عندما يبقى المحبوب ينبغى أن يفنى المحب ، لأن غيرة المحبة تنفى بقاء المحب لتصير لها الولاية المطلقة . ولا يكون فناء صفة المحب الا باثبات ذات المحبوب . ولا يجوز أن يكون المحب قائما بصفته ، لأنه لو كان قائما بصفته لكان غير محتاج الى جمال المحبوب ، فعندما يعرف أن حياته بجمال المحبوب ، فانه بالضرورة يطلب نفى أوصافه ، لأنه يعلم انه مع بقاء صفته يكون محجوبا عن المحبوب ، فصار بمحبته للحبيب عدوا لنفسه .

ومعروف أن الحسين بن منصور رحمه الله صلب ، وكان آخر أقواله هو : « حسب الواجد افراد الواجد له(٢) » . ويكفى للمحب أن يتطهر وجوده عن طريق المحبة وتنتهى ولاية النفس فى وجوده وتتلاشى .

ويقول أبو يزيد رحمه الله : « المحبة : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك(٣) » . وهذه المقالة حق على العبد ، لأن نعمة الدنيا وما أعطاه (الله) للعبد فى الدنيا أسماه قليلا ، وقال : « قل متاع الدنيا قليل(٤) » ، وأسمى ذكره كثيرا فى قوله تعالى : « والذاكرين الله كثيرا

(١) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦١٤) .
(٢) هكذا فى الأصل ، وورد فى الفرق بين الفرق أن الحلاج قال عند قطع يديه ورجليه : « حسب الواحد افراد الواحد » (انظر ص ١٥٩) .
(٣) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٦١٤) .
(٤) سورة « النساء » آية

والذاكرات(١) » ، ليعلم الخلق أن الحبيب على التحقيق هو الله جل جلاله ، وهذه الصفة لا تصح للخلق ، وما يكون من الحق للعبد فليس أى شيء منه قليلا .

ويقول سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « المحبة : معانقة الطاعات ، ومباينة المخالفات(٢) » . لأنه كلما كانت المحبة فى القلب أقوى ، كان أمر الحبيب على الحبيب أيسر ، وهذا رد على تلك الطائفة من الملاحدة الذين يقولون ان العبد يصل فى المحبة الى درجة ترتفع فيها عنه الطاعة ، وهذا محال ، لان حكم التكاليف لا يسقط عن العبد في حال صحة العقل،لان الاجماع على أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ ، واذا جاز أن يرتفع التكليف عن شخص فى حال الصحة فانه يجوز أن يرتفع عن الجميع ، وهذه زندقة محضة . ثم ان للمغلوب والمعتوه حكما آخر وعذرا آخر . ولكن يجوز أن يوصل الله تعالى العبد فى محبته الى درجة ترتفع فيها عنه مشقة أداء الطاعة ، لأن مشقة الأمر تكون على مقدار المحبة ، وكلما كانت المحبة أقوى كانت مشقة الطاعة أسهل . وهذا ظاهر فى حال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه عندما جاءه القسم من الحق : « لعمرك » ، أكثر من العبادة فى الليل والنهار الى حد أن عجز عن جميع الأعمال ، وتورمت قدماه المباركتان ، حتى أن الله تعالى قال : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى(٣) » . ويجوز أيضا أنه فى حال أداء الأمر ترتفع رؤية الطاعة عن العبد ، « كما كان للنبى عليه السلام (حيث كان يقول) : انه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى كل يوم سبعين مرة(٤) » ، لأنه لم يكن ينظر الى نفسه والى عمله حتى يعجب بطاعته ، بل كان ينظر الى أمر الحق بالتعظيم ، ويقول ان طاعتى لا تليق به .

ويقول سمنون المحب رضى الله عنه : « ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : المرء مع من أحب(٥) » .

(١) سورة « الأحزاب » آية ٣٥ .
(٢) ورد فى الرسالة : « الحب : معانقة الطاعة ومباينة المخالفة (انظر ج ٢ ص ٦١٥) .
(٣) سورة « طه » آية ١ ، ٢ .
(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أغر مزينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انه ليفان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » .
(٥) رواه البخارى ومسلم (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٨٤) .

فهم فى الدنيا والعقبى مع الحق ، ولا يجوز الخطأ على من يكون معه ، فالمراد بشرف الدنيا هو أن يكون الحق معهم ، وبشرف العقبى أنهم يكونون مع الحق .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر والعطاء » . لأن كلا هذين فى المحبة سبب ، والأسباب تتلاشى فى حال وجود الأعيان ، ويطيب للحبيب بلاء الحبيب . والوفاء والجفاء يتساويان فى تحقيق المحبة ، وحين تحصل المحبة يكون الوفاء كالجفاء ، والجفاء كالوفاء .

ومعروف فى الحكايات أنهم احتجزوا الشبلى فى المارستان — بتهمة الجنون — وجاءت جماعة لزيارته ، فسألهم : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك ، فرماهم بالحجارة ، ففروا ، فقال : « لو كنتم أحبائى لما فررتم من بلائى(١) » لأن الحبيب لا يفر من بلاء الحبيب .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، وقداكتفيت بهذا القدر ، وبالله التوفيق .

---

(١) وردت فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٤٢٠) .

كشف الحجاب السادس
فى الزكاة

قوله تعالى : « **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**(١) » . ومثل هذه الآيات والأخبار كثير .

والزكاة من أحكام **فرائض الايمان** على الشخص الذى تجب عليه ، ولا وجه للاعراض عنهـا .

أما الزكاة : فتجب **على اتمام النعمة** ، فعندما تكون مائتا درهم — وهى نعمة تامة — تحت تصرف شخص بحكم الملك ، فانه يجب عليه خمسة دراهم . وعشرون **دينارا نعمة تامة** ، وبعد مرور سنة يجب عليها نصف دينار . وخمسة من **الابل نعمة تامة** ، ويجب عليها كبش ، وما شابه ذلك من الأموال . ولكن **للجاه أيضا زكاة** كما للمـال ، لأنه أيضا نعمـة تامة كماقال رسول الله **صلى الله عليه وسلم** : « ان الله تعالى فرض عليكم زكاة جاهكم كما **فرض عليكم زكاة مالكم** » . وأيضا قوله عليه السلام : « ان لكل شىء زكاة ، **وزكاة الدار بيت الضيافة**(٢) » .

وحقيقة الزكاة **أداء شكر النعمة** من جنس النعمة . والصحة نعمة عظيمة ، ولكل عضو زكاة ، **وذلك أن** يجعل الانسان كل أعضائه مستغرقة فى الخدمة ، ومشغولة بالعبادة ، **ولا** يميل الى أى لهو أو لعب حتى يكون قد أدى حق زكاة النعمة .

وللنعم الباطنة أيضا زكاة ، **ولا** يمكن احصاء حقيقتها لكثرتها ، فينبغى لهـا زكاة أيضا تناسبها ، **وذلك** عرفان النعمة الظاهرة والباطنة . واذا عرف العبد أن نعمة الحق تعالى عليه لا حدود لهـا ، فانه يجب عليه لزكاة النعمة التى لا حد لهـا شكر لا حد له .

وفى الجملة فان زكاة **النعمة والدنيا** عند هذه الطائفة (أى المتصوفة) غير محمودة ، لأن البخل غير محمود ، ويجب البخل التام ليحوز شخص مائتى درهم ويحبسها تحت تصرفه سنة وعندئذ يخرج منها خمسة دراهم . ولمـا كان طريق الكرماء بذل المال ، وسيرتهم السـخاء ، فعلى أى مال تجب الزكاة ؟ .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٤٣ .
(٢) ورد فى الرسالة عن أنس بن مالك (انظر ج ٢ ص ٥١٠) .

ووجدت فى الحكايات أن واحدا من علماء الظاهر سأل الشبلى على سبيل التجربة عن الزكاة قائلا : ما الذى يجب أن يعطى من الزكاة ؟ قال : حين يكون البخل موجودا ويحصل المال فيجب أن يعطى خمسة دراهم عن كل مائتى درهم ، ونصف دينار عن كل عشرين دينارا ، هذا فى مذهبك ، أما فى مذهبى فيجب أن لا تملك شيئا حتى تتخلص من مشغلة الزكاة . فسأله : من امامك فى هذه المسألة ؟ قال : أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، لأنه أعطى كل ما كان يملك ، فقال له الرسول عليه السلام : « ما خلفت لعيالك » ؟ قال : « الله ورسوله(١) » .

ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال فى قصيدة ما يلى :

(شعر عربى)

فما وجبت على زكاة مال وهل تجب الزكاة على جواد(٢)

فأموال الكرماء ، مبذولة ، ودماؤهم مهدرة ، فلاهم يبخلون بالمال ، ولا هم يختصمون على الدماء ، لأنهم ليس لهم ملك .

ولكن اذا ارتكب أحد جهالة ويقول : ما دام ليس لى مال فاننى فى غنى عن علم الزكاة ، فهذا محال ، لأن تعلم العلم فرض عين ، والاستغناء عن العلم كفر محض .

ومن فتن الزمان أن ادعياء الصلاح والفقر يتركون العلم بالجهل ، فذات مرة كنت أعلم جماعة من المتصوفة المبتدئين العبادة ، وتدخل جاهل — وكنت أتحدث فى باب صدقة الابل ، وحكم بنت اللبون وبنت المخاض ، وأبين الاستحقاق — فانقبض قلب ذلك المرتكب الجاهل بسبب هذه المسألة ، ونهض وقال : لا ابل لى حتى يفيدنى علم بنت اللبون . فقلت : يا هذا !

(١) أورد السراج هذه الحكاية عن ابراهيم بن شيبان أنه كان ينهى عن الذهاب الى الشبلى ، والوقوف عليه واستماع كلامه ، فلما لقيه وأراد أن يمتحنه قال له : كم فى خمس من الابل ؟ قال : شاة فى واجب الأمر ، وفيما يلزمنا نحن : كلها ، فقال له ابراهيم : الك فى هذا امام ؟ قال : نعم ، أبوبكر الصديق رضى الله عنه ، حيث خرج من ماله كله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ فقال : الله ورسوله . فقام ، ولم ينه الناس بعد ذلك عنه . (اللمع ص ٢١٠) .

(٢) ورد فى اللمع منسوبا الى واحد من اهل الدنيا :
وما وجبت على زكاة مال وهل تجب الزكاة على كريم
(اللمع ص ٢١٠) .

كما يلزم العلم باعطاء الزكاة فانه يلزم العلم أيضا بأخذها ، فاذا أعطاك شخص بنت لبون وأخذتها ، عندئذ لا يجوز القول بترك علم بنت اللبون ، واذا لم يكن لأحد مال ولا يلزمه مال فان فرض العلم لا يسقط عنه أيضا . فنعوذ بالله من الجهل .

فصل : وقد كان من مشايخ المتصوفة من أخذ الزكاة ، ومنهم من لم يأخذها ، فمن لم يكن فقرهم باختيار لم يأخذوها ، قائلين : ما دمنا لا نجمع المال حتى يجب اعطاء الزكاة ، فاننا لا نأخذ كذلك من أرباب الدنيا حتى لا تكون يدهم العليا ويدنا السفلى . ومن كانوا مضطرين فى الفقر أخذوها لا لأنها كانت لازمة ، بل لأنهم أرادوا أن يرفعوا الفريضة عن رقبة أخ مسلم ، فلو كانت هذه نيتهم لكانت هذه هى اليد العليا لا تلك . واذا كانت يد المعطى هى العليا ويد الآخذ السفلى لكان باطلا ، لقوله تعالى : « ويأخذ الصدقات(١) » ، وكان يجب أن يكون معطى الزكاة أفضل من آخذها ، وهذا الاعتقاد عين الضلالة ، فاليد العليا هى التى تأخذ شيئا من الأخ المسلم ، بحكم وجوب ذلك ، لترفع عبئه عن رقبة ذلك الشخص . والدراويش ليسوا دنيويين لأنهم عقبويون ، واذا لم يرفع العقبوى عبء الدنيا عن رقبة الدنيوى ، لوجب عليه حكم الفريضة ، ولأخذ بذلك يوم القيامة ، فالحق تعالى يمتحن العقبوى بواجب سهل ، حتى يستطيع الدنيويون بذلك أداء عبء الفريضة . فاليد العليا لا محالة هم الفقراء الآخذون وفقا للشرع ، لأن حق الله واجب عليهم . ولو كانت يد الآخذ هى السفلى — كما تقول طائفة من الحشوية — لوجب أن تكون يد الأنبياء هى السفلى لأنهم يأخذون حق الله ، وهؤلاء على خطأ ، ولا يدرون انهم أخذوا بالأمر . وقد كان أئمة الدين من بعد الأنبياء على هذا ، لأنهم كانوا يأخذون حق بيت المال . ومن يقول ان يد الآخذ هى السفلى ، ويد المعطى هى العليا ، يكون على خطأ . وكلا هذين أصل قوى فى التصوف ، ومضمون هذا محله باب الجود والسخاء ، وسألحق بهذا طرفا منه ، ان شاء الله ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

باب الجود والسخاء :

قوله عليه السلام : « السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، قريب من النار ، بعيد من الجنة(٢) » .

(١) سورة « التوبة » آية ١٠٤ .
(٢) ورد فى الرسالة : « السخى : قريب من الله تعالى ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار . والبخيل : بعيد من الله تعالى ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . والجاهل السخى أحب الى الله تعالى من العابد البخيل (الرسالة ج ٢ ص ٥٠٢) .

والجود والسخاء كلاهما عند العلماء بمعنى واحد فى صفات البشر ، ولكنهم يسمون الحق تعالى : « الجواد » لا « السخى » لعدم التوافق ، لأنه لم يسم نفسه بهذا الاسم ، ولم يرد خبر عن الرسول بهذا أيضا . وباجماع أهل السنة لا يجوز لشخص أن يضع اسما لله تعالى على مقتضى العقل واللغة ما لم يكن الكتاب والسنة ناطقين بهذا ، مثلما أن الله تعالى : عالم ، فيمكن باجماع الأمة ، أن يسمى عالما ، ولكن لا يجوز أن يسمى عاقلا أو فقيها ، فلما كانت هذه الاسماء الثلاثة بمعنى واحد أطلقوا عليه اسم العالم ، لصحة التوافق ، واحترزوا من هذين الاسمين لعدم التوافق . وكذلك أطلقوا عليه اسم الجواد ، لصحة التوافق ، واحترزوا من اسم السخى ، لعدم التوافق .

وقد فرق الناس بين الجود والسخاء ، وقالوا ان السخى هو الذى يميز فى الجود ، وذلك يكون موصل غرض وسبب ، وهذا مقام البداية من الجود . والجواد هو الذى لا يميز ، ويكون عمله بلا غرض ، وفعله بلا سبب . وقد كان هذا حال نبيين صلوات الله عليهما ، أحدهما : الخليل ، والآخر : الحبيب .

وفى الأخبار الصحاح أن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه لم يكن يأكل شيئا ما لم يأت ضيف . وفى وقت من الأوقات مرت ثلاثة أيام ولم يأت أحد، وجاء الى باب بيته مجوسى ، فقال له : أى رجل أنت ؟ قال : مجوسى ، قال : اذهب فانك لا تليق لضيافتى وكرامتى ، فعاتبه الله تعالى قائلا : الشخص الذى ربيته سبعين عاما يثقل عليك أن تقدم له رغيفا(١) ! .

وعندما جاء ابن حاتم الطائى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، خلع رداءه وفرشه له ، وقال : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه(٢) » . فمن ميز : ضن برغيفين ، ومن لم يميز : جعل طيلسان النبوة بساطا لكافر ، لأن السخاء كان مقام ابراهيم ، والجود مقام النبى عليهما السلام .

---

(١) ورد فى الرسالة على لسان القشيرى قال : سمعت بعض العلماء يقول : استضاف مجوسى ابراهيم الخليل عليه السلام ، فقال : بشرط أن تسلم ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى اليه : منذ خمسين سنة نطعمه على كفره ، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه . فمضى ابراهيم عليه السلام على أثره حتى أدركه ، واعتذر اليه ، فسأله عن السبب ،فذكر له ذلك ، فأسلم المجوسى (الرسالة جـ ٢ ص ٤٧٤) .

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عمر البزاز وابن خزيمة ، والطبرانى وابن عدى والبيهقى عن جرير البزاز عن أبى هريرة ، والحاكم عن جابر والطبرانى عن ابن عباس (شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٣) .

وخير المذاهب فى هذا : ما قيل من أن الجود متابعة للخاطر الأول ، واذا تغلب الخاطر الثانى على الأول فانه يكون علامة البخل . وقد أكبره أهل التحصيل ، لأن الخاطر الأول يكون من الحق لا محالة .

وقد وجدت أنه كان فى نيسابور رجل تاجر ، وكان يحضر مجلس الشيخ أبى سعيد (بن أبى الخير) دائما ، وذات يوم طلب الشيخ شيئا من أجل درويش . قال ذلك الرجل : كان معى دينار وقراضة ، فقال لى الخاطر الأول : اعط الدينار ، وقال الخاطر الثانى : أعط القراضة ، فأعطيت القراضة . فلما استأنف الشيخ الحديث سألته : أيجوز أن ينازع شخص الحق ؟ قال : لقد نازعته أنت ، لأنه قال لك : أعط الدينار ، فأعطيت القراضة .

ووجدت أيضا أن الشيخ أبا عبد الله الرودبارى رضى الله عنه دخل بيت مريد ولم يكن موجودا ، فأمر فحمل متاع بيته الى السوق ، ولما دخل الرجل البيت فرح بذلك الانبساط بحكم انبساط الشيخ ، ولم يقل شيئا . ولما جاءت امرأته ورأت ذلك دخلت البيت وخلعت كساءها وألقته وقالت : هذا أيضا من جملة متاع البيت ، وله نفس الحكم . فصاح فيها الرجل قائلا : لقد فعلت هذا تكلفا واختيارا . فقالت المرأة : يا رجل ! ان ما فعله الشيخ كان جوده ، ويجب أن نتكلف ليظهر جودنا أيضا . فقال : نعم ، عندما سلمنا للشيخ كان ذلك منا عين الجود(١) . والجود فى وصف الآدمى تكلف ومجاز .

ويجب على المريد أن يبذل دائما ملكه ونفسه وفقا لأمر الله . ولذلك قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « الصوفى دمه هدر ، وملكه مباح(٢) » .

وسمعت من الشيخ أبى مسلم الفارسى قوله : ذات مرة قصدت الحجاز

---

(١) وردت هذه الحكاية فى الرسالة ، وهنا بعض الاختلاف (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٥٠٥) .

(٢) ورد فى الرسالة : الصوفى : من يرى دمه هدرا ، وملكه مباحا (الرسالة جـ ٢ ص ٥٥٣) .

مع جماعة وفى نواحى حلوان(١) قطع الأكراد علينا الطريق ، وجردونا من خرقنا ، ولم نقاومهم نحن أيضا واسترضيناهم . وكان من بيننا شخص ثار ، فسل الكردى سيفه وقصد قتله ، فشفعنا له جميعا عند الكردى ، فقال : لا يجوز أن أدع هذا الكاذب ، وانى قاتله لا محالة . فسألناه عن علة قتله ، فقال : لأنه ليس صوفيا ، ويرتكب الخيانة فى صحبة الأولياء ، فالأولى أن لا يكون مثل هذا الشخص . قلنا : لماذا ؟ قال : لأن أقل درجات التصوف الجود ، وهو كثير التعلق بهذه الخرقة ، فكيف يكون صوفيا وهو يكثر الخصومة مع أصحابه ؟ فمنذ سنوات طويلة ونحن نعمل لكم ، ونسلك طريقكم ، ونقطع العلائق عنكم .

ويقال ان عبد الله بن جعفر مر بمنهل جماعة . فرأى غلاما حبشيا يرعى الغنم ، وكان كلب قد جاء واقعى أمامه . فأخرج الغلام قرصا وأعطاه للكلب، وقرصا ثانيا وثالثا . فتقدم اليه عبد الله وقال : أيها الغلام ! كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت . قال : فلم أعطيته كله للكلب ؟ قال : لأنه جاء من طريق بعيد مؤملا ، وليس هذا مكان كلاب ، فلم أرض من نفسى أن أضيع تعبه . فسر عبد الله واشترى الغلام مع الخراف والمنهل ، وأعتقه ، وقال له : وهبتك هذه الاغنام والحائط . فدعا له ، وتصدق بالأغنام ، ووهب المـــال ، وغادر المكان(٢) .

وجاء رجل الى باب بيت الحسن بن على رضى الله عنهما ، وقال : يا ابن النبى ! على دين قدره أربعمائة درهم . فأمر الحسن فأعطوه أربعمائة درهم ودخل البيت باكيا . فقيل له : لم تبكى يا ابن النبى ؟ قال : لأنى قصرت فى تفحص حال هذا الرجل حتى الجأته الى ذل السؤال(٣) .

ولم يكن أبو سهل الصعلوكى يضع صدقة قط فى يد فقير ، والشىء الذى كان يهبه لم يكن يضعه فى يد أحد ، بل يطرحه أرضا ليؤخـــذ . فســـئل فى

---

(١) « حلوان » : فى عدة مواضع : منها حلوان العراق هذه ، وهى فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد ، وهى مدينة عامرة ، وأما فتحها ، فان المسلمين لما فرغوا من جلولاء ، نهض جرير بن عبد الله الى حلوان ففر يزدجرد الى أصفهان وفتح جرير حلوان صلحا فى سنة ١٩ هـ (معجم البلدان ج ٢) .

(٢) وردت فى الرســـالة ، وهنا اختلاف يســـير فى العبارة (انظـــر ج ٢ ص ٥٠٦) .

(٣) وردت فى الرسالة ، ولم ينص على أنها منســـوبة الى الحســـن (انظر ج ٢ ص ٥٠٧) .

ذلك فقال : ليس للدنيا من الخطر ما يوجب أن توضع فى يد مسلم فتكون يدى العليا ويده السفلى(١) .

ويرد عن النبى عليه السلام أن ملك الحبشة أرسل اليه منين(٢) من المسك ، فجعلها فى الماء دفعة واحدة ، ومسح على نفسه .

ويرد عن أنس أن رجلا أتى النبى عليه السلام فمنحه واديا بين جبلين مملوءا بالخراف ، فلما عاد الى قومه قال : يا قوماه ! أسلموا لأن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر .

ويروى عن أنس أيضا أنهم أحضروا للنبى صلى الله عليه وســـلم ثمانين ألف درهم فأفرغها على كليم ، ولم ينهض من مكانه دون أن يوزعها كلها . ويقول على رضى الله عنه : ونظرت اليه فى تلك الحال فكان قد ربط على بطنه حجرا من الجوع .

وأرسل سلطان الى درويش من المتأخرين وزن ثلثمائة درهم من الذهب من الخراج وقال له : تصدق بها فى الحمام ، فذهب الى الحمام ، وأعطاها جميعها للحمـــامى .

وقد تكلمنا فى هذا المعنى قبل ذلك فى باب الايثار ، فى مذهب النوريين ، واختصرنا على هذا ، والله أعلم .

---

(١) ورد فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٠٨) .

(٢) « المن » : وزن يساوى ٣ كيلو جرام .

كشف الحجاب السابع
فى الصـــوم

« قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام(١) » وقال النبى عليه السلام (خبرا عن الله عز وجل) : « الصوم لى وأنا أجزى به(٢) » ، لأنه عبادة سرية لا تتعلق قط بالظاهر ، وليس للغير فيها نصيب ، وجزاؤها بلا نهـــاية .

وقيل ان دخول الجنة للخلق بالرحمة ، والدرجة بالعبادة ، والخـــلود بجزاء الصوم لأن الله قال : « أنا أجزى به » .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « الصوم نصف الطريقة » .

ورأيت من المشايخ من كانوا يصومون دائما ، ومن لم يصوموا غير رمضان ، فأولئك طلبا للأجر ، وهؤلاء تركا للاختيار والرياء .

ورأيت من كانوا يصومون دون أن يعلم أحد ، وحين كان يقدم لهم الطعام كانوا يأكلون ، وهذا أكثر موافقة للسنة . وقد ورد عن عائشـــة وحفصة رضى الله عنهما أنه حين دخل عليهما النبى صلى الله عليه وسلم قالتـــا : « أنا قد خبأنا لك حيسا ، قال عليه السلام : أما انى كنت أريد الصـــوم ، ولكن قربيه ، سأصوم صوما مكانه(٣) » .

ورأيت من كانوا يصومون الأيام البيض ، والعشرة المباركة ، ورجب وشعبان وشهر رمضان .

ورأيت من كانوا يصومون صوم داود صلوات الله عليه الذى قال عنه الرسول عليه السلام انه « خير الصيام » ، وهو صوم يوم ، وفطر يوم .

وذات مرة دخلت عند الشيخ أحمد البخارى ، وكان قد وضع أمامه طبقا من الحلوى وكان يأكل ، فأشار الى ، فقلت جريا على عادة الصبيان : انى

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٨٣ .
(٢) مكرر .
(٣) رواه مسلم فى كتاب الصيام باب فضل الصيام فى سبيل الله لمن يطيقه (ج ٢ ص ٨٠٩) بلفظ مقارن ، وانظر جمع الجوامع ج ١ قسم ١١ ص ١٣٠٨ .

صائم . قال : لم ؟ قلت : موافقة لفلان ، فقال : لا يصح للخلق موافقـــة الخلق ، فتقدمت لأفطر ، فقال : أيها الشاب ! تبرأ أولا من موافقتـــه ، ثم لا توافقنى أنا أيضـــا ، لأنى أيضا من الخلق ، وكلا هذين واحد .

وحقيقة الصوم هى الامساك ، والطريقة كلها مضمرة فى هذا . وأقـــل درجة فى الصوم هى الجوع ، « والجوع طعام الله فى الأرض » . والجوع محمود بجميع الألسنة بين الخلق شرعا وعقلا . ويجب صوم شهر على العاقل ، البالغ ، المسلم ، الصحيح ، المقيم . وبدايته من رؤية هـــلال رمضان أو كمال شهر شعبان . ويلزم لكل يوم النيـــة الصحيحة والشرط الصـــادق .

وللامساك شروط ، فكما أنك تحفظ الجوف من الطعام والشراب ، فانه يجب أن تحفظ العين من النظر الى الحرام والشهوة ، والأذن من الاستماع الى اللهو والغيبة ، واللسان من قول اللغو والآفة ، والجسد من متابعـــة الدنيا ومخالفة الشرع ، وعندئذ يكون هذا هو الصوم الحقيقى ، « كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك وكل عضو فيك(١) » وقوله عليه السلام : رب صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش(٢) » .

وأنا على بن عثمان الجلابى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت « يا رسول الله ! أوصنى » . قال : « احبس حواسك » . أى أن حبس حواسك الخمسة هو تمام المجاهدة ، لأن حصول كل العلوم يكون من هذه الأبواب الخمسة : الأول : البصر ، والثانى : السمع ، والثالث : الذوق ، والرابع : الشم ، والخامس : اللمس .

وهذه الحواس الخمس هى قواد العلم والعقل ، ولأربعة منها محـــل خاص ، وواحد منها شائع فى كل البدن ، فالعين محل البصر ، وذلك رؤية الكون واللون . والأذن محل السمع ، وذلك هو سماع الخبر والصوت . والحلق محل الذوق ، وذلك هو التذوق . والأنف محل الشم ، وذلك شميم

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .
(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة : « رب صائم ليس له من صـــيامه الا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه الا السهر . ورواه الطبرانى عن ابن عمر : « رب قائم حظه من قيامه السهر ، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٥) .

الرائحة . وليس للمس محل خاص لأنه شائع فى جميع الأعضاء ، وهو معرفة النعومة ، والخشونة ، والحرارة ، والبرودة . ولا يوجد شىء قط من العلوم التى يعلمها الانسان لا يكون حدوثه عن هذه الأبواب الخمسة ، الا البديهى والهام الحق تعالى ، ولا يجوز فيه الآفة .

وفى كل باب من الحواس الخمس صفو وكدر ، وكما أنه للعقل والعلم والروح فيها مساع ومجال ، فان للنفس والهوى أيضا فيها مجال ، لأنها آلة مشتركة بين الطاعة والمعصية ، والسعادة والشقاء ، فولاية الحق فى السمع والبصر هى الرؤية والاستماع ، وولاية النفس فيهما استماع الكذب ونظر الشهوة . وولاية الحق فى اللمس والذوق والشم هى موافقة أمره واتباعه ، وولاية النفس هى مخالفة أمر الحق والشريعة ، فيجب على الصائم أن يحبس كل هذه الحواس عن المخالفة بالموافقة ليكون صائما .

والصوم عن الطعام والشراب عمل الصبيان والعجائز . وينبغى الصوم عن الملجأ والمشرب والمهرب « كما قال الله تعالى : وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام(١) » وقال أيضا « جل جلاله : أفحسبتم انما خلقناكم عبثا(٢) » . فيجب الامساك عن اللهو والحرام لا عن الأكل الحلال . وانى لأعجب ممن يقول : أنا صائم صوم التطوع ويكف عن الفريضة ، لأن عدم ارتكاب المعصية فريضة ، والصيام الدائم سنة ، « فنعوذ بالله من قسوة القلب » ، وحين يعصم شخص من المعصية تكون كل أحواله صوما .

ويقال ان سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه يوم ولد كان صائما ، ويوم خرج من الدنيا كان صائما . قيل : كيف كان ذلك ؟ قيل انه يوم ولد كان ذلك فى الصباح ، والى صلاة العشاء لم يطعم أى لبن ، ولما خرج من الدنيا كان صائما . ويورد هذه الرواية أبو طلحة المالكى رضى الله عنه .

أما فى صوم الوصال(٣) فقد ورد نهى عن النبى عليه السلام ، لأنه حين كان يواصل الصيام كان الصحابة أيضا يوافقونه ، فقال : لا تواصلوا الصوم ، « انى لست كأحدكم ، انى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى(٤) .. الخ » .

---

(١) سورة « الأنبياء » آية ٨ .
(٢) سورة « المؤمنون » آية ١١٥ .
(٣) صوم الوصال : أن يصوم الصائم يومين أو ثلاثة أو أكثر بافطار واحد .
(٤) قوله صلى الله عليه وسلم : « لست كأحدكم » انى لست كهيئتكم ، انى أظل عند ربى فيطعمنى ويسقينى « رواه مالك والترمذى عن أنس » .

وقد قال أرباب المجاهدة ان هذا النهى شفقة لا تحريم ، وقالت طائفة أن صوم الوصال مخالف للسنة . أما الحقيقة فهى ان صوم الوصال محال ، لأنه اذا مضى النهار لا يكون فى الليل صيام ، وما دام الصوم لا ينعقد ليلا فانه لا يكون وصالا .

ويروى عن سهل بن عبد الله أنه كان يأكل مرة كل خمسة عشر يوما ، وعندما يأتى شهر رمضان لم يكن يأكل شيئا الى يوم العيد(١) ، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة . وهذا خارج عن امكان الطاقة الآدمية ، ولا يمكن عمله الا بالمشرب الالهى ، وذلك تأييد يكون عينه غذاؤه ، فواحد يكون غذاؤه طعام الدنيا ، وآخر تأييد المولى .

ومعروف عن الشيخ أبى نصر السراج (الملقب) بطاووس الفقراء ، وصاحب كتاب اللمع ، أنه ورد بغداد فى شهر رمضان ، فأعطوه خلوة فى مسجد الشونيزيه(٢) ، وأسلموا اليه امامة الدراويش ، فأمهم حتى العيد ، وكان يختم القرآن خمس مرات فى التراويح . وكان الخادم كل ليلة يضع قرصا فى الخلوة ، فلما كان يوم العيد رحل رضى الله عنه ، ونظر الخادم فكانت الثلاثون قرصا فى مكانها(٣) .

ويروى عن على بن بكار(٤) أنه قال : رأيت حفصا المصيصى لم يأكل فى شهر رمضان شيئا قط الا فى اليوم الخامس عشر .

ويروى عن ابراهيم بن أدهم أنه لم يكن يأكل شيئا فى شهر رمضان من بدايته الى نهايته ، وكان ذلك فى شهر تموز ، وكان يحصد القمح بالأجر كل يوم ويعطى ما يأخذه للفقراء ، ويصلى طوال الليل حتى الصباح . وراقبوه فلم يكن يأكل أو ينام .

---

(١) أشار السراج الى هذا ، وذكر أنه سأل بعض المشايخ عن ذلك فقال : كان يفطر على الماء القراح وحده كل ليلة (اللمع ص ٢١٧) .
(٢) الشونيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربى دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين : منهم الجنيد وجعفر الخلدى ورويم وسمنون المحب ، وهناك خانقاه للصوفية . (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣٨) .
(٣) أورد أبو نصر السراج فى اللمع حكاية مماثلة ، قال : حكى عن أبى عبيد البسرى أنه كان اذا دخل رمضان دخل البيت وسد عليه الباب ، ويقول لامرأته : اطرحى كل ليلة رغيفا من كوة فى البيت ، ولا يخرج منه حتى يخرج رمضان ، فتدخل امرأته البيت فاذا الثلاثون رغيفا موضوعة فى ناحية بالبيت (اللمع ص ٢١٧) .
(٤) أشار اليه القشيرى ، وأورد له قولا . (انظر الرسالة ج ١ ص ٣٠٣) .

ويرد عن الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله أنه عندما رحل عن الدنيا كان قد صام أربعين أربعينية متواصلة .

ورأيت شيخا كان يصوم كل سنة أربعينيتين .

وحين توفى العالم أبو محمد الباثغرى(١) كنت حاضرا هناك ، وكان قد مضى عليه ثمانون يوما لم يطعم فيها شيئا ، ولم تفته أية صلاة جماعة .

ورأيت درويشا من المتأخرين لم يأكل قط مدة ثمانين يوما ، ولم تفته أية صلاة جماعة .

وكان فى مرو شيخان اسم أحدهما مسعود ، واسم الآخر الشيخ أبو على « سياه » (أى الأسود) . قيل ان مسعودا أرسل اليه شخصا يقول له : حتام هذه الدعاوى ؟ تعال نقم معا أربعين يوما لا نأكل شيئا . فقال (أبو على) : لا ينبغى ، بل تعال نأكل كل يوم ثلاث وجبات ونبقى على طهارة واحدة أربعين يوما(٢) . واشكال هذه المسألة ما يزال قائما .

والجهال يتمسكون بأن صوم الوصال غير جائز ، والأطباء ينكرون أصل هذا . وأبين هذا بالتفصيل ليحل الكلام الاشكال ، ان شاء الله .

اعلم أن صوم الوصال من غير أن يتأتى خلل فى أمر الله عز وجل : كرامة ، والكرامة محل الخصوص لا محل العموم ، ولما كان حكمها ليس عاما ، فانه لا يصح الأمر بها .

---

(١) ذكر الهجويرى أنه كان من معاصريه من الصوفية من أهل ما وراء النهر . (انظر ج ١ ص ٣٩١) .

(٢) وردت فى أسرار التوحيد حكاية فى هذا المعنى عن أبى سعيد بن أبى الخير ملخصها أن وأحدا من الأدعياء تحداه أن يعتكفا معا أربعين يوما ينالان فيها من الطعام شيئا يسيرا كشأن المعتكفين ، فقبل أبو سعيد ، وبينما كان ذلك الدعى يزداد ضعفا كل يوم كان أبو سعيد يزداد نشاطا وحيوية ، فلما تمت المدة طلب منه أبو سعيد أن يظلا معا أربعين يوما أخرى يأكلان فيها كل شىء ، دون أن يذهبا للطهارة ، وعجز الدعى منذ اليوم الأول ، وظل أبو سعيد على طهارة واحدة لمدة أربعين يوما . (أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٤٩ — ١٥٠) .

ولو كان اظهار الكرامة عاما لصار الايمان جبرا ، ولما كان للعارفين ثواب المعرفة ، فلما كان الرسول عليه السلام صاحب معجزة ، فقد صام صوم وصال علانية ، ونهى أهل الكرامات عن اظهار ذلك ، لأن شرط الكرامة الستر ، وشرط المعجزة الكشف ، وهذا فرق واضح بين المعجزة والكرامة ، وهذا المقدار كاف لمن يهتدى .

وأصل أربعينيتهم يتعلق بحال موسى عليه السلام ، ويصح فى مقام المكالمة . وحين يريدون أن يسمعوا كلام الله عز وجل بالسر ، فانهم يجوعون أربعين يوما . وحين تمر ثلاثون يوما يستاكون ، ويظلون بعد ذلك عشرة أيام أخر ، فلا محالة أن يتحدث الله الى أسرارهم ، لأن كل ما يجوز للأنبياء على الاظهار يجوز للأولياء على الأسرار ، فلا يجوز سماع كلامه مع بقاء الطبع ، وينبغى للطبائع الأربع نفى المشرب والغذاء أربعين يوما لتقهر ، وتكون كل الولاية لصفاء المحبة ولطائف الروح .

وموافق لهذا باب الجوع ، ونكشف حقيقته ليصير معروفا ، وبالله العون .

باب الجوع وما يتعلق به :

« قوله تعالى : ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين(١) » .

« وقوله عليه السلام : بطن جائع أحب الى الله من سبعين عابدا غافلا » .

اعلم ان للجوع شرف كبير ، وهو محمود عند الأمم والملل ، لأن خاطر الجائع يكون أحد من وجهة الظاهر ، وتكون قريحته أكثر تهذيبا ، وجسده أصح . ومن هيأوا أنفسهم بالرياضة لا يكون لهم شره كبير ، « لأن الجوع للنفس خضوع ، وللقلب خشوع » ، فجسد الجائع خاضع وقلبه جائع لأن القوة النفسانية تتلاشى به .

« وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجيعوا بطونكم ، وأظمئوا أكبادكم ، وأعروا أجسادكم ، لعل قلوبكم ترى الله عيانا فى الدنيا(٢) » .

واذا كان للجسد من الجوع بلاء ، فان للقلب به ضياء ، وللروح به صفاء ، وللسر لقاء . وحين يدرك السر اللقاء ، وتجد الروح الصفاء ،

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٥٥ .

(٢) يروى عن عيسى عليه السلام : قال العراقى فى تخريج أحاديث الاحياء ج ٣ ص ٧٠ وهو حديث مرسل (ولم أجده) .

ويجد القلب الضياء ، فأى ضير اذا لقى الجسد البلاء ، لأنه ليس للشبع خطر كبير ، فلو كان له خطر لما أشبعوا الدواب ، لأن الشبع شأن الدواب ، والجوع علاج الرجال .

والجوع يعمر الباطن ، والشبع يعمر البطون ، فمن يقضى العمر فى عمارة الباطن ليتفرد للحق ، ويتجرد من العلائق ، كيف يستوى مع من يقضى عمره فى عمارة بطنه ، وخدمة أهواء الجسد ؟ فواحد يلزمه العالم من أجل الأكل ، وآخر يلزمه الأكل من أجل العبادة ، « كان المتقدمون يأكلون ليعيشوا ، وأنتم تعيشون لتأكلوا » ، فالفرق كبير بين هذا وذاك « الجوع طعام الصديقين ، ومسلك المريدين ، وقيد الشياطين بعد قضاء الله وقدره » ، وخروج آدم عليه السلام من الجنة وابتعاده عن جوار ربه كان من أجل لقمة .

وفى الحقيقة : من يكن فى الجوع مضطرا لا يكن جائعا ، لأن طالب الأكل يكون بالأكل ، فمن له درجة الجوع يكون تاركا للأكل ، لا ممنوعا من الأكل ، ومن يقل بترك الأكل فى حال وجوده ويتحمل عبئه ومشقته يكن جائعا ، ولا يكون قيد شيطانه وحبس هوى نفسه الا بالجوع .

ويقول الكتانى(١) رحمه الله : « من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة ، وكلامه ضرورة ، وأكله فاقة » .

والفاقة عند البعض أن يأكل المرء مرة كل يومين وليلتين ، وعند بعض كل ثلاثة أيام وليال ، وعند بعض كل أسبوع ، وعند بعض أن تأكل شيئا مرة كل أربعين يوما بلياليها ، وعند بعض كل أربعين يوما ، لأن المحققين على أن الجوع الصادق أن يؤكل مرة كل أربعين يوما ، وذلك حفظا للحياة ، وما يظهر خلال ذلك يكون الشره وغرور النفس والطبع ، « عافاك الله والحمد لله رب العالمين » ، لأن عروق أهل المعرفة برهان جميع أسرار

---

(١) الكتانى : محمد بن على بن جعفر الكتانى ، وكنيته أبو بكر . بغدادى الأصل ، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسين النورى . كان أحد الأئمة ، أقام بمكة مجاورا بها الى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة . وكان أبو محمد المرتعش يقول عنه : الكتانى سراج الحرم (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٧٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٧ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٩ ، نفحات الأنس ص ١٧٧) .

الله ، وقلوبهم موضع نظره المتعال ، وقد فتحت أبواب من قلوبهم فى صدورهم، وجلس العقل والهوى على أعتابها ، فالروح تمد العقل ، والنفس تمد الهوى ، وكلما نالت الطبائع من الأغذية أكثر صارت النفس أقوى ، ووجد الهوى تربية أكثر ، فتكون صولته فى الأعضاء أكثر انتشارا ويظهر فى كل عرق من انتشاره حجاب مختلف . وحين يمنع عنها الطالب الأغذية يصير الهوى أضعف ، والعقل أقوى ، وتصير قوة النفس أكثر انقطاعا من العروق ، وتصبح الأسرار والبراهين أظهر ، فاذا عجزت النفس عن حركتها وفنى الهوى عن وجوده انمحت ارادة الباطل فى اظهار الحق ، وعندئذ يحصل كل مراد المريد .

ويرد عن أبى العباس القصاب رحمه الله أنه قال : طاعتى ومعصيتى منوطتان بفعلين ، فحينما آكل أجد فى نفسى جذور المعاصى ، وعندما أكف عن الطعام أجد فى نفسى أصل كل الطاعات .

وأما ثمرة الجوع فالمشاهدة ، لأن المجاهدة قائدته ، فالشبع مع المشاهدة خير من الجوع مع المجاهدة ، لأن المشاهدة معترك الرجال ، والمجاهدة ملاعب الصبيان ، « فالشبع بشاهد الحق خير من الجوع بشاهد الخلق » .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، ولكنى اختصرت للتخفيف ، والله أعلم .

كشف الحجاب الثامن
فى الحج

« قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا(١) » .

والحج من الفرائض المفروضة فرض عين على العبد ، فى حال صحة العقل ، والبلوغ والاسلام ، وحصول الاستطاعة ، ويكون ذلك بالاحرام بالميقات ، والوقوف فى عرفات ، وطواف الزيارة بالاجماع . ولا يجوز السعى بين الصفا والمروى بلا احرام فى الحرم ، على اختلاف .

ويسمون الحرم حرما لأن فيه مقام ابراهيم ، ولأنه محل الأمن . وقد كان لابراهيم عليه السلام مقامان : أحدهما مقام الجسد ، والآخر مقام القلب ، فمقام الجسد هو مكة ، ومقام القلب هو الخلة . وكل من يقصد مقام جسده يجب أن يعرض عن جميع الشهوات واللذات ليكون محرما ، ويلبس الكفن ، ويكف اليد عن الصيد الحلال ، ويقيد جميع الحواس ، ويحضر فى عرفات ، ويذهب من هنالك الى المزدلفة والمشعر الحرام ، ويأخذ الجمرات ، ويطوف بالكعبة فى مكة ، ويذهب الى منى ويبقى هناك ثلاثة أيام ، ويرمى الجمرات بشروطها ، وهناك يطلق شعره ويضحى ويرتدى ملابسه ليكون حاجا .

وأيضا عندما يقصد شخص مقام قلبه يجب عليه أن يعرض عن المألوفات، ويقول بترك اللذات والراحات ، ويحرم عن ذكر الغير — ومن هنالك يكون الالتفات الى الكون محظورا — وعندئذ يقوم بعرفات المعرفة ، ويقصد من هناك الى مزدلفة الألفة ، ويبعث سره من هناك لطواف حرم تنزيه الحق، ويرمى جمرات الهوى والخواطر الفاسدة بمنى الأمان ، ويقدم النفس قربانا فى مذبح المجاهدة ، حتى يصل الى مقام الخلة ، فيكون دخول ذلك المقام(٢) أمانا من الأعداء وسيوفهم ، ودخول هذا المقام(٣) أمانا من القطيعة واخواتها .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحاج وفد الله يعطيهم ما سألوا ، ويستجيب لهم مادعوا(٤) » . وهذه الطائفة الأخرى لا هم يطلبون ،

(١) سورة « آل عمران » آية ٩٧ .
(٢) مقام الجسد أى الكعبة .
(٣) مقام القلب أى الخلة .
(٤) رواه البيهقى عن أنس : « الحجاج والعمار وفد الله يعطيهم ما سألوا ويستجيب لهم ما دعوا ويخلف عليهم ما أنفقوا (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٨) .

ولا هم يدعون ، ولكن يسلمون ، مثل ابراهيم عليه السلام ، « اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العلمين(١) » .

وحين وصل ابراهيم الى مقام الخلة انفرد عن العلائق ، وقطع القلب عن الغير . وأراد الحق تعالى أن يجلوه على الخلق ، فوكل النمروذ ففصل بينه وبين والديه ، وأشعل نارا ، وجاء ابليس وعمل المنجانيق ، وأدخلوه جلد بقرة غير مدبوغ وخاطوه عليه ، ووضعوه على سلم المنجنيق ، فجاءه جبريل وأمسك بسلم المنجنيق وقال له : هل لك من حاجة ؟ فقال ابراهيم عليه السلام : « أما اليك فلا » ، فقال : أليس لك أيضا حاجة الى الله عز وجل ؟ قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

ويقول محمد بن الفضل رحمه الله : انى لأعجب ممن يطلب بيته فى الدنيا ، لم لا يطلب مشاهدته فى قلبه ، لأنه قد يجده فى الكعبة وقد لا يجده ، ولكنه يجده فى قلبه لا محالة فى المشاهدة ، فاذا كانت زيارته لحجر ينظر اليه مرة فى السنة فريضة ، فان القلب الذى ينظر اليه فى اليوم ثلثمائة وستين مرة أولى بزيارته . ولكن لأهل التحقيق فى كل قدم من طريق مكة علامة ، وعندما يصلون الى الحرم يجدون من كل واحدة خلعة .

ويقول أبو يزيد رضى الله عنه : كل من يثاب على العبادة فى الغد لا يكون قد أدى العبادة اليوم ، لأن ثواب كل نفس من المجاهدة يحصل فى الحال .

ويقول أيضا رحمه الله : أول حج لى لم أر غير البيت ، وفى المرة الثانية رأيت البيت ورب البيت ، وفى المرة الثالثة رأيت الكل رب البيت ، ولم أر أى بيت .

وجملة القول : ان الحرم يكون حيثما تكون المشاهدة تعظيما ، ومن لا يكن كل العالم ميعاد قرب وخلوة انس له ، لم يعرف المحبة بعد. وحين يكون العبد مكاشفا يكون العالم كله حرما له ، وعندما يكون محجوبا يكون الحرم له أظلم عالم ، « فأظلم الأشياء دار الحبيب بلا حبيب » ، فقيمة المشاهدة هى الرضا فى محل الخلة ، التى جعل الله رؤية الكعبة سببا لها ، فليست القيمة للكعبة ، ولكن يجب التعلق بكل سبب للمسبب لنرى من أى مكمن تبدو عناية الحق تعالى ، ومن أين تظهر ، ومن أين يلوح مراد الطالب ، فلم يكن الحرم مراد الرجال من قطع المفازات والبوادى ، لأن رؤية الحرم حرام على الحبيب ، وانما كان المراد المجاهدة فى الشوق المقلق ، أو قضاء فترة فى مشقة دائمة .

(١) سورة « البقرة » آية ١٣١ .

جاء رجل الى الجنيد رضى الله عنه فقال له الجنيد : من أين جئت ؟ فقال : كنت فى الحج . قال هل حججت ؟ قال : نعم . قال : هل رحلت عن جميع المعاصى منذ خرجت فى البداية من بيتك ورحلت عن وطنك ؟ فقال : كلا . قال : لم ترحل ، (ثم) قال : حين خرجت من البيت واقمت كل ليلة بمنزل ، هل قطعت فى هذا المقام مقاما من مقامات طريق الحق ؟ فقال : كلا . قال : لم تقطع منزلا ، (ثم)قال : حينما أحرمت فى الميقات ، هل تجردت من صفات البشرية كما تجردت من ثيابك ؟ فقال : كلا . قال : اذن لم تحرم ، (ثم) قال : حين وقفت بعرفات ، هل لاح الوقت فى كشف المشاهدة ؟ فقال : كلا . قال : اذن لم تقف بعرفات ، وقال : حين ذهبت الى المزدلفة وحصل مرادك ، هل تركت جميع الرغبات (النفسانية) ؟ فقال : كلا . قال : لم تذهب الى المزدلفة ، وقال : حين طفت (بالكعبة) ، هل رأيت سرك فى محل تنزيه لطائف حضرة جمال الحق ؟ فقال : كلا . قال لم تطف ، (ثم) قال : حين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت مقام الصفاء ودرجة المروءة ؟ فقال : كلا . قال : انك لم تسع بعد ، وقال : حينما جئت الى منى ، هل سقط عنك مناك ؟ فقال : كلا . قال : لم تذهب الى منى بعد ، (ثم) قال: عندما ضحيت فى المنحر ، هل ضحيت برغبات نفسك ؟ فقال : كلا . قال : فلم تضح ، وقال : عندما رميت الجمرات ، هل رميت كل ما صحبت من المعانى النفسية ؟ فقال : كلا . قال : فلم تلق الجمرات بعد ، ولم تحج ، فعد وحج على هذا النحو حتى تصل الى مقام ابراهيم .

سمعت أن رجلا من العظماء كان قد جلس أمام الكعبة وأخذ يبكى ويقول :

(شعر عربى)

وأصبحت يوم النفر والعيس ترحل ... وكان حدى الحادى بنا وهو معجل
أسايل عن سلمى فهل من مخبر ... بأن له علما بها أين تنزل
لقد أفسدت حجى ونسكى وعمرتى ... وفى البين لى شغل عن الحج مشغل
سأرجع من عامى لحجة قابل ... فان الذى قد كان لا يتقبل

ويقول الفضيل بن عياض رحمه الله : رأيت شابا وقف صامتا فى الموقف ، وقد أطرق برأسه ، وكان الخلق جميعا يدعون وهو صامت ، فقلت له : أيها الشاب! لم لا تدعو أنت أيضا ؟ فقال : لقد عرتنى وحشة فضاع منى وقتى، ولا وجه لدعائى . فقلت له : ادع ، ليبلغك الله تعالى مرادك ببركة هذا الجمع . فأراد أن يرفع يديه ويدعو ، فندت عنه صرخة ، وفاضت معها روحه،

ويقول ذو النون المصرى رحمه الله : جلس شاب ساكنا فى منى والخلق مشغولون بالأضحيات ، فنظرت اليه لأرى ماذا يصنع ، ومن هو . فقال : يا الهى ! ان جميع الخلق مشغولون بالأضاحى ، وأنا أريد أن أضحى بنفسى فى حضرتك ، فتقبل منى ، قال هذا ، وأشار بسبابته على حلقه ، وسقط ، فلما أمعنت النظر كان قد مات .

والحج على نوعين : حج فى الغيبة ، وحج فى الحضور ، فمن يكن فى مكة فى الغيبة يكن كمن هو فى منزله ، لأنه لا غيبة أولى من غيبة . ومن يكن فى بيته فى الحضور يكن كمن هو حاضر فى الكعبة ، اذ ليس حضور أولى من حضور ، فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، وليست المجاهدة علة للمشاهدة ، بل سببا ، وليس للسبب تأثير كبير فى المعانى ، فالمقصود من الحج ليس رؤية البيت ، وانما كشف المشاهدة .

والآن فلآت بباب فى المشاهدة يتضمن هذا المعنى ، ليكون أقرب الى حصول مقصودك ، وبالله التوفيق .

باب المشاهدة :

« قال النبى عليه السلام : أجيعوا بطونكم ، ودعوا الحرص ، وأعروا أجسادكم ، وقصروا الأمل ، وأظمئوا أكبادكم ، ودعوا الدنيا ، لعلكم ترون الله بقلوبكم(١) » . وقال أيضا عليه السلام فى جواب سؤال جبريل عن الاحسان ، أن : « اعبد الله كأنك تراه ، فأن لم تكن تراه فانه يراك(٢) » .

وأوحى (الله) الى داود عليه السلام أن : « يا داود ! أتدرى ما معرفتى ؟ قال : لا ، قال حياة القلب فى مشاهدتى » .

ومراد هذه الطائفة من المشاهدة : الرؤية بالقلب ، لأن (المشاهد) يرى الحق تعالى بالقلب فى الخلا والملا .

ويقول أبو العباس بن عطاء رحمه الله عن قول الله عز وجل : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا(٣) » أى : « ان الذين قالوا ربنا الله بالمجاهدة ، ثم استقاموا على بساط المشاهدة » .

---

(١) مكرر .
(٢) لأبى نعيم فى الحلية عن زيد بن أرقم (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧٤) .
(٣) سورة « فصلت » آية ٣٠ .

وحقيقة المشاهدة على نوعين : نوع (يتأتى) من صحة اليقين ، والآخر من غلبة المحبة ، لأنه حين يصل المحب فى حال المحبة الى درجة أن تصير كليته كلها حديث الحبيب فانه لا يرى سواه ، كما يقول محمد بن واسع رحمه الله : « ما رأيت شيئا قط الا ورأيت الله فيه » ، « أى بصحة اليقين » ، ويقول الشبلى رحمه الله : « ما رأيت شيئا قط الا الله » ، يعنى بغلبة المحبة وغليان المشاهدة ، فواحد يرى الفعل وهو فى رؤيته للفعل يرى الفاعل بعين السر ، ويرى الفعل بعين الرأس ، وواحد تسلبه المحبة من الكل ، فيرى الكل فاعلا ، فيكون طريق هذا(١) استدلاليا ، وطريق ذلك جذبيا(٢) . ومعنى ذلك أن واحدا يكون مستدلا ، حتى يجعل أثبات الدلايل الحقائق عيانا له ، وآخر يكون مجذوبا ومسلوبا ، أى أن الحق يجعل الدلائل والحقائق حجابا له ، « لأن من عرف شيئا لا يهاب غيره ، ومن أحب شيئا لا يطالع غيره ، (فالأحبة) تركوا المنازعة مع الله ، والاعتراض عليه فى أحكامه وأفعاله » .

وقد أخبرنا الله تعالى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومعراجه ، وقال : « ما زاغ البصر وما طغى(٣) » ، (أى أنه) « من شدة الشوق الى الله » ، لم يفتح عينيه على أى شىء حتى يرى ما يجب (أن يرى) بقلبه . وحينما يغمض المحب عينه عن الموجودات فأنه يرى الموجد بقلبه لا محالة ، « لقوله تعالى : لقد رأى من آيات ربه الكبرى(٤) » . « وقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم(٥) » . « أى أبصار العيون عن الشهوات ، وأبصار القلوب عن المخلوقات » ، فكل من ينيم بالمجاهدة عين الرأس عن الشهوة ، فانه لا محالة يرى الحق بعين السر ، « فمن كان أخلص مجاهدة ، كان أصدق مشاهدة » ، فمشاهدة الباطن مقرونة بمجاهدة الظاهر .

ويقول سهل بن عبد الله رحمه الله : « من غض بصره عن الله طرفة عين لا يهتدى طول عمره » ، لأن ثمرة الالتفات الى الغير الترك للغير ، وكل من ترك للغير هلك ، فعمر أهل المشاهدة ما يكونون فيه فى المشاهدة ، وما يكون فى المغايبة لا يعدونه عمرا ، لأن هذا لهم موت على الحقيقة ، كما سئل أبو يزيد رحمه الله : كم عمرك ؟ قال : أربعة أعوام ، قالوا : كيف يكون

---

(١) أى الأول .
(٢) أى الثانى .
(٣) سورة « النجم » آية ١٧ .
(٤) سورة « النجم » آية ١٨ .
(٥) سورة « النور » آية ٣٠ .

هذا ؟ قال : سبعون عاما وأنا فى حجاب الدنيا ، ولكنى أراه منذ أربعة أعوام ، ولا أعد زمن الحجاب من عمرى .

وقال الشبلى رحمه الله : « اللهم اخبأ الجنة والنار فى خبابا غيبك حتى تعبد بغير واسطة » . ولما كان للطبع نصيب فى الجنة ، فان الغافل اليوم بحكم اليقين يعبد من أجلها ، وحينما لا يكون للقلب نصيب من المحبة فان الغافل يكون لا محالة محجوبا عن المشاهدة .

وقد أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم عائشة عن ليلة المعراج فقال : لم أر الحق . ويروى ابن عباس رضى الله عنهما أن الرسول عليه السلام قال له : رأيت الحق . وقد بقى الخلق فى هذا الخلاف ، والأفضل أن يرفع المحب هذا الخلاف ، فأما قوله : رأيته ، فقد عبر به عن عين السر ، وأما قوله ، لم أره ، فقد أراد به عين الرأس ، وكان واحد من هذين من أهل الباطن ، والثانى من أهل الظاهر ، فتكلم مع كل منهما على قدر حاله . وما دام السر قد رأى ، فأى ضير اذا لم تكن (الرؤية) بواسطة العين ؟ .

ويقول الجنيد رحمه الله : لو قال لى الله : أنظر الى ، أقول : لا أرى ، لأن العين فى المحبة : غير ، وغريب ، وغيرة الغيرية تمنعنى من الرؤية ، لأنى كنت أراه فى الدنيا بغير واسطة العين ، فكيف أتخذ واسطة فى العقبى .

(شعر عربى)

انى لأحسد ناظرى عليكا فأغض طرفى اذا نظرت اليكا

فهم يضنون برؤية الحبيب على العين ، لأن العين غريب .

قيل لشيخ : أتريد أن ترى الله ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال : عندما أراد موسى : لم يره ، ومحمد لم يرد ، فرأى . فارادتنا هى حجابنا الأعظم عن رؤية الحق تعالى ، لأن وجود الارادة فى المحبة مخالفة ، والمخالفة حجاب . واذا انقطعت الارادة فى الدنيا ، حصلت المشاهدة ، واذا ثبتت المشاهدة ، صارت الدنيا مثل العقبى والعقبى مثل الدنيا .

ويقول أبو يزيد رحمه الله : « ان لله عبادا لو حجبوا عن الله فى الدنيا والآخرة لارتدوا » . أى انه يرعاهم دائما بدوام المشاهدة ، ويحييهم بحياة محبتهم . وحين يحجب المكاشف يصير مطرودا لا محالة .

ويقول ذو النون رحمه الله : كنت أسير يوما فى مصر ، فرأيت صبية كانوا

يرجمون شابا ، فقلت : ماذا تريدون منه ؟ قالوا : انه مجنون ، قلت : أى علامة للجنون تبدو عليه ؟ قالوا : انه يقول انى أرى الله ، فقلت:أيها الشاب! أتقول هذا أم يتقولونه عليك ؟ قال : لا ، بل أنا الذى أقول ، لأنى اذا لم أر الحق لحظة وحجبت ، لمـا أطعته .

وقد أخطأ هنا قوم من أهل هذه الطريقة ، فهم يظنون أن رؤية القلوب والمشاهدة تكون عن طريق الصورة التى يثبتها الوهم فى القلب ، فى حـال الذكر أو الفكر ، وهذا تشبيه محض ، وضلال واضح ، لأنه ليس لله تعالى حيز حتى يأخذ بالوهم حيزا فى القلب ، أو يطلع العقل على كيفيته ، وكل ما هو موهوم يكون من جنس الوهم ، وكل ما هو معقول من جنس العقل ، والحق تعالى وتقدس غير مجانس للأجناس ، واللطائف والكثائف جملة جنس لبعضها فى محل مضادتها لأحدها الآخر ، لأنه فى تحقيق التوحيد يكون الضد جنسا فى جانب القديم ، لأن الأضداد محدثات ، والمحدثات من جنس واحد ، « تعالى الله عن ذلك وعما يقول الظالمون » .

فالمشاهدة فى الدنيا تكون كالرؤية فى العقبى . ولمـا كانت الرؤية ، باجماع جميع الصحابة ، تجوز فى العقبى ، فان المشاهدة تجوز أيضـا فى الدنيا . ويوجد فرق بين مخبر يخبر عن مشاهدة العقبى ، ومخبر يخبر عن مشاهدة الدنيا،وكل من يخبر عن هذين المعنيين يخبر بالاجازة لا بالدعوى. أى لا يقول أن الرؤية والمشاهدة جائزة ، أو لا يقول : ان لى مشـاهدة ، لأن المشاهدة صفة السر ، والاخبار عبارة اللسان ، وحين يكون للسـان خبر عن السر حتى أنه يعبر عنه ، فان هذه لا تكون مشاهدة ، بل تكون ادعاء ، لأن الشىء الذى لا تثبت حقيقته فى العقول ، كيف يعبر عنه اللسان الا بمعنى المجاز ؟ » ، لأن المشاهدة قصور اللسان بحضور الجنـان » . فللسكوت درجة أعلى من النطق ، لأن السكوت علامة المشاهدة ، والنطق علامة الشهادة ، وفرق كبير بين الشهادة على شىء ومشاهدة شىء ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى درجة القرب والمحل الأعلى الذى خصه الحق تعالى به : « لا أحصى ثناء عليك » لأنه كان فى المشاهدة ، والمشاهدة فى درجة المحبة : وحدة ، والتعبير فى الوحدة : غربة . ثم قال : « أنت كمـا أثنيت على نفسك(١) » : أى ان كلامك كلامى ، وثناءك ثنائى ، ولا أرى اللسان أهلا لأن يعبر عن حالى ، ولا أرى البيان يستحق أن يظهر حالى .

(١) مكرر .

ويقول قائل فى هذا المعنى :

(شـعر عـربى)

تمنيت أن أهـوى فلمـا رايتـه
بهت فلم أملك لسـانا ولا طـرفا

هذه هى أحكام المشاهدة كاملة على سبيل الاختصار ، وبالله العـون والتوفيـق .

كشف الحجاب التاسع
فى الصحبة مع آدابها وأحكامها

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا(١) » أى : أدبوهم .

« وقال النبى عليه السلام : حسن الأدب من الايمان(٢) » ، وقال أيضا : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى(٣) » .

فأعلم أن زينة وحلية جميع الأمور الدينية والدنيوية متعلقة بالآداب ، ولكل مقام من مقامات أصناف الخلق أدب ، والكافر والمسلم ، والموحد والملحد ، والسنى والمبتدع متفقون على أن حسن الأدب فى المعاملات طيب ، ولا يثبت أى رسم فى العالم بدون استعمال الأدب .

والآداب فى الناس : حفظ المروءة ، وفى الدين : حفظ السنة ، وفى المحبة ، حفظ الحرمة . وهذه الثلاثةمرتبطة ببعضها البعض ، لأن كل من ليست له مروءة لا يكون متابعا للسنة ، وكل من لا يحفظ السنة لا يرعى الحرمة .

وحفظ الأدب فى المعاملة يحصل من تعظيم المطلوب فى القلب ، وتعظيم الحق وشعائره من التقوى ، ومن يدس تعظيم شواهد الحق بلا حرمة لا يكن له أى نصيب فى طريق التصوف . ولا يمنع السكر والغلبة الطالب من حفظ الآداب بأى حال ، لأن الأدب يكونلهم عادة ، والعادة تكون قرين الطبيعة ، وسقوط الطبائع عن الحيوان فى أى حال محال ، ما دامت الحياة قائمة ، فطالما كانت أشخاصهم قائمة ، فانهم فى كل الأحوال تجرى عليهم آداب المتابعة ، أحيانا بالتكلف ، وأحيانا بدون تكلف ، فحين يكون حالهم الصحو ، فانهم يحفظون الآداب بالتكلف ، وعندما يكون حالهم السكر ، فان الحق تعالى يحفظ الأدب عليهم . وتارك الأدب لا يكون بأية صفة

---

(١) سورة « التحريم » آية ٦ .
(٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس : « حسن العهد من الايمان » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٢٢) .
(٣) رواه ابن السمعانى فى أدب الاملاء عن ابن مسعود (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١) .

وليا ، « لأن المودة عند الآداب ، وحسن الآداب صفة الأحباب » ، وكل من يكرمه الحق تعالى ، فدليل ذلك أنه يحفظ عليه حكم آداب الدين ، وذلك على خلاف ما تقول طائفة من الملاحدة — لعنهم الله — من أن العبد عندما يصير مغلوبا فى المحبة ، يسقط عنه حكم المتابعة ، وسأبين هذا فى مكان آخر ان شاء الله .

أما الآداب فعلى ثلاثة أقسام :

الأول : فى التوحيد — مع الحق عز وجل ، وذلك بأن يحفظ نفسه من عدم الحرمة فى الخلا والملا ، فتكون معاملته فى الخلاء كما يفعل فى مشاهدة الملوك ، وفى الأخبار الصحاح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد جلس يوما متربعا فجاء جبريل وقال : « يا محمد ! اجلس جلسة العبيد » . أى : اجلس عبدا كالعبيد فى حضرة الله تعالى .

ويقال ان الحارث المحاسبى لم يسند ظهره الى حائط أربعين سنة ليلا ونهارا ، ولم يجلس الا جاثيا على ركبتيه ، فسألوه : لماذا تتعب نفسك ؟ قال : انى لأخجل أن أجلس فى مشاهدة الحق غير جلسة العبيد .

وأنا على بن عثمان الجلابى ، رضى الله عنه ، رأيت رجلا فى نهاية ديار خراسان ، بقرية يسمونها « كمند(١) » — وذلك الرجل كان معروفا ويسمونه أديب الكمندى(٢) — وكان رجلا فاضلا تماما ، وقد وقف عشرين عاما على قدميه ، ولم يكن يجلس الا لتشهد الصلاة ، فسئل عن علة ذلك ، فقال : ليس لى درجة الجلوس فى مشاهدة الحق بعد .

وسئل أبو يزيد رحمه الله : « بم وجدت ما وجدت ؟ قال : بحسن الصحبة مع الله عز وجل » .

ويجب على العالمين حفظ الآداب فى مشاهدة معبودهم ، ويتعلمون من زليخا أنها حين خلت بيوسف وطلبت منه اجابة حاجتها ، كانت قد غطت أولا وجه صنمها بشىء ، فسألها يوسف عليه السلام : ما تفعلين ؟ قالت : سترت وجه المعبود حتى لا يرانى بلاحرمة ، لأن ذلك ليس من شرط الأدب . وحين

---

(١) كمند : كمنده ، ذكرها ياقوت فقال انها من قرى الصغد من نواحى كرمينية : ينسب اليها خالد بن ابراهيم البخارى الكرمسينى الكمندى (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠٥) .
(٢) أشار اليه الهجويرى على أنه من معاصريه (أنظر ج ١ ص ٣٨٩) وأورد له الجامى ترجمة لا تزيد عما أورده الهجويرى عنه فى كشف المحجوب (انظر نفحات الأنس ص ٣١٨) .

وصل يوسف الى يعقوب وأكرمه الله تعالى بوصاله ، صير زليخا شابة وهداها الى الاسلام وزوجها من يوسف ، وقصدها يوسف ففرت زليخا منه ، فقال : يا زليخا ! أنا محبوبك ، فلم تفرين منى ؟ هل انمحت محبتى من قلبك ؟ قالت : لا والله ، بل زادت ، ولكنى قد حفظت دائما حرمة معبودى. ويوم أن خلوت بك كان معبودى صنما ولم يكن يرى قط ، ولكن بحكم انه كان له عينان لا تبصران ، فقد غطيتهما بشىء حتى ترتفع عنى تهمة عدم الأدب ، والآن لى معبود بصير بلا مقلة وآلة ، وهو يرانى على أية صفة أكون ، ولا أريد أن أكون تاركة للآداب .

ولما حمل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المعراج ، لم ينظر الى الكونين ، حفظا للأدب ، كما قال الله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » أى : ما زاغ البصر برؤية الدنيا ، وما طغى برؤية العقبى » .

والقسم الثانى : الأدب مع النفس فى المعاملة ، وذلك بأن يراعى المروءة فى كل الأحوال مع نفسه ، فما يكون فى صحبة الخلق والحق سوء أدب لا يعمله مع نفسه . ومثال ذلك أن لا يقول غير الصدق ، ولا يجيز أن يجرى على لسانه خلاف ما يعرف ، لأن فى هذا عدم مروءة . وثانيا : أن يأكل قليلا حتى يلزمه التقليل من الذهاب الى المطهرة ، وثالثا : أن لا ينظر الى شىء من نفسه لا يجوز لغيره النظر اليه ، لأنه يرد عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه لم ينظر الى عورته قط ، وسئل عن ذلك ، فقال : انى لأخجل من نفسى أن أنظر الى شىء يحرم النظر الى جنسه .

والقسم الثالث : الأدب مع الخلق فى الصحبة ، وأهم آداب صحبة الخلق يكون فى السفر والحضر بحسن المعاملة وحفظ السنة . ولا يمكن فصل هذه الأنواع الثلاثة من الآداب عن بعضها البعض .

والآن : فلأرتب هذا على قدر الامكان ، ليكون طريقه أسهل عليك وعلى القراء ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله .

باب الصحبة وما يتعلق بهـا :

« قال الله تبارك وتعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا(١) » أى بحسن رعايتهم الاخوان » .

« وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث يصفين لك ود أخيك :

---

(١) سورة « مريم » آية ٩٦ .

تسلم عليه ان لقيته ، وتوسع له فى المجالس ، وتدعوه بأحب أسمائه اليه(١) » . هذا ما أمر به الرسول من حسن الرعاية وحفظ الحرمة .

« وقوله تعالى : انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم(٢) » .

« وقوله عليه السلام : أكثروا من الاخوان فان ربكم حيى كريم يستحى أن يعذب عبده بين اخوانه يوم القيامة » .

ولكن يجب أن تكون الصحبة من أجل الله عز وجل ، لا من أجل هوى النفس وحصول المراد والأغراض ، ليكون العبد مشكورا بحفظ آدابها .

قال مالك بن دينار لصهره المغيرة بن شعبة(٣) رضى الله عنهما : « كل أخ وصاحب لم تستفد منه فى دينك خيرا فانبذ عنك صحبته حتى تسلم » . ومعنى هذا أنه يجب على المرء أن يصحب من هو أكبر أو أصغر منه ، لأنك اذا صحبت من هو أكبر منك فانك تستفيد ، واذا صحبت من هو أصغر منك فانه يستفيد منك فى الدين ، لأنه اذا تعلم منك شيئا دينيا تحصل فائدة دينية ، واذا تعلمت أنت شيئا ، فكذلك . ولذلك قال النبى عليه السلام : « ان من تمام التقوى تعليم من لم يعلم » .

ويرد عن يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله أنه قال : بئس الصديق صديق تحتاج أن تقول له اذكرنى فى دعائك ، وبئس الصديق صديق تحتاج أن تعيش معه بالمداراة ، وبئس الصديق صديق يلجئك الى الاعتذار فى زلة كانت منك » . لأن العذر شرط الغربة ، والغربة جفاء فى الصحبة .

« وقال النبى صلى الله عليه وسلم : المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل (٤)» ، فاذا صحب الاخيار فهو خير وان يكن شريرا ، لان تلك الصحبة تجعله خيرا ، واذا صحب الأشرار فهو شرير وان يكن خيرا ، لأنه

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم فى المستدرك عن عثمان بن طلحة الحجبى ، والبيهقى عن عمر موقوفا وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٣٨) .
(٢) سورة « الحجرات » آية ١٠ .
(٣) المغيرة بن شعبة : كان والى الكوفة من قبل معاوية ، وفى سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة فهرب منها المغيرة ثم عاد اليها فطعن ، فمات . (مروج الذهب ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨) .
(٤) رواه أبو داود (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٥٤) .

يرضى بما فيهم ، فاذا رضى بالشر فانه يصير شريرا وان يكن خيرا ، فقد جاء فى الحكايات أن رجلا كان يطوف بالكعبة ويقول : « اللهم أصلح اخوانى! فقيل له : لم لم تدع لك فى هذا المقام ؟ فقال رحمه الله : « ان لى اخوانا أرجع اليهم،فان صلحوا صلحت معهم ، وان فسدوا فسدت معهم » ، فلما كان أساس صلاحى هو صحبة الصالحين فانى أدعو لاخوانى ليتحقق مقصودى ومقصودهم ان شاء الله .

وأساس هذا كله ان النفس تسكن الى العادة ، والمرء بين أية جماعة تكون ، يعتاد أفعالهم ، لأن كل المعاملات والرغبات الحق والباطلة مركبة فيه ، فكل ما يراه من معاملاتهم وميولهم ، يتربى فيه ويغلب على ميوله الأخرى .

وللصحبة أثر عظيم فى الطبع ، وللعادة صولة صعبة ، الى حد أن البازى يصير عالما بصحبة الآدمى ، والببغاء يصير ناطقا بالتعلم ، والحصان يتحول بالرياضة من العادة البهيمية الى العادة الآدمية ، وأمثال هذا . وهذا كله دليل على تأثير الصحبة ، لأن عاداتهم العزيزة قد غلبت .

ومشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم يطلبون أولا حق الصحبة من أحدهم الآخر ، ويأمرون المريدين بذلك ، الى حد أن صارت الصحبة بينهم كالفريضة . وقد كتب المشايخ رضى الله عنهم قبل هذا كتبا فى آداب صحبة هذه الطائفة مشروحة ، مثل الجنيد رضى الله عنه ، فقد ألف كتابا اسمه : « تصحيح الارادة » . وألف أحمد بن خضرويه البلخى كتابا اسمه : « الرعاية بحقوق الله » ، ومحمد بن على الترمذى رحمه الله ألف أيضا كتابا أسماه : « بيان آداب المريدين » ، وأبو القاسم الحكيم رضى الله عنه ، وأبو بكر الوراق ، وسهل بن عبد الله ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، والأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمة الله عليهم أجمعين ألفوا أيضا كتبا مستوفاة فى هذا المعنى ، وقد كان هؤلاء جميعا أئمة هذا الفن . ومقصودى من هذا الكتاب هو أن كل من يملكه لايحتاج الى كتب أخرى . وقد قلت قبل هذا فى مقدمة الكتاب ، فى حال سؤالك ، ان هذا الكتاب غنية لك ولطلاب هذه الطريقة .

والآن أرتب هذه الأبواب فى أنواع آداب معاملاتهم ، ان شاء الله تعالى وحده ، وكفى .

باب آدابهم فى الصحبة :

بما أنك عرفت أن أهم الأشياء للمريد هو حق الصحبة ، فلا محالة أن تكون رعاية الصحبة فريضة ، لأن الوحدة هلاك للمريد ، « لقوله عليه

السلام : الشيطان مع الواحد(١) » ، « وقوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم(٢) » . فلا آفة للمريد مثل الوحدة .

وقد وجدت فى الحكايات أن مريدا من مريدى الجنيد رضى الله عنه ، خيل اليه أنه وصل الى درجة الكمال ، وقال لنفسه : ان الوحدة أفضل لى من الصحبة ، واعتكف فى زاوية ، وأعرض عن صحبة الجماعة ، فلما أقبل الليل جيء بجمل ، وقيل له : ينبغى لك أن تذهب الى الجنة ، فركبه وأخذ يسير حتى بدا له مكان بهيج ، وكان فيه جماعة حسان الصور ، وأطعمة طيبة ، ومياه جارية ، وأسمعوه حتى وقت السحر ، ثم نام ، فلما استيقظ رأى نفسه على باب صومعته ، حتى استشرت فيه رعونة الآدمية ، وأظهرت نخوة الشباب أثرها فى قلبه ، فأطلق لسان الدعوى ، وكان يقول : ان لى كذا وكذا ، حتى أبلغ الخبر الجنيد ، فنهض وجاء الى صومعته ، فوجده وقد ملىء رأسه زهوا ، وتمكن فى دماغه الكبر ، فسأله الجنيد عن حاله ، فذكر للجنيد كل شىء ، فقال له رضى الله عنه : عندما تذهب الليلة الى ذلك المكان ، قل : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ثلاث مرات . فلما جن الليل ، حملوه ، وكان فى قلبه ينكر علم الجنيد ، فلما انقضى زمن قال : (لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم) ثلاث مرات على سبيل التجربة ، فضج أولئك جميعا وانصرفوا ، ووجد نفسه جالسا فى وسط مزبلة ، وقد أحاطت به بعض عظام الرمم . ووقف على خطئه ، وتعلق (بأهداب) التوبة ، ورجع الى صحبة أصحابه .

وليس للمريد آفة كالوحدة . وشرط صحبتهم هو أن يجعلوا كل انسان فى درجته : مثل الاحترام مع الشيوخ ، والانبساط مع الأقران ، والشفقة مع الصغار ، فيجعلوا الشيوخ فى درجة الآباء ، والأقران فى درجة الاخوان، والصغار فى درجة الأبناء ، ويتبرأوا من الحقد ، ويحترزوا من الحسد ، ويعرضوا عن البغضاء ، ولا يضنوا بالنصيحة على أحد .

ولا يجوز فى الصحبة أن يغتاب أحدهم الآخر أو يخونه أو ينكر عليه فى القول والفعل ، لأنه ما دامت الصحبة فى البداية من أجل الله عز وجل فيجب الا تقطع بفعل أو قول يصدر من العبد .

---

(١) رواه البزاز عن أبى هريرة : « الشيطان يهم بالواحد والاثنين فاذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .
(٢) سورة « المجادلة » آية ٧ .

وقد سألت شيخ المشايخ أبا القاسم الجرجانى رضى الله عنه : ما شرط الصحبة ؟ قال : الا تطلب حظك فى الصحبة ، لأن جميع آفات الصحبة ناجمة من أن يطلب كل شخص فيها حظه . والوحدة خير لصاحب الحظ من الصحبة ، وحين يتخلى عن حظه ويرعى حظوظ أصحابه يكون مصيبا فى الصحبة .

يقول واحد من الدراويش : خرجت مرة من الكوفة قاصدا مكة ، فوجدت ابراهيم الخواص رضى الله عنه فى الطريق ، فطلبت منه الصحبة ، فقال : يلزم للصحبة أمير وتابع ، فهل تريد أن تكون أنت الأمير أم أنا ؟ فقلت : كن أنت الأمير ، فقال : لا تخرج الآن عن أمر الأمير ، فقلت : قبلت . قال : فلما وصلنا منزلا قال : اجلس ، ففعلت ، فنزح الماء من البئر ، وكان الجو باردا ، فجمع الحطب وأشعل النار ، وأكرمنى . وكنت كلما قصدت القيام بعمل كان يقول لى : احفظ شرط الأمر . فلما أقبل الليل هطل مطر عظيم ، فخلع مرقعته ووقف على رأسى حتى الصباح وقد بسط المرقعة على يديه ، وكنت فى شدة الخجل ، وبحكم الشرط لم أستطع أن أقول شيئا ، وعندما طلع الفجر قلت : أيها الشيخ ! أنا اليوم الأمير ، فقال : حسن . وعندما بلغنا منزلا قام بنفس الخدمات ، فقلت : لا تخرج عن أمر الأمير ، فقال : ان الشخص الذى يخرج عن أمر الأمير هو الذى يأمر الأمير بخدمته . وصحبنى على هذه الصفة حتى مكة ، ولما جئنا مكة فررت خجلا منه ، حتى رآنى فى منى ، وقال لى : يا بنى ! عليك أن تصحب الدراويش كما صحبتك(١) .

« روى عن أنس بن مالك أنه قال : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وخدمته ، فوالله ما قال لى أف قط ، وما قال بشىء فعلت : لم فعلت كذا ، ولا بشىء لم أفعله : ألا فعلت كذا » .

والدراويش جميعا على قسمين : قسم مقيم ، وقسم مسافر . وسنة المشايخ رضى الله عنهم أنه يجب على المسافرين أن يفضلوا المقيمين على أنفسهم لأنهم يسعون على نصيبهم ، والمقيمون أقاموا لحق الخدمة . وفى المسافرين علامة الطلب ، وفى المقيمين أمارة الادراك ، فالفضل يكون لمن أدرك وأقام واستراح من الطلب ، على من (لا يزال) يطلب . ويجب على المقيمين أن يفضلوا المسافرين على أنفسهم لأنهم أصحاب علائق ، والمسافرون قد تجردوا من العلائق . والمسافرون فى الطلب ، والمقيمون فى الوقفة .

---

(١) روى السراج هذه القصة عن أبى على الرباطى أنه قال : صحبت عبد الله المروزى .. الخ (انظر اللمع ص ٢٣٦ — ٢٣٧) .

ويجب على الشيوخ أن يفضلوا الشبان على أنفسهم ، لأنهم أقرب عهدا فى الدنيا ، وذنوبهم أقل . ويجب على الشبان أن يفضلوا الشيوخ على أنفسهم لأنهم أسبق فى العبادة ، وأكثر تقدما فى الخدمة . وما دام الأمر هكذا فأن كلا الفريقين يدرك النجاة بأحدهما الآخر ، والا هلكوا .

فصل : واعلم أن حقيقة الآداب هى اجتماع خصال الخير ، وقد سميت المأدبة مأدبة لأن كل ما يأتى عليها يكون خيرا كله ، « فالذى اجتمع فيه خصال الخير فهو أديب » . وقد جرت العادة على أن يسمى الشخص الذى يعرف علم اللغة والنحو والصرف أديبا ، وعند هذه الطائفة : « الأدب هو الوقوف مع المستحسنات ، ومعناه أن يعامل الله فى الأدب سرا وعلانية ، واذا كنت كذلك كنت أديبا وان كنت أعجميا ، وان لم تكن كذلك تكون على ضده » .

وسئل واحد من المشايخ رضى الله عنهم : ما شرط الأدب ؟ قال : أجيبك ببيت سمعته(١) ، معناه أن الأدب هو انك اذا تكلمت يكون قولك صدقا ، واذا مارست المعاملة تكون معاملتك حقا . وقول الصدق مليح ولو كان غليظا ، والمعاملة الطيبة حسنة ولو كانت صعبة ، فاذا تحدث المرء يكون مصيبا فى قوله ، وحين يصمت يكون محقا فى صمته .

وحسنا فرق الشيخ أبو نصر السراج ، رحمه الله ، صاحب كتاب اللمع فى كتابه بين الآداب ، حيث قال :

الناس فى الأدب على ثلاث طبقات : أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب .

وأما أهل الدين فأكثر آدابهم فى رياضة النفس ، وتأديب الجوارح ، وحفظ الحدود وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات الى الخواطر ، وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب(٢) » .

---

(١) الشيخ المشار اليه هو أبو العباس بن عطاء ، والبيت هو :

اذا نطقت جاءت بكل ملاحة
وان سكتت جاءت بكل مليح

(اللمع ص ١٩٦)

(٢) هنا اختصار لبعض العبارات الواردة فى نص السرج : أنظر النص الكامل فى اللمع ص ١٩٥ .

وهذا كلام جامع ، وسيأتى تفصيله مفرقا فى الكتاب ان شاء الله عز وجـــل .

باب آداب الاقامة فى الصحبة :

حين يختار درويش الاقامة بدون سفر ، فشرط أدبه أنه حين يأتيه مسافر أن يتقدم اليه بحكم الحرمة مسرورا ، ويستقبله باحترام ، ويعتبره واحدا من ضيوف ابراهيم الخليل ـــ عليه السلام ـــ المكرمين ، ويفعل معـــه ما فعله ابراهيم عليه السلام ، اذ قدم ما كان لديه بلا تكلف ، كما قال الله عز وجل : « فجاء بعجل سمين(١) » ، ولا يسأله من أين جئت ؟ أو : الى أين تذهب ؟ أو : ما اسمك ؟ . ووفقا لحكم الأدب يرى أن مجيئه من عند الحق ، وذهابه الى الحق ، واسمه عبد الحق ، ثم ينظر : هل راحتـــه تكون فى الخلوة أو الصحبة ؟ فاذا اختار الخلوة يخلى له مكانا ، واذا اختار الصحبة يتكلف بحكم الأنس والانبساط للصحبة . وحين ينام فى الليل يجب أن يضع المقيم غطاء على أقدامه ، واذا لم يدعه وقال : لست معتادا ذلك ، فلا ينشبث به حتى لا يثقل عليه . وفى اليوم التالى يعرض عليه (الذهاب الى) الحمام ، ويقوده الى أنظف الحمامات ، ويحفظ ملابسه عن مآزر الحمام ، ولا يدع خادما أجنبيا يقوم بخدمته ، اذ يجب أن يخدمه واحد من جنسه فى الاعتقاد حتى يتطهر ذلك الشخص من جميع الآفات بتطهيره . ويجب أن يحك له ظهره وركبتيه وأكفاف قدميه ويديه ، ولا يشترط أكثر من هذا . واذا كان فى استطاعة المقيم أن يصنع له ثوبا جديدا فلا يقصر ، واذا لم يستطع فلا يتكلف ، ويغسل له خرقته ليلبسها عندما يخرج من الحمـــام .

وعندما يعود من الحمام ويأتى يوم آخر ، ويكون فى تلك المدينة شيخ أو جماعة من أئمة المسلمين يقول له : اذا استصوبت فاننا نذهب لزيارتهم ، فاذا قبل كان صوابا ، واذا قال انه لا يرغب ، فلا ينكر عليه ذلك ، لأنه يأتى على طلاب الحق وقت لا يملكون فيه حتى قلوبهم : ألم تر أنه عندما قالوا لابراهيم الخواص رحمه الله : حدثنا عن عجائب أسفارك ، قال : أعجبها أن الخضر النبى طلب صحبتى فلم أجبه ، ولم أشأ فى تلك الساعة أن يكون لأحد سوى الحق لدى قلبى خطر ومقدار يجب مراعاتهما .

ولا يليق البته أن يأخذ المقيم المسافر للسلام على ذوى الجاه ، أو الى ولائمهم ، أو الى مآتمهم ، أو عيادة مرضاهم . وكل مقيم يطمع فى أن يجعل من المسافر آلة لتكدية ويحمله من هذا المنزل الى ذلك ، فعدم خدمته له أولى

(١) سورة « الذاريات » آية ٢٦ .

من أن يذل جسده ويؤذى قلبه . وأنا على بن عثمان الجلابى لم يكن أشق وأصعب على فى أسفارى من الخدم الجهلة والمقيمين الأدناس الذين كانوا يصحبوننى من وقت لآخر ، ويأخذوننى من منزل هذا السيد الى منزل هذا الدهقان ، وكنت أذهب معهم كارها فى الباطن ، ومتسامحا فى الظاهر . وكل ما كان المقيمون يفعلونه معى كان مخالفا للطريقة ، وقد نذرت أننى اذا جاء وقت وأصبحت مقيما ألا أفعل هذا مع المسافرين . وليس فى صحبة غير المؤدبين فائدة أكثر من أن لا تفعل ما لا يروقك من معاملاتهم .

وأيضا اذا انبسط درويش مسافر وصحبه لعدة أيام ، وأظهر الرغبة فى حاجة دنيوية ، فلا حيلة للمقيم الا أن يقضى له حاجته . واذا كان هذا المسافر مدعيا وعديم الهمة ، فينبغى على المقيم ألا يقلل من همته ويتبعه فى مطالبه غير الجائزة ، لأن هذه طريقة المنقطعين ، فأذا لزمه الذهاب الى السوق للبيع والشراء ، أو الى باب سلطان للعونة ، فما شأنه بصـــحبة المنقطعين ؟ .

ويقال ان الجنيد رضى الله عنه كان قد جلس مع أصحابه بحكم الرياضة ، فدخل مسافر ، فتكلفوا من أجله وأحضروا له طعاما ، فقال : يلزمنى غير هذا ، الشىء الفلانى ، فقال له الجنيد : ينبغى لك أن تذهب الى السوق ، لأنك رجل أسواق لا رجل مساجد وصوامع .

ذات مرة خرجت من دمشـــق مع اثنين من الدراويش بقصـــد زيارة ابن العلاء(١) ، وكان فى روستاق الرملة(٢) ، فقلنا لأحدنا الآخر فى الطريق : ينبغى لكل منا أن يفكر مع نفسه فى واقعة ليخبرنا ذلك الشيخ عما نبطن ، وتنحل واقعتنا . وقلت لنفسى : يلزمنى منه أشعار ومناجـــاة الحسين بن منصور ، وقال الآخر : يلزمنى أن يدعو لى ليشفى طحالى ، وقال الثالث : تلزم لى حلوى صابونية . فلما وصلنا اليه ـــ وكان قد أمر فكتبوا كراسة

(١) ابن العلاء : الشيخ زكى بن علاء : من مشايخ الشام المعـــاصرين للهجويرى ، أشار اليه الهجويرى وذكر أنه كان شعلة من شعلات المحبة ، ذا آيات وبراهين ظاهرة (انظر ج ١ ص ٣٨٧) .

(٢) « الرملة » : مدينة عظيمة بفلسطين ، وكانت رباطا للمســـلمين ، وبينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . وهى كورة من فلســـطين . وكانت دار ملك داود وسليمان . ولمـــا ولى الوليد بن عبد الملك وولى أخاه سليمان جند فلسطين نزل « لد » ثم نزل « الرملة » ومصرها وكان أول ما بنى فيها قصره (معجم البلدان ج ٢ ص ٨١٧) .

أشعار ومناجاة الحسين بن منصور — فوضعوها أمامى ، ومسح بيده على طحال ذلك الدرويش فشفى طحاله ، وقال للآخر : ان الحلوى الصابونية غذاء العونة وأنت تلبس لباس أولياء الله ، ولا يستقيم لباس الأولياء مع مطالب العونة ، فأختر واحدا منهما .

وجملة القول انه لا يجب على المقيم الا رعاية من يكون مشغولا برعاية الحق وتاركا لحظ نفسه ، واذا أقام أحد فى حظوظ نفسه فيجب على الآخر أن يخالفه ، فاذا أخذ أيضا بترك حظه وأقام فى حفظه ، فجائز ، ليكون فى كلا الحالين قد سلك الطريق لا قطع الطريق .

ومعروف فى أخبار النبى عليه السلام أنه كان قد آخى بين سلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى ، وكانا كلاهما من كبار أهل الصفة ومن رؤساء وأرباب الباطن . وذات يوم دخل سلمان بيت أبى ذر للزيارة ، فشكت زوجة أبى ذر الى سلمان من أبى ذر قائلة : ان أخاك لا يأكل شيئا نهارا ، ولا ينام ليلا . فقال سلمان : أحضرى مأكولا ، وعندما أحضرته قال لأبى ذر : يا أخى ! ينبغى أن تأكل معى ، لأن هذا الصيام ليس فريضة عليك ، فوافقه أبو ذر ، فلما أقبل الليل قال له : يا أخى ! يجب أن ترافقنى فى النوم ، « وفى الأثر : ان لجسدك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لربك عليك حقا(١) » . ولما كان اليوم التالى جاء أبو ذر الى النبى عليه السلام فقال له : ياأبا ذر! انى أقول ما قاله سلمان بالأمس : « ان لجسدك عليك حقا » . ولما كان أبو ذر قد ترك حظوظه ، فقد أقام سلمان فى حظوظه ، وترك ورده . وكل ما تفعله على هذا الأصل يكون صحيحا ومحكما .

وفى وقت ما كنت أعيش فى ديار العراق ، فى طلب (أسباب) الدنيا وانالها ، وقد تجمع على دين كبير ، وكان على أن أتحمل فضول كل شخص ، وكان القوم قد أقبلوا على ، وعجزت فى مشقة حصول أهوائهم ، فكتب الى سيد من سادات الوقت رسالة يقول فيها : حذار يا بنى ! لا تشغل قلبك عن الله عز وجل باراحة من هو مشغول بهواه ، فاذا وجدت قلبا أعز من قلبك فانه يجوز أن تشغل قلبك باراحته ، والا فكف عن ذلك الفعل ، لأن الله عز وجل كاف عباده . فاسترحت فى الحال بهذا الكلام .

هذه هى أحكام المقيمين فى صحبة المسافرين ، على سبيل الاختصار وبالله التوفيق .

---

(١) « ان لجسدك عليك حقا .. الخ (راجع الطبرى ج ١٠ ص ٥١٧ وما بعدها ، سنن الدارمى ج ٢ ص ١٣٣ ، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٨) .

باب الصحبة فى السفر وآدابه :

حين يختار درويش السفر بلا اقامة ، فشرط أدبه أولا هو ان يسافر من أجل الله تعالى لا لمتابعة الهوى . وكما يسافر بالظاهر ، فأنه يسافر أيضا عن اهوائه بالباطن ، ويكون دائما على طهارة ، ولا يضيع أوراده . ويجب أن يكون مراده من هذا السفر : اما حج ، أو غزو ، أو زيارة موضع ، أو تحصيل فائدة ، أو طلب علم ، أو رؤية شيخ من المشايخ ، والا يكون مخطئا فى ذلك السفر .

ولا مناص له فى هذا السفر من مرقعة وسجادة وعصا وركوة وحبل وحذاء أو نعل ، ليستر عورته بالمرقعة ، ويصلى على السجادة ، ويتطهر بالركوة ، ويدفع الآفات عن نفسه بالعصا ويكون له فيها مآرب أخرى ، ويضع الحذاء فى قدميه فى حال الطهارة حتى يصل الى السجادة . واذا أخذ شخص أدوات أكثر من هذه لحفظ السنة مثل : المشط والابرة ومقلمة الأظافر والمكحلة فجائز . وأيضا اذا أخذ شخص أدوات أكثر من هذه ليتزين ويتجمل ، فلننظر لنرى فى أى مقام هو ، فاذا كان فى مقام الارادة ، فكل من هذه يكون قيدا وصنما وسدا وحجابا ، وذلك هو أساس اظهار رعونة نفسه . واذا كان فى مقام التمكين والاستقامة فمسلم له هذا وأكثر من هذا .

وقد سمعت من الشيخ أبى مسلم الفارسى ، رضى الله عنه ، قال : ذهبت يوما عند الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير رضى الله عنه بقصد الزيارة ، فوجدته نائما على أربع حشايا فوق تخت وقد وضع ساقا على الأخرى ، وارتدى عباءة مصرية ، وكنت أرتدى ثوبا قد تجلد من الوسخ ، وذاب جسدى من المشقة ، واصفرت وجنتاى من المجاهدة ، فدخل الانكار قلبى من رؤيته على هذه الحال ، وقلت لنفسى : هذا درويش ، وأنا درويش : أنا فى هذه المجاهدات الكثيرة ، وهو فى هذه الراحات الوفيرة ! فأشرف فى الحال على باطنى وتفكيرى ، ورأى نخوتى وقال : يا أبا مسلم ! فى أى ديوان وجدت أن المعجب بنفسه يكون درويشا ؟ أيها الدرويش ! لما رأينا الكل الحق ، قال (الحق) : لا نجلسك الا على التخت ، ولما رأيت أنت الكل نفسك ، قال : لا نجعلك الا فى التحت ، فصار نصيبنا المشاهدة ، ونصيبك المجاهدة ، وكلاهما مقامان من مقامات الطريق ، والحق تعالى منزه عن هذا ، والدرويش فان عن المقامات ، ومتحرر من الأحوال . قال الشيخ أبو مسلم : فضاع منى صوابى ، واظلم على العالم ، فلما أفقت ، تبت ، وقبل توبتى ، وعندئذ قلت له : ائذن لى أيها الشيخ لأذهب ، لأن حالى لا يستطيع تحمل رؤيتك ! قال : صدقت يا أبا مسلم(١) ، ثم تمثل بهذا البيت .

---

(١) أشار الهجويرى الى قصة اللقاء بين أبى مسلم الفارسى وأبى سعيد ابن أبى الخير فى ترجمة أبى سعيد ، وفى هذا الموضع يوجد بعض الاختلاف (انظر ج ١ ص ٣٨٠) .

انج كوشم نتوانست شـــنيدن بخبز
همـــه.جشمم بعيان يكسره ديد آن ببصر

ومعنـــاه :

— ان ما لم تستطع اذنى سماعه بالخبر ، قد رأته عيناى عيانا بالبصر .

فيجب على المسافر أن يحفظ السنة دائما ، وعندما ينزل عند مقيم يدخل عليه فى احترام ويسلم عليه ، فيخرج رجله اليسرى أولا من الحذاء ، لأن النبى عليه السلام كان يفعل هكذا ، وحين يلبس الحذاء يضع رجله اليمنى أولا فى الحذاء ، وحين يخلع الحذاء يغسل رجليه ، ويصلى ركعتين بحكم التحية ، ثم ينشغل برعاية حقوق الدراويش . وينبغى ألا يعترض على المقيمين بأى حال ، أو يزيد على شخص فى معاملة ، أو أن يتحدث عن أســـفاره ، أو أن يروى علما أو حكايات أو روايات بين الجماعة ، لأن هذا كله اظهار رعونة . ويجب أن يحتمل كل المشقة ويحمل أعباءهم من أجل الله لأن فى ذلك بركات كثيرة . واذا حكم عليه هؤلاء المقيمون أو خدمهم ودعوه للســـلام أو لزيارة فلا يخالفهم اذا استطاع ، ولكنه ينكر بقلبه مراعاة أهل الدنيا ، ويلتمس العذر لأفعال هؤلاء الاخوان ويؤولها . ويجب ألا يحملهم بأى حال مشقة مطالبه المستحيلة ، ولا يستدرجهم الى بلاط السلطان طلبا لراحة هـــواه .

وفى كل الأحوال يجب على المسافر والمقيم فى الصحبة طلب رضـــاء الله تعالى ، وأن يحسن كل منهم الاعتقاد فى الآخر ، ويجب ألا يسب أحدهما الآخر أمامه ، أو يغتابه من خلفه ، لأنه من الشؤم على طالب الحق أن يتحدث عن الخلق وخاصة بالسوء ، لأن المحققين يرون الفاعل فى الفعل ، ولمـــا كان الخلق بالصفة التى هم عليها ملك لله ومن خلقه ، سواء منهم المعيوب وغير المعيوب ، والمحجوب والمكاشف ، فان الخصومة على الفعل تكون خصومة على الفاعل ، وحين ينظر الى الخلق بعين الآدمية يتحرر من الجميع ، لأن جملة الخلق محجوبون ومهجورون ومقهورون وعاجزون ، ولا يستطيع أحـــد أن يفعل أو أن يكون على غير ما عليه خلقته ، ولا تصرف للخلق فى ملكه ، والقدرة على تبديل العين لا تكون الا للحـــق تعالى وتقدس ، والله أعلم بالصـــواب .

باب آدابهم فى الأكل :

أعم أنه لا مناص للآدمى من الأكل ، لأن اقامة التآلف بين الطبائع لا يكون الا بالطعام والشراب ، ولكن شرط المروءة ألا يبالغ فى ذلك ، ولا يشـــغل نفسه ليل نهار بالتفكير فى اللقمة . ويقول الشافعى رحمه الله : « من كان همته ما يدخل فى جوفه ، فان قيمته ما يخرج منه » ، ولا شىء أضر لمريد

الحق من الأكل الكثير ، وقد ذكرت طرفا من هذا المعنى فى هذا الكتاب فى باب الجوع ، ولكن هذا المقدار ملائم هنا .

وقد وجدت فى الحكايات أن أبا يزيد سئل : لمـــاذا تكثر من مدح الجوع ؟ قال : نعم ، لو كان فرعون جائعا لمـــا قال أبدا : « أنا ربكم الأعلى » ، ولو كان قارون جائعا لمـــا بغى . وطالما كان ثعلبه جائعا،كان محمودا بكل لسان ، فلما شبع أظهر النفاق .

وقال الله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعـــام والنار مثوى لهم(١) » .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : المعدة مملوءة بالخمر أحب الى من المعدة المتلئة بالطعام ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه عندما تكون المعدة مملوءة بالخمر : يستريح العقل ، وتخمد نار الشهوة ، ويأمن الخلق من يده ولسانه، ولكن عندما تكون مملوءة بالطعام الحلال : ترغب فى الفضول ، وتقـــوى الشهوة ، وترفع النفس رأسها لطلب نصيبها .

وقيل فى صفة المشايخ ان « أكلهم كأكل المرضى ، ونومهم كنوم الغرقى(٢) » .

فشرط آداب الأكل ألا يأكلوا بمفردهم ، ويؤثروا بعضهم البعض ، « لقوله عليه السلام : شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده(٣) » وحين يجلسون على السفرة لا يصمتون ، ويبدأون باسم الله تعـــالى ، ولا يتحدثون عن الوضع والرفع(٤) لأن ذلك مكروه للأصحاب ، ويغمسون اللقمة فى الملح أولا ، وينصفون رفقاءهم .

وسئل سهل بن عبـــد الله عن معنى الآية : « ان الله يأمر بالعـــدل والاحسان(٥) » فقال : العدل : أن تنصف رفيقك فى اللقمة ، والاحسان : ان تراه أولى منك بتلك اللقمة .

---

(١) سورة « محمد » آية ١٢ .
(٢) من قول السرى السقطى ، فقد قال فى وصف الصوفية : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام الخرقى (التعرف ص ٢٢) .
(٣) ذكره ابن المبرد فى قوله : يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ألا أخبركم بشراركم ، قالوا : بلى ، قال : من أكل وحده ومنـــع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم : من لا يقيل عثرة ولا يقبـــل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلـــكم : من يبغض النـــاس ويبغضونه « الكامل » (لابن المبرد ج ١ ص ٣٢) .
(٤) أى وضع أوانى الطعام ورفعهـــا .
(٥) سورة « النحل » آية ٩٠ .

وكان شيخى رضى الله عنه يقول : انى لأعجب من ذلك المدعى الذى يقول اننى تركت الدنيا ، وهو يفكر فى اللقمة .

ثم انه يجب أن يأكل باليد اليمنى ، ولا ينظر الا فى لقمتـــه ، ويتنـــاول على الطعام قليلا من المـــاء ، الا فى حالة الظمأ الصادق . وحين يشرب : يشرب قليلا بقدر ما تترطب الكبد ، ولا يجعل اللقمة كبيرة ، ويمضغ جيدا ولا يسرع لأنه يخشى من هذه الأشياء التخمة ومخالفة السنة . وعندما يفـــرغ من الطعام يحمد الله ، ويغسل يديه .

واذا ذهب من الجماعة اثنان أو ثلاثة أو أكثر الى دعوة فى خفية منهم وأكلوا شيئا ، فقد قال بعض المشايخ ان ذلك يكون حراما وخيانة فى الصحبة « أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار(١) » . وقالت جمـــاعة ان ذلك يجوز اذا كانوا جماعة ومتفقين مع بعضهم البعض . وقالت طائفة انه يجـــوز أيضا للشخص الواحد ، لأنه ليس من الانصاف أن لا يعطى فى حال الوحدة ما يجب أن يعطى فى حال الصحبة ، فحين يكون وحيدا ، فان حكم الصحبة يرتفع عنه ساعة ، ولا يؤخذ بذلك .

وأهم أصل فى هذا المذهب هو ألا يرد دعوة فقير ، وألا يذهب الى دعوة غنى ، ولا يجيب الى طعام الأغنياء ولا يطلب منهم شيئا ، اذ أن فى ذلك وهن للطريقة ، لأن الأغنياء ليسوا محرما للفقراء . وجملة القول لا يكون الرجل غنيا بكثرة المتاع ، ولا فقيرا بقلته ، لأن كل من يقر بتفضيل الفقـــر على الغنى لا يكون غنيا وان كان ملكا ، وكل من ينكر الفقر يكون صاحب دنيـــا وان يكن مضطرا . واذا حضر الى دعوة فلا يتكلف فى أكل شىء ، أو عـــدم أكل شىء ، ويسير على حكم الوقت .

وعندما يكون صاحب الدعوة محرما فانه يجوز أن يأخذ المتأهل زلة(٢) ، واذا لم يكن محرما فلا يجوز الذهاب الى منزله ، ولكن الأولى فى جميـــع الأوقات عدم أخذ الزلة ، لأن سهل بن عبد الله رضى الله عنه قال : « الزلة ذلة » ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٧٤ .

(٢) « الزلة هنا : هى ما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك أو محارمك أو خاصتك من طعام . وتأتى أيضا بمعنى ما يحمله فقراء الناس من الطعام عند انصرافهم من وليمة (برهان قاطع) .

باب آدابهم فى المشى :

« قوله تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما(١) » . ويجب على طالب الحق أن يسير دائما على مسلكه ، وأن يعرف كل خطوة يخطوها ، علام يضعها : أهى عليـــه ، أم له ؟ فاذا كانت عليه : يستغفر ، واذا كانت له : يجد حتى تزداد .

ويرد عن داود الطائى رضى الله عنه أنه كان قد شرب يوما دواء ، فقيل له : ادخل برهة صحن هـــذه الدار حتى تظهر فائدة الدواء ، فقال : انى لأخجل أن يسألنى الله عز وجل يوم القيامة : لم سرت بضع خطـــوات على نصيب هواك ، لقوله تعالى : « وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون(٢) » .

فيجب أن يسير الدرويش بمراقبة ويقظة ، مطأطىء الرأس ، ولا ينظر الى أى اتجاه سوى أمامه وطريقه . واذا قابله أحد فلا ينحى نفسه حفاظا على ملابسه أن تقع عليه ، لأن المؤمنين وثيابهم أطهار ، وهذه الخصلة ليست الا رعونة وتظاهرا . وأيضا اذا كان هذا الشخص كافرا أو ظهرت عليـــه قذارة فيجب أن يحفظ نفسه منه . وحين يسير مع جماعة فلا يقصد التقدم عليهم أو المزيد عليهم كبرا ، وأيضا لا يتأخر ، وأن يحترز من اظهار التواضع للناس فى معاملة ، لأنه اذا رأى التواضع يكون ذلك عين الكبر . ويحفظ حذاءه ونعله ما استطاع من النجاسة فى النهار ، ليحفظ الله تعـــالى ثيابه فى الليل ببركة ذلك . ويجب حين تكون جماعة أو درويش أو شخص ألا يقفوا فى الطريق مع أحد للتكلم معه ، ولا يأمروه بانتظـــارهم ، ويســـيروا على مهل ولا يسرعوا فيتشبهوا بالحريصين ، ولا يسيروا ببطء فيتشبهوا بالمتكبرين ، ويخطوا خطوا تاما .

وفى الجملة : يجب أن يسير الطالب على صفة تجعله يستطيع — اذا سأله سائل : أين تذهب — أن يقول : انى ذاهب الى ربى ، وان يكن غير ذلك فسيره وبال عليه ، لأن صحة الخطوات من صحة الخطرات ، فكل من يكون تفكيره مجتمعا للحق ، فان أقدامه تكون متابعة لتفكيره .

ويروى عن أبى يزيد رضى الله عنه أنه قال : السير بلا مراقبة علامة غفلة

---

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .
(٢) سورة « يس » آية ٦٥ .

الدرويش ، لأن كل ما له يحصل فى قدمين ، يضع احداهما على أنصبته ، والأخرى على أوامر الحق ، فتلك يرفعها ، وهذه يحتفظ بهـا فى مكانها .

وسير الطالب علامة على قطع المسافة ، وقرب الحق لا يكون بالمسافة ، ولمـا كان قربه ليس مسافة ، فأى وجه للطالب غير قطع قدميه فى محل السكون ! ؟ والله أعلم بالصواب .

باب نومهم فى السـفر والحضر :

اعلم أن المشايخ رضى الله عنهم يختلفون كثيرا فى هذا المعنى ، فعنـد طائفة انه ليس مسلما للمريد أن ينام الا فى حال غلبة النوم ، عندما لا يستطيع أن يدفع النوم عن نفسه ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « النوم أخو الموت(١) » ، فالحياة من الله تعالى نعمة ، والموت بلاء ومحنة ، والنعمة لا محالة أشرف من البلاء .

ويرد عن الشبلى رحمه الله أنه قال : « اطلع الحق على فقال : من نام غفل ، ومن غفل حجب » .

ويجوز عند طائفة أن ينام المريد باختياره ، وأن يتكلف فى النوم بعـد أن يكون قد أدى أمور الحق ، لقوله عليه السلام : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى ينتبه وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق(٢) » . ولمـا كان القلم قد رفع عن النائم حتى يستيقظ ، وأمن الخلق شره ، وقصر عنه اختياره ، وانعزلت نفسه عن مراده ، واستراح الكرام الكاتبين من الكتابة ، وانعقد لسانه عن الدعاوى وعجز عن الكذب والغيبة ، وانقطـع عن كل المعاصى فانه « لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حيـاة ولا نشورا » ، كما قال ابن عباس رضى الله عنه : « لا شىء أشد على ابليس من نوم العاصى ، فاذا نام العاصى يقول : متى ينتبه ويقوم حتى يعصى الله » .

---

(١) رواه البيهقى : « النوم أخو الموت ولا يموت أهل الجنة » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٨٧) .

(٢) رواه أحمد فى مسنده وأبو داود والحاكم عن على وعمر : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النـائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٩) .

وللجنيد مع على بن سهل الاصفهانى رحمهما الله خلاف ، وكتب على بن سهل فى هذا المعنى رسالة لطيفة جدا الى الجنيد ، وقد سمعت بها . ويقول على بن سهل : ان مقصودى فى هذه الرسالة هو أن النوم غفلة ، والقرار اعراض ، ويجب أن لا يكون للمحب نوم وقرار ليل نهـار ، لأنه اذا نام عجز فى هذه الحال عن المقصود ، والمفقود يغفل عن نفسـه وعن حاله ، ويتخلف عن الحق تعالى ، كما أوحى الله تعالى الى داود عليـه السـلام ، وقال : « كذب من ادعى محبتى فاذا جنه الليل نام عنى » . ويقول الجنيد رحمه الله فى جواب تلك الرسالة : ان يقظتنا هى معاملتنـا فى طريق الحق ، ونومنا فعل للحق علينا ، فما يكون من الحق الينا بغير اختيارنا ، أتم مما يكون منا باختيارنا الى الحق ، « والنوم موهبة من الله تعالى على المحبين » ، وهو منة من الحق تعالى على الأحبة . وهـذه المسألة تتعلق بالصحو والسكر ، وقد أوفيت الحديث فيها ، ولكن العجيب أن الجنيد رضى الله عنه كان صاحب صحو ، وهنا جعل القوة للسكر ، وذلك لأنه كان مغلوبا فى ذلك الوقت ، وكان الوقت هو الناطق على لسانه . ويجوز أيضا أن يكون (الأمر) ضد هذا ، لأن نومه عين الصحو ، ويقظته عين السكر ، لأن النوم صفة الآدمية ، وطالما كان الآدمى فى مظلة أوصـافه يكون منسوبا الى الصحو . وعدم النوم صفة الحق ، وعندما يبتعد الآدمى عن صفته يصير مغلوبا .

وقد رأيت طائفة من المشايخ كانوا يفضلون النوم على اليقظة موافقـة للجنيد ، لأن رؤى الأولياء والكبار وكثير من الرسل ، صلوات الله عليهم ورضى عنهم ، متصلة بالنوم ، لقوله عليه السلام : « ان الله يباهى بالعبد الذى نام فى سجوده ، ويقول : انظروا ملائكتى الى عبـدى : روحـه فى النجوى ، وبدنه على بساط العبادة » . « وقوله عليه السلام : من نام على طهارة يؤذن لروحه أن يطوف بالعرش ويسجد لله تعالى(١) » .

ووجدت فى الحكايات أن شاه بن شجاع الكرمانى ظل مستيقظا أربعين عاما ، وعندما نام ليلة رأى الله تعالى فى النوم ، فكان ينام كل ليلة بعـد ذلك على أمل أن يراه .

ويقول قيس العامرى رحمه الله فى هذا المعنى :

(شـعر عربى)

وانى لأسـتغشى وما بى نعسـة
لعـل خيـالا منـك يلقى خياليـا

---

(١) يروى بنحو هذا موقوفا من حديث عبد الله بن عمر وأبى الدرداء (نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص ٢٨١) .

ورأيت جماعة كانوا يفضلون اليقظة على النوم ، موافقة لعلى بن سهل، لأن وحى الرسل وكرامات الأولياء تتعلق باليقظة . ويقول واحد من المشايخ رحمهم الله : « لو كان فى النوم خير لكان فى الجنة نوم » . ولما لم يكن فى الجنة نوم ولا حجاب فقد عرفنا أن النوم حجاب . ويقول أرباب اللطائف انه حين نام آدم عليه السلام فى الجنة ظهرت حواء من جنبه الأيسر ، وكان بلاؤه كله من حواء .

ويقال أيضا انه حين قال ابراهيم لاسماعيل : « يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك(١) » قال اسماعيل : يا أبت ! « هذا جزاء من نام عن حبيبه ، لو لم تنم لما أمرت بذبح الولد » .

ويرد عن الشبلى رحمه الله أنه كان يضع كل ليلة أمامه سكرجة(٢) فيها ماء وملح ومرود ، وحين كان يريد أن ينام كان يكحل عينيه بالمرود .

وقد رأيت أنا على بن عثمان الجلابى شيخا كان ينام حينما كان يفرغ من اداء الفريضة ، ورأيت الشيخ أحمد السمرقندى فى بخارى ، ولم يكن قد نام فى الليل أربعين سنة ، وكان ينام قليلا فى النهار . وترجع هذه المسألة الى أنه حين يكون الموت أحب الى شخص من الحياة ، فانه لابد أن يفضل النوم على اليقظة ، وعندما يحب الحياة أكثر من الموت يلزم أن تكون اليقظة أحب اليه من النوم .

وليست القيمة لمن يتكلف اليقظة ، وانما هى لمن يوقظ بلا تكلف ، مثلما اختار الله عز وجل الرسول للدرجة العليا ، فانه لم يتكلف فى النوم ولا فى اليقظة حتى جاءه الأمر : « قم الليل الا قليلا(٣) » . وليست القيمة لمن يتكلف النوم ، وانما القيمة لمن ينوم ، مثلما اختار الله عز وجل أهل الكهف ، وأوصلهم الى المحل الأعلى ، ونزع لباس الكفر عن رقابهم ، فانهم لم يتكلفوا فى النوم ولا فى اليقظة حتى ألقى الله تعالى النوم عليهم ، وكان يرعاهم بلا اختيارهم ، « لقوله تعالى : وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال(٤) » ، وكلا هذين كانا فى حال عدم الاختيار . وحين يصل العبد الى الدرجة التى ينتهى فيها اختياره ، تنتطع يده عن الكل ، وتعرض همته عن الغير ، فاذا نام أو استيقظ فانه يكون عزيزا وعظيما على أى صفة يكون .

---

(١) سورة « الصافات » آية ١٠٢ .
(٢) « السكرجة » الصفحة فارسية معربة .
(٣) سورة « المزمل » آية ٢ .
(٤) سورة « الكهف » آية ١٨ .

فشرط النوم للمريد هو أن يعتبر أولا أن نومه كآخر عهده ، فيتوب عن المعاصى ، ويرضى خصومه ، ويتطهر طهارة زكية ، وينام على جنبه الأيمن ووجهه الى القبلة ، وقد أصلح أمور دنياه ، ويشكر (الله) على نعمة الاسلام . ويشترط أنه اذا استيقظ ألا يعود الى المعاصى ، فكل يقظان يكون قد سوى أموره لا يخشى النوم أو الموت .

ومشهور فى الحكايات أن ذلك الشيخ كان يجىء الى ذلك الامام — الذى كان قد عجز فى رعاية الجاه والرئاسة ورعونة النفس — ويقول له : يا أبا فلان ! لابد من الموت ، فكان يتألم من ذلك الكلام ، ويقول : هذا الرجل الشحاذ لا يفتأ يقول لى هذا الكلام كل وقت ، وذات يوم قال : غدا أبدا أنا . وفى اليوم التالى جاء الشيخ ، فقال له الامام : يا أبا فلان ! لابد من الموت . ففرش السجادة ، ووضع رأسه ، وقال : مت ! وخرجت روحه فى الحال . فكان للامام من ذلك زاجر ، وأدرك أنه كان يأمره أن : تهيأ لرحلة الموت كما فعلت أنا .

وكان شيخى رضى الله عنه يقول للمريدين : لا تناموا الا فى حال الغلبة ، واذا استيقظتم فلا تناموا ثانيا ، لأن النوم ثانيا حرام على مريد الحق ، وبطالة .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، والله أعلم بالصواب .

باب آدابهم فى الكلام والسكوت :

« قوله تعالى : ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله(١) » ، وقال أيضا : « قول معروف(٢) » ، وقال أيضا : « قولوا آمنا (٣) » .

اعلم أن الكلام من الحق الى العبد أمر ، مثل الاقرار بوحدانية الله ، والثناء عليه ، ودعوة الخلق الى حضرته . والنطق نعمة كبرى من الحق تعالى على العبد . والآدمى مميز عن الحيوانات الأخرى بذلك ، لقوله تعالى: « ولقد كرمنا بنى آدم(٤) » ، فمن أقوال المفسرين فى هذا : أنه النطق .

---

(١) سورة « فصلت » آية ٣٣ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٦٣ .
(٣) سورة « البقرة » آية ١٣٦ .
(٤) سورة « الاسراء » آية ٧٠ .

ومهما يكن القول نعمة ظاهرة من الحق على العبد ، فان آفتـــه أيضا كبيرة ، « لقوله عليه السلام : أخوف ما أخاف على أمتى اللسان(١) » .

وفى الجملة : القول كالخمر التى تسكر العقل ، واذا وقع الرجـــل فى شربها فانه لا يستطيع الخروج أبدا ، ولا يمكنه أن يمنع نفسه عنهـــا . ولمـــا صار معلوما لأهل الطريقة أن القول آفة ، لم يتكلموا الا لضرورة : أى أنهم نظروا فى ابتداء وانتهاء كلامهم ، فان كان كله للحق تكلمـــوا ، والا سكتوا ، لأنهم يعتقدون أن الله عالم الأسرار ، والخلائق مذمومون اذا عرفوا أن الله تعالت كبرياؤه غير هذا ، لقـــوله تعـــالى : « أم يحســـبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٢) » . « وقوله عليه السلام : من صمت نجا(٣) » ، ففى الصمت فوائد وفتوح كثيرة ، وفى الكلام آفات كبيرة .

وقد فضلت جماعة من المشايخ السكوت على الكلام ، وفضلت جماعة الكلام على السكوت ، ومن هؤلاء الجنيد رضى الله عنه اذ قال : العبـــارة كلها دعاوى ، وحيثما يكون اثبات المعانى تكون الدعاوى هدرا ، وثم وقت يعذر فيه المرء لسقوط القول فى حال الاختيار — أى فى حال التقيـــة ، فى حال الخوف مع وجود الاختيار والقدرة على القول ، ولا يضر انكار قـــوله حقيقة المعرفة — ولا يكون العبد معذورا فى أى وقت بلا معنى بمجرد الدعوى، ويجعلون حكم هذا حكم المنافقين ، فصارت الدعوى بلا معنى نفـــاقا ، والمعنى بلا دعوى اخلاصا ، « لأن من أسس بنيانه على بيان ، استغنى فيما بينه وبين ربه عن اللسان » . أى أنه اذا انفتح الطريق على العبـــد استغنى عن الكلام ، لأن العبارة لاعلام الغير ، والحق تعالى مستغن عن تفسير الأحوال ، ولا يميل غيره الى أن يشغل به . ويتأكد هذا الكلام بقول الجنيد حيث قال : « من عرف الله كل لسانه » . فمن عرف الحق بقلبه يعجز لسانه عن البيان ، لأن البيان يبدو حجابا فى العيان .

ويرد عن الشبلى رضى الله عنه أنه وقف فى مجلس الجنيد ، وقال بصوت عال : يا مرادى ! وأشار الى الحق ، فقال الجنيد : يا أبا بكر ! اذا كان

---

(١) لابن عدى عن عمر : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢١ .
(٢) سورة « الزخرف » آية ٨٠ .
(٣) لأحمد فى مسنده والترمذى عن ابن عمر (شرح الجـــامع الصـــغير ج ٢ ص ٣٠٤) .

مرادك الحق ، فلم هذه الاشارات ، وهو مستغن عنها ؟ واذا لم يكن مرادك الحق ، فلم قلت خلافا ، والحق عليم بقولك ؟ فاستغفر الشبلى من قوله .

والجماعة الذين يفضلون الكلام على السكوت قالوا ان بيان الأحوال أمر الينا من الحق ، لأن الدعوى تقوم بالمعنى ، واذا كان شخص عارفا السر بقلبه الف سنة ولا تمنعه ضرورة من أن يربط الاقرار بالمعرفة ، فان حكمه يكون كحكم الكفرة . وقد أمر الله تعالى المؤمنين جميعا بالشكر والحمد والثناء ، لقوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث(١) » ، ولا بد أن يكون الثناء والتحدث بالنعمة كلامه ، فكلامنا تعظيم للربوبية ، « لقوله تعالى : ادعونى استجب لكم(٢) » ، وقال أيضا جل جلاله : « أجيب دعوة الداع اذا دعان(٣) » ، وأمثال هذا .

ويقول واحد من المشايخ رضى الله عنهم : كل من ليس له بيـــان عن حاله لا حال له ، لأن ناطق وقتك هو وقتك .

(شعر عربى)

لسان الحـــال أفصح من لسانى وصمتى عن ســـؤالك ترجمانى

ووجدت فى الحكايات أن أبا بكر الشبلى رضى الله عنه كان يسير يومـــا فى كرخ بغداد(٤) ، فرأى أحد الأدعياء كان يقول: « السكوت خير من الكلام ، فقال (له) : سكوتك خير من كلامك ، لأن كلامك لغو ، وسكوتك هزل . وكلامى خير من سكوتى ، لأن سكوتى حلم ، وكلامى علم » .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : الكلام على نوعين ، والسكوت على نوعين ، فالكلام منه الحق ومنه الباطل ، والسكوت منه حصول المقصود ومنه الغفلة ، فيجب على كل انسان أن يمسك بخناق نفسه فى حال النطق والسكوت ، فاذا كان كلامه حقا ، فكلامه أفضل من سكوته ، واذا كان

---

(١) سورة « الضحى » آية ١١ .
(٢) سورة « غافر » آية ٦٠ .
(٣) سورة « البقرة » آية ١٨٦ .
(٤) « كرخ بغداد » : كانت الكرخ أولا فى وسط بغداد ، ثم صارت محلة وحدها مفرده وحولها المحال الا أنها غير مختلطة بها (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٤) .

باطلا ، فسكوته أفضل من كلامه . واذا كان الصمت لحصول المقصود أو المشاهدة فهو أفضل من الكلام ، واذا كان سببه الخجاب والغفلة ، فالكلام أفضل من الصمت . والعالمون حائرون فى هذين المعنين ، فجماعة من الأدعياء تناولوا قدرا من عبارات الهذر والهوس ، الخالية من المعانى ، ويقولون : الكلام أفضل من السكوت وجماعة من الجهلة الذين لا يعرفون المنارة من البئر ربطوا السكوت بجهلهم ويقولون : الصمت أفضل من الكلام ، وهذان كلاهما مثل بعضهما البعض ، فمن اذن يجعلونه يتحدث ، ومن يجعلونه يصمت ؟ لأن أصل هذه المعانى هو هذا . والله أعلم بالصـــواب .

مثل: « من نطق أصاب أو غلط ، ومن أنطـق عصم من الشطط » ، كابليس حين نطق فقال : « أنا خير منه(١) » ، فرأى ما رأى . ولما أنطق آدم قال : « ربنا ظلمنا أنفسنا(٢) » ، فاصطفوه . فدعاة هذه الطريقة مأذونون ومضطرون فى كلامهم ، وخجلون ومغلوبون فى صمتهم ، « فمن كان سكوته حياء كان كلامه حياة » ، لأن كلامهم يكون عن مشاهدة ، والكلام بلا مشاهدة عندهم هوان ، ويحبون الصمت أكثر من الكلام ما داموا مع أنفسهم ، وحين يغيبون ينقش الخلق أقوالهم على أرواحهم ، ولذلك قال أحد الشيوخ : « من كان سكوته له ذهبا ، كان كلامه لغيره مذهبا » . فينبغى للطالب الربانى الذى خوضه فى العبودية أن يكون صامتا حتى يتكلم لسانه الذى يكون نطقه بالربوبية وتصطاد عباراته قلوب المريدين .

والأدب فى القول هو ألا يتحدث بدون أمر ، واذا صمت لا يكون جاهلا وغافلا . وينبغى للمريد ألا يتدخل أو يتصرف فى كلام الشيوخ ، ولا يتكلم اليهم بعبارات غريبة ، ولا يقول الكذب والغيبة باللسان الذى نطق بالشهادة ، ولا يؤذى المسلمين ، ولا يدعو الدراويش بالاسم المجرد ، ولا يتحدث حتى يسأل ، ولا يبدأ بالكلام .

وشرط سكوت الدرويش هو ألا يسكت على باطل ، وشرط كلامه ألا يقول غير الحق ، ولهذا أفرع كثيرة ، ولطائف لا تحصى ، ولكنى اكتفيت بهذا المقدار خوف التطويل ، والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

---

(١) سورة « الأعراف » آية ١٢ .
(٢) سورة « الأعراف » آية ٢٣ .

باب آدابهم فى السؤال وتركه :

« قوله عز وجل : لا يسألون الناس الحافا(١) » ، وحين يسألهم أحـد لا يمنعونه ، « لقوله تعالى : وأما السائل فلا تنهر (٢) » . ولا يسألون غير الحق ما استطاعوا ، ولا يجعلون غيره محل السؤال ، لأن السؤال اعراض عن الحق الى غير الحق ، واذا أعرض العبد فانه يخشى أن يترك فى محل الاعراض .

وجدت أن واحدا من أهل الدنيا قال لرابعة(٣) رضى الله عنها : يا رابعة ! اطلبى منى شيئا لأحقق مرادك . فقالت : يا هذا ! اننى أخجل أن أطلب الدنيا من خالق الدنيا ، أفلا أخجل أن أطلبها من مثلى ؟ .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .
(٢) سورة « الضحى » آية ١٠ .
(٣) « رابعة العدوية » أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك . من زهاد القرن الثانى الهجرى . كانت كثيرة الحـزن والبكاء ، اذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا . وكانت رابعة أسبق زهاد عصرها حديثا عن المحبة الالهية ، فهى أول من تغنى بالحب الالهى نظما ونثرا ، ولذا يقال ان بذور التصوف الحقيقى زرعت فى زمن رابعة وآتت أكلها فى القرون التالية .

وقد أحبت رابعة ربها لا خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته وانما ابتغاء لوجهه وشوقا اليه . قيل لها : ما حقيقة ايمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا اليه .

وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبـــك حبين حب الهـــوى ... وحبـــا لأنك أهـــل لذاكا
فأما الذى هـــو حب الهـــوى ... فشـــغلى بذكرك عمن ســـواكا
وأمـــا الذى أنت أهـــل له ... فكشـــفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى ... ولـــكن لك الحمـــد فى ذا وذاكا

وذكر **الشقيري** أنها قالت فى مناجاتها يوما : الهى ! أتحرق بالنار قلبا أحبك ؟ فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ، فلا تظنى بنا ظن السوء .

وكانت وفاة رابعة فى سنة خمس وثمانين ومائة ، وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور .

(انظر ما ورد عنها في : الرسالة القشيرية، احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٦، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٥٩ ، نفحات الأنس ص ٦١٥) .

ويقال انه فى عهد أبى مسلم المروزى(١) قبضوا على درويش برىء بتهمة السرقة ، وحبسوه فى سجن مرو ، فلما جن الليل رأى أبو مسلم النبى عليه السلام فى النوم ، وقال له : يا أبا مسلم ! ان الله بعثنى اليك لأقول لك أن حبيبا من أحبائى فى سجنك بلا جرم ، فانهض وأخرجه . فهب أبو مسلم من نومه ، وجرى الى السجن حاسر الرأس حافى القدمين ، وأمر ففتحوا الباب ، وأخرج ذلك الدرويش واعتذر له ، وقال : سل حاجة . فقال الدرويش : أيها الأمير ! الشخص الذى له رب ينهض ويرسل أبا مسلم فى منتصف الليل من الفراش الدافىء حاسرا حافيا ليخرجه من البلايا ، أيجوز أن يسأل غيره ويطلب منه حاجة ؟ فبكى أبو مسلم ، وانصرف الدرويش .

وتقول طائفة أيضا انه يجوز للدرويش أن يسأل الخلق ، « لقوله تعالى : لا يسألون الناس الحافا » ، فهو يرد عن السؤال بالالحاف . « وقوله عليه السلام : اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » .

والمشايخ رضى الله عنهم أجازوا السؤال لعلل ثلاث :

الأولى : لفراغ البال ، وقالوا اننا لا نجعل لرغيفين قيمة أن نقضى النهار والليل ، فى انتظارهما ، لأنه لا انشغال أبدا مثل الانشغال بالطعام . ومن ذلك أنه حين سأل بايزد مريد الشقيق عن حال شقيق رضى الله عنه ، فى الحال الذى كان قد زاره فيه ، قال المريد : لقد فرغ من الخلق ، وجلس على حكم التوكل . فقال أبو يزيد : عندما ترجع اليه قل له : اياك ان تمتحن

---

(١) « أبو مسلم الخراسانى » : صاحب الدعوة العباسية . أصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع . قاد حركة المقاومة ضد الأمويين ، وعندما ثار أهل مرر فى سنة ١٢٩ هـ ، على الحاكم الاموى نصر بن سيار استغل أبو مسلم هذه الفرصة واستولى على مرو وصفت له خراسان ، دخل الكوفة وبها بنو العباس فبايع أبا العباس السفاح بالخلافة ، ونظرا لجهوده فى قيام الدولة العباسية عهد اليه السفاح بحكومة خراسان ، غير أنه لم يلبث أن تغير عليه بسبب ميله للعلويين . وبعد وفاة السفاح سنة ١٣٦ هـ ، تولى أبو جعفر المنصور وبدأ حكمه بقتل أبى مسلم سنة ١٣٧ هـ . ولما بلغ خبر قتل أبى مسلم خراسان ، اضطربت الجرمية ، وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلون بأبى مسلم وامامته وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته ، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فينا عدلا ، وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة (مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ، تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٠٠ — ١٠٣) .

الله برغيفين ، فاذا جعت فاطلب رغيفين من مجانسك ، ودع برنامج التوكل جانبا حتى لا تهدم المدينة والولاية بشؤم معاملتك .

والثانية : أنهم سألوا لرياضة النفس ، ليحتملوا ذل السؤال ، ويشقوا على أنفسهم(١) ، ويعرفوا قيمة أنفسهم : ماذا يساوون بالنسبة لأى شخص ولا يتكبروا : ألم تر أنه حين جاء الشبلى الى الجنيد رضى الله عنه ، قال له : يا أبا بكر ! ان فى رأسك نخوة تجعلك تقول : أنا ابن حاجب حجاب الخليفة ، وأمير سامرا ، ولن يتأتى منك أمر ما لم تذهب الى السوق وتسأل كل من ترى حتى تعرف قيمة نفسك ، ففعل كذلك . وكانت سوقه تزداد كسادا كل يوم حتى وصل فى نهاية العام الى درجة أن طاف بالسوق كله فلم يعطه أى أحد شيئا ، فرجع وأخبر الجنيد بذلك ، فقال له : يا أبا بكر ! اعرف الآن قيمة نفسك أنك لا تساوى لدى الخلق شيئا ، فلا تعلق قلبك بهم ، ولا تعتبرهم شيئا . وكان هذا للرياضة لا للكسب(٢) .

ويروى عن ذى النون المصرى رحمه الله انه قال : كان لى رفيق موافق دعاه الله عز وجل اليه ، وانتقل من محنة الدنيا الى نعمة العقبى ، ورأيته فى النوم فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى . قلت : بأى خصلة ؟ قال : أوقفنى وقال : يا عبدى لقد تحملت كثيرا من الذل والمشقة من السفلة والبخلاء ومددت اليهم يدك ، وصبرت فى ذلك ، وقد غفرت لك بذلك .

والثالثة : أنهم سألوا الخلق لحرمة الحق ، فقد أدركوا أن جميع املاك الدنيا وأموالها له ، وأن الناس جميعا وكلاؤه فى الشىء الذى هو نصيبهم ، فرجعوا الى وكيله وسألوه ، وتحدثوا اليه ، ولأن يعرض العبد حاجاته على الوكيل يكون ذلك أقرب الى الاحترام والعزة من أن يعرضها على الله ، فسؤالهم للغير علامة الحضور والاقبال على الحق ، لا الغيبة والاعراض عن الحق .

---

(١) ذكر السراج أن بعض الصوفية ببغداد كان لا يأكل شيئا الا بذل السؤال ، فسئل عن ذلك فقال : اخترت ذلك لشدة كراهية نفسى ذلك . (اللمع ص ٢٣٥) وورد فى أسرار التوحيد عن أبى سعيد بن أبى الخير أنه مارس رياضة السؤال لتأديب نفسه ، ووصف تجربته فى هذه الرياضة وكيف أن الناس كانوا فى البداية يعطونه دينارا ثم تناقص العطاء حتى اقتصر على حبة من الزبيب (اسرار التوحيد الترجمة ص ٤٩) .

(٢) وردت اشارة الى هذا فى تاريخ بغداد (انظر جـ ١٤ ص ٣٨٩) .

وقد وجدت أنه كان ليحيى بن معاذ الرازى بنت قالت يوما لأمها : يلزمنى الشىء الفلانى ، فقالت لها أمها : اطلبيه من الله ، فقالت : يا أمى ! أننى أخجل أن أطلب حاجاتى النفسية من حضرته ، وما تعطينه لى هو ملك له أيضا ، وهو رزقى المقدر .

فآداب السؤال هى أنه اذا تحقق مقصد لا تكون أكثر سرورا مما لو لم يتحقق ، ولا ترى الخلق فى الوسط ، ولا تسأل النساء وأصحاب الأسواق ، ولا تتحدثبسرك الا لمن يكون ماله موقوفا علىحلال ، ولا تسأل ما استطعت عن نصيبك ، ولا تجعل منه أسباب تجمل وسيادة ، ولا تصيره ملكك ، وتكون على حكم الوقت . ولا تخطر على قلبك حديث الغد حتى لا تؤخذ بالهلاك الأبدى ، ولا تربط الله عز وجل على شرك استجدائك ، ولا تجعل من نفسك عابدا ليعطوك شيئا عن طريق ذلك .

وجدت شيخا من محتشمى المتصوفين جاء من البادية ، وقد أصابته الفاقة ، واحتمل آلام الانقطاع ، فدخل سوق الكوفة وقد وضع على يده عصفورا ، وكان يقول : اعطونى شيئا من أجل هذا العصفور ، فقالوا له : أى هذا ! ما هذا الذى تقول ؟ قال : محال أن أقول اعطونى شيئا من أجل الله ، لأنه لا يمكن أن يتشفع فى الدنيا بغير حقير .

وهذا قليل من كثير مما يشترط فى هذا الباب . والسلام .

باب آدابهم فى التزويج والتجريد :

قوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن(١) » .
وقوله عليه السلام : « تناكحوا تكثروا فانى أباهى بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط(٢) » .

وقوله عليه السلام : « ان أعظم النساء بركة أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا(٣) » . وهذا من صحاح الأخبار .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٨٧ .
(٢) لعبد الرازق فى الجامع عن سعيد بن أبى هلال (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٨) .
(٣) للديلمى فى مسند الفردوس : « أخف النساء صداقا أعظمهن بركة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٨٢) .

وفى الجملة فان النكاح مباح للرجال والنساء ، وفريضة على من لا يستطيع التعفف عن الحرام ، وسنة لمن يستطيع أن يتحمل أداء حق العيال .

وقالت طائفة من مشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم ان الزواج واجب لدفع الشهوة ، وكسب لفراغ القلب . وقالت جماعة انه لازم لاثبات النسل وليوجد الولد ، واذا وجد ولد فانه اذا مات قبل الأب يكون شفيعا له يوم القيامة ، واذا مات الأب أولا فانه يبقى وراءه من يدعو له .

وفى الخبر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب أم كلثوم ابنة فاطمة بنت محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم من أبيها على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، فقال على : انها صغيرة جدا وأنت رجل شيخ ، وأنوى أن أزوجها لابن أخى عبد الله بن جعفر(١) ، رضى الله عنه ، فبعث اليه عمر رسالة يقول : يا أبا الحسن ! فى الدنيا نساء كثيرات كبيرات ، ومرادى من أم كلثوم اثبات النسل لا دفع الشهوة ، لقوله عليه السلام : « كل سبب ونسب ينقطع الا سببى ونسبى » ، والآن لى سبب ويلزم أن يكون لى نسب أيضا مع ذلك الحبيب ، وأكون قد أحكمت الطرفين بمتابعته . فأعطاها له على رضى الله عنه .

وورد عن زيد بن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح النساء على أربعة : على المال والحسب والحسن والدين ، فعليكم بذات الدين فانه ما استفاد أمرؤ بعد الاسلام خيرا من زوجة مؤمنة ليسر بها اذا نظر اليها(٢) » . وأفضل الزوائد والفوائد بعد الاسلام امرأة مؤمنة موافقة ليأنس بها الرجل المؤمن ويكون له بصحبتها فى الدين قوة ، وفى الدنيا مؤانسة ، لأن الوحشة كلها فى الوحدة ، والراحة كلها فى الصحبة . وقال الرسول عليه السلام : « الشيطان مع الواحد(٣) » .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . كان يكنى أبا جعفر ، وولد فى الحبشة . ويقال انه كان ابن عشر سنين حين قبض النبى صلى الله عليه وسلم فكان ولد عام الهجرة . قيل توفى بالمدينة ، وقيل توفى ودفن بالأبواء سنة تسعين وصلى عليه سليمان بن عبد الملك (المعارف ص ٨٩) .
(٢) رواه الدراقطنى وأحمد والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يدك » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٩) .
(٣) مكرر .

وفى الحقيقة : الرجل الوحيد أو المرأة الوحيدة يكون قرينهما الشيطان ، لأنه يزين الشهوات فى قلبيهما . ولا توجد أية صحبة فى حكم الحرمة والأمان مثل الزواج اذا كانت هناك مجانسة ومؤانسة وموافقة ، ولا توجد عقوبة أو مشغولية بقدر ما تكون المرأة غير مجانسة .

فيلزم للدرويش أن يتأمل أولا فى عمله ، وأن يستعرض أمام قلبه آفات التجريد والتزويج ليرى أية آفة أسهل عليه فيتابع ذلك .

وفى الجملة : فى التجريد آفتان ، الاولى : ترك سنة من السنن ،والثانية: تربيب الشهوة فى القلب والجسد ، وخطر الوقوع فى الحرام . وللتزويج أيضا آفتان : الأولى : انشغال القلب بشخص آخر ، والثانية : انشغال الجسد بحظ النفس . ويرجع أصل هذه المسألة الى العزلة والصحبة ، فمن يختار الصحبة مع الخلق يكون الزواج شرطا له ، ومن يطلب العزلة عن الخلق يكون التجريد زينة له ، لقوله عليه السلام : « سبق المفردون(١) ». ويقول الحسن بن أبى الحسين البصرى رحمه الله : « نجا المخففون ، وهلك المثقلون » .

ويرد عن ابراهيم الخواص رحمه الله أنه قال : وصلت الى قرية بقصد زيارة عظيم كان هنالك ، ولما ذهبت الى داره رأيت بيتا نظيفا مثل معبد الأولياء ، وقد جعل فى زاويتين من البيت محرابين ، وجلس فى أحدهما شيخ ، وفى الآخر عجوز نظيفة وضيئة ، وقد ضعف كلاهما من كثرة العبادة . فأظهرا السرور بقدومى ، وبقيت هنالك ثلاثة أيام ، ولما أردت العودة سألت الشيخ : من تكون لك تلك العفيفة ؟ قال : هى من ناحية ابنة عمى ، ومن ناحية أخرى زوجى ، فقلت:لقد رأيتكما خلال هذه الأيام الثلاثة كالغريبين تماما فى الصحبة . قال : نعم ، منذ خمسة وستين عاما ونحن كذلك . فسألته عن سبب ذلك ، فقال : اعلم أننا كنا عاشقين لأحدنا الآخر فى الصغر، ولم يكن أبوها يعطيها لى لأن محبتنا صارت معروفة ، فتحملت ذلك حتى توفى أبوها ، وكان والدى عمها ، فزوجها لى ، فلما كانت الليلة الأولى من تلاقينا قالت لى : أنت تعلم أية نعمة أنعمها الله علينا اذ أوصل كلا منا الى الآخر ، وأفرغ قلبينا من القيود والآفات السيئة ، فقلت : نعم ، قالت :

---

(١) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة ، والطبرانى عن أبى الدرداء : « سبق المفردون المستهترون فى ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٥١) .

فلنمنع أنفسنا الليلة عن هوى النفس ، وندس على مرادنا ، ونعبد الله شكرا على هذه النعمة ، فقلت : هذا صواب ، وقالت هذا نفسه فى الليلة التالية . وقلت أنا فى الليلة الثالثة : لقد أدينا الشكر ليلتين من أجلك ، فلنقض ليلتين أيضا فى العبادة من أجلى . وقد تمت الآن خمسة وستون عاما لم يمس أحدنا الآخر ، ونحن نقضى كل العمر فى شكر النعمة .

وحين يختار درويش الصحبة فيجب أن يطعم زوجه من وجه حلال ، ويقضى مهرها من مال حلال . وطالما بقى عليه شىء من حقوق الله تعالى وأوامره لا ينشغل بها لحظ النفس . وحين يؤدى الأوراد يقصد فراشها ، ويكظم حرصه ورغباته ويناجى الله تعالى قائلا : يا الهى ! أنت الذى خلقت الشهوة فى طينة آدم لعمار العالم ، وقد أردت فى علمك القديم أن تكون لى هذه الصحبة ، فاجعل يارب صحبتى هذه لشيئين : الأول لدفع الحرام بالحلال ، والثانى لتهبنى ولدا وليا ورضيا ، لا ولدا يشغل قلبى عنك .

ويرد عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه رزق ولدا ، وكلما كان يطلب فى الصغر طعاما من والدته كانت تقول له : اطلبه من الله ؛ فكان يذهب الى المحراب ويسجد ، فتحضر له أمه ما يرغب فيه فى الخفاء ، دون أن يعرف أن أمه هى التى أعطته له ، حتى تعود على حضرة الله . وذات يوم جاء من المدرسة ولم تكن أمه موجودة فسجد على السجادة ، فأظهر الله تعالى ما لزمه ، ودخلت أمه فراته ، فقالت : يا بنى ! من أين هذا ؟ قال : من حيث يأتى كل مرة .

وحينما كان زكريا صلوات الله عليه يدخل على مريم كان يرى عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، فكان يسألها متعجبا : « أنى لك هذا ؟ فتقول : « هو من عند الله(١) » .

فيجب ألا يلقى استعمال سنة بالدرويش فى طلب الحرام ، وشغل قلبه ، لأن هلاك الفقير يكون فى قلبه ، كما أن هلاك الغنى فى خراب بيته وحديقته ومتاعه ، لأن كل ما يتخرب للغنى له عوض ، وما يتخرب للفقير لا عوض له .

وفى زماننا هذا لا يمكن أن تكون لأحد امرأة موافقة ليست لها رغبات

---

(١) سورة « آل عمران » آية ٣٧ .

زائدة وفضول وطلب محال ، ولهذا السبب اختارت جماعة التجريد والتخفيف ، والتزموا رعاية هذا الأمر ، لقوله عليه السلام : « خير الناس فى آخر الزمان خفيف الحال . قيل يا رسول الله ما خفيف الحال ؟ قال الذى لا أهل له ولا ولد له(١) » . وقال أيضا : « سيروا ، سبق المفردون(٢) » .

ومشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم مجتمعون على أن خير المجردين وأفضلهم من تكون قلوبهم خالية من الآفات ، وطباعهم معرضة عن الرغبات.

والعوام استنادا الى خبر مروى عن النبى عليه السلام حيث قال : « حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة(٣) » يقولون : مادامت النساء محببات اليه ، فيجب أن يكون التزويج أفضل .

ونقول : « قال عليه السلام : لى حرفتان : الفقر ، والاجتهاد » ، فلم تكفون أيديكم عن حرفة اذا كانت هذه الحرفة محببة اليه ؟ فبحكم أن ميل هواكم الى تلك أكثر ، جعلتم ما تهوون محببا اليه . ومن المحال أن يظن شخص يتابع هواه خمسين عاما أنه يتبع السنة .

وفى الجملة : ان أول فتنة قدرت على آدم فى الجنة كان أصلها امرأة . وأول فتنة ظهرت فى الدنيا — أى فتنة هابيل وقابيل — كانت أيضا بسبب امرأة . وحين أراد الله تبارك وتعالى أن يعذب اثنين من الملائكة جعل سبب ذلك امرأة . وهن جميعا الى يومنا هذا سبب جميع الفتن الدينية والدنيوية ، لقوله عليه السلام : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء(٤) » ، فاذا كانت فتنهن بهذا القدر فى الظاهر ، فكيف تكون فى الباطن ؟ .

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده : « خيركم فى المائتين كل خفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٢٦) .
(٢) مكرر .
(٣) رواه أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن أنس : « حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٠) .
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أسامة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٤٤) .

وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هنالك رؤية ، وقد استغرقت فى ذلك عاما ، بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته ، و الحمد لله على جزيل نعمائه .

وفى الجملة فان قاعدة هذا الطريق وضعت على التجريد ، وعندما جاء التزويج اختلف أمرهم . ولا يوجد أى عسكر من عساكر الشهوة الا ويمكن اخماد ناره بالاجتهاده ، لأن الآفة التى تنشأ منك تكون آلة دفعها معك أيضا ، ولا يلزم الغير حتى تزول عنك تلك الصفة .

وزوال الشهوة يكون بشيئين : واحد يدخل تحت دائرة التكلف ، وواحد يخرج عن دائرة الكسب والمجاهدة ، فما يدخل فى تكلف الآدمى ومقدوره هو الجوع ، وأما ما يخرج عن التكلف فهو : اما خوف مقلق ، أو حب صادق ، حتى تجتمع تفاريق الهمم ، وتنشر المحبة سلطانها فى أجزاء الجسد، وتعزل كل الحواس عن أوصافهم ، وتجذب كل العبد ، وتفنى عنه الهزل .

وكان أحمد بن حماد السرخسى ، الذى كان رفيقى فى ما وراء النهر ، رجلا محتشما ، قيل له : ألك حاجة الى التزويج ، قال : لا ، قالوا : لم ؟ قال : اننى فى حالى اما أن أكون غائبا عن نفسى ، واما أن أكون حاضرا بنفسى . وحين أكون غائبا لا أفكر فى الكونين ، وحين أكون حاضرا فاننى أجعل نفسى بحيث اذا وجدت رغيفا تعتبر أنها وجدت ألفا من الحور . فانشغال القلب بكل ما تريده يكون عظيما ، فتنبه ! .

وقالت جماعة : اننا نقطع اختيارنا عن كلا الحالين ، لنرى ماذا يتأتى من حكم التقدير وحجاب الغيب ، فاذا كان نصيبنا التجريد ، فاننا نجتهد فيه بعفة ، وان يكن التزويج فاننا نتابع السنة ، ونجتهد فى فراغ قلوبنا ، لأنه حين تكون عناية الحق مع العبد يكون تجريده مثل تجريد يوسف عليه السلام الذى حول وجهه فى حال القدرة عن مراده ، وانشغل بقهر الهوى ورؤية عيوب نفسه ، عندما خلت به زليخا . ويكون زواجه مثل زواج ابراهيم عليه السلام ، فباعتماده على الحق لم يجعل شغل الأهل

شغلا ، فلما أظهرت سارة الحسد وتعلقت بالغيرة ، أخذ ابراهيم هاجر(١) وابنها ، وحملهما الى واد غير ذى زرع واستودعهما الله ، ورجع عنهما ، فحفظهما الله تعالى ورعاهما كما أراد ، فهلاك العبد ليس فى تزويجه ولا تجريده ، فكلا الحالين هواه ، لأن بلاءه فى ثبات اختياره .

وشرط أدب المتأهل ألا تفوته أوراده ، ولا يضيع أحواله ، ولا تضطرب أوقاته . وأن يكون شفوقا على زوجه ، وينفق عليها من مال حلال ، ولا يرعى الظلمة والسلاطين من أجلها ، حتى اذا ما انجب ولدا يكون على شريطة ذلك .

ومعروف فى الحكايات أن أحمد بن حرب النيسابورى رضى الله عنه كان قد جلس يوما مع جمع من رؤساء وسادات نيسابور الذين جاءوا للسلام عليه ، فدخل ولده السكير ثملا وغازفا على العود ، ومر عليهم ولم يهتم بأحد ، فتغيروا جميعا ، ورأى أحمد منهم هذا التغير فقال : ماذا أصابكم حتى تغيرتم هكذا ؟ قالوا : تغيرنا بمرور هذ الولد عليك على هذه الحال ، وخجلنا ، وهو لم يبال بك . فقال أحمد : انه معذور ، لأنهم ذات ليلة جاءوا بمأكول من منزل جار فأكلت منه أنا وزوجى ، وكانت لنا فى تلك الليلة صحبة كان منها هذا الولد ، وغشينا النوم وضاع وردنا ، فلما جاء الصباح تتبعنا أمرنا ، ورجعنا الى ذلك الجار لنعرف من أين أحضر ما بعثه لنا ، فقال : لقد أحضروه الى من عرس ، فلما نظرنا تبينا أنه كان من بيت السلطان .

وشرط آداب المجرد هو أن تغض الطرف عما لا يليق ، ولا تنظر الى ما لا يليق للرؤية ، ولا تفكر فيما لا يليق التفكير فيه ، وتطفىء نار الشهوة بالجوع ، وتحفظ القلب عن الانشغال بالأحداث ، ولا تسم هوى النفس علما ، ولا تؤول أعاجيب الشيطان ، حتى تكون مقبولا فى الطريقة .

هذه هى آداب الصحبة والمعاملة فى اختصار كما أن القليل يكون دليلا على الكثير .

---

(١) « هاجر » : هى جارية سارة زوجة ابراهيم عم وهبتها له فولدت له اسماعيل عم ، فغارت سارة وقالت : أخرجها عنى وولدها ، فأخرجها ومعها اسماعيل حتى صار بهما الى مكة فأنزلهما عند البيت الحرام ، وفارقهما ، فقالت له هاجر : على من تدعنا ؟ قال : على رب هذه البنية ، وقال : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذىزرع عند بيتك المحرم » الآية (انظر تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٦) .

كشف الحجاب العاشر
فى بيان منطقهم وحدود ألفاظهم وحقائق معانيهم

أعلم أسعدك الله أن لأهل كل صنعة وأرباب كل معاملة مع بعضهم البعض عبارات وكلمات فى جريان أسرارهم ، وكلمات لا يعرف معناها سواهم . والمراد من وضع العبارات شيئان : أحدهما لحسن تفهيم وتسهيل الغوامض ، لتكون أقرب الى فهم المريد ، والثانى لكتمان السر عمن لا يكون أهلا لهذا العلم من الناس . والأدلة على ذلك واضحة ، فكما أن أهل اللغة مخصوصون بعبارات موضوعهم مثل : الفعل الماضى والمستقبل والصحيح والمعتل والأجوف واللفيف والناقص وأمثال هذا ، وأهل النحو أيضا مخصوصون بعبارات فى موضوعهم مثل : الرفع والنصب والفتح والخفض والجزم والجر والكسر والمنصرف وغير المنصرف وما شابه هذا ، وأهل العروض مخصوصون بعبارات فى موضوعهم مثل : البحور والدوائر والوتد والفاصلة والفرد والزوج وما شابه هذا ، والمحاسبين مخصوصون بعباراتهم مثل : الضرب والجذر والاضافة والتضعيف والتنصيف والجمع والتفريق وما شابه هذا ، والفقهاء مخصوصون بعباراتهم مثل : العلة والمعلول والقياس والاجتهاد والدفع والالتزام وما شابه هذا ، والمحدثين كذلك لهم عباراتهم مثل : المسند والمرسل والآحاد والمتواتر والجرح والتعديل وما شابه هذا ، والمتكلمين لهم أيضا عباراتهم المخصوصة مثل : العرض والجوهر والكل والجزء والجسم والجنس والتحيز والتولى وما شابه هذا ، فلهذه الطائفة أيضا ألفاظ موضوعة لكمون وظهور كلامهم ليتصرفوا بها فى طريقتهم ويظهروها لمن يريدون ، ويخفوها عمن يريدون ، فلأبين بعض هذه الكلمات بشرح أكثر ، وأفرق بين هذه الكلمات ، وأبين ما مرادهم من كل منها ، لتتم الفائدة لك ولقراء هذا الكتاب ان شاء الله .

* فمن ذلك :

الحال والوقت والفرق بينهما :

« الوقت » : معروف بين هذه الطائفة ، وللمشايخ فيه أقوال كثيرة ، ومرادى هو اثبات التحقيق لا تطويل البيان .

فالوقت : هو ما يكون العبد فيه فارغا من الماضى والمستقبل عندما يتصل

وارد من الحق بقلبه ، ويجعل سره مجتمعا فيه ، بحيث لا يذكر فى كشفه الماضى ولا المستقبل ، فليس لكل الخلق قدرة فى هذا ، ولا يعرفون علام مرت السابقة ، وعلام ستكون العاقبة . وأرباب الوقت يقولون : علمنا لا يستطيع ادراك العاقبة ولا السابقة ، ولنا فى الوقت سرور مع الحق ، فاذا ما انشغلنا بالغد أو خطر على قلبنا التفكير فى الأمس نحجب عن الوقت ، والحجاب تشتت ، فكل ما لا تصل اليه اليد يكون التفكير فيه محالا ، كما يقول أبو سعيد الخراز رحمه الله : لا تشغل وقتك العزيز الا بأعز الأشياء . وأعز أشياء العبد شغله بين الماضى والمستقبل ، « لقوله عليه السلام : لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل » ، ولهذا السبب فانه حين عرض عليه فى ليلة المعراج زينة ملك الأرض والسماء لم ينظر الى أى شىء ، « لقوله تعالى : ما زاغ البصر وما طغى » ، لأنه كان عزيزا ، ولا يشغل العزيز الا بالعزيز . وأوقات الموحد وقتان : أحدهما فى حال الفقد ، والثانى فى حال الوجد : واحد فى محل الوصال ، والأخر فى محل الفراق ، وفى كلا الوقتين يكون مقهورا ، لأنه فى الوصل يكون وصله بالحق ، وفى الفصل يكون فصله بالحق ، واختياره واكتسابه لا يثبت فى هذه الاثناء حتى يمكن أن يوصف . وحين تنقطع يد اختيار العبد عن وقته يكون ما يفعله ويراه الحق .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال : رأيت درويشا فى البادية جالسا تحت أشواك شجرة أم غيلان فى مكان صعب وبمشقة تامة ، فقلت : يا أخى ! ما أجلسك هنا ؟ فقال : اعلم أنه كان لى وقت ضاع هنا ، فجلست الآن أتوجع عليه . فقلت : منذ كم من السنين ؟ قال : منذ اثنتى عشرة سنة ، فليبذل الشيخ الآن همة فى الأمر ، لعلى أصل الى مرادى ، واستعيد وقتى . قال الجنيد : فمضيت وأديت الحج ، ودعوت له ، فاستجيبت الدعوة ، وبلغ مراده . فلما رجعت وجدته جالسا فى نفس المكان ، فقلت : أيها الشاب ! لقد استعدت وقتك ، فلماذا لا تتحول عن هذا المكان ؟ فقال : أيها الشيخ ! لقد كنت ألازم المكان الذى كان محل وحشتى وأضعت فيه رأس مالى ، فهل يجوز الآن أن أترك المكان الذى استعدت فيه رأس مالى ، وهو محل أنسى ؟ فليذهب الشيخ بسلام لأنى سأخلط ترابى بتراب هذا الموضع ، حتى أرفع رأسى يوم القيامة من هذا التراب الذى هو محل أنسى وسرورى . وهنا يقول المتنبى :

(شعر عربى)

فكل أمرىء يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

والوقت لا يتأتى تحت كسب العبد حتى يحصل بالتكلف ، ولا يباع أيضا فى السوق ليدفع الروح ثمنا له ، ولا ارادة له فى جلبه ودفعه ، وكلا طرفيه متساويان فى رعايته ، وأختيار العبد فى تحقيقه باطل . وقد قال المشايخ

« الوقت سيف قاطع » ، لأن صفة السيف القطع ، وصفة الوقت القطع ، لأن الوقت يقطع جذور المستقبل والماضى ، ويمحو عن القلب هموم الأمس والغد ، فالصحبة مع السيف خطر : « اما ملك واما هلك » ، فاذا خدم شخص السيف ألف سنة وحمله على كتفه ، فانه فى حال القطع لا يميز بين قطع رقبة صاحبه ورقبة غيره ، لأن صفته القهر ، ولا يزول قهره باختيار صاحبه ، والله أعلم .

والحال : وارد على الوقت ، يزينه ، مثل الروح للجسد . والوقت لا محالة يحتاج الى الحال ، لأن صفاء الوقت يكون بالحال ، وقيامه به ، فحين يكون صاحب الوقت صاحب حال ، ينقطع عنه التغير ، ويستقيم فى وقته ، لأن الزوال يجوز على الوقت بلا حال ، فاذا اتصل به الحال تكون كل أيامه وقتا ، ولا يجوز عليه الزوال ، وكل ما يبدو مجيئا وذهابا فهو الكمون والظهور . وكما أن صاحب الوقت قبل هذا كان نازل الوقت ومتمكن الغفلة ، فهو الآن نازل الحال ومتمكن الوقت ، لأ نالغفلة تجوز على صاحب الوقت ولا تجوز على صاحب الحال . وقد قيل « الحال سكوت اللسان فى فنون البيان » ، فلسان صاحب الحال ساكت فى بيان حاله ، ومعاملته ناطقة بتحقيق حاله ، ولهذا السبب قال أحد الشيوخ رضى الله عنه : « السؤال عن الحال محال » اذ أن العبارة عن الحال محال ، لأن الحال فناء المقال .

ويقول الاستاذ أبو على الدقاق رحمه الله : الثبور أو السرور فى الدنيا والعقبى هو الوقت الذى تكون فيه .

ثم ان الحال لا يكون كذلك لأنه وارد من الحق الى العبد ، فاذا جاء ، نفى كل ذلك من القلب ، مثل يعقوب عليه السلام ، فقد كان صاحب وقت ، فكانت عيناه تبيض تارة من الفراق فى الفراق ، وتصير مبصرة تارة من الوصال فى الوصال ، وكان حينا من البكاء كالشعرة ، وحينا من الأنين كالقصبة ، وحينا من الروح كالروح ، وحينا من السرور كالسرو . وكان ابراهيم عليه السلام صاحب حال ، ولم يكن يرى الفراق ليحزن،ولا الوصال ليسر ، وكان النجم والقمر والشمس كلها مددا لحاله ، وكان هو فارغ القلب من رؤيتها جميعا ، حتى أنه كان يرى الحق فى كل ما ينظر اليه ، ويقول : « لا أحب الآفلين(١) » ، فحينا يكون العالم جحيما لصاحب الوقت،

---

(١) سورة « الانعام » آية ٧٦ .

لأنه يكون غيبة فى المشاهدة ، ويكون قلبه من افتقاد الحبيب محلا للوحشة ، وحينا يكون قلبه كالجنان بالسرور فى نعيم المشاهدة ، لأنه فى كل زمان يكون له تحفة وبشارة من الحق فى الوقت .

وأيضا اذا كان الحجاب بلية لصاحب الحال ، أو الكشف نعمة له ، فان الكل يكون لديه سواء ، لأنه يكون دائما فى محل الحال ، فالحال صفة المراد ، والوقت درجة المريد ، فواحد يكون فى راحة الوقت مع نفسه ، وواحد يكون فى فرح الحال مع الحق ، « فشتان ما بين المنزلتين » .

* ومن ذلك :

المقام والتمكين والفرق بينهما :

« المقام » : عبارة عن اقامة الطالب على أداء حقوق المطلوب بشدة اجتهاده وصحة نيته . ولكل واحد من مريدى الحق مقام كان السبب لهم فى ابداء الطلب . ومهما يصب الطالب من كل مقام ويمر بكل منها ، فانه يستقر فى أحدها ، لأن المقامات والارادات من تركيب الجبلة لا المسلك والمعاملة ، كما أخبرنا الله فى قوله المقدس عز من قائل : « وما منا الا له مقام معلوم(١) » ، فكان مقام آدم التوبة ، ومقام نوح الزهد ، ومقام ابراهيم التسليم ، ومقام موسى الانابة ، ومقام داود الحزن ، ومقام عيسى الرجاء ، ومقام يحيى الخوف ، ومقام محمد الذكر ، صلوات الله عليهم أجمعين .

ومهما يكن لكل واحد فى كل محل سر ، فان رجوعهم آخر الأمر أيضا الى مقاماتهم الأصلية .

وقد بينت فى مذهب المحاسبية طرفا من المقامات ، وفرقت بين الحال والمقام ، ولكنه لابد من (ذكر) هذا هنا .

اعلم أن طريق الله على ثلاثة أقسام : الأول : المقام ، والثانى : الحال ، والثالث : التمكين . وقد أرسل الله عز وجل جميع الأنبياء لبيان طريقه ، ليبينوا حكم المقامات . وجميع الأنبياء والرسل جاءوا بمائة وأربعة وعشرين (الف) مقام (وأكثر) ، وبمجىء محمد عليه السلام ظهر لأهل كل مقام حال واتصل به ، بحيث ينقطع كسب الخلق عنه ، حتى تم الدين على الخلق ، وبلغت النعمة غايتها ، « لقوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى(٢) » ، وعندئذ ظهر تمكين المتمكنين . واذا أردت أن أحصى الأحوال جميعا وأشرح المقامات لعجزت عن المراد .

(١) سورة « الصافات » آية ١٦٤ .
(٢) سورة « المائدة » آية ٣ .

أما **التمكين** : فهو عبارة عن اقامة المحققين فى محل الكمال والدرجة العليا ، فيمكن لأهل المقامات العبور من المقامات ، والعبور من درجة التمكين محال ، لأن الأول درجة المبتدئين ، والثانى مستقر المنتهين . ويكون العبور من البداية الى النهاية ، ولا وجه لتجاوز النهاية ، لأن المقامات منازل الطريق ، والتمكين قرار الحضرة ، وأحباء الحق يكونون فى الطريق عارية ، وفى المنازل غرباء وأسرارهم فى الحضرة ، والآلة فى الحضرة آفة ، والأدوات غيبة وعلة .

وكان الشعراء فى الجاهلية يمدحون ممدوحهم بالمعاملة ، ولم يكونوا ينظمون الشعر حتى يقطعوا المسافات الطويلة ، بحيث أنه عندما كان شاعر يصل الى حضرة ممدوحه كان يسل سيفه ، ويعقر دابته ، ويحطم سيفه ، وكان مراده من هذا أن يقول : ان الدابة كانت تلزمنى لأقطع بها المسافة الى حضرتك ، والسيف لأمنع به حسادى عن خدمتك ، والآن وقد وصلت (اليك) ، فغيم جدوى آلة المسافة ؟ قتلت الدابة لأنى لا أجيز الرجوع عنك ، وحطمت السيف حتى لا أخطر على قلبى الانقطاع عن حضرتك . وحين كانت تمر عدة أيام ، كانوا عندئذ ينشدون الشعر .

وقد أمر الحق تعالى موسى صلوات الله عليه بهذا أيضا ، اذ لما وصل الى محل التمكين بقطع المنازل وعبور المقامات ، سقطت عنه أسباب التلوين ، (وقال تعالى) : « فاخلع نعليك(١) » ، « والق عصاك » ، لأنهما آلة المسافة ، وآلة المسافة محال فى حضرة الوصلة ، فبداية المحبة الطلب ، وانتهاؤها الاستقرار . والماء يجرى مادام فى النهر ، فاذا وصل الى البحر ، استقر ، واذا استقر تغير طعمه ، حتى لا يميل اليه كل من يلزمه الماء ، ويميل الى صحبته من تلزم له الجواهر حتى يقول بترك الروح ، ويربط على رجليه مثقلة الطلب ، ويغوص فى البحر منكس الرأس ، فاما أن يحصل على الجواهر العزيزة المكنونة ، وأما أن يسلم روحه لشرك الفناء فى طلبها .

ويقول واحد من المشايخ رضى الله عنهم « التمكين رفع التلوين » ، والتلوين أيضا من عبارات هذه الطائفة مثل الحال والمقام ، وهى قريبة من بعضها البعض فى المعنى ، ومرادهم من التلوين التغير والتحول من حال الى حال . والمراد من ذلك أن لا يكون المتمكن مترددا ، ويكون قد حمل متاعه جملة الى الحضرة ، ومحا من قلبه التفكير فى الغير ، فلا تجرى عليه معاملة لتبدل حكم ظاهره ، ولا يلزمه حال ليغير حكم باطنه ، مثلما كان موسى صلوات الله عليه متلونا ، فما أن نظر الحق تعالى نظرة الى طور التجلى

(١) سورة « طه » آية ١٢ .

حتى ذهب وعيه ، « كما قال الله تعالى : وخر موسى صعقا(١) » . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متمكنا ، فكان من مكة حتى قاب قوسين فى عين التجلى ، ولم يتحول عن حاله ، ولم يتغير ، وهذه هى الدرجة العليا ، والله أعلم .

فالتمكن على نوعين : الأول ما تكون نسبته الى شاهد النفس ، والآخر ما تكون اضافته الى شاهد الحق ، فما تكون نسبته الى شاهد النفس يكون باقى الصفة ، وما تكون حوالته الى شاهد الحق يكون فانى الصفة . ولا يصح لفانى الصفة المحو والصحو واللحق والمحق والفناء والبقاء والوجود والعدم ، لأنه يلزم لاقامة هذه الأوصاف موصوف ، وعندما يكون الموصوف مستغرقا يسقط عنه حكم اقامة الوصف . ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، وقد اقتصرت على هذا تركا للتطويل ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

المحاضرة والمكاشفة والفرق بينهما :

اعلم أن المحاضرة تطلق على حضور القلب فى لطائف البيان ، والمكاشفة تطلق على تحير السر فى خطر العيان ، فالمحاضرة تكون فى شواهد الآيات ، والمكاشفة فى شواهد المشاهدات . وعلامة المحاضرة دوام الفكر فى رؤية الآية ، وعلامة المكاشفة دوام التحير فى كنه العظمة . وهناك فرق كبير بين من يتفكر فى الأفعال ، وبين من يتحير فى الجلال ، فواحد من هذين يكون رديف الخلة ، والآخر قرين المحبة : أما رأيت أنه حين نظر الخليل صلوات الله عليه فى ملكوت السماوات ، وتأمل وتفكر فى حقيقة وجودها ، حضر قلبه بذلك ، وصار برؤيته للفعل طالبا للفاعل ، حتى أن حضوره صير الفعل دليلا للفاعل ، وقال فى كمال المعرفة : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا(٢) » . وعندما حمل الحبيب الى الملكوت غض الطرف عن رؤية الكل ، فلم ير الفعل ، ولم ير الخلق ، ولم ير نفسه ، حتى كوشف بالفاعل ، فازداد فى الكشف شوقا على شوقه ، وازداد قلقا على قلقه ، فطلب الرؤية ، فلم تبد الرؤية ، فطلب القربة ، فلم تمكن القربة ، فقصد الوصلة ، فلم تتحقق الوصلة ، وكلما ازداد حكم تنزيه الحبيب ظهورا على القلب ، ازداد شوقه الى الحبيب ، ولم يكن هناك وجه للاعراض أو

---

(١) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٢) سورة « الأنعام » آية ٧٩ .

الامكان ، فتحير ، فحيثما كانت الخلة بدت الحيرة كفرا ، وحيثما كانت المحبة صارت الوصلة شركا ، وصارت الحيرة هى الأصل ، لأن الحيرة هنالك كانت فى الوجود ، وذلك شرك ، وكانت هنا فى الكيفية ، وهذا توحيد ، ولهذا قال الشبلى رحمه الله : « يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا(١) » ، لأن زيادة التحير فى المشاهدة تكون زيادة فى الدرجة .

ومشهور فى الحكايات فى هذا المعنى أنه عندما كان أبو سعيد الخراز رضى الله عنه مع ابراهيم بن سعد العلوى على شاطىء البحر ، شاهدا أحد أحباء الله ، فسألاه : ما طريق الحق ، قال : الطريق الى الحق طريقان : أحدهما طريق العامة والثانى طريق الخاصة . فقالا : اشرح ، فقال : طريق العوام هو الذى تسير فيه ، فتقبل لعلة ، وترد لعلة . وطريق الخواص هو أنهم يرون معلل العلة لا العلة . وقد مر بشرح ، حقيقة هذه الحكايات ، وليس المراد غير هذا ، « والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب » .

* ومن ذلك :

القبض والبسط والفرق بينهما :

اعلم أن القبض والبسط حالتان من الأحوال التى يسقط بها تكلف العبد ، كما أن مجيئها لا يكون بالكسب ، ولا ذهابها بالجهد ، « قوله تعالى : والله يقبض ويبسط(٢) » . فالقبض عبارة عن قبض القلوب فى حالة الحجاب ، والبسط عبارة عن بسط القلوب فى حالة الكشف ، وكلا هذين من الحق ، بغير تكلف العبد .

والقبض فى حال العارفين مثل الخوف فى حال المريدين ، والبسط فى حال العارفين مثل الرجاء فى حال المريدين ، فى قول الطائفة التى تحمل القبض والبسط على هذا المعنى .

وفريق من المشايخ على أن رتبة القبض أرفع من رتبة البسط ، لمعنيين: أولهما : أن ذكره مقدم فى الكتاب (أى القرآن) ، والثانى : أن فى القبض انصهار وقهر ، وفى البسط تدليل ولطف ، وانصهار البشرية وقهر النفس أفضل لا محالة من رعايتها ، لأنها الحجاب الأعظم .

---

(١) مكرر .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٤٥ .

وطائفة على أن رتبة البسط أرفع من رتبة القبض ، لأن تقديم ذكر القبض فى الكتاب علامة تقديم فضل المؤخر عليه ، لأنه فى عرف العرب يجعلون الشىء المؤخر فى الفضل مقدما فى الذكر ، « كما قال الله تعالى : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله(١) » . وقال أيضا : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين(٢) » . وقوله تعالى : « يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين(٣) » . وأيضا : فى البسط سرور، وفى القبض ثبور ، وسرور العارفين لا يعرف الا فى الوصول ، وثبورهم لا يكون الا فى الفصل ، فالقرار فى محل الوصل أفضل من القرار فى محل الفراق .

وكان شيخى رحمه الله يقول ان القبض والبسط كلاهما بمعنى واحد ، لأنهما يصلان من الحق الى العبد ، لأنه عندما يظهر أثر ذلك المعنى على القلب فاما أن يسر به السر وتقهر به النفس ، وأما أن يقهر به السر وتسر النفس ، فواحد يكون فى قبض سره بسط نفسه ، وآخر يكون فى بسط سره قبض نفسه ، لأن التعبير عن ذلك بغير هذه العبارة يكون تضييع أنفاس ، ولذلك قال بايزيد رحمه الله : « قبض القلوب فى بسط النفوس ، وبسط القلوب فى قبض النفوس » . فالنفس المقبوضة محفوظة من الخلل ، والسر المبسوط مضبوط من الزلل ، لأن الغيرة فى المحبة مذهب ، والقبض علامة غيرة الحق ، ومعاتبة الحبيب للحبيب شرط ، والبسط علامة المعاتبة .

ومعروف فى الآثار أن يحيى لم يضحك طيلة حياته ، وأن عيسى لم يبك طول عمره ، صلوات الله عليهما ، لأن أحدهما كان منقبضا ، والآخر كان منبسطا ، فلما التقيا قال يحيى : يا عيسى ! هل أمنت القطيعة ؟ فقال عيسى : يا يحيى ! هل يئست من الرحمة ؟ فلا بكاؤك يغير الحكم الأزلى ، ولا ضحكى يغير القضاء المبرم .

فلا قبض ، ولا بسط ، ولا طمس ، ولا أنس ، ولا محو ، ولا محق ، ولا عجز ، ولا جهد الا ما كان تقديرا وحكما سابقا ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

الأنس والهيبة والفرق بينهما :

اعلم أسعدك الله أن الأنس والهيبة حالتان من أحوال صعاليك طريق

---

(١) سورة « فاطر » آية ٣٢ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٢٢ .
(٣) سورة « آل عمران » آية ٤٣ .

الحق ، وذلك أنه حين يتجلى الحق تعالى على قلب العبد بشاهد الجلال يكون نصيبه فى ذلك الهيبة ، وأيضا حين يتجلى على قلب العبد بشاهد الجمال يكون نصيبه فى ذلك الأنس ، ليكون أهل الهيبة من جلاله فى تعب ، وأهل الأنس من جماله فى طرب . وفرق بين القلب الذى يحترق من جلاله فى نار المحبة ، والقلب الذى يضىء من جماله فى نور المشاهدة .

وقد قالت طائفة من المشايخ ان الهيبة درجة العارفين ، والأنس درجة المريدين ، لأن كل من تكون قدمه فى حضرة الحق وتنزيه أوصافه أثبت ، يكون سلطان الهيبة على قلبه أقوى ، ويكون طبعه أكثر نفورا من الأنس ، لأن الأنس يكون مع الجنس ، ولما كانت مجانسة العبد ومشاكلته للحق مستحيلة فلا يتحقق له أنس معه ، وانسه (أى الله) أيضا بالخلق محال . واذا أمكن الأنس فانه يكون ممكنا مع ذكره ، وذكره غيره ، لأنه صفة العبد ، والأنس مع الغير فى المحبة كذب ودعوى ووهم . والهيبة أيضا فى المشاهدة عظمة ، والعظمة صفة الحق جل جلاله . وفرق كبير بين عبد يكون أمره من نفسه بنفسه ، وعبد يكون أمره من فنائه ببقاء الحق .

ويحكى عن الشبلى رحمه الله أنه قال : كنت أظن مدة طويلة أننى أطرب فى محبة الحق ، وآنس بمشاهدته ، والآن أدركت أنه لا أنس للانس الا مع الجنس .

وقالت طائفة أيضا ان الهيبة قرينة العذاب والفراق والعقوبة ، والأنس نتيجة الوصل والرحمة ، ليكون الأحبة محفوظين من آفات الهيبة ، وأقرانا للأنس ، لأن المحبة لا محالة تقتضى الأنس . وكما أن المجانسة للمحبة محال ، فانها محال أيضا للانس .

وكان شيخى رحمه الله يقول : انى لأعجب ممن يقول ان الأنس مع الحق غير ممكن ، من بعد أن قال : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب(١) » و « وان عبادى(٢) » ، و « قل لعبادى(٣) » و « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون(٤) » . وحين يرى العبد هذا الفضل فانه يحبه لا محالة ، وعندما يحبه يأنس به ، لأن الهيبة من الحبيب غربة ، والأنس وحدة ، وصفة الآدمى هى أنه يأنس بالمنعم ، ولنا من الحق نعم كثيرة ، ومعرفتنا به تكون محالا اذ نتحدث عن الهيبة .

---

(١) سورة « البقرة » آية ١٨٦ .
(٢) سورة « الحجر » آية ٤٢ .
(٣) سورة « ابراهيم » آية ٣١ .
(٤) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

وأنا على بن عثمان الجلابى أقول ان كلا الطائفتين مصيبتان فى هذا ، مع اختلافهما ، لأن سلطان الهيبة يكون مع النفس وهواها ، وافناء للبشرية . وسلطان الأنس يكون مع السر ، وتربية المعرفة فى السر ، فالحق تعالى يفنى نفوس الأحبة بتجلى الجلال ، ويبقى أسرارهم بتجلى الجمال ، فمن كانوا أهل فناء قدموا الهيبة ، ومن كانوا أرباب بقاء فضلوا الأنس ، وقد شرح هذا قبل ذلك فى باب الفناء والبقاء ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

القهر والتلطف وتفرق بينهما :

اعلم أن هاتين عبارتان للصوفية يعبرون بهما عن حالهم . ومرادهم من القهر : تأييد الحق بافناء المرادات ، ومنع النفس عن الرغبات ، من غير أن يكون لهم فى ذلك مراد . والمراد من اللطف : تأييد الحق ببقاء السر ، ودوام المشاهدة ، وقرار الحال فى درجة الاستقامة ، الى حد أن قالت طائفة ان الكرامة من الحق حصول المراد ، وهؤلاء أهل اللطف . وقالت طائفة ان الكرامة هى أن الحق تعالى يرد العبد عن مراد نفسه الى مراده ، ويقهره بغير مراده ، بحيث اذا ذهب الى البحر فى حال الظمأ يجف البحر .

يقال انه كان فى بغداد درويشان من محتشمى الصوفية ، كان أحدهما صاحب قهر ، والآخر صاحب لطف ، وكانا يتجادلان دائما ، وكان كل منهما يفضل حاله على حال صاحبه ، فكان واحد يقول : ان اللطف من الحق الى العبد أشرف الأشياء ، « لقوله تعالى : الله لطيف بعباده(١) » ، وكان الآخر يقول : ان القهر من الله الى العبد أكمل الأشياء ، « لقوله تعالى : وهو القاهر فوق عباده(٢) » ، وقد طال هذا الكلام بينهما ، الى أن قصد صاحب اللطف مرة مكة ، فأوغل فى البادية ، ولم يصل الى مكة ، ولم يعرف أحد عنه شيئا سنين طويلة ، حتى جاء واحد من مكة الى بغداد فى وقت ، فرآه على قارعة الطريق ، فقال له : يا أخى ! حين تذهب الى العراق،قل لرفيقى فى الكرخ : اذا أردت أن ترى البادية مع مشقتها مثل كرخ بغداد بعجائبها ، فتعال وانظر ، فها هى البادية قد صارت بالنسبة لى مثل كرخ بغداد . فلما جاء الدرويش وطلب رفيقه ، وأدى الرسالة ، قال الرفيق : حين تعود

---

(١) سورة « الشورى » آية ١٩ .
(٢) سورة « الأنعام » آية ١٨ .

قل له : لا شرف فى أن جعلت البادية الشاقة بالنسبة اليك مثل كرخ بغداد ، حتى لا تفر من الحضرة ، ولكن الشرف هو أن تجعل كرخ بغداد بكل ما فيها من نعم وعجائب بالنسبة لشخص مثل بادية شاقة ليكون فيها مسرورا .

ويرد عن الشبلى رضى الله عنه أنه قال فى مناجاته : يا الهى ! اذا صيرت السماء طوقا لى ، والأرض قيدا لرجلى ، وجعلت العالم كله متعطشا لدمى ، فاننى لا أتحول عنك ! . وقال شيخى : فى سنة من السنين اجتمع الأولياء فى البادية وأخذنى شيخى الحصرى رضى الله عنه معه الى هناك ، فرأيت جماعة كان كل منهم مقبلا على نجيب ، وجماعة كانوا يحضرونهم على تخت ، وجماعة كانوا يطيرون . وكل من كانوا يجيئون من هذا القبيل لم يكن الحصرى يلتفت اليهم ، حتى رأيت شابا قادما بنعلين ممزقين وعصا محطمة ، وقد كلت قدماه ، ورأسه حاسر ، وجسده محترق ، فهب الحصرى وتقدم اليه ، وأجلسه فى درجة عالية ، فتعجبت ، وسألت الشيخ بعد ذلك ، فقال : انه ولى من أولياء الله تعالى وتقدس ، غير تابع للولاية ، بل الولاية تابعة له ، ولا يلتفت الى الكرامات .

وجملة القول فان ما نختاره لأنفسنا هو بلاء لنا ، وأنا لا أريد غير مايحفظنى الحق فيه من الآفة ، ويخلصنى فيه من شر نفسى ، فاذا جعلنى فى القهر لا أتمنى اللطف ، واذا جعلنى فى اللطف لا أتمنى القهر ، فليس لى اختيار مع اختياره ، وبالله التوفيق وحسبنا الله ونعم الرفيق .

* ومن ذلك :

النفى والاثبات والفرق بينهما :

مشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم أسموا محو الصفة باثبات تأييد الحق : نفيا واثباتا ، وأرادوا بالنفى : نفى صفة البشرية ، وبالاثبات : اثبات سلطان الحقيقة ، لأن المحو ذهاب الكل ، ونفى الكل لا يقع الا على الصفات، لأن الفناء لا يكون على الذات فى حال بقاء البشرية ، فيجب نفى الصفات المذمومة باثبات الخصال المحمودة : يعنى نفى الدعوى فى محبة الحق تعالى باثبات المعنى ، لأن الدعوى من رعونات النفس . وجريا على عاداتهم فى حكم الأوصاف جعلوها مقهورة لسلطان الحق ، ويقولون ان نفى الصفات البشرية يكون باثبات بقاء الحق . وقد سبق الكلام فى هذا المعنى قبل ذلك فى باب الفقر والصفوة والفناء والبقاء ، وقد اقتصرت على ذلك .

ويقولون أيضا : ان المراد بهذا هو نفى اختيار العبد باثبات اختيار الحق، ولهذا السبب قال ذلك الموفق : « اختيار الحق لعبده مع علمه بعبده خير من اختيار عبده لنفسه مع جهله بربه » . لأن المحبة هى نفى اختيار المحب باثبات اختيار المحبوب .

وقد وجدت فى الحكايات أن درويشا غرق فى البحر ، فقال له رجل : يا أخى ! هل تريد أن تنجو ؟ قال : لا ، قال : اتريد أن تغرق ؟ قال : لا ، قال : انه لأمر عجيب ، لا تختار الهلاك ، ولا تطلب النجاة ؟ فقال : ما شأنى بالاختيار حتى أختار ؟ اختيارى هو ما يختاره لى الحق .

وقال المشايخ الأخيار ان أقل درجات المحبة نفى الاختيار ، فاختيار الحق أزلى ولا يمكن نفيه ، واختيار العبد عرضى ويجوز عليه النفى ، فيجب على العبد أن يدوس الاختيار العرضى ليدرك البقاء بالاختيار الأزلى ، مثل موسى صلوات الله عليه حينما انبسط على الجبل مع الحق تعالى فتمنى الرؤية ، وقال باثبات اختياره ، فقال الحق « لن ترانى(١) » ، قال : يا الهى ! الرؤية حق ، وأنا مستحق ، فلم المنع ؟ فجاء الأمر : الرؤية حق ، أما الاختيار فى المحبة فباطل .

ويرد فى هذا المعنى كلام كثير ، ولكن مقصودى ليس أكثر من أن تعرف ما مقصود القوم من هذه العبارة . وقد مر من هذا كله ذكر الفرقة والجمع ، والفناء والبقاء ، والغيبة والحضور فى مذاهب المتصوفة ، حيث ذكر الصحو والسكر ، فمن له اشكال فليطلب هذه المعانى هنالك ، لأن محل بيان كل هذا هناك ، ولكن بحكم الضرورة جئت هنا بهذا القدر ، لأشرح بذلك مذهب كل منهم .

* ومن ذلك :

المسامرة والمحادثة والفرق بينهما :

وهاتان الكلمتان تعبيران عن حالين من أحوال الكاملين فى طريق الحق ، وحقيقة هذا الكلام سر مقرون بسكوت اللسان ، اى أن المحادثة وحقيقة المسامرة هما دوام الانبساط بكتمان السر . وظاهر المعنى هو أن المسامرة وقت للعبد مع الحق ليلا ، والمحادثة وقت له مع الحق نهارا ، يكون فيه

(١) سورة « الاعراف » آية ١٤٣ .

السؤال والجواب ظاهريا وباطنيا ، ولهذا السبب يسمون مناجاة الليل : مسامرة ، ودعوات النهار : محادثة ، فحال النهار مبنى على الكشف ، وحال الليل مبنى على الستر . والمسامرة فى المحبة أكمل من المحادثة .

والمسامرة تتعلق بحال النبى صلى الله عليه وسلم ، فحين أراد الحق تعالى أن يكون له وقت معه ، أرسل اليه جبريل بالبراق ، حتى أوصله فى الليل من مكة الى قاب قوسين ، وناجى الحق ، وسمع كلامه ، ولما بلغ النهاية خرس لسانه فى كشف الجلال ، وحار قلبه فى كنة العظمة ، وعجز علمه عن الادراك ، فعجز لسانه عن العبارة ، فكان يقول : « لا أحصى ثناء عليك(١) » .

والمحادثة تتعلق بحال موسى عليه السلام ، لأنه حين أراد أن يكون له مع الحق تعالى وقت ، جاء الى الطور بعد أربعين يوما من الوعد والانتظار ، وسمع كلام الله تعالى ، حتى انبسط ، وطلب الرؤية ، وعجز عن المراد ، وغاب عن الوعى ، فلما عاد الى وعيه قال : « تبت اليك(٢) » ، حتى ظهر الفرق بين من جىء به : « قوله تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا(٣) » ، وبين من جاء : « قوله تعالى : لما جاء موسى لميقاتنا(٤) » ، فالليل وقت خلوة الأحبة ، والنهار وقت خدمة العبيد ، ولا محالة من أن العبد حين يتجاوز حده يزجر ، وأيضا الحبيب لا حد له حتى يستوجب الملامة بتجاوز الحد ، لأن كل ما يفعله الحبيب لا يكون الا مقبولا لدى الحبيب ، والله أعلم بالصواب

* ومن ذلك :

علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والفرق بينهما :

اعلم أن هذه فى حكم الأصول عبارات عن العلم ، والعلم بلا يقين على صحته لا يكون علما ، واذا حصل العلم ، تكون الغيبة فيه مثل العيان ، لأن المؤمنين غدا يرون الحق تعالى على نفس الصفة التى يعرفونه بها اليوم ، سواء رأوه على خلاف هذا ، أو أن الرؤية لا تصح فى الغد ، أو أن العلم

(١) مكرر .
(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٣) سورة « الاسراء » آية ١ .
(٤) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .

لا يصح اليوم . وهذان كلاهما طرفا الخلاف فى التوحيد ، لأن علم الخلق به صحيح اليوم ، ورؤيتهم له صحيحة فى الغد ، فعلم اليقين مثل عين اليقين ، وحق اليقين مثل علم اليقين . ومن قالوا باستغراق العلم فى الرؤية فذلك محال ، لأن الرؤية آلة لحصول العلم ، مثل السماع وما شابه هذا ، ومادام استغراق العلم فى السماع محال ، فانه يكون أيضا محالا فى الرؤية ، فمراد هذه الطائفة بعلم اليقين هذا هو العلم بمعاملات الدنيا وأحكام الأوامر ، ومرادهم من عين اليقين هو العلم بحال النزع وقت الرحيل عن الدنيا ، ومرادهم من حق اليقين هو العلم بكشف الرؤية فى الجنة ، وكيفية أحوالها بالمعاينة ، فعلم اليقين هو درجة العلماء بحكم استقامتهم على أحكام الأمور ، وعين اليقين هو مقام العارفين بحكم استعدادهم للموت ، وحق اليقين هو محل فناء الأحبة بحكم اعراضهم عن كل الموجودات .

فعلم اليقين بالمجاهدة ، وعين اليقين بالمؤانسة ، وحق اليقين بالمشاهدة . والأول عام ، والثانى خاص ، والثالث خاص الخاص ، والله أعلم بالصواب.

* ومن ذلك :

العلم والمعرفة والفرق بينهما :

لم يفرق علماء الأصول بين العلم والمعرفة ، وقالوا ان كلاهما سواء ، غير أنهم قالوا : يجوز أن يقال للحق تعالى عالما ، ولا يجوز أن يقال عارفا ، لعدم التوافق . أما مشايخ هذه الطريقة رضى الله عنهم فهم يسمون العلم المقرون بالمعاملة والحال — وهو العلم الذى يعبر عن أحوالهم — بالمعرفة ، ويسمون العالم به عارفا . ويسمون العلم المجرد من المعنى والخالى من المعاملة علما ، ويسمون العالم به عالما ، فمن يكن عالما بالعبارات المجردة ، وحفظها بدون حفظ المعنى ، يسموه عالما ، ومن يكن عالما بمعنى الشىء وحقيقته يسموه عارفا ، ولذلك فان هذه الطائفة حين يريدون الاستخفاف بأقرانهم يسمونهم علماء ، وهذا يبدو للعوام منكرا ، وليس مرادهم ذمهم بحصول العلم ، بل مرادهم ذمهم بترك المعاملة ، لأن العالم قائم بنفسه ، والعارف قائم بربه . وقد مر الحديث فى هذا فى كشف حجاب المعرفة ، ويكفى هنا هذا القدر ، والله أعلم .

* ومن ذلك :

الشريعة والحقيقة والفرق بينهما :

هاتان عبارتان لهؤلاء القوم يعبرون باحداهما عن صحة حال الظاهر

وبالثانية عن اقامة حال الباطن . وقد أخطأ فريقان فى هذا المعنى : أحدهما علماء الظاهر الذين يقولون اننا لا نفرق بينهما ، لأن الشريعة هى الحقيقة ، والحقيقة هى الشريعة ، والثانى : فريق الملاحدة الذين لا يجيزون قيام كل واحدة منهما مع الأخرى ، ويقولون انه اذا انكشفت الحقيقة ارتفعت الشريعة ، وهذا قول القرامطة والشيعة وموسوسيهم . والدليل على أن الشريعة منفصلة عن الحقيقة فى الحكم هو أن التصديق فى الايمان منفصل عن القول . والدليل على أنهما غير منفصلتين فى الأصل أن التصديق بدون القول لا يكون ايمانا ، والقول بدون التصديق لا يكون ايمانا . والفرق ظاهر بين القول والتصديق ، فالحقيقة عبارة عن المعنى الذى لا يجوز عليه النسخ ، وحكمه متساو منذ عهد آدم حتى فناء العالم : مثل معرفة الحق ، وصحة معاملة النفس بخلوص النية . والشريعة عبارة عن المعنى الذى يجوز عليه النسخ والتبديل : مثل أحكام الأوامر ، فالشريعة هى فعل للعبد ، والحقيقة هى حفظ الله وعصمته جل جلاله للعبد .

فاقامة الشريعة بدون وجود الحقيقة محال ، واقامة الحقيقة بدون حفظ الشريعة محال ، ومثلهما كمثل شخص حى بالروح ، فعندما تنفصل عنه الروح يصير جيفة ، وتصير الروح ريحا ، فقيمتهما فى اقترانهما ببعضهما البعض . وكذلك الشريعة تكون بدون الحقيقة رياء ، وتكون الحقيقة بدون الشريعة نفاقا ، « قوله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا(١) » ، فالمجاهدة شريعة ، والهداية حقيقة ، والأولى هى حفظ العبد لأحكام الظاهر على نفسه ، والثانية هى حفظ الحق لأحوال الباطن عن العبد . والشريعة من المكاسب ، والحقيقة من المواهب ، واذا صار هذا مسلما ، فانه يوجد فرق كبير بينهما ، والله أعلم .

* * *

والنوع الآخر من هذه الحدود هو العبارات التى تقبل الاستعارة فى كلامهم ويصير حكمها بالتفصيل والشرح أصعب ، وسأبين هذا النوع على سبيل الاختصار ان شاء الله تعالى .

الحق : مرادهم من الحق : « الله » ، لأن هذا اسم من أسماء الله ، لقوله تعالى : ذلك بأن الله هو الحق(٢) » .

---

(١) سورة « العنكبوت » آية ٦٩ .
(٢) سورة « الحج » آية ٦ .

الحقيقـــة : مرادهم بهذا اللفظ : اقامة العبد فى محل وصل الله ، ووقوف سره على محل التنزيه .

الخطـرات : ما يخطر على القلب من أحكام الطريقة .

الوطنـــات : ما يتوطن فى السر من المعانى الالهية .

الطمس(١) : نفى العين بحيث لا يبقى منها أثر .

الـــرمس : نفى العين مع الأثر من القلب .

العـــلائق : الأسباب التى يتعلق بها الطالبون ويتخلفون عن المراد .

الوسائط(٢) : الأسباب التى يصلون بالتعلق بها الى المراد .

الزوائـــد(٣) : زيادة الأنوار بالقلب .

الفوائـــد : ادراك سر لابد منه .

المـــلجأ : اعتماد القلب بحصول مراده .

المنـــجى : خلاص القلب من محل الآفة .

الكليـــة : استغراق الأوصاف الآدمية بالكلية .

اللوائـــح(٤) : اثبات المراد مع سرعة نفيه .

اللوامـــع : اظهار النور على القلب مع بقاء فوائده .

الطوالـــع(٥) : طلوع أنوار المعارف على القلب .

---

(١) « الطمس » عرفه السراج بأنه : محو البيـــان عن الشىء البين (اللمع ص ٤٣٤) .

(٢) الوسائط : هى الأسباب التى بين الله تعـــالى وبين العبـــد من أسباب الدنيا والآخرة . وقال بعض المشايخ : الوسائط على ثلاثة أوجه : وسائط مواصلات ووسائط متصلات ، ووسائط منفصلات ، فالمواصلات بوادى الحق ، والمتصلات العبادات ، والمنفصلات حظوظ النفس (اللمع ص ٤٥٢) .

(٣) الزوائد : هى زيادات الايمان بالغيب واليقين ، كلما ازداد الايمان واليقين زاد الصدق والاخلاص فى الأحوال والمقامات (اللمع ص ٤١٥) .

(٤) اللوائح : ما يلوح للأسرار الظاهرة لزيادة السمو والانتقال من حال الى حال أعلى من ذلك (اللمع ص ٤١٢) .

(٥) الطوالع : أنوار التوحيد على قلوب أهل المعرفة بتشعشعها فيطمئن ما فى القلوب من الأنوار بسلطان نورها . وقال الحسين بن منصـــور فى هذا المعنى :

قـــد تجـــلت طـــوالع زاهـــرات يتشـــعشعن فى لوامـــع بـــرق
خصنى بهـــا واحدى بتوحيد صدق ما اليهـــا من المســـلك طـــرق
(اللمع ص ٢٢٢)

الطوارق(١) : وارد الى القلب بالبشارة ، أو الزجر فى مناجاة الليل .

اللطيفـــة(٢) : اشارة الى القلب عن دقائق الحال .

الســـر(٣) : اخفاء حال المحبة .

النجـــوى : اخفاء الآفات عن اطلاع الغير .

الاشارة(٤) : اخبار الغير عن المراد بغير عبارة اللسان .

الايمـــاء(٥) : تعريض الخطاب بدون اشارة وعبارة .

الـــوارد : حلول المعانى بالقلب .

الانتبـــاه : زوال الغفلة عن القلب .

الاشـــتباه : اشكال الحال فى طرفى حكم الحق والباطل .

القـــرار : زوال التردد عن حقيقة الحال .

الانزعاج(٦) : تحرك القلب فى حال الوجد .

هذا هو معنى بعض الفاظهم على سبيل الاختصار ، وبالله العـــون والعصـــمة .

* * *

---

(١) الطوارق : ما يطرق أهل الحقـــائق من طريق الســـمع فيجدد لهم حقائقهم . والطوارق فى اللغة : ما يطرق بالليل . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : واعوذ بك من شر طوارق الليـــل والنهار الا طارقا يطرق بخير (اللمع ص ٢٢٢) .

(٢) اللطيفة : اشارة تلوح فى الفهم وتلمع فى الذهن ، ولا تســـعها العبارة لدقة معناها (اللمع ص ٤٤٨) .

(٣) السر : ما غيبه الحق ولم يشرف عليه الخلق ، فسر الخلق ما أشرف عليه الحق بلا واسطة ، وسر الحق ما يطلع عليه الا الحق . وقال قائل :

يا سر سر يـــدق حتى يخفى على وهـــم كل حى
وظـــاهر باطن تجـــلى من كل شىء لـــكل شىء
(اللمع ص ٤٣٠)

(٤) الاشارة : ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه . (اللمع ص ٤١٤)

(٥) الايمـــاء : اشارة بحركة جارحة (اللمع ص ٤١٤) .

(٦) الانزعاج : تحرك القلب للمراد باليقظة من سنة الغفلة . وقال الجنيد فى بعض كلامه : كيف لا تسمو اليه السرائر ، وتنزعج بما فيها اليه الضمائر ! وكيف لا تسرع اليه الأقدام بالطاعة ، وتنهض اليه بالجد والمبادرة ، أنسا منها ببلاياه ، وسرورا بعظيم عطاياه . (اللمع ص ٤٤٤) .

نوع آخر من حدود هذه الألفاظ التى يستعملونها فى توحيد الله تعالى ، ويستعملونها فى بيان اعتقادهم فى الحقائق بدون استعارة ، ومنها :

العالم : والعالم عبارة عن مخلوقات الله . ويقولون : ثمانية عشر ألف عالم ، وخمسون ألف عالم .

والفلاسفة يقولون انه عالمان : علوى ، وسفلى . وعلماء الأصول يقولون : كل ما هو موجود من العرش الى الثرى : عالم .

وفى الجملة : العالم هو اجتماع المختلفات . وأهل هذه الطريقة أيضا يقولون : عالم الأرواح ، وعالم النفوس ، ومرادهم غير مراد الفلاسفة ، لأن مرادهم اجتماع الأرواح والنفوس .

المحدث : المتأخر فى الوجود . أى الذى لم يكن ، وكان بعد ذلك .

القديم : السابق فى الوجود ، وهو دائم ، وكان وجوده سابقا على كل الموجودات ، وهذا لا يكون الا الله تعالى .

الأزل : ما ليس له أول .

الأبد : ما ليس له آخر .

الذات(١) : وجود الشىء وحقيقته .

الصفة : ما لا يقبل النعت لأنه غير قائم بذاته .

الاسم : غير المسمى .

التسمية : خبر عن المسمى .

النفى : ما يقتضى عدم المنفى .

الاثبات : ما يقتضى وجود المثبت .

الشيئان : ما يجوز وجود احدهما بالآخر .

الضدان : ما لايجوز وجود أحدهما مع بقاء وجود الآخر فى حال واحد .

الغيران : ما يجوز وجود كل واحد منهما بدون الآخر .

الجوهر : أصل الشىء القائم بنفسه .

العرض : ما يقوم بالجوهر .

---

(١) الذات : هى الشىء القائم بنفسه ، والاسم والنعت والصفة معالم للذات .
(اللمع ٤٢٧) .

الجسم : ما يكون مؤلفا من أجزاء متناثرة .

السؤال : طلب الحقيقة .

الجواب : الاخبار عن مضمون السؤال .

الحسن : ما يوافق الأمر .

القبيح : ما يخالف الأمر .

السفه : ترك الأمر .

الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، وفيما لا يناسبه .

العدل : وضع كل شىء فى مكانه .

الملك : هو من لا يمكن الاعتراض عليه فيما يفعل .

هذه هى حدود الألفاظ التى لابد للطالبين من معرفتها ، على سبيل الاختصار ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

* * *

ونوع آخر ، وهو العبارات التى تحتاج الى شرح ، ومتداولة بين المتصوفة ، وليس مقصودهم بها ما هو معلوم لأهل اللسان من ظاهر اللفظ .

الخاطر(١) : يريدون بالخاطر حصول المعنى فى القلب مع سرعة زواله بخاطر آخر ، وقدرة صاحب الخاطر على دفعه عن القلب .

وأهل الخاطر يتبعون الخاطر الأول فى الأمور ، لأنه يكون من الحق تعالى وتقدس الى العبد بدون علة . ويقال انه بدا لخير النساج خاطر أن الجنيد ببابه ، فدفع هذا الخاطر عنه ، فجاء خاطر آخر لمدده ، فانشغل بدفعه أيضا فجاء خاطر ثالث ، فخرج ، ورأى الجنيد رضى الله عنه واقفا بالباب ، فقال له : يا خير ! لو أنك اتبعت الخاطر الأول ، وأديت سنة المشايخ ، لما لزمنى أن أقف كثيرا بالباب .

وقد قال المشايخ : اذا كان ذلك هو الخاطر الذى خطر لخير ، فما ذلك الاشراف الذى كان للجنيد ؟ قيل : الجنيد كان شيخا لخير ، ولا محالة أن يكون الشيخ مشرفا على كل أحوال مريده .

---

(١) الخاطر : تحريك السر لا بداية له ، واذا خطر بالقلب فلا يثبت فيزول بخاطر آخر مثله . (اللمع ص ٤١٨) .

الواقع(١) : يريدون بالواقع : المعنى الذى يظهر فى القلب ويبقى ، وذلك على خلاف الخاطر ، ولا يكون للطالب بأى حال آلة لدفعه ، مثلما يقولون : خطر على قلبى ، ووقع فى قلبى ، فالقلوب كلها محل الخواطر . أما الواقع فلا يكون الا على القلب الذى يكون حشوه كل حديث المحق . ومن ذلك أنه حين يظهر للمريد قيد فى طريق الحق يقال له قيد ، ويقولون : وقعت له واقعة .

وأهل اللسان يريدون بالواقع : الاشكال فى المسائل ، وحين يجيب أحد عليه ويرتفع الاشكال يقولون : انحلت الواقعة . أما أهل التحقيق فيقولون ان الواقع هو ما لا يجوز عليه الحل ، وما ينحل يكون خاطرا لا واقعا ، لأن قيد أهل التحقيق لا يكون فى شىء حقير يتغير حكمه فى كل وقت ويتحول عن حاله .

الاختيار : يريدون بالاختيار : أن يختاروا اختيار الحق على اختيارهم ، أى أنهم يرضون بما يختاره الحق لهم من الخير والشر ، واختيار العبد لاختيار الحق تعالى يكون أيضا باختيار الحق ، لأنه لو لم يختره الحق تعالى بلا اختيار لما ترك اختياره . وسئل أبو يزيد رضى الله عنه : من هو الأمير ؟ فقال :من لم يبق له اختيار ، وصار اختيار الحق له اختيارا . ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه أصابته الحمى مرة ، فقال : يا الهى ! عافنى ، فنودى فى سره : من أنت حتى تتكلم فى ملكى وتختار ، وأنا أعرف تدبير ملكى أحسن منك ، فاختر اختيارى ولا تظهر نفسك باختيارك ، والله أعلم .

الامتحان(٢) : يريدون بالامتحان : امتحان قلوب الأولياء بأنواع البلايا التى تأتى من الحق تعالى ؛ من خوف وحزن وقبض وهيبة وأمثال ذلك ؛ « لقوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم(٣) » وفى هذا درجة عظيمة .

البلاء : ويريدون بالبلاء امتحان اجساد الأحبة بأنواع المشقات والأمراض والآلام ، لأنه كلما كان البلاء أكثر قوة على العبد فانه يكون أكثر قربا

---

(١) الواقع : ما يثبت ولا يزول بواقع آخر (اللمع ص ٤١٨) .
(٢) الامتحان : ابتلاء من الحق يحل بالقلوب المقبلة على الله تعالى . والامتحان على ثلاثة : لقوم منهم عقوبة ، ولقوم منهم تمحيص وكفارة ، ولقوم استدعاء الزيادة وارتفاع الدرجة (اللمع ص ٤٤٨) .
(٣) سورة « الحجرات » آية ٣ .

للحق ، لأن البلاء لباس الأولياء ، ومهد الأصفياء ، وغذاء الانبياء صلوات الله عليهم : ألم تر ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أشد البلايا للأنبياء ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بـــلاء(١) » .

وجملة القول فان البلاء اسم للألم الذى يظهر على قلب المؤمن وجسده وتكون حقيقته النعمة ، وبحكم أن سره يكون خافيا على العبد فانه يثاب عليه باحتماله آلامه . ثم ان ما يصيب الكافرين لا يكون بلاء بل يكون شقاء ، ولا يكون للكافرين من الشقاء شفاء أبدا . فمرتبة البلاء أعظم من مرتبة الامتحان ، لأن تأثير الامتحان يكون على القلب ، أما تأثير البلاء فيكون على القلب والجسد ، والله أعلم .

التحلى(٢) : التحلى هو الانتساب الى قوم محمودين فى القول والعمل ، « قوله عليه السلام : ليس الايمان بالتحلى والتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل(٣) » ، فتشبهك بقوم بدون حقيقة معاملتهم هو التحلى . وأولئك الذين يتظاهرون ولا يكونون كذلك ، سرعان ما يفتضحون ويذيع سرهم ، ومهما يكونوا عند أهل التحقيق ، فانهم هم أنفسهم فضيحة ، وسرهم مكشوف .

التجلى(٤) : هو تأثير أنوار الحق بحكم الاقبال على قلوب المقبلين الجديرين بأن يروا الحق بقلوبهم . والفرق بين هذه الرؤية ورؤية العيان هى أن المتجلى اذا أراد يرى ، واذا أراد لا يرى ، أو يرى وقتا ولا يرى آخر . أما أهل العيان فى الجنة فانهم اذا أرادوا الا يروا فانهم لا يستطيعون الا يروا ، لأن الستر يجوز على التجلى ، ولا يجوز الحجاب على الرؤية ، والله أعلم .

---

(١) لفظه المشهور : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل : يبتلى الرجل على قدر دينه .. الخ الحديث . رواه أحمد والترمذى وابن حبـــان (الكنز الثمين ص ٦٠) .
(٢) التحلى : التلبيس ، والتشبه بالصادقين ، بالأقوال واظهار الأعمال . وقال بعضهم :

من تحـــلى بغير ما هو فيـــه فضحته شـــواهد الامتحـــان

(اللمع ص ٤٣٩) .
(٣) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٢٧) .
(٤) التجلى : اشراق أنوار اقبال الحق على قلوب المقبلين عليه . (اللمع ص ٤٣٩) .

التخلى(١) : هو الاعراض عن الأشغال المانعة للعبد عن الله : وأولها مشاغل الدنيا ، بحيث يخلى يده منها بحكم تشريف العناية . وثانيها : أن يقطع عن قلبه ارادة العقبى . وثالثها : أن يخلى السر من متابعة الهوى . ورابعها : أن يعرض عن صحبة الخلق ، ويخلى القلب من التفكير فيهم .

الشرود(٢) : معنى الشرود هو طلب الحق بالخلاص من الآفات والحجب وعدم الاستقرار فيها ، لأن جميع بلايا الطالب تقع من الحجاب . وهم يسمون حيل الطلاب لكشف الحجاب ، وأسفارهم ، وتعلقهم بكل شيء شرودا . وكل من يكون أكثر قلقا فى بداية الطلب ، يكون أكثر وصولا وتمكنا فى انتهائه .

القصود(٣) : مرادهم من القصود صحة العزيمة على طلب حقيقة المقصود . وقصد هذه الطائفة غير منعقد فى الحركة والسكون ، لأن الحبيب وان يكن ساكنا فى المحبة فانه يكون قاصدا ، وهذا مخالف للمعتاد ، لأن قصد القاصدين اما أن يكون منه تأثير على ظاهرهم ، أو يكون منه دليل على باطنهم ، لأن الأحبة يكونون قاصدين بغير علة طلبهم وحركاتهم ، وتكون كل صفاتهم قصد الحبيب .

الاصطناع(٤) : يريدون بهذه الكلمة أن يهذب الله تعالى العبد بفناء جميع الأنصبة عنه ، وزوال جميع الحظوظ ، ويبدل فيه أوصافه النفسانية حتى يفنى عن نفسه بزوال النعوت وتبديل الأوصاف . والمخصوصون بهذه الدرجة هم الأنبياء عليهم السلام دون الأولياء . وجماعة من المشايخ غيرهم يجيزون هذه الصفة على الأولياء أيضا .

---

(١) التخلى : هو الاعراض عن العوارض المشغلة ، بالظاهر والباطن ، وهو اختيار الخلوة ، وايثار العزلة ، وملازمة الوحدة . وقال بعضهم :

ان قلب الفتى ولو عاش دهرا
فى الهوى لا يكاد أن يتخلى

(اللمع ص ٤٤٠) .

(٢) الشرود : نفر الصفات من منازلات الحقائق وملازمة الحقوق (اللمع ص ٤٤٦) .

(٣) القصود : معناه : الارادات والنيات الصادقة المقرونة بالنهوض اليه (الى الحق) .

وقال ابن عطاء : من قصد فى قصوده غير الحق فقد عظمت استهانته بالحق . (اللمع ص ٤٤٧) .

(٤) الاصطناع : اختلفوا فيه ، فمنهم من يقولون انه مرتبة خص بها الأنبياء والصديقون ، وقال قوم : الاصطناع خص به موسى من جميع الأنبياء ، لقوله تعالى : « واصطنعتك لنفسى » ، وقال قوم : هو مرتبة الأنبياء دون غيرهم (اللمع ص ٤٤٧) .

الاصطفاء : الاصطفاء هو أن يفرغ الحق تعالى قلب العبد لمعرفته ، حتى تنشر معرفته صفاءها فيه . وجميع المؤمنين الخاص منهم والعام سيان فى هذه الدرجة : من عاص ، ومطيع ، وولى ، ونبى « لقوله تعالى : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات(١) » .

الاصطلام : الاصطلام هو غلبات الحق التى تجعل كلية العبد مقهورة لها بامتحان اللطف فى نفى ارادته . وقلب ممتحن وقلب مصطلم كلاهما بمعنى واحد ، الا أن الاصطلام أخص وأرق من الامتحان فى جريان عبارات أهل هذه الطريقة .

الرين(٢) : الرين حجاب على القلب لا يكون كشفه الا بالايمان . وهو حجاب الكفر والضلالة « لقوله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(٣) » .

وقالت طائفة ان الرين هو ما لا يمكن زواله بأى صفة ، لأن قلب الكافر لا يتقبل الاسلام ، ومن يسلمون منهم كانوا مؤمنين فى علم الله عز وجل .

الغين(٤) : الغين حجاب على القلب يرتفع بالاستغفار ، وهو على نوعين : واحد خفيف ، وواحد غليظ . والغليظ هو ما يكون لأهل الغفلة والكبائر ، والخفيف يكون لكل الخلق من نبى وولى ، « لقوله عليه السلام : انه ليغان على قلبى وانى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة(٥) » ، فيلزم للغين الغليظ : التوبة بشروطها ، وللخفيف : الرجوع الصادق الى الحق .

---

(١) سورة « فاطر » آية ٣٢ .

(٢) « الرين » : عرفه السراج بأنه الصدأ الذى يقع على القلوب . وقال البعض ان حجب القلوب على أربعة أوجه : أشدها الختم ، والطبع ، وذلك لقلوب الكفار ، والرين لقلوب المنافقين ، والصدأ لقلوب المؤمنين . (اللمع ص ٤٥١) .

(٣) سورة « المطففين » آية ١٤ .

(٤) « الغين » : ذكر السراج أنهم أكثروا فى وصف الغين ، وقالوا ان الغين الذى كان يعارض قلب النبى وكان يتوب منه مثله مثل المرآة اذا تنفس فيها الناظر فينقص من ضوئها ثم تعود الى حالة ضوئها . وقال قوم : هذا محال لأن قلب النبى صلى الله عليه وسلم لا يلحقه قهر من الخلق لأنه مخصوص بالرؤية . وليس لأحد أن يحكم على قلب النبى بوصف أو نعت أو يشبهه بشى . (اللمع ص ٤٥١) .

(٥) مكرر .

التوبة : هى الرجوع عن المعصية الى الطاعة ، وعن النفس الى الحق . فهم يتوبون عن الجرم ، وجرم العباد مخالفة الأمر ، وجرم الأحبة مخالفة الارادة ، وجرم العباد : المعصية ، وجرم الأحبة : رؤية وجودهم . ويقال لمن يرجع عن الخطأ الى الصواب : تائب ، ولمن يرجع عن الصواب الى الصواب : آيب . وقد ذكرت هذا كله فى باب التوبة ، والله أعلم .

التلبيس(١) : يسمون اظهار الشىء للخلق على خلاف حقيقته تلبيسا ، « لقوله تعالى : وللبسنا عليهم ما يلبسون(٢) » . وهذه الصفة محالة لغير الحق ، لأنه يظهر الكافر بالنعمة مؤمنا ، والمؤمن بالنعمة كافرا ، الى وقت اظهار حكمه فى كل شخص . وحين يخفى واحد من هذه الطائفة خصاله المحمودة بصفاته المذمومة يقولون انه يلبس . ولا تستعمل هذه العبارة الا لهذه المعانى ، ولا يسمون النفاق والرياء تلبيسا ، وان يكن فى الأصل تلبيسا ، لأن التلبيس لا يستعمل الا فى اقامة الحد ، والله أعلم .

الشرب(٣) : هذه الطائفة يسمون حلاوة الطاعة ولذة الكرامة وراحة الأنس شربا . ولا يستطيع أحد أبدا عمل عمل بلا شرب ، وكما أن شرب الجسد من المـاء ، فشرب القلب من الراحات ، وحلاوة الطاعة . وكان شيخى رضى الله عنه يقول : يجب أن يكون المريد والعارف غريبين عن شرب الارادة والمعرفة . ويقول قائل : يجب أن يكون للمريد شرب من عمله ، حتى يؤدى حق الطلب فى الارادة ، ولا يلزم أن يكون للعارف شرب ، حتى لا يأنس بغير الحق الى الشرب والراحات التى ترجع الى النفس .

الذوق : الذوق مثل الشرب ، ولكن الشرب لا يستعمل الا فى الراحات ، والذوق يحسن للمشقة والراحات ، كأن يقول قائل : ذقت الخلاف ، وذقت البلاء ، وذقت الراحة ، فكل هذا يصح .

---

(١) التلبيس : تحلى الشىء بنعت ضده . (اللمع ص ٤٤٩) .
(٢) سورة « الأنعام » آية ٩ .
(٣) الشرب : تلقى الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عليها من الكرامات وتنعمها بذلك ، فشبه ذلك بالشرب لتهنيه وتنعمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قرب سيده . (اللمع ص ٤٤٩) .

ويقال أيضا للشراب : شربت بكأس الوصل ، وبكأس الود ، وأمثال هذا كثير ، « قوله تعالى : كلوا واشربوا هنيئـا(١) » . وحين ذكر الذوق قال : « ذق انك أنت العزيز الكريم(٢) » . وفى موضع آخر قال : « ذوقوا مس سـقر(٣) » .

هذه هى أحكام حدود الفاظهم المتداولة التى ذكرتها ، واذا أثبتها كلها يطول الكتاب ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) سورة « المرسلات » آية ٤٣ .
(٢) سورة « الدخان » آية ٤٩ .
(٣) سورة « القمر » آية ٤٨ .

كشف الحاجب الحادى عشر
فى السـمـاع
وبيـان أنـواعـه

اعلم ، أسعدك الله ، أن أسباب حصول العلم الحواس الخمس ، الأول : السمع ، والثانى : البصر ، والثالث : الذوق ، والرابع : الشم ، والخامس: اللمس . وقد خلق الله تعالى هذه الأبواب الخمسة للقلب ، وربط كل جنس من العلم بواحد منها ، مثل العلم بالأصوات والأخبار للسمع ، والعلم بالألوان والأجناس للبصر ، والعلم بالحلو والمر للذوق ، والعلم بالنتن والرائحة للشم ، والعلم بالخشونة واللين للمس ، وجعل أربعة من هذه الحواس الخمس فى محل خاص ، وأشاع واحدا فى جميع الأعضاء ، فصير الأذن محل السمع ، والعين محل البصر ، والحلق محل الذوق ، والأنف محل الشم ، وأعطى اللمس المجال فى جميع الجسد ، لأنه لا يرى غير العين ، ولا يسمع غير الأذن ، ولا يشم غير الأنف ، ولا يتذوق غير الحلق ، أما الجسد فيعرف الناعم من الخشن ، والحار من البارد بلمس الأعضاء ، ويجوز من وجه المجاز أن تشيع كل من هذه فى كل الأعضاء مثل اللمس ، ولا يجوز عند المعتزلة أن يكون لكل واحد غير محل مخصوص. وقولهم هذا باطل بالنسبة لحاسة اللمس فليس لها محل مخصوص ، وحين يجوز لواحد هذه الصفة فان هذا يجوز أيضا للآخر . والمراد هنا ليس هذا ، ولكنى لم أر مندوحة من ذكر هذا القدر لتحقيق بيان المعنى .

السماع من الظواهر التى تلفت النظر فى التصوف . وقد دخل السماع التصوف فى وقت مبكر ، وكثرت فيه أقوال شيوخ الصوفية وأباحوه ، وعده بعضهم سمة من سمات الصوفى ، فقد سئل أبو الحسن النورى عن الصوفى فقال : « من سمع السماع ، وآثر الأسباب » . ويقول الجنيد البغدادى : « تنزل الرحمة على الفقراء فى ثلاثة مواطن : عند السماع ، فانهم لا يسمعون الا عن حق ، ولا يقولون الا عن وجد ، وعند أكل الطعام ، فانهم لا يأكلون الا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم ، فانهم لا يذكرون الا صفات الأولياء » . (الرسالة ج ٢ ص ٦٤٤ — ٦٤٥) .

ولفظ السماع عرف فى صدر الاسلام ، وكان يقصد به سماع القرآن وأغانى الحجيج والزهديات التى ينشدها الزهاد فى الحث على نبذ الدنيا والتشويق الى الجنة ، غير أن هذا المفهوم لم يلبث أن تطور عند الصوفية بحيث أصبح يعنى الغناء والموسيقى والرقص . =

فمن هذه الحواس الأربع التى مر ذكرها — بدون خامستها وهى السمع — واحدة ترى ، وواحدة تشم ، وواحدة تذوق ، وواحدة تلمس . ويجوز أن تكون رؤية هذا العالم البديع ، وشم الأشياء الطيبة ، وذوق النعم الحلوة ، ولمس الأشياء الناعمة دليلا للعقل الى المعرفة ، وتهديه الى ربه ، لأنه يعرف أن العالم محدث ومحل للتغيير ، ومالا يخلو من الحادث يكون محدثا وله خالق ليس من جنسه ، لأنه مكون وخالقه مكون ، وهو مجسم وخالقه مجسم وهو محدث وخالقه قديم ، وهو متناه وخالقه غير متناه وقادر فى كل الأشياء وعلى جميع الأشياء ، وعالم بجميع المعلومات ، وتصرفه فى الملك جائز ، وهو يقدر على ما يريد من ارسال الرسل بالبراهين الصادقة ، ولكن هذا كله غير واجب عليه حتى لا يصير وجوب المعرفة بالسمع علما له.

وموجب الشرع والدين هو السمع ، ولهذا يفضل أهل السنة السمع على البصر فى دار التكليف . واذا قال مخطىء ان السمع محل الخبر ، والبصر موضع النظر ، ورؤية الله جل جلاله أفضل من سماع كلامه ، فيجب أن يكون البصر أفضل من السمع ، نقول : اننا بالسمع نعلم أن الرؤية سوف تكون فى الجنة ، لأنه فى جواز الرؤية بالعقل لا يكون الحجاب أولى من الكشف ، وبالخبر علمنا أن الله يجعل المؤمنين مكاشفين ، ويرفع الحجاب عن أسرارهم حتى يروا الله عز وجل ، فصار السمع أفضل من البصر .

وجميع أحكام الشريعة أيضا مبنية على السمع ، لأنه لو لم يكن السمع لكان اثباتها وثبوتها محالا . والأنبياء أيضا الذين جاءوا ، صلوات الله عليهم ، تحدثوا أولا حتى آمن من سمعوهم ، ثم أظهروا المعجزة ، وفى رؤية المعجزة تأكيد لما كان بالسمع . وبهذه الدلائل يكون كل من ينكر السماع قد أنكر كل الشريعة ، وأخفى حكمها على نفسه .

= ومن المرجح أن سماع الصوفية كان تطورا طبيعيا لحلقات الذكر ، فقد كان الصوفية يهتمون بالذكر ويحثون المريدين على الانشغال به فى أوقات فراغهم ، والمداومة عليه فى خلواتهم ، ثم تطور هذا اللون من الذكر الفردى الى لون جماعى ، فكانوا يعقدون حلقات الذكر ويرددون خلالها بعض الألفاظ والعبارات الدينية ترديدا موزونا ، ثم لم تلبث هذه العبارات أن تطورت الى نوع من الأناشيد والأغانى الدينية ، وبمرور الوقت استبدلت هذه الأناشيد بالأشعار الغزلية التى ينشدها القوالون فى حلقات السماع على مسمع من الصوفية فيفسرها هؤلاء تفسيرا يتلاءم مع مقاصدهم ، وقد يصحب ذلك العزف على بعض الآلات ، مما يثير الطرب والنشوة فى المستمعين فتتملكهم حال من الوجد ، ويفقدون السيطرة على أجسامهم فتهتز فى حركات تشبه الرقص . وكثيرا ما كانت مجالس السماع تنتهى بالصراخ وتمزيق الخرق (أنظر « أسرار التوحيد » الترجمة ص ١٤٣) .

والآن : أبين أحكام ذلك مستوفاة « ان شاء الله وحده ، وصدق الله وعده » .

باب سماع القرآن وما يتعلق به :

أولى المسموعات للقلب بالفوائد ، وللسر بالزوائد ، وللأذن باللذات : كلام الله عز اسمه . وكل المؤمنين مأمورون ، وكل الكفار مكلفون ، من انس وجن ، بسماع كلام البارى تعالى .

ومن معجزات القرآن أن الطبع لا ينفر من سماعه وقراءته ، لأن فيه رقة عظيمة ، الى حد أن كفار قريش كانوا يجيئون ليلا فى الخفاء ، عندما يكون النبى عليه السلام فى الصلاة ، ويستمعون الى ماكان يقرأ ، ويتعجبون ، مثل النضر بن الحارث الذى كان أفصحهم ، وعتبة بن ربيعة الذى كان يجىء بالسحر فى البلاغة ، وأبى جهل بن هشام(١) الذى نظم الخطب والبراهين وأمثالهم ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سورة ذات ليلة فقعد عتبة الوعى ، وقال أبو جهل : لقد علمت أن هذا ليس من كلام المخلوقات .

وقد أرسل الله تعالى الجن فجاءوا فوجا فوجا وكانوا يسمعون كلام الله تعالى من النبى عليه السلام ، « لقوله تعالى : فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا(٢) » ، ثم أخبرنا عن قول الجن من أن هذا القرآن يهدى القلب المريض الى طريق الصواب ، (فقال) « عز من قائل : يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا(٣) » ، فعظات القرآن أطيب العظات ، ولفظه أوجز من كل الألفاظ ، وأمره الطف من جميع الأوامر ، ونهيه أشد زجرا من جميع النواهى ، ووعده أكثر اجتذابا للقلب من كل الوعود ، ووعيده أشد

---

(١) النضر بن الحارث وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام : من سادة قريش ، كانوا من المطعمين يوم غزوة بدر ، وبعد انتصار المسلمين أمر رسول الله برجلين من الأسرى فضربت أعناقهم ، وكان النضر بن الحارث أحدهما (انظر : المعارف ص ٦٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤) .
(٢) سورة « الجن » آية ١ .
(٣) سورة « الجن » آية ٢ .

صهرا للروح من كل وعيد ، وقصصه أكثر اشباعا من كل القصص ، وأمثاله أفصح من جميع الأمثال ، وقد صاد سماعه آلاف القلوب ، وأغارت لطائفه على آلاف الأرواح ، يذل أعزة الدنيا ويعز أذلتها . وعندما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أخته وصهره أسلما ، قصدهما سالا سيفه ، وتهيأ لقتلهما ، وأخلى قلبه من حبهما ، حتى أكمن الحق تعالى عسكرا من لطفه فى زوايا سورة طه ، والى أن جاء الى باب الدار كانت أخته تقرأ : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى(١) » ، فصارت روحه صيد دقائقها ، وقلبه رهين لطفها ، فسلك طريق الصلح ، وخلع رداء الحرب ، وترك المخالفة الى الموافقة .

والمعروف أنه حين قرأوا أمام النبى عليه السلام : « ان لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما(٢) » وقع مغشيا عليه .

ويقال ان رجلا قرأ أمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ان عذاب ربك لواقع(٣) » فصرخ ، ووقع مغشيا عليه ، فرفعوه وحملوه الى منزله ، وبقى شهرا بأكمله مريضا من وجل وخشية الله عز وجل .

ويقال ان رجلا قرأ أمام عبد الله بن حنظلة : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش(٤) » فغلبه البكاء حتى أن الحاكى ليقول : « ظننت أن الروح فارقته ، ثم نهض واقفا ، فقيل له : اجلس يا أستاذ ، قال : ان هيبة هذه الآية تمنعنى .

ويقال انه قرىء أمام الجنيد رضى الله عنه : « لم تقولون مالا تفعلون(٥) « فقال : يا الهى ! ان قلنا قلنا بك ، وان فعلنا فعلنا بتوفيقك ، فأين القول والفعل » .

ويرد عن الشبلى رضى الله عنه أنه قرىء أمامه : « واذكر ربك اذا نسيت(٦) » ، فقال : شرط الذكر النسيان ، وقد عجز كل أهل العالم فى الذكر ! وصرخ ، وفارقه وعيه ، فلما عاد الى وعيه قال : عجبا للقلب الذى يسمع كلامه ويظل فى مكانه ، وعجبا للروح التى تسمع كلامه ولا تصعد .

---

(١) سورة « طه » آية ١ ، ٢ ، ٣ .
(٢) سورة « المزمل » آية ١٢ ، ١٣ .
(٣) سورة « الطور » آية ٧ .
(٤) سورة « الأعراف » آية ٤١ .
(٥) سورة « الصف » آية ٢ .
(٦) سورة « الكهف » آية ٢٤ .

ويقول واحد من المشايخ : ذات مرة كنت أقرأ قول الله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله(١) » فهتف (بى) هاتف أن اقرأ بصوت منخفض لأن أربعة من الجن ماتوا من هيبة هذه الآية .

وقال واحد من الدراويش : منذ عشر سنوات لم أقرأ من القرآن الا القدر الذى تجوز به الصلاة ، ولم أسمعه . فسألوه : لم ؟ قال : خوفا من أن يكون حجة على .

وذهبت يوما عند الشيخ أبى العباسى الشقانى رضى الله عنه ، وكان يقرأ : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء(٢) » ، وكان يبكى ويصرخ حتى ظننت أنه فارق الدنيا ، فقلت : أيها الشيخ ! ما هذه الحال ؟ قال : منذ أحد عشر عاما وقد وصل وردى الى هنا ، ولا أستطيع أن أتخطى هذا الموضع .

وسئل أبو العباس بن عطاء رضى الله عنه : كم يقرأ الشيخ من القرآن كل يوم ؟ قال : قبل هذا كنت أختم القرآن مرتين كل يوم وليلة ، أما الآن فمنذ أربعة أعوام وصلت اليوم فقط الى سورة الأنفال .

ويقال ان أبا العباس القصاب قال لقارىء : اقرأ : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين(٣) » ، ثم قال : اقرأ « يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة(٤) » ، ثم قال : اقرأ : « قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل(٥) » ثم قال : يا الهى ! اننى فى الجفاء أكثر من اخوة يوسف ، وأنت تفعل معى بكرمك أكثر مما فعله يوسف مع اخوته الجفاة .

ومع كل هذا فان جميع أهل الاسلام من مطيع وعاص مأمورون بالاستماع الى القرآن ، «لقوله تعالى : واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا(٦)» . وقال أيضا : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه(٧) »

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٨١ .
(٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .
(٣) سورة « يوسف » آية ٩٢ .
(٤) سورة « يوسف » آية ٨٨ .
(٥) سورة « يوسف » آية ٧٧ .
(٦) سورة « الأعراف » آية ٢٠٤ .
(٧) سورة « الزمر » آية ١٦ ، ١٧ .

أى : يقومون بأوامره ويسمعونه بالتعظيم . وقال أيضا : « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم(١) » . « وقوله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب(٢) » ، وأمثال هذا كثير من الآيات التى تؤكد حكم هذا . وعلى عكس هذا أيضا ذم الطائفة الذين لم يسمعوا كلام الحق ، ولم يجعلوا له سبيلا من السمع الى القلب : « قوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة(٣) » ، « وقوله تعالى : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير(٤) ، «وقوله تعالى ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه »(٥) « وقوله تعالى : ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون(٦) » . ومثل هذه الآيات كثير فى كتاب الله تعالى .

« وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود : اقرأ ، فقال : أنا اقرأ وعليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحب أن أسمع من غيرى(٧) » . وهذا دليل واضح على أن المستمع اكمل حالا من القارىء لان القارىء اما ان ينطلق عن حال او عن غير حال ، والمستمع لا يسمع الا بحال ، لأن فى النطق نوع من التكبر ، وفى الاستماع نوع من التواضع .

وقال النبى عليه السلام أيضا : « شيبتنى سورة هود(٨) » ، ويقال ان سبب ذلك أنه جاء فى تلك السورة هذه الآية : « فاستقم كما أمرت(٩) » ، والانسان عاجز عن الاستقامة فى أمور الحق ، لأن العبد لا يستطيع أن يفعل شيئا بغير توفيق الحق ، فلما قال : « فاستقم كما أمرت » تحير ، فقال : كيف يكون هذا وأنا لا أستطيع القيام بحكم هذا الأمر ؟ وذهبت قوته من تألم

---

(١) سورة « الأنفال » آية ٢ .
(٢) سورة « الرعد » آية ٢٨ .
(٣) سورة « البقرة » آية ٧ .
(٤) سورة « الملك » آية ١٠ .
(٥) سورة « الأنعام » آية ٢٥ .
(٦) سورة « الأنفال » آية ٢١ .
(٧) ورد فى اللمع (انظر ص ٣٥٢) .
(٨) ورد فى اللمع : « شيبتنى هود وأخواتها » (انظر ص ٣٥٢) .
(٩) سورة « هود » آية ١١٢ .

قلبه ، وازداد الما على الم ، حتى أنه ذات يوم نهض فى بيته وقد وضع يديه على الأرض وتقوى بهما ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ما هذا يا رسول الله ، وانت شاب وصحيح الجسد ؟ فقال : « شيبتنى سورة هود » .

« روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه (قال) : كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وأن بعضهم يستر بعضا من العرى ، وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته — فقال — فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا ، فلما رآه القارىء سكت ، قال : فسلم ، وقال : ماذا كنتم تصنعون ؟ قلنا يا رسول الله كان قارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته ، فقال النبى عليه السلام : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم — قال — ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا — ثم قال بيده هكذا — فتحلق القوم ، فلم يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم (أحد)(١) ، قال : وكانوا ضعفاء المهاجرين . فقال النبى عليه السلام : ابشروا صعاليك المهاجرين بالفوز التام ، يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم كان مقداره خمسمائة عام(٢) » . وهذا الخبر يروى بعدة روايات مختلفة ، أما الاختلاف ففى العبارة ، والمعنى كله صحيح .

فصل : وكان زرارة بن أوفى من كبار الصحابة رضى الله عنهم ، وكان يؤم الناس فقرأ آية وصرخ وأسلم الروح(٣) .

وكان أبو جهير من كبار التابعين ، فقرأ صالح المرى آية ، فخرجت منه شهقة وفارق الدنيا(٤) .

ويروى ابراهيم النخعى رحمه الله قائلا : كنت أسير فى قرية من قرى الكوفة ، فرأيت عجوزا واقفة فى الصلاة وآثار الخير ظاهرة عليها ، فلما انتهت من الصلاة تقدمت اليها بحكم التبرك وسلمت عليها ، فقالت لى : أتعرف القرآن قلت : نعم ، قالت : اقرأ آية ، فقرأت ، فصاحت صيحة وبعثت بروحها لاستقبال رؤية الحق .

---

(١) فى المتن : (أحدا) وفى الحاشية (أحد) ومعنى هذه العبارة فى الترجمة الفارسية لهذا الحديث : فلم يكن أحد بيننا يعرف النبى عليه السلام منهم .

(٢) ورد فى اللمع : رواه الترمذى والبزاز عن أبى سعيد (أنظر اللمع ص ٣٥٢) .

(٣ ، ٤) وردا فى اللمع (أنظر ص ٣٥٤) .

ويروى أحمد بن أبى الحوارى قائلا : رأيت فى البادية شابا يرتدى مرقعة خشنة ، واقفا عند راس بئر ، فقال لى : يا أحمد ! لقد جئت فى الوقت الذى يلزمنى فيه السماع ، فالى أن أسلم الروح اقرأ على آية . فأجرى الحق تعالى على لسانى الآية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا(١) » فقال: يا أحمد ! ورب الكعبة ان هذا الذى قرأته هذه الساعة كان يقرؤه على ملك. وأسلم الروح فى الحال .

واذا ذكرت جميع الحكايات التى تتصل بهذا الباب لعجزت عن المقصود .

باب سماع الشعر وما يتعلق به :

سماع الشعر فى الجملة مباح ، والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه ، والصحابة رضوان الله عليهم قالوه وسمعوه . (وقد) « قال النبى عليه السلام : ان من الشعر لحكمة(٢) ، والحكمة ضالة المؤمن(٣) من حيث وجدها فهو أحق بها » . « وقوله عليه السلام : أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد(٤) :

الا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل(٥)

« وروى عمر بن الشريد عن أبيه رحمهما الله « أنه قال : استنشدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تروى من شعر أمية بن أبى الصلت(٦) شيئا ؟ فأنشدته مائة قافية كلما مررت على بيت قال : هيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاد أن يسلم فى شعره » .

---

(١) سورة « الأحقاف » آية ١٣ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس : « ان من البيان سحرا ، وان من الشعر حكما (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦٨) .

(٣) « الحكمة ضالة المؤمن » (ثعلبى : شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٢٣) .

(٤) لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب ، الشاعر : قدم فى وفد بنى كلاب على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلموا ورجعوا الى بلادهم ، ولم يقل بعد الاسلام شعرا . ثم قدم الكوفة وبنوه ، ورجع بنوه وأقام لبيد الى أن مات بها فدفن فى صحراء بنى جعفر بن كلاب وكانت وفاته ليلة نزل معاوية النخيلة (المعارف ص ١٤٤) .

(٥) رواه البيهقى وابن ماجه عن أبى هريرة : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد .. الخ (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧٠) .

(٦) أمية بن أبى الصلت : كان أمية قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان ، وكان يخبر بأن نبيا يبعث ، فلما سمع بخروج النبى صلى الله عليه وسلم كفر حسدا له . ولما أنشد الرسول شعره قال عليه السلام : آمن لسانه وكفر قلبه (المعارف ص ٢٨) ، وللخطيب : « آمن شعر أمية ابن أبى الصلت وكفر قلبه (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٨٠) .

وقد وردت عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة روايات كثيرة مثل هذه . وقال عمر رضى الله عنه : لقد أخطأ الناس كثيرا فى هذا ، فقالت طائفة ان سماع الأشعار كلها حرام وهم يغتابون المسلمين ليل نهار . وطائفة أخرى أحلته كله ويستمعون الى الغزل ووصف الطرة والخال ليل نهار ، ويورد كل منهم على الآخر حججا وبراهين . وليس مرادى هو أثبات ذلك .

أما حجة مشايخ المتصوفة فى هذا الطريق فهى أن الرسول عليه السلام سئل عن الشعر فقال صلى الله عليه وسلم : « كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح » . يعنى أن كل ما يكون سماعه حراما مثل الغيبة والبهتان والفواحش وذم أحد وكلمة الكفر فهو حرام كله نظما ونثرا ، وكل ما يكون سماعه حلالا فى النثر ، مثل الحكمة والمواعظ والاستدلال فى آيات الله ، والنظر فى شواهد الحق يكون حلالا فى النظم أيضا .

وفى الجملة ، فكما أن النظر فى الجمال الذى يكون موضع الآفة ولمسه محظورا يكون حراما ، فان سماع وصفه يكون حراما على هذا الوجه . ومن يقل بأن هذا حلال مطلق ، فيجب أن يحل أيضا النظر واللمس ، وعندئذ يكون ذلك زندقة . ومن يقل اننى أسمع الحق وأطلبه فى العين والوجه والخد والطرة والخال ، فيجب عليه أن ينظر الى شىء آخر ويرى الخد والخال ويقول اننى أرى الحق وأطلبه (فى ذلك) ، لأن العين والأذن محل العبرة ومنبع العلم ، فيجب أن يقول هذا أيضا بالنسبة لشىء آخر ، فيقول اننى ألمس ذلك الشخص الذى يجيز الآخر سماع صفته ، وأطلب الحق فى ذلك ، فليست حاسة بأولى من حاسة لادراك المعنى ، وعندئذ تبطل كل الشريعة ، ويرتفع حكم قوله عليه السلام : « العينان تزنيان(١) » ، وينقطع اللوم عن لمس غير المحارم ، وتسقط الحدود الشرعية ، وهذه ضلالة .

ولما رأى جهلة المتصوفة ، المستغرقين من المستمعين الذين كانوا يسمعون بالحال ، ظنوا أنهم يسمعون بالنفس فقالوا : أن (السماع) حلال ، ولو لم يكن حلالا لما فعلوه ، وأخذوا بتقليد الظاهر وتركوا الحقيقة ، فأهلكوا أنفسهم وأهلكوا قوما آخرين من الجهلة . وهذا من آفات الزمان ، وسأشرحه فى مكانه بالتمام ان شاء الله عز وجل .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود (الجامع الصغير ج ٢ ص ١١٧) .

باب سماع الأصوات والألحان :

« قوله عليه السلام : زينوا أصواتكم بالقرآن » ، وفى رواية أخرى : « زينوا القرآن بالصوت الحسن(١) » و « قوله تعالى : يزيد فى الخلق ما يشاء (٢) » . وقال المفسرون انه الصوت الحسن .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن يسمع صوت داود فليسمع صوت أبى موسى الأشعرى(٣) » .

ومشهور فى الأخبار أن لأهل الجنة سماعا فى الجنة ، وذلك بأن يصدر عن كل شجرة صوت ولحن مختلف ، وحين تتآلف تلك الأصوت يكون للطبائع فيها لذة عظيمة . وهذا النوع من السماع عام فى الخلق من الآدمى وغيره من الأحياء بحكم ان الروح لطيفة ، وفى الأصوات لطافة ، فحين تسمع يميل الجنس الى الجنس . وهذا الذى ذكرته قول طائفة .

وللأطباء ومن يدعون التحقيق من أهل الخبرة كلام كثير فى هذا ، وعملوا كتبا فى تأليف الألحان وعظموها ، وآثار صنعتهم اليوم ظاهرة فى المزامير التى أعدوها لقوة الهوى وطلب اللهو بحكم الشيطان ، الى حد أنه يقال ان اسحاق الموصلى كان يغنى فى بستان وكان بلبل يشدو ، فصمت من اللذة وأخذ يستمع حتى سقط عن الشجرة ميتا . وقد سمعت حكايات من هذا النوع ولكن مرادى غير هذا . ويقال ان كل راحات الطبائع من تأليف وتركيب الأصوات والألحان .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان عن البراء ، وزاد عليه الحاكم : « فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٥) .

(٢) سورة « فاطر » آية ١ .

(٣) أبو موسى الاشعرى : هو عبد الله بن قيس ، من الأشعريين من اليمن وقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأشعريين فأسلموا ، وأول مشاهده خيبر . وكان حسن الصوت بالقرآن وتوفى سنة اثنتين وخمسين ، ويقال اثنتين وأربعين (المعارف ص ١١٥) . وورد فى اللمع أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد أعطى أبو موسى مزمارا من مزامير آل داود ، لما أعطى من حسن الصوت . (اللمع ص ٣٣٨) .

يقول ابراهيم الخواص رضى الله عنه : وصلت ذات مرة الى حى من أحياء العرب ، ونزلت بدار ضيافة أمير من أمراء الحى ، فرأيت أسودا مغلولا ، مطروحا على باب الخيمة فى الشمس ، فأشفقت عليه ، وعزمت على أن أشفع له لدى الأمير . فلما جىء بالطعام لاكرام الضيف ، جاء الأمير ليأكل معى ، فلما قصد الطعام أبيت — وليس أشد على العرب من أن لا يأكل شخص طعامهم — فقال لى : أيها الشاب ! ما يمنعك عن طعامى ؟ قلت : أملى فى كرمك . قال : كل أملاكى لك ، فكل . قلت : لا حاجة لى بملكك ، ولكن هبنى هذا الغلام . قال : سل أولا عن جرمه ثم فك قيده ، فحكمك سار على كل شىء مادمت فى ضيافتنا . قلت : قل لى لأرى ما جرمه ؟ قال : اعلم أن هذا الغلام حاد وله صوت جميل ، وقد أرسلته مع عدد من الابل الى ضياعى ليحضر لنا غلة ، فذهب وحمل كل جمل حملين ، وكان يحدو فى الطريق والابل تسرع حتى وصلت الى هنا فى مدة قصيرة أقل مرتين مما أمرت به ، وعندما أنزلوا الأحمال عن الابل هلكت كلها فرادى ومثنى . قال ابراهيم : فتعجبت كثيرا وقلت : أيها الأمير، ان شرفك يجعلك لا تقول غير الصدق ، ولكن يلزمنى البرهان على هذا القول . وبينما كنا فى هذا الكلام جىء بعدد من الابل الى حافة البئر لتسقى، وسأل الامير : كم يوما لم تشرب هذه الابل ؟ قالوا : ثلاثة أيام . فأمر الغلام ، فحدا ، فانشغلت الابل بصوته وسماعه ولم تمد الى الماء فاها ، حتى شردت فجأة واحدة واحدة وتفرقت فى البادية ، ففك الغلام ووهبه لى(١) .

ونحن نرى بعض هذا فى مشاهداتنا ، فحين يترنم الجمال والمكارى يظهر الطرب على الجمل والحمار . وفى خراسان والعراق عادة هى أن الصيادين يصطادون الغزلان ليلا ، فيدقون على الطشوت لتسمع أصواتها الغزلان وتقف فى مكانها فيمسكونها .

ومشهور فى الهند أن جماعة يخرجون الى الصحراء ويغنون وينشدون ، وحين تسمع الغزلان الغناء تقصدهم ، فيدورون حول الغزلان ويغنون حتى تغمض أعينها من اللذة وتنام فيمسكونها .

وهذا الحكم ظاهر أيضا فى الأطفال الصغار ، فعندما يبكون فى المهد ويغنى لهم أحد يصمتون ويستمعون اليه ، ويقول الأطباء عن هذا الطفل ان حسه سليم ، وسيكون ذكيا فى الكبر . ومن ذلك أن واحدا من ملوك العجم حضرته

(١) أورد السراج هذه الحكاية وذكر أنه سمعها من الدقى بدمشق ، حكاها له عن نفسه (انظر اللمع ص ٣٤٠ — ٣٤١) .

الوفاة ، وترك ولدا عمره سنتان ، وقال الوزراء : يجب اجلاسه على العرش ، وتدبروا الأمر مع « بزرجمهر(١) » فقال : هذا صواب ، ولكن يجب تجربته لنرى ما اذا كان حسه سليما ويمكن الرجاء فيه . فقالوا : وما التدبير ؟ فأمر فأخذوا يغنون ، فطرب (الطفل) فى هذه الأثناء وأخذ يضرب بيديه ورجليه ، فقال بزرجمهر : يرجى منه فى الملك(٢) .

وتأثير الأصوات لدى العقلاء أظهر من أن يحتاج اظهاره الى برهان . وكل من يقول : لا تطيب لى الألحان والأصوات والمزامير ، فاما أنه يكذب، أو ينافق ، واما أنه فاقد الحس وخارج عن كل الناس والدواب .

وامتناع طائفة عن السماع سببه أنهم يراعون أمر الله . والفقهاء متفقون على أن السماع مباح حين لا تكون هناك أدوات ملاه ، ولا يظهر منه فسق فى القلب . والآثار والأخبار فى هذا كثيرة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كانت عندى جارية تغنى ، فاستأذن عمر ، فلما سمعت حسه فرت ، فلما دخل عمر تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، قال : كانت عندنا جارية تغنى فلما سمعت حسك فرت ، فقال عمر : لا أبرح حتى أسمع ما كان سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارية فأخذت تغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع(٣) » .

(١) بزرجمهر : ذكر اسمه فى الشاهنامة (بوزرجمهر) وفى كليلة ودمنه (بزرجمهر بن البختكان) وهو مترجم كتاب كليلة ودمنه من الهندية الى البهلوية . كان بارعا فى تعبير الرؤيا ، وصار حكيم القصر فى عهد كسرى أنوشيروان ومستشاره ووزيره . وهو الذى عرف سر لعبة الشطرنج التى وضعها الهنود ، وابتكر لعبة النرد فأعيا فهمها حكماء الهند . يعزى اليه كثير من الحكم والأقوال المأثورة . وقد غضب عليه كسرى فى أخريات أيامه وعذبه ثم عاد ورضى عنه فدخل على الملك مكفوف البصر ، فحزن كسرى على ما فرط منه فى حق حكيمة ووزيره (القصة فى الأدب الفارسى : الدكتور أمين عبد المجيد بدوى القاهرة ١٩٦٣ ص ٣١١) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة (أنظر ج ٢ ص ٦٥٧) .

(٣) ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل بيت عائشة رضى الله عنها فوجد عندها جاريتين تغنيان وتضربان بالدف ، فلم ينههما عن ذلك ، وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حين غضب وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : دعهما يا عمر فان لكل قوم عيدا (اللمع ص ٣٤٥) .

وقد روى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا . وقد جمع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ذلك كله فى كتاب السماع وقطع اباحته . وليس مراد مشايخ المتصوفة من السماع غير هذا ، لأنه يجب ان تكون فى الأعمال فوائد لأن طلب الاباحة شأن العوام والدواب ، ويلزم للعباد المكلفين أن يطلبوا الفائدة من العمل .

حين كنت بمرو قال لى أحد أئمة الحديث ، وكان من أشهرهم ، لقد ألفت كتابا فى اباحة السماع . فقلت : انها لأكبر مصيبة ظهرت فى الدين أن أحل السيد الامام لهوا هو أصل كل أنواع الفسق . فقال لى : اذا كنت لا تراه حلالا فلماذا تفعله ؟ قلت : ان حكمه على وجوه ، ولا يمكن القطع بواحد منها ، فاذا كان تأثيره فى القلب حلالا فان سماعه حلال ، واذا كان حراما فهو حرام ، واذا كان مباحا فهو مباح . والشىء الذى يكون حكم ظاهره فسقا وباطن حاله على وجوه ، اطلاقه بشىء واحد محال . والله أعلم بالصواب .

باب أحكام السماع :

اعلم أن للسماع فى الطباع أحكاما مختلفة ، كما أن الرغبات فى القلوب مختلفة . ومن الظلم أن يقطع فيه أحد بناء على حكم واحد . وجملة المستمعين فريقان : أحدهما يسمع المعنى ، والآخر يسمع الصوت ، وفى كلا هذين الأصلين فوائد وآفات كثيرة ، لأن سماع الأصوات الحلوة تهييج للمعانى المركبة فى الناس ، فان تكن حقا فحق ، أو باطلا فباطل ، فالشخص الذى يكون طبعه الفساد يكون كل ما يسمعه فسادا .

ويرد هذا كله فى حكايات داود عليه السلام ، اذ أنه عندما استخلفه الله وهبه صوتا حسنا ، وصير حلقه مزامير ، وجعل الجبال رسائله ، الى حد أن الوحوش والطيور كانت تجىء من الجبال والصحارى لسماعه ، ويتوقف الماء ، ويسقط الطير من الهواء . وورد فى الآثار أن الخلق فى تلك الصحراء لم يأكلوا شيئا لمدة شهر ، وكف الأطفال عن البكاء ولم يرضعوا . وحينما رجع الخلق من هنالك كان كثير من الناس قد ماتوا من لذة كلامه ولحنه ، الى حد أنه يقال ان سبعمائة جارية عذراء متن دفعة واحدة(١) .

---

(١) ورد فى اللمع قول السراج : ان داود عليه السلام قد أعطى من حسن الصوت حتى كان يستمع لقراءته اذا قرأ الزبور ، الجن والانس والوحش والطير . وكان بنو اسرائيل يجتمعون فيستمعون ، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات (اللمع ص ٣٣٨) .

وعندما أراد الحق تعالى أن يفصل بين من يستمع الى الصوت ويتابع الطبع وبين أهل الحق مستمعى الحقيقة ، ترك ابليس لهواه وحيلته ومكره حتى صنع الناى والطنبور ، وعقد مجلسه فى مقابل مجلس داود عليه السلام حتى أن من كانوا يستمعون الى صوت داود انقسموا الى طائفتين : احداهما من كانوا أهل الشقاوة ، والثانية من كانوا أهل السعادة ، وانشغلت الطائفة الأولى بمزامير ابليس ، وبقيت الطائفة الثانية تستمع الى صوت داود . ثم ان من كانوا من أهل المعنى لم يكن أمام قلوبهم صوت داود أو غير داود ، لأنهم كانوا يرون الكل الحق ، فاذا سمعوا مزامير الشيطان كانوا يرون الحق فى تلك الفتنة ، واذا سمعوا صوت داود رأوا الحق فى تلك الهداية ، فتركوا الكل ، وأعرضوا عن متعلقات الدنيا ، ورأوا الكل على ما هو عليه : الصواب بالصواب ، والخطأ بالخطأ . ومن يكن سماعه من هذا النوع يكن كل ما يسمعه حلالا له .

وقالت طائفة من المدعين ان السماع يقع لنا على غير ما هو ، وهذا محال لأن كمال الولاية هو أن ترى الشىء كما هو حتى تكون الرؤية صحيحة . واذا رأيته على خلاف ذلك ، لا تكون الرؤية صحيحة : ألم تر أن النبى عليه السلام قال : « اللهم أرنا الأشياء كما هى » ، واذا صحت الرؤية ، فان الأشياء التى تراها تكون على الصفة التى لها ، فالسماع الصحيح أيضا أن تسمع كل شىء كما هو فى نعته .

وحكم من يفتنون فى المزامير ويقارنون الهوى واللهو سببه أنهم يسمعون ما يسمعون على خلاف ما هو ، فلو أنهم كانوا يسمعون وفقا لأحكام السماع لتخلصوا من كل الافات : ألم تر أن أهل الضلالة سمعوا كلام الله تعالى فازدادوا ضلالة على ضلالتهم ، كما قال النضر بن الحارث : « هذا أساطير الأولين » . وقال عبد الله بن سعد بن أبى السرح(١) الذى كان كاتب الوحى : « فتبارك الله أحسن الخالقين(٢) » ، وجعل فريق قوله (تعالى) :

---

(١) عبد الله بن سعد بن أبى السرح : كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيملى عليه النبى صلى الله عليه وسلم : « عزيز حكيم » ، فيكتب : « غفور رحيم » ، وفيه نزلت (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) فنذر النبى دمه يوم فتح مكة ، وكان أخا عثمان من الرضاعة فجاء به عثمان الى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يزل به حتى أمنه واستعمله عثمان على مصر ، وهو الذى فتح أفريقية ، وأبوه سعد من المنافقين (المعارف ص ١٣١) .

(٢) سورة « المؤمنون » آية ١٤ .

« لا تدركه الأبصار(١) » دليلا لنفى الرؤية ، وجعل فريق آخر قوله (تعالى) : « ثم استوى على العرش(٢) » اثباتا للمكان والجهة ، وجعل فريق قوله (تعالى) : « وجاء ربك والملك صفا (٣) » دليلا على المجيء ، فلما كانت قلوبهم محلا للضلالة ، لم يفدهم سماع كلام رب العزة شيئا . وأيضا نظر الموحدون فى شعر الشاعر فرأوا خالق طبعه وصاقل خاطره وأعتبروا الفعل دليلا على الفاعل ، حتى ظل الفريق الأول فى الحق ، واهتدى الفريق الثانى فى الباطل . وانكار هذه المعانى مكابرة فى العيان .

فصل : وللمشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى كلمات لطيفة أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب ، ولكنى أثبت ما يمكن اثباته فى هذا الفصل لتكون الفائدة أتم ، والله أعلم .

يقول ذو النون رحمه الله : « السماع : وارد حق يزعج القلوب الى الله، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بنفس تزندق(٤) » . وليس المراد من هذا انه يجب أن يكون السماع علة لوصل الحق ، انما المراد أن المستمع بحق يسمع المعنى لا الصوت ، ويكون قلبه محل وارد الحق ، فعندما يصل هذا المعنى الى القلب فانه يزعج القلب ، فمن يكن فيه متابعا للحق يصر محققا ، ومن يكن فيه متابعا للنفس يكن محجوبا ويتعلق بالتأويل، وعندئذ تكون ثمرة ذلك السماع : الكشف ، وثمرة هذا السماع : الستر .

وأما كلمة الزندقة فهى فارسية معربة وتؤول بلغة العجم بـ « زند » ، ولهذا السبب فانهم يسمون كتابهم الـ « زند » والـ « بازند »(٥) ، ولما

---

(١) سورة « الأنعام » آية ١٠٣ .
(٢) سورة « الأعراف » آية ٥٤ .
(٣) سورة « الفجر » آية ٢٢ .
(٤) ورد بنصه فى اللمع (أنظر ص ٣٤٢) .
(٥) الكتاب المقدس للزرادشتيين اسمه : « أوستا » أو الابستاق ، ولهذا الكتاب تفسير يسمى « زند » ، ولهذا التفسير تفسير آخر يسمى « بازند » ، وللبازند شرح يسمى « ايارده » (أنظر : القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٩ ، ٣٦ — ٣٨) .

أراد أهل اللغة أن يسموا أبناء المجوس الذين مع « بابك » و « افشين » سموهم الزنادقة ، لأنهم كانوا يقولون ان لكل شىء يقوله المسلمون تأويلا يناقض ظاهر حكمه . والتنزيل هو الدخول فى الديانة ، والتأويل هو الانسلاخ عنها . والان يقول بقيتهم — وهم شيعة مصر — عين هذا ، فكان مراد ذى النون رضى الله عنه من هذا أن أهل التحقيق يصيرون محققين فى السماع ، وأهل الهوى يكونون مؤولين لأنهم يؤولونه تأويلا بعيدا ، ويقعون بذلك فى الفسق .

ويقول الشبلى رضى الله عنه : « السماع ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة ، والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية(١) » : أى أن كل من لا يكون قلبه مستغرقا بكليته فى حديث الحق يكون السماع بلاء له ومحل آفته .

ويقول أبو على الروذ بارى رحمه الله فى جوابه على سؤال رجل سأله عن السماع : « ليتنا تخلصنا منه رأسا برأس » . لأن الآدمى عاجز فى قضاء حق جميع الأشياء ، واذا ترك العبد حق شىء ، رأى تقصيره ، واذا رأى تقصيره تمنى أن ينجو .

ويقول واحد من المشايخ رحمه الله : « السماع تنبيه الأسرار لما فيها من المغيبات » ، لتكون بذلك حاضرة دائما بالحق ، اذ أن غيبة الأسرار أذم أوصاف الأدعياء ، لأن الحبيب وان يكن غائبا عن الحبيب فهو حاضر معه بقلبه ، فاذا جاءت غيبة القلب ارتفعت المحبة .

ويقول شيخى رضى الله عنه : « السماع زاد المضطرين ، فمن وصل استغنى عن السماع » . لان حكم السمع يكون معزولا فى محل الوصل، اذ يلزم السمع للخبر ، والخبر يكون عن الغائب ، فاذا صارت المعاينة تلاشى السماع .

ويقول الحصرى رحمه الله : « ايش أعمل بالسماع ينقطع اذا انقطع من يسمع منه ؟ ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع(٢) » . وقد عبر بهذا عن اجتماع الهمة فى روضة المحبة ، لأن العبد حين يصل الى تلك الدرجة يصير العالم كله سماعا له من حجر ومدر . وهذه درجة كبرى « والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب » .

---

(١) ورد بنصه فى اللمع (أنظر ص ٣٤٢) .
(٢) ورد بنصه فى اللمع (أنظر ص ٣٤٣) .

باب اختلافهم فى السماع :

اختلف المشايخ والمحققون فى السماع ، فقالت طائفة انه آلة الغيبة واستدلوا بأن السماع يكون محالا فى المشاهدة ؟ اذ أن الحبيب فى محل وصل الحبيب يكون مستغنيا عن السماع فى حال النظر اليه ، لأن السماع خبر ، والخبر فى محل العيان بعد وحجاب وشغل ، (وعلى هذا) فهو آلة المبتدئين ليجتمعوا به من تشتت الغفلة ، فالمجتمع به يتفرق لا محالة.

وقالت جماعة أخرى ان السماع آلة الحضور ، لأن المحبة تقتضى الكيلة ، وما لم يكن كل المحب مستغرقا فى المحبوب يكون ناقصا فى المحبه ، فكما أن المحبة نصيب القلب فى حال الوصل ، والمشاهدة نصيب السر ، والوصل نصيب الروح ، والخدمة نصيب الجسد فيجب أن يكون للأذن نصيب أيضا كما أن للعين نصيب من الرؤية . وما أحسن ما قال الشاعر فى محل الهزل :

(شعر عربى)

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولاتسقنى سرا اذا أمكن الجهر

ويقولون ان السماع آلة الحضور لأن الغائب نفسه غائب ، والغائب يكون منكرا ، والمنكر لا يكون أهلا لذلك . والسماع على نوعين : الأول بواسطة ، والثانى بلا واسطة ، فما يسمعه من القارىء فهو آلة الغيبة ، وما يسمعه من البارىء فهو آلة الحضور . ومن ذلك قال واحد من الشيوخ : أنا لا أجعل المخلوقات فى المحل الذى أسمع فيه كلامهم أو أروى حديثهم . والله أعلم .

باب مراتبهم فى حقيقة السماع :

أعلم أن لكل منهم فى السماع مرتبة ، وتكون أذواقهم على قدر مراتبهم ، فكل ما يسمعه التائب مثلا يصير له مددا للحسرة والندم ، وللمشتاق مادة للشوق والرؤية ، وللمؤمن تأكيدا لليقين ، وللمريد تحقيقا للبيان ، وللمحب باعث انقطاع العلائق ، وللفقير أساسا لليأس من الكل .

ومثال أصل السماع كالشمس التى تسقط على كل الأشياء ، ويكون لكل شىء ذوق ومشرب منها على قدر مرتبته ، فتحرق واحدا ، وتضىء واحدا وتدلل واحدا ، وتصهر واحدا . وكل هذه الطوائف التى ذكرتها على ثلاث مراتب فى التحقيق ، أولها : المبتدئون ، وثانيها : المتوسطون ، وثالثها :

الكاملون . وسأجىء بفصل فى شرح حال كل منهم فى السماع ليكون أقرب الى فهمك .

فصل : اعلم أن السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجسد من الهزل واللهو . ولا يكون طبع المبتدىء قابلا لحديث الحق بأى حال . وبورود ذلك المعنى الربانى يكون للطبع انقلاب وحرقة وقهر ، فجماعة تفقد الوعى فى السماع ، وجماعة تهلك ، ولا يوجد أحد الا ويخرج طبعه عن حد الاعتدال (فى السماع) .

ولهذا برهان ظاهر ومعروف ، اذ أنهم فى بلاد الروم صنعوا شيئا عجيبا جدا فى أحدى المستشفيات ، يسمونه : « أنجليون(١) » — وكل شىء تكون فيه عجائب كثيرة يسميه اليونانيون بهذا الاسم ، فيسمون الصحف مثلا : أنجليون ، وكتاب مانى(٢) أيضا ، وما شابه ذلك . وليس المراد من هذا اظهار حكم ذلك — وذلك الشىء على شكل عود من الأعواد ، ويحملون المرضى الى هنالك يومين فى كل أسبوع ، ويأمرون بالعزف عليه ، ويسمعون المريض صوته على قدر علته ، ثم يخرجونه من هنالك . وحين يريدون اهلاك شخص يحتفظون به هنالك وقتا أطول حتى يهلك . والآجال فى الحقيقة مكتوبة ، ولكن للموت أسبابا ، والأطباء يسمعونه دائما ولا يؤثر فيهم قط لأنه موافق لطباعهم ومخالف لطبع المبتدئين .

ورأيت فى الهند أن دودة كانت قد ظهرت فى السم القاتل ، وكانت حياتها بهذا السم لأنه كان كل كليتها .

ورأيت فى مدينة بالتركستان(٣) على حدود البلاد الاسلامية أن النار كانت

---

(١) انجليون : معرب انكليون الفارسى . ولها عدة معان : فهى حينا بمعنى الانجيل ، وتارة بمعنى كتاب مانى النقاش ، وآونة بمعنى الديباج الذى يظهر فيه سبعة ألوان متموجة ، والحرباءة التى تتلون كل آونة بلون .

(٢) مانى : صاحب الديانة المانوية . ظهر فى عهد سابور بن اردشير ، وادعى النبوة ، ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية . كان بارعا فى الرسم والتصوير ، وقتل فى عهد بهرام بن هرمز (أنظر تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٠ ، ٥٣) .

(٣) تركستان : اسم جامع لبلاد الترك (معجم البلدان ج ١ ص ٨٣٨) .

قد اشتغلت فى جبل وكان يحترق ، "نوشادر يفور من أحجاره ، وكان فى تلك النار فأر ، كان يهلك اذا خرج ن النار .

والمراد من هذا كله غير هذا ، هو أن اضطراب المبتدىء عند حلول وارد الحق تعالى سببه أن حسه مخالف له ، وحين يتواتر هذا فيه ، يسكن : أما رأيت أنه حين جاء جبريل فى البداية لم تكن للنبى عليه السلام طاقة برؤيته ، وحين وصل الى النهاية كان يضيق صدره اذا تأخر لحظة ؟ ولهذا شواهد كثيرة ، وهذه الحكايات دليل على اضطراب المبتدئين ، وبرهان أيضا على سكون المنتهين فى السماع .

ومعروف أنه كان للجنيد مريد كان يضطرب كثيرا فى السماع ، وكان ينشغل به الدراويش ، فشكوه الى الشيخ رضى الله عنه فقال له : اذا اضطربت بعد هذا فى السماع فلا أصحبك أنا أيضا . ويقول أبو محمد الجريرى : كنت أنظر اليه فى سماع وكان قد أطبق شفتيه وصمت حتى انفتحت عين من كل شعرة فى جسده ، وفقد وعيه ، وظل يوما فاقد الوعى(١) . فلا أدرى أكان أصح فى السماع ، أو أن حرمة الشيخ كانت على قلبه أقوى ؟ .

ويقال ان مريدا صرخ صرخة فى السماع فقال له الشيخ : اسكت ، فوضع رأسه على ركبته ، وحين نظروا كان قد مات .

وسمعت الشيخ أبا مسلم بن غالب الفارسى رضى الله عنه يقول : كان درويش يضطرب فى السماع ، فوضع واحد يده على رأسه ان : اجلس ، فما ان جلس حتى فارق الدنيا .

ويقول الجنيد رضى الله عنه : رأيت درويشا أسلم الروح فى السماع .

---

(١) حكاها السراج عن أبى عمرو عبد الواحد بن علوان ، قال : كان شاب يصحب الجنيد ، فكان اذا سمع شيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى ، قال : فربما كان يتكلم الجنيد رحمه الله فى شىء من العلم ، فيتغير ، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرة من الماء . وقال : وحكى لى أبو عمرو أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه (اللمع ص ٣٥٨ ، الرسالة جـ ٢ ص ٦٥١) .

ويروى الدقى(١) عن الدراج أنه قال : كنت أنا وابن الفوطى نسير على شاطىء دجلة بين البصرة والأبلة(٢) ، فوصلنا الى قصر كان قد جلس على بابه رجل وسيم ، وجارية جالسة اليه تغنيه وتقول :

(شعر عربى)

فى سبيل الله ود ... كان منى لك يبذل
كل يوم تتلون ... غير هذا بك أجمل

ورأيت شابا واقفا الى جوار حائط القصر ، يرتدى مرقعة ويحمل ركوة ، فقال : يا جارية ! استحلفك بالله أن تعيدى هذا البيت ، اذ لم يبق من حياتى أكثر من نفس ، لعل روحى تصعد بسماع هذا البيت . فأعادته الجارية مرة ثانية ، فصرخ وفارقته الروح . وقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة ، ونزل هو وانشغل بتجهيز الشاب ، وصلى عليه كل أهل البصرة ، وقام الرجل وقال : يا أهل البصرة ! أنا فلان بن فلان ، قد جعلت كل أملاكى فى سبيل الله ، وحررت مماليكى . وذهب من هنالك ، ولم يعرف أحد خبره(٣) .

وفائدة هذه الأحاديث والحكايات هى أنه يلزم للمريد فى غلبة السماع أحوال عديدة ليمنع سماعه الفاسقين من الفسق ، وفى زماننا هذا يذهب فريق من الضالين لسماع الفاسقين ، ويقولون نحن نسمع من الحق ، والفاسقون بسبب موافقة هؤلاء لهم يصيرون أكثر حرصا على السماع والفسق والفجور ، فيهلكون أنفسهم ويهلكونهم .

وسئل الجنيد رضى الله عنه : هل يجوز أن نذهب الى الكنيسة على

---

(١) الدقى : أبو بكر محمد بن داود الدينورى . كان من أقران أبى على الروذبارى وعمر فوق مائة سنة . أقام بالشام ، وصحب أبا عبد الله بن الجلاء وأبا بكر الزقاق الكبير وأبا بكر المصرى . مات بدمشق بعد الخمسين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٤٨ ، الرسالة جـ ١ ص ١٦٩ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٠) .

(٢) الأبله : بلدة قديمة كانت على أربعة فراسخ من البصرة ، وهى اليوم جزء منها (طبقات الصوفية ص ٦٢) .

(٣) وردت هذه الحكاية فى اللمع مع تقديم البيت الثانى على الأول (انظر ص ٣٥٨ — ٣٥٩) . ووردت فى الرسالة كما جاء هنا فى النص ونسبت خطأ الى « الرقى » (انظر الرسالة جـ ٢ ص ٦٥٣) .

سبيل الاعتبار ولا يكون مرادنا فى هذا الا أن نرى ذل الكفار ، ونشكر الله على نعمة الاسلام ؟ قال : اذا استطعتم أن تذهبوا بحيث أنكم حين تخرجون تستطيعون أن تهدوا جماعة منهم فاذهبوا ، والا فلا .

فاذا ذهب رجل الصومعة الى الحانات تصير الحانات صومعته ، واذا ذهب رجل الحانات الى الصومعة تصير الصومعة حانة له .

ويقول واحد من كبار المشايخ : سمعت مع درويش فى بغداد صوت مغن كان يغنى .

(شعر عربى)

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى
والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

فصرخ ذلك الدرويش وفارق الدنيا .

ومثل هذا ، يقول أبو على الرودبارى رضى الله عنه : رأيت درويشا كان قد شغل بغناء مغن ، فاصغيت أنا أيضا لأرى ما يقول ، فكان ذلك المغنى يقول بصوت حزين :

« أمد كفى بالخضوع الى الذى جاد بالصنيع »

فصرخ الدرويش ووقع ، فلما اقتربت منه وجدته ميتا .

ويقول قائل كنت أسير مع ابراهيم الخواص رحمه الله فى طريق ، فظهر طرب فى قلبى ، فغنيت هذا الشعر :

(شعر عربى)

صح عند الناس انى عاشق غير أن لم يعلموا عشقى لمن
ليس فى الانسان شىء حسن الا وأحسن منه صوت حسن

فقال لى : أعد هذا الشعر ، فأعدته ، فضرب الأرض عدة ضربات من الوجد ، فلما نظرت كانت أقدامه تغوص فى الحجر كما لو كانت تغوص فى شمع ، ثم وقع مغشيا عليه . فلما أفاق قال لى : كنت فى روضة الجنة وأنت لم تر .

ومن هذا الجنس حكايات أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب .

وقد رأيت معاينة درويشا كان يسير فى جبال أذربيجان ، ويقول هذه الأبيات متعجلا :

(شعر عربى)

والله ما طلعت شمس ولا غربت الا وأنت منى قلبى ووسواسى
ولا تنفست محزونا ولا فرحا الا وذكرك مقرون بأنفاسى

ولا جلست الى قوم أحدثهم الا وأنت حديثى بين جلاسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش الا رأيت خيالا منك فى الكاس

وتغير من السماع ا وأسند ظهره الى حجر ، وأسلم الروح .

فصل : وقد كره جماعة من المشايخ قراءة القرآن بالألحان ، وسماع القصائد والأشعار بحيث تتجاوز الحروف حدودها ، واحترزوا وغالوا فى ذلك ، وهم على عدة طوائف ، ولكل منهم علة تخالف الأخرى .

فطائفة منهم من وجدوا روايات فى تحريم ذلك ، وتابعوا السلف الصالح فى ذلك وقلدوهم ، مثل زجر الرسول عليه السلام لشيرين جارية حسان ابن ثابت عن الغناء . وضرب عمر رضى الله عنه مران الصحابى بالدرة لأنه كان يغنى . وانكار على ، رضى الله عنه ، على معاوية أنه كان لديه جوار مغنيات ، ومنعه الحسن رضى الله عنه من رؤية تلك المراة الحبشية التى كانت تغنى ، وكان يقول انها قرين للشيطان ، ومثل هذا . ويقولون أيضا ان هذا أكبر دليل لنا على كراهية الغناء ، وقد كان الغناء مكروها فى زماننا وقبلنا باجماع الأمة .

وطائفة على أنه حرام مطلق ، ويروون فى هذا المعنى عن أبى الحارث البنانى أنه قال : كنت مجدا فى السماع ، وذات ليلة جاء شخص الى صومعتى وقال : ان جماعة من طلاب حضرة الله تعالى مجتمعون وينتظرون حضورك ، فهلا تفضلت وشققت على نفسك ؟ قال : فخرجت ، وكنت أسير اثره . ولم يمض كثير حتى وصلت الى جماعة كانوا قد تحلقوا وجلس فى وسطهم شيخ ، فأكرمونى فوق الغاية ، وقال الشيخ : هل تأذنون بأن ينشدوا شعرا ؟ فأجبته ، فأخذ شخصان يغنيان بألحان جميلة أشعارا مما قاله الشعراء فى الفراق ، وقد نهضوا جميعا يتواجدون ، وكانوا يصيحون صيخات جميلة ويشيرون اشارات لطيفة ، وبقيت متعجبا من حالهم وطيب وقتهم حتى دنا الصباح ، وعندئذ قال لى ذلك الشيخ . أيها الشيخ ! ألا تسأل من أنا ، ومن هؤلاء ؟ قلت : حشمتك تمنعنى من السؤال ، فقال — لعنه الله — انه ابليس وان هؤلاء جميعا أولاده ، وأن له فى هذه الجلسات والأغانى فائدتين ، (قال)احداهما : أنى أندب فيه مصيبة الفراق وأيام دولتى ، والثانية: أنى أضل العباد وأوقعهم فى الغلط . ويقول أبو الحارث : منذ ذلك الوقت انتفت ارادة السماع من قلبى ، وخجلت من ذلك الغبن العظيم .

وأنا على بن عثمان الجلابى سمعت من الشيخ أبى العباس الشقانى رحمه الله قوله : كنت يوما فى مجمع فيه أناس يقيمون السماع ، فرأيت الشياطين

يرقصون عراة بينهم ، وبقيت فى عجب من حالهم اذ كانوا ينفخون وهم يزدادون حرارة بذلك .

وقد امتنعت جماعة أخرى عن السماع خوفا من الخطر على المريدين حتى لا يقعوا فى البلاء والبطالة ، ولا يقلدوهم ، ولا يعودوا من التوبة الى المعصية ، ولا يقوى الهوى فيهم ، ولا يفسخ الهوى عزيمة صلاحهم ، لأنه معرض البلاء وأصل الفتنة . ولم يجلسوا بينهم .

ويرد عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال للجريرى فى حال ابتداء توبته : اذا أردت سلامة الدين ورعاية التوبة لا تنكر السماع الذى يقيمه الصوفية ، ولا تر نفسك أهلا له ما دمت شابا ، واذا صرت شيخا فلا تؤثم الناس .

وقالت جماعة أخرى ان أهل السماع فريقان : أحدهما لاه ، والآخر الهى ، فاللاهى يكون فى عين الفتنة ولا يخشاها ، والالهى يكون قد أبعد عن نفسه الفتنة بالرياضات والمجاهدات وانقطاع القلب عن المخلوقات ، واعراض السر عن المكونات وأمن من ذلك . وبما أننا لسنا من هذا الفريق ولا من أولئك فالافضل لنا تركه ، والأولى بنا الانشغال بشىء يوافق وقتنا .

وقالت طائفة أخرى : بما أن للعوام فى السماع فتنة ، ويتشوش اعتقاد الناس بسماعنا وهم محجوبون عن درجتنا فيه فيأثمون بنا ، فنحن نشفق على العامة ، وننصح الخاصة ، ونكف عن ذلك غيرة على الوقت . وهذه طريق محمودة .

وقالت طائفة ان النبى عليه السلام قال : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه(١) » ، فنكف يدنا عن شىء لنا عنه مندوحة ، لأن الانشغال بما لا يعنى تضييع للوقت ، ووقت الأحباب مع الأحباب عزيز جدا ، ويجب الا يضيع .

وقالت طائفة أخرى من الخواص : أن السماع خبر ، ولذته ادراك المراد ، وهذا شأن الصغار ، فأى قدر للخبر فى العيان بعد المشاهدة ؟ .

هذه هى أحكام السماع التى ذكرتها على سبيل الاختصار . والآن فلأذكر بابا فى الوجد والوجود والتواجد ، وأرتبه ان شاء الله العزيز وحده .

---

(١) « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » : حديث حسن رواه الترمذى فى كتاب الزهد ج ٤ ص ٥٥٨ .

باب الوجد والوجود والتواجد ومراتبه :

اعلم أن الوجد والوجود مصدران : أحدهما بمعنى الحزن ، والثانى بمعنى الوجد ، وفعل كلاهما كأنه واحد ، ولا يمكن التفرقة بينهما الا بالمصدر ، كما يقال : وجد يجد وجودا ووجدانا : اذا صار محزونا ، وأيضا : وجد يجد جدة : اذا صار غنيا ، ووجد يجد موجدة : اذا غضب . والفرق بين هذه كلها يكون بالمصادر لا بالأفعال .

ومراد هذه الطائفة من الوجد(١) والوجود اثبات حالين يظهران لهما فى السماع ، أحدهما مقرون بالحزن ، والآخر موصول بالوجد والمراد .

وحقيقة الحزن : فقد المحبوب ، ومنع المراد ، وحقيقة الوجد : حصول المراد . والفرق بين الحزن والوجد هو أن الحزن اسم الغم الذى يكون فى نصيب النفس ، والوجد اسم الغم الذى يكون فى نصيب الغير على وجه المحبة . وتغيير هذا جملة صفة الطالب « والحق لا يتغير » .

ولا تدخل كيفية الوجد تحت العبارة لأنها ألم فى المغايبة ، ولا يمكن بيان الألم بالقلم ، فالوجد سر بين الطالب والمطلوب يكون بيانه فى كشف تلك الغيبة ، ولا تصح العلامة والاشارة الى كيفية الوجود ، لأنه طرب فى المشاهدة ، ولا يمكن ادراك الطرب بالطلب ، فالوجود فضل من المحبوب الى المحب ، والاشارة معزولة عن حقيقته .

وعندى أن الوجد الم للقلب ، اما من الفرح أو الترح أو الطرب أو التعب . والوجود ازالة غم عن القلب ومصادقته لمراده .

وصفة الواجد : اما حركة فى غليان الشوق فى حال الحجاب ، واما سكون فى حال المشاهدة فى حال الكشف : « اما زفير واما نفير ، اما أنين واما حنين ، اما عيش واما طيش ، اما كرب واما طرب » .

---

(١) الوجد : عرفه الغزالى بأنه حال تتوسط السماع والرقص ، فالسماع يثمر فى القلب حالة تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف اما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، واما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص (احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٣٧) .
ويقول أبو الحسن النورى : « الوجد لهيب ينشأ فى الأسرار ، ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عند ذلك الوارد » . وانشدوا للجنيد :

الوجد يطرب من فى الوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقود
قد كان يطربنى وجدى فأشغلنى ... عن رؤية الوجد ما فى الوجد موجود
(التعرف ص ١١٣)

والمشايخ مختلفون : هل الوجد أتم أو الوجود ؟ فقالت طائفة : ان الوجود صفة المريدين ، والوجد نعت العارفين ، ولما كانت درجة العارفين أعلى من درجة المريدين فيجب أن تكون صفة هؤلاء أكمل من أولئك ، لأن كل ما جاء تحت الادراك ، يكون مدركا ، وهذا صفة الجنس ، لأن الادراك يقتضى الحد ، والله تعالى ليس له حد ، فما يجده العبد ليس الا مشربا ، وما لم يجده الطالب وانقطع فيه ، وعجز عن طلبه الواجد ، فهو حقيقة الحق .

وتقول طائفة : ان الوجد هو حرقة المريدين ، والوجود تحفة المحبين ، ودرجة المحبين أعلى من درجة المريدين ، لأن السكون مع التحفة أتم من الحرقة فى الطلب . وهذا المعنى لا ينكشف الا بحكاية ، وهى : أن الشيخ أبا بكر الشبلى رحمه الله جاء ذات يوم فى غليان حاله الى الجنيد رضى الله عنه فوجده محزونا ، فسأله : أيها الشيخ ! ماذا حدث ؟ فقال الجنيد رضى الله عنه : « من طلب وجد » ، فقال (الشبلى) : « لا ، بل من وجد طلب » وعندئذ تكلم المشايخ فى هذا فقالوا ان أحدهما أشار الى الوجد والآخر أشار الى الوجود .

وعندى أن قول الجنيد رضى الله عنه هو المعتبر ، لأنه متىّ عرف العبد ان معبوده ليس من جنسه يطول حزنه . وقد سبق الكلام فى هذا المعنى فى هذا الكتاب .

والمشايخ رضى الله عنهم متفقون على أن سلطان العلم أقوى من سلطان الوجد ، لأنه حين تكون القوة لسطان الوجد يكون الواجد فى محل الخطر ، وحين تكون القوة لسلطان العلم يكون فى محل الأمن . والمراد من هذا كله أنه يجب فى جميع الأحوال أن يكون الطالب متابعا للعلم والشرع لأنه عندما يغلب بالوجد يرتفع عنه الخطاب ، واذا ارتفع الخطاب ارتفع الثواب والعقاب ، واذا ارتفع الثواب والعقاب ترتفع الكرامة والاهانة ، وعندئذ يكون حكمه حكم المجانين ، لا حكم الاولياء والمقربين . وحين يغلب سلطان العلم على سلطان الحال يكون العبد فى كنف الأوامر والنواهى ، ويكون مشكورا دائما فى ستره . وأيضا حين يغلب سلطان الحال على سلطان العلم ، يكون العبد خارجا عن الحدود ومحروما من الخطاب ، ويكون فى محل نقصه اما معذورا ، واما مغرورا .

ويعين هذا المعنى قول الجنيد رضى الله عنه حيث قال : طريق الحبيب اما بالعلم أو بالسلوك ، والسلوك بلا علم وان يكن حسنا فهو جهل ونقص ، واذا كان العلم مع السلوك ، فهو عز وشرف . ولهذا قال أبو يزيد رضى

الله عنه : « كفر أهل الهمة أشرف من اسلام أهل المنية » . ولا يقع الكفران على أهل الهمة ، أما اذا قدر ذلك فان أهل الهمة مع الكفر يكونون أكمل من أهل المنية مع الايمان .

وقال الجنيد عن الشبلى رحمهما الله : « الشبلى سكران ولو أفاق لجاء منه امام ينتفع به(١) » .

ومشهور فى الحكايات أن الجنيد ومحمد بن مسروق وأبا العباس بن عطاء رضى الله عنهم كانوا مجتمعين ، فأنشد القوال شعرا ، فكانا يتواجدان وهو (الجنيد) ساكن ، فقالا له : أيها الشيخ ! أليس لك نصيب من هذا السماع ؟ فقرأ قوله تعالى : « تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب(٢) » .

أما التواجد فهو التكلف فى اتيان الوجد ، وذلك عرض لانعدام الحق وشواهده على القلب ، والتفكير فى الاتصال والتمنى مسلك الرجال . وفريق فيه مترسمون ، فقد قلدوا حركاتهم الظاهرة ، وترتيب رقصهم ، وتزيين اشاراتهم وهذا حرام محض . وفريق محققون ومرادهم فى ذلك طلب أحوال ودرجات كبار المتصوفة لا حركاتهم ورسومهم ، لقوله عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم » . وهذا الخبر ناطق باباحة التواجد ، ومن ذلك أن قال أحد الشيوخ رضى الله عنهم : أسير ألف فرسخ بالكذب لتكون منها قدم واحدة صادقة .

والكلام يطول فى هذا الباب أكثر من هذا ، ولكنى اقتصرت على هذا ، والسلام .

باب الرقص :

أعلم أنه ليس للرقص(٣) أصل فى الشريعة والطريقة ، لأنه باتفاق جميع

---

(١) ورد فى اللمع (أنظر ص ٣٨٢) .
(٢) سورة « النمل » آية ٨٨ .
أشير فى اللمع الى أنه قيل للجنيد : كنت تسمع هذه القصائد وتحضر مع أصحابك فى أوقات السماع وكنت تتحرك ، والآن فأنت هكذا ساكن الصفة ، فقرأ عليهم الآية وفسر السراج ذلك بقوله : كأنه كان يعنى أنكم تنظرون الى سكون جوارحى وهدوء ظاهرى ولا تدرون أين أنا بقلبى . وعقب على هذا بأنه صفة من صفات أهل الكمال فى السماع . (اللمع ص ٣٦٦ — ٣٦٧) .
(٣) الصوفية مختلفون فى الرقص ، فمنهم من أباحه ، ومنهم من رأى فيه بدعة ونهى عنه . وقد أباحه أبو عبد الرحمن السلمى استنادا الى ما ورد عن =

العقلاء لهو حين يكون جدا ، ولغو حين يكون هزلا . ولم يمدحه أحد من المشايخ ، ولم يقل فيه ،وكل أثر يدخله فيه أهل الحشو باطل كله . ولما كانت حركات الوجد ومعاملات أهل التواجد شبيهة بالرقص ، فقد قلدهم فى ذلك جماعة من أهل الهزل ، وغالوا فى ذلك وجعلوا منه مذهبا . وقد رأيت جماعة من العوام كانوا يظنون أن مذهب التصوف ليس الا هذا فاتبعوه ، وجماعة أنكروا أصله .

=بعض الصحابة من أنهم حركوا أرجلهم فيما يشبه الرقص ، من ذلك ماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه : « أنت منى وأنا منك » فحجل على ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » فحجل زيد . كذلك أحل الغزالى الرقص قائلا : لو كان الرقص حراما لما نظرت عائشة رضى الله عنها الى الحبشة مع رسول الله وهم يزفنون (احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٦٧) . وظاهرة الرقص تبدو واضحة فى التصوف الفارسى ، فقد كان أبو سعيد بن أبى الخير مولعا بالسماع والرقص وكان يرى فى الرقص رياضة من الرياضات التى تساعد المريدين والمبتدئين على التخلص من شهوة الجسد . (اسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣٧) . وكان الرقص طابعا مميزا لفرقة المولوية المنسوبة الى مولانا جلال الدين الرومى ، فقد كان المولوية يقيمون طريقتهم على الوجد والسماع والرقص وقراءة الأشعار حتى انهم يعرفون عند الأوروبيين بالدراويش الراقصين (تاريخ الأدب فى ايران : براون ج ٢ الترجمة العربية ص ٦٥٧) .

وقد نفى ابن الجوزى أن يعد الزفن والحجل رقصا ، لأنهما نوع من المشى وضرب الأرض بالقدم ، وهو ما يفعله الانسان العادى فى حال الفرح ، أما رقص الصوفية فهو لا يتناسب مع وقار الشيوخ ، يقول : « وهل يزرى بالعقل والوقار ويخرج عن سمت الحلم والأدب أقبح من ذى لحية يرقص ؟ فكيف اذا كان شيبة ترقص على قاع الألحان والقضبان ؟ (تلبيس ابليس ص ٢٥٩) . كذلك رأى السهروردى فى الرقص عملا لا يليق بالشيوخ ومن يقتدى بهم ، لما فيه من مشابهة للهو ، واللهو لا يليق بمنصبهم . (عوارف المعارف ص ١٣٠) .

ولأبى العلاء المعرى بيتان يعيب فيهما رقص الصوفية ، يقول فيهما :

أرى جيل التصوف شر جيل
فقل لهو واهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه
كلوا أكل البهائم وارقصوا لى

وجملة القول : ان الرقص قبيح شرعا وعقلا من أجهل الناس ، ومحال أن يفعله أفضل الناس ، ولكن حين تظهر فى القلب خفة وتتسلط الخفقات على الرأس ، يقوى الوقت ، فيضطرب الحال ، ويرتفع الترتيب والرسوم . وذلك الاضطراب الذى يظهر لا يكون رقصا ولا دبيبا بالقدم ، ولا تربية للطبع ، بل هو صهر للروح ، والشخص الذى يسمى هذا رقصا يبعد كثيرا عن الصواب ، وأبعد منه الشخص الذى لا تأتيه من الحق حال بلا اختياره ويحاول أن يجذبها اليه بالحركة ، ويسميها حالا من الحق ، فتلك الحال التى ترد من الحق شىء لا يمكن بيانه بالنطق ، « ومن لم يذق لا يدرى » .

النظر فى الأحداث :

فى الجملة : النظر فى الأحداث(١) وصحبتهم محظوران ، ومن يجز ذلك فهو كافر ، وكل أثر يؤتى به فى هذا يكون بطالة وجهالة . وقد رأيت جماعة من الجهال أنكروا على أهل الطريقة بتهمة ذلك ، ورأيت أنهم جعلوا من هذا مذهبا . وقد أعتبر المشايخ كلهم هذا آفة ، وقد بقى هذا الأثر من الحلوليين — لعنهم الله — بين أولياء الله والمتصوفة .

باب الخرق :

أعلم أن تخريق الثياب بين هذه الطائفة أمر معتاد ، وقد فعلوا هذا فى المجامع الكبرى التى كان المشايخ الكبار رضى الله عنهم حاضرين فيها .

ورأيت من العلماء طائفة أنكروا ذلك وقالوا انه لا يجوز تمزيق الثوب

---

(١) ظهرت هذه الآفة فى بعض الأوساط الصوفية ، وقد حذر القشيرى من الوقوع فيها ، وعدها من أصعب الآفات فى الطريقة ، وقال أن من ابتلاه الله بشىء من ذلك فهو باجماع الشيوخ عبد أهانه الله عز وجل وخذله .
ويقول الحصرى : سمعت فتحا الموصلى يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدون من الأبدال ، كلهم أوصونى عند فراقى اياهم ، وقالوا لى : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم . (الرسالة ج ٢ ص ٧٤٤ — ٧٤٥) .

السليم ، وأن ذلك فساد(١) . وهذا محال ، فالفساد المراد منه الصلاح سهل ، وكل الناس أيضا يقصون الثياب السليمة ويخيطونها ، كما هو معهود . ولا يوجد فرق بين من يمزق الثوب الى مائة قطعة ويخيطها فى بعضها البعض ، وبين من يمزقونه الى خمس قطع ويخيطون فى كل قطعة منها راحة قلب مؤمن ، وقضاء حاجة من حاجاته .

ومهما يكن ، فان تخريق الثوب لا أصل له فى الطريقة ، ولا يجوز عمله البتة فى السماع فى حال الصحة لأن ذلك لا يكون الا اسرافا . ولكن اذا غلب المستمع على أمره بحيث يرتفع عنه الخطاب ويصير غافلا فانه يكون معذورا ، أو حين يقع ذلك لأحد ، اذا خرقت جماعة الثياب موافقة له ، ويكون ذلك فى حال السماع بحكم الغلبة ، وهذا على نوعين :

أحدهما : ان الجماعة والأصحاب يخرقون ثوبه بحكم شيخ أو قدوة ، أو فى حال الاستغفار من جرم .

والثانى : فى حال السكر من وجد .

وأصعب هذا كله خرقة السماع ، وهى على نوعين : واحدة مجروحة ، والأخرى صحيحة .

ويشترط للثوب المجروح شيئان : اما أن تخيطه الجماعة وترده لصاحبه ، واما أن تعطيه لدرويش آخر ، أو تمزقه قطعة قطعة ويقسموه للتبرك .

---

(١) عاب ابن الجوزى على الصوفية تمزيق الثياب السليمة وعد ذلك نوعا من الفساد والخروج عن الشرع . وقد سئل ابن عقيل عن تواجد الصوفية وتمزيقهم الثياب ، فقال : خطأ وحرام ، والرسول نهى عن اضاعة المال وشق الجيوب (تلبيس ابليس ص ٢٦٠) . أما الغزالى فهو لا يرى بأسا فى ذلك ويعده شيئا مباحا لأن الثوب اذا قطع قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، والكرباس (نسيج قطنى غليظ) يمزق حتى يخاط منه القميص ولا يكون ذلك اتلافا أو تضييعا لأنه تمزق لغرض ، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن الا بالقطع الصغار ، وذلك مقصود . والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح . (احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨) .

ولكن حين يكون (الثوب) صحيحا ، فلننظر لنرى ماذا كان مراد ذلك الدرويش المستمع الذى رمى بثوبه ؟ فاذا كان مراده القوال ، فهو له . واذا كان مراده الجماعة ، فهو لهم . واذا وقع بغير مراده ، فمرجع ذلك لحكم الشيخ ليأمر بما يرى .

فاذا كان للدرويش فى ذلك مراد أيا كان ، فانه لا يشترط أن يكون (ذلك) عن طريق موافقة الجماعة ، لأنه فى أى حال يكون،سواء كان مريداأومضطرا فانه ليس للآخرين فيه أى موافقة .

ولكن اذا كان مراد الدرويش الجماعة ، أو أنه انخلع عنه بدون مراده ، فيشترط موافقة الأصحاب مع بعضهم البعض ، ولا يصح (التصرف فيه) بدون موافقة الجميع . واذا اتفق الجماعة على شىء فلا يجوز للشيخ أن يعطى للقوال ثياب الدراويش . ولكن يجوز اذا ضحى أحد محبيهم شيئا ورد الثوب للدراويش ، أو يمزق كله ويقسم .

واذا كان الثوب قد وقع فى حال الغلبة فالمشايخ فى هذا مختلفون : يقول أكثرهم انه للقوال ، وفقا لقول النبى عليه السلام : « من قتل قتيلا فله سلبه(١) » ، واذا لم يعطوه للقوال فانهم يخرجون بذلك عن شرط الطريقة .

ويقول جماعة ان الأمر يكون للشيخ . ورأيى هو هذا ، فكما أن هنالك فى مذهب بعض الفقهاء لا يجوز اعطاء ثوب المقتول للقاتل الا باذن الامام ، فانه هنا لا يجوز اعطاء الثوب للقوال الا بأمر الشيخ . واذا أراد الشيخ أن لا يعطيه للقوال فلا جرح عليه ، « والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب » .

باب آداب السماع :

اعلم أن شرط آداب السماع هو أن لا تفعله ما لم يأت ، ولا تجعله عادة ، وتفعله على فترات متباعدة حتى لا يزول تعظيمه من قلبك . ويجب عندما تمارسه أن يكون هنالك شيخ حاضرا ، وأن يكون مكان السماع خاليا من العوام ، والقوال محترما ، وأن يكون القلب خاليا من الأشغال ، والطبع نفورا من اللهو ، وقد ارتفع التكلف .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن أبى قتادة ، وأحمد وأبو داود عن أنس ، وأحمد وابن ماجه عن سمره : « من قتل كافرا فله سلبه » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٠٩) .

وما لم تظهر قوة السماع فلا يشترط أن يبالغ فيه ، فاذا قوى فلا يشترط أن تدفعه عن نفسك ، وتابع الوقت على ما يقتضى ، فاذا حركك فتحرك ، واذا سكنك فاسكن . ويجب أن تفرق بين قوة الطبع وحرقة الوجد .

ويجب أن يكون للمستمع من الرؤية ما يجعله يستطيع أن يتقبل وارد الحق ، وأن يوفيه حقه . واذا أظهر سلطانه على القلب فلا يدفعه عن نفسه بالتكلف ، واذا قلت قوته لا يجذبه بالتكلف .

ويجب أن لا يرجو مساعدة أحد فى حال الحركة ، واذا ساعده أحد لا يمنعه . ولا يتدخل فى سماع أحد ، ولا يشوش وقته ، ولا يتصرف فى حاله، ولا يزنه بنيته ، لأن فى ذلك كثير من عدم البركة .

واذا أحسن القوال الانشاد لا يقول له : أحسنت ، واذا أساء الانشاد واخل الوزن وخالف الطبع لا يقول له : أنشد خيرا من هذا ، ولا يضمر له الخصومة ، ولا ينظر اليه ، ويحيله الى الحق ، ويسمع سماعا صحيحا .

واذا استولى السماع على جماعة ولم يكن له منه نصيب ، فينظر الى سكرهم بصحوه فيجب أن يكون محتاجا الى الوقت ويمكن لسلطان الوقت لتصل اليه بركاته .

وأنا على بن عثمان الجلابى أفضل ألا يترك المبتدئون للسماع حتى لا تضطرب طباعهم ، وفى ذلك أخطار عظيمة وآفة كبرى ، لأن النساء ينظرن الى الدراويش من سطح أو مكان ، فى حال سماعهم ، ويقع من هذا للمستمعين حجب صعبة .

ويجب الا يكون بينهم أحد من الأحداث ، من بعد أن جعل جهال المتصوفة هذا كله مذهبا ، واضاعوا بذلك صدق المعنى . وأنا أستغفر الله مما جرى على من أجناس الآفات ، والاستهانة فى المعاملات ، وأطلب العون من الله تبارك وتعالى ليطهر ظاهرى وباطنى من الآفات .

وأوصيك أنت وقراء هذا الكتاب برعاية أحكام هذا الكتاب ، « وبالله العون والتوفيق ، والجمع والتفريق وحسبنا الله ونعم الرفيق ، وصلى الله على محمد وآله أجمعين وسلم تسليما كثيرا » .

(ب) فهرس اسماء الأشخاص والأنساب والقبائل ... الخ

(جـ) كشاف اسماء الاماكن

(د) فهرس الكتب الواردة فى متن كشف المحجوب

(هـ) فهرس الطوائف والفرق والمذاهب والملل والنحل

(و) ثبت بأسماء المراجع

(ز) الخطأ والصواب

فهـــرس محتويات الجـــزء الثانى

صفحة

الباب الرابع عشر : باب فى الفرق بين فرقهم ومذاهبهم ومقاماتهم وحـــكاياتهم ٤٠٣

الفرقة الأولى : المحاســـبية ٤٠٤

الكلام فى حقيقة الرضا ٤٠٤

فصل فيما قيـــل فى الرضـــا ٤٠٦

الفرق بين المقـــام والحال ٤٠٨

الفرقة الثانية : القصـــارية ٤١٢

الفرقة الثالثة : الطيفـــورية ٤١٣

الكلام فى السكر والصحو ٤١٤

الفرقة الرابعة : الجنيـــدية ٤١٩

الفرقة الخامسة : النـــورية ٤٢٠

الكلام فى حقيقـــة الايثار ٤٢٠

الفرقة السادسة : الســـهلية ٤٢٦

الكلام فى حقيقة النفس ومعنى الهوى ٤٢٧

فصل فى أقوال المشـــايخ فى النفس ٤٣٠

الكلام فى مجـــاهدة النفس ٤٣١

الكلام فى حقيقـــة الهـــوى ٤٣٨

الفرقة السابعة : الحكيميـــة ٤٤٢

الكلام فى اثبـــات الولاية ٤٤٢

فصل فى الأولياء ومراتبهم ٤٤٦

فصل فى رموز المشايخ فى الولى ٤٥١

الكلام فى اثبات الكرامات ٤٥٣

الكلام فى الفرق بين المعجزات والكرامات ٤٥٥

الكلام فى اظهار جنس المعجزة على يدى من يدعى الالهية . . . ٤٥٨

الكلام فى ذكر كراماتهم ٤٦٤

الكلام فى تفضيل الأنبياء على الأولياء ٤٧٤

الكلام فى تفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة ٤٧٧

الفرقة الثامنة : الخـــرازية ٤٨٠

الكلام فى الفناء والبقـــاء ٤٨٠

فصل فى رموز المشايخ فى الفناء والبقاء ٤٨٥

صفحة

الفرقة التاسعة : الخفيفيـــة ٤٨٨
الكلام فى الغيبة والحضور ٤٨٩
الفرقة العاشرة : الســـيارية ٤٩٣
الكلام فى الجمع والتفـــرقة ٤٩٣
فصـــل فى الجمـــع والتفـــرقة ٤٩٧
الفرقتان الحادية عشرة والثانية عشر : الحلولية ٥٠١
الـــكلام فى الروح ٥٠٢
فصل فى أقوال المشـــايخ فى الروح ٥٠٧
كشف الحجاب الأول : فى معرفة الله تعالى ٥٠٩
فصـــل فى المعـــرفة ٥١٠
فصل فى رموز المشايخ فى المعرفة ٥١٦
كشف الحجاب الثانى : فى التوحيـــد ٥١٩
فصل فى أقوال المشايخ فى التوحيد ٥٢١
كشف الحجاب الثالث : فى الايمان ٥٢٧
فصـــل فى الايمـــان ٥٢٨
كشف الحجاب الرابع : فى الطهارة ٥٣٢
باب التوبة وما يتعلق بهـــا ٥٣٥
فصل فى التوبة ٥٤٠
فصل فى أقوال المشايخ فى التوبة ٥٤١
كشف الحجاب الخامس : فى الصـــلاة ٥٤٢
فصل فى كلام المشايخ فى الصلاة ٥٤٣
باب المحبـــة وما يتعلق بهـــا ٥٤٧
فصـــل فى المحبـــة ٥٥٠
كيفية المحبة من الله تعالى الى أوليائه ومن أوليائه الى حضرته . . . ٥٥٠
فصل فى أقوال المشايخ فى المحبـــة ٥٥١
فصل فى العشق ٥٥٣
فصل فى رموز المشايخ ٥٥٤
كشف الحجاب السادس : فى الزكاة ٥٥٧
فصل فى أخذ الزكاة ٥٥٩
باب الجـــود والســـخاء ٥٥٩
كشف الحجاب السابع : فى الصوم ٥٦٤
باب الجـــوع وما يتعلق به ٥٦٩
كشف الحجاب الثامن : فى الحج ٥٧٢
باب المشـــاهدة ٥٧٥

صفحة

كشف الحجاب التاسع : فى الصحبة مع آدابها وأحكامها ٥٨٠
باب الصحبة وما يتعلق بهـــا ٥٨٢
باب آدابهم فى الصحبة ٥٨٤
فصل فى آداب الصحبة ٥٨٧
باب آداب الاقامة فى الصحبة ٥٨٨
باب الصحبة فى السفر وآدابه ٥٩١
باب آدابهم فى الأكل ٥٩٢
باب آدابهم فى المشى ٥٩٥
باب نومهم فى الســـفر والحضر ٥٩٦
باب آدابهم فى الكلام والسكوت ٥٩٩
باب آدابهم فى السؤال وتركه ٦٠٣
باب آدابهم فى التزويج والتجريد ٦٠٦
كشف الحجاب العاشرة فى بيان منطقهم وحـــدود الفاظهم وحقـــائق معـــانيهم ٦١٣
الحال والوقت والفرق بينهمـــا ٦١٣
المقام والتمكين والفـــرق بينهما ٦١٦
المحاضرة والمكاشـــفة والفرق بينهما ٦١٨
القبض والبسط والفرق بينهما ٦١٩
الأنس والهيبة والفرق بينهما ٦٢٠
القهر واللطف والفـــرق بينهما ٦٢٢
النفى والاثبات والفـــرق بينهما ٦٢٣
المسامرة والمحادثة والفرق بينهما ٦٢٤
علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والفرق بينهمـــا ٦٢٥
العلم والمعرفة والفرق بينهما ٦٢٦
الشريعة والحقيقة والفـــرق بينهما ٦٢٦
نوع آخر من العبارات التى تقبل الاستعارة ٦٢٧
نوع آخر من العبارات التى تحتاج الى شرح ٦٣١
كشف الحجاب الحادى عشر : فى السماع وبيان أنواعه ٦٣٨
باب سماع القرآن وما يتعلق به ٦٤٠
فصل فى سماع القـــرآن ٦٤٤
باب سماع الشـــعر وما يتعلق به ٦٤٥
باب سماع الأصـــوات والألحـــان ٦٤٧
باب أحـــكام الســـماع ٦٥٠
فصل فى أقوال المشـــايخ فى السماع ٦٥٢

صفحة
باب اختلافهم فى السماع ٦٥٤
باب مراتبهم فى حقيقة السماع ٦٥٤
فصل فى شرح حال كل منهم فى السماع ٦٥٥
فصل فى رأى المشايخ فى السماع ٦٥٩
باب الوجد والوجود والتواجد ومراتبه ٦٦١
باب الرقص ٦٦٣
النظر فى الأحداث ٦٦٥
باب الخرق ٦٦٥
باب آداب السماع ٦٦٧
الفهارس والكشافات . . . . . .

الكشافات

اعداد

محمد محمد فهمى أبو بكر

المفهرس بدار الكتب والوثائق القومية

ملاحظات :

[هذه الكشافات مرتبة ترتيبا أبجديا باعتبار الكلمات مجردة من أداة التعريف « الـ » ومن كلمة ابن متى توسطت بين اسمين ، واذا وضعت شرطة بين رقمين فمعناها « الى » وعلامة = بمعنى انظر] .

فهـــرس أسماء الأشخاص

والأنساب والقبائل

(آ)

آدم ٢٦٠ ، ٣٢٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤١٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٠٣ ، ٥٧٠ ، ٥٩٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٦
آدم ميتز ١٠٣
الآدمى ـــ أبو العباس = أحمد بن سهل
آصف بن برحيا ٤٦٤ ، ٤٦٥

(أ)

ابراهيم ٢٣٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٧٥ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٩٣ ، ٥٠٣ ، ٥١٥ ، ٥٧٣ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ ، ٥٧٢ ـــ ٥٧٤ ، ٥٨٨ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٨
ابراهيم بن أحمـــد ، الخـــواص ـــ أبو اسحق ١٣٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٦٠٨ ، ٦٤٨ ، ٦٥٨
ابراهيم بن ادهم ، أبو اسحق ١٣٢ ، ٢٠٥ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٤٥٢ ، ٤٦٩ ، ٥٢٧ ، ٥٦٧
ابراهيم أمين الشواربى
ابراهيم بن داود ، الرقى ١٦٨ ، ٤٧١
ابراهيم بن سعد العلوى ٦١٩
ابراهيم السمرقندى ٣٦٠
ابراهيم بن شيبان ٣٥٩ ، ٤٨٦
ابراهيم الغزنوى ٧ ، ٨٨
ابراهيم المارستانى ٣٦١
ابراهيم بن محمد الاسفراينى ٤٤٩
ابراهيم بن محمـــد بن محمـــوية ، النصرابادى ـــ أبو القاسم ١٣٣ ، ١٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٧
ابراهيم بن مسعود ١٥ ، ٢٠
ابراهيم النخعى ٦٤٤
ابن الأثير ٢٣
ابن حاتم الطائى ٥٦٠
ابن خلكان ٢٤
ابن ســـينا ٢٢
ابن شمعون ـــ أبو الحسن = محمد بن أحمـــد
ابن عباس ٢٨٥ ، ٤٣٨ ، ٥٧٧ ، ٥٩٦
ابن العـــربى ٧١
ابن عطاء ـــ أبو العباس = سهل بن محمد
ابن العلاء ، زكى بن علاء ٥٨٩
ابن العماد الحنبلى ٦٢
ابن الفوطى ١٦٨ ، ٦٥٧
ابن مسعود ١٦٧ ، ٦٤٣
ابن المعـــلا ٧٥
ابن النـــديم ٧٠

أبو اسحق بن شهريار ٣٨٨
أبو بكر بن الحسن بن فورك ١٧٣
أبو بكر الصديق ١٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٨ ، ٥٢٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٨ ، ٦٤٤
أبو بكر بن فورك
= محمد بن الحسين
أبو بكر القفال المروزى ٦٥
أبو بكر النساج ٦٣
أبو بكر الواسطى
= محمد بن موسى
أبو جعفر الترشيزى ٣٩٠
أبو جهل بن هشام ٤٣٥ ، ٥٠٩ ، ٦٤٠
أبو جهير ٦٤٤
أبو الحارث البنانى ٦٥٩
أبو حازم المدنى ١٣١ ، ١٧٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١
أبو حامد الدوستانى المروزى ٢٤٩
أبو الحسن بن سالبه ٦٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٧
أبو الحسن الفارسى ١٧٦
أبو حفص الحداد ٣٣٣ ، ٣٤٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٨ ، ٥٤١
أبو حلمان الدمشقى ١٣٧ ، ٥٠١
أبو حمزة البغدادى البزاز ١٣٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢١ ، ٤٨٩ ، ٥٢٧
أبو حمزة الخراسانى ١٣٣ ، ٣٥٨
أبو حنيفة النعمان — الامام
= النعمان بن ثابت
أبو الخير الاقطع ٥٤٦
أبو الخير الخمار ٢٢
أبو الدرداء
= عويمر بن عامر
أبو ذر جندب بن جناده ٢٨٨ ، ٤٠٥ ، ٥٩٠
أبو ذر الغفارى
= أبو ذر جندب بن جناده
أبو ريحان البيرونى ٢٢
أبو سعيد القرمطى ٦٨
أبو سعيد بن أبى الخير ٥ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٧ — ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ — ٦٣ ، ٦٥ — ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ٢١٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٧ ، ٤٧٣ ، ٥٦١ ، ٥٩١
أبو سعيد الخدرى ١٦٧ ، ٦٤٤
أبو سعيد الهجويرى ٨٢ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٩٧
أبو سهل الصعلوكى ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٦٢
أبو طالب ، الشيخ ٣٨٨
أبو طالب ، عم النبى ٥١١
أبو طالب المكى ٣١
أبو طاهر الحرمى ٢٦٢ ، ٥٣٣
أبو طاهر المكشوف ٣٨٨
أبو طلحة المالكى ٥٦٦
أبو العباس الشرمقانى ٣٨٩
أبو عبد الله الابيوردى ٣٣٦ ، ٣٣٧
أبو عبد الله ثوبان ٢٨٩

أبو عبد الله الخضرى ٦٥
أبو عبد الله بن خفيف ٥٦٨
أبو عبد الله الخياط ٣٧٦
أبو عبد الله الرودبارى ٥٦١
أبو عبيده عامر بن عبد الله الجراح ٢٨٦
أبو عبيس
= عويم بن ساعد
أبو عثمان الحيرى
= سعيد بن اسماعيل
أبو العلا عفيفى ٩ ، ١٧٩
أبو على بن أحمد العثمانى ، خواجه امام ١٥٨
أبو على الأسود ، المروزى ٢٥٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٥٦٨
أبو على الداستانى ٣٨
أبو على الرودبارى
= أحمد بن محمد بن القاسم
أبو على زاهر
= زاهر بن أحمد
أبو على القرمسينى ٢٣٨
أبو على الكاتب ٦١
أبو عمرو الدمشقى ٢٣٣
أبو عمرو بن نجيد السلمى ١٥٥ ، ٥٤٠
أبو الفتح بن سالبه بن أبو الحسن ابن سالبه البيضاوى ٣٨ ، ٤٩ ، ٣٨٨
أبو فراس همام ، الفرزدق ٢٨٠ ، ٢٨١
أبو الفضل بن اسد ٣٩١
أبو الفوارس الكرمانى
= شاه بن شجاع
أبو القاسم بشر بن ياسين
= بشر بن ياسين
أبو القاسم الحكيم ٥٨٤
أبو القاسم السدسى ٣٨٧
أبو القاسم المروزى ٤٧٠
أبو قتاده ٢٧٢
أبو كبشه ٢٨٧
أبو لبابه بن عبد المنذر ٢٨٩
أبو محمد الباثغرى ٣٩١ ، ٥٦٨
أبو محمد الجوينى ٦٦
أبو مسلم الخراسانى (المروزى) ٦٠٤
أبو مسلم بن غالب الفارسى ٣٨ ، ٤٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٥٦١ ، ٥٩١ ، ٦٥٦
أبو مسلم الفارسى
= أبو مسلم بن غالب
أبو مسلم المغربى ٤٧١
أبو المعالى الجوينى ٦٦
أبو معمر الاصفهانى ١٤٨ ، ٢٥٢
أبو موسى الاشعرى
= عبد الله بن قيس
أبو نصر السراج الطوسى ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٨٧
أبو النصر العراق ٢٢
أبو نواس — أبو على
= الحسن بن هانىء
أبو هريره ١٧٣ ، ٢٨٩ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦
أبو اليسر
= كعب بن عمرو بن وهب
أبو يعقوب ، الاقطع ٣٦٢
أبو يعقوب النهرجورى ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٤٨٦

أبو يوسف ٣٢١ ، ٥٢٧
الابيوردى
= أبو عبد الله
أحمد بن أبى الحوارى ، أبو الحسن ١٣٢ ، ٢١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٤٣ ، ٦٤٥
أحمد البخارى ٥٦٤
أحمد بن حرب النيسابورى ٦١٢
أحمد بن الحسين ، الجريرى ، أبو محمد ١٣٣ ، ١٦٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٥٢٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٠
أحمد بن حماد السرخسى ٧٧ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٧٨ ، ٣٩٠ ، ٤٢٤ ، ٦١١
أحمد بن حنبل ، الامام ١٣٢ ، ١٧٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٥٢٧
أحمد بن خرقان ٣٨٩
أحمد بن خضروية ، البلخى — أبو حامد ١٠٣ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٧٦ ، ٢٤٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٥٨٤
أحمد السمرقندى ٧٨ ، ٥٩٨
أحمد بن سهل ، الأدمى — أبو العباس ١٣٣ ، ٣٦١
أحمد بن عاصم ، الانطاكى — أبو عبد الله ١٣٢ ، ٣٣٩
أحمد عليشاه ١٨٦
أحمد بن عيسى ، الخراز — أبو سعيد ٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ، ٤٩١ ، ٦١٤ ، ٦١٩
أحمد الغزالى ٦٣
أحمد بن فاتك بن سعيد ، أبو الفاتك ٢٦٤
أحمد بن محمد ، الشقانى — أبو العباس ٧ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٣٤ ، ١٧٨ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٤٣٧ ، ٦٤٢ ، ٦٥٩
أحمد بن محمد ، القصاب — أبو العباس ٤٨ ، ٦٦ ، ١٣٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٥٧١ ، ٦٤٢
أحمد بن محمد ، النورى — أبو الحسن ٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٤٠٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٦٠ ، ٥١١
أحمد بن محمد خالد بن مرداس غلام الخليل ٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٢١
أحمد بن محمد بن القاسم ، الرودبارى — أبو على ٦١ ، ١٣٣ ، ٣٦٩ ، ٤٧٥ ، ٤٩٤ ، ٥٣٤ ، ٦٥٣ ، ٦٥٨
أحمد بن محمود ١٧٣
أحمد بن سروق ، أبو العباس ١٣٣ ، ٣٥٨
أحمد بن المظفر بن أحمد بن حمدان ٣٨٤
أحمد النجار السمرقندى ٣٩٠
أحمد بن يحيى الجلاء ، أبو عبد الله ١٣٢ ، ٢٣٣ ، ٣٤٦
أخى الزنجانى
= شقيق فرج

اديب الكمندى ٣٨٩ ، ٥٨١
أرسلان نشاه بن سعود ٢٠
الازدى — أبو على
= شقيق بن ابراهيم
اسحاق الموصلى ٦٤٧
اسحق ، النبى ٢٣٥
اسدى ٢٢
اسعاد عبد الهادى قنديل ٦
الاسفرايينى
= ابراهيم بن محمد
اسماعيل ، النبى ٢٧٤ ، ٤٩٣ ، ٥٩٨
اسماعيل بن سبكتكين ١٦
اسماعيل الشاشى ٣٩١
الاصطخرى ٦٩
الأصفهانى
= أبو معمر
= على بن سهل
الأصفهانى — أبو الحسن
= على بن محمد
افشين ٦٥٣
الاقطع
= أبو الخير
= أبو يعقوب
أكبر ، سلطان ٨٨
الب ارسلان ١٩ ، ٢٠
البتكين ١٥
أم كلثوم ابنة فاطمة ٦٠٧
الامام الخزامى ، خواجه ٤٧ ، ٧٧ ، ٤٦١
أمية بن أبى الصلت ٦٤٥
أنس بن مالك ٢٠٥ ، ٣٢٧ ، ٥٢٧ ، ٥٦٣ ، ٥٨٦
الأنصارى = عبد الله
الانطاكى — أبو عبد الله
= أحمد بن عاصم
الانطاكى — أبو محمد
= عبد الله أحمد بن خيبق
أوريا بن حنان ٤١٤
أويس القرنى ١٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٣
ايتاه ٨٣ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٨٥
ايواز خان ٨٨
أيوب ، النبى ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٤٩١

(ب)

الباب الفرغانى — عمر ٧٤ ، ٧٥
بابك ٦٥٣
الباثغرى
= أبو محمد
الباقر — أبو جعفر
= محمد بن على بن الحسين بن على برسبا بنت اليات ٤١٤
برصيصا ٥١٤
البزاز
= أبو حمزة البغدادى
بزرجمهر ٦٤٩
البسطامى — أبو يزيد
= طيفور بن عيسى
بشر الحارث الحافى ١٣٢ ، ٢٢٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٤٠٧ ، ٥٢٧
بشر ياسين ، أبو القاسم ٦٢

البصرى — أبو بكر
= محمد بن سيرين
البصرى — أبو على
= الحسن بن أبى الحسين
البغدادى ١٠٣
بلال مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام ٢٨٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤
البلخى
= الحسين بن الفضل
البلخى — أبو حامد
= أحمد بن خضرويه
البلخى — أبو عبد الله
= محمد بن الفضل
بلعم بن باعوراء ٥١٤
بلقيس ٤٦٤
بلوشيه ٨٣ ، ١١١ ، ١٨٥
البنانى
= أبو الحارث
بندار بن الحسين ٤٨٩
بنى اسرائيل ٤٢٣ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦
بنى قار ٢٨٨
بنى هاشم ٢٧٦
بهاء الدين النقشبندى ١٦٢
بهار ١٠٩ ، ١٧٧
بهرامشاه الثانى ٢١
بهرامشاه بن مسعود ٢٠ ، ٢١
البوشنجى — أبو الحسن
= على بن أحمد بن سهل
البيرونى
= أبو ريحان

(ت)

تاج الأولياء ، الشيخ ٤٤
الترشيزى
= أبو جعفر
التسترى — أبو محمد
= سهل بن عبد الله

(ث)

ثابت بن الوديعة ٢٨٩
ثعلبة ٥٩٣
الثقفى — أبو على
= محمد عبد الوهاب
ثوبان
= أبو عبد الله
الثورى
= سفيان بن سعيد بن مسروق

(ج)

الجاحظ — أبو عثمان
= عمرو بن بحر
جالوت ٤١٤ ، ٤٩٦
جبريل ٨٧ ، ٢٦١ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣١٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٥٤٧ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٥٨١ ، ٦٢٥ ، ٦٥٦
الجرجانى — أبو القاسم
= على الجرجانى
الجرخى
= يعقوب بن عثمان بن محمد الجرديزى
= قسورة بن محمد
جريج ٤٦٦ ، ٤٦٧

الجريرى — أبو محمد
= أحمد بن الحسين
الجشتى — معين الدين
= حسن السنجرى
جعفر الخلدى ٤٢٤
جعفر (بن محمد) بن على بن الحسين بن على الصادق — أبو محمد ١٣١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
جعفر بن نصير ، الخلدى — أبو محمد ١٣٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
الجلاء — أبو عبد الله
= أحمد بن يحيى
جلال الدين الرومى ٣٧ ، ٦٦ ، ١٥٩ ، ١٦١
الجمهى
= عبد الله بن بدر
الجنيد بن محمد بن الجنيد ، البغدادى أبو القاسم ٢٩ ، ٣١ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ — ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ — ٣٦٣ ، ٣٦٦ — ٣٦٨ ، ٣٨٠ ، ٤١٠ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٩٠ — ٤٩٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ — ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٤ ، ٥٣٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٥ ، ٥٥٠ ، ٥٦٤ ، ٥٧٤ ، ٥٧٧ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠ ، ٦٠٥ ، ٦١٤ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٤١ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣
الجوزجانى — أبو على
= الحسن بن على
جويدرى دين محمد بن جويدرى دين غلام رسول ٩١
الجوينى
= أبو محمد
= أبو المعالى
الجوينى — أبو جعفر
= محمد بن على
جيبال ، ملك البنجاب ١٦

(ح)

حاتم بن عنوان الاصم ، أبو عبد الرحمن ١٣٢ ، ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٣٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٢
حاجى خليفة ١١١
حاجى نور محمد سادو ٨٨
الحارث بن اسد ، المحاسبى — أبو عبد الله ٢٩ ، ١٠٣ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٨ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٩ ، ٣٦٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ — ٤١٠ ، ٤٦٠ ، ٤٩٠ ، ٥٢٧ ، ٥٥٠ ، ٥٨١
حارثة بن سراقة ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٤٦٠ — ٤٦٢
حبيب بن سليم ، الراعى — أبو حليم ١١٧ ، ١٣١ ، ١٧٤ ، ٢٩٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
حبيب العجمى ١٣١ ، ١٧٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

حبيبى
= يحيى حبيبى
الحجاج بن عمرو الاسلحى ٢٩٠
الحجاج بن يوسف الثقفى ٢٩٨
الحداد — أبو حفص
= أبو حفص
الحرمى
= أبو طاهر
الحرمى — أبو جعفر
= محمد بن الحسين
الحزامى — الامام
= الامام الحزامى
حسان بن ثابت ٦٥٩
الحسن ، الامام ٤٣
الحسن بن أبى الحسين ، البصرى
أبو على ١٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٧٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،
٢٩٩ ، ٤٦٩ ، ٦٠٨
حسن بن اسحق بن شرفشاه —
أبو القاسم الفردوسى الطوسى ٢٢
حسن السرخسى ، أبو الفضل ٤٧ ،
٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٣٧٩ ،
٤١٨ ، ٤٦١
حسن السنجرى ، الجشتى — معين
الدين ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٤
الحسن بن على ، أبو محمد ١٣١ ،
٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
٥٦٢ ، ٦٥٩
الحسن بن على ، الجوزجانى —
أبو على ٧١ ، ٣٥٩ ، ٤٥١
الحسن بن محمد ، الدقاق — أبو على
٤٨ ، ٦٤ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ٣٧٧ ،
٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٦١٥
الحسن بن منصور الملحد البغدادى
٦٨ ، ٣٦٢
حسن بن المؤدب ٤٨ ، ٧٧ ، ٣٧٧
الحسن بن هانى ، أبو نواس —
أبو على ١٩٨
حسين السمنانى ٣٨٩
الحسين بن على بن أبى طالب ،
أبو عبد الله ١٣١ ، ٢٧٧ —
٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٤٠٥
الحسين بن الفضل البلخى ٥٢٧
حسين مجيب المصرى ٩٥
الحسين بن منصور ، الحلاج —
أبو المغيث ٢٩ ، ٣١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٧ — ٧٠ ، ٧٤ — ٧٦ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ٢٦٤ ،
٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٨٧ ،
٤١٩ ، ٤٣٦ ، ٤٦٠ ، ٤٨٩ ،
٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ،
٥٤٥ ، ٥٥٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠
الحصرى — أبو الحسن
= على بن ابراهيم
حفص المصيصى ٥٦٧
حفصة ٥٦٤
الحكيم الترمذى
= محمد بن على
حكيم بن على بن الحسين السيركانى
٣٨٩
حمدون بن أحمد بن عمار ، القصار —
أبو صالح ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
١٨٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٣٧ ،
٤١٢ ، ٤٦٠ ، ٤٩٠

حمزه بن عبد المطلب ٥٢٤
حمزه المحب ٣٩٠
حواء ٥٩٨
حيان بن خارجة ٤٣٣
الحيرى — أبو عثمان
= سعيد بن اسماعيل

(خ)

خالد بن الوليد ٤٦٨
خباب بن الارت ٢٨٦
خبيبا (خبيب) ٤٥٥
الختلى — أبو الفضل
= محمد بن الحسن
الخدرى
= أبو سعيد
الخراز — أبو سعيد
= أحمد بن عيسى
الخراسانى
= أبو حمزه
الخرقانى — أبو الحسن
= على بن أحمد
خسرو شاه بن بهرامشاه ٢١
الخضر ٧١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٥٣ ،
٣٥٤ ، ٣٦٥ ، ٤٧٣ ، ٥٣٠ ،
٥٨٨
الخضرى
= أبو عبد الله
الخلدى — أبو محمد
= جعفر بن نصير
الخليل
= ابراهيم
الخمار
= أبو الخير
الخواص — أبو اسحق
= ابراهيم بن أحمد
الخواص — أبو الحسن
= سمنون بن عبد الله
الخياط
= أبو عبد الله
خير النساج — أبو الحسن
= محمد بن اسماعيل

(د)

داناكنج بخسن لاهورى (لقب
للهجويرى ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٧ ،
٩٠ — ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥
داراشكوه ٤٤ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
١٩ ، ١٦٢
الدارانى — أبو سليمان
= عبد الرحمن بن عطية
الداستانى
= أبو على
الداستانى — أبو عبد الله
= محمد بن على
داود ، النبى ٢٤٩ ، ٤١٤ ، ٤٢٨ ،
٤٩٦ ، ٥٦٤ ، ٥٧٥ ، ٥٩٧ ،
٦١٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
داود السلجوقى ١٧ ، ١٩ ، ٢٠
داود بن على بن خلف ٣٤٧
داود بن نصير ، الطائى —
أبو سليمان ١٣٢ ، ١٧٤ ، ٢٤٣ ،
٢٨٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٩٥
الدراج ١٦٨ ، ٦٥٧
الدراقطنى ١٥٥
الدقاق — أبو على = الحسن
بن محمد

دلف بن جحدر ، الشبلى — أبوبكر
٢٩ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ،
١٩٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٢٥ ،
٤٤١ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ،
٤٩٨ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٦ ،
٥٣٤ ، ٥٤٨ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ،
٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،
٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٥ ، ٦١٩ ،
٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٤١ ، ٦٥٣ ،
٦٦٢ ، ٦٦٣

الدمشقى
= أبو حلمان
= أبو عمرو

(ذ)

ذبيح الله صفا ١٦١
ذو النون المصرى ، أبو الفيض ٢٩ ،
١٣٢ ، ١٦٧ ، ٢٣١ ، ٣١١ ،
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٩ ، ٣٤٨ ،
٣٥٥ ، ٤٣٠ ، ٤٤٠ ، ٤٦٠ ،
٤٧٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٥١٥ ،
٥١٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٥ ،
٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٦٠٥ ، ٦٥٢ ،
٦٥٣

(ر)

رابعة العدوية ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٠٣
الرازى — أبو زكريا
= يحيى بن معاذ
الرازى — أبو يعقوب
= يوسف بن الحسين
الراعى — أبو حليم = حبيب ابن سليم
راى راجو ، نائب لاهور ٨ ، ٨١
ربيعه ٢٩١
رجاء بن حيوه ٣١١
رحبه مالك بن طوق ١٦٩
رستم بن دستان ٤٠
رضوان ٤٦٧
الرقام ٤٢١
الرقى
= ابراهيم بن داود
الرقى — أبو بكر
= محمد بن داود
رنجيت سنغ ٨٨ ، ٩٠
الرودبارى
= أبو عبد الله
= أحمد بن محمد بن القاسم
رويم بن أحمد ، أبو محمد ١٣٢ ،
١٤٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٣٤٦ ،
٣٤٧ ، ٤٢٥
ريو ٨٣ ، ٨٤ ، ١١١ ، ١٨٥

(ز)

زابل (جد رستم بن دستان) ٤٠
زاهر بن أحمد ، أبو على ٦٥ ، ٣٧٩
زائدة ٤٦٧
زرارة بن أوفى ٦٤٤
زكريا ، النبى ٢٣٥ ، ٤٦٥ ، ٦٠٩
زكى بن علاء ٣٨٧
زليخا ٣٤٨ ، ٤٤٠ ، ٥٥٤ ، ٥٨١ ،
٥٨٢ ، ٦١١
الزهراء
= فاطمة
الزهرى ٢٦٩

زوكوفسكى ٥١ ، ٥٢ ، ٩٨ ، ١١١ ،
١١٢ ، ١٤٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨
زيد بن الخطاب ٢٨٧
زيد بن عمر ٤١٥ ، ٦٠٧
زين العابدين — أبو الحسن
= على بن الحسين بن على بن أبى طالب
زينب بنت جحش ٤١٥

(س)

سارة ٦١٢
سالار الطبرى ٣٩٢
سالم بن عبد اله ٣١١
سالم بن عمير بن ثابت ٢٩٠
سالم مولى حذيفة اليمانى ٢٨٧
سائب بن الخلاد ٢٨٩
سبكتكين ١٥ ، ١٦
السدسى = أبو القاسم
السراج الطوسى — أبو نصر
= عبد الله بن على
السرخسى
= أحمد بن حماد
= لقمان
السرخسى ، أبو الفضل
= حسن
سرى بن المغلس ، السقطى — أبو الحسن ٢٩ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ،
٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٥ ،
٣٥٦ ، ٣٦٦
سعد الدين الكاشغرى ١٦٢
سعد القومطى ٣٦٢
السعدى الشيرازى ٩٠
سعيد بن أبى سعيد العيار ٣٩٢
سعيد بن اسماعيل ، الحيرى — أبو عثمان ١٣٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٤٠٨ ،
٤١٠ ، ٥٤٠
سعيد بن سلام ، المغربى — أبو عثمان ٦١ ، ١٣٣ ، ٣٧٠ ،
٤١٦ ، ٤٥٢
سعيد بن المسيب ١٣١ ، ٢٩٥
سعيد بن يزيد ، النباجى — أبو عبد الله ٣٣٠ ، ٣٥٠
السفرى — أبو العلاء
= عبد الرحيم بن أحمد
سفيان الثورى
= سفيان بن سعيد بن مسروق
سفيان بن سعيد بن مسروق بن عدنان الثورى — أبو عبد الله ٢٤٢ ،
٣٠٣ ، ٣١١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ،
٣٤١ ، ٣٦٦ ، ٥٣٤
سفيان بن عيينه ٣١٠ ، ٣٣٠
السقطى — أبو الحسن
= سرى بن المغلس
سلمان الفارسى ، أبو عبد الله ٢٤٢ ،
٢٨٦ ، ٢٩٩ ، ٤٦٩ ، ٥٩٠
السلمى
= أبو عمرو بن نجيد
السلمى — أبو عبد الرحمن
= محمد بن الحسين بن موسى
سليم الراعى ٣٢٧
سليمان ، النبى ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٤٦٤ ،
٤٦٥
السمرقندى
= ابراهيم

السمرقندى
= أحمد السمرقندى
= أحمد النجار
السمنانى
= حسين
سمنون بن عبد الله ، الخواص —
أبو الحسن ٢٩ ، ١٣٣ ، ٣٤٨ ،
٣٤٩ ، ٤٨٩ ، ٥٢٧ ، ٥٥٢ ،
٥٥٥
سمنون المحب .
= سمنون بن عبد الله
السنائى ٣٧ ، ٦٦ ، ١٥٩ ، ١٦١
سنجر ٩٤
سهل بن عبد الله ، التسترى —
أبو محمد ٢٩ ، ٦٨ ، ١٤٨ ،
١٥٣ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ٣٥١ ،
٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ،
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٦٠ ، ٤٧٠ ،
٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ،
٥٣٨ ، ٥٤٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦١ ،
٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٦ ، ٥٨٤ ،
٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٩
سهل بن محمد ، ابن عطاء —
أبو العباس ٦٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤٨٩ ،
٥٧٥ ، ٦٤٢ ، ٦٦٣
السهلكى ٣٧٨ ، ٣٨٩
السيارى — أبو العباس
= القاسم بن مهدى
السيد الامام
= المظفر بن أحمد بن حمدان
سيدنى جيرولد ١٨٨
السيركانى
= حليم بن على بن الحسين
= على بن الحسين

(ش)

شابور ٣٧١
الشاشى
= اسماعيل
الشافعى
= محمد بن ادريس
شاه بن شجاع ، الكرمانى —
أبو الفوارس ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ،
٢٤٩ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٥٩٧
الشبلى — أبو بكر
= دلف بن جحدر
شداد ٤٥٨
الشرمقانى
= أبو العباس
شريك بن عبد الله ، أبو عبد الله
٣٠٣ ، ٣٠٤
شعيب بن موسى ٢٧٤
الشقانى — أبو العباس
= أحمد بن محمد
شقيق بن ابراهيم ، الازدى —
أبو على ١٣٢ ، ١٧٦ ، ٣٢٣ ،
٣٢٦ ، ٥٢٧ ، ٦٠٤
شقيق البلخى
= شقيق بن ابراهيم
شقيق فرج ٣٨٨
الشيرازى — أبو الحسن
= على بن بكران
شيرين ، جاريه حسان بن ثابت ٦٥٩

(ص)

الصاحب بن عباد ٢١
الصادق — أبو محمد
= جعفر (بن محمد) بن على
بن الحسين صالح المرى ٦٤٤
الصديقة = عائشة
الصعلوكى = أبو سهل
الصنعانى = عبد الرزاق
صنوان بن البيضاء ٢٨٨
صهيب بن سنان ٢٨٧
= محمد بن المصباح

(ط)

الطابرانى ٤٦١
طاووس الفقراء
= أبو نصر السراج
الطائى — أبو سليمان
= داود بن نصير
طغرلبك ١٨
الطوسى — أبو النصر
= أبو النصر السراج
طيفور بن عيسى ، البسطامى —
أبو يزيد ٢٩ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ،
٧٦ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ٢١٣ ،
٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٣١٧ ،
٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ،
٤١٤ ، ٤١٦ — ٤١٨ ، ٤٣٠ ،
٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٧٦ ،
٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ،
٤٩٩ ، ٥١٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ،
٥٣٤ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣ ، ٥٧٦ ،
٥٧٧ ، ٥٨١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ،
٦٠٤ ، ٦٢٠ ، ٦٣٢ ، ٦٦٢

(ع)

العارف ٣٩١
عالمكير المغولى ٩٠
عائشة — الصديقة ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
٢٨٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٥٦٤ ،
٥٧٧ ، ٦٤٩
العباس بن على ٤٢١
عبد الله أحمد بن خيبق ، الانطاكى —
أبو محمد ١٣٢
عبد الله الانصارى ٦٨ ، ١٥٦ ،
١٦٣ ، ١٧٧
عبد الله بن أنيس ٢٩٠
عبد الله بن بدر الجمهى ٢٨٨
عبد الله بن جعفر بن أبى طالب
٦٠٧ ، ٥٦٢
عبد الله بن حنظلة ٦٤١
عبد الله بن خبيق ، أبو محمد ٣٤٠
عبد الله بن رباح ٢٧٢
عبد الله بن سعد بن أبى السرح
٦٥١
عبد الله بن على السراج ، الطوسى —
أبو نصر ٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ١٤٤ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤
عبد الله بن عمر ٢٨٨ ، ٤٣٣ ، ٤٢٢ ،
٤٦٨
عبد الله بن قيس، أبوموسى الاشعرى
١٥٧ ، ٦٤٧
عبد الله بن المبارك المروزى ١٣١ ،
١٧٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٥١٦ ،
٥٤٥
عبد الله بن محمد ، المرتعش —
أبو محمد ١٥٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٦٧

عبد الله بن مسعود ، الهذيلى — أبو مسعود ٢٨٦
عبد الحليم محمود ١٥٨
عبد الحميد ٩١
عبد الرحمن بن عطيه ، الدارانى — أبو سليمان ١٣٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٦٠ ، ٥٢٧
عبد الرحمن بن محمد ، النيسابورى — أبو الفتوح ١٥٨
عبد الرحمن بن نظام الدين أحمد ، نور الدين الجامى ٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨
عبد الرحيم بن أحمد ، السفرى — أبو العلاء ٣٩٢
عبد الرزاق الصنعانى ٣١٠
عبد الرشيد بن محمود ١٥ ، ٢٠
عبد الكريم بن هوازن ، القشيرى — أبو القاسم ٧ ، ٩ ، ٣٣ — ٣٨ ، ٤٧ — ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٥ ، ١١٧ — ١١٩ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٥ — ١٥٨ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤٦١ ، ٥٨٤ ، ٥٥٤
عبد الملك السامانى ١٥
عبد النعيم محمد حسنين ٥
عبد الواحد بن علوان ١٦٩
عبيد الله احرار ، خواجه ١٦٢
عتبه بن ربيعة ٦٤٠
عتبه بن غزوان ٢٨٧
عتبه الغلام ٤٠٧
عتبه بن مسعود ٢٨٦
العتبى — أبو منصور
محمد بن عبد الجبار
عثمان بن أبى على (والد الهجويرى) ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤
عثمان بن عفان ١٣٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣
العراق = أبو النصر
عسجدى ٢٢
عسكر بن الحسين ، النخشبى — أبو تراب ١٣٢ ، ١٧٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨
العطار — فريد الدين
= محمد بن ابراهيم بن مصطفى
عكاشة بن محصن ٢٨٨
العلاء بن الحضرمى ٤٦٨
العلوى = ابراهيم بن سعد
= محمد بن الحسن
على (جد الهجويرى) ٤٥
على بن ابراهيم ، الحصرى — أبو الحسن ٥٩ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٢٣ ، ٦٢٣ ، ٦٥٣
على بن أبى طالب ، أبو الحسن ٤٣ ، ١٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٥١٠ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٦٣ ، ٥٨٢ ، ٦٠٧ ، ٦٥٩

على بن أبى على الاسود ، أبو الحسن ٥٠ ، ٣٩٠
على بن أحمد الخرقانى
أبو الحسن ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٣٤ ، ٣٧٧
على بن أحمد ، المزين الكبير — أبو الحسن ٤٩٨
على بن أحمد بن سهل ، البوشنجى أبو الحسن ٢٣٩ ، ٥٤١
على بن اسحاق ٣٩١
على بن بكار ٥٦٧
على بن بكران ، الشيرازى — أبو الحسن ٣٨٨ ، ٤٨٨
على بن بندار الصيرفى ٢١٠ ، ٢٣٦
على الجرجانى ، أبو القاسم ٧ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦١ — ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٧٨ ، ٢٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٨٣ ، ٤٣٧ ، ٤٧٢ ، ٥٨٦
على بن حسن الكرمانى ، خواجه ٣٨
على بن الحسين ، السيركانى ، خواجه ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٣٨٩
على بن الحسين بن على بن أبى طالب زين العابدين ١٣١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
على بن خشرم ٣١٦
على بن سهل الاصفهانى ٥٩٧ ، ٥٩٨
على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى ، أبو الحسن ٥ ، ٧ — ١٠ ، ١٥ ، ١٧ — ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ — ٣٦ ، ٣٨ — ٥٣ ، ٥٥ — ٦٥ ، ٦٧ — ٧١ ، ٧٣ — ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ — ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ — ١٢١ ، ١٤٣ — ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٥ — ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٧ — ١٧٩ ، ١٨٢ — ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٣٠٥ ، ٣٣١ ، ٣٦٣ ، ٣٨٥ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤٣٤ ، ٥٠١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٤٣ ، ٥٦٥ ، ٥٨١ ، ٥٨٩ ، ٥٩٨ ، ٦٠١ ، ٦١١ ، ٦٢٢ ، ٦٥٩ ، ٦٦٨
على بن عمرو ، القزوينى — أبو الحسن ٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٣٨١
على قويم ١٨٧
على بن محمد (بن سهل) ، الاصفهانى أبو الحسن ١٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢
على المرتضى ، الامام ٤٣
على بن مسعود ٢٠
على بن موسى الرضا ٣٢٥
على النصرابادى ٦٨ ، ٣٣٧
عليشير ١٦٣
عمار بن ياسر ، أبو اليقظان ٢٨٦
عمر بن الخطاب ٩٤ ، ١٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨

٤٩٥ ، ٥٠٩ ، ٥٤٦ ، ٦٠٧ ،
٦٤١ ، ٦٤٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥٩
عمر بن سالم ، النيسابورى — الحداد أبو حفص ١٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
عمر بن الشريد ٦٤٥
عمر بن عبد العزيز ٣١٠
عمرو بن بحر ، الجاحظ — أبو عثمان ١٩٨
عمرو بن عثمان المكى ٦٩ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ٣٠٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٤١٩ ، ٥٥٢
عنصرى ٢٢
عويم بن ساعد ، أبو عبيس ٢٨٩
عويمر بن عامر ، أبو الدرداء ٢٨٨ ، ٤٦٩
العيار = سعيد بن أبى سعيد
عيسى ، النبى ٧٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٨٨ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤ ، ٥٠٣ ، ٥١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٠

(غ)

الغزالى — حجة الاسلام — أبو حامد = محمد بن محمد بن محمد
غضائرى ٢٢
غلام الخليل = أحمد بن محمد بن خالد
غلام سرور ٤٣ ، ٤٤ ، ٨٥ ، ١٠٣
الغنوى — أبو مرشد = كنار بن حصين

(ف)

فارس ١٣٧ ، ٥٠١
الفارسى = أبو الحسن
الفارمدى — أبو على = الفضل بن أحمد
الفاروق — عمر = عمر بن الخطاب
فاطمة ، الزهراء ٢٧٥ ، ٢٨٠
فاطمة ، زوجة أحمد بن خضروية ٣٣٢ ، ٣٣٣
فاطمة ، زوجة الباب ٤٧٢
فرانتز روزنتال ١٠٠
فرخزاد بن مسعرد ١٥ ، ٢٠
فرخى ٢٢
فردوسى = حسن بن اسحق
الفرزدق = أبو فراس همام
فرعون ٣١٤ ، ٤٥٨ ، ٥٩٣
فريد الدين كنج شكر ٩٠ ، ٩٤
الفزازى = مروان بن معاوية
الفضل بن أحمد ، الفارمدى — أبو على ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٣٨٣
فضل الله بن محمد ، الميهنى — أبو سعيد ١٣٤ ، ٢١٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٣١
الفضل بن الربيع ، أبو العباس ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١
الفضيل بن عياض ، أبو على ١٣٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٩ ، ٤٠٧ ، ٥٢٧ ، ٥٧٤
فيروز الدين ، مولوى ٨٨

(ق)

قابوس بن وشمكير ٢١
قابيل ٦١٠

القادر بالله ١٦ ، ١٧ ، ٢٤
قارون ٥٩٣
قاسم غنى ٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩
القاسم بن مهدى ، السيارى — أبو العباس ٧٧ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ٣٦٩ ، ٤٦٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨
القرمسينى = أبو على
القرمطى = أبو سعد
قرن ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
قريش ٢٨٠
القزوينى ٤٢
القزوينى — أبو الحسن = على بن عمرو
القزوينى — أبو عمرو = على بن عمرو
قسورة بن محمد الجرديزى ٣٩٢
قشير بن كعب ١٥٧
القشيرى — أبو القاسم = عبد الكريم بن هوازن
القصاب — أبو العباس = أحمد بن محمد
القصار — أبو صالح = حمدون بن أحمد بن عمار
القطب ٣٥٨ ، ٤٦٣
القومطى = سعد
قيس العامرى ٥٩٧

(ك)

الكاتب = أبو على
الكاشغرى = سعد الدين
الكتانى — أبو بكر = محمد بن على بن جعفر
كعب بن عمرو بن وهب بن معقل ، أبو اليسر ٢٩٠
الكلاباذى ٣١ ، ١٥١ ، ١٥٢
كنار بن حصين ، الغنوى — أبو مرشد ٢٨٧
كنج بخش (لقب للهجويرى) ١٠٤

(ل)

لاهورى (لقب للهجويرى) ٤٧
لبيد بن ربيعة بن مالك ٦٤٥
لقمان السرخسى ٤١٨
ليلى ٤٩٩

(م)

المارستانى = ابراهيم
مالك بن دينار ١٣١ ، ١٧٤ ، ٢٤٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٥٨٣
مأمون الثانى ٢١ ، ٢٢
مانى ٦٥٥
المجنون ٤٩٩
المحاسبى ، أبو عبد الله = الحارث بن اسد
محمد الآبلاقى ٣٩١
محمد بن ابراهيم بن مصطفى بن شعبان الهمدانى ، فريد الدين العطار ٩ ، ٣٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٧
محمد بن أحمد ، أبو الحسن بن شمعون ٢١٧ ، ٢٥٦
محمد بن أحمد المقرى ، أبو عبد الله ٢٣٦
محمد بن ادريس ، الشافعى — أبو عبد الله ١٣٢ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ،

٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٥٢٧ ، ٥٩٢
محمد بن اسماعيل ، خير النساج — أبو الحسن ١٣٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٥٢٧ ، ٦٣١
محمد بن اسماعيل المغربى ، أبو عبد الله ١٣٣ ، ٣٥٩
محمد اقبال ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٢
محمد بارسا ٦٨ ، ١١١
محمد بن الحسن ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٥٢٧
محمد حسن الاعظمى ٩٥
محمد بن الحسن الختلى — أبو الفضل ٧ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٣٠٥ ، ٣٥٣ ، ٣٨٠ ، ٤١٦ ، ٤٥٨ ، ٤٧٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٣٦ ، ٦٥٣
محمد بن الحسن العلوى ٤٣٦
محمد بن الحسين ، الحرمى — أبو جعفر ١٢٠ ، ١٢١ ، ٣٩١
محمد حسين فاضل ديوبندى ١٨٧
محمد بن الحسين بن فورك ، أبو بكر ٤٩٩
محمد بن الحسين بن موسى ، السلمى — أبو عبد الرحمن ٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ١١٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣٢٥ ، ٥٨٤ ، ٦٥٠
محمد بن الحكيم ، أبو عبد الله ٣٩٢
محمد خان ٩٠
محمد بن خفيف ، أبو عبد الله ٦٨ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٤٦٠ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٥٣١
محمد بن داود الدينورى ، الرقى — أبو بكر ٦٥٧
محمد الدين ٥٢ ، ٥٣
محمد بن زكريا ٦٨ ، ٢٤٨ ، ٣٦٢
محمد بن سلمة ٣٨٩
محمد بن سيرين ، البصرى — أبو بكر ٣٠٢
محمد شاه ٨٨
محمد عباسى ١٧٧
محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ٧٥ ، ٩٢ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٩١ — ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ — ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ — ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ — ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ — ٢٨٨ ، ٢٩٠ — ٢٩٣ ، ٢٩٩ — ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،

٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ — ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٦٣ — ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ — ٥٤٠ ، ٥٤٢ — ٥٤٤ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ — ٥٦١ ، ٥٦٣ — ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٢ ، ٥٧٥ — ٥٧٨ ، ٥٨٠ — ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ — ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ — ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٥ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٣ — ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٥٦ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧
محمد بن عبد الجبار ، العتبى — أبو منصور ٢٢
محمد عبد الوهاب ، الثقفى — أبو على ٢١١
محمد بن على ، الجوينى — أبو جعفر ٣٨٩
محمد بن على ، الداستانى — أبو عبد الله ٤٨ ، ١٣٤ ، ٣٧٨
محمد بن على بن جعفر ، الكتانى — أبو بكر ٥٧٠
محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، الباقر — أبو جعفر ١٣١ ، ٢٨١ ، ٢٣٤
محمد بن على الحكيم الترمذى — أبو عبد الله ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ٢٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٤٣٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٥٨٤
محمد بن عليان ، النسوى — أبو جعفر ٤٣٧
محمد بن عمر ، الوراق الترمذى — أبو بكر ٧١ ، ١٣٣ ، ١٤٨ ، ٢١١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٥٨٤
محمد بن الفضل ، البلخى — أبو عبد الله ١٣٣ ، ٢١٠ ، ٣٥٢ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٥٢٧ ، ٥٧٣
محمد بن كعب القرظى ٣١١
محمد بن محمد بن محمد ، الغزالى — حجة الاسلام أبو حامد ٩ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٦٣
محمد بن محمود الغزنوى ١٧ ، ١٩
محمد بن مسروق ٦٦٣
محمد بن المصباح ، الصيدلانى — أبو جعفر ٧٤ ، ١٤٧ ، ٣٨٧ ، ٥٠١
محمد المعشوق ٣٩٠
محمد بن المنور ٥ ، ٦٧ ، ١٥٩
محمد بن موسى ، الواسطى — أبو بكر ١٣٣ ، ١٩٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٦٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٧ ، ٥١٨

محمد بن واسع ١٣١ ، ١٧٤ ، ٣٠١ ، ٥١٧ ، ٥٧٦
محمود بن سبكتكين ١٥ — ١٧ ، ٢٠ — ٢٥ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٩٢ ، ٥٥٢
محمود الشريف ١٥٨
محمود بن مودود ٢٠
محمود النيسابورى ٣٩٠
المدنى = أبو حازم
المرتعش — أبو محمد
= عبد الله بن محمد
مروان ، صحابى ٦٥٩
مروان بن معاوية الغزازى ٣٣٠
المروزى = أبو بكر القفال
= أبو حامد الدوستانى
= أبو على الأسود
= أبو القاسم
= عبد الله بن المبارك
مريم ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٨٣ ، ٦٠٩ ، ٦٢٠
المزين الكبير = على بن أحمد المستملى البخارى ١٥١
مسطح بن أثاثه بن عباد ٢٨٩
مسعر بن كدام ٣٠٣ ، ٣٠٤
مسعود ٥٦٨
مسعود بن ابراهيم ٢٠
مسعود بن الربيع القارى ٢٨٨
مسعود بن محمود ، سلطان غزنوى ١٥ ، ١٧ — ١٩ ، ٢٣ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٧٩
مسيلمه الكذاب ٥٢٤
مضر ٢٩١
المظفر بن أبى سعيد بن أبى الخير ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ٣٩٠
المظفر بن أحمد بن حمدان النوقانى ، السيد الامام — أبو حامد ٧ ، ٤٨ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ١٣٤ ، ١٧٨ ، ٣٨٤ ، ٦٥٠
مظفر الكرمانى ، خواجه
= المظفر بن أحمد بن حمدان
معاذ بن الحارث ٢٨٩
معاوية ٢٧٨ ، ٦٥٩
معروف بن فيروز ، الكرخى — أبو محفوظ ٢٩ ، ١١٧ ، ١٣٢ ، ١٤٦ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩
معروف الكرخى
= معروف بن فيروز
معين الدين حسن السنجرى ٤٦
المغربى = أبو مسلم
المغربى — أبو عبد الله
= محمد بن اسماعيل
المغربى — أبو عثمان
= سعيد بن سلام
المغيرة بن شعبه ٥٨٣
المقداد بن الأسود ٢٨٦
المكشوف = أبو طاهر
المكى = أبو طالب
ملكشاه السلجوقى ٢٠
المنصور ، أبو جعفر ٣٠٣ ، ٣٠٤
منصور بن عمار ، أبو سرى ١٣٢ ، ٣٣٨
مهدى توحيدى بور ١٦٣
مهرجهنو ٨٨

مودود بن مسعود ٨ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٨١
موران ٩٠
موسى ، النبى ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣٨٢ ، ٤٠٦ ، ٤١٥ ، ٤٦٤ ، ٥٠٣ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧٧ ، ٦١٦ — ٦١٨ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥
مؤمن خان ٨٨
ميان غلام جيلانى ٨٨
ميكائيل ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٧٩
الميهنى — أبو سعيد
= فضل الله بن محمد

(ن)

نافع ٤٢٢
النباجى — أبو عبد الله
= سعيد بن يزيد
النخشبى — أبو تراب
= عسكر بن الحسين
النساج = أبو بكر
النسوى — أبو جعفر
= محمد بن عليان
نصر بن أحمد السامانى ٢٤
النصر أبادى = على
النصر ابادى — أبو القاسم
= ابراهيم بن محمد بن حموية
النضر بن الحارث ٥٠٢ ، ٦٤٠ ، ٦٥١
النعمان بن ثابت ، الامام أبو حنيفة ٥٧ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٧٤ ، ٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٣٠٢ — ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٥٣ ، ٥٢٧
النمروذ ٢٧٢ ، ٤٥٨ ، ٥٧٣
النهرجورى = أبو يعقوب
نواب ناصر ٩٠
نوح ٢٧٦ ، ٦١٦
نوح ، عيارى ٤١٢
نوح بن منصور السامانى ١٦
نور الدين شريبه ١٥٦
النورى — أبو الحسن
= أحمد بن محمد
نوفل بن حيان ٣٠٥
النيسابورى
= أحمد بن حرب
= على بن بندار
= محمود
النيسابورى — أبو حفص الحداد
= عمر بن سالم
النيسابورى — أبو الفتوح
= عبد الرحمن بن محمد
نيكولسون ، مستشرق
انجليزى ٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٦٢ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨

(هـ)

هابيل ٦١٠
هاجر ، زوجة ابراهيم عليه السلام ٢٧٤ ، ٦١٢
هارون ، النبى ٥٠٣
هارون الرشيد ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١

الهجويرى — أبو الحسن
= على بن عثمان بن أبى على
الهذيلى — أبو مسعود
= عبد الله بن مسعود
هرم بن حيان ١٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
هشام بن عبد الملك بن مروان ٢٧٩، ٢٨٠ ، ٢٨١
هيوان تسانج ٤٠ ، ٤١

(و)

الواسطى — أبو بكر
= محمد بن موسى
الوراق الترمذى — أبوبكر
=محمد بن عمر
وندرى — الشيخ ٣٨٨

(ى)

ياقوت الحموى ٤٠
يحيى ، النبى ٢٣٥ ، ٣٣٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٠
يحيى حبيبى ٤١ ، ١١٨
يحيى بن معاذ ، لرازى — أبو زكريا ١٣٢ ، ١٤٨ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٣٠٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٦٠ ، ٥٥٦ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦
يزيد بن معاوية ٢٧٩
يعقوب ، النبى ٢٨٢ ، ٤٩٩ ، ٥٥٤، ٥٨٢ ، ٦١٥
يعقوب بن عثمان بن محمد الجرخى ١١١
يوسف ، النبى ٢٢٩ ، ٣٤٨ ، ٤٢٧، ٤٤٠ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥٥٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٦١١ ، ٦٤٢
يوسف بن الحسين ، الرازى — أبو يعقوب ١٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨

فهرس اسماء الاماكن

(آ)

آجود ، قلعه ٢٠
آذربيجان ٧ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ٢٥٣ ، ٣٨٨ ، ٦٥٨
آسيا الوسطى ١٦
آمل ٣٧٦
آيا صوفيه ١٥٨

(ا)

الأبله ١٦٨ ، ٦٥٧
أبيورد ٣٠٨ ، ٣٣٧
أربابها ٤١ ، ٤٤
استو ١٥٦
أصفهان ١٧ ، ٢١ ، ٣٥١ ، ٣٥٦
أفغانستان ٧ ، ٤٠ ، ٩٠
أوزكند ٤٧٢
ايران ٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٦١ ، ١٨٧

(ب)

باب كوار ٣٨
باكستان ٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٩٢، ٩٤
الباميان ١٦
بانيار ٥٩ ، ٧٥ ، ٣٨١
باورد = أبيورد
بخارى ٢١ ، ٧٨
بست ١٩
بسطام ٧٦ ، ٣١٨ ، ٣٧٨
البصرة ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٠٦ ، ٢٩٣، ٣٣٤ ، ٦٥٧
بغداد ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٥٦٧ ، ٦٢٢ ، ٦٥٨
بلاد العجم ١٦
بلخ ١٦ ، ٤٠ ، ١٧٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٣، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٥٢
بنارس ١٦
البنجاب ١٦ ، ٤٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٤
بياس ، نهر ٤٢
بيت الجن ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٣٨١ ، ٤٧٢
بيت المقدس ٣١٣ ، ٤٥١
بيضاورد ٣٦٢

(ت)

التركستان ٧ ، ١٦ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٦٥٥
ترمذ ٣٥٣ ، ٤٦٣
تستر ٤٧٠
تيه بنى اسرائيل ٤٦٣

(ج)

الجبال ١٧
جدة ٤٧١
جرجان ٧ ، ٧٣ ، ٧٦
جلاب ٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦
جناب ، نهر ٤٢
جهلم ، نهر ٤٢

جيحون ٣٥٤ ، ٤٧٣

(ح)

الحجاز ٢٦٢ ، ٣٤٩ ، ٥٦١
حلوان ٥٦٢
حيرة نيسابور ٤١٢

(خ)

خاوران ٦٥ ، ٦٦
خراسان ٧ ، ٨ ، ١٦ — ١٩ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٩ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٧٦ ، ٢٦٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤٠٤ ، ٤٧٤ ، ٥٨١ ، ٦٤٨
خرقان ٣٧ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٣٧٨
خوارزم ١٦
خوزستان ٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٤٧ ، ٣٦٣
خيوه ٢١

(د)

داندانقان ١٨
دجلة ١٦٨ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ، ٦٥٧
الدكن ١٦
دمشق ٥٩ ، ٧٥ ، ٢٧٩ ، ٣٨١ ، ٤٧٢ ، ٥٨٩

(ر)

راجبوتانا ٤٢
راوى ، نهر ٤٢ ، ٨١
الرملة ٧٥ ، ٥٨٩
روبال ، قلعة ٢٠
الروم ٤٣٩ ، ٤٥٦ ، ٦٥٥
الرى ١٧ ، ٢١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٥٣٤

(ز)

زابلستان ٤٠

(س)

سامرا ٣٥٧
سنلج ، نهر ٤٢
سرخس ١٧ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤١٨ ، ٤٢٤ ، ٤٦١
سمرقند ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٣٥٢
السند ٤٢
السهل الهندى الخصيب ١٦
سوريا ٧ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٩
سيستان ١٩

(ش)

الشام ٢٣ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٣٠ ، ٣٨٧
شلاتك ٧٤ ، ٤٧٢
شيراز ٤٨٨

(ص)

الصفا والمروه ٥٧٤
الصين ٥٠٣

(ط)

طبرستان ١٦ ، ٢١ ، ١٣٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨
طخارستان ١٦ ، ٤٠
طشقند ١٨٥
طهران ٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٧
الطور ٤٦٤ ، ٦٢٥

طوس ٣٧ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٢٤٦ ، ٣٨٠ ، ٤٧٢

(ع)

عبادان ٤٦٩
العراق ٧ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٥٢ ، ٣٨٧ ، ٤٦٨ ، ٥٠١ ، ٥٩٠ ، ٦٢٢ ، ٦٤٨
عرفات ٥٧٢ ، ٥٧٤
عسفان ٢٨١

(غ)

غزنه ٧ — ١٠ ، ١٥ — ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٤٨ ، ٢٥٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٩١
غزنين = غزنه
الغور ، جبال ١٦

(ف)

فارس ٧ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦٣ ، ٣٨٧
الفرات ٢٩٣ ، ٢٩٩
فرشاور (بشاور) ٤٢
فرغانه ٧٤ ، ٤٧٢
فيد ٣٤٩

(ق)

قزوين ٧ ، ٧٣
قصدار ١٥
قندهار ٤٠
قهستان ١٣٤ ، ٣٨٨
قومس ٧٦ ، ١٣٤ ، ٣٨٨

(ك)

كابل ١٦ ، ٢١ ، ٤٠
كابلستان ٤٠
الكجرات ٤٢
كراجى ١٠٣
كربلاء ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢
كرخ بغداد ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣
كرمان ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٥٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٨٩
كسرى ، قلعه ١٩
كمش ٢٦٦
كمند ٥٨١
الكوفه ٢٧٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٥٧ ، ٤٣٦ ، ٥٢٦ ، ٥٨٦ ، ٦٠٦ ، ٦٤٤
كوهتيز ، قلعه ١٧

(ل)

لاهور ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٣ — ١٠٥ ، ١١٦ — ١١٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٣٠٠
اللكام ٣٨١
لهاور = لاهور
لوه ، قلعه ٤١

(م)

ماريكله ١٩
ما وراء النهر ٧ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٣٩١ ، ٥٢٩ ، ٦١١
المدينة ٢٦٢ ، ٢٨١ ، ٣٢٧ ، ٤٥٥ ، ٤٦٨
مرو ١٨ ، ٣٧ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٤٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٩٣ ، ٥٦٨ ، ٦٠٤ ، ٦٥٠
مرو الروذ ٢٤٧

المزدلفه ٥٧٢ ا ٥٧٤
المشعر الحرام ٥٧٢
مصر ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٢٢٩ ،
٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٤٧٠ ،
٥٧٧ ، ٦٥٣
المغرب ٢٣
مكة ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ ،
٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٥٠ ،
٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٩٩ ، ٥٣٠ ،
٥٣٣ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ،
٥٨٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥
ملتان ٤٢ ، ٣٠٠
المنصورة ٤٢
منى ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٨٦
مولتان ٤٢
ميهنه ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٣٧٩ ، ٤٧٣

(ن)

نجد ٢٩١
نسا ١٧ ، ٧٧ ، ١٤٧ ، ٤٩٣
نيسابور ٧ ا ، ١٨ ، ٢٤ ، ٣٧ ،
٤٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٣٣٣ ،
٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ،
٣٤٦ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ،
٥١٤ ، ٥٦١ ، ٦١٢

(هـ)

هانسى ، قلعه ١٧
هجوير ٧ ، ٤٠ ، ١ ٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٩٢ ، ٩٤
الهملايا ١٦ ، ٤٢
الهند ٧ ، ٨ ، ١٦ — ٢٢ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٦٠ ،
٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٨ ،
٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
١١٨ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
٣٠٠ ، ٤٨٣ ، ٥٠٣ ، ٦٤٨ ، ٦٥٥
هوسى نا ٤٠
هياطيه (بهاطيه) ٤٢
هيلمند ، نهر ٤٠

فهرس الكتب الواردة فى متن كشف المحجوب

أسرار الخرق والملونات لعلى بن عثمان الهجويرى ٩٨ ، ١٠٢ ، ٢٥٣
بحر القلوب لعلى بن عثمان الهجويرى ٩٨ ، ١٠٢
بيان آداب المريدين لأبى عبد الله محمد بن على الترمذى ٥٨٤
البيان لأهل العيان لعلى بن عثمان الهجويرى ٩٨ ، ١٠١ ١٠٢ ، ٥٠٠
تاريخ أهل الصفة لأبى عبد الرحمن السلمى ١٤٥ ، ٢٨٩
تاريخ المشايخ لأبى عبد الله محمد بن على الترمذى ١٤٥
تصانيف أبى جعفر محمد بن المصباح الصيدلانى ٣٨٧
تصحيح الارادة للجنيد البغدادى ١٤٧ ، ٥٨٤
التفسير لأبى عبد الله محمد بن على الترمذى ٣٥٤
حكايات العراقيين ١٤٦ ، ٢٤٨
ختم الولاية لأبى عبد الله محمد بن على الترمذى ٧١ ، ١٤٧ ، ٣٥٣
رسائل أبى العباس السيارى ٤٩٣
الرعاية بحقوق الله تعالى لعلى بن عثمان الهجويرى ٩٨ ، ١٠٢ ، ٥٢١
الرعاية بحقوق الله لأحمد بن خضرويه البلخى ١٠٣ ، ١٤٨ ، ٥٨٤
الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبى ١٠٣ ، ١٤٨ ، ٣١٩
غلط الواجدين لأبى محمد رويم بن أحمد ١٤٧ ، ٣٤٧
الفناء والبقاء لعلى بن عثمان الهجويرى ٩٨ ، ١٠١ ، ٢٥٧
كتاب السلمى (طبقات الصرفية) ٣٢٥
كتاب السماع لأبى عبد الرحمن السلمى ١٤٥
كتاب فى شرح كلام الحسين بن منصور الحلاج لعلى بن عثمان الهجويرى ٩٨ ، ١٠١
كتاب القشيرى (الرسالة) ٣٢٥
كتاب المحبة لعمرو بن عثمان المكى ١٤٤
اللمع لأبى نصر السراج الطوسى ٥٦٧ ، ٥٨٧
مرآة الحكماء لشاه بن شجاع الكرمانى ١٤٧ ، ٣٥٠
المرقعة لأبى معمر الاصفهانى ١٤٨ ، ٢٥٢
منهاج الدين لعلى بن عثمان الهجويرى ٦٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٩٢ ، ٢٨٤ ، ٣٦٤
النهج لأبى عبد الله محمد بن على الترمذى ١٤٧ ، ٣٥٣
نوادر الأصول لأبى عبد الله محمد بن على الترمذى ١٤٧ ، ٣٥٣

فهرس الطوائف والفرق والمذاهب والملل والنحل

الاباحيون ٣٤٣
ارباب الاحوال ٥٤٣
ارباب اللسان ٢٢٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٤٩٩
ارباب المعانى ٢٥٦
الاسماعيليون ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣
الاشعرية ٢٣
الامامية ٣١
اهل الالهام ٥١٢ ، ٥١٣
اهل السنة ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٦٩ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٩٤ ، ٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٠ ، ٦٣٩
اهل الصفة ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ٢٢٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٥٩٠
الباطنية ٣٢ — ٣٤ ، ٥٠٤
البراهمه ٥١٣
البهشميه ٥٣٧
التناسخية ٥٠٦
الثنوية ١٠٢ ، ٥٢١
الجنيدية ١٣٦ ، ٣٤٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٦
الحشوية ٣١ ، ١٣٦ ، ٤٤٧ ، ٤٧٤ ، ٤٨٤ ، ٥٣٠ ، ٥٥٩
الحكيمية ٧١ ، ١٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٤٤٢ ، ٤٧٩
الحلاجيون ٣٤٣ ، ٣٦٤ ، ٥٠١
الحلولية ١٣٧ ، ٣٤٣ ، ٤١١ ، ٥٠١ ، ٥٠٦ ، ٦٦٥
الحمدونية ٤٢٦
الحنفية ٢٣ ، ٢٤
الخرازية ١٣٧ ، ٣٤٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨٧
الخفيفية ١٣٧ ، ٣٤٣ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢
الخوارج ١٠٢ ، ٥٢٧
الدهرية ٤٨٤ ، ٥٢٢
الرافضة ٣٦٤
الروحانيون ٥٠٨
السالمية ٣٤٣
السهلية ١٣٦ ، ٣٤٣ ، ٤٢٦ ، ٥٣٨
السيارية ٧٧ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ٣٤٣ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠
الشافعية ٢٣ ، ٢٤ ، ١٥٧
الشيعه ٢٣ ، ٣٢ — ٣٤ ، ٥٠٣ ، ٦٢٧
الصائبة ٤٥٦
الصفسطائية (السفسطائيون) ١٢٨ ، ٢٠٩
الطباعيون ٥٢١
الطيفورية ١٣٥ ، ٣٤٣ ، ٤١٣ ، ٤١٨
الفارسيون ٣٤٣
الفلكيون ٥٢١
القدرية ١٩٦ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦
القراسطة ٢٤ ، ٥٠٣ ، ٦٢٧
القصارية ١٣٥ ، ١٨٣ ، ٣٤٣ ، ٤١٢
المالكية ٢٤
المترسمون ٣٣١
المكلمون ٢٢٥ ، ٤٤٩ ، ٥٠٢ ، ٥٢٧ ، ٥٥٠

المجسمه ٤٧٤ ، ٤٨٤
المجوس ٥٢١
الماسبية ١٣٥ ، ٣٤٣ ، ٤٠٤ ، ٦١٦
المرجئة ٢٦٤
المشبهه ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ، ٤٧٤ ، ٤٨٤ ، ٥١٢
المعتزله (اهل الاعتزال) ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٩٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٧٧ ، ٤٩٤ ، ٥١٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٧ ، ٥٣٧ ، ٦٣٨
المعطلة ٥١٢
الملاحدة (الملحدة) ١٢٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٦٤ ، ٤٥٣ ، ٤٧٥ ، ٤٩٥ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٥٥ ، ٥٨١ ، ٦٢٧
الملامتية (اهل الملامة) ١٨٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٣ ، ٣٣٧
الموسوسة ٦٢٧
النسطورية ٤٨٣
النصارى ٣٢٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٣ ، ٥٠٣ ، ٥٢٦
النقشبندية ١٦٢
النورية ١٣٦ ، ٣٤٣ ، ٤٢٠ ، ٥٦٣
اليهود ٥٠٢ ، ٥٠٦

«ثبت بأسماء المراجع»

(أ) المراجع العربية

احياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالى . القاهرة ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م (جـ ١ ، ٢ ، ٤)

أسرار التوحيد : محمد بن المنور ، ترجمة اسعاد عبد الهادى . القاهرة ١٩٦٦

باكستان المعاصرة : حافظ حمدى ، محمود الشرقاوى . القاهرة ، بدون تاريخ

بحث فى حقيقة شيخ صنعان : احمد ناجى القيسى بغداد ١٣٨٤هـ — ١٩٦٥م

بلدان الخلافة الشرقية : كى لسترنج ، ترجمة بشير فرنسيس ، كوركيس عواد . بغداد ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م

البلدان : اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح . النجف ، بدون تاريخ

تاريخ الأدب فى ايران : ادوارد براون ، ترجمة ابراهيم أمين الشواربى . القاهرة ، ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م

تاريخ البيهقى : أبو الفضل البيهقى ، ترجمة يحيى الخشاب ، صادق نشأت القاهرة ، ١٣٧٦هـ — ١٩٥٦م

تاريخ الشعوب الاسلامية : بروكلمان ، ترجمة نبيه أمين ، منير البعلبكى . بيروت ، ١٩٤٩م (جـ ٢)

تاريخ الفلسفة الاسلامية : حنا الفاخورى . بيروت ، ١٩٥٧ .

التصوف الثورة الروحية فى الاسلام : أبو العلا عفيفى . القاهرة ، ١٩٦٣ .

التعرف لمذهب اهل التصوف : أبو بكر محمد الكلاباذى . القاهرة ، ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م

التعريفات : على بن محمد الجرجانى . القاهرة ، ١٣٢١هـ .

تلبيس ابليس : أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . القاهرة ، ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨م .

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم ميتز ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ، ١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م (جزآن)

حضارة الهند : غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ، ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م .

الحياة الروحية فى الاسلام : محمد مصطفى حلمى . القاهرة ، ١٩٤٥م .

راحة الصدور : الراوندى ، ترجمة أمين الشواربى ، عبد النعيم محمد حسنين ، فؤاد عبد المعطى الصياد . القاهرة ، ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م .

الرسالة : أبو القاسم القشيرى (طبع عبد الحليم محمود) القاهرة ، ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م (جزآن)

سلاجقة ايران والعراق : عبد النعيم محمد حسين . القاهرة ، ١٩٥٩م .

شد الازار فى حط الأوزار عن زوار المزار : معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى ، تصحيح محمد قزوينى ، عباس اقبال . طهران ، ١٣٢٨هـ

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى . القاهرة ، ١٣٥٠هـ (جـ ٣)

صفوة الصفوة : أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . حيدر آباد ، ١٣٥٥هـ (جزآن)

ضحى الاسلام : أحمد أمين . القاهرة ، ١٩٥٦م (جـ ٣)

طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى (طبع نور الدين شريبه) . القاهرة ، ١٩٥٣م

الطبقات الكبرى : عبد الوهاب الشعرانى . القاهرة ، ١٣١٦هـ (جزآن)

ظهر الاسلام : أحمد أمين . القاهرة ، ١٣٥٢هـ (جـ ٣)

عوارف المعارف : أبو حفص عمر بن محمد السهروردى . القاهرة ، ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م

فتوح البلدان : البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى . القاهرة ، ١٣١٩هـ — ١٩٠١م (جـ ١)

الفتوحات الاسلامية : أحمد بن السيد زينى دحلان . القاهرة ، (بدون تاريخ) (جـ ١)

الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادى . القاهرة ، ١٩٤٨م .

الفصل فى الملل والنحل : ابن حزم الأندلسى . القاهرة ، ١٣١٧هـ (جـ ٤)

فهرس المخطوطات الفارسية : اعداد نصر الله مبشر الطرازى . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٦ — ١٩٦٧ (جـ ٢)

الفهرس : محمد بن اسحق بن أبى يعقوب النديم . القاهرة ، ١٣٤٨هـ

فهرست مؤلفات نور الدين عبد الرحمن الجامى : اعداد نصر الله مبشر الطرازى . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٤

فى التصوف وتاريخه : نيكولسون ، ترجمة أبى العلا عفيفى . القاهرة ، ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م

القصة فى الادب الفارسى : أمين عبد المجيد بدوى . القاهرة ، ١٩٦٣

قوت القلوب : أبو طالب محمد بن على المكى . القاهرة ، ١٣٨١هـ — ١٩٦١م (جزآن)

الكامل : على بن أبى الكرام (ابن الأثير) القاهرة ١٣٤٨هـ

كشاف اصطلاحات الفنون : التهانوى . كلكته ١٨٦٢ (جـ ١)

كشف الظنون : حاجى خليفه استانبول ١٣٦٢هـ — ١٩٤٣م (جزآن)

اللمع : أبو نصر السراج الطوسى (طبع عبد الحليم محمود) . القاهرة ، ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م

مختصر شرح الجامع الصغير : المناوى . القاهرة ، ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م ، (جزآن)

مروج الذهب : أبو الحسن على بن الحسين المسعودى . القاهرة ، ١٣٤٦هـ (جـزآن)
المعارف : ابن قتيبة الدينورى. القاهرة١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م .
معجم البلدان : ياقوت الحموى . طهران ، ١٩٦٥م (ج ١ — ٤ ، ٦)
الملامتية والصـوفية وأهل الفتوة : تحقيق أبى العلا عفيفى . القاهرة ، ١٣٦٤هـ — ١٩٤٥م .
مناهج العلماء المسـلمين فى البحث العـلمى : فرانتز روزنتال ، ترجمة أنيس فريحه . بيروت ، ١٩٦١ .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم : ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . حيدر آباد ١٣٥٨هـ (ج ٢ ، ٧ — ٩)
هدية العارفين : اسماعيل البغدادى . استانبول ، ١٩٥١ (ج ١)
وفيات الأعيان : ابن خلكان . القاهرة ، (بدون تاريخ) (جزآن)

(ب) المراجع الفارسيـة

أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ ابى‌سعيد : محمد بن المنور . طهران ، ١٣٣٢ هـ.ش.
تاريخ ادبيات در ايران : ذبيح الله صفا . طهران ، ١٣٤٢هـ.ش. (جزآن)
تاريخ ادبيات فارسى : هرمان آيته ، ترجمة رضا زاده شفق . طهران ، ١٣٣٧هـ — ١٩٥٨م .
تاريخ تصوف دار اسلام : قاسم غنى . طهران ، ٣٢٢هـ ش .
تذكرة الأوليـاء : فريد الدين العطار ، نشر نيكلسون . ليدن ، ١٣٢٢هـ — ١٩٠٥م (جزآن)
جامع التواريخ : رشيد الدين فضل الله . انقره ، ١٩٥٧ (مج ٢ ج ٤)
جهار مقاله : نظامى عروضى سمر قندى . ليدن ، ١٣٢٧هـ — ١٩٠٩م
خزينه الاصفاء : مفتى غلام سرور . لاهور ، ١٩١٤ (جزآن)
ديوان أبو سعيد أبو الخير : (جمع سعيد نفيسى) طهران ، ١٣٣٤هـ.ش .
زين الاخبـار : ابو سعيد عبد الحى بن الضحاك الكرديزى . طهران ، ١٣١٥هـ.ش .
سبك شناسى : محمد تقى بهار . طهران ، ١٣٢١ هـ.ش . (ج ٢)
سفينة الأولياء : محمد دارا شكوه . لكهنو ، ١٢٩٥هـ — ١٨٧٨م .
سلطنت غزنويان : خليلى . كابل ، ١٣٣٣ هـ.ش .
شعر العجم : شبلى النعمان ، ترجمة محمد تقى فخرداعى كيلانى . طهران ، ١٣١٦ هـ.ش . (ج ١)

طبقات ناصرى : منهاج السراج . كابل ، ١٣٤٢ هـ.ش .
طرائق الحقائق : معصو معليشاه . طهران ، ١٣١٨ هـ.ش. (ج ٢)
فهرست كتابهاى جابى فارسى : خنبا بامشار . طهران ، ١٣٣٧هـ (جزآن)
كشف المحجوب : على بن عثمان الهجويرى . طهران ، ١٣٣٦ هـ.ش .
نفحات الأنس : عبد الرحمن أحمد الجامى . طهران ، ١٣٣٦ هـ.ش.

* * *

تذكرة حضرت على هجويرى : حكيم سـيد أمين الدين أحمـد (اردو) لاهور ، ١٩٦٠
« بزم شوق » نشرية ماهيانه ادبى وفرهنكى : اكادمى فارسى ، كراچى . نوفمبر ١٩٦٣ .
(هلال) مجلة ادبى وفرهنكى . كراچى : شماره سوم ارديبهشت ١٣٣٢ هـ.ش جلد بنجم شماره اخردادماه ١٣٣٦ هـ.ش .

* * *